



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



الشبيبة

للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

لهيئة الإشراف

د. شاكرا الفحام المدير المسؤول

د. محمد خير فارس

د. نبيل عاقل

د. عبد الكريم رافق

د. أحمد بدر

محمد محفل

نظام كلاس رئيس التحرير

السنة الثامنة ، العددان ٢٥ - ٢٦ ، آذار - حزيران ١٩٨٧

● بدل الاشتراك السنوي :

للأفراد : (٣٠) ل.س. ثلاثون ليرة سورية

للمؤسسات : (٥٠) ل.س. خمسون ليرة سورية
(تضاف اليها اجور البريد)

البلاد الاجنبية : (١٠) دولارات اميركية (بما فيها اجور البريد) .

● يتم تسديد بدل الاشتراك بحوالة بريدية الى :

جامعة دمشق - لجنة كتاب تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية

او :

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركزي تحت
رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

● يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقة الاشتراك
بالبدل نفسه لكل سنة (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٦)

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق - لجنة كتابة تاريخ العرب

المكاتب : جامعة دمشق - كلية طب الاسنان ط ٣ - هاتف ٢٢٢٤٦١

دراسات تاريخية

١٩٨٧ / ١-٢

٢٥ - ٢٦

بهذا العدد تدخل مجلة « دراسات تاريخية » عامها الثامن ، ملتزمة ببنهجها وتوجهها ، يحدوها الامل في المضي قدما على دربها الطويل ، مسددة الخطا نحو الهدف المقصود والغاية المرجوة ، يؤازرها المؤرخون والمفكرون والباحثون العرب في كل مكان.

وبهذه المناسبة نرى من المفيد ان نذكر بأن هذه المجلة ليست غاية في حد ذاتها ، ولم يكن الغرض من اصدارها اضافة دورية تاريخية جديدة الى الدوريات العلمية المماثلة ، لكنها التوطئة والتمهيد لغاية اكبر ، وهدف اهم واخطر ، الا وهو كتابة تاريخ العرب باقلام عربية ورؤية عربية ، كتابة تنطلق من منظور وحدوي قومي ، وفهم حضاري للتاريخ ، وتلتزم المنهج التاريخي العلمي النقدي . فمجلة « دراسات تاريخية » اذا خطوة اولى ، بل خطوة من خطوات ، تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي ، والمشروع الام ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث التاريخي ، والكشف عن التيارات العميقة التي حركت تاريخ هذه الامة واعطته مساره الخاص وملامحه المتميزة النابعة من طبيعة الاحداث ، والظروف الاقليمية والدولية التي واكبتها واثرت في تطورها ، على صفحاتها تعرض الوقائع والافكار كيما يثبت الصحيح منها وينتفي كل مشوه او مصنوع . كل ذلك في جو من الحوار العلمي الهادئ الملتزم بأسلوب البحث العلمي الذي ينشر الحقيقة العلمية دون سواها ، في سبيل هدف قومي وعلمي جليل ، الا وهو كتابة تاريخ العرب في موسوعة عربية كاملة ، كتابة تنقي هذا التاريخ مما شابها أو لحق به على يد بعض الدارسين الذين جانبهم التوفيق أو قصروا عن ادراك الحقيقة ، أو تعمدوا تشويهها أو تجاهلها لغاية في نفوسهم ، فتتيح للأجيال العربية الناشئة وعي ماضي امتهم على حقيقته ، وصفاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها.

ان مجلة « دراسات تاريخية » ، وهي تتوجه بالشكر لكل من شاركها مسيرتها في السنوات السبع الماضية، وغذاها بشمرات فكره ونتاجه ، ترحب بكل قلم ، وبكل مقترح وراي يغني فكرتها ويساعدها على النهوض بأعباء مهمتها العلمية والقومية الكبيرة ، وتفتح صفحاتها لكل بحث يندرج في الاطار الذي رسمته لنفسها .

وانا لندرج ان تؤدي المجلة رسالتها وتبلغ غايتها .

دراسات تاريخية

العددان ٢٦ و ٢٥ ، آذار - حزيران ١٩٨٧

تقديم

٥

● البنية الاجتماعية والاقتصادية

٧

لمحلة باب المصلى (الميدان) بدمشق (١٨٢٧ - ١٨٧٥)

د . عبد الكريم رافق

● الادارة في الاندلس

٦٣

في عهد عبد الرحمن الداخل

د . نجدة خماش

● العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية

٨٠

في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس)

د . نعيم فرح

● مملكة يمحاظ (حلب)

١١٢

د . شوقي شعث

تنويه

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

● سورية في عصور ما قبل التاريخ

١٣١

د . سلطان محيسن

● حركة تدوين الانساب في العصر العباسي الاول

١٦٧

مريم محمد خير الدرع

● ذيول مؤرخي الصائبة على تاريخ الطبري

١٨٩

سميحة ابو الفضل

● دراسات تاريخية

٢٠٣ — الفهرس العام: ١٩٨٠ - ١٩٨٦ (الاعداد ١-٢٤)

٢١٢ — دليل الباحثين

دراسات تاريخية

٢٠١ / ١٩٨٧

٢٥ - ٢٦

البُنْيَةُ الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى (الميدان) بدمشق (١٨٦٥ - ١٨٧٥) *

د . عبد الكريم رافو
جامعة دمشق

المقدمة :

يتناول هذا البحث بالدراسة واحدة من أشهر محلات دمشق خارج السور هي محلة باب المصلى التي شكلت القسم الرئيسي من الميدان التحتاني وعرفت أساساً باسم ميدان الحصا . وكان هذا الميدان واحداً من أربعة ميادين ، تركزت الثلاثة الأخرى منها إلى الشمال والشرق والغرب من القصر الأبلق . (تقوم مكانه اليوم التكية السلیمانیة) ، الذي أنشاه الظاهر بيبرس المملوكي (١) . واستخدم الأيوبيون وخلفاؤهم المماليك ، بصورة خاصة ، الميادين لتدريب الفرسان ، وانتشرت هذه في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها من مدن السلطنة .

وسيعالج البحث الأهمية التاريخية لمحلة باب المصلى والبعد المكاني لها ، وكذلك البنى الاجتماعية والاقتصادية فيها . وسيولي أهمية خاصة للاندماج والتعايش بين فئات السكان في المحلة بالرغم من أصولهم ومذاهبهم المختلفة .

* أعد هذا البحث للمشاركة في الكتاب التكريمي للأستاذ الدكتور قسطنطين زريق رئيس جامعة دمشق سابقاً (١٩٤٩ - ١٩٥٢) وأستاذ شرف التاريخ العربي في الجامعة الأميركية في بيروت ، بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين .

يتميز ميدان الحصا ، الذي عرف بالميدان ، بموقعه الاستراتيجي وأهميته الاقتصادية والعسكرية والدينية ، لانه ربط دمشق بالمركز الرئيسي لانتاج الحبوب في حوران وكان واسطة التبادل التجاري بين دمشق وبين فلسطين والحجاز ومصر ونقطة المرور للحملات المتجهة من مصر الى دمشق سواء منها النظامية الطائفة للسلطنة المملوكية ام الثائرة عليها . وكان في العهد العثماني معبرا للقوات الثائرة القادمة من مصر التي احتلت دمشق ، مثل حملة علي بك الملوكي في عام ١٧٧١ ، وحملة محمد علي باشا في عام ١٨٣١ .

ولعب الميدان دورا هاما في الحركة الوطنية السورية في القرن العشرين بحكم موقعه الاستراتيجي والاقتصادي . بالاضافة الى ذلك كان للميدان دور هام في تسهيل سفر قافلة الحج الشامي الى الحجاز وتزويدها بالموث والجمال . وعرفت نهاية الميدان الجنوبية وما تزال باسم البوابة اختصارا لتعبر بوابة الله ، او باب الله ، لانها تؤدي الى بلاد الله وهي الاماكن المقدسة في الحجاز والقدس . ونظرا لهذه الاهمية فقد استقطب الميدان اعدادا كبيرة من السكان من المناطق المجاورة والبعيدة قدموا اليه للمتاجرة او هربا من الاضطرابات ، ولهذا ازداد امتداده باتجاه الجنوب واندمجت به بالتدريج قرية القبيبات ، وقدا طوله من باب الجابية الذي يربطه بدمشق الى نهايته الجنوبية ما يزيد على ثلاثة كيلو مترات ، ثم اخذ بالتوسع على الجانبين . ونظرا لهذا الامتداد والتوسع قسم الميدان اصطلاحا الى ثلاثة اقسام : الميدان التحتاني ، الاقرب الى دمشق ، والميدان الوسطاني ، والميدان الفوقاني الذي ينتهي بالبوابة . وتشكل محلة باب المصلى القسم الرئيسي من الميدان التحتاني (٢) .

تشق تسمية محلة باب المصلى من جامع المصلى فيها . وكانت منطقة الجامع تعرف قديما باسم المصلى ، وقد اختيرت منذ الفتح الاسلامي لهذا الغرض من قبل ابي عبيدة لاتساعها (٣) ، واستخدمت لايواء جماهير المصلين ، رجالا ونساء ، مدنيين وريفين ، في المناسبات الدينية مثل صلاة الاستسقاء وصلاة العيدين ، ولهذا عرف هذا المصلى اساسا بمصلى العيدين . وقد ذكر صاحب كتاب « منادمة الاطلال ومسامرة الخيال » ان الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب قد أنشأ في عام ١٢٠٩/٦٠٦ جامعا عند المصلى وجعله لصلاة العيدين ، وانه ، كما اورد ابو شامة « قد بنى له اربعة جدر مشرفة ، وجعل له ابوابا صونا لمكانه من نزول القوافل ، وجعل له محرابا من حجارة ومنبرا منها ، وعقدت فوقه قبة ، ثم عمل بعد ذلك في قبلته رواقان ومنبر من خشب » (٤) .

وقد شاع استخدام اسم المصلى او مصلى العيدين لهذا الجامع في كتابات الاخباري الدمشقي محمد بن طولون (١٤٧٦ - ١٥٤٦) ، من اواخر عهد السلطنة

الملوكية واوائل السلطنة العثمانية . ونسبت المحلة فيما بعد الى جامع باب المصلى وعرفت اختصارا بمحلة باب المصلى .

تعرف سجلات محكمة الميدان الشرعية محلة باب المصلى انها ظاهر دمشق تابعة للميدان التحتاني الذي شكل واحدا من ثمانية اقسام قسمت اليها دمشق في القرن التاسع عشر « في دفاتر الحكومة » (٥) ، وذلك لتسهيل جباية الضرائب منها (١) . وتستعمل السجلات هذه في غالب الاحيان العبارة التالية : ظاهر دمشق بمحلة باب المصلى بالزقاق (كذا) ، وفي حالات نادرة جدا تذكر : ظاهر دمشق بمحلة الميدان في باب المصلى بالزقاق (كذا) . والواقع ان محلة باب المصلى هي المحلة الوحيدة في الميدان بكامله وما عداها يشار اليه انه بمحلة الميدان بزقاق القرشي مثلا . وتعبير « المحلة » يطلق على منطقة بكاملها ، داخل دمشق وظاهرها ، مثل محلات السويقة والعقبة والقيمرية ومأذنة الشحم والخراب وباب توما . وتختلف حدود المحلة من وقت الى آخر .

ادى موقع محلة باب المصلى المتميز على المشارف الجنوبية لدمشق الى استقطاب فعاليات بشرية واقتصادية وعسكرية متنوعة ، معظمها من المناطق المجاورة والجنوبية ، وبعضها من المغرب العربي . وتنوع القادمون بتنوع المناطق التي اتوا منها ، والاهمال التي مارسوها ، والمذاهب التي اعتنقوها ، فكان بينهم ريفيون من قرى حوران وجبل العرب (الدروز) ، ومهاجرون من وادي التيم ، وفلاحون وتجار حبوب ، وبدو وتركمان واكراد ، ومسيحيون ودروز وسنة ، ومغاربة قدموا كجنود لبيعوا خدماتهم العسكرية او كعلماء ليجاوروا الاماكن الدينية او كمهاجرين من عنت الاحتلال الفرنسي والاوربي بعامة . وبالرغم من تنوع السكان هذا فان المميزات ، وبالتالي المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والبشرية لمنطقة الميدان قد جعلت من ساكنيه كتلة متراسة تحدثت السلطات المدنية الظالمة عبر العصور . فقد اشار ابن طولون الى مقاومة عوام وزعر (زعران) محلة باب المصلى حكم المماليك ، وكانت نقطة تجمعهم وتعاهدهم على القتال ومقاومتهم للسلطات هي مصلى العيدين . وبالمقابل اتخذ العصاة من المماليك محلة باب المصلى نقطة انطلاق لعصيانهم على الدولة لانها تتحكم بطريق المؤن والامدادات العسكرية القادمة من الجنوب (٧) . وفي العهد العثماني انطلقت اكبر ثورات الانكشارية المحليين على الحكم العثماني ، في عهد اسعد باشا العظم ، عام ١٧٤٦ ، من محلة باب المصلى (٨) . ولعب الميدان دورا رئيسا في الثورات على الفرنسيين ، وبخاصة الثورة السورية الكبرى في ١٩٢٥ ، كما تحدث زعاماته الحكومات الوطنية فيما بعد .

وقد اخترنا الفترة بين عامي ١٨٢٥ - ١٨٧٥ لأنها شهدت تطورات هامة ، محلية وعربية وعثمانية ، كان لها اثرها الفعال على البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى وغيرها من المحلات بنسب متفاوتة .

فهناك اولا الغاء الاتكشارية من قبل السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦ ، وكان الميدان المركز الرئيسي للاتكشارية اليرلية (المحلية) الذين كانوا بمعظمهم ، قيادات وافرادا ، دمشقيين بملابس عسكرية هدفهم المحافظة على امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية . ثم تلى ذلك احتلال قوات حاكم مصر محمد علي باشا لبلاد الشام (١٨٣١ - ١٨٤٠) . واعقب انسحابه عودة العثمانيين ومحاولاتهم فرض سلطتهم وادخال التنظيمات من الاعلى . وكانت أوروبا ، في اعقاب الثورة الصناعية ، تحاول هي الاخرى فرض نفوذها الاستعماري في المنطقة العربية ، على مختلف المستويات .

ونتج عن الازمات الاقتصادية والاجتماعية التي حلت ببلاد الشام بنتيجة هذه العوامل اضطرابات اجتماعية وتخلخل كبير في العلاقات الطائفية شجعت القوى الاستعمارية والعثمانية . واستطاع سكان محلة باب المصلى ، خلافا لما حدث في دمشق ، تحاشي اخطار هذه الاضطرابات بالرغم من كثرة المسيحيين في المحلة . وينتهي البحث في عام ١٨٧٥ ، أي بعد خمس عشرة سنة على احداث عام ١٨٦٠ ، بهدف دراسة اثار تلك الاحداث على الاندماج الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية بين فئات السكان في محلة باب المصلى . وقد ازدادت تلك العلاقات ، في الواقع ، انفتاحا وتراصا لمواجهة التحدي الاوربي الذي هددها جميعا على حد سواء .

وقد اخترنا خمس هينات من سجلات محكمة الميدان الشرعية التي تعنى بقضايا محلة باب المصلى ، تتألف كل عينة من وقائع سنة ونحوها ، موزعة بفواصل عشر سنوات تقريبا ، بحسب توافر السجلات ، بدءا من عام ١٨٢٥ .

وتعنى العينة الاولى بالمدة من ٧ رجب ١٢٤٠ الى ٧ رجب ١٢٤١ / ٢٥ شباط ١٨٢٥ الى ١٥ شباط ١٨٢٦ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٧) ، والعينة الثانية بالمدة من ٢٥ رجب ١٢٥٠ الى ٢٥ رجب ١٢٥١ / ٢٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ الى ١٨ تشرين الثاني ١٨٣٥ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٣٣) ، والعينة الثالثة بالمدة من فترة ربيع الاول ١٢٦٢ الى فترة ربيع الاول ١٢٦٣ / ٢٧ شباط ١٨٤٦ الى ١٧ شباط ١٨٤٧ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٩٢) ، والعينة الرابعة بالمدة من ٢١ محرم ١٢٧٩ الى ١٠ محرم ١٢٨٠ / ١٩ تموز ١٨٦٢ الى ٢٧ حزيران ١٨٦٣ (سجل محكمة الميدان رقم ٥٤٧) ، والعينة الخامسة بالمدة من ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠ الى ١٦ ذي الحجة ١٢٩١

٤/ شباط ١٨٧٤ الى ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٥ (سجلا محكمة الميدان (الكبرى) رقم ٦٥٣ و ٦٥٤) .

البعد المكاني لمحلة باب المصلى :

أكدت الدراسات الحديثة لبعض المدن العربية ومنها دمشق^(٩) ان الفعاليات الاقتصادية المتمركزة في الاسواق المتخصصة والتي تعتمد جزئيا على التجارة البعيدة، كالتوابل ، هي التي تشكل نواة المدينة . ويقوي من مركزية هذه الفعاليات وجود الجامع الرئيسي في المركز وما يلعبه من دور ثقافي وما يستدعي وجوده من نشاط اقتصادي . اما مقر الحاكم والقلعة فهما ثانويان في تقرير مركز المدينة بالرغم من انهما يستقطبان بدورهما نشاطا اقتصاديا ولكن من نوع خاص يرتبط بالاحتياجات العسكرية التي يوفرها في دمشق سوق تحت القلعة والسروجية وسوق الخيل ، وكذلك المقاهي حيث يتجمع العساكر . ونظرا لتمرکز الفعاليات الاقتصادية الكبرى والنشاطات الدينية في مركز المدينة فان مساكن كبار التجار والعلماء تجاور اماكن الفعاليات هذه ، ثم تتلوها مساكن الحرفيين قرب فعاليتهم الحرفية . وتنتشر بيوت اصحاب الدخل المحدود عند النشاطات الاقل دخلا قرب السور وبوابات المدينة . وتخترق هذه المناطق باتجاه المركز شوارع رئيسية لتسهيل تسويق البضائع ونقلها . اما الضواحي حيث تمتزج النشاطات المدنية والريفية فيتكيف شكلها حسب موقعها ونشاطها التجاري ، وتغيب فيها الاسواق الرئيسية المتخصصة وتقتصر على فعاليات اقتصادية متنوعة معظمها للخدمات . وتعرف هذه الاسواق غير المتخصصة بالسويقة .

ومثلما تقرر الفعاليات الاقتصادية شكل المدينة فانها تقرر ايضا شكل الضواحي . فمحلة باب المصلى مثلا ، شأنها شأن بقية اقسام الميدان ، تكيف شكلها بحكم موقعها والنشاطات الاقتصادية التي يقوم بها سكانها ، ولعبت دور الوسيط بين المستهلكين في المدينة والمنتجين في الريف .

ويحد محلة باب المصلى من الشمال جامع المرادية والسويقة المحروقة وحي المغاربة ، حيث خان المغاربة . وذكر احد الباحثين ان بابا من هذه الجهة كان يتحكم في الدخول الى المحلة ، وهو احد ثلاثة ابواب يفتح ثانيهما على الشارع السلطاني في المحلة وثالثهما على الجهة الجنوبية الشرقية منها^(١٠) . ولم يرد في سجلات محكمة الميدان الشرعية ذكر لهذه الابواب ربما لان اهتمام السجلات منصب على العقارات . وتشمل محلة باب المصلى من الجنوب زقاق المجتهد والنهاية الجنوبية لزقاق التيامنة ومنطقة القبة الحمراء . وفي حالتين من مئات الحالات التي حددت فيها سجلات محكمة

الميدان مواقع العقارات في محلة باب المصلى في فترة دراستنا ذكر موقع دار في محلة باب المصلى في زقاق الموصلي (١١) ، وموقع دار أخرى في محلة باب المصلى تجاه مقام سيدنا صهيب الرومي (١٢) . وكلا الموقعين يقعان في الميدان التحتاني ولكن الى الجنوب المباشر من منطقة القبة الحمراء التي تشكل النهاية الجنوبية من محلة باب المصلى .

وتنتشر محلة باب المصلى على طرفي الشارع الرئيسي المعروف بالسلطاني الذي يخترق الميدان بكامله ، وتنمركز حول جامع باب المصلى الذي يشكل المركز الرئيسي للأنشطة الدينية فيه ومحور تجمع الفعاليات الاقتصادية في المحلة . وقد وجدت مراكز دينية أخرى في محلة باب المصلى مثل جامع سيدنا بشارة الى الشرق من الشارع السلطاني (١٣) ، وجامع العمريه بزقاق الاربعين (١٤) ، ومرقد سيدي عسقلان قرب جامع المصلى (١٥) . ولكن هذه المراكز تبقى ثانوية جدا بالمقارنة مع الدور الرئيس الذي لعبه جامع المصلى في حياة المنطقة .

ويشكل الشارع السلطاني الشريان الاقتصادي الرئيسي لمحلة باب المصلى اذ تنتشر على طرفيه البوايك (البوائك) المعدة لبيع الحبوب ، كما توجد الدكاكين التي تقدم الخدمات للريفيين ، مثل الحدادة والنجارة وحلج القطن وغيرها . ويوجد المسلخ في زقاق متفرع عن السلطاني في الجهة الشرقية ، ويؤكد وجوده المتاجرة بالاغنام بين الريفيين والسكان المحليين . وإلى جانب هذا التجمع الرئيسي للفعاليات الاقتصادية في الشارع السلطاني تقوم دكاكين الافراد او تجمعات منها في الأزقة المختلفة وساحاتها لخدمة سكانها .

وتتوزع على جانبي الشارع السلطاني الأزقة السكنية ، وتكون كثيفة باتجاه الغرب ، بين السلطاني وزقاق المخللاتي الموازي له تقريبا . أما في الشرق فتخف الكثافة الى حد كبير ، وتقل تبعا لذلك الأزقة السكنية التي تحد من امتدادها الجنائس (١٦) المحيطة بالمصلى من الشرق وتلك التابعة للشاغور ، وكذلك تربة الباب الصغير (١٧) ، ولهذا تكثر في هذه الجهة البوايك الكبيرة التي تحتاج الى مساحات واسعة .

ولم يكن من الضروري انفتاح الأزقة من طرفيها على كل من الشارع السلطاني وزقاق المخللاتي ، فقد تنصل بزقاق آخر ينتهي باحد هذين الطرفين . والقصد من ذلك ، كما يبدو ، سهولة الدفاع عن الأزقة . ويقع معظم الأزقة بموازاة بعضها البعض ويتفرع عن بعضها أزقة فرعية او دخلات غير نافذة تفيد في الامور الامنية وفي الحفاظ على خصوصية الحياة العائلية . وليس هناك من زقاق واحد يجتاز الشارع السلطاني ويستمر في الجانب الآخر منه .

وتذكر سجلات محكمة الميدان في العينات التي قمنا بدراستها ثمانية وعشرين زقاقا ، بالإضافة الى الشارع الرئيسي السلطاني في محطة باب المصلى . والازقة هي: أبو البرغل ، أبو مائلة ، الأربعين ، بادر ، البقارة ، البوشي ، البيطار، التركمان ، التيامنة ، الجواني ، الحباله ، حمد ، الحوارنة ، الزين ، سكر ، السمان ، الشعرية ، عزام ، عسقلان ، القبة الحمراء ، القملة ، قولبة ، قويق ، المجتهد ، المخللاتي ، المزرمعة ، النشار ، والوسطاني .

وبعض هذه الازقة رئيسي وما زال قائما وبعضها فرعي اندمج في غيره . وترد معلومات في السجلات توضح اماكن وقوع عدد من الازقة وتسمياتها الاخرى ، فزقاق الأربعين يجاور زقاق التيامنة ، وزقاق بادر يشار اليه أحيانا بزقاق المصلى لقربه منه (١٨) ، وزقاق البقارة اشير اليه في عام ١٨٥٩ بزقاق البقارة الكبير (١٩) ، واستخدمت هذه الصفة في المخطط المرفق الموضوع نحو ١٩٣٤ ، مما يدل على توسع زقاق البقارة . ويجاور زقاق البيطار زقاق البقارة . ويتفرع زقاق حمد من زقاق بادر ، ويعرف زقاق الزين بزقاق جوبان (٢٠) نسبة الى بيت جوبان ، ولا تعرف أهمية هذا الاسم . وينسب زقاق عسقلان الى مرقد سيدي عسقلان ويمتد الى الشرق من الشارع السلطاني . وذكرت بركة سبيل سيدي عسقلان بالجوار (٢١) . واشير الى الزقاق الوسطاني بزقاق المصبنة .

ويلاحظ في الازقة اعلاه ان بعضها يرد ذكره لمرة واحدة في جميع العينات كما في زقائي النشار وقولبة في العينة الخامسة (١٨٧٤ - ١٨٧٥) ، وزقاق قويق في العينة التي تسبقها (١٨٦٢ - ١٨٦٣) . وهناك ازقة مثل التركمان والشعرية وعزام والقملة وبعض المواقع في الشارع السلطاني تقع ضمن منطقة القبة الحمراء . وقد اندثرت هذه القبة اليوم ويعرف مكانها بالمخفر . وفي غياب الدراسات الطبوغرافية المتخصصة تصعب معرفة الازقة التي اندمجت مع غيرها والازقة التي استحدثت .

ومما يلفت النظر تسمية بعض الازقة باسم قوم من الاقوام مثل زقاق التركمان او باسم المنطقة التي اتى الناس منها مثل زقاق التيامنة المنسوب الى وادي التيم ، وزقاق الحوارنة . وهناك اكثر من زقاق للحوارنة الى دمشق . وتعرف بعض الازقة باسم الاسر مثل زقاق بني سكر وزقاق بني المجتهد حيث تكثر العقارات السكنية والتجارية لهاتين الاسرتين وبخاصة اوقافهما الدرية . والمخطط الملحق بهذه الدراسة يبين عددا من الازقة ولكنه لا يشكل حصرا لها ولا يذكر التعديلات التي طرأت عليها .

ويبلغ عرض الزقاق الواحد بين ثلاثة وخمسة امتار . وتفصل بين الازقة دور

سكنية بسماكة تتراوح بين دارين وستة دور او اكثر ، كما يبين المخطط الملحق .
وطبيعي ان الازقة لم تكن متماثلة من حيث عدد الدور وكثافة السكان فيها .

وتوجد في الزقاق الواحد دخلة او اكثر غير نافذة تعرف به وتفتح عليها ابواب الدور ، مثل الدخلة بزقاق ابو مائلة والدخلة بزقاق المجتهد (دخلة بني المجتهد) ، ودخلة الياپوسي بزقاق التيامنة ، ودخلة المشاعلي بزقاق الوسطاني (٢٢) . وذكرت الزبوقة (الزبوقة) (٢٣) ، وهي زقاق ضيق نافذ في الغالب . ولبعض الازقة ساحة مثل ساحة دورة اللوزة ، او دور اللوز ، بزقاق التيامنة (٢٤) ، والساحة بالقبة الحمراء (٢٥) ، والساحة بزقاق الوسطاني (٢٦) وساحة الحباله (٢٧) . ووجدت تلة في بعض الازقة مثل تلة بيت سويم في زقاق المخللاي نسبة الى بيت ابي سويم في ذلك الزقاق (٢٨) . واشير احيانا الى تلة الزقاق كما في الزقاق الجواني (٢٩) . ويبدو ان للزقاق بابا يؤدي اليه بدليل ما ذكر عن باب الحباله قرب دخلة زقاق ابو مائلة (٣٠) . ولم ترد معلومات اخرى عن ابواب الازقة .

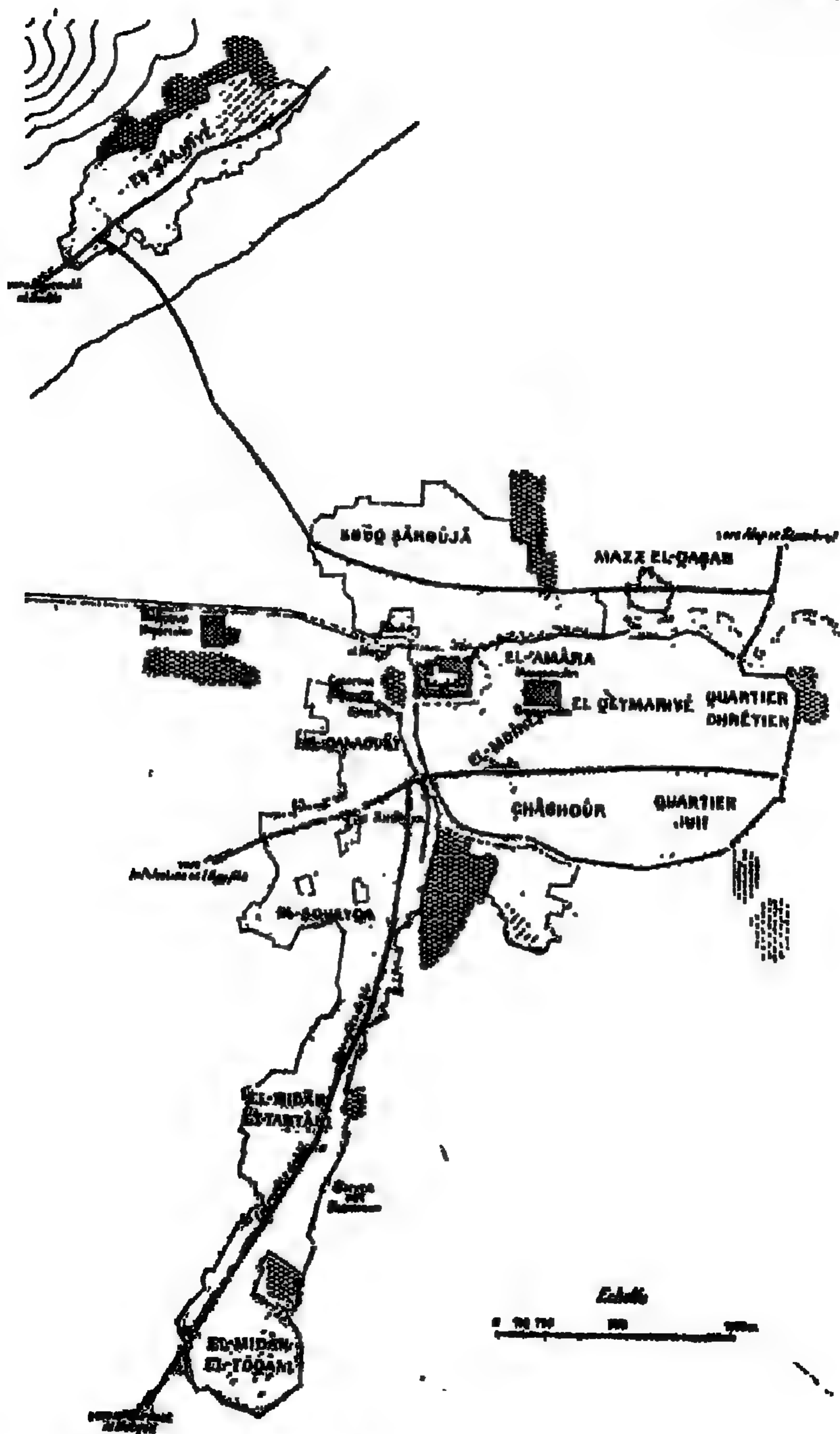
وجاء ذكر الحارة ضمن الزقاق كما في العبارة التالية: الدار بزقاق التيامنة بحارة الجوانية (٣١) ، وهذا يعني ان الحارة تفرع من الزقاق وربما دل ذلك على توسع الزقاق . وورد بالزقاق الجواني ذكر دار شيخ الحارة الى الشمال من دار جرى بيعها فيه (٣٢) ، ولا نعلم ما اذا كان شيخ الحارة هنا هو شيخ الزقاق او شيخ الحارة المتفرعة عن هذا الزقاق . كما ذكر لقب شيخ الشباب (٣٣) دون تعريف مكاني ولا ندرى اذا كان هذا اللقب يختص بحارة ام بزقاق ام بمحلة باب المصلى بكاملها ام انه مجرد لقب .

البنية الاجتماعية لمحلة باب المصلى :

يمكننا التعرف على الفئات الاجتماعية التي سكنت محلة باب المصلى من خلال عقود بيع وشراء العقارات السكنية فيها . وكانت الوحدة العقارية السكنية الاساسية هي الدار ، يليها مقسم الدار وهو قسم مفروز من الدار قائم بذاته ، ثم المربع وهو غرفة واسعة تشكل جزءا من الدار له استقلالته السكنية ضمن اطار حين يباع على انفراد ، ونظرا لرخصه كان الراغبون فيه من غير الميسورين . وهناك الفرنكة ، وهي غرفة علوية اشبه بالشرقة ، بيعت احيانا على انفراد .

وباستعراض الفئات التي اشترت او باعت افراديا العقارات السكنية كليا او جزئيا ، في محلة باب المصلى ، خلال الفترة ١٨٢٥ - ١٨٧٥ نتبين اية فئة اجتماعية اسهمت في شراء او بيع القارات اكثر او اقل من غيرها ، من فترة الى اخرى . وسنلاحظ ذلك من خلال العينات الخمس التي انتقيناها من سجلات محكمة الميدان الشرعية .

PLANCH X.



Damas au milieu du XIX^e siècle.

J. Sauvaget, 'Esquisse d'une histoire de la ville de Damas', RSI, IV (1934).

الفئات الاجتماعية المتداولة افراديا للمقارنات
العيينة الاولى : ٧ رجب ١٢٤٠ - ٧ رجب

المشترون : ٤٠

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الائمان بالقروش	النسبة
شيخ	١	٢.٥٠٪	٢٤	٣.٢٥٪	٥٦٥	١.٧٩٪
حاج	١٥	٣٧.٥٠	٢٧٣	٣٦.٩٩	١.٧٤١	٣٣.٩٤
سيد (شريف)	٥	١٢.٥٠	٨٧	١١.٧٩	٣٩٦.٠	١٢.٥١
عسكري (آغا ، جريجي)	٤	١٠.٠٠	٦٤	٨.٦٧	٣٧٨.٠	١١.٩٤
هادي (بلا لقب)	٦	١٥.٠٠	١١٠	١٤.٩١	٣١٩٥	١٠.١٠
نساء (٣ منهن مسيحيات)	٧	١٧.٥٠	١٤٤	١٩.٥١	٦٤٤٥	٢٠.٣٧
رجال مسيحيون	٢	٥.٠٠	٣٦	٤.٨٨	٢٩٦.٠	٩.٣٥
المجموع	٤٠	١٠٠.٠٠	٧٣٨	١٠٠.٠٠	٣١٦٤٦	١٠٠.٠٠

السكنية ، كليا او جزئيا ، المقطرة بالقراريط
٢٥/١٢٤١ شباط ١٨٢٥-١٥ شباط ١٨٢٦

البائصون : ٤٠

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الايمان	النسبة
—	—	—	—	—	—
١٣	٣٢.٥٠٪	٢٤٢	٣٣.٥٢٪	١١٠٠٩	٣٣.٢١٪
٣	٧.٥٠	٤٨	٦.٦٥	٢٣٦٠	٧.٢١
٣	٧.٥٠	٥٢	٧.٢٠	٢٧٢٠	٨.٢١
٦	١٥.٠٠	٩٥	١٣.١٦	٢٩٤٠	٨.٨٧
١١ (منهن مسيحية)	٢٧.٥٠	٢١٣	٢٩.٥٠	٨٦٣٦	٢٦.٠٦
٤	١٠.٠٠	٧٢	٩.٩٧	٥٤٨٠	١٦.٥٢
٤٠	١٠٠.٠٠	٧٢٢	١٠٠.٠٠	٢٣١٤٥	١٠٠.٠٠

العينة الثانية : ٢٥ رجب ١٢٥٠ - ٢٥ رجب ١٢٥١

المشترون : ٧

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القاريط	النسبة	الايمان بالقروش	النسبة
حاج	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	٥٠٠	٩ر٠٠
عسكري	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	١٣٠٠	٢٣ر٤٢
عادي	١	١٤ر٢٨	١٢	٨ر٣٣	٣٠٠	٥ر٤١
نساء (منهن مسيحية) ٣	٣	٤٢ر٨٨	٦٠	٤١ر٦٦	٢٨٥٠	٥١ر٣٥
رجال مسيحيون	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	٦٠٠	١٠ر٨٢
المجموع	٧	١٠٠ر٠٠	١٤٤	١٠٠ر٠٠	٥٥٥٠	١٠٠ر٠٠

٢٧/ تشرين الثاني ١٨٣٤ - ١٨ تشرين الثاني ١٨٣٥

البائعون : ١٠

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الائمان	النسبة
—	—	—	—	—	—
—	—	—	—	—	—
١	١٠٠٠	٢٤	١٣٠١٩	١٢٠٠	١٥٠٠٩
٧ (منهن مسيحية)	٧٠٠٠	١٢٨	٧٠٠٣٣	٥٢٥٠	٦٦٠٠٤
٢	٢٠٠٠٠	٣٠	١٦٠٤٨	١٥٠٠	١٨٠٨٧
١٠	١٠٠٠٠	١٨٢	١٠٠٠٠	٧٩٥٠	١٠٠٠٠

العينة الثالثة : غرة ربيع الاول ١٢٦٢ - غرة ربيع

المشترون : ٩

النسبة	الايمان بالقروش	السنة	مجموع القراريط	النسبة	عدد العقود	الفئات الاجتماعية
-	-	-	-	-	-	شيخ
٢٢ر٨٨	١٣٥٠	٢٦ر١٦	٣٤	٢٢ر٢٢	٢	حاج
٤١ر٥٣	٢٤٥٠	٣٦ر٩٢	٤٨	٥٥ر٥٦	٥	صادي
٢٠ر٤٣	١٢٠٠	١٨ر٤٦	٢٤	١١ر١١	١	نساء
١٥ر٢٥	٩٠٠	١٨ر٤٦	٢٤	١١ر١١	١	رجال مسيحيون
١٠٠ر٠٠	٥٩٠٠	١٠٠ر٠٠	١٣٠	١٠٠ر٠٠	٩	المجموع

الاول ٢٧/١٢٦٣ شباط ١٨٤٦ - ١٧ شباط ١٨٤٧

البائعون : ٦

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الائمان	النسبة
١	١٦,٦٧	٣	٣٠.٣٪	٦٠٠	١٧,٩١
—	—	—	—	—	—
٢	٢٣,٣٣	٣٦	٣٦,٣٦	١٤٥٠	٤٣,٢٨
٣	٥٠,٠٠	٦٠	٦٠,٦١	١٣٠٠	٣٨,٨١
—	—	—	—	—	—
٦	١٠٠,٠٠	٩٩	١٠٠,٠٠	٣٣٥٠	١٠٠,٠٠

العينة الرابعة : ٢١ محرم ١٢٧٩ - ١٠ محرم

المشترون : ٢٢

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الايمان بالقروش	النسبة
شيخ	٢	١٠.٩	٢٣	٧٧٨	٤٢٥٠	٣٦٧
حاج	٤	١٨.١٨	٨٠	١٨٨٧	٢٥٥١٢	٢٢٠.٥
سيد	٢	١٠.٩	٤٨	١١٣٢	٤٥٥٠٠	٣٩٣٢
مسكري	١	٤.٥٥	٢٤	٥٦٦	١٢٠٠	١٠.٤
عادي	٤	١٨.١٨	٧٨	١٨٤٠	٦٧٥٠	٥٨٣
نساء	٢	١٠.٩	٢٨	٦٦٠	٣٣٠٠	٢٨٥
رجال مسيحيون	٧	٣١.٨٢	١٣٣	٢١٣٧	٢٩٢٠٠	٢٥٢٤
المجموع	٢٢	١٠٠.٠٠	٤٢٤	١٠٠.٠٠	١١٥٧١٢	١٠٠.٠٠

١٢٨٠ / ١٩ تموز ١٨٦٢ - ٢٧ حزيران ١٨٦٣

البائعون : ٢٢

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الائمان	النسبة
٢	٩٠.٩	٤٨	١٠.٨١	١٤٥٧٠	١٢.٩١
١	٤.٥٥	٨	١.٨٠	٢.٠٠	١.٧٧
١	٤.٥٥	٢٤	٥.٤١	٣٧٥.٠٠	٢٣.٢٢
—	—	—	—	—	—
٧	٣١.٨١	١٥٠	٣٣.٧٨	٢١٧.٠٠	١٩.٢٣
٩ (منهن مسيحية)	٤٠.٩١	١٧٨	٨.١١	٣١٦.٠٠	٢٨.٠٠
٢	٩.٠٩	٣٦	٨.١١	٥٥.٠٠	٤.٨٧
٢٢	١٠٠.٠٠	٤٤٤	١٠٠.٠٠	١١٢٨٧.٠	١٠٠.٠٠

العينة الخامسة : ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠ - ١٦ ذي الحجة

المشترون : ١٦

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القرايط	النسبة	الايمان بالقروش	النسبة
شيخ	٢	١٢ر٥٠	٢٥	١٠ر٤٠	٢٤٠٠ (٣٥) ٥ر٩٠	
حاج	٧	٤٣ر٧٥	٩٤	٣٩ر١٧	١٨٠٣١	٤٤ر٣٣
سيد	٢	١٢ر٥٠	٤١	١٧ر٠٨	١١٣٤٢	٢٧ر٨٩
عادي	—	—	—	—	—	—
نساء (منهن مسيحية)	٥	٣١ر٢٥	٨٠	٣٣ر٣٣	٨٩٠٠	٢١ر٨٨
المجموع	١٦	١٠٠ر٠٠	٢٤٠	١٠٠ر٠٠	٤٠٦٧٣	١٠٠ر٠٠

١٢٩١ / ٤ شباط ١٨٧٤ - ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٥

البائعون : ١٢

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الائمان	النسبة
٢	١٦٦٧	٢٠	١٤٨١	٤٧٧٠	٢٨٠١
—	—	—	—	—	—
١	٨٣٣	٢٤	١٨٧٨	٣١٨٠	١٨٦٧
٤	٣٣٣	٢٢	١٦٣٠	٣٣٠٨	١٩٤٣
٥	٤١٦٧	٦٩	٥١١١	٥٧٧٠	٣٣٨٩
١٠٠٠٠	١٧٠٢٨	١٠٠٠٠	١٢	١٠٠٠٠	١٣٥

اعتمدنا في العينات التي اخترناها العقارات التي اشتراها او باعها افراد واهملنا العقارات التي شارك في شرائها او بيعها مجموعة من الشركاء ينتمي معظمهم الى أسرة واحدة كبيرة لان هذه العقارات ارثية بمعظمها . اما العقارات التي اشتراها افراد فهي اكثر دلالة على الفئات الاجتماعية التي كان بمقدورها ان تشتري او التي اضطرت الى البيع لعوامل مادية .

ويلاحظ ان اعداد المشترين والبائعين بلغت الحد الاقصى في العينة الاولى (١٨٢٥ - ١٨٢٦) ، وكانت متعادلة ، بواقع ٤ عقدا لكل فئة ، مما يدل على استقرار في السوق العقارية بين المشترين والبائعين وعلى عدم وجود محاولة لتجميع الثروة العقارية في ايد قليلة ، وهذا يعني ايضا ان نسبة الملكية المشاعة الى الملكية الفردية كانت متوازنة . وتضاءلت اعداد عقود الافراد في العينات التالية وبلغت ادنى مستوى لها في عيني ١٨٣٤ - ٣٥ و ١٨٤٦ - ٤٧ . ويبدو ان فرض الحكم المصري التجنيد الاجباري وقيام الثورات ضده منذ عام ١٨٣٤ - ٣٥ قد اوجدا حالة من الخوف وعدم الاستقرار جعلت الناس يحجمون عن توظيف راسمالهم .

كما ان التجنيد من شأنه ان يحد من هجرة الريفيين الى المدينة لانهم يصبحون عندئذ تحت سلطة الدولة . وكانت دمشق منذ عام ١٨٤٤ تتعرض لمحاولات الجيش العثماني (النظام) احكام قبضته عليها في وجه مقاومة الاغوات من العسكريين المحليين وبخاصة اولئك في حي الميدان . وهذا ربما يفسر غياب الاغوات عن السوق العقارية خلافا لمساهمتهم فيه في العينة الاولى .

وتعود نسبة المشترين والبائعين من الافراد الى الارتفاع وبشكل متساو في العينة الرابعة (١٨٦٢ - ١٨٦٣) ، ابان فترة الهدوء التي اعقبت الاضطرابات الاجتماعية والطائفية في عام ١٨٦٠ . ويذكر القساطلي بهذا الخصوص « ففي سنة ١٨٦١ و ١٨٦٢ و ١٨٦٣ كانت الاعمال بها (دمشق) رائجة والمصنوعات جيدة والذهب كثير في ايدي الناس » (٢٦) . ولكن نسبة المشترين والبائعين تتضاءل مجددا في العينة الخامسة (١٨٧٤ - ١٨٧٥) ، ولعل احد اسباب ذلك الضيق الاقتصادي الذي لحق بدمشق بنتيجة الغلاء وهبوط اسعار الحرير وانحباس الامطار . ويعلق القساطلي الذي عاصر تلك الاحداث بقوله « واشتد الغلاء (١٨٧٣) . . وكان البعض ياكلون بقول الارض لفقرهم . وسنة ١٨٧٥ عاودها الهواء الاصفر واستقام شهرين فمات به تسعة الاف ومئتان منهم ٢٥٠ نسمة من النصارى » (٢٧) .

واذا كانت مشاركة الاغوات والجرججية العسكريين في السوق العقارية ، او

عدم مشاركتهم تتحكم بهما الاوضاع العسكرية وموقف الدولة العثمانية منهم ، فانهم تبعاً لذلك يشكلون اقل الفئات الاجتماعية تعاملًا في هذه السوق في العينات الخمس . اذ بلغ مجموع المشترين منهم ستة والبائعين ثلاثة ، وتليهم في ذلك فئة الشيوخ التي بلغ مجموع المشترين منها خمسة والبائعين خمسة . ويمكن تفسير ضالة المتعاملين من الشيوخ في محلة باب المصلى بسوق العقارات بقلّة من يحمل هذا اللقب في المحلة لانه لم توجد فيها مراكز دينية هامة ومتعددة ، وربما لم يكن رجال الدين من الشيوخ في محلة باب المصلى على قدر كبير من اليسر . ونلاحظ ان الشيوخ المذكورين في العينة الخامسة كانوا حصراً من المغاربة . وتلي فئة الشيوخ فئة السادة الاشراف الذين بلغ مجموع المشترين من بينهم تسعة والبائعين خمسة ، وربما تفسر قلة مشاركة هذه الفئة في السوق العقارية بطبيعة التركيب السكاني لمحلة باب المصلى التي ضمت تركماناً وريفين وبدوا ومغاربة ممن لم يتوافر فيهم شرف النسب . ومع ذلك فان زيادة اعداد المشترين على البائعين بين الاشراف يدل على اتجاه نحو استقرار الاشراف في المحلة .

وتفوق فئة الحجاج الفئات الدينية والعسكرية الاخرى في مدى مساهمتها في السوق العقارية ، وتأتي في المرتبة الثانية بعد النساء في ذلك . وقد بلغ مجموع اعداد الحجاج المشترين للعقارات ٢٢ وهي اعلى نسبة ، كما ان مجموع البائعين من بينهم بلغ ١٤ مما يدل على توظيفهم المال في العقارات وعلى اتجاههم نحو التملك والاستقرار في محلة باب المصلى . ويفسر ذلك بعدة عوامل منها وقوع المحلة على طريق الحج ، وكون عدد من الساكنين في الميدان من اصول حورانية يزودونهم انفسهم ، او معارفهم في الريف ، قافلة الحج الشامي والقوات المرافقة لها بالجمال والمؤن ويرافقونها ايضاً . وثمة عامل اخر وهو حمل كثير من المغاربة المقيمين في محلة باب المصلى لقب حاج .

ويشكل عامة الناس من غير ذوي الالقاب فئة معادلة لفئة الحجاج من حيث اعداد المتعاملين منهم في السوق العقارية مع بعض الفوارق الهامة ، فقد بلغ عدد المشترين منهم ١٦ والبائعين ٢٠ . وبالرغم من ان مجموع هذين العددين يساوي مجموع اعداد فئة الحجاج الا ان الاتجاه في الفئة الاخيرة كان نحو الشراء بنسبة بلغت ٦١٪ في حين ان نسبة المشترين في فئة العامة كانت ٤٤٪ ، اي انهم يبيعون باكثر مما يشترون ، وربما يفسر ذلك الاوضاع الاقتصادية المضطربة التي مرت بها دمشق آنذاك . ومما يؤكد ذلك رخص اثمان العقارات السكنية التي اشتراها العاديون بالمقارنة مع الفئات الاخرى .

وكانت النساء من انشط الفئات الاجتماعية على الاطلاق في سوق العقارات السكنية ، فقد بلغ مجموع اعداد المشتريات منهن ١٨ والبائعات ٣٥ . وتفوق نسبة

البائعات منهن والبالغة ٦٦٪ نسبة أي فئة اجتماعية أخرى بين البائعين ، ويدل هذا على ان النساء كن يوظفن أموالهن في العقارات السكنية باكثر من العقارات الزراعية التي يصعب عليهن استغلالها . ويدل تعامل النساء في السوق العقارية بهذه النسب المرتفعة على اكثر من مجرد تصفية لحقوق ارثية لانهن في العينات اعلاه يبرزن كمالكات بمفردهن للعقارات التي اشترينها او بعنها . ويؤكد هذا ان النساء تمتعن بثروة ليست بقليلة مصدرها ارث او عمل بيتي او مهر او نفقة او مجوهرات ، ويشير هذا الى استقلال النساء المالي ، وربما كانت تلك الصفات قد ورثتها الريفيات منهن من حياة الريف .

ويبرز المسيحيون ، رجالا ونساء ، في سوق التعامل العقاري السكني في المحلة ويشكلون الفئة الرابعة في هذا المجال بعد فئات النساء والحجاج وعامة الناس . وقد بلغ مجموع المشترين منهم ١٦ والبائعين ١١ ، ويدل هذا على اتجاه بينهم نحو الاستقرار في محلة باب المصلى .

ومما تجدر ملاحظته في العينات حجم العقارات السكنية المتداولة ، من حيث مجموع القرارات والاثمان ، بالنسبة لمختلف الفئات . فالنساء يبقين في الطليعة بالنسبة لمجموع القرارات التي تداولنها شراء وبيعا اذ بلغ ٩٨٤ قيراطا . وتليهم فئة الحجاج (٧٥٥ قيراطا) ، وعامة الناس (٥٧٥ قيراطا) ، والمسيحيين (٤٧٢ قيراطا) ، والسادة الاشراف (٢٧٢ قيراطا) والشيوخ (١٨٠ قيراطا) ، ثم العسكريين (١٦٤ قيراطا) . ويتفق ترتيب هذه الفئات بالنسبة لحجم العقارات السكنية التي تداولتها مع ترتيبها بالنسبة لاعداد عقود الشراء والبيع التي سبق ذكرها .

ولكن الترتيب يختلف بالنسبة لاثمان العقارات المتداولة ، فاعلى المبالغ دفعها السادة الاشراف ومجموعها ١٠٣٨٤٢ قرشا ، أي ان سعر القيراط لديهم بلغ حوالي ٣٨١ قرشا مما يدل على ان نوعية العقارات السكنية التي امتلكها الاشراف ومواقعها كانتا متميزتين . ويلى الاشراف من حيث اثمان العقارات النساء اذ بلغ مجموع ما دفعنه ٧٥٢٥١ قرشا . ولكن سعر القيراط في هذه العقارات لم يتجاوز ٧٦٤٧ قرشا ، أي ان العقارات التي امتلكتها النساء كانت متواضعة موقعا وحجما ومحتوى . وتأتي في المرتبة الثالثة اثمان عقارات الحجاج والبالغة ٦٩٧٤٣ قرشا بواقع ٩٢٣٨ قرشا للقيراط . ويلى هؤلاء المسيحيون اذ بلغت اثمان عقاراتهم ٥٤٢٥٠ قرشا ، بما يعادل ١١٤٦٩ قرشا للقيراط الواحد . وبالرغم من ان عقارات عامة الناس بلغ مجموع اثمانها ٤٣٢٩٣ قرشا الا ان سعر القيراط منها البالغ ٧٥٢٩ قرشا يشكل ثاني ادنى نسبة في المجموعة ويقترب في ذلك من سعر قيراط عقارات الحجاج . وتتميز عقارات

الشيوخ عن العقارات الاخرى ، باستثناء عقارات الاشراف ، بان مجموع اثمانها البالغ ٢٧١٥٥ قرشا يجعل سعر القيراط منها ٨٦ر١٥٠ قرشا ، وهذا سعر متميز . وتأتي في ادنى السلم من حيث ثمن القيراط عقارات العسكريين اذ بلغ مجموع اثمانها ٩٠٠٠ قرش وسعر القيراط منها ٨٨ر٥٤ قرشا . ويدل هذا على فقدان هؤلاء العسكريين اهميتهم العسكرية في الدولة العثمانية التي كانت تدخل التحديث والاصلاح في الادارة .

البنية الاقتصادية لمحلة باب المصلى :

تتميز محلة باب المصلى بنوعين رئيسيين من الاعمال : التسويق والخدمات . اما الانتاج فيأتي في مرتبة ادنى وعلى نطاق ضيق كما يستدل من سجلات محكمة الميدان الشرعية . وطبيعي ان موقع الميدان والتركيب الاجتماعي لسكانه قد كيف الى حد كبير نمط الانشطة الاقتصادية فيه .

ويأتي في المرتبة الاولى من النشاط الاقتصادي تسويق الحبوب ، ويتم ذلك بمعظمه في البوايك التي تكثر في الشارع السلطاني ، وبخاصة على جانبي جامع المصلى وبقربه حيث تتسع الارض . ولكنها توجد ايضا بحجم اصغر في بعض الازقة . وتختلف احجام البوايك بحسب عدد الاقواس الحجرية التي توجد فيها والتي يستند السقف عليها ، فالبايكة الصغيرة تشتمل على اربعة جدر وسقف ومنافع ، والمعتدلة الحجم تتألف من اربعة جدر وسقف راكب على قوس حجر وباب ومنافع ، والكبيرة تمثلها البايكة المشتملة على خمسة اقواس حجر وسقف ومخزين ومنافع ، وكانت تملكها الحرمة رقية بنت المرحوم خالد آغا قصاب باشي (٢٨) . ووصفت بايكة اخرى كبيرة واقعة تجاه زقاق المزرعة بانها معدة لبيع الحنطة ، وتشتمل على جدر وسقف راكب على فواصل حجرية وقواطع بايكية ومنافع (٣٩) . وقد تبنى على سطح (ظهر) البايكة طبقة علوية تضم غرفة يشار اليها باسم فرنكة تتألف من اربعة جدر وسقف وباب وشبابيك ، وهي ملحقة عادة بعقار مجاور قد يكون دارا او بايكة يصعد اليها منه بسلم (٤٠) .

وبالرغم من ان البايكة قد تحتوي على اكثر من نوع من الحبوب بدليل البايكة التي وصفت بانها « معدة لبيع الاغلال » (٤١) فان بعضها تخصص ببيع سلعة معينة مثل البايكة المعدة لبيع الحنطة . وذكرت بايكة اخرى معدة لوضع القش وتشتمل على جدر وسقف وباب ومنافع (٤٢) . ويعرف صاحب البايكة بالبوايكي واشتهر باحتكاره الحبوب وبيعها باضعاف ثمنها في غير مواسمها مما جعله ثريا ، كما انه يسلف الفلاح المال يأخذ منه حصة كبيرة من الغلال ، ويحتال ايضا في وزن الغلال وكيلها (٤٣) .

وتستخدم بعض البوابك لا لتسويق الحبوب فحسب بل لا يواء الفلاحين وربط الدواب ، وقد وصفت أحداها ، وكانت وفقا اهليا آل سكر وتقع تجاه جامع المصلى بانها « تشتمل على مقاليب ومخزين وحوش معد لربط الدواب وحقوق ومنافع » (٤٤) . وطبيعي ان البايكة التي تضم مجمعا من الابنية كهذه لا ينتظمها سقف واحد لانها تشمل ارضا مكشوفة ، ومثال ذلك استنجار « جميع بياض وقرار ارض القطعة الارض الخالية من البناء والفراش الكائنة داخل البايكة » ، الجارية في وقف آل سكر في محلة باب المصلى بالقرب من الدار المعروفة بدار بني سكر (٤٥) . ويلفت النظر في هذه البايكة ابعاد قطعة الارض المستاجرة اذ بلغ طولها ٣٧ ذراعا وعرضها ٣٠ ذراعا بالذراع المتعارف عليه ، ولعله الاسلاني (٤٦) ، الذي كان طوله آنذاك ٦٨٥ سم (٤٧) . وتضم بعض البوابك ساحة سماوية كما هو الحال في بايكة الطوير بالشارع السلطاني بالقبة البيضاء بالقرب من الفواص (٤٨) وبعضها يضم قسما مكشوفًا وآخر مسقوفًا كالبايكة في محلة باب المصلى بزقاق الحبال « المشتملة على ساحة بعضها مسقوفة وبعضها سماوية واربعة جدر وسقف وباب ومنافع » (٤٩) .

ومن البوابك الاخرى التي اشارت السجلات الى اسماء اصحابها ومواقعها بايكة السيد خليل التقي التي اشير اليها اختصارا ببايكة التقي ، وتقع في الشارع السلطاني (٥٠) ، وبايكة محمود آغا تلو ، وبايكة مصطفى تلو الواقعتين بالصف الشرقي من الشارع السلطاني (٥١) . وهناك بايكة بزقاق الاربعين ، واخرى بزقاق بادر ، وبايكة غربي القهوة خانة تجاه جامع المصلى وتعرف ببايكة الزريق (٥٢) . ويستدل من اسماء مالكي البوابك هؤلاء ان معظمهم من الاغوات العسكريين الذين احتكروا تقريبا تجارة الحبوب في محلة باب المصلى مستفيدين من سلطتهم العسكرية . وبعض التجار اصبح عسكريا ليحمي مصالحه الاقتصادية .

واذا كانت البايكة قد استخدمت اساسا لتخزين الحبوب وتسويقها فان انواعا اخرى من الابنية ، مثل المخزن والحوش والخان ، استخدمت لربط الدواب واحيانا لسكن اصحابها . فالمخزن وصف باستمرار بانه معد لربط الدواب وانه مؤلف من اربعة جدر وسقف وباب ومنافع . وفي مثال استخرج مخزن من دار بزقاق الاربعين قبل ان اوقفها صاحبها (٥٣) ، وفي مثال آخر حوّل مطبخ واوده (غرفة) في دار موقوفة بالشارع السلطاني الى مخزين لربط الدواب (٥٤) . وذكرت مخازن اخرى احدها في القبة الحمراء ، واثنان في زقاق بادر (مخزن بيت قره ومخزن جامع المصلى) (٥٥) . ويستدل من ذلك ان المخازن معندلة الحجم وموزعة على عدة جهات .

أما الحوش فيبدو ان تعديلات طرات على استخدامه في فترة نصف القرن التي

نعالجها . فالحوش ، على تقيض المخزن ، لم يقطع من دار وانما كان عقارا قائما بذاته في الغالب ، تجاوره ، كما في المخزن ، دور سكنية . وقد يشكل الحوش جزءا من البايكة . ويشتمل الحوش اساسا على ساحة سماوية واربعة جدر وباب ومنافع» (٥٦) ، واستخدم بصورة عامة لربط الدواب . وذكرت عدة احواش في فترة دراستنا في ازقة المخللاتي ، والوسطاني ، والقبه الحمراء ، والمجتهد . وعرف الحوش باسم صاحبه او اسرته مثل حوش عبد الحق ، وحوش الكحيل ، وحوش بني المجتهد وحوش بني سكر (٥٧) . ويلاحظ تبدل في استعمال الحوش من ربط الدواب فيه اساسا ، كما في الامثلة السابقة ، الى اقامة السكان في بعض الاحواش بعد بناء غرف فيها . وتكثر الامثلة على هذا التبدل في الاستعمال بعد احداث عام ١٨٦٠ حين لجأ عدد من المسيحيين من جبل لبنان وحتى من داخل دمشق الى الميدان ، بما في ذلك محلة باب المصلى ، حيث وجدوا المأوى والامن نظرا لسلامة هذه الاماكن من الفتنة . ففي قضية تتعلق بأوقاف آل سكر عرضت على محكمة الميدان في ٢٣ جمادى الثانية ١٢٧٦ / ١٧ كانون الثاني ١٨٦٣ ، وصف حوش في وقف آل سكر بزقاق البقارة بأنه « المشتمل على ثلاث مربعات سكن النصارى » (٥٨) ، كما ان حوش الكحيل بالقبه الحمراء ضم دارا تشتمل على ساحة سماوية ومربعين ومطبخ ومرتفق ومنافع كان يملكها مسلمون ، ولم تذكر هوية سكانها (٥٩) .

وعلى تقيض البوايك والمخازن والاحواش التي كثرت اعدادها في محلة باب المصلى ، كانت الخانات اقل عددا ولكن اكثر ارتباطا بتجارة الحبوب وما يتعلق بها منها بتجارة الاقمشة او التوابل مثلا ، كما هو الحال في عدد من الخانات داخل دمشق . وقد ذكر خان ابو خليل الدقاق في الشارع السلطاني لصيق قهوة الاوطن ، وخان ابو جوف بجوار بايكة ابن التقي في الشارع السلطاني ، وخان يملكه فارس آغا تلو في الصنف الشرقي من الشارع السلطاني . كما ذكر خان الفاخورة في الزقاق الجواني (٦٠) وخان بني المجتهد (٦١) . وكان اكثر الخانات ذكرا خان داود الدوماني المعروف ايضا بخان الحدادين ، ويقع في زقاق التيامنة وقد وصف بأنه « المعد لربط الدواب المشتمل كامله على ساحة سماوية بها بركة ماء ناهدة وبايكتين وثلاثة اود وسلم حجر يصعد منه الى مشرقة بها ثلاث اود ومنافع » (٦٢) .

وعرف مكان بيع الخشب ، وهو الاخر ضروري للفلاحين ، بالحاصل . وذكر حاصل الشيخ عمر افندي المجتهد بالسلطاني في عام ١٨٢٥ ، وبعد حوالي خمسين سنة ، في ١٨٧٣ ، باع الشيخ محمد سعيد افندي المجتهد ابن عمر افندي لشخص اخر في الاسرة ١٣ قيراطا وثلي قيراط من « جميع الحاصل المعد لبيع الخشب والايتون داخله » بسعر ٥٠٠٠ قرش (٦٣) . ومما يلفت النظر تداول اسرة المجتهد لهذا

الحاصل لمدة طويلة ودفع هذا الثمن الباهظ الذي يساوي آنذاك ثمن عدة دور متوسطة الحجم لشراء اقل من ثلثي الحاصل ، مما يدل على ان تجارة الخشب كانت تدر ارباحا كبيرة على اسرة المجتهد التي بلغ من نفوذها الاسروي والديني (٦٤) والمالي ان عرف احد الازقة في محلة باب المصلى بزقاق المجتهد . ويؤكد قاموس الصناعات الشامية (٦٥) ان حرفة الحواصل تشرى كثيرا . وكانت اسرة المجتهد صاحبة اوقاف اهلية كثيرة .

ويلفت النظر احتواء حاصل آل المجتهد على ايتون (اتون اي تنور) لصناعة الكلس بحرق « احجار مخصوصة » ، وينسجم هذا مع ما يقوله القاسمي من ان الحواصل ، صاحب الحاصل ، قد يقيم اتونا في حاصله . وذكر اتون اخر بزقاق بادر يملكه الحاج انيس اغا سكر وهو من كبار تجار الجبوب واصحاب الاوقاف الاهلية ، وقد اشتراه منه ، في ١٣ نيسان ١٨٦٣ ، الخواجة الياس ابن الخواجة ابراهيم الصارجي بثمن مقداره ٤٥٠٠ قرش ، ووصف هذا الاتون بمناسبة بيعه بانه يشتمل على « جورة وتنور لطبخ الكلس ومتبن وساحة سماوية ومنافع » (٦٦) .

ومن مراكز الخدمات التي توزعت في انحاء محلة باب المصلى الافران التي ذكرت السجلات منها ثلاثة : واحد بزقاق الوسطاني ، واخر بزقاق التيامنة ، وثالث بزقاق بادر . وذكر حمام واحد هو حمام سنقر بالشارع السلطاني بالصف الغربي ، وربما استعمل السكان حمامات مجاورة في السويقة والميدان التحتاني . كما ذكرت ثلاثة مقاهي (قهوة خانة) واحد تجاه مصلى العيدن بالصف الغربي ولعله قهوة الاظن ، واخر عرف بقهوة المجتهد في الشارع السلطاني بالصف الشرقي ، وثالث عرف بقهوة الوسطانية ، ولعله بزقاق التيامنة ، وقد وصف بانه يشتمل على اربعة جدر ومساطب مستديرة واوجاق معد لطبخ القهوة ومصيف براني وسقف وباب ومنافع (٦٧) . كما ذكرت طاحون الارامل في محلة باب المصلى « ويشمل كاملها على اربعة جدر وسقف وباب وحجر واحد مطبق معد لكسر الفلال ومخازن منها لوقف الحرمين » (٦٨) .

ووجدت في محلة باب المصلى دكاكين متفرقة في الازقة لتصنيع المنسوجات مثل الالاجة وهي قماش مقلّم مصنوع من الحرير في اللحمة ومن القطن في السدى ، ولهذا كان سعره مرتفعا لقلبة نسبة الحرير فيه . وذكرت احدى دكاكين صناعة الالاجة في زقاق المخللاتي وضمت ستة أنوال ، وقد باعها اصحابها المسيحيون الى احد الاغوات المسلمين في عام ١٨٢٦ ، وذكرت دكان اخرى لصناعة الالاجة بزقاق التيامنة اشتراها في عام ١٨٥٩ الخواجة جريس ابن الخواجة يوسف العيسى والخواجة عبد الله ابن الخواجة ميخائيل برصة سوية بينهما من الحاج مصطفى ابن الحاج خليل الزريق ،

واشتملت على اربعة انوال ومطاوى ورفوف وارواس ومنافع (٦٦) . واشترى شخص بمفرده جميع عمارة وبناء الدكان بزقاق الجواني المعدة لنسيج العبي المشتملة على اربعة جدر وسقف وباب وشبابيك وخمسة انوال مع عددهم (٧٠) .

ويلاحظ في هذه الامثلة توزيع المشاغل النسيجية في الازقة ، وملكيتها من قبل شخص واحد في الغالب مما يدل على الفردية في العمل . واذا كان المالك اكثر من شخص فتلك حالة ارضية في الغالب . وانتقلت ملكية هذه المشاغل بين السكان المحليين بقطع النظر عن مذاهبهم ، أي ان النسيج لم يكن مختصا بطائفة دون اخرى . والمثال الاخير الذي نص فيه على شراء عمارة وبناء الدكاكين يوحي ان عقد الشراء لم يشمل عدة الدكان ، أي انوال نسيج العبي وملحقاتها ، المعبر عنها بالكدك ، ولا حق استعمال الانوال في الدكان نفسها المعبر عنه بالخلو . ويمكن شراء كدك وخلو الدكان معا او منفردين دون عمارة وبناء الدكان (٧١) . واذا كانت ارض الدكان وقفا لاتباع ويمكن بيع العمارة والبناء وكذلك الكدك والخلو مجتمعين او منفردين . وتنص العقود بدقة عادة على ما يشتري . وحين يذكر شراء جميع الدكان فذلك يعني الارض والعمارة دون عدة وحق استعمالها اللذين يجب ان ينص عليهما (٧٢) .

وتدل كثرة عرض دكاكين النسيج ، بما في ذلك كدكها وخلوها ، للبيع وانتقال ملكيتها بين الناس خلال فترات قصيرة على الازمة التي لحقت بصناعة النسيج الشامية خلال القرن التاسع عشر ، وبخاصة صناعة الالاجة المتميزة ، بفعل منافسة البضائع الاوربية لها ، في السعر والجودة وتقليد النماذج المحلية (٧٣) . وبلغ من سيطرة الرأسمالية الاجنبية ان معظم العقارات في محلة باب المصلى في العينة الخامسة (١٨٧٤ - ١٨٧٥) بيع بالليرات الذهبية الفرنسية العينية (أي غير المثقوبة) (٧٤) ، مما يدل على انهيار قيمة الوحدة النقدية المحلية وهي القرش وعدم الثقة بها .

ويقع اكبر تكتل للدكاكين متنوعة الاختصاص في محلة باب المصلى على جانبي الشارع السلطاني ، في الصفيين الشرقي والغربي منه ، فهناك دكاكين لصنع الجلايات (ما يوضع على ظهر الدواب) والشعارة (صفر الشريط ووضعه في اطار على الابواب) والسمكرية (صنع ادوات التنك ولحمها) ، والحياكة ، والخضرية ، والبندقجية (تصليح البنادق) وغيرها . ومما يلفت النظر ان عددا من الدكاكين كان وقفا خيرا مرصدا على جامع المصلى او على الحرمين الشريفين .

وباستعراض انواع الحرف التي لحقت باسماء الاشخاص الساكنين في محلة

باب المصلى ، سواء مارسوها بأنفسهم ام ورثوها عن ابائهم ، نتبين طبيعة الاعمال التي كانت تمارس في المحلة على مستوى الانتاج والتسويق والخدمات ، والتي ارتبطت بمعظمها بتسويق الحبوب ، وانتاج مستلزمات الريفيين ، وتقديم الخدمات . فهناك من تلقب بالجمال والخانائي والقبائي والمغريل وابو البرغل والطحان والخولي (له خبرة بالفلاحة والانتاج) ، ويعنى هؤلاء بالحبوب ، ومن تلقب بالجليلائي والبرادمي (صانع الغطاء لظهر الدابة) والبيطار ، والزرايلي (صانع الزربول وهو مداس سميكة للفلاحين) ، والصرمايائي والبسطاطي ، ويهتم هؤلاء باحتياجات السكان المحليين والريفيين . كما وجد حرفيون اخرون لخدمة السكان المحليين والريفيين على حد سواء مثل العكام (الذي يقود الجمال وبخاصة الى الحج) والمشاعلي (الذي يحمل المشعل لمرافقة الحجاج) والشعال (الذي يشعل قناديل المحلة) والبواريدي والبندقجي والمسالخي والقصاب باشي والدباغ . ووجدت القاب تدل على صناعة النسيج مثل الحريراتي والصباغ والملقي (الذي يهيء الحرير للحايك) والالاجائي والفرا (الذي يبيع الفرو ويصنع منه الفروا) . وهناك تسميات اخرى مثل النحاس والمبيض والحجار والدكاك (يبنى الحائط من الدك اي التراب المضغوط) والدهان والقزاز والقضمانى والمحمص والنشواتي واللحام والخباز والزبال (٧٥) .

وباستعراض اسماء الاشخاص الذين لحقت بهم هذه الالقاب الحرفية واسماء الازقة التي سكنوها لا نجد ان زقاقا ما اقتصر على ساكنين من حرفه واحدة او من حرف متقاربة ، اي انه لم يكن هناك فرز للازقة على اساس حرف اصحابها ، بل ضم الزقاق خليطا من السكان من كل حرفه . ونظرا لكون دخول هذه الحرف تتفاوت ، كثرة او قلة ، حسب نوع الحرفة فهذا يعني ان ساكني الزقاق كانوا من مستويات مادية مختلفة يتعايشون معا في اندماج اجتماعي متسامح .

وعلى صعيد اخر لعبت السوق العقارية دورا نشطا في الحياة الاقتصادية لمحلة باب المصلى ، ووظفت فيها مبالغ كبيرة من المال اذا ما قيس ذلك باسعار الاراضي الزراعية في منطقة دمشق آنذاك ، واسعار السلع المختلفة واسعار الحيوانات التي توردها سجلات المحاكم الشرعية وكتابات الاخباريين وتقارير القناصل الاجانب وغيرها . ونلاحظ في العيّنات الخمس شراء عدد من العقارات السكنية من قبل الاشخاص انفسهم ، ثم بيعهم لبعضها في اوقات مختلفة . وبرزت النساء بشكل ملحوظ في شراء العقارات الكاملة والجزئية لان في ذلك توظيفا مضمونا للمال فيها . ويمكننا رصد مجموع المبالغ الموظفة في السوق العقارية في كل عينة ، ووسطى سعر القسراط ، والتبدلات التي طرأت عليها ، على ضوء الوضع الاقتصادي العام ، من خلال الجدول التالي :

عقود بيع وشراء العقارات السكنية عموما بمحلة باب المصلى

العينة	عدد العقود	مجموع القراريط	مجموع الائمان	وسطي سعر القيراط (بالقروش)
١٨٢٥ - ٢٦	٥٠	٩٢٦	٤٣٦١٨	٤٦٦٠
١٨٣٤ - ٣٥	١٣	٢٥٤	١١٣٥٠	٤٤٦٩
١٨٤٦ - ٤٧	١١	١٧٨	١٠٣٣٥	٥٨٠٦
١٨٦٢ - ٦٣	٢٤	٤٩٠	١٢٤٩١٢	٢٥٤٦٤٠
١٨٧٤ - ٧٥	١٧	٢٨٣	٥٥٤٤٢	١٩٥٩١
المجموع	١١٥	٢١٤١	٢٤٥٦٥٧	١١٤٦٩ الوسطي العام

ويلاحظ في وسطي سعر القيراط تراجعاً ضئيلاً في العينة الثانية ، إبان الحكم المصري، ثم ارتفاعاً بحوالي الثلث في العينة الثالثة ، ربما نجم عن انخفاض سعر القرش واضطراب الوضع الاقتصادي بتأثير منافسة البضائع الأوروبية. وتبلغ الزيادة في وسطي سعر القيراط أعلى مستوى لها في عينة ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ، ومرد ذلك انخفاض سعر القرش بالنسبة للنقد الذهبي وبخاصة العملات الأوروبية الذهبية التي سيطرت على السوق النقدية المحلية (٧٦) ، وكذلك ارتفاع اجور البنائين ومواد البناء انذاك (٧٧) ، بالإضافة الى كثرة الطلب على شراء العقارات في المحلة ، وبخاصة من قبل المسيحيين في اعقاب احداث عام ١٨٦٠ . ثم يعود وسطي سعر القيراط في العقارات السكنية الى الانخفاض في العينة الخامسة بسبب الموسم السيء وغلاء أسعار الحبوب والاضاع الاقتصادية السيئة بصورة عامة بشهادة القساطلي صاحب « الروضة الغناء » الذي عاصر تلك الاحداث (٧٨) .

وبالاستناد الى تفاصيل العقود التي بني عليها الجدول السابق تبرز ثلاثة ازقة في محلة باب المصلى استقطبت حوالي نصف عقود بيع وشراء العقارات السكنية في العينات الخمس كما يبين ذلك الجدول التالي :

الازقة الرئيسية في سوق التعامل بالعقارات السكنية

الزقاق	عدد العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
القبة الحمراء	٢٢	١٩ر١٣٪	٤١٦	١٩ر٤٢٪	٢٣٠٣١	٩ر٣٧٪
الوسطاني	١٩	١٦ر٥٢	٣٣٧	١٥ر٧٣	٢٩٦١٠	١٢ر٠٥
التيامنة	١٦	١٣ر٩١	٢٦٥	١٢ر٣٧	٤٣٤٧٨	١٧ر٧٠
المجموع	٥٧	٤٩ر٥٦	١٠١٨	٤٧ر٥٢	٩٦١١٩	٣٩ر١٢

يلاحظ في الجدول اعلاه ان منطقة القبة الحمراء التي اشتملت على اربعة التركمان والشعرية وعزام وبعض العقارات في الشارع السلطاني ضمت اكبر نسبة من عقود البيع وتقدر بـ ١٩ر١٣٪ ولكنها بالمقارنة مع الزقاق الوسطاني وزقاق التيامنة اللذين يليها في عقود البيع والشراء تشكل اثمان العقارات فيها اقل نسبة في الازقة الثلاثة في حين ان التيامنة تشكل فيها الاثمان اعلى نسبة بالرغم من النسبة المتدنية لعدد عقود البيع والشراء فيها . ويدل هذا على اختلاف سعر القراريط السكني من منطقة الى اخرى ، وسندرس دلالة ذلك بالنسبة لنوعية الساكنين ومستوياتهم في الازقة عموما في فقرة الاندماج بين فئات السكان .

وكان للوقف بانواعه دور هام في الحياة الاقتصادية لمحلة باب المصلى . وكان عدد كبير من العقارات التجارية والزراعية والسكنية ، كالربوايك والدكاكين والجنانين وقطع الاراضي والدور اما وقفا خيريا مرصدا بمعظمه على جامع باب المصلى او على الحرمين ، او وقفا اهليا « ذريا » تستفيد منه بخاصة بعض الاسر الكبرى ، مثل آل سكر وآل المجتهد . ويصعب احصاء نسب الاوقاف الخيرية الى الاوقاف الاهلية في العينات التي قمنا بدراستها بغية معرفة تبدل النسب بين نوعي الاوقاف هذين على مر الزمن . والمعروف في تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني ان القرن السادس عشر الذي شهد اهم واكثر المنجزات العثمانية الخيرية كالجمامع التي بناها ولاية عثمانيون مشهورون شهد كذلك ايقاف اهم نسبة من الاوقاف الخيرية لفائدة هذه الابنية . ثم انعكس الامر بدما من القرن الثامن عشر حين ازدادت نسبة الاوقاف الاهلية بتحويل كثير من الولاية والاعنياء املاكهم الى اوقاف اهلية لتحاشي مصادرة الدولة لها . كما يصعب معرفة

نوعية الوقف في عدد من العقارات ، وبخاصة الدور السكنية ، في محلة باب المصلى لان سجلات محكمة الميدان الترععية اكتفت بالقول احيانا ان العقار الفلاني وقف دون ان تعين هوية هذا الوقف او الجهة الموقوف عليها . وهناك ايضا تخصيص جزء من اجرة ارض موقوفة شيد عليها بناء ملك ، لصالح وقف خيري . وبالرغم من هذا الغموض في قضايا الوقف يمكن معرفة نسبة العقارات الموقوفة اطلاقا الى غير الموقوفة في كل عينة وذلك بدراسة اعداد العقارات على اختلاف انواعها ، المبينة كليا او جزئيا ، والمؤجرة ، وتلك التي عرض امرها على المحكمة لاي سبب كان ، او التي ذكرت كحدود لهذه العقارات من جهاتها المختلفة .

نسبة عقارات الملك الى الوقف في محلة باب المصلى

العينة	العقارات السكنية	العقارات التجارية	العقارات الزراعية
ملك	وقف	ملك	وقف
١٨٢٥ - ٢٦	١٨٢	٥	١٣
١٨٣٤ - ٣٥	٧٦	-	٦
١٨٤٦ - ٤٧	٤٠	٣	١٣
١٨٦٢ - ٦٣	٩٧	٧	٢٧
١٨٧٤ - ٧٥	١٠١	٨	٢٠
المجموع	٤٩٦	٢٣	٧٩

يتبين من الاحصاء اعلاه ان عقارات الملك ، على انواعها ، بلغت ٥٨٦ عقارا ، وعقارات الوقف ، بنوعيه الخيري والاھلي ، بلغت ٦١ عقارا ، أي ان نسبة عقارات الوقف الى مجموع العقارات هي ٩٣٪ في حين ان نسبة عقارات الملك تبلغ ٥٧٪. ولا يمكننا الحكم بقلّة أو كثرة هذه النسب الا بعد اجراء دراسات مماثلة لمحات اخرى في دمشق في الفترة ذاتها . ومع ذلك نستدل من هذه النسبة الكبيرة لعقارات الملك انه بالرغم من حداثة عدد كبير من الاسر في محلة باب المصلى ، وهجرة السكان المستمرة اليها من مختلف الانحاء وتشكلهم من عناصر بشرية متنوعة ، وربما ضالة دخلهم ، فان الاتجاه هو نحو التملك والاستقرار في المحلة . كما ان قلّة الابنية الدينية في المحلة

وعدم اهميتها بالمقارنة مع مثيلاتها داخل دمشق وفي اماكن اخرى ظاهرها ، باستثناء جامع المصلى ، يفسر بدوره قلة الاوقاف الخيرية في المحلة . والملاحظ ان العثمانيين لم يبنوا اية جوامع في محلة باب المصلى ، على غرار جامعي الدرويشية والسنانية وحتى جامع المرادية الذي هو على مشارف محطة باب المصلى ، ولم يبنوا كذلك اية ابنية هامة فيها ذات نفع عام او خاص ، وبالتالي لم تكن هناك من حاجة لايقاف الاوقاف من قبلهم بأي مقدار لصالح المحلة .

ولم تكن اكثرية العقارات الموقوفة في محلة باب المصلى والبالغة ٦١ عقارا وفقا خيرا فقد كان معظمها وقفا اهليا تستفيد منه بضع اسر كبرى في طبيعتها آل سكر وآل المجتهد ، كما ضم اوقافا لصالح الحرمين ، وبين الجدول التالي نسب هذه الاوقاف :

نسب الاوقاف في محلة باب المصلى

انواع العقارات	اوقاف خيرية	اوقاف ذرية
سكنية	١٢	١١
تجارية	١٣	١٨
زراعية	٤	٣

المجموع ٢٩ (النسبة ٤٧ر٥٤٪) ٣٢ (النسبة ٥٢ر٤٦٪)

ويمكن تقسيم الاوقاف الخيرية الـ ٢٩ هذه الى ثلاث فئات من حيث الجهات المستفيدة منها كما يبين ذلك الجدول التالي :

الجهات المستفيدة من الاوقاف الخيرية بانواعها في محلة باب المصلى

انواع العقارات	جامع المصلى	الحرمين الشريفين	غير معروف
سكنية	٤	٢	٦
تجارية	٥	٣	٥
زراعية	٣	—	١
المجموع	١٢	٥	١٢ = ٢٩

بالنسبة للأوقاف التي لا تعرف الجهة التي أوقفت عليها لا يعرف كذلك فيما إذا كانت تلك الجهة أو الجهات واقعة بمحلة باب المصلى أم خارجها . وهناك أمثلة عن حكر وقف لم ندرجه في الجدول مثل حكر بعض الدور السكنية التي كانت أرضها وقفا وعمارتها ملكا ، وخصص حكر أرضها لجهة خيرية معينة . مثال ذلك الدار بزقاق الجواني التي كان على أرضها من الحكر كل سنة خمسة مصاري (أي ثمن قرش) لجهة وقف مدرسة الشامية البرانية بدمشق (٧٩) ، ودار أخرى في الزقاق ذاته كان على أرضها كل سنة عشرون مصرية بطريق الحكر لجهة المدرسة ذاتها (٨٠) . ومثال آخر عن دار في زقاق الوسطاني كان على أرضها من الحكر كل سنة خمس عشرة مصرية لجهة المدرسة نفسها (٨١) . ولم يرد تخصيص حكر لاية جهة أخرى سوى هذه المدرسة . والمعروف أن مدرسة الشامية البرانية في دمشق هي من مدارس الشافعية ، ولا نعلم المذهب السائد في محلة باب المصلى آنذاك ، علما أن المغاربة الموجودين في المحلة بكثرة هم مالكية .

وبالنسبة لأوقاف جامع المصلى فقد ذكر الشيخ عبد القادر بدران (المتوفي سنة ١٣٤٦ هـ) وهو المعروف بتتبعه لقضايا الأوقاف ، أن جامع المصلى لم يتهيا له وقف (٨٢) ، وربما قصد وقت أنشائه في عام ٦٠٦ / ١٢٠٩ . ويدل وجود أوقاف لهذا الجامع في فترة دراستنا على أنه اكتسبها بالتدريج ، أو ربما لم يعثر الشيخ بدران في زمنه على أوقاف له . ومما يلفت النظر أن إحدى الدور الواقعة في الشارع السلطاني وصفت في سجل محكمة الميدان بتاريخ ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠ / ٤ شباط ١٨٧٤ بأنها جارية بوقف جامع المصلى قديما والآن سكن الشيخ النجار (٨٣) . وربما دل هذا على أن جامع المصلى خسر هذا الوقف بطريق الاستبدال أو الاستيلاء (٨٤) . ونظرا لسوء التصرف بالأوقاف آنذاك نظمت الدولة العثمانية ، في فترة التنظيمات ، أمور الأوقاف في دمشق . وذكر في عام ١٨٦٢ أن مدير أوقاف الشام آنذاك شهد بالتصديق على بيع كدك وخلو عائدين لذكأن وقف في محلة باب المصلى (٨٥) .

وكان الناظر على وقف جامع المصلى في عام ١٨٣٤ السيد محمد البغدادي القادري، والمتولي هو السيد إبراهيم القباني ، ويبدو أن الوقف آنذاك كان فيه دخل فائض شري منه للوقف ببايكة وجنيئة في زقاق المصلى (زقاق بادر) (٨٦) . وبعد حوالي ربع قرن من ذلك ذكر أن متولي وقف جامع المصلى هو محمد آغا ابن إبراهيم آغا القباني بموجب براءة سلطانية (٨٧) .

أما أوقاف الحرمين في محلة باب المصلى فكان المسؤول الأعلى عنها محمد أمين أفندي ابن المرحوم أحمد أفندي الأسلانبولي المتولي على أوقاف الحرمين بعامة ، وكان

وكيله في محطة باب المصلى في عام ١٨٤٦ حسين آغا ابن علي آغا القرصار . وذكر وكيل آخر له في العام التالي هو محمود آغا ابن السيد احمد جليبي شيخ الارض (٨٨).

واشتهر من الاوقاف الاهلية من الناحية الاقتصادية اوقاف آل سكر وآل المجتهد . وكانت هذه الاوقاف في اساس ثروة هاتين الاسرتين . وكانت اسرة سكر تركمانية الاصل عسكرية المنشأ برزت من خلال طائفة الانكشارية اليرلية ، وتنسب الى جدها الامير حسن آغا التركماني الذي اشتهر بين انكشارية دمشق في الربع الاول من القرن السابع عشر (٨٩) . وبقي افراد اسرة سكر يحملون القاب آغا وجريجي العسكرية بالرغم من انهم تحولوا الى تجار للحبوب في الميدان واطلق على عدد منهم لقب عمدة التجار الى جانب لقب آغا . وكان على افراد اسرة سكر ، في فترة دراستنا، النظر والتكلم على اربعة اوقاف اهلية كبرى : وقف جدهم الامير حسن آغا التركماني ، وجدهم محمد آغا شوباصي (٨٢) ، وجدهم الخواجه ابراهيم البيطار ، وجدتهم صالحة قادن بنت المرحوم حسين بنه الارنوط (اي الارناؤوط) (٩٠) . واشتملت هذه الاوقاف على بوايك ومقاه وارضى ودكاكين ودور .

وبرزت اسرة المجتهد بالنسبة لحجم الاوقاف الاهلية التي استغلتها . وبالرغم من صفات العلم والمشيخة والاجتهاد التي تمتعت بها فقد افادت ، على غرار اسرة سكر، من النفوذ العسكري . وكان الشيخ محمد جريجي المجتهد ناظرا على وقف جده الاعلى مصطفى الحوراني (٩١) . ونظرا للمنافسة الاقتصادية والسياسية بين اسرتي سكر والمجتهد وتشابك المصالح بينهما عن طريق تأجير العقارات والعمل كوكلاء لمتداعين من اسرة ضد اخرى حفلت سجلات محكمة الميدان بالدعاوي بين الطرفين (٩٢) . وذكرت اسر اخرى افادت على نطاق ضيق من الاوقاف الاهلية مثل آل الخراط وآل الفرا النظار على وقف جدهم قره اصلان، وآل البارودي النظار على وقف جدهم سليمان الخوام .

وكان استئجار الاوقاف الاهلية من قبل المستفيدين منها او غيرهم يتم لسنوات طويلة وباجرة زهيدة تقتطع منها نفقات ترميم العقار .

وبتأجير الوقف لمدة طويلة بأجرة مقررة سلفا يفيد المستاجر من الربح الاضافي الناتج عن تدني قيمة العملة وبخاصة في القرن التاسع عشر ، ولهذا عمد الناظر الى زيادة الاجرة احيانا حتى قبل انتهاء مدة الايجار . ومهما يكن ، فان مستاجر الوقف، وهو عادة من الاسر المستفيدة منه ، تمتع بمعظم عائداته واستخدم ذلك لتوطيد نفوذه الاقتصادي والسياسي في محطة باب المصلى وخارجها على حساب اقربائه المستفيدين نظريا من الوقف .

الاندماج بين فئات السكان :

تعددت الفئات الاجتماعية في محلة باب المصلى بسبب موقعها والخدمات التي تقدمها ، واشتهرت فيها طائفة الانتكشارية ذات الاصول التركمانية والكردية التي تحولت بالتدريج الى طائفة محلية (يرلية) يتماطلى افرادها التجارة، وبخاصة الحبوب. وسكنها كذلك المغاربة الذين باعوا خدماتهم كقوة عسكرية ، وكانوا بمعظمهم من قبيلة زواوة من جبال القبائل بالجزائر ، ومنهم اناس من تونس وطرابلس الغرب ، وازدادت اعدادهم في القرن التاسع عشر اثر احتلال فرانس للجزائر . واستقبل الميدان ، ومحلة باب المصلى بخاصة ، اعدادا من مسيحي حوران والمناطق المجاورة الذين استفادوا من التسامح الديني ابان الحكم المصري في بلاد الشام مما دعا بطريرك الكاثوليك مكسيموس الثاني مقلوم الى انشاء كنيستين في حي الميدان بين عامي ١٨٣٤ - ١٨٣٦ ، واحدة في محلة باب المصلى والاخرى في زقاق القرشي ، وذلك الى جانب سماح ابراهيم باشا المصري له في عام ١٨٣٢ ببناء كاتدرائية في حارة الزيتون بدمشق . وادى تزايد المسيحيين الارثوذكس في الميدان قادمين اليه من حوران ومن راشيا ، وبخاصة بعد احداث ١٨٦٠ ، الى بناء كنيسة لهم في القرشي في اواخر عام ١٨٦٢ (٩٢) .

ونظرا لتنوع الفئات الاجتماعية التي سكنت المحلة عبر السنين ، واختلاف اصولها واعمالها ومستوياتها الاقتصادية والاجتماعية ، وتعدد الاسباب التي دفعت بها الى الهجرة والسكن فيها ، تطرح قضية تعايش هذه الفئات واندماجها مع بعضها . ويتجلى هذا اكثر ما يتجلى في تداخل اماكن سكنها ، واستيعاب المحلة للاعداد المهاجرة اليها ، واستمرار التعايش بين مختلف السكان بالرغم من الازمات التي عصفت بدمشق وبالمطقة . وتزودنا العينات الخمس في سجلات محكمة الميدان الشرعية بمعلومات دقيقة عن تنوع هذه الفئات ومدى اندماجها ببعضها على اساس تجاور عقاراتها .

وسنستعرض في الجداول التالية هوية البائعين والمشتريين للعقارات على اختلاف انواعها ، وكذلك هوية اصحاب العقارات المجاورة للعقارات المباعة التي حرصت سجلات المحكمة ان تحددتها في اطار التعريف بالعقار المبيع . وبالرغم من التفاوت في اعداد العقارات المدروسة في العينات الخمس فان نسب فئات السكان في كل منها تشكل صورة واقعية للسوق العقارية ولهوية السكان الذين يقومون بعمليات البيع والشراء.

هوية البائعين والمشتريين والجوار عموماً لكافة العقارات في محلة
باب المصلى (١٨٢٥ - ١٨٧٥)

العينة الأولى ١٨٢٥ - ١٨٢٦

الهوية	البائعون	المشتريون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	٨	٢	٣	١٣	٤١ر٤٪
اكراد وتركماني	٣	—	١	٤	١٣ر١
مصريون	—	١	١	٢	٦٨ر٠
عسكريون	٧	٥	٤	١٦	٤٢ر٥
من بلاد الشام	٤	٧	—	١١	٧٣ر٣
مسيحيون	١٢	١٤	١٦	٤٢	٢٣ر١٤
غير محددة (محلين)	٥٥	٤٣	١٠٩	٢٠٧	١٧ر٧٠
المجموع	٨٩	٧٢	١٣٤	٢٩٥	١٠٠ر٠٠

العينة الثانية ١٨٣٤ - ١٨٣٥

الهوية	البائعون	المشتريون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	٢	٣	—	٥	٦٧ر٤
اكراد وتركماني	١	—	١	٢	٨٧ر١
مصريون	—	—	—	—	—
عسكريون	٣	٢	٣	٨	٤٨ر٧
من بلاد الشام	٢	١	—	٣	٨٠ر٢
مسيحيون	٢	٨	٢	١٢	٢٢ر١١
غير محددة	٢٠	١٨	٣٩	٧٧	٩٦ر٧١
المجموع	٣٠	٣٢	٤٥	١٠٧	١٠٠ر٠٠

العينة الثالثة ١٨٤٦ - ١٨٤٧

الهوية	البائعون	المشترون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	—	—	—	—	—
اكراد و تركمان	٦	—	—	٦	٨٠٠
مصريون	—	—	—	—	—
عسكريون	—	—	٢	٢	٢٦٧
من بلاد الشام	١	٣	—	٤	٣٣
مسيحيون	٦	١	٢	٩	١٣٣٣
غير محددة	١٥	١٤	٢٤	٥٣	٧٠٦٧
المجموع	٢٨	١٨	٢٦	٧٥	١٠٠٠٠

العينة الرابعة ١٨٦٢ - ١٨٦٣

الهوية	البائعون	المشترون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	٢	٤	٣	٩	٦٢٥
اكراد و تركمان	—	—	—	—	—
مصريون	—	١	٣	٤	٢٧٨
عسكريون	٤	١	٤	٩	٦٢٥
من بلاد الشام	—	١	—	١	٠٦٩
مسيحيون	٢	١٧	٩	٢٩	٢٠١٤
غير محددة	٣٤	١٥	٤٣	٩٢	٦٣٨٩
المجموع	٤٢	٣٦	٦٢	١٤٤	١٠٠٠٠

العينة الخامسة ١٨٧٤ - ١٨٧٥

الهوية	البائعون	المشترون	الجوار	المجموع	النسبة
مغاربة	١	٦	٢	٩	٤١٥
اكراد و تركمان	—	—	—	—	—
مصريون	١	—	—	١	٤٦ ر.
عسكريون	—	٢	٤	٦	٢٧٧ ر.
من بلاد الشام	—	—	—	—	—
مسيحيون	١٢	٨	٩	٢٩	١٣٣٦ ر.
غير محددة	٧٠	٢٠	٧٢	١٧٢	٧٩٢٦ ر.
المجموع	٨٤	٤٦	٨٧	٢١٧	١٠٠٠٠ ر.

يلاحظ في هذه الجداول ، أولا ، ان مجموع اعداد البائعين في العينات الخمس البالغ ٢٧٤ يفوق مجموع اعداد المشترين البالغ ٢٠٧ ، مما يدل على ان الملكية تميل نحو التجمع لدى مالكين اقل عددا . وتظهر اربع فئات دائمة الحضور في سوق العقارات في المحلة هي المغاربة ، والاكراد والتركمان ، والعسكريون ، والمسيحيون ، اما المصريون فبالرغم من حكم محمد علي باشا لبلاد الشام مدة تسع سنوات لم يستمر الوجود السكاني المصري على نطاق كبير في دمشق وبخاصة في محلة باب المصلى ، بعد انسحاب الجيش المصري . ومن الطبيعي كذلك ان يسكن في المحلة ، كما في محلات دمشق الاخرى ، عدد من سكان مدن بلاد الشام الاخرى لان ذلك في طبيعة تنقل السكان المحليين وان كان على نطاق ضيق .

ويشكل المغاربة عنصرا دائما في سوق العقارات وفي الوجود السكاني في محلة باب المصلى ويبلغ حوالي ٥٪ في الجداول مما يدل على استمرار تدفق المغاربة الى دمشق . ومن المعروف ان اعدادا كبيرة منهم كانت تسكن في حي المغاربة الى الجنوب من محلة باب المصلى وفي محلة العمارة معقل الامير عبد القادر الجزائري واتباعه . وكذلك في انحاء اخرى من الميدان ، وتبلغ اعداد المشترين منهم في العينات الخمس ١٥ مقابل ١٣ بائعا مما يدل على تعاملهم في السوق العقارية باكثر من الاكراد والتركمان الذين لم يرفدوا باستمرار بعناصر اضافية كالمغاربة . ويلفت النظر في عينتي عام

١٨٦٢ - ١٨٦٣ وعام ١٨٧٤ - ١٨٧٥ ان عددا من المغاربة البائعين والمشتريين للعقارات السكنية، وبخاصة في منطقة القبة الحمراء ، يحمل لقب الزواوي، كما في اسم علي ابن سعيد المغربي الزواوي (٩٤) . اما العسكريون من آغاوات وجرججية فكانت نسبة مشاركتهم في السوق العقارية والبالغة حوالي ٦٪ اكثر من نسبة مشاركة المغاربة نظرا للثروة التي تمتع بها هؤلاء العسكريون .

ويشكل المسيحيون الفئة الثانية التي تلي الاكثرية المحلية من المسلمين (حوالي ٧١٪) في التعامل في السوق العقارية في محلة باب المصلى . ويبلغ وسطي نسبة المسيحيين المتعاملين في هذه السوق حوالي ١٤٥٪ . وطبيعي ان المسيحيين القادمين من حوران ومن منطقة وادي التيم والمناطق الجنوبية الاخرى يصلون الى الميدان اولا حيث تستقر اعداد منهم فيه ثم ينتقل البعض ، بعد مدة ، الى دمشق . ويكثر الوجود السكني المسيحي في عدد من ازقة الميدان ، خارج محلة باب المصلى ، وبخاصة زقاق القرشي وازقة الميدان الفوقاني (٩٥) .

ويلاحظ في العينات زيادة اعداد المسيحيين مشتري العقارات البالغة ٤٨ على اعداد البائعين منهم البالغة ٣٥ . ومما يلفت النظر ازدياد نسبة شراء المسيحيين للعقارات في محلة باب المصلى في عينة ١٨٦٢ - ١٨٦٣ ويفسر ذلك من ناحية ، بعدم تعرض المسيحيين في الميدان عموما لاذى الاضطرابات الاجتماعية والطائفية التي حلت بدمشق وبجبل لبنان عام ١٨٦٠ ، مما شجع اعدادا من المسيحيين من خارج المحلة على شراء العقارات فيها بدلالة وجود ١٧ مشتريا مسيحيا مقابل ٣ بائعين في محلة باب المصلى في عام ١٨٦٢ - ١٨٦٣ . وحدث هذا الاقبال على شراء العقارات في ذلك العام بالرغم من ارتفاع وسطي سعر القراط العقاري آنذاك في محلة باب المصلى - كما سبق القول - الى اعلى مستوى له بالمقارنة مع العينات السابقة واللاحقة اذ بلغ ٢٥٤ر٤٠ قرشا . ويفسر هذا الاقبال بعدة عوامل منها الرخاء الذي عم دمشق آنذاك (٩٦) ، وحصول المتكويين من المسيحيين في احداث ١٨٦٠ على التعويضات من الدولة العثمانية عن « مسلوباتهم ومحروقاتهم » (٩٧) ، وتفضيل عدد من الدين لجأوا منهم الى لبنان العودة الى دمشق ، وكذلك تحسين الدولة العثمانية معاملتها لهم (٩٨) .

ولم يقتصر الوجود المسيحي في محلة باب المصلى على زقاق معين اذ أنتشر المسيحيون في عدد من الازقة ، ومن الطبيعي أن يكثروا في زقاق دون آخر بحكم تعلق ابناء المنطقة الواحدة من المهاجرين منهم ببعضهم ، واستقطب زقاق التيامنة عددا من المسيحيين بحكم موقعه في بداية المحلة بالنسبة للقادمين من الجنوب . وتزايدت فيما بعد اعداد المسيحيين في محلة باب المصلى ، وبخاصة في زقاق التيامنة ، الى الحد

الذي جعل باحثا فرنسيا يكتب في عام ١٩٣١ عن الحي المسيحي في باب المصلى (٩٩)، علما ان سجلات محكمة الميدان الشرعية في فترة دراستنا لم تذكر زقاقا او حيا معيناً للمسيحيين في المحلة ، بل اشارت الى زقاق النصارى بالميدان ، ولكن خارج محلة باب المصلى ، بالقاعة بمناسبة بيع عقار فيه في ٨ شوال ١٢٧٩/٢٩ اذار ١٨٦٣ . وكان بائع العقار ومشتريه مسلمين (١٠٠) مما يدل على ان تسمية الزقاق لا تنطبق تماما على هوية سكانه وانما تدل على تكاثر المسيحيين فيه ربما في مرحلة سابقة من تاريخه .

وهكذا لم تعرف محلة باب المصلى التقوقع الطائفي في فترة دراستنا ، فقد اندمج السكان ، على اختلاف مذاهبهم ، مع بعضهم بدلالة مواقع عقاراتهم المختلطة التي تبينها حدود العقارات المبعة . ويوضح ذلك مثال شراء المسيحي يوسف شاهين من السيد عباس جفال نصف الدار بزقاق الوسطاني ، يحدها قبة الطريق وفيه الباب شرقا بيت الحاج خليفة المغربيل وشمالا بيت الحاج ضاهر وغربا بيت مراد الدركزلي (١٠١) . واشترك المسلمون والمسيحيون حتى في ملكية عقار واحد وربما في السكن فيه معا ، كما في مثال شراء الخواجة الياس القاروط من الاخوين محمد والحرملة عايشة ولدي صالح بن حسن العسلي جميع عمارة وبناء المربع داخل دار البائعين بمحلة الميدان التحتاني بزقاق الموصلي ، ويحد الدار قبة دار خليل الرباط وشرقا الطريق وفيه الباب وتسمالا دار المشتري وغربا دار ورثة عبد الله شامية (١٠٢) .

وحدث الاندماج ايضا على مستوى السكان ذوي الاصول الجغرافية المتباينة ، فالمفاربة سكنوا في اكثر من زقاق في محلة باب المصلى ولم يشكلوا زقاقا خاصا بهم فيها ، كما ان زقاق التركمان اندمج بمنطقة القبة الحمراء . وورد ذكر زقاق الحوارنة مرة واحدة في العينة الاولى ولم يذكر ثانية في العينات التالية مما يوحي انه اندمج بدوره في منطقة اخرى .

ويلاحظ الاندماج كذلك على مستوى الفئات الاجتماعية والاقتصادية بدلالة تنوع اسعار البيوت وحجومها في الزقاق الواحد . فلم تكن هناك ازمة للاستقرارية واخرى للفقراء . وان تسمية زقاقين احدهما باسم اسرة سكر وثانيهما باسم اسرة المجتهد لا تعني ان كلا من هذين الزقاقين اقتصر حصرا على اسر سكر او المجتهد ، كما لا تعني ان جميع اسر سكر او المجتهد من الاثرياء ولا تضم فقراء بالرغم من ثروة عدد منهم . ومن الطبيعي ان توجد ازمة اسعار العقارات فيها عموما اكثر ارتفاعا منها في ازمة اخرى حسب نوعية اعمال سكانها ومواقعها .

ويمكن ملاحظة الاندماج بين مختلف الفئات الاجتماعية والاقتصادية في الزقاق الواحد بتصنيف العقارات المبعة بكاملها وبانصافها بعد مضاعفتها ، في عدد من الازقة

الرئيسية التي تتكرر فيها عقود البيع والشراء وذلك بحسب مستويات اسعارها ، كما في الجداول التالية :

عدد العقارات السكنية المباعة في محلة باب المصلى (كامل العقار او نصفه بعد مضاعفته) مصنفة حسب الازقة وفئات الاسعار والعينات

العينة الاولى ١٨٢٥ - ١٨٢٦

الازقة	حتى ٥٠٠	٥٠٠-١٠٠٠	١٠٠٠-٢٠٠٠	٢٠٠٠-٣٠٠٠	٣٠٠٠-٥٠٠٠	المجموع
البقارة	٢					٢
التيامنة	٢	١	١			٤
الجواني			١	٢		٣
السلطاني		٢	١			٣
القبة الحمراء	٣	٢	٢			٧
المخللاوي	١	٣	١			٥
الوسطاني	١		٤	١	١	٧
المجموع	٧	١٠	١٠	٣	١	٣١

العينة الثانية ١٨٢٤ - ١٨٢٥

البقارة	١	١	١			٣
القبة الحمراء	٢	٢				٤
الوسطاني	١	٢	١			٤
المجموع	٤	٥	٢			١١

العينة الثالثة ١٨٤٦ - ١٨٤٧

الجواني	١					١
السلطاني		١				١
القبة الحمراء	١	١				٢
المجموع	٢	٢				٤

العينة الرابعة ١٨٦٢ - ١٨٦٣

الزقاق	حتى ٥٠٠	٥٠٠ - ١٠٠٠	١٠٠٠ - ٢٠٠٠	٢٠٠٠ - ٤٠٠٠	٤٠٠٠ - ٥٠٠٠	المجموع
البقارة	١					١
التيامنة	١					١
الجواني	١					١
القبة الحمراء	٢		٢	١		٥
الوسطاني	١				١	٢
المجموع	٦	٢	٢	٥	١٥	

العينة الخامسة ١٨٧٤ - ١٨٧٥

البقارة	٣					٣
التيامنة	٣					٣
السلطاني	١					١
القبة الحمراء			١			١
الوسطاني	١					١
المجموع	٨	٧	١			

نلاحظ في العينات الثلاث الاولى ، بين عامي ١٨٢٥ - ١٨٤٧ ، ان ٤٢ عقارا من مجموع ٤٦ عقارا (أي بنسبة ٩١٫٣٪) تقع في فئات الاسعار الثلاث الاولى ، أي حتى ٢٠٠٠ قرش . وضمن هذا التوزيع نجد ان ١٣ عقارا تقع في فئة الاسعار المتدنية ، و ١٧ عقارا في الفئة التالية ، و ١٢ عقارا في الفئة الثالثة . ونستنتج من هذا ان مستويات الاسعار متوازنة ومتتالية وليس هناك من فجوات تفصل بين عقارات متدنية الاسعار واخرى مرتفعتها ، ويترجم ذلك بوجود مستويات اجتماعية واقتصادية متقاربة ومتوازنة بين سكان هذه الازقة . ويدل هذا ايضا على ان القوة الشرائية للنقد لم تتعرض الى هزات كبيرة . ويتسجم ذلك مع ما سبق ولاحظناه من تقارب في وسطي سعر القيراط في العقارات السكنية في العينات الثلاث الاولى .

ويختلف الامر في العينتين الثالثة والرابعة حيث نجد ١٧ عقارا من مجموع ٢٢ (أي بنسبة ٧٣٫١٪) تقع في فئات الاسعار فوق ٢٠٠٠ قرش ، فيما تقع العقارات

الست الباقية في الفئة التي تسبق هذه الفئات مباشرة . وليس مرد ذلك قلة البيوت المتواضعة الاسعار وازدياد البيوت المرتفعة الاسعار ، وانما السبب يكمن اساسا في التضخم المالي بسبب تدني قيمة القرش الفضي بالنسبة للعملة الذهبية ، العثمانية والاوربية ، وبخاصة الليرة الفرنسية التي بدأت اسعار البيوت تدفع بموجبها ، كما تظهر سجلات المحاكم الشرعية . وقد سبقت الاشارة الى ارتفاع وسطي سعر القيراط العقاري في العينة الرابعة بحوالي اربعة اضعاف ونصف عما كان عليه في العينة الثالثة . ثم هبط سعره في العينة الخامسة بحوالي ٢٣٪ من سعره في العينة الرابعة . ويفسر ذلك ايضا باضطراب الوضع الاقتصادي المحلي في الفترة بين ١٨٦٠ و ١٨٧٥ بنتيجة الدمار الذي سببته احداث عام ١٨٦٠ وبسبب عدم استقرار الاقتصاد المحلي وبخاصة ارتباطه بمجلة الاقتصاد الرأسمالي الاوربي وتبعيته له ، واستغادت من ذلك طبقة من التجار الوسطاء واصحاب رؤوس الاموال من مختلف المذاهب . وقد عبر هؤلاء عن ثرائهم ببناء البيوت الباذخة في دمشق آنذاك (١٠٢) .

بالرغم من ارتفاع اسعار العقارات السكنية في الفئتين الرابعة والخامسة بقي التوازن قائما بين فئات الاسعار المرتفعة ولم تتخللها ثغرات بين اسعار دنيا واخرى عليا مما يدل ، كما هو الحال بالنسبة لتدرج الاسعار في العينات الثلاث الاولى ، على تقارب في اسعار العقارات وبالتالي في المستويات الاجتماعية والاقتصادية لاصحابها . وهذا ما يؤكد انه لم يكن هناك تباين كبير بين فقراء واغنياء في الرقاق الواحد .

ويندرج في اطار الاندماج الاجتماعي مشاركة المرأة في محلة باب المصلى في بعض مظاهر الحياة العامة ، وبخاصة سوق العقارات ، على قدم المساواة مع الرجل وبدرجة فاقت مشاركة مثيلتها داخل دمشق . وربما يعزى هذا الى اصول الريفيية لعدد كبير من سكان المحلة والى انتقال دور المرأة الفعال في الريف اليها ، فقد برزت المرأة في محلة باب المصلى في شراء العقارات الكاملة ، وهذا امر له دلالة بأكثر من شراء المرأة حصة في عقار او اكثر لان هذا يكون في الغالب ناتجا عن ارث او عن تصفية حقوق مع الاقرباء . واشتملت العقارات الكاملة التي تعاطت النساء شراءها او بيعها على العقارات السكنية والتجارية داخل المحلة . وشاركت النساء كذلك في شراء وبيع الكدك والخلو بالنسبة للدكاكين . ونظرا لتملك المرأة العقارات الكاملة عرفت هذه العقارات باسمها ، وذكر ذلك حين تحديد جهات عقار ما كان يقال « يحده قلة بيت رحمة بنت ادريس وغربا قسيمه بيد الحرمة فاطمة بنت ابو الحسن الهواري » . وبلغت الانتباه في شراء النساء العقارات الكاملة او بيعهم لها ان معظمهن كن من اصول غير محلية ، كما يظهر ذلك مثلا في اسم الحرمة عائكة بنت حسين الفلاح التي اشترت جميع الدكان بالقرب من جامع المصلى ، واسم الحرمة فاطمة بنت أحمد افا الترك

التي اشترت بمالها جميع كدك وخلو الدكان بالشارع السلطاني ، واسم الحرمة زينب بنت عمر النحوي المغربي التي اشترت لنفسها جميع الدار بزقاق المخللاتي ، واسم المرأة عبدة بنت محمد الطرابلسية التي اشترت جميع الدار بالقبة الحمراء (١٠٤) وتدل هذه الامثلة على قبالية المرأة في سوق العقارات في محلة باب المصلى ، وعلى رغبة النسوة المهاجرات اليها بالتملك والاستقرار فيها ، لان ذلك يشكل المجال الاكثر ضمانا لتوظيف ما تمتلكه من مال ، الى جانب عقد الديون .

وعلى غرار الرجل ظهرت المرأة بنفسها في محكمة الميدان الشرعية ، بدون وكيل يمثلها ، في قضايا البيع والشراء التي ساهمت فيها . وزيادة على ذلك قامت المرأة بدور الوكيل عن الرجل في شراء العقارات وبيعها ، ليس بصفتها وصية على قاصر بل كوكيلة معتمدة رسميا (١٠٥) .

ونلمح في دور المرأة هذا في محلة باب المصلى تراتا ريفيا عريقا لعبت فيه المرأة دورا مستقلا معتمدة على نفسها في العمل والمعيشة والدفاع عن حقوقها ، في حين ان المرأة في المدينة كانت اكثر انزواء واقل ظهورا وممارسة لحقوقها بنفسها .

ويمكن القول ختاماً ان البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى في الفترة التي درسناها لا بد وان تتضح مدلولاتها بشكل اكبر باجراء بحوث مشابهة لمحات اخرى داخل دمشق واطرافها . وتفيد مثل هذه الدراسات في توضيح الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لمختلف فئات السكان وفي تفهم مواقفهم السياسية والدينية واتجاهاتهم الثقافية .

ملحق

اسماء بعض الاسر التي سكنت في محلة باب المصلى

(١٨٢٥ - ١٨٧٥)

يبين هذا الملحق اسماء الاسر ، على اختلاف مذاهبها ، التي وردت اسمائها كباتنة او مشتريه او ساكنة او مجاورة للعقارات المبيعة في ازقة محلة باب المصلى في العينات الخمس المنتقاة في الفترة بين عامي ١٨٢٥-١٨٧٥ . وسنبقى على تكرار اسماء الاسر في العينات هذه لان ذلك يؤكد استمرارية سكنها او علاقتها العقارية في الزقاق ذاته او الازقة ذاتها على مدى سنوات عديدة . وهناك اسر تحمل نسبة واحدة ، مثل الدركزلي (الدركزلي) وقروشان ، تسكن اكثر من اسرة منها في زقاق واحد فاكثفينا بذكرها مرة واحدة في الزقاق الواحد .

ونظرا لان اسماء الاسر مستقاة من القضايا المعروضة على محكمة الميدان في تلك الفترة فانها لا تشكل بأي حال مسحا شاملا للاسر التي سكنت تلك الازقة . كما ان عدم ورود الاسم في عينة ما لا يعني انعدامه وانما عدم وجود قضية في العينة يرد فيها . وتجدر الاشارة الى ان تشابه القاب او انساب بعض الاسر لا يعني دائما انها ترتبط بصلة القربى او انها موزعة على عدة ازقة ، او انها نقلت اماكن سكنها من زقاق الى اخر ، لان معظم الالقاب او الانساب ذو طابع حرقي او يدل على اصول جغرافية او جنسية . ومع ذلك فان هذه الالقاب والاسماء الجغرافية ذاتها تدلنا على حرف الساكنين في الازقة واصولهم الجغرافية . وسنذكر فيما يلي اسماء الازقة ثم الاسر التي سكنت فيها مرتبة هجائيا حسب كل عينة .

عينة عام ١٢٤٠ - ١٢٤١ / ١٨٢٥ - ١٨٢٦

اسم الزقاق	اسماء الاسر
ابو البرغل	: اوده باشي ، المغربل ، المكاوي .
ابو مايلة	: البين ، الحبال ، الحريراتي ، الطوير ، قصاب باشي ، الهواري .
الاربعة	: ابو سيف ، توما ، الحجار ، خاصورة ، الخباز ، الصوص ، عساف ، القزح ، معروني ، النشار ، هواري باشي .

- بصادر** : ادريس ، الدندشلية ، الدهان ، العلوي ، المغربي ، الهواري .
- البقارة** : ابو صالح ، ابو هزام ، ابو قورة ، تركمان ، الجوقدار ، الحلبي ، الخواجة ، الدركة ، طاش ، الطرابلسي ، القرياني ، المبيض ، المدني ، المصري ، منصور .
- البوشي** : البوطالب الزبال ، الضاهري ، لحوح .
- التركمان** : ابو سالم ، البوظلي ، الخولي ، الكردي .
- التيامنة** : الدرگزلي ، الناعم .
- الجواني** : البرادعي ، البوطالب الزبال ، جبر ، جهلان ، شحادا ، عطه ، المعراوي .
- الحوارنة** : الجليلاتي ، ديب ، المغربي .
- السلطاني** : التقي ، الحجار ، سعودي ، الطحان ، قرهباش ، المجتهد ، معتوق ، هواري باشي .
- عزام** : البلخي ، عطفة ، لولو .
- القبة الحمراء** : ابو عرفة ، بخيت العبد ، البيطار ، التونجي ، الجفال ، الجمال ، الجوقدار ، الحجار ، دنون ، السلطجي ، سليمان ، السمان ، السيد ، شرير ، صغير ، الطحان ، عبيد ، عكام باشي ، الفرا ، الفلاحة ، الكنفاني ، المجتهد ، المحمص ، معتوق ، المنجد ، الميتوني ، النابلسي ، ويس .
- المجتهد** : بازوباشي ، شعير ، عكام باشي ، فارة ، المجتهد .
- المخللاتي** : ابو خادورة ، ابو داوود ، ابو سويم ، التواني المغربي ، حموية ، حميم ، الدباغ ، الزبعور ، السواح ، شريف ، شيخ المحيا ، الصواري ، اللحام ، المحمص ، المخللاتي ، المعروني ، النحوي ، المغربي .
- الوسطاني** : ابو راس ، جفال ، الحلبي ، الدباغ ، الدرگزلي (الدرگزلي) ، الدفستاني ، الدينار ، رشيد ، شاهين ، الطويل ، فرح ، الفلاحة ، القباني ، القدسي ، القطان ، الكنفاني ، الكوركلي ، اللبان ، معتوق ، المغربي .

عينة ١٢٥٠ - ١٢٥١ / ١٨٣٤ - ١٨٣٥

الاربعين	: ابو زيد آغا ، الدقوقي ، الدياك ، الزراييلي ، السنوي ، الصرصر ، القضمانى ، المدكوكى ، المغربى ، المكناسى المغربى .
بادر	: البلشة ، الخاناتى ، سري مري ، السنوي ، المعلاوي .
البقارة	: ابو جوب ، الاجاتي ، الاشرم ، البيرملي ، البيطار ، التونجي ، الحجار ، الحلبي ، الدباغ ، الدقاق ، الزايد ، الفلاحة ، قدح ، قروشان ، القسيس ، المبيض ، المروش ، المصري ، معتوق .
التيامنة	: بدره ، الزهر .
السلطاني	: ابو السعود ، الحافي .
الشعرية	: الجراح ، الدكاك ، دنون ، الملقى .
القبة الحمراء	: البسناطي ، الجلاد ، الحلبي ، الخباز ، الدركزلي ، الشاملي ، الفقير .
المجتهد	: ابو النصر ، دبوس ، المعاريني .
الوسطاني	: بدر ، البرصلي ، التركماني ، الحلواني ، الخموي ، الدركزلي ، الدوماني ، الزنبركجي ، الزيات ، شاهين ، الشرقاوي ، العبجي ، الفرا ، القاروط ، الكردي ، الكنفاني ، لطفي ، المدني ، مرتضى ، المروني ، النحاس .

عينة ١٢٦٢ - ١٢٦٣ / ١٨٤٦ - ١٨٤٧

ابو مائلة	: الادلبي ، البين ، الحبال ، الحليواني ، السكافي .
بادر	: البغدادي ، رمضان ، السمان ، القضمانى .
التيامنة	: ابو عين ، التركماني ، داود ، الدركزلي ، السمن ، فرح ، الكفريا .
الجواني	: جبر ، الشوا ، الصباغ .
الزين	: الحصري ، سيالة ، الشعال .

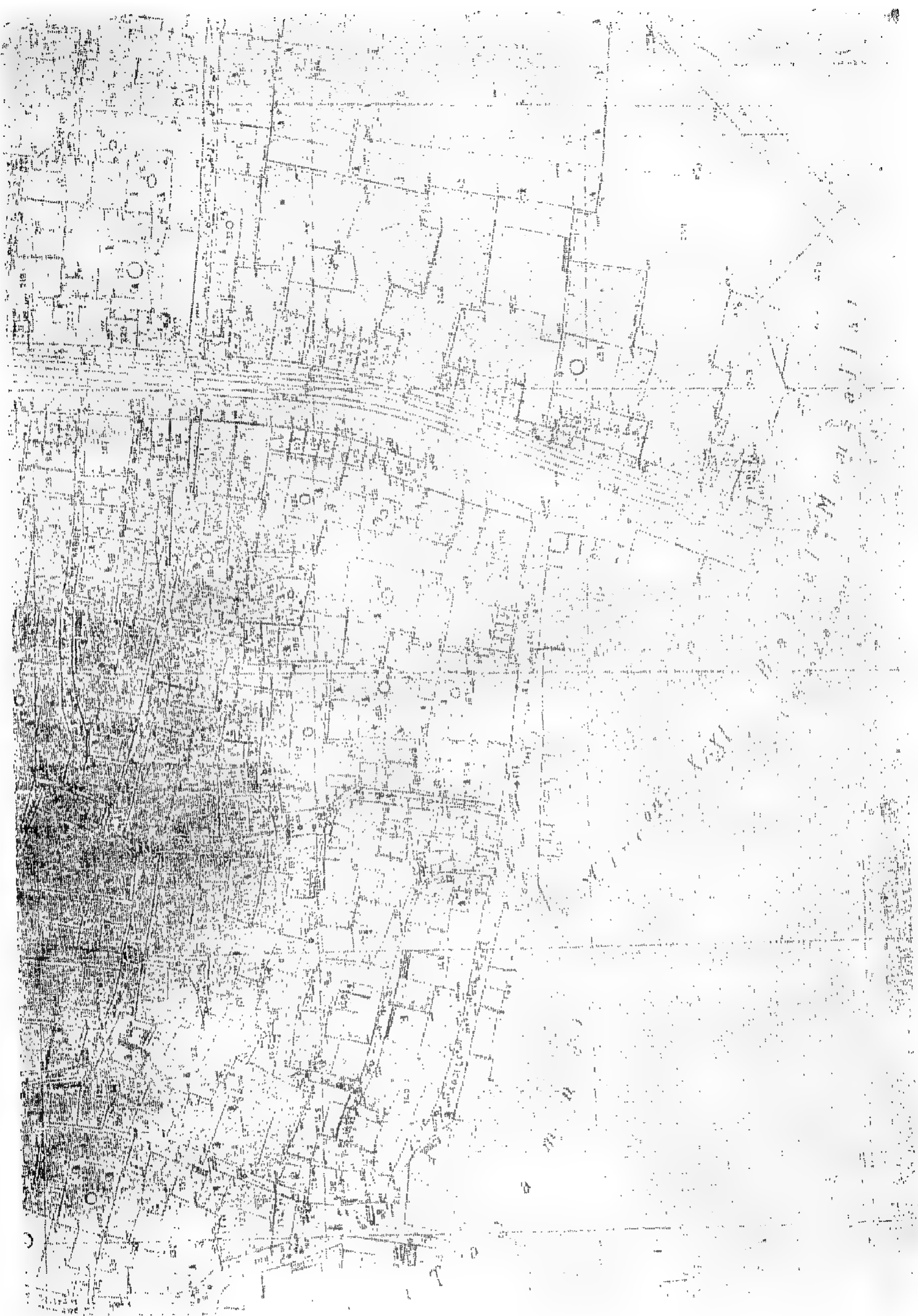
السلطاني	: البارودي ، شحير ، القدسي .
عزام	: امين ، الجناتي ، الحلبي ، ناظرة .
المجتهد	: البرطفش ، سرماياتي (الصرماياتي) ، سيالة ، فارة ، العطار ،
الوسطاني	: الداراني ، قاروط ، قصر الديل ، الكسواني .

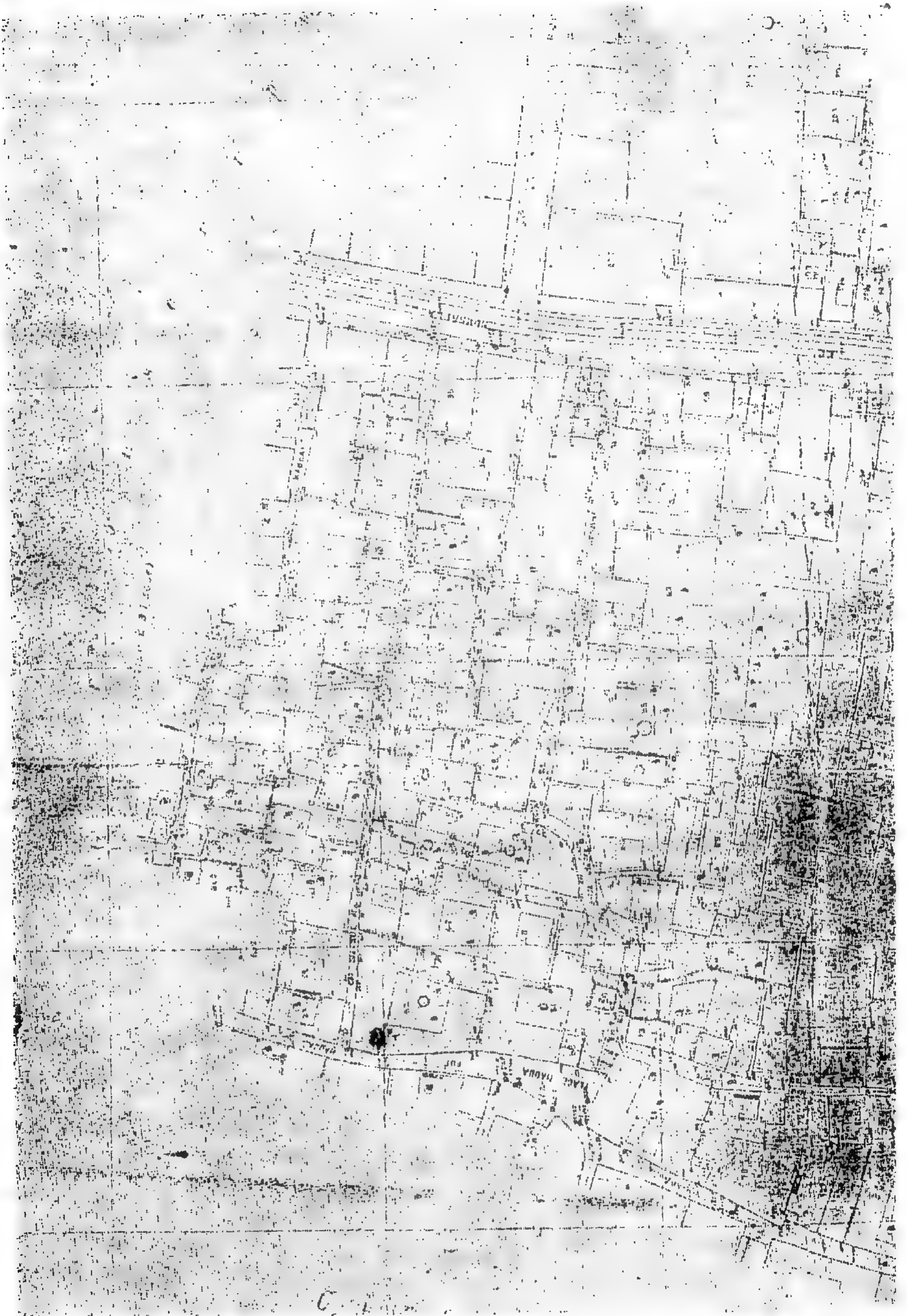
عينة ١٢٧٩ - ١٢٨٠ / ١٨٦٢ - ١٨٦٣

بدر	: الحلبي الشوي ، سكر .
البقارة	: البغدادي ، جراح باشي ، الحبال ، الحداد ، زبركجي ، سكر ، السمان ، صادقة ، العطار ، القهوجي ، مقصود ، الهواري .
التيامنة	: الادبي ، بريارة ، البطش ، جبر ، الحاصباني (الشهير بابي داود) ، حصوة ، الحمصي ، الدالي ، السرجي ، شاهين ، الصباغ ، قروشان ، القسي ، الكنفاني ، المصري ، المعراوي ، المغربي ، نونه ، الهوامي .
الجواني	: الاشقر ، جبر ، خير ، فرح ، القسي .
الزين	: ابو جوف ، حباب ، الخباز ، فارة .
سكر	: تلو ، سكر .
عسقلان	: كناكرية ، النعسان ، الهواري .
القبة الحمراء	: ابو غرة ، ابو ناعس ، الازن (الاظن) ، حباب ، الدقاق ، الدوماني ، الطرابلسي ، العسلي ، الفرستقي ، فضول ، الكاتب ، المجتهد ، المصري ، المغربي ، المغربي الزواوي (احيانا : الزواوي المغربي) ، هزوم ، البيرودي .
قويق	: جوهر ، الحلبوني ، اللحام .
المجتهد	: البرطفش ، حباب ، الدركزلي ، سيالة ، المجتهد ، المعمولي ، المنقاري ، النجار .
الوسطاني	: البلدي ، التراس ، الحمصي ، الدركزلي ، الدرق ، الرنكوسي ، قروشان ، قنبار ، المسماري ، المعراوي .

عينة ١٢٩٠ - ١٢٩١ / ١٨٧٤ - ١٨٧٥

ابو مائلة	: الادبي ، البرقدار ، الحواصلي ، خرمة ، الرباط ، اللحام .
الاربعين	: الخرقوقي ، المكاوي ، الكبيش .
بدر	: الازهري ، البرقدار ، الطنطاوي ، الموازلي .
البقارة	: الادبي ، التركماني ، الجلفي ، حجازي ، الحمصي ، الدنون ، ديب الحاصباني ، الطرابلسي ، القهوجي ، المغربي ، الورع .
التيامنة	: الاشقر ، البطش ، التتنجي ، التونجي ، جبر ، الجسروادي ، الجوخدار ، الحجار ، الدرعطاني ، الدوماني ، سعده ، شامية ، شرف ، شيخ الحارة ، الصباغ ، عفيف ، قروشان ، النجار ، الهواري ، واكد .
الجواني	: داود ، السرجي ، قروشان ، قطان .
الحبال	: اوده باشي ، الحبال ، الحلبي ، دنون ، زمرد ، السروجي ، الشاغوري ، الشمعة ، طهماز ، القطان ، اللحام ، الهواري .
الزين	: تلو ، سيالة ، الصيداوي ، الطرابلسي ، النجار .
السلطاني	: رمضان ، الشرقاوي ، المغربي ، المغربي التواني ، النجار .
القبة الحمراء	: الرنكوسي ، المغربي الزواوي .
القملة	: الانطلي ، البياض ، جهاني ، الحبوباينة ، السيدة ، الفاعور .
قولة	: الارفلي ، الحلاق ، الحلبي ، الفهد ، القباز ، الملا عيسى .
النشار	: الحلاق ، الحموي ، الدركزلي ، علما ، الميداني .
الوسطاني	: جمعة ، شامية .





- (١) انظر تعليق الشيخ محمد احمد دهمان في تحقيقه كتاب : اعلام الوري يمن ولي نائباً من الانراك بدمشق الشام الكبرى ، محمد بن طولون ، دمشق ١٩٦٤ ص ٦ - ٥١، ٥٢ - ٥٣ .
- (٢) انظر :
J. Sauvaget, « Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », REI, IV (1934), pp. 460, 469; R. Thoumin, « Deux Quartiers de Damas : le Quartier Chrétien de Bab Musalla et le Quartier Kurde' », BEO, (1931), pp. 99 - 135 .
- (٣) نعمان القساطلي ، الروضة الفناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٦ ، ص ١٠٧ .
- (٤) الشيخ عبد القادر بدران ، منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، دمشق ١٢٧٦ هـ ، ص ٢٨٦ .
- (٥) القساطلي ، ص ١١١ .
- (٦) انظر : سجل دمشق ، مجلس الولاية ، ١٢٦٠ - ١٢٦١ هـ ص ٣٥٥ - ٣٥٨ .
- (٧) انظر كأمثلة : محمد بن طولون ، مذاكرة الخلان في حوادث الزمان ، قسمان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٢ - ١٩٦٤ ، قسم ١ ، ص ١٩١ - ٢٢٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ ، اعلام الوري ، ص ١٤٢ ، ١٤٤ .
- (٨) انظر كتابنا :
The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, Pb. 1970, pp. 161-169.
- (٩) انظر كأمثلة الكتب التالية :
André Raymond, Grandes villes arabes à L'époque ottomane, Paris, 1985, The Great Arab Cities in the 16th - 18 th Centuries, an Introduction, New York University Press, 1984; Antoine Abdel Nour, Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVIe - XVIIIe siècle) , Beyrouth, 1982; D. Chevallier (ed.) L'Espace social de la ville arabe, Paris, 1979; A. Bouhdiba et D. Chevallier, (eds.) La ville arabe dans L'Islam, Tunis, 1982.
- (١٠) انظر :
Thaumin, pp. 101-102.
- (١١) سجل محكمة الميدان الشرعية ، رقم ٥٤٧ هـ ، ص ١٧٢ .
- (١٢) سجل رقم ٢٩٢ ، ص ١٦ .
- (١٣) سجل رقم ٤٧ هـ ، ص ٢٧٢ ، رقم ٦٥٢ ، ص ٥٠ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ .
- (١٤) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ٥٤ .
- (١٥) سجل رقم ٦٥٢ ، ص ٥٤ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٩٧ .
- (١٦) عرفت الجنيينة (سجل رقم ٣٢٢ ، ص ٨٦) بانها تشمل غراس اشجار ليمون حلو وحامض وكباد ونارنج ومشمش ودراقن وياسمين وغيره .
- (١٧) سجل رقم ٣٢٢ ، ص ٨٦ .
- (١٨) المصدر نفسه .

- (١٩) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٧٥ .
- (٢٠) سجل رقم ٥٠١ ، ص ١٢٠ .
- (٢١) سجل رقم ٦٥٢ ، ص ٥٤ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٥٧ .
- (٢٢) انظر حول هذه الدخلات : سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٩٢ ، رقم ٣٩٢ ، ص ٢٤٧ ، رقم ٥٤٧ ، ص ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٩٥ .
- (٢٣) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٢٠ .
- (٢٤) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٢٩ ، ٢٥٠ .
- (٢٥) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٧٦ .
- (٢٦) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٦٥ .
- (٢٧) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١٤٥ .
- (٢٨) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ١٤٢ .
- (٢٩) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٩٤ .
- (٣٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٩٧ .
- (٣١) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٤٧ .
- (٣٢) سجل رقم ٤٧٧ ، ص ٥١ ، رقم ٥١٠ ، ص ٥٨ .
- (٣٣) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٣٢٢ .
- (٣٤) سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٣٢٠ .
- (٣٥) دفعت اثمان ستة عقود شراء وخمسة عقود بيع في هذه العينة بالليرات الفرنسية . ودفع لمن عقد واحد بالليرة الجيدة الذهب ، كما دفع لمن عقد شراء وعقد بيع بريال فنس ، ونظرا لاختلاف اسعار هذه العملات ، حسب السوق العالمية والعثمانية والمحلية ، فقد اخلنا بقائمة الاسعار المعتمدة في المحكمة الشرعية بدمشق بتاريخ ٢٥ صفر ١٢٩٦/١٨ شباط ١٨٧٩ (سجل دمشق ، رقم ٧٠ ، ص ١٤٧-١٤٨) على اساس ان الليرة الفرنسية تساوي ١.٦ قروش والجيدة ١٢٢ قرشا ، وريال فنس ٢٠ قرشا .
- (٣٦) ص ٩٣ .
- (٣٧) ص ٩٣ .
- (٣٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٨٠ .
- (٣٩) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٥١ .
- (٤٠) انظر مثلا سجل رقم ٦٥٣ ، ص ١١٢ ، رقم ٦٥٤ ، ص ١٦٥ .
- (٤١) انظر مثلا سجل رقم ٥٤٧ ، ص ١٩٦ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٢٠٨ .
- (٤٢) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٢٨ .

- (٤٣) انظر تفاصيل أخرى عن البوايكي في كتاب : قاموس الصناعات النمامية ، الجزء الاول تأليف محمد سعيد القاسمي ، والجزء الثاني تأليف جمال الدين القاسمي و خليل العظم ، وتحقيق ظافر القاسمي ، باريس - لاهي ١٩٦٠ ، ج ١ ، ص ٥٥ .
- (٤٤) انظر كأمثلة : سجل رقم ٢٩٢ ، ص ٢٢٩ ، رقم ٥٠١ ، ص ١١ ، رقم ٤٧ ، ص ١٧١ .
- (٤٥) سجل رقم ٤٨٥ ، ص ٧٨ ، وايضا رقم ٥٤٧ ، ص ١٧٣ .
- (٤٦) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٦ .
- (٤٧) انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ، المنشور في كتابنا : بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، دمشق ١٩٨٥ ، ص ٧٩ .
- (٤٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٧٦ .
- (٤٩) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١٩٥ .
- (٥٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٢٣ .
- (٥١) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٩٦ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٢٠٨ .
- (٥٢) سجل رقم ٤٨١ ، ص ١٦٦ ، رقم ٤٧ ، ص ١٩٦ .
- (٥٣) سجل رقم ٢٢٣ ، ص ٣١٦ .
- (٥٤) سجل رقم ١٠ ، ص ٦٥ .
- (٥٥) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٦١ ، رقم ٥٤٧ ، ص ١ ، ص ٨٩ .
- (٥٦) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٥٦ .
- (٥٧) انظر ، سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٩٨ ، رقم ٣٣٣ ، ص ٢٤٩ ، ٤٠٠ ، رقم ٦٥٣ ، ص ١٥٨ .
- (٥٨) سجل رقم ٤٧ ، ص ١٥٤ ، ١٨٢ .
- (٥٩) سجل رقم ٢٣ ، ص ٣٤٩ .
- (٦٠) ذكر ان معملا للفخار في زقاق الارمين قد حلت مكانه دار سكنية في زمن غير معروف ، سجل رقم ٢٢٣ ، ص ٤١١ .
- (٦١) انظر حول هذه الخانات : سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢١٢ ، رقم ٥٤٧ ، ص ٢٦٤ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٢٠٨ .
- (٦٢) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١١٠ .
- (٦٣) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ ، وكذلك رقم ٦٥٣ ، ص ٥٠ .
- (٦٤) انظر مثلا : عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ١٩٦١ - ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ١١٣١ .
- (٦٥) الجزء الاول ، ص ١١٦ .
- (٦٦) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٥٨ ، وانظر ايضا ص ٨٩ .
- (٦٧) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٨٠ ، انظر ايضا رقم ٤٨١ ، ص ١٦٦ ، رقم ٥٤٧ ، ص ١٧١ ، ١٩٦ ، ٢٢٢ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ .

- (٦٨) سجل رقم ٢٠٧ ، ص ٨٢ .
- (٦٩) سجل رقم ١٠١ ، ص ١٠١ .
- (٧٠) سجل رقم ٥٠١ ، ص ١٥٥ .
- (٧١) انظر كمثال : سجل رقم ٥٠١ ، ص ١١٨ .
- (٧٢) انظر كمثال : سجل رقم ٢٠٧ ، ص ١٦ .
- (٧٣) انظر تفاصيل ذلك في بحثنا : « الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي في القرن التاسع عشر » مجلة دراسات تاريخية ، العددان ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ، ص ١١٥-١٥٩ ، وقد اعيد نشره في كتابنا بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، ص ٢٤١-٢٨٥ .
- (٧٤) انظر كمثلة : سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، رقم ٦٥٤ ، ص ١٧ ، ٥٤ ، ٨١ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٤٩ ، ٢٢٠ .
- (٧٥) استعنت بفاموس الصناعات الشامية لتفسير بعض الحرف .
- (٧٦) انظر بحثنا « الاقتصاد الدمشقي » ، ص ٢٥٥-٢٥٧ .
- (٧٧) القساطلي ، ص ٩٢ .
- (٧٨) ص ٩٣ .
- (٧٩) سجل رقم ٢٠٧ ، ص ٩٧ .
- (٨٠) سجل رقم ٢٠٧ ، ص ٢٠١ .
- (٨١) سجل رقم ٢٠٧ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، رقم ٣٣٣ ، ص ٢٧٣ .
- (٨٢) انظر كتابه : منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، ص ٣٨٩ .
- (٨٣) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٥٤ .
- (٨٤) انظر حول الاستيلاء على الاوقاف الخيرية من قبل اصحاب النفوذ ، بدران ، ص ٥٣ .
- (٨٥) سجل رقم ٤٧ ، ص ١٠٦ .
- (٨٦) سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٨٦ .
- (٨٧) سجل رقم ١٠١ ، ص ٦٥ .
- (٨٨) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ١٦٠ ، ٢٥٥ .
- (٨٩) انظر : محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، اربعة اجزاء ، بولاق ، ١٣٠١ ، ج ٢ ، ص ٦٢ .
- (٩٠) انظر حول استفادة ال سكر من هذه الاوقاف : سجل رقم ٢٠٧ ، ص ١٤١ ، ١٦١ ، رقم ٣٩٢ ، ص ٣٢٩ ، رقم ٥٠١ ، ص ٣٦٤ ، رقم ٥٤٧ ، ص ٧١ ، ٧٥ ، ١٥٤ ، ١٩٦ ، ٢١٣ .
- (٩١) سجل رقم ٢٠٧ ، ص ٦٨ ، رقم ٥٤٧ ، ص ٤٥ ، ٢٥٢ .
- (٩٢) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٤٥ ، ٧١ ، ٢١٣ .

Thoumin, pp. 113-115

- (٩٣) انظر القساطلي ، ص ١٠٢-١٠٣ وكذلك :
- (٩٤) سجل رقم ٤٧ ص ٥ ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، رقم ٥٣ ص ١٤٢ ، ١٥٨ .
- (٩٥) انظر كاملة على شراء المسيحيين الدور في ازمة القرشي والموصلي والصكري ، سجل رقم ٤٨٥ ، ص ٢٤ ، ٢٦٦ .
- (٩٦) القساطلي ، ص ٩٣ .
- (٩٧) المصدر السابق ، ص ٩٢ .
- (٩٨) ينعكس تحسين الدولة العثمانية معاملتها للمسيحيين في فترة التنظيمات في سجلات المحاكم الشرعية بدمشق . ويشير سجل محكمة الميدان ، رقم ٥٠١ ، لعام ١٢٧٥ - ١٢٧٦ الى المسيحي انه ابن فلان عوضا عن ولد التي كانت مستعملة باستمرار سابقا (ص ١٣ ، ١٤١٤) . واستمر استعمال « ابن » في السجلات اللاحقة ، ولم تعد السجلات تستعمل الفاظ نصراني او ذي عيساوي واستعفي عنها بكلمة خرسيتاني (وهي تشويه للكلمة الاجنبية) كما يظهر ذلك في سجل محكمة الميدان لعام ١٢٧٩ - ١٢٨٠ / ١٨٦٢ - ١٨٦٤ ، رقم ٥٤٧ ص ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٢٠٩ . وبدأ يستعمل للمسيحيين في السجلات لقب خواجه ، والكلمة فارسية الاصل تعني التاجر او الرئيس او المعلم ، ومنها كلمة خجا (خوجة) التركية وتعني المعلم . ثم اصبح يشار للمسيحيين انظر سجل محكمة الميدان رقم ٦٥٣ تاريخ ١٢٩٠ - ١٢٩١ / ١٨٧٣-١٨٧٤) بانهم من رعاية الدولة العثمانية كما في المثال التالي « الخواجه الياس ابن الخواجا يوسف القاروط من رعاية الدولة العثمانية قد اصدرت امرا في عام ١٢٧٥ / ١٨٥٩ نقله والي القدس الى قاضي غزة يقضي بالتفحص الميدان الشرعية) ، انظر سجل رقم ٦٥٣ ص ٢٨ ، وكذلك ص ٩٦ ، ١١٧ . وكانت الدولة العثمانية قد اصدرت امرا في عام ١٢٧٥ / ١٨٥٩ نقله والي القدس الى قاضي غزة يقضي بالتفحص من هوية المشتريين للعقارات وفيما اذا كانوا من رعاية الدولة العثمانية . وجاء في الامر ان ذلك يعرف بالنسبة للمسيحيين من رؤسائهم الدينيين (انظر بحثنا : غزة ، ص ٤١) ، والهدف من ذلك الحد من شراء الاجانب للعقارات .
- (٩٩) انظر :
- R. Thoumin, « Deux Quartiers de Damas: Le Quartier Chrétien de Bab Musalla et le Quartier Kurde » BEO, (1931) pp. 99-135 .
- (١٠٠) سجل رقم ٥٤٧ ص ٢٤١ .
- (١٠١) سجل رقم ٢٠٧ ص ١٦٥ .
- (١٠٢) سجل رقم ٦٥٣ ص ٢٨ .
- (١٠٣) انظر القساطلي ، ص ٩٦-٩٧ . وقد بلغ اعلى سعر لدار في محلة باب المصلى في العينات الخمس ، مقدار ٣٧٥٠٠ قرش اشتراها به الشيخ محمد سعيد افندي المجتهد بالوكالة من السيد محمد صالح قصاب من السيد عبد الله حباب ، وكانت الدار بزقاق المجتهد ، وتم بيعها في ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٩ / ١٢ تموز ١٨٦٢ (سجل رقم ٥٤٧ ص ٢٩٥) . وبلغ السعر التالي لدار سكنية في زقاق البقارة وقد بيعت بعد ثلاثة ايام من الاولى بمبلغ ١١٠٠ قرش (سجل ٥٤٧ ص ٢٩٩) .
- (١٠٤) انظر مثلا سجل رقم ٢٠٧ ص ٥٢ ، ٢٥٧ ، ٢١٤ ، رقم ٢٢٣ ص ٣٦٩ ، رقم ٣٩٢ ص ٣٤٨ ، ٣٥٥ ، رقم ٥٠١ ص ٤٤ ، رقم ٥٤٧ ص ٢٥٤ .
- (١٠٥) انظر مثلا : سجل رقم ٢٠٧ ص ٢١ .

الإدارة في الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل

د. نجدة خماش

جامعة دمشق

ان نظرة على الاحداث التي جرت في الأندلس خلال عصر الولاة ، تكفي للدلالة على انه كان عصرا مضطربا غير مستقر ، وان سيطرة الخلافة الاموية على هذه البلاد لم تكن اكثر من اسمية محضه ، وانه ، بينما كانت الدولة الاموية في الشرق تنهار تحت ضربات العباسيين ، كانت الأندلس تخضع ضوريا ليوسف القهري وفعليا للصنم ، وكلاهما ينتميان الى قيس وقبائلها التي تعتبر اقلية في الأندلس بالنسبة للقحطانية التي تؤلف قبائلها اكثرية العرب النازلين في هذه البلاد . وقد اضطرت نيران الحرب الاهلية بين قيس ويمن وكل فريق يبذل كل ما لديه من قوى لكي يحرز النصر فيها .

ولكن تطور الاحداث لم يجعل السيطرة على الأندلس من نصيب اي فريق من المتنازعين عليها ، وانما نالها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي نجح باعجوبة من سيوف جلادي بني العباس وحظي بالسلامة في شمال افريقية ، ثم احرز المجد في الأندلس ، حينما أسس لاسرته اماره مستقلة عن الخلافة في المشرق . ولما كان نجاحه في تأسيس الامارة مرتبطا الى حد بعيد بالتنظيمات التي طبقها ، فانه يحق لنا ان نتكلم عن مآثره في هذا المضمار ، وبالرغم من ان المعلومات المتعلقة بالتواحي

اعد هذا البحث لدعوة ((من الشام الى الأندلس)) دمشق ، المديرية العامة للآثار والمتاحف ،
٤/٢٨ - ١٩٨٦/٥/١ .

الإدارية شحيحة ، والمصادر التي بين أيدينا متأخرة لا تعكس الأوضاع في الأندلس بشكل دقيق ، إلا أنه يمكننا أن نعطي صورة عن مقدرة عبد الرحمن الإدارية ، هذه المقدرة التي تظهر أكثر جلاء ووضوحاً عند مقارنة ما تم في عهده ، مع ما كانت عليه الأندلس من أوضاع إدارية متردية من قبل .

تشيد الروايات بمظلة دولة بني أمية التي قامت في الأندلس بفضل عبد الرحمن ، هذه الدولة التي دامت نحواً من ٣٠٠ عام ، والتي لم يك في دول الدنيا أنبل منها ولا أكثر نصراً على الشرك وإجماعها لخلال الخير (١) . كما تشير الروايات إلى أن عبد الرحمن جدد ما طمس لبني أمية بالشرق من معالم الخلافة وآثارها (٢) ، وأنه بالرغم من دخوله بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه ، فقد مصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، بالإضافة إلى اتخاذ الولاة والحجاب والوزراء والكتاب والقضاة ، وإن عدد جنوده بلغ حسب قول المقرئ ١٠٠ ألف فارس (٣) .

هذه الروايات والأقوال ، على الرغم مما قد تحمل في طياتها من المبالغات تشير إلى بدء ظهور ملامح تنظيم حكومي واسع في أيام عبد الرحمن الداخل لم يكن موجوداً في عصر الولاة . وليس هذا بغريب ، فعبد الرحمن كان حاملاً من جهة لتقاليد الأسرة الأموية في الحكم والتنظيم ، وهي تقاليد اكتسبتها خلال حكمها لدولة مترامية الأطراف متباينة الأجناس مدة تقرب من القرن ، كما أنه كان محاطاً بجماعات ومساعدين من الموالى والانصار كان بعضهم ذا تجربة في ميدان التنظيم الإداري ، وبعضهم كان بالأندلس يعرف أوضاعها ونواحي ضعف الحكم فيها ووسائل الإصلاح ، أمثال موالى الأمويين وأرطباس الدمي ابن الأسرة القوطية الحاكمة ، إلا أنه يستحيل تحديد دور كل واحد من هؤلاء في العمل التنظيمي ، ولذا فإن العمل كله يعزى إلى عبد الرحمن ، لا على أنه مبتكره وحده ، وإنما على أساس أن كل ما جرى إنما جرى باسمه وتحت إشرافه .

بعد تغيير عبد الرحمن لمفهوم الحكم الجانب الأعظم من أعماله ، إذ إن السلطة قبل عبد الرحمن كانت قبلية ، فعلى الرغم من وجود وال في قرطبة فائداً لا نسمع ولو مرة واحدة عن عمال لكور الأندلس في هذه الفترة ، وإنما نسمع بوجود رئاسات . والنصوص التي بين أيدينا تشير إلى أن معظم أرض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمقبلين إليها من العرب والبربر ، وأن حقوق العرب على النواحي التي نزلوا فيها كانت حقوقاً جماعية ، أي أن الأقطاعات كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على أفرادها ، وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين أن « الثغر

كان لليمن « او ان ابا الصباح وحيوة بن ملامس كانا سيدي الغرب (٤) ، بل لا يمكننا تفسير نزول اجناد الشام بالكور ، كل جند بكورة ويكون لهم ثلث اموالها ، الا على هذا الاساس (٥) ، اي ان الجند باسره كان ينزل الكورة ويكون رئيسه صاحب الامر فيها ، وهذا يفسر لنا قدرة عرب الاندلس وبربرها الاولين على القتال واستمرارهم فيه ، مع التصاري الاسبان في الشمال ومع نصارى غالة في اول الامر ، ثم فيما بينهم وبين انفسهم بعد ذلك ، لانهم كانوا جميعا جنودا لا عمل لهم الا القتال ، ولو كانوا توزعوا الارض قطعا صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لاصبح من الصعب اقتلاعهم منها وارسالهم للحرب كما حدث لكثير من عرب مصر ، اما عرب الاندلس فلم يكن احد منهم يملك ارضا لنفسه وانما الارض ملك للقبيلة كلها ، فكان رئيس القبيلة او شيخ مجموع القبائل او صاحب لواء الجند يجمع الاموال بمعاونة رؤسائها من اهل الدمة ويقتطع ثلثها ويؤدي ثلثها لبيت المال ان كان رئيس جند نازل ، او عشرها ان كانت الارض اقطاعا ، وعليه مقابل ذلك ان يكون مستعدا برجال قبيلته للخروج الى الحرب ، اي ان كل ما كان يربط القبيلة بالحكومة المركزية هو اداء ما ينبغي عليها من المال والاشتراك في الحرب مقابل الرزق والعطاء ، وهذا ما ادى الى فقر الادارة المركزية وعجزها عن ادارة البلاد كلها ادارة موحدة ، وهبوط امر ولاية الاندلس واجتراء اجناد العرب في النواحي عليهم ، فاذا اھين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، واذا استنجد رئيس عدد من القبائل ببني عمومته خفت قبائل باسرها لعونه ، فعندما غدر يوسف الفهري (١٢٩ - ١٣٨ هـ) بابن حريث الجذامي وعزله عن كورة رية بعد ان جعلها طعمة له ، غضب يحيى بن حريث وتضامن مع ابي الخطار على الصميل ويوسف الفهري واصفقت يمن الاندلس كلها حميرها وكندتها وملحجها وقضاعتها على تقديم يحيى بن حريث والتفت مضر وربيعه حول يوسف والصميل (٦) .

وبما ان السلطة كانت قبلية ، فقد تجلى المفهوم القبلي للسلطة واضحا عند تنازع القبائل على امارة الاندلس ، اذ ان القبيلة المنتصرة كانت تقوم بالتكيل بخصومها ولا تكتفي بنيل الامارة ، وهذا ما كان يشكل خطرا على قضية العرب والاسلام في ارض شبه الجزيرة الايبيرية ، لا سيما وان الدولة المسيحية الاسبانية نشأت وترعرعت واصبحت لها كل مقومات الدولة في فترة عصر الولاة (٧) .

لذلك عمل عبد الرحمن جاهدا على احوال سلطة الدولة ، ممثلة بالامير ، محل سلطة القبيلة ، وحاول تطبيق هذا المفهوم مباشرة اثر انتصاره ودخوله دار الامارة في قرطبة ، وتجلى ذلك في موقفه من القيسية ، اذ انه لم ينكل بهم وانما اخضعهم لسلطانه ومنع اتباعه من اليمانية من السلب والنهب (٨) ، كما منعهم من قتل اعدائهم واستئصال شافتهم قائلا : « لا تستاصلوا شافة اعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لمن هم اشد عداوة منهم » يشير الى استبقائهم ليستعان بهم على اعداء الدين (٩) .

أما موقفه من اليمانية الذين دعموه ، فإنه بعد أن وصل إلى الحكم اعتبرهم أنبعا له عليهم أن يأتروا بأمره ، في حين أنه لم يكن بالنسبة لهم أكثر من أداة لتحقيق ثأرهم من القيسية ، وكان هذا التباين في النظرة من العوامل التي أدت إلى ثورتهم على عبد الرحمن ، بالرغم من أنه حاول بعد دخوله قرطبة أن يتألف رؤساء القبائل ، فعمد لاستحضار الوفود إلى قرطبة ، فأنشأوا عليه ، كما يقول المقرئ ، ووالى عبد الرحمن القعود لهم في قصره عدة أيام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم (١٠) .

كان من نتيجة الثورات التي اندلعت لا سيما ثورة اليمانية الذين خرجوا في طلب ثأر رئيسهم أبي الصباح اليحصبي (قتل سنة ١٤٩ هـ) أن استوحش من العرب قاطبة وانحرف عنهم كما يقول المقرئ : إلى اتخاذ الماليك ، فوضع يده في الابتياح ، « فابتاع موالى الناس بكل ناحية واعتضد أيضا البربر وشجعهم على التوجه إليه من العدو فأحسن لمن وفد عليه إحسانا رغب من خلفه في المتابعة » . وينقل المقرئ كذلك عن ابن حيان « أنه استكثر منهم ومن العبيد فاتخذ أربعين ألف رجل صار بهم غالباً على أهل الأندلس » (١١) . ويشير صاحب الأخبار المجموعة إلى أن الأمير عبد الرحمن أوجد ما يسمى بعرافة السود ، وأنه وضع الشراء في الماليك والحق فثاب الناس إليه وسارعوا نحوه حتى صار في ديوانه جماعة .

بالإضافة إلى هذه القوة التي بلغت أربعين ألفاً (وهو رقم فيه ما يدعو إلى الشك) والتي جعلها عبد الرحمن تحت سيطرته المباشرة ، كان هناك الجيش المؤلف من الجند العرب . ومن نص يورده ابن الخطيب نستنتج أن الجيش انقسم في عهد الإمارة إلى فئتين رئيسيتين هما الشاميون والبلديون ، وأنه كان لكل منهما نظام دقيق في العطاء لا نعلم تاريخ وصوله إلى هذه الدقة وإن كانت ملامحه الأولى قد ظهرت منذ عهد عبد الرحمن الذي قطع البعوث على الأجناد وجعلها بينهم دولا في كل ستة أشهر ، عندما أرسل مولاة بدرا وتما بن علقمة إلى طليطلة لمحاصرة هشام بن عروة (١٢) سنة ١٤٥ هـ ، ويبدو أن الشاميين كانت لهم الصدارة ، فكانوا عماد الجيوش وأصحاب الديوان والكتبة فيه (١٤) . وكانوا أحرارا من العشر معدين للغزو ، ولهم لواءان ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الإهبة ، واللواء الغازي لا يقيم في الغزو إلا ثلاثة أشهر ثم يعود ويخرج الثاني ، أما مدة عقد اللواء الغازي من البلدين فستة أشهر ، وكان أصحاب المعاهد من الشاميين يعطون مائتي دينار ، للواحد ، في حين يعطى الغازي بعقد من البلدين عند انقضاء الغزو مائة دينار ، ولا يعطى غير المعقود لهم شيئا . وكان الشاميون من غير بيوتات العقد يرزق الواحد منهم خمسة دنائير ، ويرزق اقرباء أصحاب المعاهد ، مثل أخوته أو بنيه أو بني عمه ، عشرة دنائير عند انقضاء الغزو . وكان المعقود له

يقوم بتقديم أسماء من غزوامعه تحت لوائه ممن يستحقون العطاء فيعطونهم على قوله تكملة له (١٥) .

اما تنظيم فرق الجيش فظل في عهد عبد الرحمن بسيطا كما كان قبلا منقسما الى فرقتين ، فرسان ورجالة ، ولكل منهما قائد يعرف بصاحب الخيل وصاحب الرجالة (١٦) . وكانت قيادة الجيش في الفترة السابقة للولاة ، اذ كانوا كما يقول المراكشي ولاة الحروب فيها (١٧) ، ولا نكاد نسمع بوجود قائد أعلى الا في عهد يوسف الفهري الذي جعل الصميل قائده الأعلى ، فكان ليوسف الاسم وللصميل الرسم ، فأخذ يقرب من يشاء ويدفع من يشاء الى ان تمكن بالدولة (١٨) . فلما نجح عبد الرحمن في الدخول الى قرطبة نجده يقود الجيوش بنفسه أحيانا ، او يجعل قيادتها لبعض اقربائه ومواليه لاسيما مولاة بدر الذي ارسله مع تمام بن علقمة في جيش كثيف الى طليطلة لاختطاف هشام بن عروة ، كما ارسله الى الثغر حيث تقدم الى البشة (١٩) فحاربها فأذعن وأدت اليه الجزية (٢٠) ، وأرسله كذلك للقضاء على ثورة البربر بقيادة بحره ابن البرانس (٢١) . وعندما تقضى يوسف الفهري العهد وخرج سنة احدى وأربعين ومائة ولحق بطليطلة قدم الامير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني ، وكان قد نزل عليه في تلك السنة نفسها ، فعقد له على اشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور ، فانتصر عبد الملك . كما ارسل جيشا بقيادة عبد الملك عندما زحف اهل غرب الاندلس نحو قرطبة لحربه انتقاما لمقتل رئيسهم ابي الصباح ، وهكذا جعل القيادات اما للموالي وعلى رأسهم مولاة بدر ، او لافراد من البيت المرواني على رأسهم عبد الملك بن عمر المرواني الذي اظهر اخلاصا وتفانيا في خدمة عبد الرحمن (٢٢) .

التقسيمات الادارية واهم الموظفين الاداريين

عهد عبد الرحمن اثر استتباب الامر له الى تعيين الولاة على الكور المختلفة . ولا تشير الروايات الى تقسيمات ادارية جديدة في عهده ، كما ان النصوص التاريخية التي بين ايدينا ليس فيها اشارة واحدة الى ان احدا من الولاة او الامراء او الخلفاء قام بتكوين الاندلس او تقسيمه الى اقسام ادارية ، حتى احمد بن محمد الرازي صاحب اول وأوفى تاريخ للاندلس لم يشر الى ذلك ، ونجد الاندلس في كلامه مقسما تقسيما اداريا ثابتا منذ زمن طويل ، فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار انها اشياء معروفة ، اما في جغرافيته (صفة الاندلس ، ٨٩٠ م) فيعطينا بيانا كاملا ليس فيه اشارة واحدة الى تغيير او تعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك ، هو ان احدا من المسلمين لم يضع هذا النظام ، وانما وجدوا تقسيما قائما فساروا عليه مع تعديلات شكلية (٢٣) اقتضتها الاحوال الجديدة ، واستبدلوا بما وجدوا من التسميات والمصطلحات ما حملوه معهم من المشرق .

فمصطلح الكورة مثلا لم يظهر الا بعد سنوات ، واول ما نسمع به في ١٢٠ هـ / ٧٤٣ م في خبر تفريق ابي الخطار الحسام بن ابي ضرار الكلبي للشاميين على كور مذكرة باسمائها ، البيرة ، ورية ، وشذونة واشبيلية وجيان وباجة ، وتذكر ايضا تدمير ، ولكنها لم تكن اذ ذاك كورة ولم تصبح كورة الا في عهد عبد الرحمن الداخل (٢٤) . ويبدو ان نظام الكور ، فيما يتصل بنواحي الجنوب ، عم من ايام عبد الرحمن ، اما نواحي الثغور فقد ظلت مدنا ذات احواز حتى نهاية الخلافة ، وبهذا يكون العرب قد اخذوا فيما يتعلق بالتقسيم الاداري النظام الروماني القوطي الذي وجدوه ثم عدلوه بعض الشيء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحي الحدود والثغور كما هي مدنا عسكرية ذات احواز . ولكن اذا كانت المدينة تابعة للكورة في المشرق فان الكورة هي التي تتبع المدينة في الاندلس لان العرب في الاندلس اخذوا الاساس الروماني وهو المدينة . وعرف الاندلس الاسلامي نظام الاجناد او الكور المجندة ، ولم يعرف نظام الاجناد ، الا في الشام ، هذا النظام ، الذي كان من اوكد اسباب قوة الدولة الاموية ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس على ايام ابي الخطار بن الحسام ٧٤٣/١٢٥ ، مع اختلاف واحد هو ان الجند في الشام كان يضم كورا كثيرة ، اما في الاندلس فكان يقابل كورة واحدة . وقد ظلت هذه الاجناد عسبا من اعصاب القوة العسكرية حتى عهد الحاجب المنصور ، ولدينا من عهد الامير محمد ابن عبد الرحمن (٢٣١ - ٢٧٣ هـ) بيان باعداد من كانت بعض النواحي تقدمه من الفرسان الى جيش الدولة ، فاذا نظرنا الى هذا البيان لوجدنا ان اربعا من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان اضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجندة ، وذلك يعطينا فكرة عن الاهمية العسكرية لنظام الاجناد (٢٥) .

نلاحظ من تتبع الاحداث ان عبد الرحمن اعتمد في بادئ الامر على الزعماء القبليين فجعلهم ولاة في مناطق سيادتهم ، كابي الصباح الذي عينه واليا على اشبيلية (٢٦) وسليمان بن يقظان عامل برشلونة ، وجابر بن العلاء بن شهاب عامل كورة رية ، وكان من القيسيين الذين دعموه (٢٧) . ولكن ثورة العصبية جعلته يخلع الزعماء القبليين الذين اظهروا رفضا للانصياع الى سلطة الامير العليا ، ويضع بدلا منهم امراء من الامويين او الموالي ، كما فعل في طليطلة التي عين عليها حبیب بن عبد الملك (٢٨) ، واشبيلية التي جعل ولايتها لعبد الملك بن عمر بن مروان ، ويبرز من بين الموالي الذين اعتمدتهم عبد الرحمن ، عبد السلام بن بسيل ، وبسيل مولى هشام بن عبد الملك ، اذ استعمله على شذونة وموزور ، والجزيرة ، واستعمله على كورة ماردة وغيرها من الكور . واعتمد عبد السلام بدوره على ابنه عبد الواحد في ادارة هذه العمالات . واذا كانت الروايات تقدم لنا اسماء بعض الولاة ، فانها لا تشير الى مدى صلاحياتهم وسلطاتهم ، ولكنها تظهر بوضوح ان عبد الرحمن كان يطلب من ولائه

الالتزام بالطاعة له وتدير شؤون كورهم بما يتفق ومصلحة الدولة . ويتضح موقفه هذا من كتاب وجهه الى سليمان بن يقطان الاعرابي عندما وجد انه سلك معه سبيل الخداع : « أما بعد فدعني من معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق لتمدنّ يدا الى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، او لازوين بنانها عن رصف المعصية تكالا بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد » (٢٩) .

اما شؤون المعاهدين او العجم فقد تركهم المسلمون احرارا ينظمون امورهم على النحو الذي ارادوه ، ماداموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الاموال ، فظلوا يفصلون في اقضيتهم وفقا للقانون القوطي القديم المعروف باسم Forum Judicum وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . واقام العرب على اهل الامة والنصارى رئيسا منهم ولقبوه بقومس ، وجعلوه مسؤولا امامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى ، ونفهم من النص الذي يورده الراهب الذي كتب مدونة البلدة Chronicon Albeldense ان العرب تركوا لاهل البلاد النصارى حق اختيار حكاهم ومنظمي امورهم ، وانه كان هناك اكثر من قومس (٣٠) اي انه كان على راس النصارى في كل ناحية قومس من اولي الحنكة والدهاء والمداواة والمعرفة بالجباية اللازمة ، كما يقول لسان الدين ابن الخطيب (٣١) . وقد عين عبد الرحمن لاول مرة في الاندلس رئيسا عاما لهم عرف بقومس الاندلس (٣٢) يقيم الى جواره في قرطبة ويستشير كاحد عليه القوم (٣٣) ، وتسلم هذا المنصب ارطباس الذي يذكره ابن القوطية على انه ابن لفيطشة ، وكان قد انضم الى العرب المسلمين وساعدهم في فتح الاندلس . ولكن قومس الاندلس لم يكن له حق تعيين قمامسة النواحي لان ذلك كان يعطيه سلطانا واسعا خطرا ، لا سيما وان النصرانية كانت لا تزال واسعة الانتشار . ويذهب سيمونت Simonet الى ان سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المدن التي ينتخبهم اهلها بل يمتد الى كل الناحية الداخلة في زمامها ويقول « ولا شك انه كان يعاون القمامسة موظفون آخرون ، اصغر منهم ، يعملون تحت ادارتهم ويخضعون لسلطانهم في المدن ، وينوبون عنهم في القرى الداخلة في زمام ناحيتهم ، ويتولون الاعمال المختلفة من ادارية ومالية وقضائية » (٣٤) .

الى جانب الولاة ورؤساء اهل الامة الذين ساعدوا عبد الرحمن في ادارة الدولة نجد المصادر تشير ، ولاول مرة ، الى وجود حجاب وكتاب ووزراء بالاضافة الى القضاة ، في حين تهمل ذكر هؤلاء في الفترة السابقة .

وتكاد المصادر تجمع على ان عبد الرحمن كان لا يكل الامور الى غيره ، ولكنه ايضا لا ينفرد في ابرامها برأيه ، ولذلك نجد انه جمع حوله عددا من المستشارين

اطلق عليهم البعض اسم الوزراء . ولكن المقرئ يعلق ان الداخل لم يكن له من يطلق عليه سمة وزير ، ولكنه عين أسيافا للمشاوراة والمؤازرة ، وكان بعض هؤلاء من الموالي وبعضهم الآخر من العرب ، أولهم ابو عثمان القائم بأمر دولته وعبد الله بن خالد ، وكذلك شهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البربر وقيل انه رومي ، وعبد السلام بن بسيل الرومي ، وقد أصبح لولده فيما بعد نباهة عظيمة في الوزارة وغيرها . أما من العرب فنجد ذكرا لثعلبة بن عبيد بن نظام الجذمي صاحب سرقسطة لعبد الرحمن ، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته (٢٥) . لا ننسى انه اعتمد أيضا على الأمراء الأمويين ، وعلى رأسهم حبيب بن عبد الملك الذي كان من بين من يشاورهم في رايه وإدارته ويضمه الى خاصته من نقباء دولته وسائير أصحابه (٢٦) . أما كتابه فكانوا كلهم من الموالي ، فاذا تتبعنا أسماءهم ، وجدنا ان بعض مستشاريه كانوا في الوقت نفسه كتابا له ، وعلى رأسهم كبير نقبائه ابو عثمان ، وصاحبه عبد الله بن خالد ، وبالرغم من ان أمية بن يزيد مولى معاوية بن مروان كان يكتب قبله ليوسف الفهري ، فانه اتخذ كتابا له وكان أيضا في عداد من يشاوره ويفضل أمره وآراءه (٢٧) . واتخذ عبد الرحمن لنفسه حجابا كلهم من الموالي الا منصور الخصي الذي كان أول خصي استحجبه بنو مروان بالاندلس ، ولم يزل حاجبه الى ان توفي الداخل (٢٨) .

نظم الداخل أيضا شؤون الأمن ، فنجد لأول مرة ذكرا لوال على الشرطة . وكان أول صاحب شرطة هو الحصين بن الدجن بن عبد الله العقيلي ؛ فارس أهل الشام ، حضر يوم المصارة مع عبد الرحمن فأحسن البلاء ، فلما استوسق الأمر لعبد الرحمن عرف لصالح بلائه فأختصه وولاه الشرطة (٢٩) . كما ضم عبد الرحمن مواليه فجعلهم أحراره (٤٠) .

نستنتج مما تقدم ان عبد الرحمن اتخذ لنفسه عصبية خاصة من اقربائه ومواليه اعتمد عليها منذ ان بدت في الأفق ملامح تمرد انصاره من اليمانية عليه ، فاقطعهم الاقطاعات وميزهم بالرتب والمناصب العالية (٤١) . ولم يلبث الأمويون ان كونوا في المجتمع الاندلسي طبقة خاصة من نبلاء الدم عرفت بطبقة القرشيين ، كانت تحيط بالأمير في بلاطه ولها حق التقدم على غيرها في الاحتفالات الرسمية ، كما كانت تتمتع بامتيازات كثيرة بالإضافة الى المرتبات الضخمة التي كان بعض أفرادها يتناولونها ، ويظهر ان ديوانا انشئ لهذه الغاية عرف بديوان قریش . ونظمت هذه الطبقة فيما بعد ليصبح لها تقيب خاص على شاكلة تقيب الهاشميين في المشرق (٤٢) ، كما ان الموالي الذين اختصهم عبد الرحمن بالاقطاعات والوظائف لم يلبثوا خلال عصر

الامارة ان اشتهر منهم موظفون كبار في البلاط ، فكونوا نواة تلك الطبقة النبيلة التي قامت نبالتها على الوظيفة ولعبت دورا بارزا في الاحداث خلال عصر الخلافة (٤٣) .

بالرغم من كل ما قدمه عبد الرحمن لاقربائه ومواليه ، وما فعلوه هم من اجل الدفاع عنه ، فانه كان ينظر اليهم كاتباع لا كشركاء في هذه الدولة التي شادها بنفسه ، وكان يصرح ان لا منة لاحد عليه في انشائها بعد الله عز وجل ، وان ما فعله بالنسبة لاقربائه شيء عظيم اذ اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ولذا فحقه عليهم اعظم من حق المنعم على المولى (٤٤) .

ان نظرة عبد الرحمن هذه ، جلبت عليه نقمة بعض هؤلاء ، الذين حاولوا فيما بعد الاطاحة بحكمه وحياته ، فكانت ردود فعله بالتالي قاسية شديدة القسوة ، لا سيما على اقاربه ، فقد قتل في ١٦٣ هـ عبد السلام بن يزيد وقتل معه من الوافدين عليه عبيد الله بن ابا بن معاوية ، وهو ابن اخيه ، لتآمرهما عليه ، ويقال ان ابا عثمان كبير الدولة قد ساعدهما على ما هما فيه من الخلاف ، ومع ذلك فلم ينله ما نالهما (٤٥) . ولما قيل لعبد الرحمن ان ابا عثمان كان معه وهو الذي ضمن له تمام الامر قال : هو ابو سلمة هذه الدولة فلا يتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شأن ابي سلمة ، ولكن ساعته عتبا اشد من القتل (٤٦) .

القضاء : ان اقدم تاريخ لقضاة الاندلس هو كتاب « تاريخ قضاة الاندلس » لمحمد بن الحارث بن اسد الخشني ، وهو مغربي من تونس اورد أسماء ثلاثة رجال ذكر انهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدي بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشي ، وذكر انهم كانوا قضاة ايام الولاة ، قبل قيام الدولة الاموية (٤٧) ، وذكرهم ايضا ابو الحسن النباهي في كتابه « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر في حولايات الاندلس ولم يشر اليهم احد من اصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضي ، وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة . ومعظم اخبارهم عند الخشني منسوبة الى احمد بن فرح بن منتيل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الاندلسي ، فقد ذكر ابن الفرضي انه كان ينسب الى اعتقاد مذهب ابن مسرة ، وكان المسريون يعتبرون في عداد الزنادقة عند فقهاء الاندلس ، فأخبار ابن سنتيل ، لهذا ، مشكوك فيها لا يوثق بصحتها (٤٨) .

ومهما كان نصيب اخبار اولئك القضاة الثلاثة من الصحة فمن الثابت وجود قاض عندما دخل عبد الرحمن الاندلس ، وهو يحيى بن يزيد التجيبي ، الذي كان يطلق عليه اسم قاضي الجند (٤٩) . ويشير الخشني الى ان هناك شبه اجماع على ان

يحيى بن يزيد انما استقضى على الاندلس بالشرق فقدمها قاضيا . ولكن الروايات اختلفت فيمن ولاء ، فبعضها عن ابن وضاح تقول انه عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١ هـ) وبعضها تذكر انه لما قدم بلج بن بشر الاندلس واضطربت الاوضاع اتصل الخبر بحنظلة بن صفوان الكلبي ، فوجه الى الاندلس ابا الخطار حسام بن ضرار الكلبي عاملا عليها ووجه معه يحيى بن يزيد التجيبي قاضيا ، وكان من عرب الشام الساكنين في افريقية ، اي انه دخلها في خلافة هشام بن عبد الملك (٥٠) . ويؤكد هذه الرواية ابن القوطية الذي يشير الى ان قاضي هشام بن عبد الملك في الاندلس كان يحيى بن يزيد التجيبي ، اما صاحب الاخبار المجموعة ، فيذكر انه كان مستقضى من الشرق فلم يعرض له يوسف لرضا اهل الاندلس به (٥١) .

وعندما دخل عبد الرحمن قرطبة وقام بالامامة كان القاضي يحيى بن يزيد فائتبه على القضاء ولم يعزله ولقبه بقاضي الجماعة ، اي انه استحدث هذا المنصب الذي ظل طوال تاريخ الاندلس تقريبا لقبا لقاضي الحضرة او العاصمة ولكبر قضاة الدولة الاندلسية ، وهو ما يعادل قاضي القضاة في المشرق (٥٢) .

ونظرا لاضطرار قاضي الجماعة الى الاستقرار في العاصمة ، فقد مست الحاجة الى اقامة قاض خاص بالمسكر يخرج مع الجيش ويعود معه . ونلاحظ في الاندلس مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضيا للجند ثم صار قاضيا للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الامير في الغزوات (٥٣) . ثم اختص قاضي الجماعة بالحاضرة ، وانا ب عنه قاضيا اخر للمسكر . وكان اول قاض للمسكر جدران ابن عمرو المدحجي من اهل مالقة ومن الذين دعموا عبد الرحمن (٥٤) .

واذا درسنا سيرة قضاة عبد الرحمن وجدناهم من الوافدين الى الاندلس ومن اهل الحديث ، ولعل أشهرهم ، بعد وفاة يحيى ، معاوية بن صالح الحضرمي ، الذي كان من اهل الشام (من حمص) (٥٥) قدم الى مصر ثم الاندلس (٥٦) ، وكان من جلة اهل العلم ورواة الحديث وشارك مالك بن انس في بعض رجاله (٥٧) ، وكان اول من دخل الاندلس بالحديث ، لا سيما حديث اهل الشام ، وكان منفردا به في زمانه ، والدليل على رئاسته وانفراده ان زيد بن الحباب العكلي ، وهو من رجال ابي بكر بن ابي شيبة المشهور في اهل الحديث ، رحل الى الاندلس من العراق واخذ عنه كثيرا من الحديث ولكن اهل الاندلس لم يجمعوا حديث معاوية لانه قدم ، كما قال الخشني عن محمد ابن وضاح ، بلدا لم يكن اهله يومئذ اهل علم (٥٨) . وقد وجه عبد الرحمن معاوية بن صالح الى الشام وحج في سفرته تلك ، وكتب عنه اهل العراق كثيرا من الحديث ، فلما عاد ولاء الامير عبد الرحمن القضاء والصلاة ، ويتضح مما يذكره ابن الفرضي ان

قضاة قرطبة كانوا كلهم من العرب وان الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) كان اول من استقضى بقرطبة من الموالي .

بالاضافة الى القضاة وجد ابتداء منذ عهد عبد الرحمن ، مشايخ للافتاء ، مثل عيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى ، وسعد بن حسان . الا ان اشهرهم كان ابي موسى الهواري الذي يعتبر عالم الاندلس ، رحل الى المشرق من الاندلس بعد دخول عبد الرحمن ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ، فكان اذا دخل الى قرطبة لم يفت احد من مشايخ قرطبة حتى يرحل عنهم .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل دخل كذلك الغازي بن قيس الاندلس بالموطا عن مالك بن انس ، وقراءة نافع بن ابي نعيم (٥٩) . وكذلك نجد ان مصعب بن عمران الذي اصبح قاضيا للامير هشام دخل الاندلس وهو شاب في ايام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان راوية عن الازاعي وغيره من الشاميين ، اي اننا نلاحظ نشاطا في اقتباس الاندلس من الثقافة المشرقية وهو امر يكاد يكون مفقودا في الفترة السابقة ، اذ كان الولاة حتى عهد عبد الرحمن الغافقي (ت ١١٤ هـ) يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد ثم انشغلوا بعد ذلك بالمشاكل الداخلية كثورة البربر والخلاف بين البلديين والشاميين ، وما تبع ذلك من عصبية بلغت اوجها في معركة شقنדה ، يضاف الى ذلك ان عرب الاندلس غادروا المشرق في اواخر القرن الاول ومطلع القرن الثاني ، قبل ان تتطور الثقافة العربية الاسلامية فيه ، كما ان غالبيتهم كانت في مستوى لا يؤهلها لحمل العلم ونقل الثقافة ، اذ كانت من الجند المحاربين ، ولنا في الصميل بن حاتم الامي احد زعمائهم مثلا واضحا على مستواهم الفكري . ولهذا اقتصر اقتباس الاندلسيين في هذه الفترة من عهد الامارة على ما هو ضروري لتسيير امور الحياة وفق احكام الدين الاسلامي ففسار الاندلسيون على راي الامام الازاعي في بادئ الامر ، ثم انتشر المذهب المالكي وساد اعتبارا من ايام هشام الرضا (٧١٢ - ١٨٠ هـ) .

التنظيم المالي : على الرغم من سكوت المصادر عن التنظيم المالي في الاندلس في فترة الداخل فلا شك انه كان استمرارا للتنظيم الذي طبق في عهد الفتوح وعصر الولاة ، ولذلك لا بد من الاشارة اليه والى التدابير التي ربما اتخذها عبد الرحمن الداخل والتي يمكن التوصل اليها عن طريق الاستنتاج .

سقطت اراضي الاندلس في ايدي المسلمين باشكال مختلفة ، فبعض الاراضي سقطت عنوة وبعضها الاخر وجده المسلمون خاليا فاحتلوه ، وبعضها نزله اهله على الصلح فاحتفظوا باراضيهم وجرى التعامل بينهم وبين الفاتحين بموجب شروط

معاهدات معقودة بين الطرفين . وهذه الشروط مع بعض الاختلافات الجزئية فيما بينها احتوت بصورة جوهرية على امرين : ان يدفع هؤلاء جزية عن رؤوسهم وخراجا عن اراضيهم كان على الاغلب جزءا من غلة ارض يعادل الثلث حيناً والرابع حيناً (٦٠) . أما ارض العنوة فعوملت كلها معاملة القنينة ولم تعتبر كما حدث في ارض السواد والشام ومصر ارض فيء ، حيث ابقى عمر بن الخطاب ارض العنوة بيد اصحابها على ان يدفعوا الجزية والخراج . ومعنى هذا ان ارض العنوة قسمت على المقاتلة بغد اخراج الخمس منها ، وجرى هذا التقسيم حسب بعض الروايات بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير (٦١) . وتشير بعض الروايات الى انه لم يبق بالاندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيا فهم إلا وقسم موسى بن نصير بينهم اراضيها . في حين تشير روايات اخرى الى ان الوقت لم يسمح له بتخمس كل اراضي العنوة ، وانه قسم وخمس بعض البلاد وأعجلته حركته منها ، أي انه لم يستطع ان يقوم بهذا العمل كله ، ولذلك ارسل الخليفة عمر بن عبد العزيز السمع بن مالك الخولاني من دمشق وأمره ان يخمس ارضها ويخرج منها ما كان خمسا لله من ارضها وعقارها (٦٢) ، وعندما اراد السمع تطبيق ذلك اظهر العرب رغبتهم في العودة الى المشرق ، كما اظهروا خوفهم من ان يشاركهم القادمون الجدد الذين قدموا مع السمع بن مالك في اراضيهم . ولذلك اضطر عمر بن عبد العزيز ان يقرهم على ما بأيديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير ، وأمر واليه ان يقر القرى بأيدي اربابها ، وان يقطع الجنود المرافقين له من اراضي الخماس (٦٣) .

وعندما فرّق أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب ١٢٥ - رجب ١٧٢ هـ) الشاميين في الكور جعل لهم ثلث اموال اهل الذمة من العجم طعمة (٦٤) ، أي ان الدولة لم تكن تحصل الا على الثلثين من اموال اهل الذمة في هذه الكور المجندة ، وربما اقل في حالات الفوضى والاضطراب .

ومهما كان المال الذي يصل الى الولاية في قرطبة ، فلا بد ان نتساءل عما كانوا يفعلون به ، وهل كانوا ينفقونه في الوجوه التي تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشؤونها واداء الرواتب لاصحابها ، ثم ارسال الباقي الى دمشق .؟ هنا نجد انفسنا امام حالة فريدة في بابها في اخبار تلك الايام ، اذ ليس لدينا نص صريح واحد يدل على ان شيئا من مال الاندلس كان يرسل الى المغرب او المشرق ، وليس لدينا من اخبار التعمير الا ما تذكره المصادر عن اعادة بناء قنطرة قرطبة وانشاء جبانة للمسلمين في عهد السمع بن مالك ، بل ليس لدينا ما يشير الى مطالبة الخلفاء باموال الاندلس ، كما كان الحال في مصر او افريقية . ولا يمكن تعليل هذا الصمت الا بان ولاية الاندلس لم يكونوا يرسلون الى افريقية او الى المشرق شيئا من المال ، وان الخلافة كانت يائسة

من امر الاندلس لا تنتظر منها مالا ، والراجح ان معظم ما كان يصل الى عمال الاندلس كان يضيع بين اوراق الجند واعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال البرت ، واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها ، ثم في الصراعات الداخلية في الاندلس . كما ان الاندلس لم يل امرها خلال هذه الفترة ، فترة عصر الولاة كلها ، الا خمسة ولاة من الطراز الذي يرجى منه ان يقرر شؤون الاندلس المالية على وجه الاحكام والضبط ، وهم موسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى (قتل سنة ٩٧ هـ) والسمع بن مالك الخولاني (١٠٠ - ١٠٢ هـ) وعبد الرحمن الفافقي (١٠٢ - ١٠٣ - ١١٢ هـ - ١١٤ هـ) وعقبة بن الحجاج السلولي (١١٩ - ١٢٣ هـ) . ومن الغريب ان هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم من ان يقوموا بشيء ايجابي في هذه الناحية . اما الباقون فكانت اشخاصهم من الضعف او البعد عن التنظيم والميل الى الفوضى بحيث نستبعد ان يكونوا قد استطاعوا او اهتموا بان يضعوا للبلاد ديوانا ماليا منتظما (٦٥) ، واكبر الظن ان تنظيم الادارة المالية قد بدأت بوادره في عهد عبد الرحمن الداخل ، لاننا نجد في فترة الاستقرار والازدهار من عصر الامارة (٢٠٦ هـ الى ما بعد اواسط القرن الثالث الهجري) ذكرا لمراتب اهل الخدمة في قسم الادارة المالية . وايجاد مثل هذه المراتب من مديرين وامناء ومفتشين ، ثم تصنيف المقامات حتى ضمن المرتبة الواحدة يحتاج الى فترة زمنية اطول من تلك التي انقضت بين وفاة الداخل سنة ١٧٢ هـ وعهد عبد الرحمن الاوسط . كما ان تأسيس الدولة واصطناع الموالي والمماليك ، وايجاد جهاز اداري ، وبناء مسجد قرطبة الذي انفق عليه وفقا لما يرد في الروايات مائة الف بالوازنة ، ومتابعة الجهاد وما يتطلب ذلك من نفقات ، كل هذه الامور تدفعنا الى الاعتقاد بان الداخل عمد الى تنظيم الموارد المالية بشكل يؤمن للدولة متطلباتها ولا شك بانه عمد كذلك الى مصادرة اموال واقطاعات الذين ثاروا عليه ، وحد من عدد الضياع الكبيرة التي منحت لبعض امراء البيت الحاكم القوطي . فقد امضى طارق لاولاد غيطشة حسب رواية ابن القوطية القرطبي ثلاثة آلاف ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوكة ، فكان للمند بن غيطشة الذي اثر سكنى اشبيلية الف ضيعة غرب الاندلس ، ولارطباس ابنه الاخر الف ضيعة في وسط الاندلس ولزم سكنى قرطبة ، وصار لرملة Ramulo الف ضيعة بشرق الاندلس واثّر سكنى طليطلة (٦٦) . وقد امر عبد الرحمن وفق رواية ابن القوطية بقبض ضياع ارطباس ، ولكنه بعد ذلك امر له بعشرين ضيعة فقط صرفت له . فاذا كان عبد الرحمن قد قبض ضياع ارطباس ، فلا شك انه قبض ضياع آخرين ، وربما استخرج اراضي الخمس التي يجب ان يكون موردها للدولة ، وامر بتسجيل ما يجب ان يجبي من كل كورة في ديوان خاص كما كان الامر في المشرق . اما من حيث الجباية فيبدو انه قد ترك الامور على ما كانت عليه ، لان النص الذي يورده الطرطوشي يشير الى هذا الاستمرار حتى عهد الحاجب المنصور ، حيث يقول نقلا عن شيوخ الاندلس

من الاجناد وغيرهم : « ان اهل الاسلام ما زالوا ظاهرين على عدوهم وامر العدو في ضعف وانتقاض لما كانت الارض مقطعة في ايدي الاجناد ، فكانوا يستغلونها ، ويرفقون بالفلاحين ، وكانت الارض عامرة والاموال وافرة ، والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه ، الى ان كان الامر في اخر ايام ابن ابي عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على النطع ، وقدم على الارض جباة يجبرونها فأكلوا الرعايا واجتاحوا اموالهم واستضعفوه ، فتهاربت الرعايا ، فضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان ، وضعفت الاجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى اخذ الكثير منها ، ولم يزل امر المسلمين في نقص وامر العدو في ظهور الى ان دخلها الملمشون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم » (٢٧) .

وفي الختام لا بد من الاشارة الى ان نجاح عبد الرحمن بتأسيس دولته وتنظيمها والقضاء على الزعامات والثورات ، وفرض هيبة الدولة ، ترك اثره الكبير على علاقاته الخارجية ، فان خيبة شارلمان في حملته على سرقسطة ونجاح عبد الرحمن في اعادتها الى حظيرة طاعته ، دفعت شارلمان الى تغيير سياسته نحو شبه الجزيرة ، فتخلى عن السياسة الهجومية ، ولجا الى سياسة تغلب عليها صفة الدفاع ، وهكذا انشا ضمن امبراطوريته (١٦٥ هـ / ٧٨١ م) مملكة اكيثانيا ، ويبدو ان مهمة هذه المملكة كانت مراقبة الاراضي الاسلامية المجاورة الواقعة بين البيرينيه ونهر ابره (Ebro) لتأمين الدفاع عن الممتلكات الكارولنجية والغرب المسيحي ، والاستيلاء عندما تسنح الفرصة على اية ارض اسلامية تبدو لهم فريسة سهلة . اما بالنسبة لدولة اشتوريش ، وهي الدولة الاسبانية الشمالية ، فان توحيد قوى الاندلس تحت راية عبد الرحمن وعبور جيش الامير ووصوله حتى منابع نهر ابره ، وفرضه الجزية على مسيحيي الشمال ، ونجاحه في تقويض سيادتها من الداخل ادى الى ظهور حزب يدعو للخضوع لرغبات الامير الاموي وعدم جدوى الوقوف في وجهه ، واغتيل خليفة الفونسو الكاثوليكي السائر على سياسة معاداة المسلمين ، وتتابع بعده خلال خمس وعشرين سنة ثلاثة من الملوك بدعم وتأييد من عبد الرحمن . وكان هؤلاء الملوك يدفعون الجزية المالية التي وصلت الى حد الازلال وسمى البعض فترة حكم هؤلاء في اشتوريش فترة التعرب ، لانها كانت تدور في فلك قرطبة ليس سياسيا فقط بل حضاريا ايضا (٢٨) .

وهكذا يعود لعبد الرحمن الفضل في انتهاء عصر الولاة المضطرب واقامة دولة اسلامية واحدة تقيم شأن الاندلس الاسلامية ، بعد ان اوشك على الانهيار .

- (١) ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب ، مكتبة صادر ، بيروت ، ج ٢ ص ٥٨.
- (٢) ابن خلدون ، تاريخ ، بيروت ط ١٩٧١ ، ج ٤ ص ١٢٢ .
- (٣) احمد بن محمد المقرئ التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ط . اولي ١٢٦٧ هـ ج ٤ ص ٤٩ .
- (٤) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الاندلس ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٥٠ . وهناك امثلة متعددة عن وجود رئاسات في لبله وباجة ومناطق اخرى ، ص ٥٥ ، والمقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٨ .
- (٥) فرق ابو الخطار جميع العرب الشاميين الفالبيين على البلد من دار الامارة قرطبة ، اذ كانت لا تعملهم وانزلهم مع العرب البلديين على شبه منازلهم في كور شامهم ، فانزل في كورتي لبله واشبيلية جند حمص مع البلديين ، وانزل في كورة شذولة والجزيرة جند فلسطين ، وانزل في كورة رية جند الاردن ، وانزل في كورة البيرة جند دمشق ، وفي كورة جيان جند قنشرين . اما جند مصر فانزلهم في كورة باجة وانزل باقيهم في كورة تدمير ، وجعل لهم ابو الخطار ثلث اموال اهل اللمة من المعجم (ابن الابار ، الحلة السيراد ، ط ١٩٦٣ ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٤-٤٥) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٤٨ .
- (٦) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٥٢ ، اخبار مجموعة لألف مجهول ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ٥٩ .
- (٧) احمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة ، ط ١٩٧٢ ، ص ١٠٢ .
- (٨) اخبار مجموعة ، ص ٩ .
- (٩) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٤١ .
- (١٠) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٢٨ .
- (١١) المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٦ ، ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٢ .
- (١٢) اخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .
- (١٣) المصدر السابق ص ١٠١ .
- (١٤) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط ١٢٩٣ هـ ، ١٩٧٢ ، المجلد الاول ص ١٠٤ .
- (١٥) المصدر السابق ص ١٠٤ .
- (١٦) اخبار مجموعة ، ص ١٠١ .
- (١٧) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، القاهرة ، ١٢٦٨ هـ / ١٩٤٩ ، ص ١٢ .
- (١٨) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٥٤ .
- (١٩) الباء Alaba تقع الى الجنوب الغربي من بامبلونا Pamplona في مقاطعة نبارتة Navarra
- (٢٠) ابن عذاري ، ج ٢ ص ٧٩ .
- (٢١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٢٢ .
- (٢٢) المقرئ ، ج ٤ ص ٥٩ .

- (٢٣) د. حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٣٦ .
- (٢٤) المرجع السابق .
- (٢٥) ابن عذاري ، ج ٢ ص ١٦٢ .
- (٢٦) اخبار مجموعة ، ص ١٠٦ .
- (٢٧) المصدر السابق ، ص ٩٢ .
- (٢٨) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ١ ص ٦٠٥٩ .
- (٢٩) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٤ ص ٣٩ .
- (٣٠) حسين مؤنس ، ص ٤٦٠ .
- (٣١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، المجلد الاول ، ص ١٠٦ .
- (٣٢) ابن القوطية ، ص ٦١ .
- (٣٣) المصدر السابق .
- (٣٤) Simonet, Historia de los Mosarabes des Espana, p. 108.
- حسين مؤنس ، ص ٤٦
- (٣٥) المقرئ ، نفع الطيب ج ٤ ، ص ٤٥ .
- (٣٦) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ١ ص ٦٠ .
- (٣٧) المقرئ ، ص ٤٥ .
- (٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٥ .
- (٣٩) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ص ٢٥٥ .
- (٤٠) اخبار مجموعة ، ص ٦١ ، ابن الأبار ، ص ٢٥٥ .
- (٤١) المقرئ ، ج ٤ ص ٦٠٥٩ .
- (٤٢) احمد بدر ، المرجع السابق ص ١٠٨ .
- (٤٣) المرجع السابق ، ص ١٠٨ .
- (٤٤) ابن الأبار ج ١ ص ٤٩-٤٠ ، المقرئ ، ج ٤ ص ٤٢ ، ٤٦ ابن عذاري ، ج ٢ ص ٨٧ .
- (٤٥) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٤ ص ٤٤ .
- (٤٦) المصدر السابق ص ٤٤ .
- (٤٧) الخشنى ، قصة قرطبة وعلماؤها الفريقية ، ط ١٣٧٢ ص ١٨-٢٠ .
- (٤٨) ابو الحسن النباهي ، كتاب الرقية العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ، ا. ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٢-٤٣ .
- (٤٩) الخشنى ، ص ٢٨ ، ابن القوطية ، ص ٥٨ ، اخبار مجموعة ، ص ٩٢ .

- (٥٠) الخشنى ، ص ٢٨ ، ٢٩ .
- (٥١) الاخبار المجموعة ، ص ٩٣ .
- (٥٢) احمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ١٠٦ .
- (٥٣) الخشنى ، ص ٣٢ .
- (٥٤) المقرئ ، ج ١ ص ٣١ .
- (٥٥) الخشنى ، ص ٣٠ .
- (٥٦) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، ص ١٣٩ .
- (٥٧) الخشنى ، ص ٣٠ .
- (٥٨) المصدر السابق ، ص ٣٠ .
- (٥٩) ابن القوطية ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ابن الفرضي ، ص ٣٠٠ .
- (٦٠) احمد بدر ، ص ٤١ .
- (٦١) الرسالة الشريفة ، ص ٢٠٤ .
- (٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، اخبار مجموعة ، ص ٢٣ .
- (٦٣) ابن القوطية ، ص ٤٤-٤٥ ، ابن البار ، ص ٦١ .
- (٦٤) انظر الحاشية رقم (٥) .
- (٦٥) ابن القوطية ص ٢٩-٣١ .
- (٦٦) ابو بكر الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٠٧ .
- (٦٧) احمد بدر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس)

(القسم الثاني) *

د . نعيم فرج
جامعة دمشق

٤ - العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في الأرياف السورية :

أ - التركيب الطبقي في الأرياف السورية :

ان تحليل المصطلحات الاجتماعية والاختبار التاريخية الواردة في أسفار يشوع العمودي من الطبقات الاجتماعية وعلاقاتها المتبادلة يكشف اسس العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في أرياف منطقة ما بين النهرين السورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وتشير المصادر التاريخية الى ان طبقة الفلاحين كانت تضم عدة فئات : فالفلاحون الكولون كانوا يشكلون الفئة الكبرى من طبقة الفلاحين العاملين في الارض . وفي الوقت ذاته وجدت فئة من الفلاحين العبيد ، كما وجدت فئة اخرى من الفلاحين الاحرار صفار الملاكين .

يميز يشوع العمودي جميع السكان العاملين في الزراعة عن سكان المدن ، فيطلق عليهم عادة اسم « القرويين » المشتق من كلمة « قرية » (بالسريانية : قوريس) . أما القرى الكبيرة فتحمل بالسريانية اسم « قريتو » . ودخلت في الاستعمال اليومي للغة السريانية الادبية ايضا الكلمة اليونانية « خورا » المستخدمة بمعنى منطقة او محافظة . وعندما يتحدث يشوع العمودي عن العاملين المنتجين في القرية يطلق عليهم اسم « اكاري » (agricolai) و « بلاحي » (فلاحون) georgoi (١) . والمؤلف اذ يذكر الاسم « اكاري » والاسم « بلاحي » في وقت واحد ، فانه ، على ما يبدو ،

* نشر القسم الاول من هذا البحث في العدد ٢٢ - ٢٤ من هذه المجلة ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٦ .

يميز بين المزارعين والفلاحين . فالاصطلاح « بلاح » (الذي صار بالعربية فيما بعد فلاح) مشتق من فعل عربي قديم « بلح » (فلاح) الذي يعنى العمل بصورة عامة ، لكنه يعنى بشكل خاص تنفيذ العمل الزراعي في الارض (٢). أما الفعل « أكر » فله معنى ضيق محدد يستخدم فقط للتعبير عن العمل الذي يمارس في الارض ، وأحيانا يعنى « حرث » ، كما يقابل الجذر البابلي الكلداني « اكارو » ikkaru ، ويقصد به « حارث » agricola , arator (٣). ويمكننا من خلال تحليل تعابير المصادر السريانية الاخرى ان نوضح بصورة ادق معنى هذين المصطلحين المتشابهين : « اكار » و « بلاح » ، مع العلم انه لا يوجد مصطلحات سريانية دقيقة مطابقة للمصطلحات المستعملة في هذا المجال باللغتين اليونانية واللاتينية . ففي الاسفار المنسوبة الى زكريا الميتيليني (الملطي) ورد ان الفلاحين من القرى « بلاحي من فورييس » كانوا يجتمعون في السوق تحت اسوار مدينة آمد السورية . وهنا في عداد الفلاحين يمكن ان يكون الكولون والمزارعون الاحرار معا .

كان القانون السوري (الذي يضم مجموعة من القوانين التي صدرت قبل صدور قوانين الامبراطور البيزنطي جستنيانوس) قد ترجم من اليونانية الى السريانية في الربع الاخير من القرن الخامس الميلادي . ورغم ان الاصل السرياني لهذا القانون لم يعثر عليه حتى الان ، فان خاتمت المخطوطات السريانية المنسوخة عنه تفيد بان الترجمة تمت من الرومية (اي من اليونانية) . ويتضمن هذا القانون السوري «قوانين واوامر مدنية » وضعها الاباطرة البيزنطيون : قسطنطين الاول ٣٠٦ - ٣٣٧ ، تيودوسيوس الثاني ٤٠٨ - ٤٥٠ ، ليون الاول ٤٥٧ - ٤٧٤ (٤) . ان القانون السوري (السرياني) ، اذ يتحدث عن السكان العاملين بالزراعة في سورية يميز أيضا بين المصطلحات ، فالفلاح الحر يطلق عليه اسم « جبرا » أي «رجل» . أما الفلاح الكولون التابع لسيد فيطلق عليه اسم « بلاح » ، وذلك في المادة التي تحظر إيواء الفلاحين الكولون الهاربين . والمصطلح اليوناني اينابوغرافوس Enapographos الذي يعنى الكولون غير الحر المرتبط بالارض والتابع لسيد قد ورد في النسخة اللندنية للقانون السوري كما هو باليونانية ، ولكن بحروف سريانية دون ترجمة (٥). أما النسخة الباريسية للقانون السوري فتطلق على الفلاح الكولون اسم « الرجل الفلاح » المسجل باسم اينابوغرافوس Enapographos (٦) . ان المصطلح اليوناني « اينابوغرافوس » (باللاتينية adscriptitius) موضح في القانون السوري بمعنى الفلاح التابع لسيد من كبار الملاكين والمرتبط بالارض لا يحق له مفادرتها . ومن أجل تنظيم واردات الخزانة من الضرائب ، كان الفلاح الكولون غير الحر يسجل في قائمة ممتلكات سيده الى جانب الارض التي يعمل بها ، كما كانت جميع علاقاته مع الدولة

تتم عن طريق ذلك السيد . وكان هذا الفلاح الكولون في وضع قريب من وضع العبد الذي يعمل في أرض سيده ، فان ترك الأرض دون علم سيده يعتبر هاربا ، ويحظر القانون ابوائه ، مثله مثل العبد الهارب (٧) .

١ - الفلاحون من فئة الكولون الحر :

في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وجدت في سورية فئة كبيرة من الفلاحين الكولون . وتميز النصوص القانونية البيزنطية بين الفلاح من فئة الكولون الحر ، والفلاح من فئة الكولون غير الحر . فبالنسبة للفلاح الكولون الحر Coloni liberi لم يكن ملزما بالبقاء في الأرض التي استأجرها من المالك الكبير ، بل كان يعمل فيها بشروط محددة ، وله الحرية بمغادرتها في الوقت الذي يريده . ومن الناحية القانونية كان الفلاح من فئة الكولون الحر شخصا حرا يحق له امتلاك الأراضي والقطيع والأدوات الزراعية ودور السكن وغير ذلك . أما الأراضي التي يستلمها هذا الفلاح من أحد المالكين الكبار ليستثمرها مقابل تقديم حصة من إنتاجها للمالك ، فكانت ملكيتها تبقى للمالك الأصلي . وكان يحق للفلاح من فئة الكولون الحر (عند تحسن أوضاعه المادية وحصوله على أملاك خاصة به كافية لاعالته مع أسرته) ان يترك أرض الملاك الكبير ، فيصبح ملاكا حرا كأي ملاك حر آخر . ولكن ازدياد الضرائب أدى إلى إفقار الفلاح الكولون الحر ، فانعكس هذا الأمر على وضعه الحقوقي . فبموجب القانون البيزنطي الذي صدر في سنة ٣٦٥ فقد الفلاح الكولون الحر حق بيع أرضه الخاصة دون موافقة سيده المالك الكبير . ومع تدهور أوضاعه المادية تحول الفلاح الكولون الحر تدريجا إلى فلاح كولون غير حر تابع لسيده ومرتبطة بأرضه لا يحق له مغادرتها (٨) .

٢ - الفلاحون من فئة الكولون غير الحر :

كان الفلاح من فئة الكولون غير الحر لا يملك أرضا ، بل يعمل في أراضي كبار المالكين ويأخذ حصة من إنتاجها . وهو مرتبط بهذه الأرض لا يحق له مغادرتها إلا بموافقة سيده صاحب الأرض ، كما لا يحق له الزواج من نساء يعملن خارج أملاك سيده إلا بموافقة السيد . ولم يكن هذا الفلاح الكولون غير الحر يملك أدوات العمل أو الماشية التي يستخدمها أو المنزل الذي يسكنه ، وإنما كان كل ذلك ملكا للسيد صاحب الأرض . ومن الناحية القانونية لم يكن هذا الفلاح حرا ، بل كان يسجل في قائمة ممتلكات سيده كأداة إنتاج حية ، كما كانت جميع علاقاته مع الدولة تتم عن طريق سيده . ان الوضع المشين الذي عاشه الفلاح من فئة الكولون غير الحر دفعه

للهرب أحيانا من الأرض التي يعمل بها . وعلى هذا صدرت قوانين جستنيانوس التي تنص على إلزام الفلاح الكولون الهارب بالعودة إلى أرض سيده ، كما حظرت إيوائه . وبصرف النظر عن أن قوانين الإمبراطور أنستاسيوس قيد ميزتين وضع العبد ووضع الفلاح من فئة الكولون غير الحر ، فإن الفروق قد زالت تدريجاً بين هذين الوضعين . ففي قوانين جستنيانوس جاء ما يلي : « كيف يفهم الفرق بين العبيد والفلاحين الكولون غير الأحرار ، حينما يكون هؤلاء وأولئك خاضعين لسلطة سيدهم الذي يستطيع طردهم من أرضه متى يشاء » (٩) .

٣ - الفلاحون من فئة الباريك :

تذكر الأسفار التاريخية المنسوبة لـ زكريا الميثليني (الملطي) وجود فئة مستعبدة من الفلاحين الذين يعملون بأراضي الكنائس والأديرة في منطقة ما بين النهرين السورية . وتطلق تلك الأسفار على هؤلاء الفلاحين اسم « تاوتيبى » tautebe ، الذي يقابله باليونانية مصطلح « باريك » Paroikoi . ويعتبر هؤلاء الفلاحون في الأدبيات الكنسية السريانية والعقود المعمول بها في الأديرة بمثابة فلاحين مستعبدين مرتبطين بأراضي الكنائس والأديرة في منطقة ما بين النهرين السورية في القرن السادس الميلادي . وجاء في أسفار زكريا الملطي ما يلي : بعد الحرب التي شنها الملك الفارسي فباز رغب الإمبراطور البيزنطي أنستاسيوس بتحويل مدينة دارا الصغيرة الواقعة على الحدود مع الفرس إلى حصن دفاعي ، ولذا اشترى قرية مجاورة لتلك المدينة من توما أسقف مدينة آمد السورية وحرر فلاحيها من التبعية للكنيسة ، ثم ملك كل واحد من هؤلاء الفلاحين الأرض التي يعمل بها والبيت الذي يسكنه (١٠) . وهكذا لم يعد هؤلاء الفلاحون من فئة الباريك تابعين للأسقف الذي كان يملك أراضي تلك القرية ، بل أمسوا فلاحين يعملون بأراضي الدولة في القطاعات الممنوحة لهم .

٤ - الفلاحون الأحرار صغار الملاكين :

إلى جانب الملكيات الكبيرة والمتوسطة التي يعمل بها الفلاحون من فئة الكولون والباريك والعبيد وجدت في سورية ملكيات زراعية صغيرة تخص فلاحين أحراراً لا يخضعون لسيد مالك ، بل يعيشون في قراهم ويستثمرون أراضيهم بأنفسهم ، ولهم حق الملكية التام في هذه الأراضي . وتشير المصادر السورية (السريانية) إلى وجود قرى تخص الفلاحين الأحرار في سورية ما بين القرنين الرابع والسابع . وكانت هذه القرى تنظم أمورها العامة ذاتياً ، فيختار الفلاحون شيخاً للقرية وحارساً للكروم ومراقباً لتوزيع مياه الري حسب مساحة الأرض . وتطلق المصادر السريانية على

شيخ القرية اسم « سابا » الذي يعني الشيخ العجوز الطاعن في السن (١١) . وكانت تقع على عاتق شيخ القرية مهمة الاشراف على جمع الضرائب من الفلاحين وتوزيع الواجبات والفرائض عليهم . اضافة الى دفع الضرائب عن الاراضي الزراعية الى خزانة الدولة كان يجب على الفلاحين الاحرار صغار الملاكين أيضا ان يساهموا مجانا في تنفيذ مشاريع الدولة العامة ، كشق الطرق وبناء الجسور والمنشآت الدفاعية ونقل المحاصيل الى مخازن الدولة واطعام الجيوش المارة في مناطقهم وغير ذلك من الفرائض .

٥ - الفلاحون من فئة العبيد :

لا تذكر اسفار يشوع العمودي ولا الاسفار التاريخية المنسوبة الى زكريا المظني وجود الفلاحين من فئة العبيد . لكن مواد « القانون السوري » تتحدث عن العبودية ، دون ان تشير الى نوع العمل الذي يمارسه هؤلاء العبيد . ومع ذلك ، لا شك في ان العبيد في منطقة ما بين النهرين السورية كانوا يمارسون العمل الزراعي في اراضي كبار الملاكين ، اضافة الى استخدامهم رعاة للمواشي وحراسا للكروم وخداما في المنازل وغير ذلك من الاعمال . وكانت مصادر العبودية متعددة . فابناء العبيد والاماء والنساء الحرائر اللواتي يتزوجن عبيدا هم عبيد منذ الولادة . وفي زمن الحروب كان الاسرى يحولون بشكل جماعي احيانا من احرار الى عبيد . فعندما احتل قباضة مدينة آمد السورية اسر معظم سكانها وارسلهم عبيدا له الى ايران (١٢) . اضافة الى ذلك ازداد عدد العبيد عن طريق تجارة الرقيق ، حيث يشتري التجار العبيد من مناطق مختلفة ويبيعونهم في سوق النخاسة . وحددت قوانين جستنيانوس سعر العبيد بين ٢٠ - ٧٠ نومسمة ، حسب الصفات التي يتمتع بها العبد او المهن التي يتقنها (١٣) . كذلك باع كثير من الاحرار انفسهم مقابل مبلغ من المال واصبحوا عبيدا لمن يدفع الثمن . فالمدين الذي لا يستطيع تسديد ديونه للدائن يصبح عبدا له ، او يبيع نفسه لشخص اخر بغية تسديد ما عليه من ديون . ويتحدث « القانون السوري » عن الاحرار الذين باعوا انفسهم عبيدا ، كما ينظر في الطرق التي ينفق فيها سعر الحر المباع عبدا (١٤) .

ومن المعروف ان العبيد كانوا محرومين من كافة الحقوق ، كما كانوا يسجلون في قوائم الضرائب بمثابة ممتلكات حية لاسيادهم . وكان بالامكان تقدير عائدات الارض ودخلها بحسب عدد الفلاحين من فئة العبيد العاملين فيها . وعلى هذا كانت الدولة عندما تفرض الضرائب على املاك كبار الملاكين تأخذ بعين الاعتبار عدد الفلاحين العبيد العاملين فيها . اما تحديد نسبة الفلاحين العبيد العاملين بالاراضي الزراعية في سورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين فهو امر يصعب تقديره .

ب - الضرائب والفرائض المترتبة على سكان الارياف السورية :

مسحت الاراضي الزراعية السورية في عهد الامبراطور البيزنطي ديوكليسيانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) ، فتبع ذلك تقسيم هذه الاراضي الى وحدات انتاجية لا تتساوى في المساحة ، وانما في قيمة المحصول الذي تفره . وكانت الوحدة الانتاجية تسمى باللاتينية « يوجوم » iugum وبال يونانية « يوجون » ioigon ، ويؤدي عن كل منها ضريبة محددة . وقد سجل موظفو المساحة والاحصاء عدد الوحدات الزراعية الانتاجية في كل مدينة ذات ادارة محلية وما يتبعها من ارض وقرى وضياع . وفي كل سنة عند اعلان مقدار الضريبة عن الوحدة الانتاجية كان الموظفون الماليون في الادارة المحلية للمدينة « الكوزيال » Curiales يجمعون الضريبة عن الاراضي الزراعية بمقدار يساوي مقدار الضريبة عن الوحدة الانتاجية مضروباً في عدد الوحدات الانتاجية للمدينة municipality .

لا يعبر الوصف السابق سوى عن جزء بسيط من الصورة ، فالى جانب الاراضي العامة في المدينة والقرى كانت هناك ضياع امبراطورية تخص الامبراطور ، وضياع يملكها متنفذون من كبار الملاكين بشروط حيازة مستثناة ، وملكيات زراعية صغيرة يملكها فلاحون احرار . وكان يقوم بالعمل الزراعي ، في الدرجة الاولى ، الفلاحون من فئة الكولون Coloni المرتبطون بالارض ، وفي الدرجة الثانية الفلاحون الاحرار صغار الملاكين . وبعض الفلاحين الكولون الذين يعملون في اراضي كبار الملاكين قد يكون مالكا لقطعة ارض خاصة به في مكان اخر . كما ان الدولة الرومانية اعتادت منذ عدة قرون ان تقطع ارضا بايجار دائم ، فنشأ نظام يسمح للفرد ان يقتني ارضا خلاء على اساس حيازة دائمة لنفسه ولورثته ، دون ان يلزم بزراعة الارض ودفع ايجار محدد . وقد استمرت هذه العادة التي كانت تسمى « امفيتيسيس » Emphyteusis في عهد العرب المسلمين (١٥) .

وكان بعض اصحاب الضياع يحصلون على حق دفع الضرائب مباشرة للخزانة الامبراطورية ، وليس عن طريق الموظفين الماليين المحليين « الكوزيال » في المدينة ذات الادارة المحلية . وكان هذا الحق في دفع الضرائب يسمى « اوتوبراجيا » autopragia كما كانت هذه الضياع تسمى « اجري اكسبتي » agri excepti ، وتملكها الكنيسة او بعض الاسر النبيلة ذات النفوذ الكبير . ولم تكن هذه الضياع معفاة من الضرائب ، لكن اصحابها النبلاء كانوا يستطيعون بطرقهم الخاصة ونفوذهم الكبير ان يحصلوا على بعض الاعفاءات من الضرائب او تخفيضها ، في حين كانت اعباء الفلاح الصغير تزيد يوما بعد يوم ، فينوء تحت ثقل اعباء الضرائب وابتزاز موظفي المالية . وعلى هذا

اضطر الفلاحون الاحرار صفار الملاكين ان يلوذوا بنظام الرعوية او الحماية (التلجئة) « بتروناج » Patronage . لقد وضع هؤلاء الفلاحون الصفار انفسهم وارضهم في رعاية الملاكين الكبار ، كما تنازلوا لهم عن ملكية الارض ، فأمسوا بمثابة مستأجرين ، مقابل مسؤولية النبلاء الحماة « البثرون » Patroni عن دفع الضرائب وتخليص اتباعهم من تعسف موظفي المالية وحمائتهم من الاعتداء عليهم .

وهكذا كانت تتسع املاك النبلاء كبار الملاكين ، بينما يفقد الفلاحون الاحرار صفار الملاكين ارضهم ويصبحون مستأجرين مرتبطين بالارض - أي فلاحين من فئة الكولون . ودخلت في عداد هؤلاء الموالي الاقنان (الكولون) فئات عديدة من الفلاحين تذكر القوانين البيزنطية منها : الكولون Coloni والقرويين Vicani والمزارعين agricolae وسكان الريف rustici والملاكين Possessores وغيرهم من الفلاحين ممن يطلق عليهم « ميتروكومياي هومولوجي كولوني » metrocomiae homologi coloni ولم تفلح محاولات الحكومة البيزنطية في مقاومة النظام البيروني (نظام الحماية) ، بسبب ما كان للنبلاء كبار الملاكين من نفوذ اقتصادي وسياسي ، حتى انه يمكن ان يطلق على القرنين الخامس والسادس الميلاديين مرحلة الصراع بين الحكومة والارستقراطيين كبار الملاكين (١٦) .

وكان الفلاحون السوريون في زمن الاستعمار البيزنطي يؤدون الجزية (ضريبة الرأس او النفس) والخراج (ضريبة الارض الزراعية) . وكانت الجزية (ضريبة الرأس) مفروضة على جميع الفلاحين الذكور من سن ١٤ سنة الى سن ٦٥ سنة ، وعلى النساء من سن ١٢ سنة الى ٦٥ سنة (١٧) ، ويقدم المؤرخ الفرنسي فرديناند لوت ادلة دامغة (من خلال المصادر المعاصرة) على فرض الجزية على الفلاحين السوريين قبل الفتح الاسلامي ، في حين اعفي منها سكان المدن من الارستقراطيين والتجار واصحاب الحرف الذين كان يؤدون الضريبة التجارية aurum negotiatorum وضريبة الحرف Chrysargyron . ويستخلص المؤرخ المذكور من المصادر المعاصرة ان الجزية قد اصبحت في سورية بعد القرن الرابع الميلادي وقفا على الفلاح السوري ، كما صارت علما على طبقة الفلاحين ، فلصقت بها من جراء هذه الضريبة وصمة اجتماعية injuria تدل على الصفار والهوان ، كما يتضح من العبارة التالية a plebeiae capitationis injuria (١٨) . كذلك كانت سمة للذل وعنوانا للوضاعة الاجتماعية الجزية المفروضة على الفلاحين العرب الخاضعين للاستعمار الفارسي الساساني في سواد العراق . وظلت الجزية مدلة في العصر الاسلامي ايضا « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . ويذكر كل من اليعقوبي والبلاذري ان الملك العربي الفسائي جبلة بن الايهم لم يرفض ان يؤدي ضريبة الارض الزراعية (الخراج) ، لكنه انفأ من جزية الرأس ، فقال لرسل

يزيد بن ابي سفيان (بعد معركة اليرموك) : « انما يؤدي الجزية العلوج (الفلاح الكولون) ، وانا رجل من العرب » (١٩) .

احتلت المؤسسة المالية « المؤسسة التي تنهب الشعوب » مكان الصدارة في نظام الادارة البيزنطية . وتتضمن اسفار يشوع العمودي مادة غنية ومتنوعة عن ثقل الضرائب التي فرضتها الحكومة البيزنطية على السكان السوريين في منطقة ما بين النهرين خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . هذه الاسفار تذكر مرارا ضرائب الدولة التي اثقلت كاهل سكان المدن والارياف السورية على حد سواء ، كما انها تطلق على الضرائب النقدية الاسم اليوناني « سينتيليا » Cinteleia مدونا بحروف سريانية . كذلك يعطي القانون السوري (المترجم من اليونانية الى السريانية في الربع الاخير من القرن الخامس) معلومات هامة عن نظام الضرائب المطبق في الولايات البيزنطية السورية ، حيث تتحدث بعض مواده عن الضرائب المفروضة على الاملاك الزراعية ، التي حدد مقدارها حسب نوعية الاشجار المزروعة وخصوبة الارض . وبقيت نصوص « القانون السوري » كاملة في مخطوطين ، احدهما محفوظ في لندن ويعرف برمز (L. I, 121) ، والثاني محفوظ في روما ويعرف برمز (R. II, 151) (٢٠) .

وذكر في القانون السوري ان الارض قد مسحت وحددت في زمن الامبراطور البيزنطي ديوكليسيانوس (٢٨٤-٣٠٥) ، فصادقت السلطات البيزنطية على ذلك المسح . ويقوم هذا المسح على تقسيم الارض بحسب جودتها الى صنف اول وصنف ثان وصنف ثالث ، او الى فئات تحدد بموجبها مساحة الارض او عدد الاشجار التي تدفع وحدة ضريبة محددة . لقد قسمت الاراضي السورية الى وحدات انتاجية اطلق على كل وحدة منها اسم « يوجوم » iugum . واليوجوم هي الوحدة الانتاجية التي يفرض عليها وحدة ضريبة محددة (نقدية او عينية او من الشككين) . لكن الوحدة الانتاجية يمكن ان تشمل مساحة من الارض تزيد او تنقص ، حسب نوعيتها وحسب نوع او عدد اشجارها . وقد تقرر في ذلك المسح ما يلي :

١ - اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الاول ، فان كل مساحة مقدارها ٢٠ يوجوم (فدان) ، التي تساوي ٤٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبة واحدة محددة .

٢ - اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الثاني ، فان كل مساحة مقدارها ٤٠ يوجوم (فدان) ، التي تساوي ٨٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبة محددة (وهي تساوي الضريبة المفروضة على الارض من الصنف الاول المذكورة في البند الاول) .

٣ - اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الثالث ، فان كل مساحة مقدارها ٦٠ يوجوم ، التي تساوي ١٢٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبة واحدة محددة (وهي تساوي الضريبة المفروضة على الارض من الصنف الاول والصنف الثاني المذكورين في البندين الاول والثاني) .

هذه الاراضي المختلفة اصنافها ومساحاتها كانت تدفع ضرائب متساوية . وطبق مثل هذا التقسيم على الاراضي المزروعة باشجار الزيتون والكرمة . فكل ٢٢٥ شجرة زيتون من الصنف الاول فرضت عليها وحدة ضريبة محددة ، وهي تساوي الضريبة المفروضة على ٥٠ شجرة زيتون من الصنف الثاني ، كما تساوي الضريبة المفروضة على ارض مزروعة باشجار الكرمة مساحتها ٥ يوجوم التي تساوي ١٠ بليترون - اي ما يعادل ١٢٦٠ م^٢ .

اما الاراضي الجبلية ذات الطبيعة الوعرة ، فكانت تحتاج الى حساب خاص . كان موظفو الدولة المكلفون بوضع قوائم الضرائب يدعون فلاحين من مناطق جبلية مجاورة ويطلبون منهم تقدير انتاج تلك الاراضي الجبلية كي يحددوا الضريبة عليها حسب كمية الانتاج . كذلك خضعت للتقدير الاراضي غير المزروعة المعتبرة بمثابة مراعي للمواشي ، وفرضت عليها الضرائب التي تراوحت بين دينار وثلاثة دنانير من مراعي كل قرية .

لتوضيح صورة المسح (التحديد والتحرير) الذي فرضت بموجبه الضرائب على الفلاحين السوريين في زمن الاستعمار البيزنطي لابد من مقارنة المقاييس الواردة في « القانون السوري » مع المقاييس المعاصرة . كانت الاراضي السورية في زمن الاستعمار الروماني - البيزنطي تقاس بالقصبة (بالسريانية : كانجا) ، والقصبة تساوي ٨ اذرع . وكل ١٠٠ قصبة مربعة تساوي بليترون واحد . وكل بليترون يساوي ١٢٦٠ م^٢ (٢١) . اما اليوجوم فيساوي ٢ بليترون أي ٢٥٢٠ م^٢ ، كما يترجم عادة باسم « فدان » . وعلى هذا كان مسح الاراضي في القانون السوري على الشكل التالي :

١ - الارض المزروعة بالحبوب صنف اول : مساحتها ٢٠ يوجوم = ٤٠ بليترون = ٥٠٤٠٠ م^٢ .

٢ - الارض المزروعة بالحبوب صنف ثاني : مساحتها ٤٠ يوجوم = ٨٠ بليترون = ١٠٠٨٠٠ م^٢ .

٣ - الارض المزروعة بالحبوب صنف ثالث : مساحتها ٦٠ يوجوم = ١٢٠ بليترون = ١٥١٢٠٠ م^٢ (٢٢) .

أما المسح الذي كان يتم على هذه الصورة ويسجل في قوائم المالية ، فكان يبقى ساري المفعول مدة خمسة عشر عاما التي كانت تعتبر وحدة زمنية كاملة (٢٢) . ان نظام الضرائب الذي فرض على الاراضي الزراعية بالشكل الذي اوردته القانون السوري ، او بشكل معدل الى حد ما ، قد بقي نافذا في الارياق السورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وفي بعض نسخ القانون السوري التي تعود الى فترات زمنية متأخرة (بعد القرن السابع) نجد ان الفقرة الخاصة بتحصيل الضريبة الزراعية اما مغفلة نهائيا ، او باقية على شكل اشارة موجزة . فعلى ما يبدو ، فقدت هذه الفقرة اهميتها نظرا لانتقال السيادة في سورية الى ايدي العرب المسلمين ، الذين ادخلوا بعض التعديلات على نظام الضرائب البيزنطي .

ولتحديد نوع الضريبة المفروضة على الاراضي الزراعية استخدمت في « القانون السوري » الكلمة اللاتينية « انونا » *annona* مكتوبة بأحرف سريانية ، وهي تعني ضريبة عينية او تقديم عيني للجيش (٢٤) . والاكثر احتمالا ان ضريبة « الانونا » (الخراج) كانت تؤخذ بشكل مختلط - اي نقدا ومحصولا عينيا ، اذ تشير الى ذلك احدي نصوص قوانين جستنيانوس الجديدة ، حيث تأتي على ذكر الضرائب العينية والنقدية معا (٢٥) .

كانت توجد في المدن السورية عنابر حكومية مخصصة لحفظ الحبوب ، وتحدث اسفار يشوع العمودي عن وجود مثل هذه العنابر في كل من الرها وآمد ودارا (٢٦) . كانت الحنطة تؤخذ من العنابر لصنع الخبز واطعام الجنود ، او من اجل صنع الخبز الاضافي (الاحتياطي) وبيعه للشعب في زمن المجاعة . وكانت الحبوب والخمور واللحوم تجمع من الفلاحين واصحاب الاراضي كضريبة عينية ، باعتبار انها مواد غذائية يحتاجها الجيش بصورة دائمة . كان الجيش البيزنطي يحشد في المدن السورية الواقعة على الحدود مع الفرس في زمن السلم والحرب معا ، لذا فان احتواء هذا الجيش كان يحتاج الى مواد غذائية متنوعة . وعلى هذا اكدت قوانين الامبراطور تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) على تحصيل الضريبة العينية وحظرت استبدالها بالمال (٢٧) . وفي النصف الثاني من القرن الرابع صدر قانون بيزنطي ينص على الزام اصحاب الاراضي الزراعية بدفع الضريبة العينية (التي تشمل على الحبوب واللحوم والخمور وغيرها) ثلاث مرات في السنة (٢٨) . وهكذا كانت الضريبة العينية ، التي اطلق عليها اسم « انونا » *annona* ، هي الضريبة الرئيسية في الولايات البيزنطية السورية منذ القرن الرابع حتى القرن السابع . اما الضريبة النقدية فعرفت باسم « سينتيليا » *Cinteleia* ، ان كان ذلك في « القانون السوري » ، او في الاسفار التاريخية السورية .

كانت ضريبة الاراضي الزراعية تسدد في زمن الاستعمار الروماني ثلاث مرات في السنة : في اول كانون الثاني ، وفي اول ايار ، وفي اول ايلول . وبهذا الشكل كانت تسدد ايضا في القرن الخامس الميلادي ، حيث جاء في قانون الامبراطور انستاسيوس الصادر في سنة ٤٩٦ ما يلي : « ثلاث مرات تدفع عائدت بيت المال (ديموسيا) demosia : في اول كانون الثاني ، وفي اول ايار ، وفي نهاية العام (ايلول) » (٣٩) .

كان الفلاحون من فئة الكولون يقدمون لمالك الارض حصة عينية من الانتاج الزراعي لقاء استثمارهم الارض . وكانت الاراضي الزراعية (وخاصة المروية) تستثمر بالمناصفة ، نصف الانتاج للفلاح الكولون ، والنصف الاخر للمالك . والدليل على ان مثل هذا الشكل من الاستثمار كان معمولاً به في القرن الرابع الميلادي واضح من تشريعات تلك الحقبة التاريخية (٢٠) . وبالنسبة للقرن السادس تشير قوانين جستنيانوس الى ان الفلاحين الكولون كانوا يقدمون للمالكين ريع الارض مواداً عينية (in Speciebus) (٢١) . ونتأكد من ذلك في المصادر التاريخية المعاصرة التي تذكر ان كميات كبيرة من الحبوب كانت تتراكم لدى كبار الملاكين فيتاجرون بها . وتشير أسفار يشوع العمودي الى المضاربة بتجارة الحبوب التي اتخذت ابعاداً غير معروفة من ذي قبل في فترة المجاعة التي عمت منطقة ما بين النهرين السورية في نهاية القرن الخامس الميلادي .

اعفى التشريع البيزنطي الاطباء والعلمين من دفع الجزية (ضريبة الراس او النفس) . وهذا الاعفاء تكرر ذكره في « القانون السوري » ، حيث جاء فيه ما يلي : « يعفى الاطباء ومعلمو مختلف العلوم ، الموجودون في المدن والقرى ، من كافة أنواع الضرائب . فهم لا يدفعون ضريبة الراس (كيسفيريشال - كشف الراس) ولا ضريبة الخريسار غروس (الضريبة التي يدفعها التجار والصناع) (٣٢ لـ) . ان القانون السوري الذي يؤكد على اعفاء الاطباء والعلمين الذين عاشوا في القرى ، انما يشير ضمناً الى ان الجزية (ضريبة الراس) كانت تؤخذ بالدرجة الاولى من السكان الذين عاشوا خارج المدن - من الفلاحين وسكان القرى عامة . وتشير أسفار يشوع العمودي الى فرض الجزية (ضريبة الراس) على الفلاحين والقرويين في منطقة ما بين النهرين السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وتذكر هذه الاسفار ان الحاكم البيزنطي (في سنة ٤٩٩ - ٥٠٠) سمى الى اعتصار الضريبة النقدية «سينتيليا» من سكان المنطقة التي اصبحت بالقحط واكل الجراد محاصيلها بواسطة السادة القرويين ، ولذا جمع هؤلاء « السادة القرويين » وعذبهم شر عذاب وابتزهم ايما ابتزار . وارسل الحاكم المال الذي جمعه « الذهب » الى العاصمة ، قبل ان يتمكن « السادة القرويون » ان يطلبوا من الامبراطور اعفاءهم من دفع تلك الضريبة النقدية . لكن الامبراطور البخيل

انستاسيوس ابقى بحوزته النقود التي استلمها ولم يعدها الى دافعيها ، وكل ما فعله هو اصدار مرسوم باعفائهم من ضريبة الرأس في المستقبل (٣٢ب) . لكن الغناء هذه الضريبة ، الذي بعث السرور في نفوس « السادة القرويين » (الملاكون المتوسطون) ، لم يستفد منه الفلاحون الكولون ، بل ظل هؤلاء يدفعونها لسيادهم المالكين ، اذ تؤكد ذلك اسفار يشوع العمودي في وصفها احداث سنة ٥٠٥ (٣٣) .

كان الفلاحون الاحرار صفار الملاكين ، الذين لا يخضعون لاحد من كبار الملاكين ، يدفعون الضريبة النقدية والعينية (الجزية والخراج) الى موظفي المالية مباشرة دون وسيط . وكان يوجد في كل قرية شخص مسؤول عن جمع الضرائب من الفلاحين الاحرار (في الغالب شيخ القرية) وتسليمها الى جباة خزانة الدولة . اما تسديد الضرائب النقدية والعينية (الجزية والخراج) عن الفلاحين من فئة الكولون الذين يعملون بأراضي كبار الملاكين (الاقطاعيين) ، فكان يتم باشكال تختلف من عصر الى عصر . وفي الغالب كان الفلاحون الكولون المرتبطون بالارض يدفعون ضريبة الرأس وضريبة الارض (الجزية والخراج) عن طريق اسيادهم مالكي الارض ، الذين يجمعون الضرائب من فلاحهم الكولون مضاعفة ، ويعطونها لجباة الخزانة كما هي مدونة في سجلات المالية ، او منقوصة في اغلب الاحيان . ولمنع تلاعب كبار الملاكين في تحصيل الضرائب المفروضة على الفلاحين الكولون ، جرت محاولات في عهد الامبراطور جستنيانوس الكبير لاقامة علاقات مباشرة بين الدولة والفلاحين الكولون ، يقوم من خلالها موظفو المالية بجمع الضرائب من الفلاحين الكولون انفسهم ، دون الرجوع الى مالك الارض (٣٤) .

في عهد الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) جرى تغيير في نظام المالية ، اذ ابعدت مجالس المدن المحلية عن مهمة جمع الضرائب ، كما ابعد عن هذه المهمة الموظفون المسمون « كوريال » Curiales ، الذين كانوا مكلفين بجمع الضرائب المفروضة على سكان القرى التابعة للمدن ، في حين كلف بجباية الضرائب موظفون ماليون جدد يسمون « فنديسيس » Vindicec ويخضعون مباشرة للوالي البيزنطي في المنطقة الذي يحمل لقب « بريفكت بريتوريوم » Praefecti Praetorium . وأهم مصدر لدراسة هذه الاجراءات المالية الجديدة هو كتاب يوحنا ليدوس المسمى « دي ماجستراتيبوس » De magistratibus (٣٥) . وصاحب هذا الاصلاح المالي الجديد هو موظف سوري الاصل يدعى مارين ، الذي توصل الى رئاسة الادارة المالية في القسطنطينية ، ويذكره زكريا الميتيليني (اللطي) بأنه أحد اقربائه (٣٦) . لكن هذا الاصلاح المالي ، الذي كان الهدف منه تحقيق مركزية الادارة المالية وجعلها بيد الوالي البيزنطي « بريفكت بريتوريوم » ، لم يخفف العبء المالي الثقيل عن الفلاحين .

فالمؤرخ يوحنا ليدوس يصف ذلك الاصلاح المالي بأنه كان مؤذيا ومضرا لسكان القرى العاملين في الزراعة ويقول : « اني اوجه كلماتي ضد مارين » (رئيس الادارة المالية) ، كما يذكر ان ذلك الاصلاح لم يستفد منه سوى الامبراطور انستاسيوس ، الذي كان حسب وصف المؤرخ « اغنى من الجميع ومعه مارين والمقربين منه » (٢٧) .

كذا يصف ايفاغريوس (في تاريخه الكنسي) ذلك الاصلاح المالي بأنه سلبى ويعتبره مضرا بمصلحة الفلاحين ، ذلك ان الموظفين الماليين الجدد « الفنديسييس » الذين حصلوا على مناصبهم على مبدأ « من يدفع أكثر » ، شرعوا يبتزون الضرائب من السكان بشكل رهيب . وفي هذا النص نرى ايفاغريوس يدافع عن مصالح الطبقات العاملة التي تدفع الضرائب لخزانة الدولة (٢٨) . وتحدث الكتابات الرسمية عن اهتمام الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) بالفلاحين وحرصه على اصدار القوانين التي تخفف من اعبائهم المالية . لكن هذا المديح الرسمي لا يتطابق بأي شكل من الاشكال مع واقع الحال (٢٩) .

تركت اسفار يشوع العمودي شهادة اخرى غلبت اساليب الظلم وابتزاز الضرائب التي مارستها السلطات البيزنطية الاستعمارية مع الفلاحين السوريين في منطقة ما بين النهرين . فاضافة الى ضريبة الراس وضريبة الارض « الجزية والخراج » ألزم الفلاحون الملاكون بدفع الضريبة عن الاملاك المجاورة التي هجرها اصحابها لسبب من الاسباب ، او ماتوا دون ان يتركوا وريثة لهم ، وهذه الضريبة اطلق عليها اسم « ايببولي » Epibole (٣٠) . هناك بردية مصرية تتضمن شكوى من فرض السلطات الرومانية مثل هذا النوع من الضريبة الاضافية على الفلاحين المصريين في القرن الثاني الميلادي (٣١) . وفيما بعد انتقل هذا الاسلوب في فرض الضرائب الاضافية الى العصر البيزنطي وطبق في القرن السادس . ففي عهد الامبراطور جستنيانوس الاول (٥٢٧ - ٥٦٥) وصف المؤرخ المعاصر بروكوبيوس (في كتابه : التاريخ السري) هذا الاجراء القسري بمثابة عبء ثقيل على الفلاحين الاحرار صفار الملاكين ، فقال : « لم يخجل جستنيانوس بخصوص الارض التي هجرها اصحابها ، ان كانوا من كبار الملاكين ، او من صفار الفلاحين (kurioi kai georgoi) الذين غادروا ارضهم هربا من ثقل الضرائب ، بل ألزم غيرهم من الفلاحين بدفع ضريبتها » . هذه الارض المهجورة agri deserti كانت تضم بصورة غير قانونية الى املاك احد الفلاحين الملاكين المجاورين ، فيحق له امتلاكها بشرط ان يدفع للخزانة الضريبة المترتبة عليها (٣٢) . ويعتبر الامر الاداري الذي اصدره الوالي البيزنطي « بريفكتبريتوريوم » زوتيك في سنة ٥١١ - ٥١١ أول اشارة صريحة الى فرض ضريبة « الايببولي » في العهد البيزنطي (٣٣) ، وهذا الاجراء الاداري لم يكن قانونا جديدا ، وانما كان استثناء مبس

القوانين النافذة . ولكن هذا الاستثناء عم تطبيقه في الاراضي السورية ، كما كان مطبقا في مصر وشمال افريقيا العربية منذ امد بعيد . هذه الشهادات المدونة ، المذكورة اعلاه ، لها قيمة تاريخية كبيرة ، اذ انها تمكن الباحث من التعرف على الحكم البيزنطي التعسفي في سورية ، القائم على اضطهاد الفلاحين السوريين واعتصار عروقهم .

ه - تجارة الحبوب والمواد الغذائية في منطقة ما بين النهرين السورية .

تعطي الاسفار التاريخية السورية المدونة في القرنين الخامس والسادس تصورا واضحا عن تجارة الحبوب في منطقة ما بين النهرين السورية ، وعن اهتمام السلطات البيزنطية بجمع هذه المادة الغذائية وحفظها وتصنيعها خبزا لجنودها ولسكان المدن . كانت الضريبة العينية « الانونا » *annona* المفروضة على الاراضي الزراعية تجمع وتنقل من القرى الى اقرب مدينة مجاورة ، فتحسب الحصص من المحاصيل وتعطى الوصولات الدالة على دفع الضريبة . ولحفظ هذه المواد الغذائية التي اصبحت تخص الدولة كانت توجد مستودعات وعنابر خاصة .

وتذكر الاسفار التاريخية السريانية التي تتحدث عن مدينة الرها (اديسا) السورية ان حاكم المدينة البيزنطي « الايغيمون » *igimon* كان مسؤولا عن تموين مدينته بالخبز الجاهز ، كما كانت تخضع لاوامره تعاونيات الخبازين ومستودعات الحبوب . ويستخدم يشوع العمودي في اسفاره السريانية المصطلح اليوناني « ابو ثيتون » *apotheton* ، الذي يعني المستودعات واماكن حفظ مختلف المواد والسلع ، وبصورة خاضة الحبوب (٤٤) . واحيانا يستخدم العمودي مصطلحا آخر مركبا من كلمة يونانية وكلمة سريانية وهو « سيتيكادي ابورا » *Sitika de abura* اذ تعني كلمة « سيتيكوس » *Sitikos* اليونانية « المخصص للحبوب » كما تعني كلمة « ابورا » *abura* السريانية « الحبوب » . وبدا يدل المصطلح المذكور على مستودعات الحبوب المخصصة لصنع الخبز (٤٥) . اما زكريا الميتيليتي ، الذي يتحدث عن اوامر الامبراطور انستاسيوس التي تنص على بناء مستودعات حكومية في كافة المدن ، فيستخدم اصطلاح « هوريا سبكتابيليا امبلا » *Horrea spectabilia ampla* الذي يعني المستودع او المخزن الرائع والمشهور (٤٦) .

وكان الهدف من اوامر الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) ببناء مخازن الحبوب في مدن ما بين النهرين السورية هو زيادة القدرة الدفاعية لهذه المدن الواقعة قرب الحدود الفارسية ، حيث ان حصار مدينة آمد من قبل الفرس ،

الذي سبب الكثير من الآلام والمتاعب لسكانها نتيجة الجوع ، كان ما يزال حيا في ذاكرة المعاصرين . الى جانب الاهمية الكبيرة لوجود الاحتياطات الغذائية المخصصة لزيادة القدرة الدفاعية والصمود في وجه الاعداء ، فان بناء مخازن الحبوب الحكومية كان الهدف منه ايضا « أن يزيل العداة ويرسخ السلام » ، حسب قول يشوع العمودي (٤٧) ، الذي يقصد به تخفيف حدة التوتر بين الاغنياء والفقراء وتجنب الاضطرابات في حال فقدان القمح واحتكاره من قبل التجار وكبار الملاكين . ورغم ان الدولة كانت تخزن الحبوب الاحتياطية ، فان كمية كبيرة من الحبوب بقيت في مخازن كبار الملاكين الذين يؤجرون الارض للفلاحين الكولون مقابل حصولهم على حصة عينية من انتاجها . وكانت شروط الایجار مجحفة بحق هؤلاء الفلاحين ، الذين فرض عليهم احيانا ان يقدموا لصاحب الارض الحصة المتبقية لاطعام اسرهم . وبما ان اجرة الارض كانت تسدد بتقديم حصة عينية من الانتاج ، فان كمية كبيرة من الحبوب كانت تصب في مخازن كبار الملاكين ، فيبيعونها في السوق المحلية ، او ينقلونها الى خارج حدود المنطقة ليجعلوا منها صفقة مربحة .

سعت السلطات البيزنطية الى تنظيم اسعار الحبوب وتثبيتها في مستوى محدد . فأصدرت القوانين اللازمة بخصوص هذا الامر . لكن تكرار صدور القوانين بهذا الخصوص يدل على عدم التزام المحتكرين بتطبيقها . وعلى هذا كان الهدف من بناء مخازن الحبوب الحكومية « أن يزيل العداة ويرسخ السلام » بين الاغنياء والفقراء . لكن تلك المخازن الحكومية لم يكن باستطاعتها دوما تأمين الخبز الرخيص للمواطنين الفقراء ، ولذا رفع الحرفيون والفلاحون الفقراء راية الكفاح ضد الاغنياء الذين يحتكرون تجارة الحبوب . والاسفار التاريخية لا تميز بين فئات الطبقة الكادحة في منطقة ما بين النهرين السورية ، بل تطلق عليها اسم « الفقراء » ، او « البسطاء » او « الضعفاء » ، وهؤلاء منهم من كان يعمل في المدينة ، ومنهم من كان يعمل في الريف . وتشير الاسفار التاريخية السورية (السريانية) الى المتاجرة بالحبوب وتهريبها ، مما يؤدي الى ارتفاع اسعار قوت الشعب . لقد جاء في الاسفار المنسوبة الى زكريا الميتيليني (الملطي) ان اسقف مدينة آمد السورية « كان يحذر اغنياء المدينة قائلا لهم : في ايام الجوع وغزوات العرب (الموالين للفرس) والطاعون ، ينبغي عليهم الا ينقلوا الحبوب بعيدا ، لان ثمة حاجة لها في الداخل ، ويجب عليهم بيعها وتقديمها للمحتاجين . اما اذا نقلوها بعيدا (خارج الحدود) ، فمعنى ذلك انهم يصنعون احتياطا للعدو (للشيطان ، حسب تعبير الكاتب) » (٤٨) . ويذكر يشوع العمودي ان في اثناء المجاعة ، كان هناك أناس مقتدرون لم يحتاجوا شيئا (٤٩) .

في عهد الامبراطور ديوكليسيانوس (٢٨٤ - ٣٠٦) ، الى جانب الضريبة المحددة على الاراضي الزراعية ، فرضت على الملاكين الكبار فريضة اضافية تسمى « انديكتيو »

وتقضى بتأمين الحبوب وبيعها حسب السعر المحدد المعلن . ان المصطلح اليوناني « سينوني » Sinone الذي يطابق المصطلح اللاتيني « إنديكديو » indictio ويعني « بيع الحبوب الإلزامي بأسعار محددة » قد بقي مستعملاً في بيزنطة حتى القرن الحادي عشر الميلادي . وترجم المؤرخ الروسي فاسيلفسكي هذا المصطلح « سينوني » على أنه ابتزاز أطلق عليه اسم « بيع الحبوب الإلزامي » (٥٠) . وقد أشار المؤرخ الروسي بانتشنكو إلى الوصف السلبي لقانون بيع الحبوب الإلزامي « سينوني » الوارد في « التاريخ السري » (الذي وضعه المؤرخ بروكوبوس في القرن السادس) ، كما أشار إلى وجود هذا القانون في شريعة الإمبراطور انستاسيوس الأول (٤٩١ - ٥١٨) (٥١) .

كانت الضرائب العينية « الانونا » annona مخصصة بالدرجة الأولى لأطعام الجيوش وتموين العاصمة البيزنطية . ولما كان قمح الخبز الذي تجمعه السلطات في مخازن الدولة لا يكفي لأطعام الجيوش في أوقات الحروب ، فقد اضطرت الحكومة البيزنطية أن تسن قانوناً يلزم كبار الملاكين ببيع القمح للدولة بأسعار مخفضة . إضافة إلى ذلك خشيت الحكومة من تمرد الكادحين الجائعين بسبب غلاء الحبوب ، لذا فرضت على كبار الملاكين بيع كمية محددة من الحبوب في السوق بأسعار رخيصة (٥٢) . ويجب النظر إلى شريعة انستاسيوس وشريعة جستنيانوس بمثابة تأكيد قانوني على بيع القمح الذي كان يجري بشكل إلزامي حسب تسعيرة الدولة . فمن بين قوانين جستنيانوس الثلاثة المتعلقة بهذا الموضوع يوجد اثنان باللغة اليونانية (٥٣) ، وهذا يدل على أنهما خصصا للولايات البيزنطية الجنوبية والشرقية ، ومنها سورية التي كانت اليونانية لغة رسمية فيها .

وتميز قوانين جستنيانوس بين تجارة الحبوب الحرة (حسب الرغبة الذاتية للبائع) ، وتجارة الحبوب حسب أوامر الإمبراطور . وترتبط تجارة الحبوب حسب أوامر الإمبراطور بدفع الضرائب المفروضة على الأملاك الزراعية ، إذ تعتبر فريضة على شكل ضريبة إضافية . وعلى هذا حددت القوانين كمية الحبوب التي يجب أن تباع بأسعار مخفضة حسب مساحة الأرض (الوحدات الانتاجية - الإيغوم -) التي بحوزة المالك ، وحسب عدد الفلاحين العاملين بأرضه (٥٤) . هذا ولم تستثن القوانين أحداً من هذا الالتزام على الإطلاق . وبموجب هذه القوانين ألزم المالك بتقديم كمية محددة من الحبوب لتباع بالسعر الرسمي السائد في المدينة . وكان الهدف من إلزام المالكين الكبار ببيع كمية معينة من الحبوب بالسعر الرسمي ، هو تأمين الخبز بالرخيص لسكان المدينة من جهة ، وضمان تحصيل الضرائب النقدية من المالكين من جهة ثانية . وكانت تلك القوانين ، وهي تراعي مصالح الخزنة ، تشير إلى أن المال الذي يكسبه

الملاكون ثمن بيع الحبوب يجب أن يغطي بالدرجة الاولى ديونهم المالية للخزانة . وكان على المالك الذي يبيع الحبوب بالسعر المحدد ان يسدد مباشرة الضريبة النقدية المفروضة عليه وعلى « أهل بيته » . ويعني المشرع بعبارة « أهل بيته » جميع القاطنين والعاملين لدى صاحب العلاقة . وعند بيع الحبوب كان موظفو المالية يقتطعون من ثمنها مباشرة الضريبة النقدية المفروضة على المالك البائع . وهكذا كانت الاموال التي يكسبها المالك من بيع الحبوب بالسعر الرسمي يجب ان تسدد منها ديونه للخزانة بالعملة الذهبية . واذا كان المالك غير مدين للخزانة بشيء ، فلا يستطيع احد أن يأخذ منه نقودا او يصادر حبوبه . هذه الفقرة الاخيرة من القانون تشير الى الوسائل التي كان يلجأ اليها موظفو المالية لتحصيل الضرائب فهم يستغلون فرصة بيع المالك حبوبه ويطلبون منه في الحال دفع الضريبة النقدية المترتبة عليه وعلى « أهل بيته » . وبعد ان يسدد المالك ديونه ويحصل على براءة ذمة من الخزانة ، يصبح حرا في ان يبيع حبوبه المتبقية بالسعر الذي يريده . لكن قوانين جستنيانوس لم تسمح باكره المالك على بيع حبوبه اللازمة لاطعام أهل بيته ، وانما فرضت عليه بيع الحبوب الفائضة عن الاستهلاك الشخصي (٥٥) .

جرت تجارة الحبوب في المدينة المحتاجة للقمح تحت اشراف مباشر من جانب حاكم المدينة ، وحسب الاسعار السائدة والمتعارف عليها في ذلك الزمان والمكان . ان قانون جستنيانوس ، اذ ينشد بالدرجة الاولى تحقيق مصالح الخزانة المالية ، كان يسعى للمحافظة على سعر الحبوب بالمستوى المتوسط ، الذي يطلق عليه اسم « السعر العادل » (٥٦) . وكانت اسعار الحبوب في السوق المحلية تسجل على لائحة وتعلق في مكان البيع . ولكن السعر لم يكن ثابتا دوما ، بل كان يتبدل من وقت لآخر بفعل جملة من الظروف . وفي الغالب كان تقرير الاسعار بأيدي كبار الملاكين الذين يتاجرون بالحبوب ، فهم يرفضون الاسعار ويخضعون السوق لرغباتهم . لقد ارتفعت اسعار الحبوب في الاوقات الحرجة الناجمة عن القحط . وحول هذا الموضوع يتحدث يشوع العمودي بالتفصيل . وكذا تحتوي الاسفار الكنسية من القرن الرابع شواهد كثيرة على صعوبة شراء قمح الدولة ذي السعر المخفض . فالتجار استغلوا المجاعة التي اجتاحت مصر في ذلك الحين واخذوا يبيعون الحنطة بسعر فاحش (٥٧) . وعلى هذا يواصل تشريع أنستاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) اقرار الفريضة القسرية لبيع الحبوب التي كانت مطبقة في ايام الامبراطور ديوكليسيانوس (٢٨٤ - ٣٠٥) هناك مبررات للاعتقاد بان « السيتوني » - بيع الحبوب الالزامي باسعار محددة - لم يكن فريضة دائمة ، وانما ألزم به ملاكو الاراضي في وقت الحاجة والضرورة ، وذلك بموجب امر امبراطوري خاص . وفي هذه الحالة لم يستثن أحد من هذه الفريضة ، بل نفذها الملاكون الكبار والمتوسطون والصفار ، كل حسب

مساحة املاكه الزراعية . وهكذا كانت فريضة «السينوني» تفرض على الملاكين بمثابة ضريبة اضافية (٥٨) .

رغم إلزام الملاكين ببيع كمية معينة من الحبوب بالسعر الحكومي المحدد ، لم تنوفر لدى الدولة الحبوب الكافية لتلبية احتياجات الجيش وسكان المدن . وكان الملاكون الكبار يمارسون التجارة الحرة بالحبوب ويبيعونها بأسعار عالية ، مما يجعل هذه الحبوب صعبة المنال على سكان المدن ذوي الدخل المحدود . وتتحدث المصادر التاريخية المعاصرة بصورة دائمة عن المضاربات وتضخم الاسعار على ايدي التجار الذين سيطروا على الاسواق وفرضوا الاسعار وفق ارادتهم . وحظرت احدى فقرات القانون الذي اصدره الامبراطور انستاسيوس (في الحقبة ما بين ٤٩١ - ٥٠٥) ارغام كبار الملاكين والتجار (الذين يملكون مخازن للحبوب في المدينة التي يقطنون فيها) على نقل الحبوب وغيرها من المواد الغذائية الى مدينة او مقاطعة اخرى ، دون استصدار امر امبراطوري خاص يسمح بذلك (٥٩) . ولكن في بعض الاحيان فرضت السلطات البيزنطية على الذين يملكون الحبوب الفائضة ان ينقلوا هذه الحبوب الى مدينة اخرى تعاني من الجوع . ويتحدث يشوع العمودي عن هذا الامر (في سنة ٥٠٤ - ٥٠٥) فيقول : « لاقى سكان الرها مختلف انواع العذاب حين كانوا ينقلون الحبوب الى آمد ، ولا يعلم احد بهذا الامر سوى اولئك الذين كانوا مكلفين بهذا العمل ، لان الكثيرين منهم لاقوا حتفهم مع حيواناتهم في الطريق » (٦٠) . في تلك الظروف صدرت اوامر حكومية بارغام اصحاب الحبوب على نقلها الى مدينة آمد التي افرغها الفرس من المسواد التموينية ، بعد ان انسحبوا منها واعادوها لبيزنطة . وهذه الفريضة القيت على كاهل سكان الرها الذين عانوا من المصاعب والاهوال في تنفيذها .

الى جانب تجارة الحبوب التي نظمتها السلطات البيزنطية ، تجدر الاشارة الى المكانة الكبيرة التي احتلها سوق الفلاحين والتجارة الصغيرة في المدن السورية الخاضعة للحكم البيزنطي . كان الفلاحون (بالسريانية : بلاحي) السوريون يجلبون الى المدينة القمح والشعير والحمص والعدس والخضراوات والثمار والنبيد والزبدة والبيض ، كما كان صيادو الارياض يجلبون لحم الصيد والطيور المصطادة . هذا النوع من التجارة الصغيرة وتجارة القطعة امتلك اهمية لا بأس بها في تبادل السلع بين المدينة والقرى المجاورة لها . وهذه التجارة الصغيرة في فترة حصار آمد هي التي امنت الغذاء للمحاصرين . فالفرس الذين يسيطرون على المدينة كانوا يسمحون لسكانها بالخروج الى السوق التي اقيمت بجوار اسوار المدينة فيجتمع فيها الفلاحون القادمون من القرى . هؤلاء الفلاحون كانوا يجلبون النبيد والقمح وغيره من المواد التموينية ، فيبيعونها للفرس ولسكان المدينة . واحيانا يسمح الفرس لبعض الفلاحين بالدخول

الى قلب المدينة . وحسب العادات والتقاليد الفارسية « الرائعة » لم يجرؤ أحد (من جنود الفرس) على اغتصاب شيء من القرويين ، الذين كانوا يبيعون كما يحلو لهم ويأخذون النقود والامتعة والاشياء من المدينة ، كما يجتمعون في السوق عندما يشاؤون (٦١) . ولم يمارس هذه التجارة الصغيرة الفلاحون ا لحرار فحسب ، بل كان يمارسها ايضا الفلاحون الكولون ، لان القوانين اقرت باعفائهم من دفع الضريبة النقدية «الخريزار غيروس» عن هذه التجارة (٦٢) . وكانت هذه التجارة الصغيرة تجري بالفرق وينقود صغيرة ، كما كانت تؤمن المواد التموينية بأسعار رخيصة لسكان المدينة الفقراء من الحرفيين والعمال ، الذين لا يستطيعون الحصول سوى على كميات ضئيلة من هذه المواد .

تشير قوانين انستاسيوس الى الاشخاص الذين يكلفون بشراء الحبوب ونقلها من الريف الى المدينة لبيعها للسكان . وتنص هذه القوانين على ما يلي : « اذا برزت حاجة معينة في مدينة ما الى مستورد للحبوب « سيتونس » Sitones ، فيجب ان يكون اختياره حسب اقتراح اسقف هذه المدينة وكبار الملاكين فيها» (٦٣) . ويجب ان يتم اختيار هذا الشخص المستورد للحبوب من بين الاشخاص الذين لهم خبرة طويلة في هذا العمل . وأشار القانون بشكل محدد الى ان مستوردي الحبوب يجب الا يتحملوا الاضرار الناجمة عن بيع الحبوب ، لان عملهم صعب وشاق بالاساس ، فكيف اذا رافقته الاضرار والخسائر . وعلى هذا يعتبر القانون ان الخسارة الناجمة عن بيع الحبوب والصعوبات المتعلقة بهذا العمل « ظلما » ، اذا ما تحملها المستورد نفسه . وهكذا نلاحظ ان رغبة السلطة في الدفاع عن مصالح التجار والملاكين الكبار قد وجدت انعكاسها في الحرص على الا يتعرضوا للخسارة في الادخار والنقل والبيع ، وذلك لان عليهم ان يقدموا الحبوب بالسعر الرسمي المحدد والمعلن في السوق (٦٤) . كان لا بد من المحافظة على معدل وسطي لاسعار الحبوب وعدم السماح للمستورد برفع ثمنها . لكن قوانين انستاسيوس تعود اكثر من مرة وفي فترات متلاحقة الى هذه المسألة ، الامر الذي يدل على ان هذه القوانين قد خرقت مرارا وتكرارا ، وكان من الصعوبة بمكان تنفيذها ، حيث يسيطر على السوق كبار التجار والملاكين الذين كانوا يفرضون الاسعار حسب مصالحهم الخاصة . بهذا الشكل كانت تجري تجارة الحبوب والمواد الغذائية في مدن منطقة ما بين النهرين السورية في نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الميلادي .

كانت مسألة الاسعار على علاقة مباشرة مع التجارة . وتقدم اسفار يشوع العمودي السورية (السريانية) جملة من المعطيات حول هذا الموضوع الهام . تشير هذه الاسفار الى التجاهل الكامل لمصالح الطبقات الفقيرة المستغلة من جانب الحكومة

البيزنطية المستعمرة ، لا سيما في سنوات القحط والجوع والطاعون التي شهدتها منطقة ما بين النهرين السورية . فالجوع الذي جاء نتيجة ابتزاز الحكومة للضرائب وقدم الجراد والجفاف المتكرر والقحط ، قد شمل هذه المنطقة بكاملها في السنوات ٥٠٠ - ٥٠٢ . وبنتيجة ذلك باع الفلاحون السوريون امتعتهم ومواشيهم بنصف ثمنها ورحلوا الى مناطق اخرى في الشمال والغرب . لم يبق في القرى السورية سوى النساء والاطفال والشيخوخ والمرضى ، الذين يطاردتهم الجوع في تلك القرى التي لم يكن فيها لسد الرمق سوى الحشائش المرة . راح سكان القرى يجوبون المدن ، وهناك كان مصيرهم التسول والمرض والجوع ، وبالتالي الموت . كان هؤلاء الفلاحون يتسكعون في شوارع الرها وساحاتها طالبين لقمة العيش من المحسنين ، لكن هذه اللقمة لم تتوفر لهم ولم يقدمها احد . ومع تقدم الزمن - يقول يشوع العمودي - كانت الاسعار تتصاعد ، فتتزايد معها آلام الجوع الذي اخذ يهدد حياة الناس اكثر فاكثر . « كل شيء لا يؤكل كان رخيصة . الالبسة ولوازم البيت كانت تباع بنصف او بثلث ثمنها . وحتى هذه الاشياء لم تكن كافية لتطعم اصحابها بسبب السعر الباهظ للخبز » (١٥) .

اضافة الى ارتفاع اسعار الحبوب ، ينقل الينا يشوع العمودي موضوعا اخر ، وهو ان أفران المدن السورية في منطقة ما بين النهرين لم تعد قادرة على تأمين احتياجات سكانها من الخبز ، بسبب هجرة الفلاحين الى المدن للحصول على لقمة العيش . يقول المؤرخ السوري المذكور : « في سنة ٦٩٩ - ٥٠٠ غادر الوالي البيزنطي (الياغيمون) مدينة الرها وذهب الى القسطنطينية ، بعد ان اتاب عنه شخصا يدعى يوسف ليدبر شؤون المدينة . وحينما رأى يوسف ان الخبازين المختصين غير قادرين على صنع ما يكفي من الخبز لتغطية السوق ، بسبب العدد الكبير من سكان القرى الذين ملأوا المدينة ، ولانه لم يعد لدى الفقراء قمحا في بيوتهم ، عندئذ امر يوسف ان يعطى القمح لكل من يتعهد بصنع الخبز وبيعه في السوق . وهكذا جاءت النساء اليهوديات ، فأعطاهن يوسف القمح من مخازن الدولة ، فشرعن يصنعن الخبز للسوق » (١٦) . يتضح من النص السابق ان صنع الخبز وبيعه في السوق لم يكن بمقدور أي فرد كان ، وانما كان يقوم بهذا العمل الخبازون المختصون الذين كانوا منظمين في جمعيات حرفية تعاونية . ولم تكن تعاونيات الخبازين قادرة ان تؤمن متطلبات مدينة الرها السورية التي أصبحت تغص بالقرويين في زمن المجاعة . وعلاوة على ذلك « لم يبق لدى الفقراء قمحا في بيوتهم » ، وهذا يعني ان الفقراء كانوا عادة يحتفظون بالحبوب ويصنعون خبزهم الخاص في منازلهم . غير انهم في زمن المجاعة لم يكونوا يملكون القمح ، ولذا اضطروا الى شراء الخبز من السوق . تتحدث القوانين النافذة في الامبراطورية البيزنطية عن اسعار الحبوب السائدة في المدن السورية . وكانت هذه القوانين معنية بالا تكون اسعار الحبوب مرتفعة . ففي الاحوال العادية كان الخبازون المختصون

يشترون الحبوب ويطحنونها ، ثم يصنعون الخبز ويبيعونه في السوق . وكان يتبدل سعر الخبز حسب السعر الموضوع على الحبوب ، وذلك كي يبقى للخبازين المختصين ربح معين ثابت (٦٧) . وفي اوقات المجاعة العصيبة اتخذت الحكومة اجراءات وتدابير اخرى ، كتقديم القمح الحكومي « المدعوم » للنساء اللواتي يستطعن صنع الخبز وبيعه في السوق . وفي الوقت نفسه ظلت جمعية الخبازين المختصين تصنع الخبز من احتياطي الدولة ، الذي كان ارخص من الحبوب التي يبيعها التجار في السوق الحرة .

ويعتبر يشوع العمودي غلاء المعيشة (في منطقة ما بين النهرين السورية) شرا كبيرا ، شأنه شأن الطاعون ، فيقول : « .. كان الفقراء يأمن الحاجة للقوت ، لكن المال لم يكن متوفرا بين ايديهم كي يشتروا الخبز . كانوا يتسكعون في شوارع المدينة (الرها) وساحاتها وحدائقها وبيوتها ، طالبين قطعة من الخبز ، فلم يلب احد طلبهم ، لان الخبز لم يكن متوفرا في تلك البيوت . والقروش التي يطلبها الجياع كانت تصرف في شراء بعض الخضراوات التي تؤكل نيئة في الحال . وفي الوقت ذاته اخذ الطاعون الى جانب الجوع يستشري في المدينة ويهلك السكان » (٦٨) . ويذكر يشوع العمودي ايضا ان حاكم الرها ديموسفينوس قد توجه في سنة ٥٠٠ - ٥٠١ الى الامبراطور البيزنطي وابلفه عن هذه المصائب التي حلت بمدينته ، فقدم له الامبراطور ذهبا غير قليل لتوزيعه على الفقراء (٦٩) . ولكن حاكم الرها لم يوزع المال على الفقراء ، بل راح يوزع عليهم الخبز بقيمة هذا المال . لقد امر ان تعلق في اعناق الفقراء اختام فضية ، وان يعطى لكل واحد منهم ليتر من الخبز في اليوم (٧٠) . وفتح الحاكم سجلات خاصة لهؤلاء الفقراء الذين كان يوزع عليهم الخبز يوميا . يزن ليتر الخبز ٣٠٠ غرام تقريبا ويعتبر رزقا للجائع . لكن هذا الرزق كان يعطى للقليلين من الجياع على شكل مقدمة او هدية ، كما كان يصنع على حساب النقود التي قدمها الامبراطور انستاسيوس الاول لحاكم مدينة الرها السورية .

كان الفلاحون المهاجرون من القرى الى المدينة جياما ولا مأوى لهم ، فينامون في الاروقة والساحات والشوارع . وقد لاقى الكثيرون منهم حتفهم جوعا . ففي كل زاوية كان الاطفال يبكون ويصرخون ، ولا حياة لمن تنادي ، لان امهاتهم القين بهم ولم يعدن (٧١) . وكان الطاعون « الموت الرهيب » يسير جنبا الى جنب مع الجوع . وبما انه كان من الصعب ايجاد مكان لوضع المرضى فيه ، فقد تم ترتيب مكان بمثابة مستوصف بجانب الابنية المحاذية لمعبد الرها الكبير . ففي الكنيسة القديمة الواقعة قرب الحمامات الشتوية فرش القش والحصر بأمر من الحاكم ، وارسل الى هناك الكثيرون من الناس ليستلقوا عليها دون ان ينهضوا . كذلك اقام وجهاء المدينة وجنود بيزنطة ملاجئ صالحة للنوم ، لكن تلك الملاجئ كانت دون الحاجة المطلوبة . ولقد

أجبر عدد كبير من الفقراء المرضى القادمين من القرى على الذهاب الى تلك الملاجئ . وكثر هؤلاء الفلاحون الفقراء في مدينة الرها ، بعد ان وصلت اليهم شائعات مفادها ان المدينة تستقبل الجوع والموت . وتفاقم الامر حتى ان الحمام الذي كان قرب معبد الرسل قد شغل من قبل هؤلاء المرضى . هلك العديد من أبناء الشعب ، لان الطاعون قد استشرى في كل مكان . والقيت مسؤولية دفن الموتى من الفقراء على عاتق الحرفيين ورهبان الاديرة . ويذكر يسوع العمودي ان سكان الرها اثناء وباء الطاعون لم يتمكنوا من نقل الموتى الكثيرين ودفنهم ، فساعدتهم في ذلك رهبان الدير الذين كانوا ينقلون الموتى الى المستوصف ومن هناك الى الدفن (٧٢) . في البداية كانوا يضعون الموتى في مدافن المعابد . وفيما بعد فتحو المدافن الحجرية القديمة بالقرب من معبد مار كاثون ودفنوا فيها . ومنذ مطلع تشرين الثاني حتى اذار السنة ٥٠١ هـ كانت نسبة الوفيات عالية جدا . واستشرى الطاعون في سكان المدينة في شهر نيسان ، فكانوا ينقلون من الرها اعدادا كثيرة من الجثث لم يستطع احد تقرير عددها (٧٣) . لقد داهم الموت جميع المناطق السورية من نصيبين (بجوار القامشلي) حتى انطاكية - اي من نهر دجلة حتى البحر الابيض المتوسط . وامام هذا الوباء (الطاعون) القاتل وقفت الحكومة البيزنطية عاجزة تماما ، كما وقفت عاجزة امام المجاعة ، اذ لم تقدم سوى الحد الأدنى من العون ، الذي اقتصر على تقديم المأوى والقبور . وكان الاغنياء كعادتهم ، يهربون من وباء الطاعون ويختبئون في مزارعهم وقصورهم المحاطة بالاسوار تجنباً لخطر العدوى . وتكرر الوباء اكثر من مرة في القرنين السادس والسابع ، فعاش سكان الرها في تلك الحقبة تحت وطأة التهديد بالموت السريع من مرض الطاعون .

وفي اثناء فترة المجاعة (في السنوات ٥٠٠ - ٥٠٢) ، كما في اثناء موجة الطاعون ، كانت المساعدات التي قدمتها الحكومة البيزنطية للسكان السوريين الفقراء في حدودها الدنيا . وتشير اسفار يسوع العمودي الى ان المساعدات المالية وزعت دون تمييز بين الفقراء والاغنياء ، فلم يؤخذ بعين الاعتبار الفقراء المحتاجون بالفعل . يقول يسوع العمودي : ان الخصي اوربيك المكلف من قبل الامبراطور انستاسيوس بتقديم المساعدة المالية للسكان السوريين في منطقة ما بين النهرين ، قد قام بتوزيع « الدينار تلو الدينار » في مدينة آمد . ومن هناك توجه الى الرها ، فاعطى لكل امرأة رغبت بالمساعدة تريميسونا واحدا ، ولكل طفل زوزي (قطعة نقدية صغيرة) . وهكذا حصلت كل النساء تقريبا على المال - النساء المحتاجات وغير المحتاجات (٧٤) .

وتذكر اسفار يسوع العمودي أيضا اسعار المواد الغذائية خلال مجموعة من السنوات ، كما تكرر بها بصورة منتظمة بالنسبة للقمح والشعير . وتعود اغلبية الاسعار الواردة في هذه الاسفار السريانية الى عصر المجاعة في منطقة ما بين النهرين السورية .

ولكن قسما من المعلومات يعود الى فترة لم تكن المنطقة تعاني خلالها من المجاعة ، وفي هذه الحالة تعطي تصورا عن الاسعار الطبيعية . وطالبت قوانين جستنيانوس ان تكون تجارة الحبوب حسب الاسعار السائدة في حينها في المنطقة . لكن الاسعار لم تكن ثابتة ولا يمكن ان تكون ، بل كانت تتبدل حسب اوقات السنة والظروف المحلية الملائمة وغير الملائمة .

منذ القرن الرابع الميلادي انتقلت التجارة الى التعامل بالنقد الذهبي ، بينما اصبحت الفضة عملة نادرة الاستعمال . وفي القرن الخامس كان المؤرخ السوري يستبدل كلمة « المال » بكلمة « الذهب » . وازدادت الحاجة الى هذا المعدن الثمين من اجل سك النقود ، في حين هبط استخراجه بصورة تدريجية (٧٥) . بدفع الذهب أبعدت كل من بيزنطة وايران بعض القبائل البربرية عن حدودها الشمالية . كذلك لعب تصدير الذهب الى الشرق دورا هاما في شراء المواد الشرقية الفاخرة . ان النظام النقدي الذي كان سائدا في عصر الامبراطور انستاسيوس (٤٩١-٥١٨) والاصلاح الذي أدخله على النقد يعكسان الوضع المالي العام . لقد سك اسلافه مجموعة من النقود المختلفة ، فصارت مادة للمضاربة في السوق السوداء . ولكن اصلاح النقد في سنة ٤٩٧ قد حفظ قيمة الليرة الذهبية (السوليدوس) . ومن اجل الحسابات الصغيرة ضرب نقد برونزي فاكسب تداولا واسعا في الاسواق . كانت الضرائب تسدد فقط بالمعدن الثمين - بالذهب وبالفضة - . ولكن النقد الفضي في القرن الخامس كان نادرا نسبيا (٧٦) . وعلى هذا صارت الضريبة النقدية تدفع بصورة كاملة تقريبا بالعملة الذهبية . وكل معدن كان له نظامه الخاص المستقل ، فالفضة لا تغطي الذهب ، كما لا يغطي النحاس الفضة (٧٧) .

في القرن السادس الميلادي كانت الليرة الذهبية (السوليدوس) تعادل ٦٠٠٠ نوموس من البرونز . ولتحديد قيمة النقد وضعت عليه شارات معينة . فأكبر قطعة نقدية برونزية في عصر انستاسيوس التي كانت تزن من ١٠ - ١٦ غ وتساهوي ٤٠ نوموس كتب عليها رقم ٤٠ . اما القطع النقدية الاقل وزنا فقد كتب عليها رقم ٢٠ او ١٠ او ٥ او ١ نوموس . واختصر اسم النوموس Nummus على القطع النقدية بحرفي ن.م. N.M. (٧٨) . واصغر قطعة نقدية برونزية هي النوموس الواحد الذي يزن اقل من غرام . الى جانب الليرة الذهبية والنقود البرونزية كانت هناك نقود فضية تسمى باليونانية « كيراتيون » keration وباللاتينية « سيليكوا » Siliqua ، وهي تساهوي ١/٢ من الليرة الذهبية (السوليدوس) . في عهد الامبراطور زيتون (سلف انستاسيوس) كان المليارس الفضي يزن ٤٠٥ غ ، والكيراتيون يزن ٢٦ غ . وكانت هذه القطع النقدية الفضية نادرة ، بينما كثيرا ما تصادف نقود بقيمة نصف

كيراتيون بوزن ١٤٢ - ١٢٨ غ . وكانت النقود الذهبية والفضية تسك في القسطنطينية ورافينا . أما بعد اصلاح النقد الذي جرى في عهد الامبراطور انستاسيوس (في سنة ٤٩٧) فقد اصبحت النقود تسك في مدن كثيرة . وكانت اماكن سك العملات الفضية القريبة من منطقة ما بين النهرين السورية هي المدن التالية : إفس ، ايسورية ، نيكوميديّة ، انطاكية (٧٩) .

وتحسب اسفار يشوع العمودي السورية ثمن الحبوب بالقطعة النقدية التي يطلق عليها اسم « الدينار » . لقد بقيت اسماء القطع النقدية على ما كانت عليه مدة طويلة ، رغم تبدل قيمتها وسكها . وحافظ السوريون ايضا على التسمية القديمة للدينار ، وهم يقصدون به الليرة الذهبية البيزنطية (السوليدوس) . وهذه التسمية تصادف في اسفار يشوع العمودي وغيرها من الاسفار السورية (٨٠) . وتذكر اسفار زكريا الميتيليني (الملطي) السورية اسم « الكيراتيون » في ترجمة غالينوس الى السريانية ، التي قام بها الطبيب السوري سرجيوس (من راس العين) في القرن السادس الميلادي . وهكذا استعمل السوريون النقود البيزنطية مستخدمين اما تسمياتها اليونانية « كيراتيون » ، « نوموس » ، او تسمياتها السورية القديمة ، كالدينار على سبيل المثال .

والاسفار السورية (السريانية) عندما تذكر ثمن الحبوب تنطلق من القطعة النقدية وتشير الى كمية الحبوب التي ابتيعت بها في ذلك الزمن . وهذه طريقة عامة في الحسابات استعملت في الامبراطورية البيزنطية كلها على امتداد قرون عديدة . فالحبوب في مصر كانت تقاس بالارتاب ، وفي سورية بالمد . وهناك الكثير من النعوت للعد (كبير ، صغير ، بحري ، قيصري ، وغيرها) . وهذه النعوت تشير الى غياب الوحدة النمطية في المعايير والكميات ، فهي تختلف من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان (٨١) . ولا يوجد حتى يومنا هذا تحديد دقيق لقياس المد من الحبوب . كذلك من الصعب وضع تناسب دقيق بين المد السوري والارتاب المصري ، لكن الارتاب يساوي ٣ - ٣ر٥ مد تقريبا (٨٢) .

يذكر يشوع العمودي (في سنة ٤٦٤ - ٤٦٥) الاسعار التالية للحبوب في مدينة الرها السورية فيقول : « في هذا الوقت ، كان كل ٣ مد من القمح يباع في الرها بدينار واحد ، وكل ٥ مد من الشعير يباع بدينار ايضا (٨٣) . وكان الدينار ، او بالاحرى السوليدوس الذهبي ، يساوي ٢٤ كيراتيون فضي ، وبالتالي كان ثمن المد الواحد من

القمح ٨ ر. كيراثيون ، وثمن المد الواحد من الشعير ٨ ر. كيراثيون ، وهذا السعر طبيعي جدا بالنسبة للقرن الخامس الميلادي . وفيما بعد يتحدث يشوع العمودي عن غلاء المعيشة ويصف المجاعة وارتفاع الاسعار . في سنة ٩٤ - ٩٥ قدم اسعارا طبيعية للقمح والشعير . اما في سنة ٩٩ - ٥٠٠ فقد حلت الكوارث التي ادت الى حدوث المجاعة (٨٤) . في البدء ظهرت اعداد كبيرة من الجراد في مرحلة الزحف (قبل تكون الاجنحة) ، فاكلت الزرع وكل النباتات الاخرى في اماكن عديدة من منطقة ما بين النهرين : اروبا ، تلة ، راس العين ، الرها . وظهرت عواقب هذا الامر في الحال : في شهر نيسان من سنة ٥٠٠ اخذ يتصاعد سعر الحبوب ، فصار كل { مد من القمح يباع بدينار واحد (في السابق كان كل ٣٠ مد من القمح يباع بدينار واحد) . وفي حزيران وتموز من سنة ٥٠٠ حرم سكان هذه المناطق من كل ما هو ضروري للحياة ، مما اضطرهم للتسول (٨٥) .

ويذكر يشوع العمودي ارتفاع اسعار المواد الغذائية الاخرى فيقول : كانت محاصيل البقوليات - الحمص والعدس والفل - تباع بالكابا (الكابا مكيال صغير استخدمه الاشوريون والبابليون والكنعانيون ، وذكره فيلون الاسكندري ، كما اعتبره ابيفانيوس القبرصي ١/٤ او ١/٥ من المد ، اما المد المزدوج فيساوي ٨ كابا) (٨٦) . ففي زمن المجاعة والقحط في منطقة ما بين النهرين السورية كانت الكابا الواحدة من الفول تباع بمبلغ ٤٠٠ نوموس برونزي ، والكابا الواحدة من الحمص تباع بمبلغ ٥٠٠ نوموس . ويمكن من خلال سعر الاتراب الواحد من العدس في الظروف الطبيعية ، الذي كان يباع بمبلغ ٣ كيراثيون ، الحكم على الحد الذي وصل اليه ارتفاع اسعار الحبوب في زمن المجاعة (الاتراب = ٣ مد = ٢٤ كابا ، السوليدوس الذهبي = ٢٤ كيراثيون فضي = ٦٠٠ نوموس برونزي) . اما اللحم فكان ارخص مادة غذائية في السوق . لم تكن الاعشاب متوفرة لاطعام المواشي ، حيث ابادها الجراد . ولذا اخذ الناس يذبحون المواشي ، فكثر اللحم واصبح رخيصا . ويتابع يشوع العمودي حديثه قائلا : « ان السنة التي تلت سنة ٥٠٠ - ٥٠١ لم تجلب الراحة والهدوء للسكان ، بل اخذ الجوع يزداد في القرى والمدن . فكل من بقي في القرى راح ياكل العشب المر ، وبعضهم يطبخ حصرم العنب ويتناوله غذاء . وفي شهر شباط من سنة ٥٠١ ازداد الغلاء تصاعدا والطاعون استشرأ . بالنسبة للقمح فقد بيعت كل ١٣ كابا بدينار واحد (ليرة ذهبية ، سوليدوس) . اما الشعير فقد بيعت كل ١٨ كابا بدينار واحد . وبيع لستر اللحم بمبلغ ١٠٠ نوموس (الليتر = ٣٠٠ غ) ، والبيضة بمبلغ ٤٠ نوموس . وعلى العموم كان كل ما يؤكل غالي الثمن » (٨٧) .

لم يخفف محصول تلك السنة من وطأة غلاء المعيشة الا بقدر ضئيل ، لان القمح الجديد في حزيران وتموز من سنة ٥٠١ هـ قد بيع بعد الحصاد بدينار واحد لكل ٥ مد . « لم تتحقق آمالنا » - هكذا كتب يشوع العمودي - على اعتبار أن التخلص من غلاء المعيشة لم يتحقق . في شباط السنة ٥٠١ هـ بيع القمح بمكيال صغير (بالكابا) . وبعد الحصاد فقط اصبح البيع بالمد (المد المزدوج = ٨ كابا) . غير ان سعر القمح كان غالبا جدا ، بالمقارنة مع السعر الطبيعي . فكل ٥ مد من القمح بيعت بدينار ، بينما في الاحوال الطبيعية بيعت كل ٣٠ مد من القمح بدينار واحد .

في السنة التالية ٥٠١ - ٥٠٢ هـ كان محصول العنب وافرا . وكان العنب والخمر يمثلان عنصرا ضروريا في التغذية بالنسبة لكافة فئات الشعب ، كما يمتلكان اهمية كبيرة في الانتاج الزراعي . في تلك السنة بيع انتاج الخمر من المكبس مباشرة « ٢٥ مكيال بدينار واحد » . كانت كروم العنب تطعم الفقراء بفضل وفرة العنب المجفف (الزبيب) . وكان الزبيب في تلك السنة اكثر من العنب الطازج الصالح للمكبس ، لان ريحا جافة هبت في فترة النضوج جففت كمية كبيرة من العناقيد (٨٨) . ٢٥ مكيال من الخمر بيعت بدينار واحد ، وهذا السعر ارخص بكثير مما كان عليه في السنة الماضية ، حيث كانت كل ٦ مكايل تباع بدينار واحد . لكن اسعار الحبوب في تلك السنة (٥٠٢) استمرت بالصعود ، فبيعت كل ٤ مد من القمح بدينار ، وكل ٦ مد من الشعير بدينار . ويقول يشوع العمودي : « ان العنب المجفف (الزبيب) وحده هو الذي اطعم الفقراء وابعدهم عن خطر الموت جوعا » . لم تتحقق الامل المعلقة على محصول تلك السنة ، لان ريحا جافة هبت ثلاثة ايام في شهر ايار من سنة ٥٠٢ هـ ، فسببت هلاك الكثير من المساحات المزروعة بالحبوب .

واورد يشوع العمودي موضوعا يثير الاهتمام ، دون أن يدرك هو المعنى الحقيقي لهذا الموضوع . ففي سنة ٥٠١-٥٠٢ هـ امر الامبراطور انستاسيوس بالغاء الاحتفالات بالعيد الوثني في ايار ، هذا العيد الذي كان الكثيرون من الناس يتجمعون في مدينة الرها للاحتفال به عدة ايام . وقد عبر يشوع العمودي (الكاهن المسيحي) عن استيائه من الاحتفال بالعيد الوثني ، لكنه تمكن من اعطائه وصفا دقيقا حيا (٨٩) . فهو يعتقد ان البواعث الشريفة التي دفعت الامبراطور على الغاء الاحتفال بالعيد والرقص ومظاهر الخلاعة ، قد كوفئت بهبوط اسعار القمح . فبعد ثلاثين يوما صارت كل ١٢ مد من القمح تباع بدينار واحد ، وكل ٢٢ مد من الشعير تباع بدينار واحد ايضا . ومن المحتمل ان يكون هذا الهبوط المؤقت في اسعار القمح مرتبطا بالغاء العيد الوثني ، الذي كان الكثيرون من الناس يلتقون خلاله في المدينة ، فتنشط التجارة فيها وتتوارد اليها الاموال . وبما ان الامل قد تلاشت بخصوص مبيعات الاعياد الوثنية في المدن ، فان

تجار الحبوب وملأكي الاراضي قد وجدوا انفسهم مضطرين لتخفيض اسعار القمح والشعير ، وربما فضلوا بيعه عن البيادر ، بغية توفير اجور النقل والتخزين في المدن، التي تضاف عادة على سعر الحبوب . ومن المحتمل ايضا ان يكون انخفاض سعر العنب والنبيذ ، نتيجة الموسم الجيد ، قد اثر في انخفاض سعر الحبوب .

وفي سنة ٥٠٤ - ٥٠٥ يتحدث يشوع العمودي للمرة الاخيرة عن اسعار الحبوب فيقول : « قبل هذه السنة كانت كل ٤ مد من القمح تباع بدينار ، وكل ٦ مد من الشعير تباع بدينار ، وكل ميكيالين من الخمر بدينار . اما بعد الموسم الجديد فصارت كل ٦ مد من القمح تباع بدينار ، وكل ١٠ مد من الشعير تباع بدينار » . وهكذا في سنة ٥٠٤ - ٥٠٥ اصبح بالدينار الواحد يمكن شراء ١/٤ كمية القمح التي كانت تشتري بالدينار في سنة ٤٩٤ - ٤٩٥ ، حينما كانت الاسعار طبيعية . وهذا يعني ان اسعار الحبوب قد ارتفعت خمسة اضعاف عما كانت عليه في الاحوال العادية . وسبب هذا القلاء الفاحش الذي استمر من سنة ٥٠٠ حتى ٥٠٥ هو القحط المتكرر الذي اصاب منطقة ما بين النهرين السورية . اضاف الى ذلك ، فان الخل الذي اصاب الاقنية بسبب الاهمال قد اضر بنظام الري في كثير من القرى . وساهمت في المجاعة وارتفاع الاسعار ايضا بعض الكوارث الطبيعية الاخرى ، ومنها هجمات الجراد المديدة ، والرياح الصحراوية المحرقة التي سببت اليبس للثمار والحبوب وافضت الى الجذب والقحط . لكن ارتفاع الاسعار ارتبط بالدرجة الاولى بسيطرة كبار التجار والملاكين على السوق المحلية لتجارة الحبوب . فالاسعار التي يذكرها يشوع العمودي عالية لدرجة انها يجب ان تعود الى بيع الحبوب من قبل التجار . من المحتمل ان الخبر الجاهز الذي كانت تصنعه مخابر المدينة تحت اشراف الحاكم البيزنطي كان يباع حسب الاسعار الحكومية المحددة ، ولكن حتى هذه الاسعار كانت ثقيلة بالنسبة للفقراء . هذا ولم يذكر يشوع العمودي شيئا ذا قيمة عن الاسعار الحكومية الموضوعة على الحبوب والخبز .

وهكذا يقدم تحليل اسفار يشوع العمودي السريانية جملة من الحقائق التي تكشف نظام الادارة البيزنطية في سورية ، ومشكلات العلاقات الزراعية ، ونشاط التعاونيات الحرفية في المدن ، والعلاقات التجارية الواسعة ، واخيرا تازم الصراع الطبقي في ظروف الجوع والحرب وابتزاز الضرائب الفاحش . كل هذه المعلومات الحية الساطعة تشهد على وجود ثلاث مؤسسات في الدولة البيزنطية وهي :

١ - المؤسسة المالية ، او المؤسسة المختصة بنهب شعبها .

- ٢ - المؤسسة العسكرية ، او المؤسسة المختصة بنهب الشعوب المجاورة .
- ٣ - مؤسسة الاشغال والخدمات العامة .

وكانت المؤسسة المالية اكثر هذه المؤسسات عملا ، فبفضلها تحولت الدولة البيزنطية الى آلة عملاقة تمتص خيرات رعاياها . اما النتائج فكانت الظلم والفقر والجوع والموت واحتدام الصراع الطبقي . هذه الامور تحدثت عنها الاسفار التاريخية المسورية (السريانية) بكل بساطة ووضوح .



- (١) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٤٥ ، ص ٤٠ .
- (٢) Payne, Smith, Thesaurus Syriacus, t. II, cc. 3147-3151.
- (٣) Ibidem, t. I, C. 190 .
- (٤) Syrisch, romisches Rechtsbuch aus dem funften Jahrhundert, Ed. Bruns und Sachau, Leipzig , 1880, Cod. L, P. 36.
- (٥) Ibidem, Cod. L, § 50, p. 15.
- (٦) Ibidem, Cod. P, § 28, P. 48.
- (٧) Ibidem, Cod. L, §§ 49, 50, P. 15; Cod. p. § 28, p. 48.
- (٨) Codex Justinianus, ed. Kruger, XI, 48, 23, P. 442.
- (٩) Ibidem, XI, 48, 21, P. 422.
- (١٠) Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 6, P. 36.
- (١١) Syrisches Rechtbuch, ed. Bruns und Sachau, Cod. L, §95, p.24.
- (١٢) Zacharias Mytilenensis, I, 7, caq. 4, t. II, P. 28-30.
- (١٣) Codex Justinianus, VI, 43. 3.
- (١٤) Syrisches Rechtbueh, op. cit., § 73, P. 19.
- (١٥) J. B. Bury, History of the Later Roman Empire, New york, Volume I, PP. 45-63 . (1923) .
- (١٦) راجع دانييل دينيت ، الجزية والاسلام ، تعريب فوزي جاد الله ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٩٣-١١٤ .
- (١٧) Ulpian, Digest, L, 15. 3.
- (١٨) Lot, L'Impot foncier et la Capitation personnelle, Paris 1928, PP.25-40.
- (١٩) راجع دانييل دينيت ، الجزية والاسلام ، تعريب فوزي جاد الله ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٩٣-١١٤ .
- (٢٠) Syrisches Rechtsbuch, ed. Bruns und Sachau, L I, 121, PP. 333-334.
- (٢١) Syrische Rechtsbucher, ed. Sachau, B.I. 1907, R II, 151, pp.132-137.
- (٢٢) Mommsen, Syrisches Provincialmass und romischer Reichs Kataster-Hermes, B III, PP. 429-438.
- (٢٣) انظر ايضا ف.ي. اوسبنسكي « قياسات الاراضي البيزنطية » ، في ابحاث المؤتمر السادس لعلم الآثار في اوديسا سنة ١٨٨٤ ، اوديسا ١٨٨٨ ، ص ٢٩٦ (بالروسية) .
- (٢٤) Panly - Wissowa, Real encyclopaedie, IX, 2, cc. 2507-2508.
- (٢٥) ف.ي. اوسبنسكي ، تاريخ بيزنطة ، بطرس بورغ ١٩١٣ ، الجزء الاول ، ص ٩١ (بالروسية).
- (٢٦) Hirschfeld, Annonae, Philologus, B. 29, H. I, 1870
- (٢٧) Novellae, 128, cap. 3, p. 637.
- (٢٨) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٥ ، و فقرة ٨١ ، ص ٧٧ .
- (٢٩) Codex Theodosianus, ed. Haenel, XI. 2, 4, 5, cc. 1058-1059.

- Op cit., XII, 6, 15, 18, cc. 1284 - 1285. (٢٨)
- Codex Justinianus, X, 16, 13, P. 441. (٢٩)
- Op. cit., XI, 48, 4, P. 440 . (٣٠)
- Op. cit., XI, 48, 20, 2, P. 441. (٣١)
- Syrisches Rechtsbuch, op. cit, 116, p. 32. (١-٣٢)
- (٣٢-ب) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥ .
- (٣٣) يشوع العمودي ، فقرة ٩٣ ، ص ٨٥ .
- Codex Justinianus, XI, 48, 20, 3, P. 441. (٣٤)
- Joannes Lydus, De magistratibus, I. III, cap. 49, ed Wunsch, Leipzig, 1903, P. 138 - Bury, op. cit., t. I, London, 1923, P. 442. (٣٥)
- Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap.9. (٣٦)
- Joannes Lydus, De magistratibus, I.III, cap. 49. (٣٧)
- Evagrius . Historia ecclesiastica, I. III. cap. 42. Ed. Bidez et Parmentier. London, 1898, P. 144. (٣٨)
- Prisciani . De laudo Anastasii imperat, 193 - 195 , Poetae Latinae minores, Baehrens, Lipsiae, 1883, t.5. P. 271. (٣٩)
- (٤٠) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥ .
- Rostowzeff. Studien Zur Geschichte des romischen Kolonates, 1910, P. 196. (٤١)
- (٤٢) بانتشنكو . حول تاريخ بروكوبيوس السري(بالروسية) ، بطرس بودغ ١٨٩٨ ، ص ١٤٢ ومايلها .
- Novellae, 168. P. 755. (٤٣)
- Codex Justinianus, XI, 25, 2, P.435. (٤٤)
- Wright, The chronicle of Joshua the Stylite, trans., P. 20. (٤٥)
- Zacharias Myti lenensis, 1. 7, cap. 6,P. 37.- Payne- Smith, The saurus Syriacus, t. I, C. 1236. (٤٦)
- (٤٧) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٨١ ، ص ٧٧ .
- Zacharis Mytilenensis, I, 7, caq. 3, t. II, p. 24. (٤٨)
- (٤٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٤ ، ص ٤٠ .
- (٥٠) فاسيليفسكي . مصادر لدراسة الدولة البيزنطية ، مجلة وزارة الثقافة الشعبية ، العدد ٢٠٢ ، نيسان ١٨٧٩ (بالروسية) .
- (٥١) بانتشنكو ، ص ١٢٨ .
- (٥٢) روداكوف . دراسات في الحضارة البيزنطية ، ص ١١٧ (بالروسية) .

- Codex Justinianus, X, 27, 2, 3, PP. 404-408.** (٥٢)
OP. cit., X, 27, 2, P. 407, c. 2. (٥٣)
Op. cit., X, 27, I, P. 407. (٥٤)
OP. cit., X, 27, 2. (٥٥)
روداكوف . دراسات في الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٢ . (٥٦)
Dolger, Finanzverwaltung, P. 58. (٥٧)
Codex Justinianus, X, 27, I, P. 407. (٥٨)
يشوع العمودي ، فقرة ٨٢ ، ص ٧٧. (٥٩)
Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 5. pp. 32-33. (٦٠)
Codex Theodosianus, XIII, I, 68, 12, 13 — Codex Justinianus, XI, 48, 1. (٦١)
Codex Justinianus, X, 27, 3, P. 408. (٦٢)
OP. cit., X, 27, 3, P. 408. (٦٣)
يشوع العمودي ، فقرة ٢٩ ، ص ٢٥ . (٦٤)
يشوع العمودي ، فقرة ٤٠ ، ص ٢٦-٢٥ . (٦٥)
Stokle, Spatromische und Bysantinische Zunft, P. 101. (٦٦)
يشوع العمودي ، فقرة ٤٠ ، ص ٢٦ . (٦٧)
يشوع العمودي ، فقرة ٢٤ ، ص ٢٧ . (٦٨)
يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٢٧ . (٦٩)
يشوع العمودي ، فقرة ٢٤ ، ص ٢٧ . (٧٠)
يشوع العمودي ، فقرة ٢٤ ، ص ٢٧ . (٧١)
يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٢٧ - ٢٨ . (٧٢)
يشوع العمودي ، فقرة ٤٣-٤٤ ، ص ٢٨-٤٠ . (٧٣)
يشوع العمودي ، فقرة ٨٤ ، ص ٧٩ . (٧٤)
Mickwitz , Goldwertindex der romisch - byzantinischen Zeit , Aegyptus, t. XIII, 1933, P. 103. (٧٥)
Soutzo, « Le Systeme monetaire d' Anastase » . Bulletin historique de L'Academie roumaine, t. 13, 1927, P. 54. (٧٦)
Seeck. « Munzenpolitik Diokletians » , Zeitschrift fur Numismatik, 1890, B. 16, P. 166. (٧٧)
Babelon, Traite des monnaies grecques et romaines 1901, t. I, PP. 616 - 617 . (٧٨)
Babelon, ibidem, C. 1042 . (٧٩)

- Payne - Smith, *Thesaurus Syriacus*, t. II, c. 3741. (٨٠)
Dolger. *Finanzverwaltung*, P. 123. (٨١)
Ostrogorsky, « *Lohne und Preise* », *Bysantinische Zeitschrift*, 1932, (٨٢)
B. 32. H. II. pp. 319 - 320.
- (٨٣) يشوع العمودي ، فقرة ٢٦ ، ص ٢١ .
(٨٤) يشوع العمودي ، فقرة ٢٦ ، ص ٢١ .
(٨٥) يشوع العمودي ، فقرة ٢٨ ، ص ٢٢ .
(٨٦) Hultsch . *Metrologie*, P. 451 .
(٨٧) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٢٩ .
(٨٨) يشوع العمودي ، فقرة ٤٥ ، ص ٤٠ .
(٨٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٦ ، ص ٤٢ .

مملكة يمحاَض (حلب)

ر. سوقي سعت

المتحف الوطني بحلب

في نهاية الالف الثالثة وبداية الالف الثانية قبل الميلاد ظهرت على المسرح السياسي في سورية الشمالية قبائل عربية (جزرية) (١)، عرفها التاريخ باسم الأموريين (٢)، أو العموريين، واخذت تتسلل الى المدن في بلاد ما بين النهرين وفي سورية تسلا بطيئا للعمل بصفة عمال او مرتزقة في الجيوش، ومع الزمن تمكن هؤلاء من الوصول الى المراتب العالية في الدولة والجيش. وعندما غابت دولة سلالة أور الثالثة حوالي عام ٢١٠٠ ق.م (٣)، تلك القوة السياسية القوية التي كانت تسيطر على الاحداث في بلاد ما بين النهرين وسورية، تمكن الأموريون من البروز الى الصدارة وتكوين كيانات سياسية خاصة بهم في بلاد ما بين النهرين وسورية، وما ان حل الالف الثاني قبل الميلاد حتى اصبحت سورية أمورية في سكانها ولغتها وكياناتها السياسية (٤). من اهم تلك الممالك في سورية الشمالية كانت يمحاَض وعاصمتها حلبا (حلب اليوم) وماري (تل حريري) وقطنة (المشرفة) وابلا (تل مردوخ) والالاخ (تل عطشانة) وغيرها.

عرفنا الكثير عن تلك الدويلات وعن الحالة السياسية في تلك الفترة في سورية الشمالية من خلال الرقم المسماة واللقى الاثرية التي عثر عليها في ماري ورأس شمرا والالاخ، واخيرا في ابلا / تل مردوخ. اما عن يمحاَض (حلب) فان معلوماتنا عنها لا زالت مقتصرة على ما ورد من معلومات في محفوظات الممالك السورية المعاصرة لها، التي المأخوذة الى بعضها سابقا، لانه لم تجر في مدينة حلب نفسها تنقيبات أثرية منهجية أثرية تمدنا بمزيد من المعلومات. كذلك وردتنا معلومات عن مملكة يمحاَض من المصادر

الكتابية الحثية التي اعطتنا معلومات عن علاقة يحماض بالحثيين . كانت حدود مملكة يحماض / حلب ، خاصة في عهد ملكها حمورابي ، تمتد غربا الى البحر المتوسط (٥) وشرقا حتى مجرى البليخ الاعلى حيث كانت كركميش تحت تأثيرها (٦) ، ومن الجنوب متصل بحدود مملكة قطنة (٧) .

ان ظهور مملكة يحماض وتطورها كان بسبب موقعها الجغرافي الذي اهلها للسيطرة على الطريق التجاري الكبير (الممر السوري العظيم) الذي يربط بلاد ما بين النهرين بسورية والاناضول وبلاد اليونان والساحل السوري ومصر (٨) ، هذا الممر الذي كانت تستورد بلاد ما بين النهرين عن طريقه النبيذ اليمحاضي والالبسة اليمحاضية والاشباب من جبال ابلا وجبال جيبيل (لبنان) ، والفضة من جبال الامانوس ، وغيرها من المواد الخام . وكذلك كانت تستورد النحاس من الاسيا (قبرص) عن طريق رأس شمرا (اوغاريت) وابلا (٩) اللتين كانتا تابعتين (١٠) لمملكة يحماض . كما ان موقعها الجغرافي ذلك كان في وسط سهل زراعي خصيب كان ولا يزال ينتج العنب الذي تصنع منه الخمور (النبيذ) والزيتون الذي يستخرج منه الزيت ، والكتان الذي كانت تصنع منه الالبسة اليمحاضية .

مما تقدم نلاحظ ان يحماض وعاصمتها حلبا كانت مركزا تجاريا كبيرا ومركزا زراعيا لانتاج المحصولات الزراعية ، ومركزا صناعيا يصنع فيه النبيذ والنسيج .

الاسرة الامورية في يحماض : لا نعرف بالتحديد متى تأسست هذه السلالة في حلب ، ومازال تاريخ بدايتها غامضا نظرا لعدم توفر الادلة الاثرية والشواهد التاريخية، لكن الرقم الطينية التي اكتشفت في الالاح (تل عطشانة) والتي نشرها وايزمن ، خاصة تلك التي عثر عليها في الطبقة السابعة ، امدتنا ببعض أسماء ملوك الاسرة اليمحاضية ، وقد امكن على ضوء ذلك بناء شجرة سلالية اعتبارا من يارليم الاول وبعده ابنه حمورابي الذي كان معاصرا لحمورابي البابلي (١٧٩٢ - ١٧٥٠) . وبناء عليه يمكن الافتراض ان السلالة اليمحاضية في حلب تأسست في القرن التاسع عشر قبل الميلاد (١٢)، واستمرت في الحكم حتى دمرت الالاح على يد الحثيين في عهد الملك اليمحاضي يارليم الثالث Iarim lim III والى هنا تتوقف الحوادث الواردة في المحفوظات الكتابية في الالاح والعائدة للطبقة السابعة .

يحماض والحثيون : تستمد معلوماتنا عن علاقة يحماض (حلب) بالحثيين من الوثيقة التاريخية الهامة المكتوبة باللغة الاكادية والمعروفة بوثيقة تلبينوس Text of Telepinus (١٣) من القرن الخامس عشر قبل الميلاد (١٤) . وعلى الرغم من

انها تعود الى عهد احدث من تاريخ العلاقات الحثية - اليمحاضية ، الا انها تتعرض للاحداث الماضية بشيء من التفصيل . وسبب ذلك ان الوثائق السابقة لهذه الوثيقة فقدت فاعيد كتابة مضمونها ، او ان الملك الحثي اراد ان يوحد تاريخ العلاقات بين بلده ويمحاض في نص واحد .

تبدأ الوثيقة بالقول « هكذا يتكلم تبارنا تيلبينو الملك العظيم (١٥) ، سابقا كان لابارنا Labarna الملك العظيم ، واولاده واخوته واقرباؤه ومن تربطه بهم علاقة الدم ورجاله المحاربين يتجمعون حوله ..

وعندما حكم مورشيل الاول Mursili I في حاتوشا واولاده واخوته واقرباؤه ومن تربطه بهم صلة الدم ورجاله المحاربين حوله لقد سار الى حلبا Halpa (حلب) ، ودمر حلبا ، وجلب الاسرى من حلبا وامتعهم الى حاتوشا بعد ذلك سار الى بابل ودمرها « (١٦) .

وفيما بعد اعيد تنظيم العلاقات الحثية اليمحاضية بموجب معاهدة عرفت باسم معاهدة حلب (١٧) وقد عقدت تلك المعاهدة بين الملك الحثي مورشيل الثاني (١٨) ، وبين حفيده ريم شارما Rim Sharma ملك حلب وذلك عام ١٣٣٦ ق.م (١٩) ومن خلال تلك المعاهدة يمكن التعرف على طبيعة العلاقات الطيبة المقترنة بالمصاهرة .

لا تتوسع المصادر كثيرا حول اصطدام يمحاض بالحثيين اذ لم نقف على معلومات مؤكدة تشير الى ان الملك الحثي حاتوشيل الاول (٢٠) تمكن من حلب واخضعها لتصبح مملكة تابعة له ، وعليه فانه من المشكوك فيه ان تكون حلب قد خضعت للغازي القادم من الشمال ، ومن المرجح ان يكون قد فشل وعاد الى عاصمته بعد ان هزمته عساكر حلب واوقعت به جراحا في تلك الغارة التي مات بسببها ، وهذا ما دفع خليفته مورشيل الاول ان ياخذ على عاتقه القصاص من يمحاض (٢١) ، فتمكن من احتلالها وتدميرها بعد حروب طويلة وتحالفات كثيرة . كانت حلب قوية جدا لا يمكن ان تسقط بغارة واحدة (٢٢) ، ومن اجل كسب الوقت والمخادعة قرر الحثيون التوسع جنوب طوروس للتحكم في التجارة الدولية والاستفادة من خيرات السهول الجنوبية ، فبدؤوا زمن حاتوشيل كما يبدو بعقد معاهدة صداقة مع حلب (٢٣) ، فلما فشلوا في الوصول الى هدفهم تحول حاتوشيل الى سياسة القضم الذي طبقها على مملكة يمحاض فتوجه الى الالاغ (تل عطشانة) احدى الممالك الهامة التي كانت تابعة لحلب ويحكمها احد فروع الاسرة اليمحاضية بحلب ، واخذها (٢٤) ، فسلب بذلك يمحاض ميناءها الرئيسي ومنفذها الى البحر المتوسط ، وبعد ذلك توجه الى مدينة اورشو ، المدينة الحليفة

لمملكة يمحاظ (٢٥)، كما تشير المصادر، على حد قول ماكوين، إلى أن الحثيين تحالفوا مع مملكة حانا (خانا) - القوة الجديدة في المنطقة التي ظهرت بعد سقوط مملكة ماري (تل حريري) - من أجل احاطة مدينة حلب وقطع تجارتها الدولية، وبالتالي ضرب رخائها. ويبدو أنهم وجدوا مبتغاهم، سيما وأن حكام تلك المملكة لم يكونوا، كحكام بابل وحلب، من الاموريين (٢٦).

وعلى الرغم من أننا لانعلم بالضبط متى حدثت تلك الاحداث التي اشرنا اليها اعلاه الا انه يمكن ان يكون مورشيل الملك الحثي قد تمكن من تدمير حلب حوالي عام ١٥٩٥ ق.م. (٢٧) وهكذا تحقق الحلم الحثي بالسيطرة على طريق التجارة الدولية حتى الفرات الاوسط، ولما لم يكفه ذلك استغل صداقته مع ملك خانا وقام بحملة خاطفة على بابل فدخلها ونهبها (٢٨)، وبذلك اصبح الطريق الدولي التجاري حتى بلاد بابل تحت سيطرته، ولكن الملك الحثي لم يستطيع الاحتفاظ بالنصر الذي احرزه في بابل، فقد اجبرته الهجمات الحورية على حدود بلاده ودسائس قصره والطامعين بالملك من اسرته، على العودة سريعا الى حاثوشا (٢٩).

بعد موت مورشيل الاول مقتولا على يد صهره حانتيل الاول Hantilis I اخذت المملكة الحثية في الضعف والتفوق تدريجيا تاركة حلب وسورية الشمالية للحوريين. ولكن بعد اعتلاء تلبينوس العرش الحثي حوالي عام ١٥٠٠ ق.م تمكن من اعادة العافية لمملكته واصبح قادرا على التقدم مرة اخرى نحو سورية الشمالية وعقد معاهدة مع حاكم Kizzuwadna التي كانت مواتية للحوريين، وبوصول تلبينوس آتف الذكر الى العرش الحثي انتهت الفترة المعروفة بفترة المملكة الحثية القديمة، فتابع هو وحلفاؤه سياسة اسلافه ملوك المملكة القديمة فيما يتعلق بسورية الشمالية ابان الدور الامبراطوري (١٤٥٠ - ١٢٠٠ ق.م) (٣٠).

حلب والقوى المتنافسة على المسرح السياسي :

خضعت حلب بعد احتلال مورشيل الاول الحثي لها غير مختارة واخذت تتحسين الفرص للثورة على اسيادها الجدد لانها كانت تحن الى لعب دور يماثل دورها في العصر اليمحاضي، وقد ساعدتها في بعض الاحيان على تلك الثورات بروز قوى سياسية اخرى كبيرة وهي القوة الميتانية والقوة المصرية، الا انها بقيت بصورة عامة دولة تابعة تناوبت عليها القوى العظمى في ذلك الزمان طمعا في خيراتها التي كانت تجنيها من سيطرتها على طرق التجارة الدولية.

من الاحداث الهامة التي سجلت في هذه المرحلة قيام الملك الحثي توداليا Tudhaliya بمهاجمة مدينة حلب وتخريبها. ويعتقد انها المرة الاولى التي يقوم فيها

ملك حثي بقيادة جيشه الى جنوب طوروس منذ ايام مورشيل الاول (٢١) ، ويظهر أن سبب تلك الفارة انتفاضة حلب على محتليها وطردهم مما رتب على الملك الحثي اخضاعها مرة ثانية (٢٢) . ولكن فيما بعد وفي اواخر حكم توشاليا هذا ربما ضعفت الدولة الحثية مما اطمع كثيرا من القوى بمهاجمتها والاستفادة من ضعفها ، فقد أقدم الميتانيون على السيطرة على سورية الشمالية وسموها Hanigalbat في حين عرفها المصريون باسم نهارينا ، كما أقدم بعض الامراء المواليين للميتانيين على مهاجمة حدود الدولة الحثية دون ان ينالوا عقابهم (٢٣) . وفي هذه الفترة أيضا وحوالي عام ١٤٧١ ق.م برزت قوة ثالثة على المسرح السياسي في سورية الشمالية الا وهي القوة المصرية حيث قام تحوتمس الثالث بالتقدم بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومنه الى سورية الشمالية واخذ حلب مجهزا بذلك على النفوذ الميتاني في المنطقة (٢٤) ، وبقي المصريون سادة الموقف لمدة تقارب ثلاثين عاما بعد ان اجبروا الحثيين على دفع الجزية لهم (٢٥) .

لم تكن هذه التطورات بالطبع ترضي الحثيين ولا الميتانيين ، واخذ كل ينتظر الفرصة السانحة . ويبدو انها جاءت في ثورة حلب ضد المصريين بعد موت تحوتمس الثالث (١٤٥٠ ق.م) . ولكن هذه الثورة الحلبية ، مع انها خلصت حلب من النير المصري ، الا انها انتقلت الى تحالف جديد مع الميتانيين القوة الرئيسية الثالثة بالمنطقة (٢٦) واعطت الحثيين في الوقت نفسه الفرصة للعلمة انفسهم من جديد وتحالفاتهم مع كيزووادنا . كان ذلك في اول عهد توشاليا ، وفي خلال عام او عامين من بداية حكمه كان قادرا على الحاق الهزيمة بحلب وتدميرها عقابا لها على تحولها الى الميتانيين (٢٧) ، وبذلك اصبح الطريق التجاري الدولي ثانية في قبضة الحثيين (٢٨) .

تابع الحثيون زحفهم نحو الجنوب مستفيدين من انتصاراتهم على حلب وميتاني وتحالفهم مع القوى السياسية المحلية الصغيرة ، ولما كان هذا الزحف قد هدد الممتلكات المصرية واقلق الميتانيين ، اذ اخذ الحثيون يتوسعون على حسابهم وحساب المصريين (٢٩) ، سارع الميتانيون للاتصال بالمصريين فأرسلوا بعثة سلام الى امينوفس (امنحوتب) الثاني تمكنت من ابرام معاهدة سلام معه وعقد مصاهرة بين البيتين الحاكمين في مصر وميتاني ، وعادت المنافسات بين القوى السياسية من جديد على امتلاك حلب وسورية الشمالية .

اعقب حكم توشاليا فترة مدمرة ثانية فقد فيها الحثيون شمال سورية من جديد كما فقدوا حليفهم كيزو وادنا بسرعة ، واطبق عليهم الاعداء من كل جانب ، فمن الشمال هاجمهم شعب Gasgāz ومن الشمال الشرقي Azzi-Hayasa ومن الشرق lsuwa ، وآخرون كثيرون هاجموا حاتوشا وتمكنوا من احراقها حرقا تاما (٤٠) . ومما

زاد في ضعف بلاد خاطي تلك الهجمات التي قام بها Ar zawa الذي كان راغبا فيما يبدو في السيطرة على طريق التجارة الدولي وبالتالي ان يصبح شخصية دولية . ولكن الحال لم يطل اذ تمكن في عام ١٢٨٠ ق.م امير شاب من الوصول الى العرش الحثي اسمه شوبيلوليوما . وقد نجح الملك الحثي الجديد في ان يهزم اعداء بلاده في الشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي ، كما تمكن بعد حملة فاشلة من ان يقوم بحملة ناجحة ضد ميتاني وينتزع منها حلب والالاح حوالي عام ١٢٧٠ ق.م ويعيدها الى الحضيرة الحثية ، حاسما بذلك الموقف في سورية الشمالية لمصلحة بلاده (٤١) ، ولكن شوبيلوليوما عاد الى عاصمة بلاده على عجل بسبب احداث حدثت هناك (٤٢) وترك امر سورية الشمالية الى ولده تلبينوس الذي عرف بالفديس والذي اتخذ من حلب مركزا له يدير فيها شؤون سورية الشمالية (٤٣) . ومن الواضح ان الذي ساعد على احراز الحثيين لهذه الانتصارات غياب القوة المصرية حليفة الميتانيين وذلك بسبب الاحداث التي جرت في مصر ، ومن اهمها ادخال الديانة الآتونية التوحيدية على يد امينوفس (امنحوتب) الرابع (اخناتون) وما ترتب على ذلك من زعزعة السلطة المصرية وضعفها ، وهذا ما ساعد الحثيين على الانفراد بالميتانيين حلفاء المصريين وتحويلهم الى دولة ضعيفة او تابعة . ومن اجل ضمان استمرار الوضع زوج شوبيلوليوما ابنته الى ابن الملك الميتاني شادستارا الكبير (٤٤) . خلف شوبيلوليوما الفاتح الكبير شخص ضعيف مريض يدعى ارنوواندا لم يستطع ادارة البلاد ومن حسن الحظ ان مات مبكرا وخلفه اخوه الاصغر مورشيل الثاني الذي ظل في الحكم ثلاثين عاما قام خلالها باستعادة قوة الدولة الحثية التي كانت لها ايام والده شوبيلوليوما . ومن اجل تحقيق ذلك الهدف قاتل مورشيل الثاني شرقا وغربا (٤٥) ، لكن الامر المعقد بالنسبة اليه كان الاصطدام مع المصريين الذين استعادوا قوتهم بعد استتباب الاوضاع الداخلية لديهم فأرادوا زمن سيتي الاول التوسع شمالا في بلاد الشام ، وظل هذا الصراع قائما حتى تم وضع حل نهائي له في بوتقة قادش التي كان من نتيجتها توقيع معاهدة عرفت بنفس الاسم (٤٦) .

١ - يحاض والالاح :

اصبحت الالاح (تل عطشانة) تابعة ليمحاض ابان حكم ملك يححاض ابان نحو عام ١٧٢٠ ق.م حتى ما لايتجاوز عام ١٦٥٠ ق.م اي انها ظلت خلال سبعين عاما تقريبا تابعة ليمحاض (٤٧) حتى تدميرها من قبل الحثيين وهي الفترة التي تقابل الطبقة السابعة في الموقع طبقا لرأي وولي الذي قام بالتنقيب في تل الالاح (٤٨) ، لقد امتدنا المحفوظات التي اكتشفت في الالاح بالكثير من المعلومات حول علاقة المدينتين على الرغم من ان المحفوظات التي اكتشفت في الطبقة السابعة لم تكن تغطي كل الفترة التي كانت فيها الالاح تابعة لحلب ، وربما تعود الى الجزء الاخير من الفترة المشار اليها . اما

المحفوظات التي تعود الى الفترة المبكرة من العلاقة فقد حفظت في مكان آخر ، عموماً فإنه نظراً لحجم المحفوظات المكتشفة في السوية السابعة فإن معظم اللوحات المكتشفة تغطي الفترة الأخيرة من حكم ياريم - ليم الثاني اليمحاضي الذي كان ابن ابان وخليفته في حكم حلب ، والحكام اللاحقين (٤٩) ، أما اللوحات التي تعود لفترة مبكرة فقد حفظت في قصر ياريم ليم ، الاخ الاصغر لابان ، الذي بناه في الااخ به لدان عين حاكما من قبل اخيه .

قام ابان بمنح مدينة الااخ لـ اخيه ياريم ليم تعويضاً له عن المناطق الواقعة الى الشرق من حلب والتي حدثت فيها القلاقل والاضطرابات ضد يمحاض (٥٠) ، وقد اخذ ابان من اخيه ياريم - ليم الموائيق والعهود على ان يظل مخلصاً له (٥١) . ومثل هذا المنح كان مألوفاً في الشرق القديم فكثيراً ما كان الملوك يعينون اخوتهم أو أبناءهم ليصبحوا حكاماً على المدن التابعة ، وهو بالطبع يقلل من المؤامرات على الحكم ويكسبه الاستقرار (٥٢) . وعليه أصبح ياريم - ليم يحكم من مدينة الااخ منطقة العمق كلها ، كنائب لـ اخيه . وبعد موت ابان تولى حكم يمحاض ولده ياريم - ليم الثاني .

ويبدو ان يمحاض بلغت في عهد ياريم ليم الثاني (٥٣) هذا ذروة قوتها حيث أصبحت أقوى ممالك عصرها حسبما ورد في رسائل سفراء ملك ماري زمري ليم اليه ، وهذا ما أكدته الشواهد الأثرية أيضاً فقد كان الأمن في عهده الطويل نسبياً مستتباً (٥٤) .

وتشير بعض محفوظات القصر الملكي في الااخ الى ان المدينة أصبحت مقراً للملك أي مقراً للأسرة الملكية في يمحاض ، ومما يؤيد هذه الإشارة هو العثور على القصر والمعبد والتحصينات القوية التي أظهرتها التنقيبات الأثرية هناك . ويبدو أن ملك يمحاض ، الذي كانت إقامته في حلب تجعله في مواجهة أعدائه وحلفائه غير المخلصين في بلاد ما بين النهرين وتعرضه للسقوط بضربة مفاجئة من أعدائه ، فضل الإقامة في الااخ ، فقام بتوسيع القصر وإقامة التحصينات التي تفرضها إقامته الملكية (٥٥) . وعلى الرغم من أن إقامة ملوك يمحاض في الااخ طورت المدينة وزادت في عمرانها وتطورها الاقتصادي والاجتماعي ، إلا أن سكان الااخ ظلوا ينظرون اليهم كاجانب (٥٦) ، لذلك نجد أنهم في بعض الأحيان يثورون على حكامهم من الأسرة اليمحاضية . وقد ثاروا مرة حرق فيها القصر والمعبد والقلعة وبوابة المدينة وبناء ضخم يقع تحت قصر تقييبا (٥٧) . ويتساءل وولي فيما إذا ذلك التدمير من قبل أهالي الااخ أو من قبل عسكر حلب والمقاطعات الشرقية التي من الممكن أن تكون قد استقدمت للمساعدة على اخماد الثورة . وعلى أي حال فمن الطبيعي أن نتصور هجمات مضادة وعمليات كـر وفر في مثل هذه الأحوال وليس هناك ما ينفي أن الااخ ربما حاولت بمساعدات خاصة استعادت استقلالها ، وربما كان ذلك الضعف الذي نشأ عن تلك المحاولات سبباً في نهاية أسرة ياريم - ليم في الااخ (٥٨) .

وخلاصة القول ان الالاح كانت مملكة تابعة لمملكة يمحاض الكبيرة يحكمها فرع من فروع الاسرة الامورية الحاكمة في حلبا ، وكانت (الالاح) المنفذ الرئيسي لحلبا الى البحر المتوسط . ويمكن ان تكون من المدن المحيية الى قلوب ملوك حلب ولذلك اختاروها كي تكون مقرا ملكيا لهم ومقرا لحفظ وثائقهم ومحفوظاتهم . ومن اهم ما اعطت الالاح لحلب في العصر الحاضر ، اضافة الى ما اعطته في الماضي ، انها اعطت جزءا من تاريخها التي كانت تحتفظ به في جعبتها . ولعل الايام القادمة تتيح لغيرها من المدن ان تعطي حلب ما اعطته الالاح لشقيقتها الكبرى .

٢ - يمحاض وابلا : حتى الان لم تمدنا التنقيبات الاثرية في ابلا بآية معلومات حول يمحاض (٥٩) خاصة تلك التنقيبات التي تجري في القصر Q الذي يعود الى العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م) ويذكر سيدني سميث انه عشر في احد الوثائق ان ولي عهد مملكة الالاح (تل عطشانة) ياريم - ليم الثاني الذي اصبح ملكا على يمحاض طلب من ملك ابلا يد ابنته كعروس لابنه (٦٠) .

وقد يكون في هذا اشارة الى ان ابلا في عصر قوة يمحاض كانت تابعة لها (٦١) ، ويضيف الكاتب الملمع اليه ، في معرض حديثه عن تحقيق مدينة اورشو ، ان بلاد اورشو ، التي ذكرت في وثائق ماري ، كانت تابعة لابلا عندما بحث ولي عهد الالاح ياريم ليم عن زوجة لابنه Ir-kabtum ، كما يضيف انه غالبا ما كانت ابلا عضوا في الاتحاد الكونفدرالي ليمحاض (٦٢) .

يذكر ميشيل استور ان ابلا كانت تستورد النحاس من بلاد قبرص Alasiya عن طريق اوغاريت في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، ويعتقد انها ظلت كذلك في عهدها الاموري (النصف الاول من الالف الثاني) ولكن هذه المدة لصالح مملكة يمحاض (حلب) ، المملكة الكبيرة التي كانت تسيطر على شمال سورية (٦٣) .

٣ - يمحاض وقطنة : تقع قطنه (المشرفة اليوم) الى الشمال الشرقي من مدينة حمص ، وكانت تقوم فيها احدي الممالك الامورية الهامة في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد في الوقت الذي كانت فيه مملكة يمحاض قائمة وتتخذ من حلب عاصمة لها ، وكانت تربطها بيمحاض علاقات من النوع السائد بين ممالك العصر ، فكانت تتأرجح بين العلاقات الطيبة والعلاقات السيئة بسبب المنافسات السياسية او الاقتصادية ، او بسبب التدخلات الخارجية . بين ما عشر عليه في محفوظات ماري رسائل كثيرة بين زمري ليم وملوك قطنة ويمحاض وبابل وغيرها ، وورد في احدي تلك الرسائل ذكر ملك قطنة امي - اول - بي - ايل A-mie-ul-pi-il ، كما ورد ذكر الملك يمحاض

ياريم - ليم (١٤) وربما جاء هذا في معرض التوسط بين المملكتين الاموريتين يمحاض وقطنة عندما نشأ الخلاف بينهما وتوسط فيه زمري ليم ملك ماري وحمورابي ملك بابل ، ذلك من اجل ان تكون العلاقة بين ياريم - ليم ملك حلب وامي - اول بي - ايل ملك قطنة . ولاجل أن تقوم علاقات طيبة بين الطرفين يشترط ياريم - ليم ملك يمحاض حضور ملك قطنة الى حلب ليقيم الاضاحي للرب حدد ويحلف الايمان باسمه (١٥) . ويعني هذا خضوع ملك قطنة له او على الاقل تقديم اعتذار . وفي رسالة اخرى يذكرها الاستاذ فورزان كنال بجامعة انقره عثر عليها في ماري ، ان ملك يمحاض ياريم - ليم قد اعلن عن اتفاق مع ملك قطنة ياموت بعل . وربما كان هذا هو السبب الذي دفع شمشي حدد الاول الملك الاشوري ، بعد احتلاله لمدينة ماري في عهد ملكها يهدونليم ، للقيام بحربه في الغرب ، وذلك للانتقام من يمحاض نظرا لطبيعة العلاقات الخاصة بينها وبين ماري (١٦) . كذلك نجده لا ياتي على ذكر حلب في رسائله ويتجاهلها تماما بسبب العداء بينه وبينها كما المحنا ، في حين انه حافظ على علاقات طيبة مع قطنة (١٧) .

بعد انتهاء الاحتلال الاشوري لمملكة ماري عاد زمري ليم الى عرش ابائه في ماري وذلك بعد موت شمشي - حدد الاول ، وكانت عودة زمري ليم كما تذكر الوثائق التاريخية بمساعدة عساكر مملكة يمحاض . في هذا الوقت كانت احدى الرسائل التي وجهها أحد سفراء زمري ليم اليه تذكر من بين القوى الرئيسية في المنطقة مملكتي حلب وقطنة (١٨) .

ويبدو ان العلاقة الحميمة التي اقامها شمشي حدد الملك الاشوري مع اسكي حدد ملك قطنة توجت بزواج ابنة الاخير الى ابن شمشي حدد يشمع حدد نائب الملك في ماري . كان التعاون بين الاشوريين وملوك قطنة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية واسعا ، فلقد تمركزت قوات اشورية في قطنة . وهذه العلاقات التي اقامها ملوك قطنة مع الاشوريين ازعجت ملوك يمحاض وجعلتهم في خصام مع ملوك قطنة اثناء مدة الاحتلال الاشوري لمدينة ماري ، ولكن عندما تمكن زمري ليم بمساعدة مملكة حلب كما اشرنا من استعادة عرش ابائه وظهرت حلب في مركز المملكة القوية المسيطرة ، كان طبيعيا ان تتحرش بمملكة قطنة ، ولكن توسط زمري ليم ، وتغيير الاسرة الحاكمة في قطنة (او الملك) (١٩) ، ساعدا على اقامة صلح بين الطرفين ف وقعت معاهدة صداقة وحسن جوار بين المملكتين في حلب كما اشرنا (٢٠) . وخلاصة القول ان يمحاض وعاصمتها حلب كانت من اقوى ممالك عصرها في سورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين ، وقد ازدهرت وفاقته بازدهارها بابل وماري وابلا وقطنة وغيرها من الممالك السورية في مطلع الالف الثانية قبل الميلاد ولكن ازدهارها اثار حفيظة الاعداء فتآمروا للقضاء عليها . ورغم انها قاومت تلك المؤامرات الا انه اسقطت في النهاية تحت ضربات الدولة الحثية الفتية .

شجرة سلالية لحكام الالاخ (تل عيشانة)

ياريم ليم
امي تاكوما
(AT 6) حمورابي
(AT 55) قومي - اندو

شجرة سلالية للولاء يحافى

سومو ايبوخ

ياريم ليم الاول

حمورابي الاول

ابسان

ياريم ليم الثاني

نقمييوخ (نقي ايبوخ)

اما ريكي

حمورابي الثاني

ياريم ليم الثالث

اركاب نوم

(يتزوج ابنة حاكم ابلا)

(K U B XXX 15)



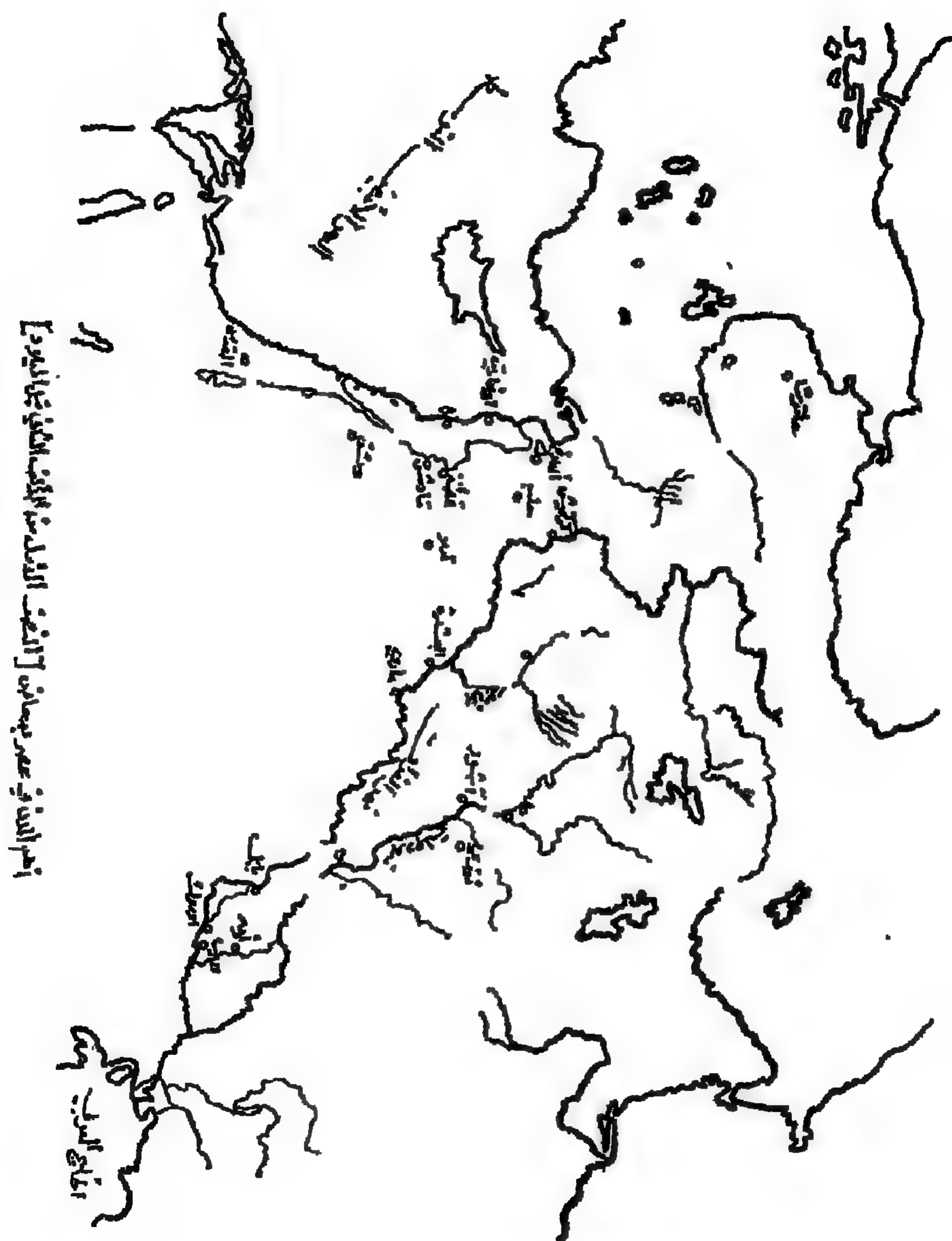
طبعة ختم اسطوانتي من الطبقة السابعة في الالاخ تل عيشانة
عليها نقش كتابي يقول : نقي ايبوخ بن ياريم ليم ملك يحافى



طبعة ختم اسطوانتي من الطبقة السابعة في الااخ تل عشتانة
عليه نقش يقول : ياريم ليم بن ابلن ملك يمحاض



طبعة ختم اسطوانتي من الطبقة السابعة في الااخ تل عشتانة
عليه نقش كتابي يقول : ابلن بن حمورابي ملك يمحاض



أهم المدن في عصر بومبارني [المنطقة المظلمة من الخريطة التي يتناولها ديوردي]

هوامش وملاحظات :

- (١) انظر حول مشكلة البدء في سورية الشمالية :
- Kupper, J.R., *Les Nomades de Mésopotamie au temps des rois de Mari*, Paris 1957 .
- استعملنا كلمة (جزرية) تفاديا لاستعمال المصطلح التوراتي (سامية) ، وبعض الباحثين يفضلون استعمال كلمة (الشامية) ، عموما لم يجر اتفاق حول هذه المصطلحات حتى الآن .
- (٢) حول الاموريين انظر :
- Haldar, Alfred, *Who were the Ammorites*, Leiden 1971.
- (٣) Landsberger, « Ammorites » in *Encyclopaedia Britannica*, I (1965) pp. 809-10; Albright, W.F., « A revolution in the chronology of ancient western Asia », *BASOR* 69 (1938) pp. 19-20 .
- (٤) حتى ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الاول ص ١-٧٥٧ ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨، صواف ، صبحي ، تاريخ حلب قبل الاسلام ج ١ (١٩٧٢) ص ٢٠-٢١ .
- (٥) Al t.I amd 456 حيث استطاع ايا - ايل بن حمورابي السيطرة على الاخ وضمها الى مملكته .
- (٦) Collon, Dominique, *The seal Impressions from Tell attchana/Alalakh* (1975) p. 146 ; Klingel, H. , *RACA* 1972 , p. 73 « Hammorapi von: Jamhad ».
- (٧) صواف صبحي ، الحوليات العربية السورية م ٧ (١٩٥٧) ص ١٤٦ .
- (٨) حرصت حكومات بلاد ما بين النهرين القوية باستمرار على تأمين سلامة هذا الممر الحيوي والسيطرة عليه في كثير من الاحيان . والاعتقاد السائد ان الحملات الحربية من بلاد النهرين ، منذ المرحلة الاسطورية للملك لوغال زاكيزي حتى نهاية الحكم الفارسي ، ما كانت لتهدف الا للسيطرة على ذلك الممر ، وظهور مملكة قوية كيمحاض استطاعت ان تقرر الامن على جانبي هذا الممر اكسبها صداقة جيرانها الاموريين في سورية وبلاد ما بين النهرين لكنه ولد عندهم كذلك شيئا من القيرة والحسد والتنافس كما اكسبها في الوقت نفسه بغض الجيران الشماليين (الحثيون) الذين طعموا في السيطرة على ذلك الممر والاستفادة من الثروة التي كانت تتمتع بها يمحاض .
- (٩) Astour, M, *Ugarit in retrospect*, edited by Gordon young, pp. 28 - 29 (1981) .
- (١٠) Albright, *BASOR* 78 (1940) p. 46.
- وشعث ، شوقي ، الحوليات الالثرية السورية العدد ٢٩/٢٠ ص ٦٥-٦٩ وهو مكرس لوقائع الندوة العالمية للدراسات الاوغاريتية ، كذلك انظر شوقي شعث في كتابه « حلب تاريخها ومعالمها

التاريخية» ص ٢٦-٢٨ ، جامعة حلب ١٩٨١ ، وانظر :

Kupper , CAH II/I , 1963, pp. 18 - 19 .

يصيف كوبر أن من يرب البضائع التي كان يتاجر بها إلى جانب المواد الغذائية والنبذ واللبسة النحاس الذي كان يأتي من قبرص والعاج الذي كان يستحصل عليه محليا من الفيلة السورية التي كانت تعيش آنذاك في سورية الشمالية . فقد وجدت بعض قطع العاج الخام في القصر الملكي بالالاح ومن المؤكد أن تكون حلب جنت أرباحا طائلة من تجارة العاج المربحة .

(١١) يذكر وايزمن في كسرة للرقيم AT 456 أن « أبان » كان Sukkal الملك الحثي في حاتوشا ، أي كان وزيرا ، ويبدو أن ذلك غير صحيح ، حول مزيد من التفصيل والإيضاح انظر :

Dratfkorn, A., « Was Abbā - An of Yamhad a Vizier for the king of Hattusa ..? » , in JCS XIII (1959), pp. 94-97 .

(١٢) انظر الشجرة السلالية التي أوردتها دومنييك كولون - المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(١٣) Akurgal, E., The Art of the Hittites, Thames and Hudson, (1962) p. 49.

وحول اصول وثيقة تليينوس انظر : 2 BO Tu 23

Fiedrich , J, AO 42/3 p. 21 f. وحول ترجمتها انظر

(١٤) E. Herzfeld , The Persian Empire, Studies in Geography. (1968) P. 76 .

يذكر هرز فيلد أن الوثيقة تعود إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد .

(١٥) يظهر أن كلمة لابارنا أصبحت تلفظ فيما بعد لبارنا ، وأصبحت للبا لكل ملوك الحثيين كما هو الحال في لفظ قيصر . انظر : اكورجال ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(١٦) المصدر نفسه والصفحة .

(١٧) يورد غورني ، ص ٧٦ (حاشية ٢٢) أن معاهدة حلب كانت منقوشة على لوح من المعدن الثمين يعرف ذلك الزمان ربما كان من الفضة أو الذهب أو الحديد ، وختمت بالخاتم الملكي . وكانت هذه المعاهدة عبارة عن النظام الذي يستمد منه التابع سلطته ويعتبر فقدانها خسارة كبيرة له ، وقد سجل أن هذه المعاهدة حفظت في المعبد ، ولكنها سرقت فيما بعد . وقد تالم الملك اليمحاضي لذلك كثيرا وسمى للحصول على نسخة منها من المحكمة العليا .

(١٨) أوردت الموسوعة البريطانية ، المجلد الأول ص ٥٦٣ ، طبعة ١٩٧٥ ، أن الملك الحثي الذي وقع المعاهدة هو : مواتش (موداتاليس) Muwatallis (١٢٠٦ - ١٢٨٢ ق.م) وليس مورشيل الثاني كما ذكر هرز فيلد . ومما هو جدير بالذكر أن ملك حلب ، ريم شارما ، الذي وقع المعاهدة كان أحد حلفاء الحثيين في معركة قادش . عثر على نسخة من هذه المعاهدة محفوظات بونازكوي .

(١٩) هرز فيلد ، ص ٧٦ . وللمزيد من المعلومات عن المعاهدة يمكن الرجوع إلى الرقيم K Bo I 6 الذي قام بترجمته E. F. Weider ونشره في BO. ST. (1923) pp. 80—89

(٢٠) يعتقد ان ملك يمحاض في ذلك الوقت كان ((اركايتوم)) الذي هزم حاتوشيل الاول ولاحقه بجيوش حلب حتى حاتوشا ، ويشير احد الرقم الناقصة الذي عثر عليه في الطبقة القديمة لمدينة حاتوشا « . . ورجال اتوا مع جيوشهم وعجلاتهم من مدينة حلب » .

(٢١) مورقارت انطوان ، تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٢١٨ ، تعريب توفيق سليمان وعلي ابو عساف وقاسم طوير ، وانظر :

Delaporte, L., Les Hittites , Paris (1936) , P. 48,

(٢٢) Macqueen J. G. The Hitties and their contemporaries in Asia Minor, Thames and Hudson, 1975. p. 38 .

(٢٣) Cutney O. R., The Hittites , a Pelican book, Revised adition (1961) P. 23 .

(٢٤) يقول ماكوين في صفحة ٢٩ من كتابه الحثيون (المصدر السابق) : لحسن حظ المهتمين بتاريخ مملكة يمحاض ان مدينة الااخ (تل عطشانة) تقبت من قبيل ليونارد وولي ، وقد ظهرت تنقيباته ان هذه الاحداث معاصرة للسوية السابعة في الااخ ، وتبين ان مدينة السوية السابعة قد انتهت فينعمام ١٦٥٠ ق.م . انظر ما نشره وولي عن تنقيباته بالمدينة في كتابه الااخ .

Woolley, L., ALalakh, an account of excavation at Tell Atchana, 1937-1949 , Oxford 1955.

حيث يضع الطبقة السابعة ما بين ١٧٨٠ - ١٧٢٠ ق.م، وكتابه :

A Forgotten Kingdom a Pelican book , 1953 , pp. 83-84 .

ومما يجدر الإشارة اليه هنا ان وولي لم يذكر ان الحثيين هم الذين دمروا المدينة ويشير شكوكنا في أن تكون حلب نفسها هي التي دمرت المدينة وان كان لا يملك أدلة على ذلك ويرفض النظرية القائلة بان المدينة دمرت نتيجة فزو اجنبي . ويضيف بأن هذه الاحداث كلها كانت في الفترة ما بين ١٧٥٠ - ١٧٢٠ م بغارق مئة عام من التاريخ الذي اوردته ماكوين . كما اننا نلاحظ ان وولي مرة ثانية يضع الطبقة السابعة من الااخ في الجدول التاريخي المقارن الذي احقه بكتابه المشار اليه اعلاه ، ما بين ١٧٨٠ و ١٧٥٠ وحول الموضوع انظر :

Gurney O.R., « Anatolia ». c. 1750 - 1600 B. C. , in CAH Vol.II Part 1 (1973) pp. 241 - 243 .

(٢٥) Macqueen, Op. cit., p. 39.

ويذكر فورني ص ٢٢٢ ان حلب كانت المنافس الوحيد لسلطة الحثيين في شمال سورية وعليهم اخصاص تلك القوة وقد نجحوا في ذلك.

(٢٦) Macqueen, Op. cit., p. 42 .

(٢٧) يذكر فوزان ان الاحتلال والتدمير كان نحو عام ١٥٥٠ ق.م ، مورقارت ، المصدر السابق ص ٢١٩ ، Gurney, Op. cit. pp. 22-23;

(٢٨) يبدو ان تدمير بابل كان في عهد ملكها شمشو ديتانا . وفي هذا المجال يشير مورتغارت في كتابه الشرق القديم ان حلب كانت اقوى ممالك عصرها فاذا هزمت ، هزمت الممالك الامورية في سورية والعراق .

(٢٩) Macqueen, op. cit. 43 .

ويذكر اكورجال ، المرجع السابق ، انه مشر في عام ١٩٥٧ في بوغازكوى على رقيم مكتوب بالاكادية والحثية ويذكر ان حاتوشيل الاول (١٦٥٠ - ١٦٢٠ ق.م) تمكن من التغلغل جنوبا حتى حلب .

(٣٠) Macqueen, op. cit. p. 43

(٣١) Gurney, P. 26

(٣٢) Gurney, p. 27 .

(٣٣) Gurney, p. 27 .

(٣٤) Gurney, p. 27 ; Macqueen, p. 43

(٣٥) Macqneen. p. 44,

(٣٦) المصدر نفسه والصفحة ، ويقال ان خليفة تحوتمس الثالث ، امينوفيس الثاني ، قابب الثاثرين الا انه لم يستعد السيطرة على سورية الشمالية ، انظر وولي .

Alalakh, an account, p. 391.

(٣٧) Gurney , p. 26.

(٣٨) Macqueen, p. 43

(٣٩) Gurney , p. 27

(٤٠) Macqueen, p. 44

(٤١) Macqueen, p. 44; Gurney, p. 29.

(٤٢) من الملاحظ في التاريخ الحثي ان مثل هذه الامور كثيرة الحدوث فالؤامرات والسياس كانت كثيرة في البلاط الحثي وكذلك الصراع على العرش . ويلاحظ ذلك في اواخر عهد مورشيل الاول وها هو يظهر في عهد شوبيلوليوما .

(٤٣) Gurney, p. 30 .

(٤٤) مورتغارت ، ص ٢٢٦ .

(٤٥) مورتغارت ، ص ٢٢٠ .

(٤٦) يبدو ان هذه الموقعة لم تكن حاسمه وخرج الفريقان بنتيجتها بحالة اللالاب ولا مغلوب على الرغم من المصادر المكتوبة لدى كل من الطرفين تشيد بانتصاره في موقعة قادش .

(٤٧) تقول دومنيك كولن: ان هذا التاريخ تبناه J.A. Brinkman في ما كتبه ونشره كملحق لكتاب ليو اوپنهايم

Leo Oppenheim , Ancient Mesopotamia, Chicago 1964, pp. 335-352.

(٤٨) انظر نتائج تلك التنقيبات في كتابي وولي المذكورين سابقا .

Collon, op cit. p. 143. (٤٩)

Collon, op . cit , p. 146 (٥٠)

ويضيف نقلا عن (AT 456 line 28) ان ابان استطاع سحق الثورة واسر قائدها موشنادر
لقد اعطى ابان اخاه (ياريم ليم) الاياخ وغيرها من المدن في الغرب ، وربما لجا لذلك كي تكون
المناطق المضطربة في الشرق قريبة من سيطرته المباشرة .

Buccellati, Cities and Nations of Ancient Syria, Rome 1967; pp.46-47 (٥١)

woolley, p. 65; في كتابة المملكة المنسية . (٥٢)

(٥٣) يبدو ان هناك خلطا وقع بين ياريم - ليم حاكم الاياخ العم وبين ياريم ليم الثاني ملك يمحاض ابن
ابان وهذا ما وقع فيه وولي في Forgotten Kingdom وقد ظهر الامر اكثر وضوحا لدى كولون
pp. 143, 144, 146, 147 وربما وقع الخلط لان كلا منهما كان يعاصر الاخر ومما زاد الامر
غموضا وسبب الخلط الذي اشرنا اليه ان احد خلفائه كان يحمل ايضا اسم ياريم ليم .

Collon, op. cit. p. 147. (٥٤)

Woolley, Forgotten kingdom, pp. 65, 79. (٥٥)

Ibid. p. 79 . (٥٦)

Ibid, pp. 80, 81. (٥٧)

ibid, p. 81 . (٥٨)

(٥٩) يعتقد ان ملك يمحاض الذي خطب ابنة حاكم ابلا لابنه هو Niqma - epuh نقما ابيوخ ، وان
الابن العريس هو Irkabtum انظر AT 35 ؛ ولتحضيرات الرحلة الملكية الى ابلا من
اجل الخطبة انظر AT 269

(٦٠) تمنى هنا معلومات كتابية فالمخطوطات التي عثر عليها في القصر G تعود الى اواخر الالف الثالثة
قبل الميلاد في حين ان القصر Q الذي يعود الى العصر البرونزي الوسيط لا يزال يحتفظ
بمخطوطاته طي الكتمان واننا نأمل ان يظهر الى الوجود قريبا ليمدنا بمعلومات نتوقع ان تكون
هامة لتاريخ حلب والمنطقة بأسرها سيما وان البعثة المنقبة عثرت على بعض اللوحات المسماة
التي تعود الى عصر يمحاض ولكن ليس بمكانها الاصلي . ا ما فيما يتعلق باللقى الاثرية الفنية
فلدينا بعض القطع التي تعود الى العصر البرونزي الوسيط ولكنها لازالت في كابية لتوضيح
العلاقة بين ابلا ومحاض .

- (٦١) Smith, Sidney, « Ursu and Hassum » , Ana . Stud . 6 (1956) p.39.
Ibid p. 40.
- (٦٢) Dominique , C., « Family tree of the kings of Yamhad » At. 53 ch.
(Wiseman)p. 145 .
- (٦٣) Astour, M., Ugarit, p.5.
Kupper, in CAH, vol . II, Part I (1973) p. 19
وانظر كذلك
- (٦٤) Dossin G., RA. 36. 1 (1939) p. 50 .
- (٦٥) Dossin, Ibid. p. 51.
- (٦٦) Kinal Furuzan, « Kingdom Yamhad », pp. 193 - 211 .
- مجلة جامعة انقرة عام ١٩٧٠
- (٦٧) Kupper J. R., « Northern Mesopotamia and Syria » in CAH 1973 ,
pp. 22-23 .
- ربما كان وجود مملكة حلب القوية في الغرب هو الذي منعه من التوسع غربا رغم محاولته ذلك .
- (٦٨) Kupper, Ibid. p. 14 .
- (٦٩) يذكر Furusan ان هناك وثيقة اكتشفت في قطنة تؤكد قتل ملك قطنة على يد ياريمليم ملك حلب،
وربما كان ملك قطنة المقتول هو Iskhi - Adad ويقول كوير في المصدر السابق ص٢٢ ان نهاية
هذا الملك لازالت غامضة بعد انحسار النفوذ الاشوري الذي كان تابعا او حليفا لذلك النفوذ .
- (٧٠) Kupper, Ibid . pp. 19 - 21

Some Abbreviations used in the bibliography

AASOR : Annual of the American School of Oriental Research

Al T : (AT) : Alalakh Tablets .

Ana. Stud. : Anatolian Studies.

AO : Archiv fur orientfurschung

BASOR : Bulletin of American School of Oriental Research .

BO. ST. : Boghazkoi Texte Umschrift .

KBO. : Keilschrift texte aus Boghazkoi .

RA. : Revue d'Assyriologie et d'Archéologie Orientale .

RAVA. : Reallexikon der Assyriology vorderasiatischen Archaelogie

JCS. : Journal der Cuneiform Studies .

CAH. : Cambridge Ancient History.

سُورِيَّة في عَصُورِ ما قَبْلَ التَّارِيخِ

د. سلطان محيسن
جامعة دمشق

مقدمة :

ان علم ما قبل التاريخ *Préhistoire* من العلوم الحديثة نسبيا وهو يعتمد في مادة بحثه على البقايا الاثرية التي خلفها لنا الانسان قبل ان يعرف الكتابة (١) وهذه المخلفات في معظمها أدوات حجرية أو عظمية ، لم تثر في البداية الاهتمام اللازم ، بل أنها فسرت باعتبارها من صنع الطبيعة والصواعق أو من عمل الشياطين الى ان جاء منتصف القرن التاسع عشر وأثبت الفرنسي بوشيه دوبرت (*Bouchér de Pérthes*) ان هذه الادوات ما هي الا اسلحة صنعها الانسان القديم واستخدمها في وظائف مختلفة ، منها صيد الحيوانات الكبيرة كاللذ ووحيد القرن ، التي وجدت عظامها مقرونة بتلك الادوات (٢) وبذلك فتحت الاعين وبشكل جدي على اثار انسان ما قبل التاريخ الذي أصبح وجوده حقيقة لا جدال فيها . وقد دعمت استنتاجات دوبرت اكتشافات معاصرة أو لاحقة أثبت معظمها من فرنسا (٣) وترافق ذلك مع نشر كتاب داروين الاول عن اصل الانواع (٤) الذي تبنى فيه نظرية التطور *Evolution* التي أثارت في حينه جدالا شديدا مازال مستمرا بصيغ أخرى . ومنذ مطلع القرن الحالي بدأت دراسات وتنقيبات ، تبعثها مؤلفات ، أكثر منهجية ودقة شارك فيها باحثون مختلفون (٥) . ومازال البحث قائما بعد ان تطورت المناهج والاساليب الى حد كبير وأصبحت أقرب الى مناهج العلوم الطبيعية كالفيزياء والرياضيات (٦) . كما بدأت تتبلور منذ الستينات مدرسة ونهج جديدان في دراسة انسان ما قبل التاريخ وحضارته ، مما يسمى الان بعلم الاثار الجديد (*New Archaeology*) وهو يدرس

الانسان ضمن اطاره الجغرافي القديم حسب منهج مختلف عن علم الاثار التقليدي (٧) وفي كل الاحوال فان الهدف الرئيسي للباحثين في عصور ما قبل التاريخ ، هو فهم وتفسير واقع مجتمعات تلك العصور للوصول الى تصور حضاري شامل ومتكامل لها. لقد تزايدت معلوماتنا عن الانسان الاول بشكل أصبح ممكنا إعادة رسم الصورة العامة للحياة الاقتصادية والاجتماعية لذلك الانسان ، الذي وضع الاسس المباشرة لحضارتنا الحديثة . لانه قام بالخطوات الاولى والاهم سواء في مجال ابتكار الاسلحة والادوات والبناء والفن والدين ، او الزراعة والتدجين . لقد تميز القطر العربي السوري بأهمية خاصة في تلك العصور حيث كشف فيه عن مواقع رئيسية تعتبر المفاتيح الضرورية لدراسات انسان ما قبل التاريخ في منطقتنا وفي العالم .

اولا : تاريخ البحث في عصور ما قبل التاريخ في سورية :

لقد لفت النظر في سورية الى عصور ما قبل التاريخ بشكل متأخر اذ مر زمن طويل كان البحث فيه عن المدن التوراتية واثار الحضارات الكلاسيكية اليونانية والرومانية محط الاهتمام الاول . تعود المعلومات الاولى عن ما قبل التاريخ السوري الى مطلع هذا القرن وكانت نتيجة اعمال فردية بسيطة ومحدودة الاهمية (٨) لكن البحث الحقيقي والعلمي في هذا المجال بدأ في الثلاثينات ، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الان تخضع العصور الحجرية الى دراسات متنوعة يشارك فيها اختصاصيون عديدون ممن قاموا بمسح عام او تنقيب محدد ويمكن ان نوجز تطور العمل في مراحل ثلاث رئيسية :

المرحلة الاولى : بدأت في الثلاثينات ، وترافقت مع الاكتشافات الهامة في جبال الكرمل بفلسطين وتمثلها اعمال الباحث الالماني الفرد روست A. Rust في وادي سكفتا ببيروود (٩) حيث تقب ثلاثة ملاجئ صخرية رقمها ١ - ٢ - ٣ ، كان اهمها الملجأ الاول الذي ميز فيه عدة طبقات اثرية . الدنيا فيها تؤرخ في عصر انسان الهومواركتوس (الباليوليت الادنى) بينما تعود الطبقات العليا الى الثقافات النياندرتالية (الباليوليت الاوسط) (١٠) ان الجديد والهام من الملجأ الاول هو النوع الجديد من الادوات والاسلحة الحجرية الذي لم يكن معروفا من قبل وقد سُمي بالبيروودي (Yabrodien) (١١) وفي الملجأ الثاني وجدت آثار تعود الى «الانسان العاقل» في الباليوليت الاعلى (الاورينياسية) بينما قدم الملجأ الثالث في طبقاته الدنيا اثارا من العصر الحجري الوسيط ، وفي الطبقات العليا وجدت اثار العصر الحجري الحديث . لقد نشر السيد روست نتائج تنقيباته في كتاب هام اسماء « لقي مغائر بيروود » وهو يعتبر المؤلف العلمي والمنهجي الاول الذي لفت نظر الباحثين الى الاهمية العالمية لقطرنا في عصور ما قبل التاريخ (١٢).

المرحلة الثانية : بدأت في الستينات من هذا القرن على يد باحث هولندي هو السيد فان ليره Van Liere الذي قام بمسح اولي لاثار عصور ما قبل التاريخ حيث

اكتشف العديد من المواقع في مختلف مناطق القطر كان اهمها موقع اللطامنة الفريد من نوعه ، في حوض نهر العاصي ، الذي يمثل ارضية سكن (معسكر) بقيت محفوظة بشكل سليم رغم مرور اكثر من نصف مليون سنة عليها (١٢) . وقد كان السيد فان ليره اول من درس المواقع العائدة لعصور ما قبل التاريخ ضمن اطارها الجيولوجي والجيومورفولوجي العام محددا علاقتها بالاسرة او المصاطب النهرية العائدة الى الزمن الجيولوجي الرابع « الرباعي » (Quaternaire) (١٤) .

المرحلة الثالثة : بدأت في السبعينات وهي لا زالت مستمرة حيث تعمل في القطر بعثات مختلفة يشارك فيها اختصاصيون بوسائل علمية وفنية متطورة ، وقد أدت هذه الاعمال الى اكتشاف اكثر من ٣٠٠ / موقع عائد لعصور ما قبل التاريخ ، بعضها له اهمية خاصة كما في منطقة الكوم في البادية السورية والقرماش في حوض نهر العاصي . وتدرس هذه المواقع بتطبيق المناهج المتقدمة كطرق التاريخ الحديثة والتحليل المخبرية والحواسب الالكترونية وبمساعدة علوم اخرى كالجيولوجيا والانتروبولوجيا وعلم المستحاثات (البالتولوجيا) ولا زال العمل مستمرا والكشوف في تصاعد مما يساهم في استمرار توضيح طبيعة عصور ما قبل التاريخ السورية ذات الاهمية المحلية والعالمية (١٥) .

ثانيا : الرباعي في سورية :

تعتبر الابحاث الرباعية ، الجيومورفولوجية ، اي دراسة التشكلات الجيولوجية التي حصلت في الزمن الرابع ، ذات اهمية قصوى في فهم عصور ما قبل التاريخ ايضا وخاصة العصر الحجري القديم (الباليوليت) لان الانسان ظهر في الزمن الرابع وضمن الطبقات الجيولوجية العائدة لهذا الزمن توجد الادوات الحجرية والاثار الاخرى لهذا الانسان . كما انه في الرباعي ثبت توزع اليابسة والمحيط واستقرت البيئة على شكل قريب من الان . لقد بدأ الرباعي منذ حوالي ثلاثة ملايين سنة ودلت البحوث انه حصلت فيه تقلبات مناخية كبيرة حيث تتابعت على امتداد القسم الاول والاطول من هذا الزمن المسمى بالبليستوسن عصور جليدية ، جليديات Glaciations فصلتها عصور اخرى دافئة Interglaciations تركت اكبر الاثر على الانسان وحضارته لقد زحفت طبقات الجليد السميك على نصف الكرة الشمالي حتى خط عرض ٥٤ . عدة مرات متتالية ، وغطت هذه الجليديات اجزاء واسعة من اليابسة لتجعل الحياة عليها مستحيلة وتجبر الانسان على الهجرة جنوبا ليقيم على تخوم المناطق الجليدية حتى ذوبان الجليد في العصور الفاصلة ذات المناخ الدافئ الماطر المساعد على نمو الغطاء النباتي والحيواني الضروري لاستمرار الوجود البشري (١٦) .

أما نصف الكرة الشمالي ، الواقع بين خط عرض ٥٤ - ٥١٥ تقريبا ، بما فيه

الشرق الاوسط وسورية فلم يعرف الجليديات بل انعكست التقلبات المناخية هنا على شكل عصور مطيرة دافئة (Pluvials) تقابل العصور الجليدية في نصف الكرة الشمالي، فصلتها عصور اخرى جافة (Interpluvials) تقابل العصور المطيرة في نصف الكرة الشمالي . لقد ظهرت الدلائل الجيولوجية للعصور المطيرة والفاصلة في سورية واضحة وخاصة في وديان الانهار وعلى السواحل على شكل مصاطب نهريّة او شواطىء قديمة تشكلت في الرباعي . ففي وديان الانهار الهامة وروافدها ، اثناء العصور المطيرة ونشاط المياه القوى في الحت والترسيب ، تشكلت مصاطب او اسرة (terrasses) من الحصى والرمل والطمي متدرجة في ارتفاعها عن مجرى النهر الحالي وفي بعدها عنه . اقدمها اعلاها وابعدها عن النهر واحدها اقربها الى النهر واقلها ارتفاعا . تقابل هذه المصاطب ، في المناطق الساحلية بقايا شواطىء بحرية قديمة (Paléorivages) ابعدها واعلاها عن البحر اقدمها ، بينما اقربها وادناها هو الاحداث . لقد تضمنت المصاطب النهريّة والشواطىء البحرية في ترسباتها بقايا ادوات حجرية ومستحاثات نباتية وحيوانية لانسان ما قبل التاريخ الذي ارتبط وجوده مع المياه وغير مناطق اقامته تبعاً لتوفرها . وتعتبر هذه البقايا من اهم المواد المساعدة على دراسة آثار ما قبل التاريخ وتحديد زمن وطبيعة التقلبات المناخية والبيئية الرباعية .

لقد عرفت سورية في الرباعي اربعة عصور مطيرة ، على الاقل ، تفصلها عصور اخرى جافة . وقد درست دلائل هذه العصور بشكل جيد وظهرت افضل آثارها في احواض الانهار السورية وخاصة نهر الكبير الشمالي ورقمت التشكلات الرباعية حسب تسلسلها بدءاً من الاحداث حسب الرموز العالمية المتفق عليها . واعطيت تسميات محلية خاصة لتمييزها عن غيرها ، بل انها اصبحت النموذج الذي تقاس عليه الدراسات الرباعية في المنطقة كلها (١٧) ، ويمكن ايجاز العصور المناخية السورية بدءاً من الاحداث كما يلي :

— عصر الهولوسن الدافئ (ر ب صفر أو ر ن صفر) ولهذا العصر تعود تشكلات السهول الرسوبية لوديان الانهار أو الشاطئ البحرى مباشرة ومعظمها اراض زراعية خصبة . وضمن هذه التشكلات نعثر على احداث آثار عصور ما قبل التاريخ التي لا يزيد عمرها على نحو ١٢ ألف سنة . وهي تعود الى العصر الحجري الوسيط والحديث والعصر الحجري النحاسي والى العصور البرونزية .

— عصر الشير او العصر المطير الاول (ر ن ١) : ويتمثل بشكل رئيسي في حوض نهر الكبير الشمالي (موقع الشير) وفي احواض العاصي والفرات . وضمن السويات العليا من هذه المصطبة النهريّة توجد ادوات حجرية تعود الى العصر الحجري القديم الاعلى (الباليوليت الاعلى ٣٥ - ١٢ ألف سنة) بينما في السويات الدنيا نعثر

على ادوات من العصر الحجري القديم الاوسط (الباليوليت الاوسط ١٠٠.٠٠٠ ر - ٣٥٠.٠٠٠ ر) وهذه هي مصطبة عصر البليستوسن الاحدث والاقبل ارتفاعا والاقرب الى مياه النهر ولا يفصلها عن النهر الا السهل الرسوبي الهولوسيني .

— عصر بانياس او العصر الفاصل الاول (ر ب ١) : ظهرت اثاره في منطقة بانياس على الساحل السوري . وجدت ضمن ترسبات هذا الشاطئ القديم ادوات حجرية تعود الى العصر الانتقالي بين الباليوليت الاعلى والباليوليت الاوسط (١٥٠.٠٠٠ ر - ١٠٠.٠٠٠ ر سنة) .

— عصر ابو جمعة او العصر المطير الثاني (ر ن ٢) : افضل دلائله اتت من حوض نهر الفرات (موقع ابو جمعة) في محافظة دير الزور ومن احواض نهر الكبير الشمالي والعاصي ، وضمن ترسباته وجدت ادوات حجرية تعود الى زمن يقع بين ٢٠٠.٠٠٠ ر - ١٥٠.٠٠٠ ر سنة ، او ما يسمى عالميا بالعصر الاشولي الاعلى (القرماشي في سورية) .

— عصر هنادي - خلاثة او العصر الفاصل الثاني (ر ب ٢) : وهو يمثل افضل تشكيلة بحرية جيومورفولوجية محفوظة في سورية ، تدل على شاطئ قديم للبحر المتوسط افضل بقاياه وجدت في منطقة هنادي وخلاثة في محافظة اللاذقية ، وضمن ترسبات هذا العصر عشر على ادوات صوانية تعود الى حوالي ٣٠٠.٠٠٠ ر سنة ، اي الى القسم الثاني من العصر الاشولي الاوسط (الاشولي الاوسط المتطور) .

— عصر اللطامنة او العصر المطير الثالث (ر ن ٣) : وافضل ظهور له هو في نهر العاصي (موقع اللطامنة) ثم حوض الفرات ونهر الكبير الشمالي . وضمن تشكيلات هذا العصر وجدت ادوات حجرية تعود الى القسم الاول من العصر الاشولي الاوسط (ويسمى الاشولي الاوسط) اهمها ارضية السكن الشهيرة في اللطامنة المؤرخة في حوالي ٥٠٠.٠٠٠ ر سنة (عصر اللطامنة) .

— عصر بكسا او العصر الفاصل الثالث (ر ب ٣) : اتت تشكيلاته من عدة مناطق من الساحل السوري وخاصة من بكسا في اللاذقية ، وفيها وجدت اثار تعود الى القسم الثاني من العصر الاشولي القديم (الاشولي القديم المتطور) والمؤرخ في حوالي ٧٠٠.٠٠٠ ر سنة خلت .

— عصر ست مرخو او العصر المطير الرابع (ر ن ٤) : افضل دليل عليه اتى من حوض نهر الكبير الشمالي وضمن ترسباته في موقع قرية ست مرخو في محافظة

اللاذقية ، حيث وجدت اقدم ادوات حجرية معروفة في سورية حتى الان وهي تعود الى حوالي مليون سنة خلت ، اي بداية الاشولي العالمي وهي بذلك اقدم آثار لانسان ما قبل التاريخ عثر عليها حتى الان خارج القارة الافريقية .

بقي ان نشير بان هناك دلائل لعصر مطير خامس في حوض العاصي وآخر (رابع) جاف في الساحل يعودان الى بداية الزمن الرابع الا ان التشكلات الجيولوجية لهذين العصرين لم تتضمن ادوات حجرية ، مما يدل على ان حصولهما كان قبل وصول الانسان الى سورية (١٨) .

ثالثا : مراكز حضارات العصر الحجري القديم « الباليوليت »

بدا هذا العصر في سورية منذ حوالي مليون سنة مضت وانتهى منذ حوالي ١٢٠٠٠ سنة ق.م. وهو عصر الصيد والالتقاط ، ونظرا لزمانه الطويل وللتمايز بين مختلف مراحله يقسمه المختصون الى ثلاثة اقسام اصغر هي العصر الحجري القديم الادنى ، ثم الاوسط واخيرا الاعلى .

١ - العصر الحجري القديم الادنى « الباليوليت الادنى »

بدا منذ نحو مليون سنة وانتهى في حدود ١٠٠.٠٠٠ سنة خلت ، وهو يرادف ما يسمى بالحضارة الاشولية ، او الاشولي ، ذات الانتشار العالمي الواسع ، لقد سكنت ومنذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية من قبل انسان الهومو اركتوس الذي وصل الى قطرنا ، قادما على الأرجح من القارة الافريقية ، سالكا طريقين رئيسيين : الاول ساحلي على امتداد البحر المتوسط والثاني داخلي عبر وديان الانهار الكبرى : وادي عربة ، وادي الاردن ثم الليطاني فالعاصي . ان كل ما نعرفه عن انسان سورية الاول يأتي من خلال الادوات والاسلحة الحجرية التي صنعها واستخدمها في انشطته المختلفة وبقيت ، مقاومة عوامل الفناء ، لتشكل الدليل المادي والمباشر عليه . اهم هذه الادوات هو الفأس اليدوية (Biface) ، الاداة الرئيسة في الباليوليت الادنى ، صنعت منها اشكال مختلفة واستخدمت في وظائف متعددة كالقطع والقلع والضرب والدفاع عن النفس . لقد تطورت قدرة الانسان على تصنيع الادوات الحجرية على امتداد الباليوليت ونحن نستطيع من خلال هذه الادوات متابعة تطور انسان سورية الاول عبر مختلف مراحل هذا العصر الذي نقسمه بدوره تسهيلا للبحث الى الباليوليت الادنى الباكر ، الباليوليت الادنى الاوسط ثم الباليوليت الادنى الاخير .

آ - الباليوليت الادنى الباكر :

وهو يوازي مرحلة الاشولي الادنى ويؤرخ في زمن يقع بين مليون الى ٧٠٠.٠٠٠

سنة خلت . اثت آثار هذا العصر من بضع مناطق في قطرنا وكانت متوضعة ضمن الطبقات الجيولوجية للسريير النهري الرابع (ر ن ٤) ، (عصر ست مرخو او تشكيلة ست مرخو) وقد عثر على الادوات الحجرية العائدة لهذا العصر في موقع ست مرخو نفسه وفي الشيخ محمد في حوض نهر الكبير الشمالي (١٦) . ومعظمها قووس يدوية بسيطة وقواطع وادوات اخرى اصغر حجما ، صنعت كلها باستخدام المطرقة الحجرية الفاسية ، وكانت متأكلة بشدة وعليها كمخة سميكة تشير الى قدمها السحيق اذ تعود الى حوالي مليون سنة خلت . وهي ، كما اشرنا سابقا ، تمثل الدليل الاقدم على وجود الانسان في سورية وخارج القارة الافريقية . في الوقت نفسه تقريبا سكن حوض نهر العاصي ولكن من قبل جماعات بشرية اخرى لم تعرف الفاس اليدوية بل استعاضت عنها بادوات صنعتها من الشظايا الصغيرة . وهذا النوع من الادوات يسبق زمنيا القووس اليدوية ولكننا ، بسبب ندرة الدلائل ، لا نستطيع التقرير فيما اذا كان انسان الساحل السوري قد طور قووسه اليدوية من ادوات انسان العاصي ام انه عرف تصنيع تلك القووس قبل وصوله الى هنا .

ب - الباليوليت الادنى الاوسط :

وهو يوازي مايسمى بالاشولي الاوسط ويؤرخ على ٧٠٠ - ٢٥٠ الف سنة في هذا العصر توضحت استقلالية الانسان السوري الاول وظهرت حضارات محلية اصيلة تطورت باشكل مختلفة في مختلف المناطق السورية الساحلية او الداخلية . لقد استمر الناس بالاعتماد على الفاس الحجرية كسلاح رئيسي بعد ان طوروها واعطوها اشكالا جديدة . وصنعت كل منطقة قووسها الخاصة فبينما استخدم انسان العاصي الفاس اليدوية الطويلة والمدمبة فضل سكان السواحل الفاس المريضة ذات الشكل البيضوي ، وكما في العصر السابق وجدت جماعات بشرية اخرى لم تستخدم القووس على الاطلاق بل صنعت القواطع والادوات الصغيرة ، بعض هذه الجماعات عاش في حوض نهر العاصي في الرستن وبعضها الاخر وصل الى حوض الفرات في موقع شنيئة . ان هذا التباين في تقاليد تصنيع الادوات الحجرية معروف ايضا في فلسطين والاردن ولبنان (٢٠) مما يدل على اننا نلمس ومنذ هذا الزمن الباكر بوادر تجانس حضاري شمل المشرق العربي القديم كله لا تلبث صورته ان تتبلور في العصور اللاحقة . الى الشمال من مدينة حماه وعلى بعد ٤٠ كم في حوض العاصي قرب اللطامنة يقوم احد اهم واندر مواقع هذا العصر في العالم حيث عثر في طبقة من الرمل والطمي الناعم في ترسبات السريير النهري المرتفع العائد الى العصر المطير الثالث (عصر اللطامنة ر ن ٣) على بقايا معسكر سليم سكنته جماعة من صيادي الحيوانات الوحشية كالفييل

والحصان ووحيد القرن ، وملتقطي الثمار البرية كاللوز والزعرور وذلك منذ حوالي نصف مليون سنة مضت . لقد عاش هؤلاء في حوض نهر العاصي الغني وعرفوا تصنيع الاسلحة والادوات وخاصة الفؤوس الكبيرة الفعالة وبنوا ، لأول مرة خارج افريقيا ، الاكواخ البسيطة من الاغصان والجلود ودعموها بالاحجار الكبيرة كما عرفوا الاستفادة من النار منذ ذلك الزمن الباكر (٢١) . ان اللطامنة هو الموقع الوحيد في سورية ، وفي المشرق العربي كله ، المحفوظ بشكل جيد من هذا العصر كما ان المواقع العالمية المشابهة له لا يتجاوز عددها اصابع اليد الواحدة علما بان الادوات الحجرية الكثيرة التي اتت من العديد من المناطق في قطرنا تدل على وجود اكثر من موقع لكن عوامل الطبيعة خربتها .

ج - الباليوليت الأدنى الاخير :

وهو يوازي مرحلة الاشولي الاعلى ويؤرخ بين ٢٥.٠٠ - ١٠.٠ ألف سنة خلت . في هذا العصر يلاحظ ازدياد واضح في عدد سكان سورية حيث خرجت الجماعات البشرية الاولى من موطن سكناها التقليدية في السواحل وحوض نهر العاصي واتجهت شرقا نحو مناطق جديدة في البادية والفرات بعد ان تمكنت من استخدام النار ومن بناء الاكواخ البسيطة . وبدءا من هذا العصر اقام الانسان ، وبلا انقطاع ، في كل المناطق الجغرافية في قطرنا . وبقيت الفأس اليدوية السلاح الاكثر استخداما . ولكن هذه الاداة تحسنت الى حد كبير حيث استخدمت في تصنيعها المطارق الناعمة من العظم والخشب مما اعطاها اشكالا اكثر انتظاما . وساد في كل المناطق السورية بل وفي المشرق العربي القديم نوع واحد من الفؤوس يشبه اللوزة او القلب في شكله (٢٢) ترافقه ادوات اخرى كالمخارز والمكاشط والسكاكين بلغت القمة في الدقة الى حد يتجاوز الحاجة الفعلية والوظيفية المخصصة لها . وتعتبر هذه الادوات الجميلة حسب رأي البعض الدلالة الاولى على نمو الحس الفني والجمالي لدى تلك المجتمعات التي تناقلت تصنيع ادواتها من جيل الى جيل ، بعد ان اصبح لديها لغة متطورة بلا شك . لقد وجدت آثار هذا العصر بكثافة كبيرة ضمن التشكيلات الجيومورفولوجية العائدة الى العصر المطير الثاني المسمى تشكيلة ابو جمعة او عصر ابو جمعة (ر ن ٢) . وفي كل مناطق القطر تقريبا بدءا من الساحل وحتى الفرات الا ان معظم هذه الاثار ، كما في العصور السابقة ، اتى من مواقع مخربة جرفت المياه من مكانها الاصلي الا في حالة واحدة ونادرة وهي موقع القرماشي في حوض نهر الفاصي الاوسط الى الغرب من حماه حيث عثر على معسكر غير مخرب هجره سكانه منذ حوالي ١٥.٠٠٠ سنة خلت واظهرت التنقيبات انهم عرفوا تصنيع الفؤوس الحجرية الرائعة بل بنوا

الاكواخ البسيطة واستخدموا النار ، واستفادوا مثل أسلافهم في اللطامنة ، من خيرات وادي العاصي الحيوانية والنباتية الفنية في ذلك الوقت (٢٣) .

د - العصر الانتقالي بين الباليوليت الأدنى والايوسط :

في اواخر الباليوليت الأدنى اي نهاية مجتمعات الهومو اركتوس وبداية الباليوليت الايوسط ، اي وقت ظهور انسان النياندرتال ، وهو زمن يقع بين ١٥٠.٠٠٠ - ١٠٠.٠٠٠ سنة ، في هذا العصر ساد نوع انتقالي من البشر يسميه المختصون الهومو اركتوس المتطور او انسان ما قبل النياندرتال ، لقد حصلت في سورية والمشرق العربي القديم تغيرات عاصفة شكلت السمة المميزة لهذا العصر الانتقالي، وقد اختلفت التفسيرات حول اسباب ودوافع هذه التغيرات وفيما اذا كانت تقترن بظهور اقوام جديدة ام انها مجرد تحولات داخلية في اطار المجموعات العرقية المحلية . ومهما يكن فلم يعد صناع الفؤوس اليدوية الذين اسميناهم اصطلاحا بالاشوليين يسيطرون بلا منازع، بل ظهرت الى جانبهم حضارات اخرى جديدة (اقوام جديدة) تعايشت كلها في نفس الزمان والمكان . ولكن كان لكل منها ادواتها واسلحتها الخاصة وطرقها المميزة في العيش كما اتضح في كل المناطق السورية (٢٤) . لقد نما لدى انسان هذا العصر حس اكبر بالارتباط بالارض وبديل المواقع الصغيرة التي سكنت لمدة قصيرة لا تزيد عن موسم او موسمين ، مثل اللطامنة والقرماشى سابقا ، نجد الاجيال خلف الاجيال تتعاقب على الاقامة في المكان نفسه وفضل دليل على ذلك هو ملاجئ سكنتها في يبرود وخاصة الملجا الاول الذي سكن على امتداد زمن زاد عن ١٥٠.٠٠٠ سنة، حيث ترددت على هذا الملجا نحو ٢٥ مجموعة بشرية لكل منها حضارتها الخاصة، ومن اكثرها اصالة كانت الجماعات البرودية التي دلت عليها ادواتها الحجرية . لم يعرف «البيروديون» الفأس اليدوية الا نادرا بل اشتهروا باستخدام المقحف الغليظة « المقحف البيرودي » ذات الاشكال المنوعة والمصنعة غالبا من شظية حجرية عريضة وقصيرة لكنها سميكة لها حذان عاملان يلتقيان بزاوية قائمة او حادة ومحضران بواسطة تشذيب واسع ومتدرج على شكل حراشف السمك (٢٥) ، ان المقحف هو الاداة الافضل لتحضير الجلود ووجود هذه الاداة بكثرة في يبرود ، وفي مواقع هذا العصر عموما ، يجعلنا نعتقد بان الانسان بدأ يرتدي هذه الجلود ويفرش بها مساكنه ، ليس فقط درءا للبرد بل وبدوافع معنوية ورغبة بالظهور بالشكل الافضل بعد ان تطور المستوى الاجتماعي للناس . وقد دلت البحوث على ان الحضارة البرودية قد سادت على امتداد هذا العصر الانتقالي وغطت مساحة واسعة امتدت من فلسطين والاردن ولبنان جنوبا وحتى البادية السورية شمالا مما يؤكد مرة اخرى على التجانس الحضاري للمنطقة كما نوهنا سابقا . ومن يبرود ايضا ، ولكن من الملجا

الرابع ، أتت آثار مختلفة تماماً عن التي وجدت في الملجأ الاول حيث لم يصنع سكان هذا الملجأ المقحف البرودي بل الادوات المسننة والمفروضة والسكاكين ذات الظهر السميكة . كما اصطادوا الحصان البري ووحيد القرن والوعل والدب والغزال وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في هذه المنطقة بجوار بحيرة قديمة حفظت لنا ترسباتها آثاراً هامة ونادرة حيث وجدت في طبقات الطمي الناعم البيوض المتحجرة وطبعات طيور وحيوانات وزواحف والاهم من ذلك طبقة كف لانسان النياندرتال الباكر (او ما قبل النياندرتال) هي الاولى من نوعها في قطرنا وفي المنطقة (٢٦) . وازضافة الى يبرود ، تجري الان اعمال تنقيبية هامة في حوض الكوم في البادية السورية تعرفنا بشكل افضل على سمات هذا العصر الانتقالي (٢٧) . لقد عاشت هنا جماعات بشرية كثيفة وعديدة استفادت من خبرات المنطقة الوفيرة حيث تردد السكان على العديد من الينابيع الطبيعية التي جف بعضها الان بينما لا يزال البعض الآخر جارياً . وتركوا لنا بقاياهم التي تراكمت بسماكة عشرات الامتار بجوار العديد من الابار كبئر الهمل وام التلال وام قبيبة والندوية وغيرها من المواقع التي ظهرت فيها الاثار بكثافة لم يعرف لها نظير حتى الان ، حيث وجدت مئات الآلاف من الادوات الحجرية مقرونة مع بقايا مستحاثية اخرى وخاصة عظام الحيوانات ومتوضعة ضمن طبقات جيولوجية سليمة مكنتنا من الحصول على تواريف مطلقة هي الاولى من نوعها في قطرنا ، ارجعت العصر الانتقالي بين ١٥٠٠٠ - ١٠٠٠٠ ر. خلت (٢٨) . لقد صنع سكان حوض الكوم القدامى أدوات واسلحة حجرية متعددة بقدر تعددهم فمنهم من اعتمد على الفأس اليدوية وهناك من أثر المقحف البرودي وثالث ابداع انواعاً رائعة وطويلة من الحراب ذات الفعالية العالية في الصيد (الحراب الهملية) التي شكلت قفزة في تاريخ صنع الاسلحة الحجرية ، والتي اختفت مع اختفاء الهملين (نسبة الى بئر الهمل) في نهاية هذا العصر ولم تصنع ثانية الا بعد مرور زمن طويل جداً وعلى يد الانسان العاقل (٢٩) . اننا ما زلنا بحاجة الى المزيد من البحث لنعرف أسباب هذا التنوع الكبير ، وما اذا كان ذلك يعكس فروقا عرقية أم مجرد طرق مختلفة في اساليب العيش والتكيف مع البيئة ولا بد ان العثور على هياكل عظمية قديمة سوف يساعد كثيراً في جلاء الحقيقة (٣٠) .

٢ - العصر الحجري القديم الاوسط (الباليوليت الاوسط) :

في مطلع العصر المطير الاول (ر ن ١) المسمى تشكيلة الشير اي منذ نحو ١٠٠٠٠ سنة غاب الموزاييك الحضاري الذي ميز العصر السابق واختفى معه انسان الهومو اركتوس ، وظهر نوع جديد من البشر هو انسان النياندرتال ومعه حضارة جديدة . كان النياندرتاليون اكثر عدداً من سابقهم ونجد آثارهم في كل مكان من

قطرنا سواء في المواقع السطحية المكشوفة أو في الملاجئ والمغارات . لقد طور هؤلاء كل ما أبدعه أسلافهم كالبناء والأسلحة والادوات والملابس (٢١) ولكن اختفت الآن الفاس الحجرية كليا وتوارت معها الادوات الثقيلة المصنعة على النوى (Nucleus) أي الكسدر الصواني لتحل مكانها ادوات اخرى مصنعة على الشظايا الصغيرة (Eclats) هذه الادوات كانت متنوعة الاشكال والوظائف وأهمها المقاحف ثم السكاكين والمخارز والمناشر وهي مصنعة وفق تقنيات جديدة وتنسب الى ما يسمى بالافلسوازي - المستيري (٢٢) . ان التنقيبات التي أجريت في العديد من المواقع السورية العائدة لعصر النياندرتال كيبود وكهف الدوارة وجرف العجلة والكوم في البادية السورية (٢٣) أظهرت ان ثقافة النياندرتال السوري رغم تشابهها العام مع مثيلاتها في بقية المناطق الا انها أقرب بكثير الى النياندرتاليين في المشرق العربي القديم وخاصة في فلسطين ولبنان والاردن (٢٤) فلقد وصل سكان هذه المنطقة في ذلك العصر الى درجة عالية من التجانس وقامت بينهم علاقات مباشرة تبادلوا من خلالها حاجاتهم وخبراتهم مما حقق لهم فائدة أكبر من بيئتهم الغنية التي سخروها لخدمة مصالحهم المادية والروحية المتزايدة .

٣ - العصر الحجري القديم الاعلى (الباليوليت الاعلى) :

في النصف الثاني من العصر المطير الاول (عصر الشير) أي منذ حوالي ٣٥٠.٠٠٠ سنة اختفى فجأة انسان النياندرتال وظهر الانسان العاقل وهو السلف المباشر للانسان الحالي ، دون ان نعلم بدقة كيفية حصول ذلك (٢٥) . ورغم ان منطقة المشرق العربي القديم هي التي اعطت الدلائل الاهم على ظهور الانسان العاقل الا ان هذا الانسان تابع تطوره الحضاري في مكان اخر ، هو القارة الاوربية وخاصة فرنسا واسبانيا . وهكذا تغيرت الادوار فبعد ان كانت آسيا وافريقيا مركز النشاط الانساني الاهم انتقل هذا المركز الى اوربة في حين أصبح دور آسيا وافريقيا ، والشرق الاوسط وسورية ضمنا ، هامشيا الى حد ما . لقد تميزت الحضارات السورية والشرق - اوسطية في هذا العصر بالجمود وغياب الفن والبناء والادوات العظمية وغير ذلك من الابتكارات الجديدة التي عرفت من مناطق اوربة . ونحن ما زلنا نجهل الاسباب الحقيقية لهذا التراجع وهل هو واقع مؤقت سوف تغيره الاكتشافات اللاحقة ام انه حقيقة ثابتة . واذا كان هذا هو الواقع فلا بد ان نبحث عن الاسباب التي أدت اليه كالتفسيرات المناخية او العرقية . ولكننا نعتقد ان سورية لم تكن مهجورة في هذا العصر الى الدرجة التي ظنها البعض وان الموضوع يتعلق بضعف الدراسات ليس اكثر بدليل وجود بعض المواقع الهامة كملجا يبرود الثاني والطبقات العليا من جرف العجلة وكهف الدوارة التي دلت على ان الانسان قد سكن المغائر والملاجئ بسبب الظروف المناخية

الباردة التي سادت في حينه ولا بد من دراسة المناطق الجبلية السورية وخاصة جبال المنطقة الساحلية التي لا زالت بكرا لتعرف على حقيقة الامر ، علما بان الابحاث الكثيفة التي تجري في فلسطين اثبتت غنى الارض الفلسطينية باثار الباليوليت الاعلى وليس هناك مايقنع ، علميا ، بتخلف سورية عن فلسطين في زمن شكلت فيه كل هذه المنطقة وحدة جغرافية وحضارية تجلت باشكال مختلفة ومنذ بداية عصور ما قبل التاريخ . كما كشف في المناطق الجبلية الساحلية في لبنان عن مواقع هامة لهذا العصر (٣١) .

٤ - الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمجتمعات العصر الحجري القديم السوري:

ان من اصعب الامور التي تواجه الباحثين في عصور ما قبل التاريخ هو معرفة الواقع الاجتماعي في تلك العصور التي غابت فيها الكتابة ، وغابت معها المعلومات المباشرة حول تنظيم ومعتقدات وافكار هؤلاء الناس . ونحن نحاول استدراك هذا النقص من خلال تفسير الاثار المادية الموجودة بين ايدينا والتكهن بوظائفها ومضامينها، واجراء المقارنات الانثوغرافية بين مواقع ما قبل التاريخ وبين المجتمعات البدائية الحالية رغم ما يحمله هذا الموقف من المخاطرة المجانية الحقيقة (٣٧) ومهما تكن درجة الدقة في حكمنا على الدلائل المادية ، التي نعطينا اياها التنقيبات الاثرية ، فان الامور تبقى ذاتية الى حد ما بحيث يكون الموقف الفكري للدارس عنصرا مؤثرا في طبيعة الحكم لان كل منا يحلل منطلقا من موقفه الفلسفي والايديولوجي العام . وتصبح القضية اكثر صعوبة عندما يتعلق الامر بمجتمعات تفصلنا عنها الاف السنين . ونحن في الواقع نجهل الكثير عن الحياة الاجتماعية والروحية لانسان الباليوليت السوري (في العالم ايضا) ولكننا نستطيع القول انه قد عاش على شكل جماعات صغيرة متنقلا خلف الصيد واللقط ، في المناطق التي توفرت فيها مقومات العيش ، كالماء والحيوان والنبات والصوان . تؤكد ذلك الكميات القليلة للادوات الحجرية الفعلية التي تركتها هذه الجماعات في مناطق اقامتها ، ففي ست مرخو وجدت عشرون أداة فقط ولم يتجاوز عدد الادوات في اللطامنة والقرماشى الاربعمائة ، كما ان مساحة اللطامنة بلغت ٢٠٢٧٠ م^٢ مما يشير الى ضالة الجماعات التي سكنت هذه المواقع . ولكن على الرغم من صغر الجماعة الواحدة فان عدد الجماعات كان كبيرا بدليل كثرة المواقع وتمايزها عن بعضها . كما ان الجماعات البشرية الاولى لم تكن معزولة عن بعضها فكثير من المواقع يتشابه بنسب متفاوتة ، مما يؤكد قيام اتصالات وعلاقات مباشرة او غير مباشرة بينها ، لقد اقام انسان سورية الاول في السواحل وفي وديان الانهار ثم عرف بناء الاكواخ البسيطة من الخشب والجلد والافصان والحجر كما في اللطامنة والقرماشى واستخدم المفائر والملاحيء الطبيعية كما في يبرود واصطاد حيوانات ضخمة كالفيل ووحيد القرن واستفاد من لحمها وجلدها وعظمها ، وصنع اضافة الى الاسلحة الحجرية الفعالة

الاسلحة والادوات العظمية ولكن لم يصلنا منها الا النذر اليسير بسبب فنائها بمرور الزمن . كما عرف انسان الباليوليت السوري النار منذ زمن باكر يعود الى حوالي نصف مليون سنة خلت (اللطامنة) وحقق منها فائدة قصوى في التدفئة او الانارة والطبخ والدفاع عن النفس وغير ذلك . ولا بد ان الناس في ذلك العصر كانوا منظمين بشكل جماعات على راسها رجل قائد ، اب ، يتبعه الباقون من رجال ونساء واطفال . وهم عرفوا تقسيم العمل حسب الجنس والسن فاشتغل الرجال في الصيد والامور الشاقة الاخرى بينما اهتمت النساء بشؤون البيت (المعسكر) والاطفال اضافة الى التقاط الثمار والنباتات البرية . وقد استهلك الجميع من خيرات الطبيعة الحرة بقدر حاجاتهم فقط ولم يكن بينهم اية فروق في توزيع الفوائد (مشاعية بدائية) وليست لدينا من قطرنا اية دلائل على الطقوس الدينية او المعتقدات الروحية لانسان الباليوليت كما في اوربة ، وقد اظهرت التنقيبات ان سكان ملاجئ يبرود قد اكتشفوا الالوان (المغرة الحمراء) . لكننا لا نستطيع ان نقرر كيف استخدموا هذه الالوان ، هل دهنوا بها جلودهم او ملابسهام ام ادواتهم ، كما لا نعلم اي شيء عن لغة انسان الباليوليت ولا عن كيفية تفاهم هؤلاء الناس مع بعضهم ، لكن الادوات والاسلحة المنوعة ذات الاشكال الثابتة والمحددة تشير الى قيام لغة ما تناقلت بواسطتها الاجيال تجاربها وخبراتها في فن تصنيع الحجر (٢٨) .

رابعا : العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) :

بعد الركود الذي ساد في الباليوليت الاعلى استعادت سورية ، ومنطقة المشرق العربي القديم عموما ، دورها . ففي نهاية البليستوسن أي منذ حوالي ١٢٠٠٠ سنة ق.م تراجع الجليد من نصف الكرة الشمالي ومال المناخ نحو الدفء واختفت حضارات الباليوليت الاعلى الاوربية وخاصة الحضارة المجدلانية (٢٩) وتبدلت الادوار من جديد ، فانتقل مركز النشاط البشري من اوربة الى اسيا وخاصة منطقة جنوب غرب اسيا التي ستصبح منذ الان مسرح التفاعلات الجديدة الهامة التي هيأت لعصر جديد وفاصل انتقلت فيه البشرية من حياة التنقل والصيد والالتقاط الى الاستقرار والزراعة والتدجين . ولعبت المنطقة المسماة بالهلال الخصيب ، ومركزها في سورية وفلسطين ، دورا حاسما في ذلك العصر (٤٠) فقد ادى التحسن المناخي الذي ساد في هذه المنطقة الى خروج الانسان من المغائر الى السهول المكشوفة التي ظهرت فيها الحبوب والحيوانات البرية التي زرعت ودجنت في العصر اللاحق . لقد تبلورت في الميزوليت الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم واضحة اكثر من اي وقت مضى ، حيث غابت الحضارات العالمية ذات الانتشار الواسع كالاشولية والموستيرية والاوريناسية وظهرت

حضارات اخرى، محلية الاصل والفرع. فالكباريون (٤١) سكنوا في يبرود وجيرود والكوم ووادي الفرات في النصف الاول من الميزوليت (١٢ - ١٠ ألف سنة ق.م) . وكانوا اول من صنع الادوات الحجرية الصغيرة جدا وذات الاشكال الهندسية *Microlithes - géométrique* التي ارتبطت ببداية صنع الادوات المركبة حيث ثبتت القطع الحجرية المشدبة بعناية على مقابض عظمية وخشبية لتصبح سكاكين ومناشير ومناجل متنوعة . ومع تنامي الالتقاط المكثف للحبوب البرية ، في المناطق الغنية بها ، عرفت الادوات الزراعية الكبيرة من الاحجار البازلتية خاصة، كالمجاريش والاجران والمدقات كما عرف الكباريون البناء البسيط والفنون الاولى لكننا لم نعثر في قطرنا حتى الان ، على دلائل للفن والبناء على غرار تلك التي وجدت في فلسطين . في مطلع الالف العاشر ق.م بدا عصر مناخي دافئ هو الهولوسن *Holocène* الذي لا يزال مستمرا حتى الان ، ودخلت سورية ، في عصر الحضارة النطوفية (٤٢) التي اتت متطورة من سابقتها ، الكبارية . وكان النطوفيون اول المجتمعات المستقرة حيث سكنوا في مراحلهم الباكرة في الكوم ويبرود وجيرود وصيدنايا قرب دمشق والطيبة قرب درعا ، وانشأ هؤلاء قرى الصيادين الاولى في حوض الفرات حيث وجدت بيوتهم في السويات الدنيا من مواقع تل المريبط ، وتل أبو هريرة . وهي بيوت صغيرة محفورة على السفوح المنحدرة في الارض ، جدرانها من الطين وسقوفها من الاغصان والجلود وكانت المنازل متجاورة لكنها غير متلاصقة ، ورغم استقرار النطوفيين النسبي فهم لم يعرفوا الزراعة ولا التدجين بل اعتمدوا في تأمين غذائهم على الصيد والالتقاط البرين اللذين مورسا بكثافة وتخصص عاليين . كما استفادوا من الثروات السمكية في الانهار وبقوا يستخدمون الادوات الميكروليتيية الهندسية لكنهم اضافوا اشكالا جديدة كالادوات ذات الشكل الهلالي أو أنصاف الدوائر *Lunettes* التي شذبوها وجهزوا بها ادواتهم المركبة كالمناجل لالتقاط النباتات البرية، كالقمح والشعير ، والخطاطيف لصيد الاسماك . كما عرفوا الابر والمخارز العظمية ، التي استخدموها في خياطة ملابسهم وجلودهم وأمتعتهم الاخرى ، والادوات الزراعية الثقيلة من الحجر البازلتي ، وهم اول من صنع ، في قطرنا ، مواد الزينة البسيطة كالخرز والقلادات والتماثيل وغير ذلك من الانجازات التي تدل على مجتمع انتقل من مرحلة الجماعة الى مرحلة القبيلة وتوضحت سماته الخاصة الى درجة عالية وقامت بين أفرادها علاقات اكثر غنى وتنظيما مما كان عليه الحال في عصر الباليوليت (٤٣) .

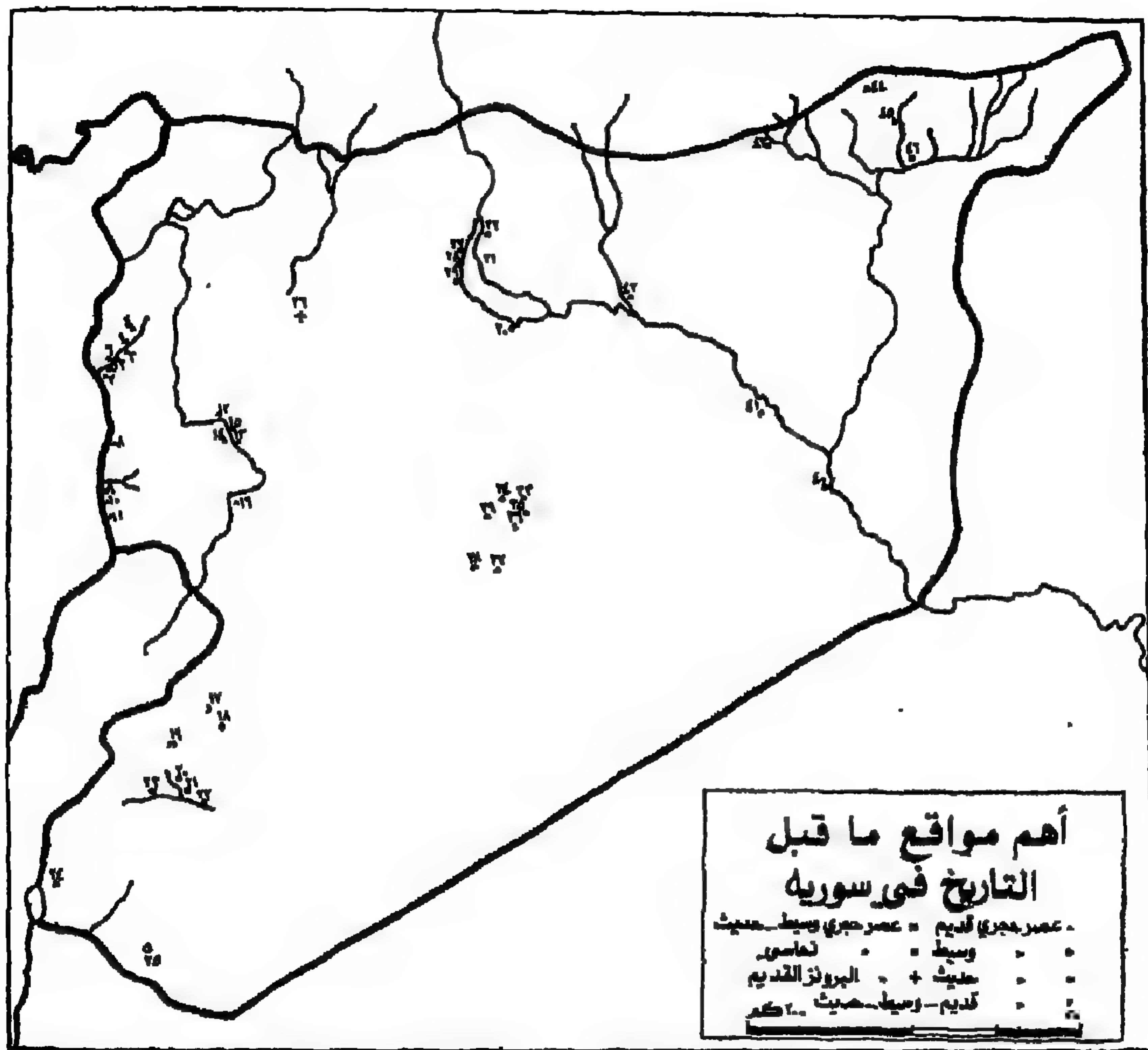
خامسا : الحضارات الزراعية في العصر الحجري الحديث « ما قبل الفخار »

في نهاية الالف التاسع وبداية الالف الثامن ق.م وهي المرحلة المسماة بالنيوليت

ما قبل الفخار آ (٤٤)، نضجت تحولات العصر السابق وحصل الانعطاف التاريخي الاول والاهم في تاريخ الانسان الذي انتقل تدريجيا ، من الصيد والالتقاط الى الزراعة والتدجين واصبح بذلك منتجا للطعام بعد ان كان جامعا له (٤٥) . لقد عثر على الآثار الاولى والاقدم لهذا الانعطاف الكبير في سورية وفلسطين ، دلت عليه مواقع تل المريط وتل الشيخ حسن في حوض الفرات وتل اسود في حوض دمشق ، واريحا في وادي الاردن ، لقد اقام سكان القرى الزراعية الباكرة في مطلع الالف الثامن ق.م في بيوت كبيرة وقوية استخدموا في بنائها اللبن ، لأول مرة ، والحجر والطين والخشب، وجعلوا اشكالها مستطيلة او مربعة اتت متطورة عن البيوت الدائرية الصغيرة التي ميزت العصر النطوي السابق ، كما أصبحت البيوت متلاصقة مع بعضها ، مما سمح بزيادة عدد غرفها بسهولة كلما ازداد سكانها او دعت الحاجة . لقد انتشرت ، بكثافة، الادوات الزراعية الثقيلة كالرحى والاجران والبلطات كما صنعت المناجل ورؤوس السهام والادوات العظمية والاواني الحجرية . ومارس سكان القرى الزراعية الاولى صيد الحيوانات المختارة كالثور والغزال والحصان البري وقل اعتمادهم على الاسماك والطيور كما اشارت الى ذلك تنقيبات المريط . ورغم زراعتهم للقمح والشعير الا انهم استمروا ايضا في التقاط هذه الحبوب التي عاشت في وسطهم برية وكثيرة . وفيما يتعلق بحياتهم الفنية والروحية فهم اول من تركوا لنا الفنون الاولى حيث عثر في المريط، على جدران احد بيوت السوية الثالثة، على خطوط تزيينية سوداء رسمت على خلفية بيضاء يعتقد انها كانت تمثل شكلا هندسيا محصورا بين اطارين من اللون الاحمر، من المؤسف ان التلف اصابها وضاعت معالمها الحقيقية . وصنع السكان من الحجر ومن الطين تماثيل « الربة الام » التي تمثل امرأة عارية ترفع ثديها بيديها وتبرز انوثتها، وتماثيل اخرى للثور المقدس .

كما دفنوا موتاهم في ارضيات بيوت سكنهم بعد ان فصلوا الجمجمة عن الجسم، كل ذلك يدل على مواقف محددة من قضايا الخصب والموت والحياة ترسخت مع الزمن واستمرت طويلا في معتقدات الشعوب اللاحقة في الوطن العربي القديم (٤٦) .

وفي مطلع الالف السابع ق.م (النيوليت ما قبل الفخار ب) حصلت حركات واسعة لشعوب المنطقة وقامت اتصالات وعلاقات تجارية ، هي الاولى من نوعها ، بين مناطق تبعد عن بعضها مئات الاميال فوصلت الاحجار النادرة ، كالاوبسيديان من الاناضول الى سورية وخامات اخرى من جبال زاغروس وافغانستان . واذا كان الالف الثامن هو عصر ابتكار الزراعة فان الالف السابع ق.م هو عصر ترسيخ هذا الابتكار من جهة وازدادة ابتكار جديد اخر هو تدجين الحيوانات من جهة اخرى، تلك الحيوانات



٤ - أهم مواقع عصور ما قبل التاريخ كما وردت مرقمة على الخارطة :

- | | |
|--------------------|------------------------|
| ١ - ست مرخو | ٢٤ - الجامع |
| ٢ - الشيخ محمد | ٢٥ - الطيبة |
| ٣ - المشرفة | ٢٦ - تل مردوخ (إبلا) |
| ٤ - مشيرفة الساموك | ٢٧ - جبل عرودة |
| ٥ - الشير | ٢٨ - حبوبة الكبيرة |
| ٦ - بكسنا | ٢٩ - تل قناص |
| ٧ - هنادي | ٣٠ - تل أبو هريرة |
| ٨ - بانياس | ٣١ - تل المريط |
| ٩ - تبة الحمام | ٣٢ - شمس الدين طنيره |
| ١٠ - أرض حمد | ٣٣ - أم التلال |
| ١١ - موقع الحامي | ٣٤ - الندوية |
| ١٢ - اللطامنة | ٣٥ - بئر الهمل |
| ١٣ - خطاب | ٣٦ - الكوم |
| ١٤ - القرماشي | ٣٧ - كهف الدوارة |
| ١٥ - تلؤل الدفاعي | ٣٨ - جرف العجلة |
| ١٦ - الرستن | ٣٩ - أم قبيبة |
| ١٧ - يبرود | ٤٠ - تل بقوص |
| ١٨ - جبرود | ٤١ - عين أبو جمعة |
| ١٩ - صيدنايا | ٤٢ - شنيمة |
| ٢٠ - تل العريفة | ٤٣ - تل حلف |
| ٢١ - تل الخزامي | ٤٤ - تل عقاب |
| ٢٢ - تل اسود | ٤٥ - شكر بازار |
| ٢٣ - تل الرماد | ٤٦ - تل براك |

التي كانت الهدف المفضل للصيد في الالف الثامن والتاسع ق.م ، كالغنم والماعز والبقر . ولقد بدأت منذ ذلك الحين تتطور ، جنبا الى جنب ، مجتمعات اعتمد بعضها على الزراعة وبعضها الاخر على تربية المواشي ، علما بان هذا التخصص لم يكن حادا كما قد يظن ، لان الكثير من قرى الالف السابع قد مارست الزراعة والتدجين معا رغم تفاوت دور هذه الانشطة من مستوطنة الى اخرى . في نهاية الالف السابع ق.م تجذرت الزراعة والتدجين كاسلوب رئيسي في انتاج الطعام وخرجت القرى الزراعية الاولى من مناطقها التقليدية في الوديان والسفوح المطيرة ، المواتية للزراعة البعلية الى مناطق جديدة امطارها اقل كالبادية (الكوم ، بقرص) او ساحلية لا تنمو فيها الحبوب البرية (راس الشمرة ، تبة الحمام) لقد بني سكان هذه القرى الجديدة منازل اقوى من اللبن ، على اساس من الحجر ، منظمة بشكل افضل من السابق كانت تتصل غرفها مع بعضها بممرات ومجهزة بالمواعد والتنانير وارضها وجدرانها مطلية لاول مرة بالملاط الابيض تفصلها شوارع كبيرة او صغيرة ويعتقد ان بعض هذه البيوت كان له اكثر من طابق واحد . ويعتبر موقع بقرص ، قرب دير الزور ، افضل نموذج للبناء المنظم في هذا العصر (٤٧) كما طور الناس ادواتهم واسلحتهم وخاصة رؤوس السهام الحادة والطويلة وصقلوا بعناية بعض هذه الادوات كالبلطات لتصبح اكثر مضاء ، وصنعوا الاواني من الحجر الكلسي الابيض (الاواني البيضاء) التي مهدت الطريق لظهور الاواني الفخارية (٤٨) ، وعرفوا الاواني الرائعة من المرمر التي يعتقد انه كان لها استخدام ديني واجتماعي خاص . وعلى المستوى الروحي استمرت المجتمعات



١ - مقطع جيومورفولوجي في حوض العاصي

الزراعية الاولى بصنع الدمى الانسانية والحيوانية المختلفة التي ترمز ، كما اشرنا الى عقائد مجتمع زراعي يقدس الخصوبة والامومة (الربة الام) . لكنهم اصبحوا يدفنون موتاهم خارج بيوت سكنهم الا ان الاهتمام بالجماجم قد تزايد فلم يعد يكتفى بدفنها معزولة عن الجسد ، في قبور خاصة ، كما في السابق وانما اصبحت هذه الجماجم تثبت على قواعد طينية وتوضع على امتداد جدران بيوت السكن ، كما ظهر في السوية الرابعة في المربيط . ثم ما لبثت الجماجم ان حنطت حيث كشط لحمها واعيد تكييف معالمها بالكلس ، ووضعت على تماثيل كبيرة من الطين (تل الرماد) ويرى الباحثون في هذا العمل الدليل الاثري الصريح على انتشار عقيدة «عبادة الاجداد» وهي عقيدة مارسها شعوب المنطقة كلها من الفرات وحتى وادي الاردن . وهي تشكل دليلا اخر اعلن الرباط الروحي الباكر بين سكان هذه المناطق . وفي نهاية عصر النيوليت قبل الفخار ب حققت الفنون تقدما ملحوظا فتنوعت ادوات الزينة كالخرز والخواتم والامشاط والتماائم وظهرت ولاول مرة الاختام المسطحة من الطين والحجر الاخضر (راس الشمرة السوية VC) والفنون الجميلة التي تدل عليها الرسوم التي نفذت باللون الاحمر على خلفية بيضاء ووجدت على جدران احد بيوت بقرص وهي تمثل طيور النعام ، كما وجدت في نفس الموقع وجوه بشرية كبيرة من الطين عيونها منزلة ، هي الاولى من نوعها في قطرنا .

سادسا : مجتمعات العصر الحجري الحديث الفخاري :

في بداية الالف السادس ق.م تكتمل انجازات انسان العصر الحجري الحديث بالتوصل الى معرفة الاواني الفخارية التي باتت ضرورية لحفظ وتخزين الطعام والشراب في القرى المستقرة (٤٩) . لقد صنعت من الطين الناعم المحضر مختلف انواع الاواني الكبيرة والصغيرة كالجرار والقدر والصحون والطاسات واصبحت الاواني الفخارية ، بعد ان كانت الادوات الحجرية ، من السمات المميزة للشعوب وعلى اساسها يجري تمييز هذه الشعوب وتحديد انتشارها الزماني والمكاني . ان اقدم ظهور واسع للفخار في قطرنا اتى من الجزيرة العليا (موقع تل اسود) وهو يعود الى نهاية الالف السابع وكان من النوع الاسود والمصقول باليد ويعتقد انه من هذه المنطقة انتقلت صناعة الفخار شرقا الى بلاد الرافدين وغربا الى الاناضول وسواحل المتوسط . تلا ذلك فخار منطقة العمق، المسمى بالعمق Amuq A الذي انتشر في المناطق القريبة من سورية (٥٠) وهو بني اللون او قائم عموما عليه بعض الحزوز والطبعات الزخرفية البسيطة (السوية VB في راس الشمرة وموقع تل سو كاس) ، وهو يوازي زمنيا فخار العمق . وفي مرحلة لاحقة تسمى العمق ب ، انتشر نوع آخر من الفخار الرمادي المصقول ايضا وهو احدث نسبيا (السوية VA في راس الشمرة) وفي هذه المرحلة

انتقلت صناعة الفخار من سورية الى فلسطين جنوبا وسادت في الالف السادس في كل المنطقة المسماة بالهلال الخصيب حضارة كبيرة متجانسة تألفت من مجموعة مراكز محلية أصغر تشابهت مع بعضها بدرجات متفاوتة فكانت الجزيرة السورية أقرب الى بلاد الرافدين الشمالية بينما شكلت السواحل السورية مع الفلسطينية واللبنانية مركزا حضاريا واحدا، في حين كانت مناطق جنوب سورية أشبه بالحضارات الفلسطينية. لقد عاشت مجتمعات النيوليت الفخاري، مثل سابقتها، على الزراعة والتدجين وبقي القمح والشعير والفنم والماعز أهم ما زرع ودجن في ذلك العصر، وقد تطورت آتشد الأدوات الزراعية والأسلحة وخاصة رؤوس السهام التي أصبحت أكثر تخصصا (كنبال العمق أو نبال جبيل على الساحل اللبناني) وزاد استخدام الحجر المصقول كالقؤوس والبلطات والمقدات ولكن لم يطرأ تغير يذكر على البناء ولا على الحياة الفنية والروحية وإن كنا نرى نقصا ملحوظا لا نجد له تفسيرا كافيا في صنع الدمى الانسانية والحيوانية. منذ منتصف الالف السادس ق.م اختلف بشكل واضح وتأثر التطور في قطرنا وبعد ان سارت حتى الآن بشكل متواز، فواكبت الجزيرة السورية مناطق شمال الرافدين الذي تسارعت فيها التفاعلات الحضارية ممثلة بالثقافة الحلفية الجديدة (٥١) التي حققت انجازات كثيرة ليس اقلها الفخار الرائع، بينما بقيت المناطق السورية الجنوبية شديدة الصلة بفلسطين والاردن، وتعيش معها تقاليد العصر الحجري الحديث.

سابعا : حضارات العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) .

في منتصف الالف السادس ق.م ظهرت، كما ذكرنا، في شمال بلاد الرافدين وفي الجزيرة السورية الحضارة الحلفية التي عرفت لأول مرة النحاس واستخدمته، مطروقا، في تصنيع بعض الأدوات الخفيفة وبدأ دور الحجر بالتراجع لتتصاعد أهمية المعادن، ومن هنا أطلقت تسمية العصر الحجري النحاسي الذي يمثل المراحل الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ. إن من أهم ما يميز الحلفيين هو الاواني الفخارية الرقيقة، جيدة الصنع، الملونة والمزخرفة بأشكال هندسة ونباتية وحيوانية وانسانية غاية في الجمال. لقد انتشر هؤلاء على منطقة واسعة امتدت من شمال الرافدين وحتى سواحل المتوسط مما يشير الى تجانس حضاري شمل أيضا النصف الشمالي من سورية وحتى البقاع جنوبا. لقد انتج الحلفيون السوريون فخارهم الخاص الشديد الشبه بالنوع المستورد من الشمال الرافدي (٥٢) وصنعت هذا الفخار مراكز متخصصة صدرته الى مناطق أخرى بعيدة قامت بينها علاقات وصلات قوية. لقد تطور الحلفيون السوريون بشكل متزامن مع اخوانهم الرافدين وما المواقع السورية الهامة كشاغار بازار، وتل اسود، وتل عقاب، وتل حلف، وتل يونس وغيرها الا المرادف الحضاري ليباريم تيه والعربجية في العراق. وكما تطور الحلفيون هناك على مراحل

ثلاث باكرة ومتوسطة واخيرة نلاحظ وجود نفس المراحل التطورية في سورية . لقد سكن الحلفيون في بيوت مستطيلة او مربعة او دائرية مبنية من اللبن والحجر بعضها بتألف من مدخل مستطيل ينتهي ببيت دائري مقبب (٥٢) ، وصنعوا الادوات الحجرية المتنوعة والمصقولة والادوات الاوبسيديانية ، والاختام المسطحة والمواد الفنية كالخرز والدمى وخاصة التي تمثل «الربة الام» . ويدل البيت الصغير في تل اسود الذي عثر في جداره على جمجمة ثور انه كان معبدا مورست فيه الشعائر الدينية (٥٤) . في النصف الاول من الالف الرابع ق.م. ظهرت على انقاض الحلفيين الحضارة العبيدية (٥٥) ، وان الكثير من المواقع السورية كراس الشمرة وتل عقاب وتل حلف وشاغار بازار اعطتنا اواني فخارية لها صفات انتقالية مشتركة بين عصري حلف المتأخر وعبيد الباكر مما يحملنا على الاعتقاد بان العبيديين السوريين هم أيضا مثل الحلفيين ، سكان محليون اصلاء وليسوا مهاجرين ولا غزاة قدموا من جنوب بلاد الرافدين كما ظن سابقا ، لقد انتشر العبيديون على نفس المناطق التي عاشت فيها سابقا المجتمعات الحلفية ، اي بقوا في القسم الشمالي من سورية ولم يتجاوزوا حمص جنوبا ، وعرفوا تصنيع الاواني الفخارية ، لكنها كانت اقل جودة من السابق معظمها بلون واحد ، برتقالي فاتح غالبا ونادرا ما صقلوها ، اما زخارفها فكانت هندسية وحيانا طبيعية ، كالنباتات والحيوانات والبشر . ان الابتكار الهام في هذا العصر هو الدولاب البطيء الذي مكنهم من انتاج اوان اكثر تنوعا وانتظاما . وخير ما يمثل الفخار العبيدي هو رأس الشمرة السوية III c التي وجد فيها فخار له عدة الوان او لون واحد ، غالبا أحمر ، وفيه صفات انتقالية بين حلف وعبيد ، والسوية III B حيث ظهرت فيها الاواني العبيدية الخالصة ، كالجرار والقدر ذات المثاعب المزخرفة ببصمات الاصابع وبعضها بأشكال هندسية مختلفة . لقد سكن العبيديون في بيوت مستطيلة من الطين والحجر ، رصفت ارضها بالحجارة وتوسطتها المواقد ، وصنعوا أدوات زراعية ، وخاصة المناجل والبلاطات لقطع النباتات والاشواب ، والقدايم من الاحجار الخضراء ، وعرفوا النسيج وادوات الزينة من العظم والابسيديان والاحجار النادرة الاخرى والدمى الانسانية المختزلة من الطين والحجر والكلس . الى الجنوب من مناطق انتشار الحلفيين والعبيديين ، اي جنوب حمص ، وعلى امتداد الالفين الخامس والرابع ق.م عاشت مجتمعات اقل تطورا تابعت نمط حياة العصر الحجري الحديث ، سكنت في بيوت حجرية كبيرة كما هي الحال في موقع الجامع في منطقة القنيطرة او طينية صغيرة كما هي الحال في تل الخزامى في حوضه دمشق، وصنعت الادوات الزراعية المتنوعة وكان لها فنونها ومعتقداتها الخاصة وهي اقرب الى حضارة الفسول الفلسطينية (٥٦) .

ثامنا : نشوء العمران وفجر التاريخ :

في النصف الثاني من الالف الرابع ق.م (٥٧) انطلقت من مدينة الوركاء في جنوب بلاد الرافدين الحضارة السومرية التي ابدعت نظام الكتابة واسست اول دولة في التاريخ. في هذا العصر بلغ التشابه بل التطابق الحضاري بين سورية وتلك البلاد لدرجة اكبر من أي وقت سبق ، دل على ذلك نمط البناء والفخار والفنون والكتابة التصويرية الاولى وغير ذلك ، لقد انشئت المدن المسورة والمحصنة الاولى في وادي الفرات السوري على امتداد الطريق التجاري الهام بين دولة السومريين في الجنوب وسواحل المتوسط والاضول في الشمال ، كما اظهرت تنقيبات الاتقاذ التي جرت اثناء اقامة سد الفرات (٥٨) وادت الى اكتشاف العديد من المواقع الهامة التي نسبت الى حضارة الوركاء وعلى رأسها حبوبة الكبيرة الجنوبية وتل قناص وجبل عرودة ، اضافة الى تل براك في الجزيرة السورية شمال الحسكة المعروف منذ الاربعينات والذي استؤنف التنقيب فيه في السنوات الاخيرة . ان موقع حبوبة الكبيرة الذي بلغت مساحته حوالي ١٨ هـ ٢٠٠٠ ، يعطينا افضل فكرة عن نظام بناء المدن في ذلك الحين (٥٩) فلقد شيدت مدينة حبوبة وفق مخطط مسبق ودقيق وزودت بشبكة من الطرق الرئيسية والفرعية والاقنية لتمديد وتصريف المياه .

بنيت المساكن على الطراز السومري المعروف بثلاثي العباصر Tripartite اي باحة كبيرة مركزية مربعة او مستطيلة في منتصفها موقد او كثر ويحيط بها من الجانبين صفان من الغرف الصغيرة وهذا نفس النموذج الذي بنيت وفقه المعابد الاولى . وهناك طراز اخر من البناء ، محلي بحت ، اسماء المنقبون بالبيت الشرقي ويتألف من صالة كبيرة واحدة تطل على صحن دار داخلي . لقد انتشرت معظم المساكن حول شارعين رئيسيين يوازيان الفرات ويقطعان المدينة من شمالها الى جنوبها ، وقامت بجوار بيوت السكن الابنية الاقتصادية المختلفة كالمساقل والمستودعات ، احاطت بالمدينة من كل جهاتها ، عدا الشرق حيث الفرات ، سور مزدوج هو الافضل حفظا من نوعه في المشرق العربي القديم . لقد بني هذا السور من اللبن وبلغ عرضه ثلاثة امتار وطوله ٦٠٠ متر فيه بوابتان رئيستان وتعلوه ابراج دفاعية مستطيلة وعضادات تدعمه وتعطيه شكلا جميلا . لقد صنع سكان المدينة اواني من الفخار العادي ، بعد ان تراجع فخار عصر العبيد الملون ، كالقصاصات والجرار والقدور التي طبعت سطوحها بالاختام الاسطوانية التي صنعت لأول مرة في قطرنا ونقشت عليها مواضيع اسطورية وطبيعية تذكر باختام الوركاء . والى الجنوب من تل حبوبة الكبيرة الجنوبية يقوم تل قناص الذي اتضح انه يمثل الجناح الاداري والديني لمدينة حبوبة الكبيرة (٦٠) ، حيث كشف عن ثلاثة

معابد مبنية فوق مصطبة مرتفعة وعلن نفس النموذج الثلاثي العناصر الذي بنيت وفقه بيوت السكن ومزودة بمصاطب امامية وادراج ، وجدت في هذه المعابد الجرار الفخارية المزخرفة بالضغط او الحز ، والاواني المرمية الكبيرة ذات المشاب ، وأدوات زراعية ومنزلية وصناعات نفيسة واختام واسلحة بل والا هم من كل ذلك اللوحات الطينية التي حملت اشكالا حيوانية بقربها رموز حسابية تمثل الكتابة التصويرية Pictographe التي تعود الى الربع الاخير من الالف الرابع ق.م وتمثل المرحلة الاولى من تاريخ الكتابة (١١) وعلى هذا العصر يؤرخ جبل عرودة الواقع على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال من جبوبة ، لقد شيد السكان على قمة الجبل الذي يرتفع حوالي ٦٠ مترا عن السهل المجاور معبدين كبيرين بنيا على نفس المخطط ثلاثي العناصر ايضا وزينت جدرانهما بالمسامير الطينية الملونة مثل المعابد الرافدية في مدينة الوركاء ، في واحد من هذين المعبدين عشر على رقم طينية عليها كتابة تصويرية وطبعات اختام اسطوانية تشبه رقم جبوبة والوركاء وهذا دليل اخر على الوحدة الحضارية للمنطقة .

وجدير بالذكر ان لوحات كتابية مشابهة ايضا آتت من موقع تل براك ، في الجزيرة العليا حيث وجد معبد رائع هو « معبد العيون » زين محرابه بالاحجار النادرة والمعادن الثمينة مما اكسبه صفة محلية خالصة (١٢) ان عدم استمرار الحياة مدة طويلة في مدن الفرات الاوسط ، التي لم تعمر الا حوالي قرن او قرن ونصف من الزمن اذ اودى بها حريق كبير ، حمل البعض على اعتبارها محطات تجارية سومرية مؤقتة ربطت بين بلاد الرافدين جنوبا ، حيث ازدهرت ثقافة الوركاء ، وبين الاناضول والمتوسط شمالا . لكننا نزن انهما مراكز استيطان مدني واصيل تطورت محليا ، بشكل متزامن مع مشيقاتها في بلاد الرافدين مستفيدة من موقعها الجغرافي المناسب . يدعم هذا الرأي العثور على اثار عصر الوركاء وخاصة الفخار في مناطق بعيدة عن الفرات وصلت حتى الكوم في البادية السورية والجزيرة العليا حيث يقوم موقع تل براك الذي بقيت الحياة فيه مستمرة بلا انقطاع وحتى العصور التاريخية اللاحقة والذي وجدت فيه كما اشرنا كتابات تصويرية تعود الى نهاية الالف الرابع ق.م . بعد هذه التاريخ غابت الكتابة في قطرنا لمدة طويلة قبل ان تظهر الكتابة المسمارية المتطورة التي دل عليها الارشيف الملكي في ابلا العائد الى الربع الثالث من الالف الثالث ق.م وهو زمن دخلت فيه سورية بالكامل في العصور التاريخية القديمة (١٣) .

الرياحي في سورية

الزمن بالسنين	المواقع الهامة	الحفارة	العصر	الانسان	الرياحي الاولى	الرياحي الثاني	افلام الرياحي	لنفاخ أقي بارو
٢٠٠٠	تل حلف ، تل عقاب ، تل براك ، تل حبيبة الكبيرة جبل عارودة ، شمس الدين طنبوقة ، شافار بارو ، الجاسع ، تل الخزافي .	مجتمعات انتقالية الى المعمر التاريخية	العصر الحجري النهاسي	تشكلات الهولوسين	تشكلات الهولوسين	تشكلات الهولوسين	الهولوسين	
٥٠٠٠	تل المريط ، تل أبو مريوة ، بقوس ، تل الرقاد ، تل المريفية ، رأس ، الشجرة ، لبة الحسام	مجتمعات الزراعة والندجين	العصر الحجري الحديث					
٨٠٠٠	الكوم I ، الندوية I ، المريط I ، صيدنايا ، جهور عور III ، الطيبة	الكبارية النطونية	العصر الحجري الوسط					
١٢٠٠٠	بيروت II ، والطبقات العليا من كهوف جوف المعجلة و الدوارة .	الاوتيا	العصر الحجري القديم الاعلى					
٢٥٠٠٠	جوف المعجلة وكهف الدوارة والطبقات العليا فيها أكثر مواقع العصر الانتقالي .	اللقرازية - الوستونية	العصر الحجري القديم الأوسط	النياندرتال				
١٠٥٠٠٠	بيروت I ، بشر الحمل ، القدونية II ، أم التلال ، أم قبيبة مشيرة الساموك ، طول الداعي .	الاصوليتا لاخيرة اليوروبية ، المطية ، الساموكية الدقافية	عصر انتقالي	الهومو اركتوس	رأس - شعوم	باناس		
٥٥٠٠٠٠	ستاموخو ، الشيخ محمد ، خطاب ، الرستن ، اللطانة ، القراشي ، أرض حمد ، موقع المامي .	النيابية الاقولية	العصر الحجري القديم الأدنى		رأس	هنادي	البليستوسين الأوسط	
٦٠٠٠٠٠					جندر - فندل	بكم	البليستوسين الأدنى	
					جندر	ستاموخو		
					دزمو - جندر	الندوية		

(١) لقد ظهر الانسان الاول منذ ما ينوف على المليون سنة في جنوب وشرق القارة الافريقية، واخترعت الكتابة التصويرية الاولى في بلاد الرافدين وفي سورية منذ نهاية الالف الرابع ق.م . وعليه فان مصور ما قبل التاريخ تقع بين هذين الحدين . ويقسم الباحثون هذه العصور الى العصر الحجري القديم الباليوليت Paléolithique الذي بدا في ازمة متفاوتة مع ظهور الانسان في مختلف الاماكن وانتهى في نحو ١٢.٠٠٠ سنة ق.م . وهو عصر التنقل والصيد والالتقاط، ويقسم بدوره الى الباليوليت الادنى والوسط والاعلى ، يليه العصر الحجري الوسيط الميزوليت Mésolithique وهو عصر انتقالي استمر من نحو ١٢.٠٠٠ حتى نحو ٨.٠٠٠ سنة ، ثم العصر الحجري الحديث النيوليت Néolithique وهو عصر الاستقرار والزراعة والتدجين واستمر من نحو ٨.٠٠٠ وحتى نحو ٤.٠٠٠ سنة ق.م . واخيرا العصر الحجري النحاسي الكالكوليت Chalcolithique ويمثل نهاية مصور ما قبل التاريخ وبداية الانتقال الى العصور التاريخية القديمة وقد استمر على امتداد الالف الرابع ق.م . تقريبا . علما بان هذه الارقام مدورة ونسبية وتباين من موقع لآخر ومن منطقة لآخر . وتساعدنا الان طرق التاريخ المخبرية في تحديد سلم زمني ادق لعصور ما قبل التاريخ .

(٢) نشر هذا الفرنسي المتعدد الاهتمامات على هذه الأدوات في حوض نهر السوم في منطقة ابفيل Abbeville ، ونشر بين ١٨٤٧ - ١٨٦٠ ثلاثة مجلدات حاول فيها تأكيد قدم الانسان السحيق جدا عكس ما كان يعتقد ، وفق التوراة ، من ان الانسان يعود الى الالف الرابع ق.م .

(٣) في الوقت نفسه (١٨٥٩) قام السيد غودري A. Gaudry بالحفر من موقع سان اشول Saint Acheul في حوض نهر السوم ايضا وحصل على المزيد من الاسلحة والادوات الحجرية المتطورة المصنع بينها فلوس حجرية هي التي تميز ما يسمى الان بالحضارة الاشولية Acheuléen .

(٤) نشر هذا الكتاب The Origin of Species في ١٨٥٩ وفيه عالج داروين قضية التطور مؤكدا ان العالمين الحيواني والنباتي قد تطورا عبر زمن طويل في اطار قوانين الاصطفاء الطبيعي وبقاء الافضل . وفي مؤلف اخر عن اصل الانسان The Descent of Man الذي صدر في ١٨٧١ عالج داروين مسألة تطور الانسان نفسه من الرئيسيات وحتى الانسان العاقل . وقد كتب هذا المؤلف في زمن كانت فيه الاكتشافات قليلة ومناهج البحث بسيطة مما جعله يقتصر الى الدقة العلمية التي نلمسها اليوم في مؤلفات اخرى تعالج نفس الموضوع . ومهما يكن فهناك اتفاق عام الان بين الباحثين على قضية التطور وان اختلفوا في الكيفية او التفاصيل ونأمل التعرض لهذا الموضوع في بحث مستقل قريبا .

(٥) نذكر من الباحثين الذين عملوا في النصف الاول من القرن العشرين وكان لهم الفضل في ارساء دعائم علم ما قبل التاريخ ، وكلهم فرنسيون :

H. Christy, E. Lartet, C. de Mortillet, V. Commont, D . Peyrony,

فلا نستغرب ان يقال ان علم ما قبل التاريخ علم فرنسي ، كما ان معظم حضارات ما قبل التاريخ اخذت تسمياتها من المواقع الفرنسية ، ولكن ذلك لا يعني اسبقية فرنسا الحضارية في هذه العصور انها قضية تاريخ البحث ليس الا ، وقد دلت الدراسات الحديثة عدم دقة تطبيق النموذج الفرنسي لمصور ما قبل التاريخ على كل المناطق التي كان لها ميزات مستقلة ولا بد من ايجاد نماذج محلية تعبر عن طبيعة تلك العصور بشكل اكثر علمية وموضوعية وهذا ما يحصل الان في مختلف البلدان .

(٦) تستخدم الان بتصاعد الحواسيب الالكترونية وطرق التاريخ والتحليل المخبرية الفيزيائية - الكيميائية الحديثة ، اضافة الى القوانين الرياضية وعلوم اخرى ، وذلك في دراسة بقايا عصور ما قبل التاريخ سواء كانت أدوات اثرية حجيرية او عظمية ام مستحاثات نباتية او حيوانية او جيولوجية ام هياكل عظمية بشرية ، وتعطى هذه الطرق المتطورة نتائج مشجعة تتحسن دقتها باستمرار .

(٧) يعتبر الأمريكي بينفورد والانكليزي دافيد كلارك رائدي علم الآثار الحديث الذي يتبع المنهج الاستدلالي Deductive الذي يعتمد على طرح نظريات تتعلق بحياة انسان ما قبل التاريخ ثم محاولة التحقق من هذه النظريات من خلال البحث الميداني ، على عكس منهج علم الآثار التقليدي الاستقرائي Inductive الذي يدرس عصور ما قبل التاريخ دون افتراضات مسبقة ، بل كما يظهرها واقع البحث الاثري غير الوجه سلفا ومهما يكن فاننا لا نعتقد ان علم الآثار الحديث قد أتى بشماره الكاملة او أحدث ثورة في معارفنا عن مجتمعات ما قبل التاريخ ، فكل المنهجين يلتقيان ويكمل أحدهما الآخر ومن أجل المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى المؤلفات التالية :

- R.L. et Sally Binford, 1968, *New Perspective in Archaeology*, Chicago.
- D.L.Clark, 1968, *Analytic Archaeology*, London.
- P. Courbin, 1982, *Qu' est que l'Archeologie*, Payot, Paris.

(٨) لقد قام بالاعمال الاولى حول عصور ما قبل التاريخ رجال دين وضباط فرنسيون جمعوا بعض الأدوات الحجرية من مناطق مختلفة في سورية ولبنان، وخاصة من احواض الانهار الرئيسية كالفرات والعاصي والليطاني وقاموا بدراسات اولية لها ، نذكر من هؤلاء الاب زوموفن الذي نشر بعض المؤلفات في مطلع هذا القرن عن ما قبل التاريخ السوري واللبناني ، والضابط برفيه السدي نشر في الاربعينات دراسات اخرى مشابهة عن مواقع ما قبل التاريخ السورية - اللبنانية ، ومن اهم المراجع الاولى :

- G. Zumoffen, 1900, *La Phénicie avant Les Phéniciens*, Beyrouth Imp. Catholique.
- Zumoffen, 1908 « L' Age de la Pierre en Phénicie » *Anthropos*, 3, 431—55 .
- M, Pervés, 1946 — 48 « La Préhistoire de La Syrie et du Liban » *Syria* 9 , 109 - 29 .

(٩) قدم السيد روست الى الشرق الاوسط على دراجة عادية مدفوعا بالاكتشافات الانكليزية الهامة لبقايا انسان النياندرتال في مناطق جبال الكرمل بفلسطين ، فاستهوته ملاجئ وادي سكفتا في ببرود ونقب منها ثلاثة بين اعوام ١٩٢٠ - ١٩٢٢ ونشرها بمنهجية علمية هي الاولى من نوعها . ويعتبر هذا الباحث الاب الحقيقي لما قبل التاريخ السوري . ولكن للأسف انه اخذ المواد الاثرية معه الى ألمانيا .

- (١٠) اننا نستخدم مصطلح ((حضارة)) Culture لوصف الانجازات المادية او الروحية لمجتمعات ما قبل التاريخ . وفيما يخص مصور ما قبل التاريخ فان هذا المصطلح غالبا ما يقتصر على وصف نمط معين من الادوات الحجرية او العظمية التي كان لها انتشار زمني ومكاني محدد .
- (١١) لا زال هذا الملجأ محط اهتمام المختصين وقد اعادت التنقيب فيه بعثة امريكية من جامعة كولومبيا بادارة رالف سوليكي وذلك بين اعوام ١٩٦٢ - ١٩٦٥ ، وبتحيا هذا الباحث للرجوع الى بيروت ومتابعة العمل مجددا لتدقيق بعض الامور التي ظهرت اثر تنقيبات الستينات او التي نشرها روست في الثلاثينات وقد نشر السيد سوليكي بالاشتراك مع زوجته تقريرا عن اعماله في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية .
- (١٢) Solecki, R, L, 1966 « New data from yabroud, Syria, Preliminary Report of the Colombia University Archaeological Investigations. A.A.A.S., 12 (2) 121 - 154 .
الكتاب بالالمانية صدر في ١٩٥٠ وهو :
A. Rust, 1950. Die Hohenfund Yabrud (Syrien), K. wachholtz Neumunster.,
- (١٣) نقيب اللطامنة السيد ديزموند كلارك ١٩٦٤ - ١٩٦٥ وسبقه سبر من قبيل فان ليرة وعدنان البني ١٩٦٠ ، وتنقيب بسيط في ١٩٦١ - ١٩٦٢ من قبل مودرمان ، واستخدمت لأول مرة طرق الدراسة المكانية لارضية سكن المواقع بهدف معرفة توزيع الاثار وخاصة الادوات الحجرية ومن ثم تحديد طبيعة النشاط الذي مارسه السكان ، مما ساعد على تعيين مناطق لطرق الصوان واخرى للاقامة او القاء الفضلات .
- (١٤) استفاد فان ليرة من كونه خيرا في التربة ولمدة سنوات (١٩٥٥ - ١٩٦٥) لدى الحكومة السورية وقد نشر ملخص اعماله في كتاب صغير اسماء ملاحظات عن الرياضي السوري ، اميد طيه من قبل المديرية العامة للآثار والمتاحف .
- W. J. Van Liere 1960 - 1961, Observations On The Quaternary of Syria .
- (١٥) نذكر من البعثات المتميزة ، مجموعة العمل المشتركة ٤٢٨ R.C.P.438 التابعة لجامعة ليون الثانية بادارة الاستاذ بول سانلافييل وعضوية كل من : بوزالسون ، اور ، كويلاند Y. Besançon, F.Hours, L. Copeland وسلمان محيسن كما نذكر البعثة الدائمة العاملة في منطقة الكوم بادارة السيد جالك كوفان العائدة لمركز البحث العلمي الفرنسي والتي يشارك فيها كاتب هذه الدراسة ايضا . وقد ادى نشاط هاتين البعثتين الى افناء معلوماتنا بصورة كبيرة من ما قبل التاريخ السوري ، وتبلى ذلك من خلال المؤتمر الدولي الذي عقد في مدينة ليون بفرنسا بين ١٠ - ١٤ حزيران ١٩٨٠ والذي نشرت دراساته في مؤلف كبير ١٩٨١ بعنوان ما قبل التاريخ في الشرق Préhistoire du Levant, C.N.R.S. Paris 1981 كما ان كل البعثات التي عملت او تعمل في قطرنا تنشر تقارير اولية عن نتائج اعمالها في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية التي تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق ، ونجد في كل اصدار هذه المجلة

تقريباً داسات باللغة الأجنبية ، مع ملخص مترجم للعربية حول مواقع عصور ما قبل التاريخ المنقبة علماً بأن العدد السادس عشر (الجزء الثاني) عام ١٩٦٦ قد خصص كله لما قبل التاريخ.

(١٦) منذ مطلع القرن الحالي استطاع كل من بنك وبروكت

A, Penck et Bruckner , E., 1908 , Die Alpen in Eiszeitalter, Leipzig Tauchnitz,

تحديد أربعة عصور جليدية هي من الأقسام : جينز ، مندل ، ريس ، فيرم : Guns , Mindel, Riss, wurm. أخذت تسمياتها من روافد فرعية لنهر الدانوب في جنوب ألمانيا ، وقادت الأعمال اللاحقة الى تحديد عشرين جليدين آخرين هما دونو Donau الذي سبق جينز ، وبيبر Biber وهو العصر الجليدي الأول والأقدم .

(١٧) لقد تبين بأنه من غير الدقيق علمياً الاستمرار في استخدام التقسيمات والتسميات الأوروبية على مناطق الشرق الأوسط . فقد أثبتت البحوث الأخيرة للجيومورفولوجيين الفرنسيين جال بوازيسون وبول سانلافيل ، أنه كان للتغيرات المناخية الرباعية في هذه المنطقة شكلاً مختلفاً منه في أوروبا لذلك أعطيت العصور المناخية الشرق - أوسطية أسماء محلية مأخوذة من المناطق التي وجدت فيها أفضل أثرها سواء كانت مصاطب نهريّة أم شواطئ بحرية . ونحن نستخدم الترميز والترقيم العالمي لتحديد هذه الآثار فنرمز الى تشكيلات عصر الهولوسين : رادنون صفر (ر ن .) أي رباعي نهري صفر أو راد بـ صفر (ر ب .) ، أي رباعي بحري صفر Quaternary Fluvialite Q₁=QFO , Quaternary Marine O=QMO

وأما تشكيلات إليستوسين فيرمز لها لتأبعا رن ١ ، ر ب ١ ، ر ن ٢ ، ر ب ٢ ، ر ن ٣ ، ر ب ٣ ، ر ن ٤ ، ر ب ٤ وهكذا .

(١٨) لا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيل عملية ظهور الإنسان وتطوره البيولوجي لكننا نشير الى أن الدراسات العميقة في هذا الموضوع قد أظهرت أن الفرع الذي آل الى الإنسان قد تطور على امتداد زمن طويل بدءاً منذ أكثر من عشرين مليون سنة ، وأن الكائن الأول الذي اتفق الباحثون على تسميته بالإنسان Homo هو النوع الذي حمل صفات إنسانية كالقامة المنتصبة وحجم الدماغ الكبير ، وكان قادراً على التفكير والقيام بالعمليات الذهنية التي مكنته من تصنيع الاداة الأولى هذا الكائن يسمى الأسترالوبيثيك أو الهومو هابيل Australopithecus, ou, Homo - Habilis وقد ظهر منذ بداية الرباعي ، تلت ثلاثة أنواع أخرى تتدرج في تطورها الفيزيولوجي والحضاري هي الهومو إركتوس ثم النياندرتال وأخيراً الإنسان العاقل ، الجد المباشر للإنسان الحالي Homo - Erectus, Néandertal. Homo - Sapiens .

(١٩) P. Sanlaville, (ed.) 1979, Quaternaire et Préhistoire du Nahr el Kebir septentrional, les debuts de l'occupation humaine dans la Syrie du Nord et au Levant, C.N.R.S., Paris.

(٢٠) Hours, F. 1980, Paléolithique de la Syrie et du Liban, thèse de Doctorat d'Etat présentée à L'Université de Paris I (Sorbonne).

(٢١) — Clark, D. 1966, «The Middle Acheulian Occupation Site Latamne,

- Northern Syria» A.A.A.S. 16 (2) 1-120 .
- Muhesen, S., 1981 « The Upper Acheulian in Syria» Colloque, (٢٢)
Prehistoire du levant . 185-191, C.N.R.S. Paris .
- (٢٣) نقبت هذا الموقع بعثة سورية - فرنسية مشتركة بإدارة كل من سلطان محيسن وفرنسيس اور ،
وقد نشرت دراسة مفصلة عنه في أوكسفورد أعدتها الباحثة في جامعة ليون الثانية بفرنسا وهي:
— Muhesen, S., 1985, L'Acheuleen Recent Evolué de Syrie B.A.R.
International Series 248, Oxford, England.
- Copeland , L. et Hours , F., 1981 , « La fin de L' Acheuléen et (٢٤)
L'Avènement du Paléolithique Moyen en Syrie » Colloque Préhis-
toire du Levant 225 - 238 C.N.R.S. Paric.
- Hours, F., 1983, Le yabroudien d'el kowm et sa Place le Paléoli- (٢٥)
thique du Levant » Paléorient 9/1 , 21 - 37.
- (٢٦) لم نعر حتى الآن في قطونا على أية هياكل عظمية مباشرة لانسان الهومواركتوس او التياندرتال
واقدم ما وجد من هياكل يعود الى الانسان العاقل وقد اتى من السوية الثانية من تل الربيط
المؤرخة في نهاية الالف التاسع ق.م.
- (٢٧) تعمل في حوض الكوم منذ ١٩٧٨ بعثة فرنسية دائمة بإدارة جاك كوفان ونشر نتائج اعمالها
في مجلة خاصة تسمى الفترات : (Cahiers de L'Euphrate) وقد صدر حتى الآن
منها اربعة اعداد الاول (١٩٧٨) والثاني (١٩٧٩) والثالث (١٩٨٢) والرابع (١٩٨٦) .
- (٢٨) استخدمت لأول مرة طريقة اليورانيوم ثوريوم Ur/Th في تاريخ بعض مواقع الكوم وخاصة
بئر الهمل وام قبيلة وام التلال ونشرت النتائج في تقرير مختصر هو :
- Hennig, G.Y et Hours, F., 1982 « Dates pour Le Passage entre (٢٩)
L' Acheuléen et Le Paléolithique Moyen à el Kowm (Syrie)»
Paléorient. 8/1,81-83/ .
- Hours , F., 1982 « Une nouvelle industrie en Syrie entre (٣٠)
L'Acheuléen Supérieur et le levalloise - moustérien , Archéologie
au levant » Recueil R. Saidah 33-46, Lyon, Maison, de L'Orient.
- (٣٠) فيما يخص التنوع في اثار الباليوليت يسود الان رايان الاول يمثله الاثاريون وعلى راسهم
الفرنسي فرانسوا بورد F.Bordes الذي يعتبر ان تنوع المواقع والاثار يدل على تنوع
الجماعات البشرية وتنوع التقاليد والثقافات ، والراي الذي يمثله الانثروبولوجيون
وهو يرد هذا التنوع الى اختلاف طبيعة النشاط الاقتصادي للناس حسب المناطق
والفصول : انظر :
- Hours, F., 1982, Les Civilisations du Paleolithique , Que Sais-je,
Paris .

(٣١) هناك دلائل من خارج قطرنا (فرنسا واسبانيا) على ان النياندرتال عرف لأول مرة المعتقدات والشعائر الدينية فعبد الدب (الجماجم بخاصة) ودفن موتاه في قبور منتظمة ، وعرف طقوس اكل اللحم البشري (الدماغ) . انظر :

— Leroi - Gouhran, A., 1964, Les Religions de La Préhistoire, Paris

(٣٢) نسبة الى مواقع Levallois بفرنسا . وتعتمد التقنية اللفلوازية على اختيار نواة بيضوية ورقيقة غالبا ، وتحضيرها بشكل جيد قبل طرق شظية واحدة منها ، اما التقنية الموستيرية فهي تستخدم نفس النواة ولكن تستخرج منها اكثر من شظية . وقد استخدمت هاتان التقنيتان من قبل انسان النياندرتال بشكل واسع في الباليوليت الاوسط .

(٣٣) لقد طبقت طرق التاريخ بالفحم المشع في جرف العجلة واعطت تاريخا هو حوالي ٢٠.٠٠٠ سنة ق.م . للطبقة التي تعود الى نهاية الباليوليت الاوسط . كما ارخت السويات الدنيا في كهف الدوارة في حوالي ٧.٠٠٠ سنة . حول جرف العجلة يمكن الرجوع الى :

— Coon, Ch., 1957, The Seven Caves, New York.

— Shroeder, B., 1966 , « The Lithic Material from jerf Ajle » A.A.A.S, 16(2)200-210.

واما كهف الدوارة فلقد نشرت في المرجع التالي :

— Hanihara, K. et T. Akazawa . (edi) 1978, Palaeolithic Site of The Douara Cave and The Palaeogeography of Palmyra Basin in Syria Pant 11 ; Préhistoric Occurence and chronology in Palmyra Basin) University Museum, Bulletin of The University of Tokyo. 16. Tokyo.

(٣٤) — Copeland , L., 1981 « Chronology and Distribution of the Middle Palaeolithic as Known in 1980, in lebanon and Syria » Colloque Préhistoire du levant, 239 - 263 . C.N.R.S.Paris.

(٣٥) ان موضوع اختفاء النياندرتال ، من اوروبا خاصة ، وظهور الانسان العاقل في الشرق الاوسط ، من الامور التي تواجه الباحثين بتعقيداتها وغموضها . ومهما يكن فانه من الواضح الان ان النياندرتال الفلسطيني كان الوحيد الذي تابع تطوره الفيزيولوجي والحضاري نحو الانسان العاقل ، رغم ان هذا الواقع لا يروق للبعض من ذوي الخلفيات العنصرية المرفوضة .

(٣٦) يعتقد ان حضارات الباليوليت الاعلى السوري والليثاني قد اختلفت عن حضارات الباليوليت الاعلى الفلسطيني الذي تميز بكثافة مواقفه . وتعتبر هذه المرحلة من عصور ما قبل التاريخ السوري المرحلة الاكثر غموضا الان . ونأمل ان توضح الدراسات في المستقبل اصل حضارات هذا العصر ، ومن ثم كيفية انتقالها الى العصر الذي تلاه .

(٣٧) حتى منتصف القرن الحالي اعتبرت الشعوب البدائية الحالية التي لا زالت تعيش في اسيا وافريقيا وامريكا كالبوشمن والاسكيمو والهنود الحمر ، موضوعا للمقارنة مع مجتمعات ما قبل التاريخ . ولكن بدا يتضح تدريجيا ان مثل هذا القياس الميكانيكي ليس صحيحا دائما ولا بد من

تطبيق مناهج اخرى مختلفة سعيا وراء معرفة الواقع الحقيقي لمجتمعات ما قبل التاريخ التي قد تكون لها تنظيمات ومعتقدات ومفاهيم مختلفة عن تلك التي نعرفها لدى الشعوب البدائية المعاصرة رغم تقارب المستوى الاقتصادي والاجتماعي بينها .

(٢٨) تجري دراسات متنوعة لراكر النطق في الدماغ والفكين ، في الهياكل العظمية العائدة للبايوليت لتحديد درجة تطور لغة ذلك العصر ، ورغم صعوبة التحقق من هذا الامر فهناك مؤشرات على معرفة النطق منذ بداية العصر الحجري القديم دون ان نستطيع تحديد درجة فني او فقر اللغة ، او اللغات الاولى لذلك الانسان .

(٢٩) نسبة الى موقع مادلين Madeleine في جنوب فرنسا ، وقد عاشت بين ١٥-١٠ آلاف سنة ق.م واشتهرت بفنونها الرائعة .

(٣٠) انظر كتاب جاك كوفان عن نشوء القرى الاولى في سورية وفلسطين في المرجع التالي :
J. Cauvin, 1978, Les Premiers villages de Syrie - Palestine de IXme au VIIme millenaire av.J.C., Lyon.

(٣١) نسبة الى مفارة الكبارة على الساحل الفلسطيني (جبال الكرمل) وهي نقالة ميزوليتية انتشرت على مساحة واسعة من فلسطين جنوبا وحتى الفسرات شمالا وتميزت بالبناء والفنون الاولى خاصة .

(٣٢) نسبة الى وادي النطوف في فلسطين . تميزت الحضارة النطوفية بابتكارات جديدة : البناء ، الفن ، الادوات الزراعية ، الادوات العظمية ، المقابر .. الخ وقد مر زمن القصر فيه وجود هذه الابتكارات على فلسطين مما جعل البعض يعتقد ان النطوفي هو حضارة فلسطينية بعثة ، ولكن المكتشفات الاخيرة من المربط وابو هريرة في حوض الفرات السوري اثبت ان النطوفيين قد عاشوا في سورية ايضا ، وقد انتشر هؤلاء على منطقة واسعة امتدت من دلتا النيل في الغرب وحتى الفرات في الشرق . وما استمرار البعض في رفض الاعتراف بالنطوفي خارج فلسطين الا تعصب وعنصرية لا تفرهما الاوساط العلمية . وقد وصف جاك كوفان موقف هؤلاء بالعنصرية الثقافية . انظر المرجع رقم ٤٠ ص ١١ .

(٣٣) يميز الباحثون وعلى راسهم الامريكي المان سرفيس E. Service اربع مراحل اجتماعية ، تطورية المرحلة الاولى ، الجماعة Band وهي تمثل العلاقات الاجتماعية في عصر الصيد واللقط اي البايوليت ، وجزئيا الميزوليت ، تلتها مرحلة القبيلة Tribe التي تميز مجتمعات الزراعة في العصر الحجري الحديث ، ثم مرحلة الرئاسة Chiefdom التي عرفت بها المجتمعات الزراعية المتطورة ، واخيرا مرحلة الدولة State التي نشأت مع المجتمعات التاريخية المبكرة في الالف الثالث ق.م . (عصر البرونز القديم) انظر :

— Redman, Ch., L., 1948, The Rise of Civilization from Early Farmers to Urban Society in The Ancient Near East, San Francisco.

(٣٤) يقسم الباحثون العصر الحجري الحديث (النيوليت) في الشرق الاوسط الى قسمين لكل منهما مميزات ، الاول النيوليت ما قبل الفخار Pre - Pottery Neolithic ويرمز له P.P.N. وهو بدوره قسمان : ما قبل الفخار ١ P.P.N.A ويؤرخ من نحو ٨٢٠٠ - ٧٦٠٠ ق.م . يليه ما قبل الفخار ب P.P.N.B ويؤرخ على ٧٦٠٠ - ٦٠٠٠ سنة ق.م . واما القسم الثاني فهو النيوليت Pottery Neolithic ويؤرخ من نحو ٦٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة ق.م تقريبا .

(٤٥) تعتبر الزراعة من اهم ابتكارات انسان النيوليت التي احدثت تحولا جنريا في الواقع الاجتماعي-الاقتصادي حتى ان البعض G.Childe يسمي هذا العصر بالثورة النيوليتية Neolithic Revolution ويشبها بالثورة الصناعية الحديثة . وتختلف الآراء حول اسباب وعوامل نشوء الزراعة فمنهم من يرد ذلك الى التحسن المناخي الذي ساعد على ظهور الحبوب البرية وبالتالي دفع الانسان الى زراعة هذه الحبوب بعد ان توصل الى تقنيات متطورة R. Braidwood ، في حين يعتقد البعض الآخر (سينفورد) ان الزراعة قد نشأت بفعل الضغط السكاني على اطراف المناطق الخصبة التي نمت فيها الحبوب البرية ، ويعالج السيد جاك كوفان هذه القضية على ضوء اكتشافاته في حوض الفرات بسورية في بحث متكامل ، وهو رغم اعترافه باهمية دور البيئة فانه يرد نشوء الزراعة الى عوامل اجتماعية - فكرية دفعت الناس الى تنظيم اقتصادهم بشكل افضل : المراجع رقم ٤٠ و ٤٣ اضافة الى التالي:
— Childe , V.G., 1952, New Light On The Most Ancient East, New York .

— Mellart, J., 1975, The Néolithique of The Middle East, London.

— Cauvin, J., 1972, Religions néolithiques de Syrie - Palestine, Paris (٤٦)

— Akkermans, P.A. et Fokken, H., Waterbolk, H.T. 1981, Stratigraphy, Architecture and Lay-out of Bougras » colloque Préhistoire du Levant, 485 - 501 , C.N.R.S. Paris. (٤٧)

(٤٨) هي ما تسمى بالآواني البيضاء ، Vaisselles Blanches التي صنعت من الحوار او الحجر الكلسي الابيض بعد حرقه ومزجه وقد سبقت الآواني الفخارية بحوالي قرنين من الزمن ، وعثر عليها في العديد من القرى النيوليتية السورية والفلسطينية .

(٤٩) عثر في السوية الثالثة من المربط المؤرخة على النصف الاول من الالف الثامن ق.م. على بضع اوان فخارية صغيرة وهي تمثل اقدم فخار عرف في منطقتنا حتى الان لكن هذا الابتكار (الطفرة) لم يستمر لاسباب نجهلها ولم تعاود المنطقة تصنيع الفخار الا في مطلع الالف السادس ق.م.

(٥٠) منذ الثلاثينات من هذا القرن قام المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو برئاسة روبرت بريدود بدراسة شاملة لمنطقة سهل العمق وتم تتبع تطور تصنيع الآواني الفخارية بدءا من العصر الحجري الحديث وحتى العصور التاريخية البيزنطية عبر مواقع مدينة أهمها تل الجديدة ، وتل عطشانة وتل طورلو وتل كردو ، وغيرها ، واصبح التطور الستراتغرافي للفخار العمق النموذج الذي يقاس عليه فخار بقية المناطق حتى الان . وقد نشرت عدة دراسات من هذا الموضوع اكثرها تكاملا هي:

The Excavation in the plain of Antioch

من منشورات جامعة شيكاغو المعهد الشرقي العدد ٦١ عام ١٩٦٠ تأليف روبرت وليندابريدود.
(٥١) نسبة الى موقع تل حلف في الجزيرة السورية العليا قرب رأس العين حيث نقب الالماني ماكس فون اوبنهايم Max Von Oppenheim منذ مطلع القرن الحالي وكشف السويات الحلقية العائدة للالفين السادس والخامس ق.م . تحت انقاض مملكة جوزن الآرامية التي قامت في هذه المنطقة في بداية الالف الاول ق.م .

(٥٢) يعاصر الفخار الحلقى السوري فخار العمق (المرحلة د.س) المعروف من غرب سورية .

- (٥٣) اطلق على هذا النوع الاسم اليوناني tholos وهي بيوت تشبه خلايا النحل ، وجدت نماذجها في جزر بحر ايجه في الالف الثاني ق.م ، واما النوع الذي يعود للحضارة الحلفية فقد نشر عليه في مواقع العرجية في العراق وتل يونس وتل طورلو في سورية . وهناك جدال حول طبيعة هذه البيوت اذ يعتقد البعض انها كانت معابد تمارس فيها الشعائر الدينية ، في حين يرى فيها اخرون بيوتا للسكن . (٥٤)

Mallowan, M.E. 1956, Twenty five years of Mesopotamian discovery, The British school of Archaeology in Iraq .

- (٥٥) نسبة الى موقع تل العبيد في جنوب العراق الذي نقب فيه الانكليزي ليونارد وولي في الربع الاول من هذا القرن.

- (٥٦) نسبة الى موقع تليلات الفسول في وادي نهر الاردن الذي نقب على فترات متقطعة منذ الثلاثينات من هذا القرن واعطى احد اغني نماذج الحضارات الكالكوليتية في بلاد الشام ، انظر :

Perrot, J., 1968, Préhistoire Palestinienne, Supplément au Dictionnaire de Bible , Paris.

- (٥٧) لهذا العصر تسميات مختلفة مثل : عصر الوركاء ، او فجر التاريخ ، او فجر الكتابة او عصر ما قبل العمران Proto - History, Proto-Literate, Proto - Urban ومهما يكن فهو العصر الانتقالي المباشر بين عصور ما قبل التاريخ وبين العصور التاريخية القديمة ..

- (٥٨) اذت الحملة الاولى وعملية المسح والتنقيب في حوض الفرات بين ١٩٦٢-١٩٧٢ الى اكتشاف ٥٦ موقعا اثريا من مختلف العصور مهددة بالغمر ، جرت في ٢٣ موقع منها تنقيبات انقاذ بمشاركة بعثات وطنية واجنبية مختلفة ، اعطت نتائج بالغة الاهمية تتعلق بتاريخ وحضارة سورية القديمة . وقد تضمن معرض الآثار السورية المتجول نماذج هامة من الار حملة الانقاذ وقد صدر من هذا المعرض حتى الان اربعة كتب (دليل) ترجم منها الدليل الالمانى الى اللغة العربية من قبل الدكتور نايف بلوز ونشرته مؤسسة البريد الدولي للصحافة والنشر في فيينا ١٩٨٥ .

- (٥٩) — Strommenger, E., 1980, Habira Kabira, Eine Stad vor 5000 Jahren, Mainz am Rhein.

- (٦٠) — Finet, A., 1988, « Bilan Provisoire des fouilles belges de Tell Kannas » A.A.S.O.R. 44 .

- (٦١) حتى زمن قريب كان يعتقد بوجود مركز واحد انتشرت منه الكتابة التصويرية هو الوركاء (السوية الرابعة ب) في جنوب العراق ولكن بعد اكتشافات تل براك وتل قناص وعروده اتضح ان سورية ايضا قد عرفت الكتابة الاولى في زمن يعاصر كتابة الوركاء وربما اقدم . انظر دليل الآثار السورية (المراجع رقم ٥٨) والمراجع التالي :

eurdis , J., (ed) 1982, Fifty Years of Mesopotamian Discovery, pp. 62-71, British school of Archaeology in Iraq, London.

- (٦٢) سمي اصطلاحا بمعبد العيون بسبب العثور فيه على مئات الدمى الصغيرة ذات العيون الجاحظة ويعود هذا المعبد الى زمن احدث نسبيا من معابد الفرات الاوسط ، وهو عصر جمدة نصر ، اي نحو مطلع الالف الثالث ق.م. انظر :

- Mallowan, M. E. L., 1947, « Excavation at Brak and Chagar Bazar » Iraq, 9, pp. 1-2 66.

(٦٢) يؤرخ الارشيف الملكي في ابلا بين ٢٣٥٠ - ٢٥٠٠ ق.م . وهي مرحلة ازدهار مملكة ابلا المسماة
تل مردوخ ٢ ب (TM II B)

Abbreviations :

- A.A.A.S : Annales Archéologiques Arabes Syriennes .
مجلة سنوية تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق .
- A.A.S.O.R : The Annual of The American School of The Oriental Research (U ew Haven) .

تنويه :

وقعت بعض اخطاء في طباعة جداول الاحصاءات العائدة لبحث «البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى» والصواب كما يلي :

الصفحة	السطر	الحقل (من الجداول)	الخطا	الصواب
١٧	٢	٦	٧ر٢١	٧ر١٢
٢٠	٤	٦	٢٠ر٤٣	٢٠ر٣٤
٢٢	٧	٤	٢١ر٣٨	٣١ر٣٧
٢٣	٣	٦	٢٣ر٢٢	٣٣ر٢٢
٢٣	٦	٤	٨ر١١	٤٠ر٠٩
٢٤	١	٤	١٠ر٤٠	١٠ر٤٢
٢٥	٣	٤	١٨ر٧٨	١٧ر٧٨
٢٥	٤	٢	٣ر٣٣	٣٣ر٣٣
٢٥	٦	كل الحقول :		

العقود النسبة القراريط النسبة الاثمان النسبة

١٢ ١٠٠ر٠٠ ١٣٥ ١٠٠ر٠٠ ١٧٠ر٢٨ ١٠٠ر٠٠

٣٥ ٦ ٥ ١١٤ر٦٩ ١١٤ر٧٤

السطر الذي يبدأ بكلمة الوسطاني في العينة الخامسة زائد .

السطر قبل الاخير : الخطا : الثالثة والرابعة : الصواب ، الرابعة والخامسة

الحاشية ١٠ ، Thauimin ، الصواب Thoumin

الحاشية ٩٨ ، السطر ١١ صوابه كما يلي : العثمانية بموجب العلم والخبر

من بطريق خاتة الكتوك المحفوظ بالمجلس (اي مجلس محكمة

السطر ١٣ من الحاشية : فاضي ، الصواب قاضي

دراسات تاريخية ، ٢٥ و ٢٦

١ و ٢ ، ١٩٨٧

حركة تدوين الانساب في العصر العباسي الاول

مريم محمد خير الدرع
مرشحة للماجستير

نشطت في العصر العباسي الاول حركة التدوين عند المسلمين وازدهرت ، وذلك لاسباب عديدة ، منها ان الاسلام منذ البداية حض المسلمين على العلم ودفعهم الى البحث عن المعرفة ، فتعمق حب التعلم لديهم ونمت الرغبة العلمية في نفوسهم ، فأصبح حرص الافراد شديدا على معرفة تاريخ امتهم وامجادها وسير ابطالها والوقوف على اخبارها ، بالاضافة الى اهتمامهم بما لدى الامم التي فتحو بلادها من ثقافات متباينة نقلوها عن طريق ترجمة مؤلفات الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وغيرها. ونشأت طائفة من العلماء والادباء الذين نوعوا معارفهم تنوعا واسعا ونهلوا من مختلف ألوان المعرفة ، وانتشرت حلقات العلم في المساجد الموزعة وبكثرة في اصقاع (١) بلاد الاسلام المختلفة ، وأصبح مبدأ الرحلة في طلب العلم أمرا لازما وواجبا لكل طالب آنذاك .

وكان لتشجيع الخلفاء والوزراء ورعايتهم العلماء والانعام عليهم بالعطايا والهدايا، الاثر الكبير ايضا في تقدم حركة التأليف والتصنيف . فمثلا ، كان الخليفة المهدي مقصدا العلماء يشدون اليه الرحال من كل بلدة (٢) ، وذكر من تكريم الخليفة هارون الرشيد العلماء انه وصل الاصمعي بخمسمائة ألف درهم (٣) ، والخليفة المأمون كان كالغيث المنهمر على أهل العلم اذ قيل انه اعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميرا بمرور خمسين ألف درهم ، وكان كل من يترجم كتابا في عهده يأخذ وزنه ذهبا (٤) .

ولم يكن هذا حال الخلفاء وحدهم بل نافسهم في ذلك الوزراء كالبرامكة الذين بالغوا في رعاية العلماء والاتفاق عليهم ، فقد روي ان جعفر البرمكي وصل الاصمعي ايضا بخمسمائة ألف درهم (٥) ، وكذلك كان حال القواد ، فقد وصل طاهر بن الحسين القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين الفا ، وأجرى عليه ابنه عبد الله بن طاهر عشرة آلاف درهم كل شهر (٦) .

ولم يقتصر تشجيع الخلفاء والحكام للعلماء على العطايا بل اهتموا ايضا بإنشاء المكتبات ودور العلم وأمنوا لوازم كل من يؤمها (٧) . وكان لاستخدام الورق - الذي بدأ ينتشر بشكل واسع بعد ان انشئ له مصنع في بغداد بعهد هارون الرشيد - الاثر الكبير والمساعد على اتساع حركة التدوين ، فقد كان الناس قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة من ورق البردي في مصر (٨) .

وشجعت كل هذه العوامل وساعدت على وضع اسس التصنيف والتأليف لكل علم من العلوم ففي « هذا العصر وضعت في اللغة العربية اسس كل العلوم - تقريبا - فقل ان نرى علما اسلاميا نشأ بعد ولم يكن قد وضع اساس له في العصر العباسي ، فقد وضع تفسير القرآن وجمع الحديث ووضعت علومه ، ووضع علم النحو والف فيه سيويه كتابه الخالد ، ووضعت كتب اللغة ورسم خطها الخليل بن احمد ، كما وضع العروض ، ودونت اشعار العرب في المعلقة التي دونها حماد الرواية والمفضليات التي دونها المفضل الضبي ، والاصمعيات التي دونها الاصمعي ، ووضع الجاحظ اساس الكتب الادبية ، وحذا حذوه ابن قتيبة والمبرد وغيرهما ، ودون الفقه على يد الائمة وتلاميذهم ، ودون السيرة ابن اسحق ، والتاريخ الواقدي وامثالهما . . » (٩) .

الا ان حركة التدوين هذه التي ازدهرت في ذلك العصر لم تكن وليدة الصدفة او نتيجة ظروف غير طبيعية ، وانما كانت المرحلة الاخيرة من المراحل التي مر بها التدوين عبر مسيرته الزمنية الطويلة التي انتقلت فيها مادة كل علم من الرواية الشفوية الى التدوين المبسط وغير المرتب في مواضيع متفرقة ، الى مرحلة التصنيف المرتب الجامع الشامل لما سبق ان روي ودون ، وكل هذه العلوم الاسلامية التي اعطت في العصر العباسي الاول بواكير انتاجها الثقافي ، وعلم الانساب واحد منها ، مرت بمراحل ثلاث :

- مرحلة الرواية الشفوية والتدوين البدائي الذي كان بدافع من اهتمام شخصي وضرورة اجتماعية ، واتسم بطابع العفوية والفضول العلمي . وقد امتدت حتى مطلع القرن الثاني الهجري (١٠) ، فدونت بعض الانساب اتفاقا من افواه روايتها وبأقلام من اهتموا بها من هذه القبيلة او تلك كما فعل الفقعي الذي كتب مآثر بني اسد (١١) .

والى تلك الفترة تعود المحاولات الاولى للانتقال بعلم الانساب من حالة الرواية الشفوية الى المعرفة الكتابية ، وبروز الصحف والمدونات التي سجلت لمساعدة الذاكرة .

ثم تأتي المرحلة الثانية التي امتدت على القرن الثاني كله تقريبا وفيها كان التدوين والاهتمام موجهما الى جمع المادة من افواه الرواة وترتيب كل موضوع فيها على حدة في كتاب خاص يحمل عنوانا منفردا ، فكتب النسابون انساب القبائل كافة ولكن في كتب منفصلة ايضا وفي محاولة لاستقصائها جميعها وتدوينها (١٢) . ومن أهم هؤلاء محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ الذي قام بدراسات في الانساب والاخبار ، وتشير دراساته هذه الى محاولة لجمع الروايات القبلية معتمدا كما قال على افضل نسبة في كل قبيلة مصنفا انساب كل قبيلة على حدة . وبالرغم من ان ابنه هشاما قد كتب (النسب الكبير) جأما فيه كل الانساب الا انه افرد داخل الكتاب مجموعة من الكتب للانساب مفردة مستفيدا مما جمعه والده من روايات في هذا المجال ، ومن هذه الكتب : نسب قريش ، ولد العباس ، نسب بني عبد شمس ، كتاب بني محارب وغيرها (١٣) .

ومن كتب على هذا النسق نفسه ابو اليقظان النسابة المتوفى ١٩٠ هـ وله كتاب اخبار تميم وكتاب خندف واخبارها (١٤) ، ولم يصلنا من اثره الا مقتطفات في كتب تالية ولكنها تمثل مرحلة جمع الانساب من الروايات القبلية بالدرجة الاولى ، فابو اليقظان النسابة واحد من نسابي القرن الثاني الهجري الذي عنوا بانساب اكثر من قبيلة في فترة جمع الروايات . وكتب على الطريقة نفسها ايضا عبد الرحمن بن عبدة حيث نقرأ في ثبته كتاب نسب بني فقعس ، كتاب نسب كنانة ، اشراف بكر وتغلب ، نسب ولد ابي صفرة (١٥) .

اما المرحلة الثالثة للتدوين فكانت على اساس جمع المواد والموضوعات في كتاب واحد مع مراعاة وحدة التسلسل الزمني . ويعود ذلك الى تعمق مفهوم وحدة تاريخ البشرية من خلال سلسلة الانبياء ووحدة التاريخ الاسلامي في نفوس المؤلفين والمصنفين وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري (١٦) حيث استقرت وتوطدت حركة التدوين وتم وضع الاصول والقواعد الاساسية لتصنيف كل علم من العلوم وخاصة الانساب ، الذي بلغ غاية التطور والنضج على يد البلاذري المتوفى ٢٧٩ هـ في كتابه المعروف « انساب الاشراف » .

وقد اورد الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » نصا هاما حدد فيه السنة التي بدا فيها تدوين العلوم العربية والاسلامية بأنها سنة ١٤٣ هـ ، وقد نقل عنه ابن تغري بردي والسيوطي هذا النص واورداه في كتبهما ، اذ يقول : « في سنة ثلاث واربعين ومائة شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فصنف ابن

جريح بمكة ، ومالك بن انس الموطأ بالمدينة ، والاوزاعي بالشام ، وابن ابي عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعر باليمن ، وسفيان بالكوفة ، وصنف ابن اسحق المغازي ، وصنف ابو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي . ثم بعد يسير صنف هشيم والليث بن سعد وابن لهيعة ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب . . . وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة « (١٧) » . ولدى مطالعة هذا النص نستخلص منه أموراً هامة وحقائق عديدة تتعلق بنشأة العلوم الإسلامية وأول هذه الأمور هو تعيين أواسط القرن الثاني الهجري وبالتحديد ١٤٣ هـ كبدية للانتقال من مرحلة التسجيل « غير المرتب » للعلوم إلى مرحلة التصنيف المبوب والمتخصص لكل فرع من العلوم الإسلامية ، وازدهار حركة التدوين في مختلف البقاع الإسلامية في آن واحد .

ونستنتج أيضاً أمرين هامين أولهما التأكيد على أن تدوين وتسجيل العلوم كان موجوداً ومعروفاً قبل هذا التاريخ في قوله « قبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة » . وهذا ما يؤكد على أن التدوين والتصنيف لم يبدأ في العصر العباسي حسبما ظن بعض الدارسين الذين هدفوا إلى جعل قضية الثقافة والتأليف عند العرب كأنها فرع من الثقافة الفارسية وليست عربية المنبع ، فالتدوين كان موجوداً عند العرب منذ العهد الإسلامي الباكر ، فقد ورد ذكر أسماء لعدة مدونات كانت موجودة في الصدر الأول للإسلام (١٨) . إلا أن عامل الضياع الذي تعرضت له الكتب التي دونت في هذا العصر المبكر ساعد على جعل صورة التدوين الأولى عند العرب غير واضحة المعالم لكنها ثابتة في الأصول التي وصلت إلينا ، فهي تحوي العديد من النصوص المنقولة عن المدونين الأوائل ، ولكن ذلك بقي في نطاق محدود ، وموجة التأليف التي تقدمت في عهد العباسيين لم تكن إلا الحصاد لما بذر سابقاً والثمار لغراس ثابتة الجذور ، وهذه سنة النشوء يبدأ الشيء صغيراً ثم يتدرج مع الأيام نمواً ، وكلما مرت الأيام كانت خطوات التقدم أوسع من ذي قبل .

أما الأمر الثاني الهام الذي نستنتجه من نص الذهبي فهو أنه لم يذكر علم الأنساب كعلم مستقل في موضوعه بين العلوم التي ذكرها كالحديث والفقه والتفسير والعربية والتاريخ وأيام الناس مما يدل على أن علم الأنساب ، حتى ذلك التاريخ ، كان مرتبطاً بعلوم أخرى بصلة وثيقة مثل علم السيرة والمغازي ، إذ نلاحظ لدى مراجعة الكتب التي صنفت في موضوعها أنه ما من كتاب ألف في هذا المجال إلا وكان فيه فصل خاص للحديث عن أنساب القبائل العربية وخاصة قريش وبالتحديد بني هاشم ، إذ إليهم يرجع نسب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (١٩) . وارتبط علم النسب أيضاً ارتباطاً وثيقاً بكتابة التاريخ وأيام الناس والأخبار ، وغالباً ما كان

النسابة يعرف بأنه عالم بالاخبار وایام العرب والاشعار مثل الشرقي بن القطامي ودغفل السدوسي الدهلي وزهير بن ميمون القرقي، وكثيرا ما كان الاخباري يوصف بالنسابة مثل هوانة بن الحكم والمدائني، ونلاحظ اقتران الانساب بالاخبار كذلك في اسماء الكتب التي ورد ذكرها في المصادر، فقد ذكر النديم لخراش بن اسماعيل الشيباني شيخ محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ عنوانه « كتاب اخبار ربيعة وانسابها » (٢٠) وكتاب « نسب خندف واخبارها لابي اليقظان النسابة » (٢١) وايضا « كتاب الاخبار والانساب والسير » لابي العباس بن سلام المكاولي (٢٢)، وكتاب « الانساب والاخبار » لابي الحسن النسابة (٢٣).

وربما كان الطابع المزدوج لهذه الكتب السبب الرئيسي الذي دفع اسحق الموصلي الى ان يصف « كتاب الانساب » الذي ألفه صديقه الزبير بن بكار بأنه « كتاب الاخبار » (٢٤). ونلاحظ ايضا ان الكتب التي تحدثت عن اخبار اليمن ذكرت الى جانبها انساب القبائل فيها، مثل الكتب التي دونت عن روايات عبيد بن شريفة الجرهمي ووهب بن منبه ودغفل النسابة. وبناء على ذلك نجد ان علم الانساب قد تأثر تأثيرا كبيرا بالمدارس التاريخية التي برزت آنذاك، وباتجاهات كل منها، لذلك يتوجب علينا ان نتابع اثر كل مدرسة من هذه المدارس في علم الانساب وتطوره مثل مدرسة المدينة والشام ومدرسة العراق ومدرسة اليمن.

مدرسة المدينة والشام :

لما كانت المدينة المركز الجغرافي الهام في عصر الرسالة منها انتشر الاسلام وفيها توطن الرسول والصحابة الكبار، فقد اقتصت عاصمة الرسول والخلفاء الراشدين بجمع احاديث الرسول والكتابة في المغازي والسير ونشأت فيها مدرسة قوية الاركان عملها رواية وتسجيل كل ما يتعلق بذلك من احداث. وعندما انتقلت الخلافة مع بني امية الى الشام استقدم الخلفاء العارفين بأمر السيرة واحداثها والفتوح واخبارها، والقبائل وعلاقاتها وانسابها واخبار العرب في الجاهلية، فتجمع في الشام من يروي للامويين كل ذلك، وكانت مدرسة الشام وسطا في هذه المواد بين المدرستين المدنية والعراقية، اذ اهتمت بعدة موضوعات ولم تتوقف عند جزء منها كالسيرة والمغازي فقط، او التاريخ الجاهلي، او الانساب، بل اهتمت بكل هذه المواد معا (٢٥).

اول من يمثل هذه المدرسة الامام الزهري (ت ١٢٤ هـ) وكانت له منزلته الكبيرة كمحدث وفقه ومؤرخ، وقد لخص الطبري دور الزهري كعالم بقوله : « كان محمد بن مسلم الزهري مقدما في العلم بمغازي رسول الله (ص) واخبار قريش والانصار، راوية لاخبار الرسول صلى الله عليه وسلم » (٢٦). ولم يصل إلينا من « مغازي » الزهري الا مقتطفات جمعت في كتاب « المغازي النبوية » وهو يحوي اخبارا متفرقة عن سيرة الرسول (ص) ومغازيه، بالاضافة لبعض اخبار الخلفاء

الراشدين (٢٧) . كما وردت أيضا قطع منه في سيرة ابن اسحق والواقدي والطبري والبلاذري وابن سيد الناس .

كان الزهري اول من اعطى اطارا واضحا للسيرة ورسم خطوطها بجلاء واقرنت تلك الخطة بذكر نسب الرسول (ص) في بداية الحديث عن السيرة النبوية دائما ، وعلى هذا المنهج سار ابن اسحق وابن هشام وغيرهما ممن كتب في السيرة .

ولم يكن الزهري محدثا وفقهيا ومؤرخا فقط بل كان عالما بالانساب ايضا(٢٨) . وقد سألته خالد القسري ان يكتب انساب العرب فبدأ بانساب مضر ولكنه لم يتم ذلك(٢٩) . واخذ عنه مصعب الزبيري في كتابه « نسب قريش »(٣٠) ، وهذا يعزز قول قره بن عبدالرحمن بأنه كتب كتابا في نسب قومه (اي قريش) (٣١) .

واذا كان الزهري قد اجاد في مجال التصنيف بالانساب فهذا ليس بغريب ، فقد انصرف في مطلع حياته العلمية الى دراسة الانساب ، ولنستمع اليه يحدثنا عن ذلك بقوله : « نشأت وأنا غلام لا مال لي ، منقطعا في الديوان وكنت اتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صفيح العدوي ، وكان عالما بنسب قومي »(٣٢) وتابع الزهري تحصيله العلمي للانساب شأنه في ذلك شأن كل عالم وفقه في ذلك العصر . وكان من ابرز تلاميذه الذي قرن السيرة بالانساب ايضا ابن اسحق المتوفى ١٥١ هـ الذي وسع حدود العلم الاول من اهل الكتاب ، ولم يدقق كثيرا في مصادر الاخبار والانساب . لذلك قال عنه ياقوت الحموي انه اخطأ في كثير من النسب الذي اورده في كتابه(٣٣) .

ومن علماء هذه المدرسة ايضا الضحاك بن عثمان بن الضحاك القرشي ، علامة المدينة المنورة المتضلع باخبار العرب وأيامها وانسابها . كان من اصحاب مالك عينه هارون الرشيد واليا على المدينة وتوفي بمكة ١٨٠ هـ ، لا تعرف اسماء كتبه ولكن توجد نقول عنه في كتب الواقدي والطبري وابن سعد وفي كتاب الاغانى ايضا(٣٤) .

ابو البخثري (ت ٢٠٠ هـ) ، وهو ابو البخثري وهب بن وهب بن كبير ، قرشي ولد في المدينة كان محدثا ضعيفا لكنه كان من العالمين بالانساب والاخبار ، تولى قضاء المدينة في عهد الخليفة هارون الرشيد (٣٥) ، وذكر له صاحب الفهرست الكتب التالية:

كتاب صفة النبي ، كتاب فضائل الانصار ، كتاب الفضائل الكبير ، كتاب نسب ولد اسماعيل ، كتاب طسم وجديس ، كتاب الرايات(٣٦) .

العقيقي (ت ٢٧٧ هـ) ، وهو ابو الحسن يحيى بن الحسن بن جعفر الخجعة

العقيقي ، أصله من المدينة ومولده بها ١٤ ٢ هـ ، ألف عددا من الكتب منها : كتاب اخبار المدينة وكتاب نسب آل أبي طالب . وقد افاد الاصبهاني في كتابه مقاتل الطالبين من كتاب العقيقي الاخير . وقد ذكر فؤاد سزكين اماكن وجود مخطوطات هذا الكتاب وما نقل منه (٣٧) .

مدرسة العراق :

من اشهر مراكزها الثقافية البصرة والكوفة اللتان تميزتا بدراسة الاحداث الاسلامية والانساب خاصة ، نتيجة لطبيعة الصراع الحزبي والاقليمي والقبلي والشعوبي الذي ساد في فترة صدر الاسلام . ففي القرن الثاني للهجرة نسمع بوجود شيوخ ورواة متضلعين بانساب قبائلهم ومآثرها ، وبوجود كتب تحوي انسابا وشعرا واخبارا لبعض القبائل ، ومن المحتمل ان هذه الكتب كانت قد جمعت من قبل بعض الرواة ولكنها كانت تعتبر ملكا مشتركا للقبيلة فالشاعر الطرماح المتوفى ١٠٥ هـ يشير الى كتاب تميم ، وحماد الرواية المتوفى ١٥٦ هـ كانت لديه كتب قريش وثقيف (٣٨) وعن هؤلاء وامثالهم من الرواة ومن هذه الكتب توفرت مادة هامة افاد منها اخباريون ونسابون علماء خلفوا في منتصف القرن الثاني الهجري مؤلفات وثروة من الروايات المدونة . وكانت تلك الفترة فترة علماء رواد في مختلف الحقول وعلى الاخص في الانساب ، اذ جمعت مواد عن الانساب العربية من رواة القبائل ومن كتبها بالدرجة الاولى حيث استعان هؤلاء العلماء بالكتابة لحفظ بعض انتاجهم . وفي هذه الفترة نرى تحول اهتمام النسابين من حدود القبيلة الواحدة في تصنيفهم الى القبائل العربية بشكل عام اذ اصبحت الامة لا القبيلة محور اهتمامهم ، فاتجهوا الى جمع روايات تتعلق بموضوع واحد ووضعوها بكتاب مفرد ، كما فعل النسابة محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ وابو اليقظان النسابة المتوفى ١٩٠ هـ .

وقد خدم النسابون الدراسات التاريخية باعطاء الانساب مع بعض المعلومات عن حياة الشخصيات (كما عند مصعب الزبيري) وعن اهم الاحداث التاريخية التي شاركوا بها . وكانت الحاجات الاجتماعية والمنازعات القبلية والانقسامات السياسية بين القبائل والمناقشات والصراع الثقافي مع الشعوبية دافعا وحافزا للنسابين على زيادة الاهتمام بهذا العلم والتوسع في دراسته ، وانعكست كل هذه الامور على كتابات المؤلفين وانتاجهم ، فنلاحظ مثلا شيئا من الميل العلويين لدى علي بن محمد المدائني (٣٩) ، وميلا للشعوبية عند أبي عبيدة اللغوي (٤٠) الذي شارك في الكتابة عن مثالب العرب ، وميلا للتعصب للعرب عند خالد بن طليق والاصمعي والجهمي (٤١) وهكذا تنوعت كتب المؤلفين في موضوعاتها بين المفاخر والمآثر والفضائل وبين المثالب واخبار القبائل .

وفي مطلع القرن الثالث الهجري وصلت الانساب الى مرحلة ادت الى ظهور النسابين الكبار الذين رسموا في الكتب التي ألفوها اطار دراسة شملت مختلف جوانب هذا العلم ، اذ تطور اتجاه دراسة الانساب الى اتجاه تاريخي ضمن اطار النسب كما في كتاب (نسب قريش) للزبيري المتوفى ٢٣٦ هـ ، الا ان هشام بن الكلبي قبله قد أوضح خطة الكتابة في هذا العلم وأصوله وقواعده وكل النسابين الذين جاؤوا بعده ، وهم عيال عليه ، قد ساروا على منهجه نفسه . وكان هشام قد بدأ بكتابة انساب الانبياء وقبائل العرب الشمالية والجنوبية بفروعها قبل الاسلام وبعده ، فوضع سجلات نسب لامة بكاملها ، واتجه نحو الافادة من المصادر المكتوبة القديمة والمتداولة في عصره الى جانب الروايات الشفوية . وبذلك يكون هشام ووالده محمد بن السائب الكلبي مدرسة متخصصة في النسب قائمة بذاتها أرست قواعد هذا العلم وأصوله واثرت في اجيال النسابين الذين جاؤوا فيما بعد ، فساروا على نهجها وقواعدها .

ومما سبق ذكره يمكن ان نستنتج عدة ملاحظات هامة عن واقع المدرسة العراقية، اولها ان نوعا من النظرة الكلية كانت تحكم رجال هذه المدرسة ، فقد تجاوز النسابون في اهتمامهم القبيلة الواحدة الى مجموع القبائل (٤٢) ، واصبح محور اهتمام الاخباريين والرواة والنسابين اخبار وانساب الامة لا القبيلة ، وخلق ذلك نوعا بالشعور بالامة الواحدة افقيا ، واكد على استمرارية الوحدة الثقافية بين الماضي والحاضر .

وثانيها ان النسابين لم يقتصروا على رواية قطر معين او قبيلة معينة ، بل جمعوا كل ما وقع تحت ايديهم من معلومات شفوية وسجلات قديمة وكتب مدونة ، وسجلوا المعلومات بشكل مترابط مع التسلسل الزمني .

وثالثها ان النسابين قدموا معلومات تاريخية هامة مع الانساب التي دونوها ، وتوسعوا في معلوماتهم تحت ضغط التيار الشعبي مما أعطى العصبية القبلية واشراف القبائل مادة هامة (٤٣) .

ومن أشهر النسابين في هذه المدرسة خالد بن طليق ، وهو اقدم علماء الانساب في العصر العباسي ، عينه الخليفة المهدي قاضيا على البصرة في عام ١٦٦ هـ . وذكر له النديم الكتب التالية : كتاب المآثر ، كتاب المتزوجات ، كتاب المناقرات ، كتاب البرهان (٤٤) .

ولم يصلنا شيء من هذه الكتب ولكن نقل الطبري عنه في تاريخه مرتين (٤٥) .

وابو اليقظان النسابة (١٩٠هـ) وكان مولى لبني تميم (٤٦) ، واشتهر بعلمه بالانساب والاخبار والمآثر والمثالب ويتميز بانه كان اول من ألف في الانساب عامة نقلا

عن الروايات القبلية وله من الكتب « النسب الكبير » الذي يحتوي على نسب اباد ، وكنانة وأسد وابن خزيمة واليهون بن خزيمة وهذيل بن مدركة وقريش بن طابخة ، وقيس عيلان وربيعة بن نزار وتيم بن مرة ، وله أيضا اخبار تميم وكتاب نسب خندف واخبارها (٤٧). وكل هذه الكتب ضاعت ولا يوجد منها الا مقتطفات متفرقة منقولة في كتب الآخرين الذين أخذوا عنه مثل المدائني والبلاذري وابن خياط والطبري وابن قتيبة (٤٨).

ولقيط المحاربي (ت ١٩٠ هـ) وهو ابو هلال لقيط بن بكير بن النضر المحاربي من اهل الكوفة ، كان عالما بالنساب واخبار العرب وأشعارها ذكر له النديم من كتبه كتاب النساء ، كتاب الحراب واللصوص . توجد مقتبسات عنه في كتاب الاغانى للاصفهاني وفي معجم الادباء لياقوت الحموي (٤٩) .

وعبد الرحمن بن عبيدة : من النسابين الثقة حسن المعرفة بالمآثر وأيام العرب ألف على مثال ابن الكلبي كتاب « النسب الكبير » ويحوي انساب القبائل ، وله أيضا احد عشر كتابا آخر في الانساب المختلفة ذكرها النديم بالتفصيل ، وهي كتاب مختصر اسماء القبائل وكتاب الكافي في النسب وكتاب مناقح آل المهلب وكتاب نسب المهلب بن أبي صفرة وولده وكتاب معد بن عدنان وقحطان وكتاب مناقب قريش ، كتاب نسب بني ققعس بن طريف بن اسد بن خزيمة وكتاب أبي جعفر المنصور وكتاب اشراف بكر وتغلب وفرسانهم وأيامهم وأحلافهم ومناقبهم (٥٠) .

ومؤرخ بن عمرو السدوسي (ت ١٩٥ هـ) ولد في البصرة وينتهي نسبه الى بني سدوس ابن شيبان ، من شيوخه الخليل بن احمد وأبي زيد الانصاري (٥١) ، كان معاصرا لجماد بن سلمة والنضر بن شميل وسيبويه واليزيدي وغيرهم ، جمع بين اللغة والشعر والنحو والانساب وألف الكتب في كل موضوع منها ، أما كتابه الشهير في النسب فهو « حذف من نسب قريش » والحذف يعني القطع من الطرف ، أراد فيه ان يتكلم عن نسب قريش من اطرافه فأوجز ولم يستوعبه كله مفصلا قال عنه ابن خلكان « اختصر نسب قريش في مجلد لطيف سماه حذف من نسب قريش » ويعتبر هذا الكتاب أقدم مؤلف وصل إلينا عما صنف في الانساب عند العرب (٥٢) .

وعمار بن القداح (ت ٢٠٠ هـ) : وهو ابو محمد عبد الله بن محمد بن عمار بن القداح الانصاري النسابة ، أصله من المدينة ، استقر في بغداد وكان من كبار علماء النسب في عصره ، من تلاميذه مصعب الزبيري وابن سعد وعمر بن شبة ، ومن أشهر كتبه كتاب « نسب الانصار » ، نقل عنه ابن سعد في طبقاته ، وابن حجر في كتابه الاصابة والطبري في تاريخه (٥٣) .

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) وهو ابو المنذر هشام بن محمد

ابن السائب الكلبي ، كان عالما بالنسب واخبار العرب وايامها ومثالبها ووقائعها ورث الاهتمام بتاريخ العرب القديم والانساب عن والده محمد الذي كان من علماء الكوفة المشهورين ، غزير العلم بالانساب يتلقاها ممن عرفها من أهلها كما ورد في قول النديم عنه انه اخذ نسب قريش عن ابي صالح واخذه ابو صالح عن عقيل بن ابي طالب ، واخذ نسب كنده عن ابي الكناس الكندي ، واخذ نسب معد بن عدنان عن النخار بن اوس العدواني . الخ (٥٤) .

اعتمد هشام بالدرجة الاولى على ما ألفه والده او رواه في الانساب ، اما فيما كتبه عن تاريخ الفرس فقد اعتمد على الكتب المترجمة عن الفارسية على النحو الذي كان معروفا في عصره ، وعند كتابته عن تاريخ الامويين استخدم كتب كثيرة منها ما ألفه عوانة بن الحكم وكذلك استفاد من نقوش كنائس الحيرة للتعرف على تاريخ اللخمين (٥٥) ، وكان هذا المنهج غير المألوف في البحث آنذاك سببا في اثاره التهم وتوجيه المطاعن اليه من قبل معاصريه ، فاتهم بالوضع وقال فيه احمد بن حنبل « من يحدث عنه ؟ انما هو صاحب نسب وسمر ، ما ظننت ان احدا يحدث عنه » (٥٦) . وقال فيه صاحب الاغانى بعد ان نقل عنه اخبارا عن دريد بن الصمة « هذه الاخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها والتوليد بين فيها ، وفي اسفاره وما رأيت شيئا منها في ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات وهذا من اكاذيب ابن الكلبي ، وانما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه » (٥٧) .

اما في مجال الانساب فكان عالما متخصصا لا يشق له غبار في ميدانه ومكانته كواسطة العقد بالنسبة للنسابين ، وكل الذين جاؤوا بعده عبال عليه ، ومؤلفاته خير دليل على مقدرته العظيمة ، وعندما ذكرها النديم قسمها الى اقسام حسب موضوعاتها : كتب في الاحلاف وكتب في المآثر والبيوتات والمفاخر ، والموعدات ، وكتب في اخبار الاوائل وكتب في اخبار البلدان ، وكتب في اخبار الشعراء وايام العرب ، وفي الاخبار والاسمار ، وكتب في نسب اليمن وفي انساب اخرى ، وكتب في موضوعات شتى ، ويبلغ عدد الكتب التي عدها له مائة واربعين كتابا (٥٨) ، وصلنا نقول عنها في كتب مشهورة مثل الطبري ، ومعجمي ياقوت الحموي ، وكتاب شرح الانباري للمفضليات وكتاب الاغانى والعقد الفريد وغيرها من الكتب التي اخذت عن مؤلفات ابي المنذر . اما كتبه التي وصلت اليها فهي : كتاب نسب فحول الخيل في الجاهلية ، وكتاب الاصنام اللذان طبعا في مصر . واشهر كتبه في النسب (الجمهرة) تم تحقيقه مؤخرا في دمشق من قبل محمود فردوس العظم ، ويعد مصدرا هاما للنسابين آنذاك ، ولا يزال هاما ، وقد نقل عنه البلاذري اكثر مادته في كتابه عن الانساب (٥٩) ، وكان ايضا مصدرا للهمداني نسبة اليمن الشهير في كتابه « الاكليل » الا انه اعتبره ناقصا في انساب قبائل اليمن (٦٠) .

وهناك من العلماء من لم يكتف بالنقل عنه بل تناول هذا الكتاب باختصار والتهذيب ، وقد ذكر سزكين في كتابه « تاريخ التراث العربي » هذه المختصرات :
المقتضب في كتاب جمهرة النسب لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . ومختصر
قال سزكين انه من تأليف المبارك بن ابي بكر بن احمد ابن الشعار الموصلية المتوفى
٦٥٤ هـ . ومختصر اعده مجهول في مكتبة جامعة برنستون (٢٤٨٨) اعاد كاسكل
ترتيبه وقدم له وعلق عليه وسماه جمهرة النسب (٦١) .

وذكر بروكلمان في كتابه « تاريخ الادب العربي » ان الجزء الاول من هذا الكتاب
موجود في المتحف البريطاني وذكر ان كرتكو قال : ان هذه النسخة هي من تأليف ابن
الكلبي بتنقيح محمد بن حبيب مع زيادات له (٦٢) .

والفقيه اللغوي القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ ، كتاب في النسب اعتمد فيه
ايضا على مؤلف هشام بن الكلبي ، لا بل تناوله بالتلخيص والاختصار والتهذيب ، فقد
جاء على الصفحة الاولى من مخطوطة كتابه مايلي : « قال ابو سعيد : دفع الينا
ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد السكري كتابا ذكر انه اصل علي بن عبد
العزيز البغوي ، وخطيده ، فنظرنا فيه فاذا هو جمهرة الانساب لهشام بن محمد
الكلبي ، واذا على ظهره بخط علي بن عبد العزيز : كتاب النسب ، وذكر من في الجماهر
من تسمية الصحابة والتابعين والشعراء في الجاهلية مما ألفه ابو عبيد القاسم بن سلام ،
وعرضه عليه : علي بن المغيرة ابو الحسن الاثرم ونسخته من نسخة الاثرم فنسب
تأليف هذا الكتاب الى ابي عبيد » (٦٣) . وكتاب جمهرة النسب لهشام في الانساب
هو نفسه كتاب « النسب الكبير » (٦٤) الذي ذكره النديم ويحتوي على نسب مضر ،
كنانة ابن خزيمة ، اسد بن خزيمة ، هذيل بن زيد ، مناة بن تيم ، تيم الرياب عكل ،
عدي ، ثور ، اطحل ، مزينة ضبه ، قيس عيلان ، غطفان ، باهلة ، غنى ،
سليم ، عامر بن صعصعة ، مرة بن صعصعة ، الحارث بن ربيعة ، نضر بن معاوية ،
سعد بن بكر ، ثقيف ، محارب بن خصفة ، فهم ، عدوان ربيعة بن عامر ، اياد ،
عك وعكى ، ثم يعدد قبائل اليمن قبيلة قبيلة الى ان ينتهي الى جهينة وفهد
ابن زيد (٦٥) .

كما اورد في النسب الكبير ايضا كتبا لانساب مفردة مثل كتاب نسب قريش
وكتاب نسب معد بن عدنان وكتاب نسب ولد العباس كتاب نسب آل ابي طالب
وكتاب نسب بني عبد شمس بن عبد مناف وكتاب بني نوفل بن عبد مناف وكتاب
اسد بن عبد العزى بن قصي وكتاب نسب بني عبد الدار بن قصي (٦٦) . وغيرهم

ولا يبي المنذر ايضا كتاب ثان في النسب هو « المنزل » وهو اكبر من الجمهرة ،
وثالث هو « الفريد » صنعه للمأمون في الانساب ، وكتاب رابع هو « الملوكي » صنعه

لجعفر البرمكي (١٧) . و اضاف حاجي خليفة ذكر كتاب خامس هو « الوجيز » ويسميه
ياقوت الموجز (١٨) . وكتب ابن الكلبي ليست قيمتها في كثرتها ، وانما تقع اهميتها في
موضوعاتها ولو وصلت اليها جميعها لاسهمت اسهاما ايجابيا عمليا في اثراء العقل العربي
المعاصر ووضحت جوانب عديدة من الحضارة العربية قبل الاسلام وبعده ، فهي عطاء
مبكر وفير في فجر التأليف العربي ، فقد غطت أكثر فروع المعرفة في ذلك الزمان من
تاريخ وأخبار وانساب وأدب وعلوم دينية .

المدائني أبو الحسن (ت ٢٢٥ هـ) هو علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف
مولى سمرة بن جندب ، كان اخباريا ومؤرخا وعالما بالانساب ، ومن أشهر شيوخ
المدرسة العراقية ومؤسسيها ، وكتبه في مجال الانساب تدل على سعة اطلاعه وتضلعه
في هذا العلم . ذكر له النديم عددا من المواضيع التي ألف فيها كتبه في أخبار
النبي (ص) ، وفي أخبار ونسب قريش ، وكتبه في أخبار منالك الاشراف وأخبار النساء ،
وله كتب مفردة في النسب مثل كتاب اشراف عبد قيس ، وكتاب من نسب الى امه ،
وكتاب فضائل قريش (١٩) .

ومن أشهر تلاميذ المدائني الذين أخذوا العلم عنه وتعلموا على يديه أحمد
ابن الحارث الخراز المتوفى ٢٥٨ هـ أورد له صاحب الفهرست أسماء عدة كتب في
النسب منها كتاب القبائل وكتاب الاشراف وكتاب أبناء السرايري ، وكتاب مختصر
كتاب البطون وكتاب جمهرة ولد الحارث بن كعب وأخبارهم في الجاهلية ، وكتاب
النسب (٧٠) .

مصعب الزبيري (ت ٢٣٣ هـ او ٢٣٦ هـ) وهو من سلالة ابن الزبير ولد بالمدينة
١٥٦ هـ ودرس على يد الامام مالك وغيره ثم رحل الى بغداد وأقام فيها الى ان توفي ،
كان شاعرا وعالما بالايام والانساب ، له في النسب كتابان معروفان كتاب « النسب
الكبير » وكتاب « نسب قريش » (٧١) وقد وصل اليها الكتاب الثاني الذي يعتبر
من أفضل كتب النسب المتخصصة في نسب قريش وتدل خطته على ان المؤلف اتبع
اطارا ثابتا للكتابة اتبعه ابن الكلبي من قبل والبلاذري فيما بعد ، وهو يشير في كتابه
الى اعتماده على روايات ومدونات الزهري الى جانب اخذه عن أهل النسب وبعض
الرواة ، ويعطي انطباعا انه رجع الى مختلف الروايات الشفوية ، والكتاب يلقي ضوءا
خاصا على التحولات في الروابط القبلية وعلى التبدلات في خطوة الانساب . ويورد
الزبيري ، اضافة الى سلسلة الانساب ، اخبارا بعضها مفصل عن بعض الشخصيات
المهمة في العصر الجاهلي والاسلامي حتى زمنه ، ويورد بعض الشعر (٧٢) وخاصة في
الفترة الاولى ، ويستشهد ببعض الايات القرآنية ، وأورد أيضا معلومات هامة عن
احداث تاريخية حصلت في صدر الاسلام ، وبصورة عامة يبين هذا الكتاب قيمة
دراسات الانساب في كتابه التاريخ .

ويعتبر هذا المؤلف من أهم المصادر في المكتبة العربية الإسلامية فهو كتاب معارف إسلامية يحتوي على معلومات أدبية وتاريخية ودينية وسير وتراجم هامة ، ويسدل على الارتباط الوثيق بين علم الأنساب وهذه العلوم .

أبو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) ، كان مولى لبني العباس بن محمد وكانت أمه حبيب مولاة لهم أيضا . قال عنه محمد بن اسحق انه كان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والقبائل ، وكان مؤدبا وكتبه صحيحة . روى عن أبي عبيدة وقطرب وتعلم على يد أبي اليقظان النسابة ، أورد له النديم أسماء عدة كتب بلغت ثلاثة وثلاثين كتابا منها في الأنساب : كتاب النسب ، وكتاب العماثر والربائل في النسب وكتاب المؤلف والمختلف وكتاب المحبر (٧٢) ، وصل إلينا منها كتاب « المؤلف والمختلف » ولعله أقدم ما صنف في هذا الفن ، طبع بعناية المستشرق وستفلد ١٨٥٠ م ، وكتاب « المحبر » الذي طبع بعناية المستشرق شتيتير في بيروت ويحوي هذا الكتاب على خلاصات تاريخية هامة ، كما طبع له في ١٩٨٥ كتاب عن قريش وأخبارها اسمه (المنمق) حققه خورشيد أحمد فاروق ، وتوجد من كتبه مخطوطتان في دار الكتب بمصر لكتاب من نسب إلى أمه ، وقد طبعت ضمن نوادر والرسائل ، وكتاب المغتالين . وذكر النديم انه رأى في القرن الرابع الهجري كتاب ابن حبيب الضخم « كتاب القبائل الكبير والأيام » الذي كتبه للفتح بن خاقان في أربعين جزءا كل جزء في مائتي ورقة ، ووضع له فهرسا في ١٥ ورقة (٧٤) .

الجهمي : وهو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حميد بن سليمان بن عبد الله بن أبي جهم بن حديفة العدوي ، عاش في عصر الخليفة المتوكل وكان أديبا وراوية وشاعرا متفننا ، يذكر النسب والمثالب ، له كتاب أنساب قريش وأخبارها وكتاب المثالب وكتاب فضائل مضر ، وكتاب الانتصار في الرد على الشعوبية (٧٥) .

ابن النطاح (ت ٢٥٢ هـ) هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن مهران ، بصري الأصل لكنه عاش في بغداد ، وهو راوية ومحدث ومؤرخ ونسابة ، ذكر له النديم عددا من الكتب منها في النسب ، كتاب إفخاذ العرب وكتاب أنساب أزد عمان ، وكتاب البيوتات ، وقد نقل عنه صاحب الأغاني في مواضع كثيرة ، وكذلك الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد (٧٦) .

الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ، من أهل المدينة ، أقام في بغداد ثم تولى قضاء مكة في ٢٤٢ هـ إلى أن توفي فيها ، له كتب عديدة في الأخبار والشعر والعصر الجاهلي والنسب ، لكن أبرز كتبه في النسب كتاب بقي لنا هو كتاب (نسب قريش وأخبارها) وهو يختلف في ترتيبه ومضمونه عن كتب النسب الأخرى ، اقتبس منه صاحب الأغاني في كافة فصول كتابه تقريبا ، وتوجد مخطوطات لبعض أقسامه في استانبول ، حقق

الجزء الاول منه محمود محمد شاكر وطبع في القاهرة سنة ١٩٦١ هـ ، كما وصلنا من كتبه « الموفقيات » وطبع ، وهو كتاب عام في الاخبار . وله كتب اخرى له في النسب لم تصلنا ذكرها صاحب الفهرست منها كتاب اخبار العرب وایامها وكتاب نوادر اخبار النسب وكتاب الاحلاف وكتاب اخبار الاوس والخزرج (٧٧) .

احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٣٧٧ هـ) المكنى بأبي الحسن من اهل بغداد وعلمائها المشهورين ، له في النسب كتاب هام هو « انساب الاشراف » (٧٨) وهو كتاب عام للتاريخ في اطار الانساب ، يمثل مزيجا فذا من الخطة في الكتابة والمادة والموضوع ، فخطته تجمع بين اساليب كتابة كتب الطبقات والتراجم وكتب الاخبار وكتب الانساب ، حيث تشمل سيرة كل خليفة الاحداث التي وقعت في عهده بما في ذلك فعاليات الاحزاب السياسية مع عناوين فرعية للحوادث المهمة تشبه عناوين كتب الاخباريين ، وهو يراعي التسلسل التاريخي عادة مع وجود بعض الاستثناءات التي تفرضها ضرورة تسلسل النسب (عندما يرد الكلام مثلا عن يزيد قبل عثمان بن عفان) (٧٩) . واكثر ما يتضح أسلوب كتابة التراجم لديه عندما يورد تراجم مطولة لبعض الاعلام الذين اشتهروا من حكام وعلماء وادباء ، فقد ترجم لابي بكر في ٢٠ صفحة ولعمر بن الخطاب في ٧٢ صفحة ولعلي وبنيه في اكثر من ٣٠٠ صفحة ، وترجم لجرير في ١٥ صفحة وللفرزدق في ٢٠ صفحة وللحجاج بن يوسف الثقفي في ٤١ صفحة (٨٠) .

امتاز البلاذري أيضا بانه ينتقد مصادره قبل الاخذ عنها ، وينتقي مادته التاريخية من الرويات التي تعود للمنطقة التي وقع فيها الحادث ومن روايات اخرى حول الموضوع نفسه ، كما افاد من المؤلفات المدونة أيضا (٨١) . ويستعمل البلاذري الاسناد عادة في بعض الروايات التي تتعلق بحوادث المدينة زمن الراشدين ، وفي غير ذلك يكتفي بذكر سلسلة اسناد ، وكثيرا ما يستعمل الاسناد الجمعي ليدل على الاتفاق على المعلومات الاساسية . وقد عبر البلاذري في كتابة هذا عن فكرة وحدة الامة واتصال خبراتها في التاريخ الاسلامي . وصلت الينا نسخة كاملة من انساب الاشراف مخطوطة في اسطنبول وقام الاستاذ محمد حميد الله بنشر الجزء الاول منه في سلسلة ذخائر العرب (عدد ٢٧) . ويبدأ البلاذري فيه بذكر نسب نوح عليه السلام حتى يصل الى عدنان ، ويتدرج بعد ذلك نزولا الى ذكر اخبار الرسول وسيرته حتى وفاته (٨٢) ، ثم ينتقل الى الحديث عن ابي طالب واولاده ويخص بالحديث علي ابن ابي طالب فيذكر وقائعه وحروبه ويروي سير اولاده ، ثم يتحدث عن ابي العباس السفاح وابي جعفر والخلفاء من بني العباس حتى هارون الرشيد ، ويعود مرة ثانية لاستكمال رواية انساب القرشيين امثال بني نوفل وبني أمية وبني زهرة وبني تميم بن مرة وبني هصيص بن كعب . وينتهي من نسب قريش في المجلد الرابع فيتتبع

نسب كنانة بن خزيمه بن مدركه وينتهي منه في المجلد ١٢ ليبدأ بعد ذلك بنسب قيس ولد الياس بن نصر حتى يصل الى ثقيف . ويبدو انه توفي قبل ان ينتهي من نقيّة قبائل قيس (٨٢) . .

نشر من كتاب الانساب هذا : جزء السيرة ، جزء علي بن ابي طالب ، الجزء الرابع ، معاوية ، الجزء العاسي .

مدرسة اليمن :

اراد اهل اليمن مضاهاة عرب الشمال بتاريخهم العريق فكانت لهم مدرستهم التي اقتصت برواية التاريخ اليمني وانساب قبائله ، وكان من اسباب ظهور هذه المدرسة التنافس القديم بين عرب الجنوب اصحاب الحضارة العريقة وعرب الشمال الذين صاروا بعد الاسلام ذوي مجد وسلطة ، لذلك انبروا يقارنوها بانساب اليمن القديمة وعراقتها واصالتها ، وساعد على ظهور المدرسة ايضا العصبية القبلية التي سادت في العصر الاموي اذ حاول عرب الجنوب اثبات الوجود اليمني الى جانب الوجود القيسي . مما ساعد على زيادة الاهتمام بالانساب والحرص عليها ، لذلك كانت اهتمامات هذه المدرسة موجهة نحو رواية تاريخ اليمن القديم وقصص الانبياء وانساب القبائل العربية (٨٤) ، ولعل اشهر نسابي اليمن انذاك كان دغفل بن حنظلة السدوسي المخضرم الذي عاش في اواخر العصر الجاهلي وفي صدر الاسلام وادرك معاوية الذي استقدمه من اليمن وعينه معلما لابنه يزيد (٨٥) ، وظل اشهر نسابة تناقل تلاميذه في اليمن معلوماته جيلين على الاقل او ثلاثة ، ومن ابرز هؤلاء التلاميذ في اواخر القرن الثاني الهجري هو عمرو بن مالك الشحري الذي يروي ان الرشيد استدعاه من اليمن لسمع منه وطلب اليه تسجيل « السيرة » التي رواها دغفل ، وفي مكتبة الامبروزيانا في ايطاليا تحت رقم ٣ مخطوطة من ٦٦ ورقة بعنوان « السيرة برواية الشحري » يروي في مطلعها قصة استدعاء الخليفة هارون الرشيد له وسماعه منه وتسجيله لها بناء على طلبه ، ويحوي ذلك الكتاب على قصص اخبار العرب القديمة وحروبها وامر عباد وثمود وعدنان وقحطان ومن خلفه من الابناء والملوك في بلاد اليمن (٨٦) .

الحنبصي ، وهو ابو نصر محمد بن عبد الله بن سعيد الحنبصي وصفه الهمداني بانه اكبر نسابة ومؤرخ للتاريخ الحميري القديم ، أفاد من نقوش وكتب عربية جاهلية مدحه شاعر معاصر له بانه فاق كل النسابين العرب (٨٧) . كان يعيش حتى ٢٩٥ هـ في قصر حنبص في اليمن ومن كتبه : نسب حمير وكان اهم مصادر الهمداني في كتابه الاكليل ، ذكره ابن ماكولا في كتابه الاكمال (٨٨) . .

اما الذي وضع الاسس الصحيحة لمدرسة اليمن وكون بشخصه مدرسة خاصة

قائمة في النسب وتاريخ اليمن فهو الهمداني المشهور بابن الحائك أبي محمد بن أحمد ابن يعقوب من قبيلة همدان اليمنية المعروفة ، ولد في أواخر القرن الثالث الهجري وتوفي في صنعاء بعد عام ٣٤٠ (٨٩١) ، وله مؤلفات زاخرة أثرت الثقافة العربية بعطائها وبخاصة « الاكليل » الذي لا يستغني عنه أي دارس في تاريخ اليمن وانسابها ويعتبر ركنا أساسيا في مكتبة التاريخ العربي ولبنة هامة في بنائه الشامخ .

يتألف كتاب الاكليل هذا من عشرة اجزاء وصلنا منها الى الان اربعة ، عرفنا من خلالها الموضوعات التي بحثها الهمداني في كتبه العشرة وهي :

مختصر من المبتدا واصل الانساب ، نسب ولد الهميسع بن حمير ، في فضائل قحطان ، في السيرة القديمة وعهد تبع أبي كرب ، في السيرة الوسطى من اول أيام اسعد تبع الى أيام ذي نواس ، في السيرة الاخرة الى الاسلام ، في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة ، في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومراثي حمير والقبوريات ، في امثال حمير وحكمها واللسان وضروب المسند ، في معارف همدان وانسابها وعيون اخبارها (٩٠) .

اما الاجزاء الاربعة التي وصلتنا من هذا الكتاب فهي الجزء الاول والثاني حققهما ونشرهما كاملين الاستاذ محمد بن علي الاكوع الجوالي في القاهرة عام ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، والجزء الثامن من هذا الكتاب نشره الاب انستاس الكرملي في بغداد ١٩٣١ ونشر الجزء العاشر الاستاذ محب الدين الخطيب في القاهرة عام ١٩٦٤ .

ومن مراجعة موضوعات اجزاء الكتاب العشرة نجد ان الجزء الاول والثاني والعاشر اقتصوا بالانساب ، ففي الجزء الاول نجد مقدمتين الاولى لمحمد بن نشوان ابن سعيد الحميري (٩١) يقدم فيها كتاب الاكليل بعد ان نقحه ، والمقدمة الثانية للهمداني صاحب الكتاب وهي المقدمة الاصلية وفيها يبين الهمداني ان غرضه العناية بنسب الهميسع بن حمير الذي اهمله النسابة الكلبيون من ولد مالك بن حمير والذي لم يذكره محمد بن اسحق الا في خمسة اسطر . ويذكر الهمداني اهم مصادره في انساب اليمن وهو الشيخ ابو نصر محمد بن عبد الله « شيخ حمير وناسبها وعلامتها وحامل سفرها » ومرجعه الهام الثاني هو ابو نصر الحنبصي (اوردنا ذكره سابقا) الذي كان يقرأ الكتابة الحميرية القديمة والمساند الدهرية ، علامة زمنه بالانساب . واعتمد الهمداني ايضا على الروايات الشفوية التي اخذها عن رجال حمير وكهلان واستفاد من سجل خولان القديم بصعدة (٩٢) . والى جانب هؤلاء نجد من اهم مراجع الهمداني في الانساب محمد بن اسحق وهشام الكلبي ، الا أنه في كثير من الاحيان يشير الى نقص معلومات الكلبيين في انساب اليمن ، فهم وان كانوا يمنيين في الاصل الا انهم لم يرحلوا الى اليمن ليتعرفوا عن كتب على انساب من قطن فيها وانما اخذوا

انسابها من اعتاب من ارتحل ايام الفتوحات ، حيث انساح من اليمنيين مالا يحصى عدده . وانجبوا هناك ، وهذا ما جعلهم يجهلون الكثير من المعلومات عن انسابها اذ يقول « لما قلت رحلتهم الى من قطن منهم باليمن ولم يلقوا بنهوجهم من ذوي معرفتهم غير أعقاب من ظعن . . . اتوا من انسابها بعنق يختلف عنها بدنها وكذلك (فعل) غيرهم من النساب (٢٩) » .

بدا الهمداني موضوع الجزء الاول بالحديث عن اخبار آدم وبنيه ، ثم نوح والطوفان وابناء نوح سام وحام ويافت ، وسرد انساب العرب العاربة وبعض اخبارها مثل عاد وثمود ، ثم انساب قحطان وحمير بن سبا ، وانساب قضاة ومهرة وخولان . ومن خلال ذلك نجد اشارات الى طبقات العرب (٩٤) واسماء الايام المشهورة عندهم قديما .

اما في الجزء الثاني من الاكليل فيستمر بسرد انساب القبائل اليمنية الى العصور الاسلامية وحتى القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه ، يعالج في ثنايا الانساب بعض القضايا التاريخية في القديم وفي الاسلام ، فيتكلم عن الحارث الرائي افريقيش باني افريقية ، كما يعرض نتفا من تاريخ فارس وعلاقته بتاريخ اليمن والعرب قبل غزو بختنصر (٩٥) ، ويعالج ايضا نقاطا في تاريخ العلويين في اليمن مثل قدوم ابراهيم بن موسى بن جعفر الى صنعاء (٩٦) ، كما يشير الى بعض المفاخرات بين اليمن ومضر ايام الامويين وفي ذلك اشارات الى ما امتازت به القبائل اليمنية من الفروسية والشرف والعز والملك والفصاحة والخير والمنعة (٩٧) . والجزء الثامن من الاكليل الذي وصلنا يتخصص موضوعه بذكر آثار اليمن الشهيرة وقصورها وكنوزها ودفائناتها ، والبحث في هذا الجزء لا يدخل ضمن دراسة الانساب كما هو واضح ، ولكن الجزء العاشر من الاكليل متخصص بمعارف همدان وانسابها واخبارها ، واعتمد في ذكر الانساب وتفاصيلها على الروايات الشفوية والكتب المدونة والزيارات التي كانت في ايدي شيوخ القبائل ، وعندما يتحدث عن نسب المرانيين وآل ذي المشعار يقارن ما لديه بما رواه نساب العرب وينقدهم ايضا بقوله « ان نساب العراق والشام يقصرون انساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهئوا بها الالباء من ولد اسماعيل عليه السلام ، وامتنعت عليهم انساب ولد الهميسع اذ كانت مزيرة في خزائن حمير ، وكذلك انساب الملوك من ولد عمرو بن همدان فاهملوها كي لا يقاس بها انساب باقي همدان وكذلك خالفوا في اصل من نسب ناعط ، والمرانيون باليمن ينكرون هذا التدريج ويعملون على ما قيده آباؤهم في نسبهم وحفظوه كابرا عن كابر » (٩٨) .

ويورد ايضا بين ثنايا الانساب نتفا من المعلومات التاريخية فيتحدث مثلا عن الامام الهادي الى الحق (٩٩) وعن القرامطة ومعركة يوم عرق (١٠٠) ، وغزو قيس لقبائل خولان ووصولهم الى صنعاء (١٠١) .

ونتيجة لما نعدم عرضه نلاحظ ان مدارس التاريخ الكبرى ساهمت في اسراء وتطور علم الانساب باعتباره كان طريقة من طرق تدوين مادة التاريخ ، وبفضل ازدهار الحركة العلمية ونشاط التدوين - ايضا - اصبح علما قائما بذاته له أسس وقواعد واصول مما ادى لظهور مصنفات كبيرة بالنسب اوضحت ركنها هاما في المكتبة العربية الاسلامية لا يمكن الاستغناء عنه .

حصلت المرشحة من كلية الاداب بجامعة دمشق على شهادة الاجستير في التاريخ برسالتها « كتاب النسب لابني عبيد القاسم بن سلام ، ١٥٤ - ٢٢٤ هـ ، دراسة وتحقيق » باشراف الدكتور سهيل زكار .

- (١) العصر العباسي الاول ، شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، ص ١٠١٤٩٨ .
- (٢) انباه الرواة على انباه التجاه ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي ، القاهرة ١٩٥٥ ، ٢/٢٤ .
- (٣) تاريخ الرسل والملوك ، ابن جرير الطبري (طبعة مصورة) بيروت ، ٥٤١/٦ .
- (٤) انباه الرواة ، ٢/٢٤٩ .
- (٥) المصدر السابق ٢/١٩٩-٢٠١ .
- (٦) المصدر نفسه ١٦/٣ .
- (٧) العصر العباسي الاول ص ١٠٢ .
- (٨) دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الاسلام ، صالح العلي ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢ ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- (٩) ضحى الاسلام ، احمد امين ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط ١٠ ، ١٣/٢ .
- (١٠) التاريخ العربي والمؤرخون ، شاکر مصطفى ، دار العلم بيروت ، ٩٣/١ .
- (١١) الفهرست ، النديم ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١ ، ص ٥٥ ، وقد ادرك الفقهسي المنصور
- (١٢) التاريخ العربي والمؤرخون ١/٩٦-٩٨ .
- (١٣) انظر التفاصيل لهذه المؤلفات في كتاب الفهرست ص ١١٥ .
- (١٤) المصدر السابق ص ٧ .١ .
- (١٥) المصدر السابق ص ١١٨ .
- (١٦) التاريخ العربي والمؤرخون ١/٩٩ .
- (١٧) تذكرة الحفاظ ، لابي عبد الله شمس الدين الذهبي ، دار الفكر العربي بيروت ، ١٥١/١ ، ٢٢٩ .
- النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة لابن تقي بردي ، القاهرة ١٩٥٦ ، ٢٥١/١ .
- تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، بيروت ١٨٣ ، ص ٢٦١ .
- (١٨) راجع : تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية - الرياض ١٩٨٣ المجلد الاول ، الجزء الثاني ، ص ١٢ .
- (١٩) مثال : كتاب المغازي والسير لمحمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ ، اورد فيه فصلا خاصا للنسب النبوي القرشي ، وعلى ذلك النهج سار مصطفى السيرة فيما بعد .
- (٢٠) الفهرست ص ١٠٨ .
- (٢١) المصدر السابق ص ١٠٧ .
- (٢٢) المصدر السابق ص ١٢٦ .
- (٢٣) المصدر السابق ص ١٢٧ .
- (٢٤) تاريخ بغداد لابن الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي بيروت ، ٦٩/٨ .
- (٢٥) التاريخ العربي والمؤرخون شاکر مصطفى ١/١١٧-١١٩ .
- (٢٦) المنتخب من كتاب ذيل الدليل - الطبري ، المطبعة العسنية ، ص ٩٧ .

- (٢٧) انظر كتاب المغازي النبوية للزهري ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١ .
- (٢٨) حلية الاولياء ٣/٣٦١ ، سيرة ابن هشام ٨/١ .
- (٢٩) الاغانى لابى الفرج الاصبهاني ، طبعة مصورة عن طبعة مصر ، بيروت ، ٥٩/١٩ .
- (٣٠) نسب قريش ، المصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف القاهرة ، ص ٢ .
- (٣١) الذهبي تراجم ص ٦٨ : قال قرّة بن عبد الرحمن : (لم يكن للزهري الا كتاب نسب قومه) .
- (٣٢) المغازي النبوية ص ٢٦ .
- (٣٣) معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، دار احياء التراث بيروت ٨/١٨ .
- (٣٤) تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، ١٣ ، ١٤ ، ص ٤٦ .
- (٣٥) معجم الادباء ٧/٢٢٢ - ٢٢٣ ، المعارف لابن قتيبة دار المعارف القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٩ ، ص ٢٥٨ .
- (٣٦) الفهرست ص ١٠٠ .
- (٣٧) تاريخ التراث العربي ، ١٣ ، ج ١ ص ٦١ .
- (٣٨) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، عبد العزيز الدوري ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ص ١٢٠ .
- (٣٩) له كتاب فضائل محمد بن الحنفية ، كتاب فضائل جعفر بن ابي طالب ، كتاب فضائل عبد الله ابن جعفر ، راجع الفهرست ص ١١٤ .
- (٤٠) له كتاب مثالب باهلة ، وكتاب ادمياء العرب ، انظر المصدر السابق ص ٥٩ .
- (٤١) لخالد بن طليق كتاب المآثر ذكره صاحب الفهرست ص ١٠٧ ، والاصمعي له كتاب النسب انظر المصدر السابق ص ٦١ والجهمي له كتاب الانتصار في الرد على الشعوبية ذكره النديم ١٢٤ .
- (٤٢) التاريخ العربي والمؤرخون ١/١٧١ .
- (٤٣) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .
- (٤٤) الفهرست ص ١٠٧ ، تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، ١٣ ، ج ٢ ، ص ٤٥ .
- (٤٥) تاريخ الطبري ، ٢/٥٠٦ ، ٥١٨ .
- (٤٦) المصدر السابق ٤/٤٤٩ .
- (٤٧) الفهرست ص ١٠٧ ، الاشتقاق لابن دريد ، دار المسيرة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٤ معجم الادباء ، ٤/٢٢٦ .
- (٤٨) تاريخ التراث العربي ، ١٣ ، ج ٢ ، ص ٤٧ .
- (٤٩) المصدر السابق ، ١٣ ، ج ٢ ، ص ٤٨ .
- (٥٠) الفهرست ص ١١٨ .
- (٥١) المصدر السابق ص ٥٤ .
- (٥٢) كتاب حذف من نسب قريش ، تاليف مرج بن عمرو السوسي ، تحقيق صلاح الدين المنجد بيروت ١٩٧٦ ، لزيد من المعلومات راجع مقدمة الحق لهذا الكتاب .
- (٥٣) تاريخ التراث العربي ، ١٣ ، ج ٢ ، ص ٥٥ .
- (٥٤) الفهرست ص ١٠٨ .

- (٥٥) تاريخ التراث العربي ، ١٢، ٢٤، ص ٥١ .
- (٥٦) تاريخ بغداد ، ابن الخطيب البغدادي ، ١٤/٤٦ .
- (٥٧) الاغانى ، الاصبهاني ، ١٩/٩ .
- (٥٨) الفهرست ص ١٠٨-١١٠ .
- (٥٩) مقدمة كتاب انساب الاشراف للبلاذري ، الجزء الاول ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٦ .
- (٦٠) الاكلیل - للهمداني تحقيق محمد علي الاكوع ، القاهرة ١٩٦٤ ، ٨٤/١ .
- (٦١) انظر تاريخ التراث العربي ، ١٢، ٢٤، ص ٥٢ .
- (٦٢) تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ط ٤ ، ٢١/٢٤ .
- (٦٣) الورقة الاولى من مخطوطة كتاب النسب لابن عبيد ، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة مفيسا بالاناضول محفوظة فيها برقم (٦٥٩٤) .
- (٦٤) سماه ياقوت (جهرة الانساب) وذكر ان ابن سعد رواها عنه، انظر معجم الادباء ٢٩١/١٩ .
- (٦٥) انظر الفهرست ص ١١٠ .
- (٦٦) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .
- (٦٧) وفيات الايمان لابن خلكان ، ٨٣/٦ ، معجم الادباء ٢٩٢/١٩ .
- (٦٨) انظر كشف القنون عن اسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، بغداد ، ١٧٩/١ ، معجم الادباء ٢٩٢/١٩ .
- (٦٩) الفهرست ص ١١٣-١١٤ ، معجم الادباء ، ١٣٦/١٤ ، تاريخ بغداد ، ٢٥٧/٥ - ٢٥٨ .
- (٧٠) الفهرست ص ١١٧ ، معجم الادباء ٨/٣ .
- (٧١) تاريخ التراث العربي ، ١٢، ٢٤، ص ٥٨ ، الفهرست ص ١٢٣ ، تاريخ بغداد ١١٢/١٢ - ١١٤ .
- (٧٢) كتاب نسب قرش ، مصعب الزبيري ، تحقيق ليلى بروفنسال ، القاهرة ص ٥ ، ٢٩٩ ٧ - ٢٤٦٤ .
- (٧٣) الفهرست ص ١١٩ .
- (٧٤) الفهرست ص ١١٩ .
- (٧٥) المصدر السابق ص ١٢٤ .
- (٧٦) المصدر السابق ص ١٢٠ ، الاغانى ٢٩٨/٢ - ٢٠١ ، ٥١/٨ - ٨٨ ، ٦٢/١٠ - ٢٥١ ، تاريخ بغداد ٢٥٧/٥ - ٢٠٨ .
- (٧٧) الفهرست ص ١٢٣ ، اخبار وكيع بن الجراح ، دار صادر بيروت ٢٦٩/١٤ ، معجم الادباء ١٦١/١١ .
- (٧٨) الفهرست ص ١٢٥-١٢٦ .
- (٧٩) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، عبد العزيز النوري ص ٤٩ .
- (٨٠) المدخل الى التاريخ ، نور الدين حاطوم ، وآخرون ، مطبعة الهلال ، دمشق ١٩٨٢ ص ٢٦٢ .
- (٨١) التاريخ العربي والمؤرخون - شاكز مصطفى ٢٤٤/١ - ٢٤٥ .

- (٨٢) بدأ الحديث عن مولد الرسول (ص) في صفحة ٤١ من المجلد الاول واستغرق الحديث عن السيرة النبوية ٢٣٧ صفحة .
- (٨٣) التاريخ والمؤرخون العرب ، السيد عبد العزيز السالم ، دار النهضة العربية بيروت ص ١٧٨ .
- (٨٤) التاريخ العربي والمؤرخون ١/١٢٥ .
- (٨٥) المخبر ، ابو جعفر محمد بن حبيب ، دار الافاق الجديدة بيروت ص ٤٧٨ .
- (٨٦) التاريخ العربي والمؤرخون ١/١٣٦ .
- (٨٧) انظر الاكليل ، الهمداني ١/٦٥ .
- (٨٨) راجع كتاب تاريخ التراث العربي ، ١٢، ٢٢ ص ٦٢ .
- (٨٩) انظر مقدمة كتاب الاكليل الجزء الاول محمد بن علي الاكوع دار الحرية بغداد ١٩٧٧ .
- (٩٠) كتاب الاكليل ، الهمداني ، الجزء العاشر ، تحقيق محب الدين الخطيب القاهرة راجع الصفحة الخامسة من مقدمة المحقق ، التي اورد فيها ترجمة وافيته عن حياة الهمداني انظر ايضا كتاب الهمداني في مصانده وافاقه العلمية ، محمود ابراهيم الصغير ، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ، حيث وردت له ترجمة مفصلة عن حياته ومؤلفاته ص ٣٠ .
- (٩١) عاش محمد بن نشوان بن سعيد الحميري ، في الربع الثاني من القرن السادس الهجري وقد اورد محقق الكتاب ترجمة عن حياته في ص ٧٩ .
- (٩٢) من مقدمة الهمداني في كتاب الاكليل ١/٨٦-٨٩ .
- (٩٣) الاكليل ١/٨٤ .
- (٩٤) المصدر السابق ١/٩٧ - ٩٨ .
- (٩٥) المصدر السابق ٢/٨٦ .
- (٩٦) الاكليل ٢/١٢١ .
- (٩٧) المصدر السابق ٢/٢٢٠-٢٢٩ .
- (٩٨) المصدر السابق ١/٢٠ .
- (٩٩) المصدر السابق ١/٦٧ ، ١١٨ .
- (١٠٠) المصدر السابق ١/١٨٢ .
- (١٠١) المصدر السابق ١/٢٢٢ .

ذبول مؤرخي الصابئة على تاريخ الطبري

ثابت بن سنان ، هلال بن المحسن ، غرس النعمة محمد بن هلال

سميحة أبو الفضل
مرشحة للماجستير

ليس من السهل الحديث عن تاريخ الصابئة والوقوف على مافيه ، نظرا لقدم هذا التاريخ ، وقلة المصادر الموثوقة التي يمكن الاعتماد عليها ، ولضياع بعض كتابات القدماء ، أن لم يكن معظمها ، بسبب تلف المواد التي كتبت عليها من رق وأوراق بردي بالحروب والغزوات والفتن ، أو لأنها أهملت كمخطوطات لتعذر من يجيد قراءتها . أضف الى هذا انه نتيجة للصراعات الدينية التي سادت كلا من بلاد الرافدين والشام ، عمدت بعض المجموعات الدينية الى اخفاء كتاباتها والتكتم على معتقداتها وطقوسها . ولا شك ان هذه الاحوال جميعا قادت الى نقص في المعلومات وأخطاء في التفصيل مغايرة للحقيقة .

وينطبق هذا كل الانطباق على تاريخ الصابئة الذين هم قوم من اصحاب احدي الديانات الشرقية القديمة . واذا كان لا يعنينا هنا الحديث عن ديانة الصابئة فيكفي أن نشير ان العادة جرت على تقسيم الصابئة الى قسمين : قسم عراقي ، وآخر شامي جزري . ويعرف الشامي الجزري عادة باسم صابئة حران ، وقد انقرضوا ولم يبق منهم احد ، أما القسم الاخر فقد عاش في جنوب العراق على ضفاف نهر الفرات وتشعباته ، ويبدو ان خلفاءقائديا ميز الحرائيين عن العراقيين . وما زال في العراق وايران ما يزيد على الاربعين الفا من الصابئة يعرفون الان باسم المندعين او المندائيين (١) .

وتذكر المصادر العربية ان اسم الصابئة اطلق على الحرائيين في ايام الخليفة العباسي المأمون (٢) ومن ثم شهرها بهذه التسمية وهم استخدموها ليشمل الطرفين ، وعلى العموم كان لعقيدة الصابئة تأثيراتها على عقائد الشرق القديم السماوية وغير السماوية . كما ان افكارا من هذه العقيدة تغلغلت الى افكار وعقائد بعض الفرق

الاسلامية والحركات الصوفية (٢) .

تكلم صابئة حران اللغة الارامية ثم السريانية ، وأجادوا مع السريانية اللغة الاغريقية ، وشغلوا لهذا دورا كبيرا في تطور الفكر اللاهوتي المسيحي وتميزوا دائما بدور الوسيط بين الاداب الارامية والسريانية من جهة والاغريقية من جهة ثانية ، وقاموا أحيانا بالدور نفسه بين اللغات التي سادت اراضي الامبراطوريات الفارسية المتعاقبة .

وبعد قيام الفتوحات الاسلامية ظلت مدينة حران تتمتع بمكانة عالية ، ولعل هذه المكانة كانت سببا من الاسباب التي دفعت مروان بن محمد الى اتخاذها عاصمة له، وبعده أيضا عبد الله بن علي القائد العباسي المشهور (٤) . وشغل بعض الحرائين ادوارا في الادارة والترجمة في العصر الاموي، لكن هذه الادوار عظمت في العصر العباسي (٥) . فالحرائيون كان لديهم تراثهم الفكري الخاص وهو تراث غني، وامتلكوا تراثا مترجما عن الاغريقية ولغات فارس ، وعلى هذا الاساس شهروا منذ فترة مبكرة بالتنجيم والطب والفلسفة والقدرة على الترجمة . وفي بغداد الخلفاء العباسيين الاوائل قام الحرائيون بالدور الرئيسي في حركة الترجمة الى العربية، ودفع هذا عددا منهم ، لا بل عددا من أسر الحرائين البارزة الى الهجرة الى بغداد والاستقرار بها ، حتى غدوا جالية متعاظمة متعاونة ، شهر على رأسها اسرتان هما آل زهرون وآل قرعة، اللتان جمعت اواصر الصداقة والقراية بينهما . وحافظ الحرائيون في البداية على عقائدهم لكن بعد مضي وقت لم يكن بالقصير دخلوا في الاسلام ، وهذا ما اقتضته الاحوال وأوجبه الظروف، ومع ذلك نسجت حكايات طريفة ومثيرة حول دخول بعضهم في الاسلام ، اخترنا منها الحكاية التي تعلقته بهلال بن المحسن لمصلحة هلال المباشرة بدراستنا هذه . اسلم هلال في أواسط عمره وحسن اسلامه ، وكان اول من دخل الاسلام من آل زهرون ، وبعد اسلام هلال أقبل أفراد هذه الاسرة على الدخول بالاسلام حتى أصبحت اعداد المسلمين من الصابئة تفوق اعداد الذين حافظوا على ديانتهم القديمة .

روى المؤرخون عن هلال قوله : « رأيت في المنام سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا قد وافى موضع مقامه ، والزمان شتاء والبرد شديد والماء متجمد ، فأقعدني ، فارتعدت حين رأيته ، فقال لا ترتعد فاني رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحملني الى بالوعة في الدار عليها دورق خزف وقال توحا وضوء الصلاة ، فأدخلت يدي في الدورق فاذا الماء جامد فكسرتة وتناولت منه ما مررت به على وجهي وذراعي وقدمي ، ووقف الرسول في صفي وجلبني الى جانبه وقرأ « اذا جاء نصر الله والفتح » وركع وسجد وأنا أفعل مثله ، وقام ثانية وقرأ سورة لم أعرفها ، ثم سلم وأقبل علي ، وقال : أنت رجل عاقل والله يريد بك خيرا

فلم تدع الاسلام الذي قامت عليه الدلائل والبراهين ، وتقيم على ما انت عليه . هات يدك فأعطيته يدي وصافحني وقال لي : قل جئت بالبينات والهدى ، فقلت ذلك . ونهض فرايت نفسي قائما في الصفه فصحت صباح المرتاع ، فانتبه اهلي وجاؤوا بعد ان سمعوا صياحي ، ومنهم ابي فقال ما بك واوقدنا المصباح ، وقصصت للجميع قصتي فوجموا الا ابي فانه ابتسم ، وقال : ارجع الى فراشك واجل الحديث للصباح ، وتأملنا الدورق المنكسر بفعل العمل ، وقال ابي : يا بني هذا منام صحيح وبشري محمود ، الا ان اظهر هذا الامر فجأة ، والانتقال من شريعة الى شريعة ، يحتاج الى وقت ، واعتقد بما أوحيت به فاني معتقد مثله ، وتصرف في صلاتك ودعائك وفق أحكامه ، وشاع الحديث . وبعد مدة رايت رسول الله ثانية في منامي على نهر دجلة في باب البستان ، وقد عرف هذا البستان بالزاهر ، الذي ابتاعه له جده أبو اسحاق الصابي (لسكناه) فقال : ما فعلت شيئا مما وافقتني عليه وقدرته معي ، فقلت بلى يا رسول الله اعتقدت بما أمرتني به ، وتصرفت في صلاتي بموجبه ، فقال له : لقد بقيت في صلاتك شبهة ، فقال : وحملني الى باب المسجد الذي بالمشرفة ، وكان امامه رجل خراساني نائم مصاب بالاستسقاء ، ورم جسمه ، فمر الرسول يده على بطنه وقرأ عليه فقام الرجل صحيحا معافى .

فقلت صلى الله عليك يا رسول الله فما احسن تصديق امرك واعجز فعلك . واثر هذا اشهر اسلامه (٦) .

لا شك ان هلال بن المحسن الصابي اسلم لان الظروف اقتضت ذلك ، فاسلافه جاؤوا فيما مضى الى بغداد ليعملوا بالترجمة ، اما هو وطبقته فلم تعد الترجمة ميدان عملهم بل صاروا من كبار موظفي ادارة الخلافة في بغداد ، بعضهم صار كتابا ، وعمل آخر بوظيفة تعديل وظيفة الوزارة ، وافترضت قوانين الدولة واعرافها ان يكون اصحاب هذه الوظائف من المسلمين لذلك كان لا بد من الدخول في الاسلام . واستندى الحال اختراع قصة كالتى اثبتناها .

وتزوج هلال اثر اشهاره لاسلامه امرأة مسلمة وهي التي أنجبت له ابنه محمد ، محور دراستنا هذه وموضوعها الاساسي . وقبل الحديث عن محمد من المفيد ان نذكر ان زوجة هلال المسلمة شكت باسلامه ، وذلك لانه لم يقطع صلاته بأهله وذويه من الصابئة ، وهنا جاءها هي الاخرى الامام علي كرم الله وجهه في المنام فطمأنها (٧) .

ولنلاحظ ان العصر الذي اعلن فيه هلال اسلامه كان هو العصر البويهي ، والاسرة البويهية شيعية ، لذلك اقتضى الحال تكملة قصة اسلام هلال ، التي تمت بمعجزة نبوية ، بقصة بطلها الامام علي بين أبي طالب .

اهتم عدد من رجالات آل الصابئ بتدوين التاريخ ، وبرز من بين صفوفهم عدد من كبار المؤرخين .

يقول القفطي في كتابه أخبار الحكماء: « وإذا أردت التاريخ متصلا فعليك بكتاب أبي جعفر الطبري رضي الله عنه ، فإنه من أول العالم وإلى سنة تسع وثلاثمائة . ومتى شئت أن تقرأ به كتاب أحمد بن أبي طاهر وولده عبيد الله فنعم ما تفعل لأنهما قد بالغا في ذكر الدولة العباسية وأتيا من شرح الأحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده ، وهما في الانتهاء قريبا المدة ، والطبري أزيد منهما قليلا ، ثم يتلو ذلك كتاب ثابت فإنه يداخل الطبري في بعض السنين ، ويبلغ إلى بعض سنة ثلاث (الأصح خمس) وستين وثلاثمائة . فإن قرنت به كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله ، فإن في كتاب الفرغاني بسطا أكثر من كتاب ثابت في بعض الأماكن . ثم كتاب هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابئ فإنه داخل كتاب خاله ثابت وتم عليه إلى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولم يتعرض أحد في مدته إلى ما تعرض له من أحكام الأمور والإطلاع على أسرار الدول وذلك أنه أخذ ذلك عن جده ، لأنه كان كاتب الإنشاء ويعلم الوقائع فاستعان بعلم الأخبار الواردة على ما جمعه ، ثم يتلو كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال وهو كتاب حسن إلى بعد سنة سبعين وأربعمائة » (٨) .

نستدل من هذا النص البالغ الأهمية أن الاهتمامات التاريخية لآل الصابئ برزت في العصر البويهي ، وفي الحقيقة كان الذين اعتنوا بالتاريخ من آل الصابئ قد أوقفوا جهودهم تقريبا على التاريخ للعصر البويهي ، لكن كتاباتهم تعتبر بحكم المفقودة لسوء الحظ .

كان ثابت بن سنان أول من اهتم بكتابة التاريخ من آل الصابئ ، فهو متخصص أصلا في الطب ، تعلق بخدمة الخليفة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ / ٩٤٣ - ٩٤٠) وتولى تدبير المارستان في بغداد ، وخدم عددا من الخلفاء بعد الراضي . وذكر بعض الذين ترجموا لثابت أنه توفي سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ - ٧٤ م ، وهذا وهم أصح منه أن وفاته حدثت في عام ٣٦٥ / ٩٧٥ - ٧٦ . وهذا ما تثبتته مخطوطة تاريخ أخبار القرامطة المنتزعة من كتابه ، وما نقله ياقوت عن ابن أخت ثابت (٩) هلال بن المحسن الصابئ .

اهتم ثابت إلى جانب الطب بالتاريخ وتدوين أخباره فكتب عددا من المصنفات التاريخية ، أشهرها كتاب في التاريخ كبير رتبته حسب حوادث السنين على طريقة الحوليات وذيل به على تاريخ الطبري لكن بشيء من التداخل ، فقد بدأ ثابت تاريخه هذا بعهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ / ٩٠٨ - ٩٣٢) وتوقف عن متابعة الكتابة فيه قبيل وفاته بأيام ، ولثابت تاريخ « مفرد في أخبار الشام ومصر في مجلد واحد » ، وله كتاب آخر دون فيه « وفاءات من توفي في كل سنة من سنة ثلاث مائة إلى السنة التي مات فيها » (١٠) أي سنة ٣٦٥ .

ووصلنا كتاب مخطوط صغير جاء بمثابة مختصر لتاريخ ثابت بن سنان ضمنه مختصر ما حواه تاريخ ثابت من اخبار القرامطة ، وهذا المخطوط في حوزة المستشرق برنارد لويس ، وقد نشره سهيل زكار ضمن نصوص كتابه اخبار القرامطة ، ومن تحليل مواد هذا المخطوط نجد مايلى :

يمكن من حيث المبدأ تقسيم المعلومات التي يتضمنها الى قسمين : القسم الاول وقد وردت معظم رواياته في تاريخ الطبري ، والقسم الاخر وقعت احداث رواياته بعد وفاة الطبري ، فقام ثابت كما هو مفترض بتدوين اخبار هذه الاحداث .

وجل الاخبار في هذا القسم من عصر ثابت ، وعندما تقرا هذا القسم نلاحظ امرا مدهشا حيث ان الكتاب يروي اخبار القرامطة ابتداء من « سنة مائتين وثمان وسبعين من الهجرة » حتى « سنة تسع وثلاث مائة » بشكل كامل التسلسل سنة تلو اخرى ثم يقفز فيبدأ باخبار « سنة ستين وثلاث مائة » .

لا نعرف سبب هذا بالتأكيد ، لكن لدى قراءة المواد الاخيرة ومقارنتها بالمواد الاولى يحصل لدينا انطباع ان المواد الاولى تهتم بقرامطة البحرين والعراق بشكل رئيسي ، في حين ان المواد الاخيرة موقوفة الى أبعد الحدود على نشاط القرامطة في الشام وصراعاتهم مع الخلافة الفاطمية في الشام ومصر ، ان هذا يدفعنا الى الافتراض ان الذي جمع مواد مخطوطة المستشرق لويس جمعها من كتابين لعلهما كانا في مجلد مجموع واحد ، هما : تاريخ ثابت بن سنان الذي ذيل به على تاريخ الطبري ، وكتابه الاخر الذي اوقفه على تاريخ الشام ومصر ، ويرجح ان الكتاب الاول كان مبتورا فهو بالاصل (مسودة المؤلف) (١١) والذي تولى عملية الاختصار لم ينتبه لا الى الخرم الكبير ولا الى طبيعة المواد المروية ولا الى الاختلاف الذي لحقها ، ولعله تنبه ولكنسه لم يخبرنا . ومهما يكن الحال فان المواد المتأخرة من مخطوطة المستشرق لويس تتوافق ، بل تتطابق تماما مع محتويات تاريخ دمشق او المذيل على تاريخ دمشق لابن القلانسي .

وقد صرح ابن القلانسي بأنه صنع « مذيلا على تاريخ دمشق » . وكما هي العادة ينسني المذيل على ذيل ، والمذيل يأتي بمثابة ملحق بكتاب اساسي . وبدأ ابن القلانسي مذيلة بحوادث سنة ٤٤٨ للهجرة .

ولنتذكر ما حكاه القفطي عن ثابت بن سنان وهلال بن المحسن ، فثبت كتب فيما كتبه كتابا اوقفه على اخبار مصر والشام ، ووقف به مع احداث سنة وفاته وهي سنة ٣٦٥ هـ ، ومن بعدد جاء هلال بن المحسن فكتب مذيلا على تاريخ ثابت تداخلت بعض حويلاته ، حيث بداه بحوادث سنة ٣٦٠ هـ ، ووقف به مع نهاية سنة ٤٤٧ هـ .

ولعله سيكون من المفيد قبل الاستطراد في هذا الحديث الوقوف قليلا مع هلال بن المحسن ، وقد كان القفطي وصفه قبل قليل انه كان ابن اخت ثابت ، وفي الحقيقة جاء هذا التحديد تجاوزا حيث ان ابراهيم جد هلال هو ابن اخت ثابت .

لقد اوردنا قبل قليل مسالة اسلام هلال والمكان هنا للحديث عن انه ولي ديوان الانشاء في بغداد وعاش فترة تاريخية هامة جدا عاصر أحداثها ، وعرف أخبارها وعاشر أبطالها ، فكتب ما توصل اليه وما عرفه من اخبار بشكل يمكن وصفه بالوثائقية ، وقد اودع ذلك في عدد من الكتب ، مفردة مثل كتابه في تاريخ الوزراء وهو مطبوع واسع الأهمية (١٢) . او ذيل على ما كتبه ثابت بن سنان ، اي انه كتب الذيل للطبري . كما ذيل على كتاب ثابت الآخر الذي اوقفه على تاريخ بلاد الشام ومصر ، وهذا ما أكدته القفطي في نصه الذي نقلناه انفا ، وما بينه سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان (١٣) : « وكان هلال من كبار العلماء والادباء وله التاريخ الذي ذيل به على تاريخ ثابت ابن سنان وبدأ من سنة احدى وستين وثلاث مائة الى سنة سبع واربعين واربع مائة » . في الحقيقة ابتداء هلال بن المحسن كتابه الذي ذيل به على تاريخ ثابت بحوادث سنة ٣٦٠ هـ وانهاه بأخبار سنة ٤٤٧ هـ ، فهذا ما قاله ابنه غرس النعمة محمد بن هلال في مقدمة كتابه (١٤) ، وبذلك تداخلت مواد هلال مع مواد ثابت مثلما تداخلت من قبل مواد ثابت مع مواد الطبري .

لسوء الحظ ان معظم مواد التراث التاريخي لأسرة آل الصابئ هي بحكم المفقودة وقد أكثر سبط ابن الجوزي النقل من تواريخ كل من ثابت وهلال كما ان المستشرق اندروز عشر على قطعة من تاريخ هلال حوت أخبار خمس سنين اولها سنة ٣٨٩ هـ وآخرها سنة ٣٩٣ هـ ، وقد الحق مارجليوث هذه القطعة بكتاب تجارب الامم لسكويه ، وذلك بعد ذيل ابي شجاع ، وطبعها في القاهرة سنة ١٩١٩ .

ونعود الان الى ابن القلانسي فنجد انه لم يصرح في كتابه باعتماده على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن او على واحد منهما على الاقل ، وكل ما هنالك انه قال في سياق الحديث عن ولاية حيدرة بن مفلح لدمشق وهو أحد الولاة الفاطميين « واستمرت عليه الايام في الولاية الى سنة ثمان واربعين واربع مائة التي يبنى هذا المذيل عليها ، وعادت سياقة الحوادث منها ايراد ما فيها وتجدد بعدها » (١٥) .

والبحث التاريخي المقارن هو الذي قاد الى الافتراض ان ابن القلانسي بنى مذهبه على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن ، او على واحد منهما ، اذ انه من المؤكد الى حد ما ان مصنف ابن القلانسي بشطريه « الاساسي » و « المذيل » يبدأ بحوادث سنة ٣٦٠ هـ . وبهذه السنة بدأ هلال كتابه ، ومن المسلم به ان ما كتبه هلال عن

اخبار السنوات (٣٦٠ - ٣٦٥ هـ) ، وهي السنوات التي تداخل بها كتابه مع كتاب ثابت ، هناك تطابق بالمواد ، مع احتمال بعض الفوارق في التفاصيل ، فهذا ما نلاحظه حينما نقارن مواد السنوات المتداخلة بين مواد تاريخ ثابت بن سنان وتاريخ الطبري . لهذا ليس من المستبعد أيضا ان يكون ابن القلانسي اعتمد على تاريخ هلال ابن المحسن دون سواه . وتبقى القضية في حدود الفرضية فتاريخ هلال بن المحسن لم يصلنا كاملا ، ومصنف ابن القلانسي وصلتنا منه نسخة خطية واحدة (١٦) قد بتر من اولها مقدار اربع عشرة ورقة ، ولا شك ان هذه الاوراق قد حوت خطبة الكتاب مع بعض المواد الاخبارية .

واذا صحت هذه الاجتهادات فهذا يعني انه مع وفاة هلال بن المحسن تم صنع مديلين على كتابه أحدهما شامي دمشقي صنعه ابن القلانسي ، والاخر هراقي بغدادي صنعه محمد بن هلال بن المحسن ، الذي شهر بلقب غرس النعمة ، وهو بالاصل موضوع هذه الدراسة ، فلنحاول التعرف الى حياته ونتاجه :

تزوج هلال بن المحسن اكثر من مرة قبل اسلامه وبعده ، وأنجب عددا من الاولاد شهر منهم من زوجته المسلمة ابنة محمد غرس النعمة ، ويرجح ان محمدا هذا ولد سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، على ان بعض كتب التراجم تجعل مولده قبل ذلك بسنة او سنتين (١٧) .

نشا غرس النعمة في كنف ابيه الذي رعاه فاعتنى بثقافته وتعليمه ، فعلى ابيه تخرج في صناعة الانشاء والكتابة والادب . وقد سمع ا أيضا من ابي علي بن شاذان ، ولم تذكر المصادر من شيوخ غرس النعمة غير هذا الشيخ مع ابيه (١٨) . لكن لنا ان نفترض انه بحكم مكانة هلال بن المحسن لا بد ان ابنه قد لقي شيوخ بغداد وعلماء الخلافة العباسية في القرن الخامس واخذ عليهم وثقف ، فهو قد نهض فيما بعد بأعمال ديوان الانشاء ايام الخليفة القائم (٢٢ - ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ - ١٠٧٥ م) ونهوضه بهذا العمل مع ما خلفه من مصنفات في التاريخ والادب يدل على ان الرجل قد استوعب معارف عصره استيعابا جيدا ، ومع هذا يرجح ان المؤثر الاكبر في ثقافته وتكوين شخصيته من كافة الجوانب هو ابوه هلال ابن المحسن ، فهو الذي طلب منه التدليل على كتابه بالتاريخ ، وقبل ذلك دفعه بعد تخريجه في طريق التأليف في الادب وغيره ، فهو في مؤلفاته الادبية ياتي على ذكر ابيه بشكل مستمر وينقل عنه ويحيطه اثناء حديثه عنه بهالة عظيمة من الاجلال والتقدير .

ففي كتابه « الهفوات النادرة » يقول في أحد الامكنة : « وحدثني الرئيس الاجل ابو الحسين والذي قال » . وفي مكان اخر « وحدثني الرئيس والذي ابو الحسين

رضي الله عنه قال « ، ووصف في كتابه في التاريخ اسلوب ابيه بالسحر الحلال والعذب الزلال وانصادر عن اوجد دهره وفريد عصره(١٩) .

كان غرس النعمة في حوالي الثلاثين من عمره عندما توفي والده وقد ورث عنه مكانته مع ثروة كبيرة « واملاكا نفيسة على نهر عيسى »(٢٠) وأمنت له الثروة الموروثة والحظوة سبل العيش بهناء وسعادة ، ويبدو انه قد عكف على تجميع ثروته وزيادتها ولم يتورط في مؤامرات عصره التي كانت كثيرة وشديدة اضطرب بها القرن الخامس، وابتعاده عن التورط بالمشاكل السياسية ابقاه « محترما عند الخلفاء والملوك والوزراء »(٢١).

استمر غرس النعمة في اهتماماته الثقافية والادبية ، ووصف انه كان كريما صاحب صدقات كبيرة ذلك انه كما يبدو كان ينفق على بعض العلماء كما ان الذين ترجموا له قد ذكروا في جملة مآثره انه اوقف دارا ، شحنها بالكتب من مختلف الانواع على الناس ، ويروي ابن الجوزي في كتابه المنتظم انه « في رجب من سنة ٥٢٠ هـ وقف ابو الحسن محمد بن هلال الصابيء دار كتب بشارع ابن ابي عوف من غربي دار السلام ونقل اليها نحو ألف كتاب ، وكان السبب ان الدار التي اوقفها سابور الوزير بين السورين احترقت ونهب أكثر ما فيها فبعثه الخوف على ذهاب العلم ان وقف هذه الكتب»(٢٢). وغدت هذه الدار منتدى العلماء وملتقى الباحثين والدارسين والمتناظرين، ومن المرجح ان غرس النعمة كان يشرف شخصيا على تسيير امور هذه الدار ويحضر ندوات العلماء ويشارك فيها ، مما كان له ابعد الاثار علن نمو ثقافته وارتفاع مكانته اجتماعيا ، كما ان ذلك شجعه على التصنيف في الاداب ومكنه من سبل النجاح وزوده بمواد غنية جدا وهذا واضح كل الوضوح في كتابه الهفوات النادرة « أو البادرة ».

وكان غرس النعمة اخر المشاهير من قومه من آل الصابيء فبوفاته انتهى مجد الاسرة ، هذه الاسرة التي عاشت العصر البويهي ، الذي شهد غرس النعمة نهايته ، وراى بغداد وديار العرب والمسلمين تدين بالطاعة للبداة التركمان ، الذين جلبوا معهم الى بغداد نمطا من الادارة الجديدة وعقلية سياسية ودينية جديدة، ولهذا لا عجب ان انتهى مجد اسر بغداد السياسية والادارية التي شهرت في العصر البويهي .

في ذي القعدة من سنة ثمانين واربع مائة (١٠٨٧ م) مات غرس النعمة عن عمر نيف على الستين ، وقد خلف ثروة قدرت بسبعين ألف دينار ودفن أولا في داره في بغداد ، ثم نقل فيما بعد الى مشهد علي بالكوفة(٢٣) .

صنف غرس النعمة عددا من المصنفات ، وذكرت له كتب التراجم عناوين ثلاثة كتب منها ، هي : كتاب في التاريخ ، وكتاب الربيع ، وكتاب الهفوات . ولم يصلنا من

هذه الكتب بشكل مباشر غير كتابه الهفوات وعند نشر ، وسنتحدث عن هذا الكتاب وعن كتاب الربيع ثم نخلص للحديث عن كتاب التاريخ الذي وصلنا بشكل غير مباشر . يروى ان كتاب الربيع صنفه غرس النعمة بمثابة ذيل على كتاب نشوار المحاضرة للتونخي (٢٤) . ويبدو ان غرس النعمة كان معجبا بكتاب التونخي ودلينا على ذلك كثرة النقول عنه في كتاب الهفوات ، فقد احصى صالح الاشر محقق كتاب الهفوات قرابة اربعين خبرا منقولا عن القاضي ابي علي التونخي تصريحاً او تلميحاً وهذا يعني ان طبعة كتاب الربيع شابهت طبعة نشوار المحاضرة ، ومعروف ان كتاب نشوار المحاضرة كتاب رائد في طريقة تدوين الاخبار والحكايات المستطرفة ، املاها التونخي من ذاكرته وحكى في غالبيتها اخبار من عرفهم وعاصروهم في حياته من وزراء وقضاة وكبار موظفي الدولة من الكتاب والعمال ، ومن هنا يعد كتاب نشوار المحاضرة مصدراً اساسياً في الدراسات الاجتماعية لتاريخ العصر العباسي ، واذا صح وشابه كتاب الربيع كتاب نشوار المحاضرة ففيه دليل على شدة اهتمام غرس النعمة باخبار مجتمعه ونجد ذلك جلياً في كتابه الهفوات وفي ثنايا التفاصيل العديدة من اخبار الحوادث التي اتي على ذكرها في كتاب التاريخ وهذا ما سنمر به بعد قليل .

ولا شك ان المكانة الاجتماعية والرسمية لاسرة غرس النعمة ، ولغرس النعمة نفسه قد مكنته من جمع مواد اخبارية اجتماعية لم تتوافر لسواه . ولم يصلنا كتابه الربيع ، وجل ما وصلنا منه بعض النقول القصيرة في بعض كتب التراجم (٢٦) .

اما الاثر الوحيد من اثار غرس النعمة الذي وصلنا كاملاً وبشكل مباشر فهو كتاب الهفوات النادرة (او البادرة) ويتضمن مجموعة من الاخبار الطريفة والحكايات المسلية والنوادر الممتعة ، ابطالها رجالات الدولة العباسية وسواهم من ذوي المكانة ، جاءت بمثابة سقطات على السنن المتحفظين والمتحرزين من رجالات السلطة والقضاء والادارة ، ولهذا يرجح ان اسم الكتاب كان الهفوات البادرة .

يقول صالح الاشر محقق كتاب الهفوات « موضوع الهفوات النادرة اذن هذا اللون الممتع من ادب الاسمار والحكايات والطرائف والملح ، ويبدو ان هذا اللون من التأليف الادبي اصاب ازدهارا في المجتمعات الاسلامية منذ القرن الهجري الرابع ، ففي الحكاية والسمر مؤانسة وامتناع ، وفيها تنفيس عما كان المجتمع يعانيه من كبت ومرارة وحرمان وفيها عرض لجوانب من الحياة : حياة اناس من جميع الطبقات من ساكني القصور الى الساعين وراء لقمة العيش الشحيحة ساكني الاكواخ » (٢٧) .

وقد اوضح غرس النعمة في فاتحة كتابه « الهفوات » الاسباب التي دفعت الى جمع مادته والغاية من تأليفه ، فقد اراد ان يقدم لقرائه نوادر مستطرفة تسليهم

وتحمل اليهم ألوانا من الفكاهة والمتعة ، ويرجع انه كان يدون خلاصة الاخبار التي كان تتداولها المجالس التي كانت تعقد في دار كتبه ، وعلى هذا يمكن القول ان تصنيف كتاب الهفوات اقتضى وقتا طويلا (٢٨) .

ويحوي كتاب الهفوات ما يزيد على اربع مائة حكاية عرضت بلغة جيدة ، لكن هذه الحكايات لم تسق حسب موضوعاتها وأبطالها ، وانما جاءت هكذا بلا ترتيب ولا تنسيق ، ومرد هذا كما بينا قبل قليل الى ان المؤلف كان يدون ما يجتمع لديه من مواد فترة تلو الاخرى ، وبعض هذه المواد المدونة في الهفوات وصل الى غرس النعمة عن طريق الرواية الشفوية او المشاهدة وبعضها الاخر نقله من بطون العديد من المصادر التي كان يطلع عليها .

واسلوب غرس النعمة في الهفوات اسلوب نثري راق ، اسلوب مدرسة الجاحظ ، وهو اسلوب أصيل يمكن التعامل معه بيسر وسهولة ، ويحوي كتاب الهفوات موادا اخبارية هو مصدرها الوحيد ولهذا غدت مكانة الكتاب عالية جدا (٢٩) .

ومهما علت مكانة « الهفوات » فان شهرة غرس النعمة نبعت من كتاب التاريخ ، فغالبا ما يشار اليه من قبل المترجمين باسم صاحب التاريخ ، وكتاب التاريخ لم يصلنا منه نسخة خطية بشكل مباشر ، لكنه وصلنا بشكل غير مباشر عن طريق سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان ، فقد كتب سبط ابن الجوزي مصنفه مرآة الزمان أكثر من مرة ، وكان في كل مرة يهذب او يزيد ، ويبدو انه عثر في دمشق على مجموعة من الكتب كان من بينها مصنفات آل الصائبي ، فقام باقتباس بعض مواد هذه المصنفات ، وادع في احدى المراتب تاريخ غرس النعمة في متن كتابه بالكامل ، وفي العالم الان عدد كبير من النسخ المخطوطة لكتاب مرآة الزمان ، وفقط نجد نص تاريخ غرس النعمة في نسختين خطيتين احدهما في مكتبة احمد الثالث في اسطنبول برقم ٢٩٠٧ ب والثانية في المكتبة الوطنية بباريس برقم عربي ١٥٠٦ .

ان مكانة تاريخ غرس النعمة تتجلى لنا واضحة من خلال الفترة التي اרך لها ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى من خلال المادة الاخبارية التي حواها من حيث التفصيل ودرجة الوثوقية والتفرد .

لقد اרך غرس النعمة لحوادث السنوات الواقعة ما بين ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م و ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وهي سنة وفاته . وشهدت هذه الفترة بالنسبة لديار الخلافة العباسية إنهيار الحكم البويهي في العراق وغيره ، وتأسيس السلطنة السلجوقية ، وفي الوقت نفسه اجتياح قبائل الغز والتركمان للعراق والجزيرة والشام وأرمينية واسية الصغرى بعد اجتياحهم خراسان وسواها في المشرق . ويعد تأسيس السلطنة

السلجوقية وامتداد حكمها نحو بلاد الشام والجزيرة واسية الصفري من أهم أحداث تاريخ العرب والاسلام وأعمقها تأثيراً ، سواء على الصعيد الديني أم الاجتماعي أم الاقتصادي وحتى البشري والعربي . ومصدرنا الأول والاساسي حول هذه الفترة والذي يرقى الى الدرجة الوثائقية هو تاريخ غرس النعمة ، ومنه نستخلص ان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة الحادي عشرة للميلاد قد حفل بالاحداث الكثيرة والهامة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والسياسية.

هذا ويلاحظ انه على الرغم من ان غرس النعمة كتب تاريخه بناء على وصية ابيه وجعله ذيلاً على تاريخ هذا الاخير ، اعطاه عنواناً خاصاً به هو « عيون التواريخ » وبذلك سبق في اختيار هذا العنوان ابن شاعر الكتبي بسنوات طوال .

وغطى غرس النعمة كشاهد عيان ومشارك في أحداث ، اخبار الصراعات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي رافقت سقوط الحكم البويهى ، وذلك على مستوى الكتل والقبائل والافراد والطوائف ، واهتم بما شهدته العراق اولا اثناء قيام السلطنة السلجوقية واتساع رقعة سلطاتها ، واولى اخبار الجزيرة من الاهتمام ما جاء بالترتيب تالياً لاخبار العراق ، ثم تعرض بعض الشيء لاخبار بلاد الشام واسية الصفري ، واهتمنا الى اخبار مصر والشمال الاريقي ، ونادراً ما اتى على ذكر وقائع بلدان العرب والاسلام الاخرى ، ومع ذلك يلاحظ ان هذا النادر واسع الاهمية الفردية (*) .

* حصلت الباحثة على شهادة الماجستير في التاريخ من كلية الاداب بجامعة دمشق ، برسالتها (عيون التواريخ لغرس النعمة محمد بن هلال الصابي ، دراسة وتحقيق) باشراف الدكتور سهيل زكار .

ثبت بأهم المصادر والمراجع

- ١ - أحمد بن خلكان ، وفيات الاعيان ، باريس ١٨٢٨ .
- ٢ - أحمد بن يحيى ، النية والامل في شرح الملل والنحل ، بيروت ١٩٧٩ .
- ٣ - الليدي ا. دراوور ، الصابئة المندائيون ، بغداد ١٩٦٩ .
- ٤ - حمزة بن اسد بن القلانسي ، تاريخ دمشق ، دمشق ١٩٨٣ .
- ٥ - سهيل زكار ، اخبار القرامطة ، دمشق ١٩٨٣ .
- ٦ - سهيل زكار ، ماني والماتوية ، دمشق ١٩٨٥ .
- ٧ - عبد الرحمن بن علي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبعة مصورة بيروت .
- ٨ - عبد الرزاق الحسني ، الصابئون ، بيروت ١٩٨٣ .
- ٩ - عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ .
- ١٠ - عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر .
- ١١ - علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ، ط . بيروت دار المعرفة .
- ١٢ - علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لايبزغ ١٣٢٠ هـ .
- ١٣ - غضبان رومي هكلة ، الصابئة ، بغداد ١٩٨٣ .
- ١٤ - محمد بن اسحق النديم . الفهرس - طهران ١٩٧١ .
- ١٥ - محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البحر والبحر ، لايبزغ ١٩٢٣ .
- ١٦ - محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .
- ١٧ - محمد بن علي بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، مكتبة المثنى بغداد .
- ١٨ - محمد بن هلال الصابي ، الهفوات النادرة ، دمشق ١٩٦٧ .
- ١٩ - هلال بن المحسن الصابي ، تحف الامراء في تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ .
- ٢٠ - يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ط . مصورة وزارة الثقافة - القاهرة .
- ٢١ - يوسف بن قز اوغلي (سبط ابن الجوزي) - مرآة الزمان - مخطوطة احمد الثالث رقم (٢٩٠٧ ب) .
- ٢٢ - ياقوت الحموي ، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، القاهرة ١٩٠٩ .

- (١) فصبان رومي عكلة ، الصابئة ، بغداد ١٩٨٢ ص ٢٥-١٠ . عبد الرزاق الحسني ، الصابئون . بيروت ١٩٨٣ ص ١٤-٤٦ . عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ ص ٢٦-٢٥ . سهيل زكار ، ماني والماتوية م . دمشق ١٩٨٥ ص ٢٥٨-٢٨٦ . الليسي دراور ، الصابئة المندائيون بغداد ١٩٦٩ ص ٨-٢٣ .
- (٢) محمد بن اسحق النديم ، الفهرس ، طهران ١٩٧١ ص ٢٩٠ - ٢٩١ ، علي بن الحسين السعدي ، مروج الذهب ، بيروت ، دار المعرفة ، ج ١ ص ٢٢٢-٢٢٣ ، ج ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥١ . محمد بن علي بن حزم ، الملص في الملك والنحل ، مكتبة المثنى بغداد ص ٩٤-١٠٣ ، محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لا يبرز ١٩٢٣ ص ١٩١ - ١٩٢ ، ٢١٤ - ٢١٨ . احمد بن يحيى ، المنية والامل في شرح الملل والنحل بيروت ١٩٧٩ ص ٧-٦٨ .
- (٣) ماني والماتوية ، ص ١٨-١١ ، ١٤٢ - ١٦٩ .
- (٤) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ ج ٧ ص ٤٧٤-٤٧٩ .
- (٥) الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، ١٦٥ - ١٧٨ .
- (٦) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم . بيروت ج ١٧٦/٨-١٧٩ . ابن ابي اصيبعة ، ط . بيروت ج ٢ ص ١٦٢ - ٢١٧ . ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر ، القاهرة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ - ٢٦٢ .
- (٧) ابن الجوزي المصدر نفسه ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ص ٨٥-٨٧ .
- (٨) جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لا يبرز ١٢٢٠ هـ ص ١٠٩-١١١ ، احمد بن خلكان ، وفيات الاعيان باريس ١٨٢٨ : ١٤٨/١ ، ياقوت الحموي ، ارشاد الاربيب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) حققه د.س : مرجليوت ، القاهرة ١٩٠٩ : ٢٩٧/٢ .
- (٩) نشر هذه المخطوطة سهيل زكار ضمن نصوص كتابه اخبار القرامطة . معجم الادباء : ٢٩٧/٢ .
- (١٠) اخبار القرامطة : ٥١-٥٢ .
- (١١) اخبار القرامطة ص ٧٠ .
- (١٢) نشر كتابه ((تحفة الامراء في تاريخ الوزراء)) في القاهرة عام ١٩٥٨ محققا من قبل عبد الستار احمد فراج .
- (١٣) مرآة الزمان ، مخطوطة احمد الثالث ٢٩٠٧ ، المجلد الثاني عشر حوادث سنة ٤٤٧ هـ .
- (١٤) المصدر نفسه .
- (١٥) انظر تاريخ دمشق لابن القلاسي ، دمشق ١٩٨٣ ص ١٤٠ .
- (١٦) محفوظ في مكتبة البودليان في اكسفورد برقم ١٢٥ .
- (١٧) لفرس النعمة ترجمة في المصادر التالية :
 - المنتظم لابن الجوزي : ١٥٧/٧ ، ١٨٨/٨ ، ٢١٦ ، ٤٢/٩ - ٤٣ .
 - الكامل بالتاريخ لابن الاثير حوادث سنة ٤٨٠ .
 - مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ((نهاية المخطوط الذي نحلقه)) .
 - البداية الزاهرة لابن كثير ١٢/١٢٤ .

- النجوم لابن تهرى بردي ١٢٦/٥ في ١٢٢ .
- النجوم الزاهرة لابن تهرى بردي ٢٦/٥ ، ١٢٢ .
- كشف القنون لحاجي خليفة ٢٩٩/١ .
- ورد ذكره في معجم الادباء لياقوت (ط . مرجليوث) ١٧٠/١ ، ١٩٤ ، ١٦٣/٥ ، ٢٠٤ ، ٢٥١/٦ .
- وذكره ابن خلكان في ترجمة ابيه هلال بن الحسن ، وابن الفوطي في كتابه تلخيص معجم الادباء ١١٦٣/٢/٤ – ١١٦٤ ، كما تحدث عنه ميخائيل عواد في مقدمة رسوم دار الخلافة : ٢٥/٢١ ودرس حياته صالح الاشر في مقدمة كتاب الهفوات النادرة .
- (١٨) انظر المنتظم ٤٢/٩ تلخيص معجم الادباء ١١٦٣/٢/٤ ، البداية والنهاية ١٢٤/١٢ .
- (١٩) انظر الهفوات النادرة دمشق ١٩٦٧ : ١٤ ، ١٤١ ، ٢٧١ ، ٣٠٤ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ، ٣٤٥ .
- (٢٠) المنتظم : ١٠١/٨ .
- (٢١) تهرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٢٦ .
- (٢٢) المنتظم ٢١٦/٨ .
- (٢٣) المنتظم ٤٢/٩ ، البداية والنهاية ١٢٤/٢ .
- (٢٤) انظر معجم البلدان ٩٢/١٧ .
- (٢٥) انظر مقدمة المحقق ص ٢٨ .
- (٢٦) انظر معجم الادباء ٢٥٥/٧ – ٢٥٦ . تاريخ الحكماء للقفطي ٢٩٤ .
- (٢٧) مقدمة المحقق ص ٣٢ .
- (٢٨) مقدمة المحقق ٣٣ – ٣٤ و ص ٤٠ من نص الكتاب المحقق .
- (٢٩) انظر مقدمة المحقق ٩ – ٤١ ، وانظر ايضا بحث ((من العربية العباسية استقرأ في الهفوات النادرة)) للدكتور ابراهيم السامرائي في مجلة الناشر العربي العدد الرابع ، ابريل ١٩٨٥ ص ٢٦ – ٣٢ .

دراسات تاريخية

١٩٨٠ - ١٩٨٦

(الفهرس العام ، الاعداد ١ - ٢٤)

العدد الاول : آذار « مارس » ١٩٨٠

- تقديم د. شاكرا الفحام
- كتابة تاريخ العرب ! لماذا د. أحمد بدر
- انتشار الاسلام في الخليج في زمن الرسول الكريم د. نبیه عاقل
- اصول تباين مواقف الدول الاوربية حيال المسألة السورية « اللبنانية » د. أحمد طربین
- مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام د. عبد الكريم رافق
- الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها د. خیریه قاسمیه
- العرب في شرق افريقية — جزر القمر عبد الرحمن بدر الدين
- ملوك اوغاريت من خلال الوثائق د. علي أبو عساف

العدد الثاني : حزيران « يونيه » ١٩٨٠

- عود على بدء د. شاكرا الفحام
- التدمير في الدنيا الرحبة خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين د. عدنان البني

- النشاط التبشيري الالماني في فلسطين بين عامي ١٨٤١-١٩١٨ د. علي محافظة
- التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن الشيباني في ارساء دعائمه د. سهيل زكار
- بين التاريخ الجغرافي والجغرافية التاريخية للوطن العربي مصطفى الحاج ابراهيم
- اضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الايوبية وجمهورية البندقية ١١٧١ - ١٢٥٠ د. عادل زيتون
- كتابة تاريخ العرب « مشروع اللجنة التحضيرية »

العدد الثالث : كانون اول « ديسمبر » ١٩٨٠

- منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر د. محمد الطالبي
- التراث العربي وعناصر الصالحة لنهضة عربية حديثة عبدالعزیز بن عبد الله
- ابن خلدون والمادية التاريخية د. احمد ماضي
- بعض من ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي د. نبيه عاقل
- البصرة اول قاعدة للتوسع العثماني في الخليج العربي د. مصطفى عبد القادر النجار
- مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الاموي د. احمد سليم سعيدان
- الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢ - ٣٥٩ هـ د. امينة بيطار
- مع المجلات العربية - مجلتان تاريخيتان د. شاكر الفحام

العدد الرابع : نيسان « ابريل » ١٩٨١

- مع بدايات السياسة الامريكية في الشرق العربي د. خيرية قاسمية
- مظاهر من التنظيم الحربي في بلاد الشام في العهد العثماني د. عبد الكريم رافق
- بعض احداث الدولة العباسية والدور العباسي الاول من خلال منظور عنصري واقتصادي اجتماعي د. نبيه عاقل
- حياة الناس في مدن الثغور - مدينة طرسوس د. مصطفى علي الحيارى
- اضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس د. يوسف درويش فوانمة

- التنظيم العسكري عند العرب المسلمين — فترة النشأة والتكوين د. أحمد بدر
- مؤتمرات تاريخية . المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية في بخارست والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب د. مسعود ضاهر

العدد الخامس : تموز (يوليو) ١٩٨١

- المسجد واثره في تطوير التعليم د. حسين أمين
- اثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوربيين د. محمد كامل عياد
- نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي د. الحبيب الجناحاني
- الواجهة العسكرية للحضارة العربية الاسلامية « فتح افريقية جذوره السياسية وابعاده الاستراتيجية » د. عمر السعيد
- الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر في اواخر العهد العثماني واولئل الاحتلال الفرنسي د. ناصر الدين سعيدوني
- الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي حتى الحروب الصليبية د. عمر عبدالسلام التدمري
- اجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي امين النفوري
- بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته د. يوسف بكار
- دو الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن خلال تبعيتها للهند ١٨٣٩ — ١٩٣٧ سلطان ناجي
- الردة وموقف ابي بكر منها نجدة خماش
- وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني د. عبدالرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

العدد السادس : تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨١

- قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية د. عبد الكريم رافق
- مروان بن الحكم والخلافة د. صالح الحمارنة
- في اصول الكتابة العربية محمد محفل

- الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري في
العصور الشرقية القديمة
- د. قاسم طوير
- حول مصادر تاريخ العرب القديم
- د. مفيد رائف العابد
- مملكة بيت بحاني الارامية
- د. علي ابو عساف

العدد السابع : كانون الثاني « يناير » ١٩٨٢ م

- معالم الحضارة التربوية الاسلامية في افريقية
- د. محي الدين صابر
- مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة
العربية الاسلامية
- د. عبد الحميد حاجيات
- محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر – الابعاد الدولية
والاستراتيجية
- د. عمر السعيد
- الاسباب الاقتصادية والاجتماعية لمقاومة قريش الدعوة الى الاسلام
- د. نبيه عاقل
- الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق
- د. ملكة ابيض
- سورية في مخططات السياسة البريطانية ١٩٤٣ – ١٩٤٤
- د. رؤوف عباس
- صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام – من الجمعيات العلمية
الى الجمعيات السياسية
- د. سهيلة الريماوي

العدد الثامن : نيسان « ابريل » ١٩٨٢

- جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة
- د. عبد الكريم رافق
- القسم الاول (مظاهر عمرانية واجتماعية)
- العرب والنوبة في صدر الاسلام
- د. عوض محمد خليفات
- هجرة الثقافة من المشرق الى المغرب في القرن الثاني للهجرة
- د. احمد بدر
- حول الاهمية الاثرية لمكتشفات ابلا – تل مردوخ
- د. عدنان البني
- المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين
- د. نقولا زيادة

العددان التاسع والعاشر تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٨٢

- جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة القسم الثاني (مظاهر اقتصادية) د. عبد الكريم رافق
- روسية القيصريّة والمشرق العربي د. خيرية قاسمية
- الامير حسين بن فخر الدين المعني الثاني - حياته وآثاره د. محمد عدنان البخيت
- تطور علاقات الكويت بالاقطار العربية قبل الاستقلال د. عبدالمالك خلف التميمي
- صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨-١٩٠٩ م د. سهيلة الريماوي
- فصل من تاريخ سورية الحديث - صور من حوران في القرن التاسع عشر د. ليندا شيلشر
- المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي د. نبیه عاقل

العدد الحادي عشر : كانون الثاني ١٩٨٣

- الثقافة والاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر د. احمد ماضي
- الردافة - على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية قبل الاسلام في القرن السادس ومطلع السابع الميلادي (مع ملحق) د. صالح درادكة
- المقاومة العربية للصهيونية اواخر العهد العثماني ١٩٠٨ - ١٩١٧ د. خيرية قاسمية
- مرافق الامن والتعليم والاشغال العامة في فلسطين كما يكشف عنها موظف كبير في الادارة الانتدابية د. احمد طرين

العدد الثاني عشر : ايار (مايو) ١٩٨٣

- مشكلة الحكم في الاسلام بعد وفاة الرسول - دراسة للمؤثرات الفاعلة في مرحلة الاصول د. نبیه عاقل
- الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن الميلادي د. نعيم فرح

- معان وجوارها — استعراض تاريخي د. محمد عدنان البخيت
- الدولة الرستمية في تيهرت د. سهيل زكار
- الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة في الفترة بين الحربين العالميتين د. خيرية قاسمية
- بعض مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في جزيرة صقلية د. فائق بكر الصواف

العددان الثالث عشر والرابع عشر : تشرين اول (اكتوبر) ١٩٨٣

- فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية د. عبد الهادي التازي
- خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية د. محمد عبدالقادر خريسات
- الدعوة العباسية — دراسة في الهوية د. نبيه عاقل
- الطاعون والجفاف واثرها على البيئة في جنوب الشام د. يوسف درويش غوانمة
- دور اسرة آل الحنش والمهام التي اوكلت اليها في ريف دمشق
- الشام — دراسة وثائقية د. محمد عدنان البخيت
- تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين د. سهيلة الريماوي
- الطباعة ودورها في النهضة الاوربية وفي اليقظة العربية د. ذوقان قرقوط

العددان الخامس عشر والسادس عشر ، كانون الثاني — ايار ١٩٨٤

- مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني د. عبد الكريم رافق
- المجتمع الاندلسي والمجتمع الاسباني في عصر ملوك الطوائف د. احمد بدر
- لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) في العصر الاسلامي د. صالح درادكة
- حدود الجزيرة الفراتية عند الاصطخري وابن حوقل (بين شمشاط وسميساط) د. عبدالمرشد عزاي
- تعريف النقد واثره على العلاقات العربية — البيزنطية والوضع الاقتصادي د. نجدة خماش
- اضواء على الصناعة والتجارة في مدة بلاد الشام ودورها في

- التجارة العالمية في العهد البيزنطي د. نعيم فرح
- صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨-١٩١٨) د. سهيلة الريماوي
- حزب اللامركزية الادارية الضماني
- حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاديات ومجتمعات الامبراطورية العثمانية د. زهير غزال

العددان السابع عشر والثامن عشر : اب - تشرين الثاني ١٩٨٤

- نظرة في فهم التاريخ د. سليمان سعدون البدر
- بعض ملامح الاتجاهات الرئيسية في الاستشراق د. احمد درغام
- ايلاف قريش - ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام د. صالح درادكة
- اوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام د. نجدة خماش
- ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التخوم د. نبيه عاقل
- الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي د. عبد الكريم رافق
- المكتب العربي في القاهرة - دراسة في الوثائق الدبلوماسية د. خيرية قاسمية
- من وثائق التاريخ الاجتماعي في القطر العراقي خلال الحرب العالمية الاولى د. عبد النبي اصطيف

العددان التاسع عشر والعشرون : نيسان - تموز ١٩٨٥

- المؤتمر الاسلامي العام في القدس ١٩٣١ - محاولة للبحث عن نصير د. خيرية قاسمية
- من تاريخ سورية الحديث - العلاقات السورية - التركية د. عبد الكريم رافق
- ١٩١٨ - ١٩٢٦
- الحياة الفكرية في الاندلس من خلال بلاط الحكم المستنصر بالله د. احمد بدر
- القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي د. محمد ضيف الله بطاينة
- دور جدام في الفتوح الاسلامية د. صالح الحمارنة

- عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الارامي القديم (حتى نهاية القرن الثامن ق.م) د. محمد حرب فرزات
- الصلات التجارية بين مصر وسورية حتى نهاية الدولة القديمة (٤٠٠٠ - ٢٢٨٠ ق م) د. محمود عبد الحميد احمد
- الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام من خلال الوثائق العثمانية علي يوسف البلخي

العددان الواحد والعشرون والثاني والعشرون : آذار - حزيران ١٩٨٦

- الندوة الثانية حول مشروع كتابة تاريخ العرب
- بيان هام لاتحاد المؤرخين العرب
- النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين د. محمد ضيف الله بطاينة
- البلقاء من الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري د. محمد عبد القادر خريسات
- النظام المالي عند الحفصيين د. صالح فياض ابو دياك
- استعمال العربية في الدواوين المالية د. فالح حسين
- الادب في التاريخ الارامي القديم د. محمد حرب فرزات
- الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية د. يسرى الكجك
- مارديو (الاموريون) في نصوص ابلا الفونسو اركي
- وثيقة مقدسية تاريخية جديدة - كتاب الوقف الذي انشأه ترجمة قاسم طوير
- الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالح المتوفى سنة ٦٧٦هـ
- على مقام النبي موسى عليه السلام د. كامل جميل العسلي
- الارشيف الوطني الهندي وموجوداته من وثائق العراق د. مصطفى عبد القادر النجار
- كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة محسن يونس

- جغرافية اليمن في القرن الاول للهجرة محمد سعيد شكري
- لمحات عن يهود الجزائر (منذ مطلع القرن ١٨ حتى عام ١٨٣٠) محمد دادة
- قضية الموصل وصداها في الاوساط العراقية جعفر الحيايلى

العددان الثالث والعشرون والرابع والعشرون : ايلول - كانون الاول ١٩٨٧

- عبد الرحمن الكواكبي - دراسة في فكرة السياسي د. سهيلة الريماوي
- اوضاع الفلاحين في دمشق وصناعتها د. يوسف نعيمة
- التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن (من جنوب الشام) في العهد المملوكي د. يوسف غوانمة
- العلاقات الاقتصادية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس) د. نعيم فرح
- التاجر ونشاطاته في العهد البابلي القديم د. عيد مرعي
- ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك في القرن التاسع عشر الغالى الغربي
- السياسة التعليمية في منطقة القبائل عبد القادر خلوش
- عصبة العمل القومي واسهامها في الحركة القومية في سورية مصطفى بلاوني (١٩٣٣ - ١٩٣٩)
- بعض مظاهر التنظيم الاداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشا فندي ابو صخر
- ملاحظات حول اللغة الابلائية وقواعدها د. عيد مرعي



دراسات تاريخية

١٩٨٠ - ١٩٨٦

بحسب اسماء الباحثين

ابو عساف ، علي : ملوك اوغاريت من خلال الوثائق ، ١ : ١ (١٩٨٠ / ٣) ص ٢٩ - ١٤١ .

ابو عساف ، علي : مملكة بيت بحيانى الارامية ، ٦ : ٢ (١٩٨١ / ١٠) ص ١٤٧ - ١٥٩ .

ابو دياك ، صالح فياض : النظام المالى عند الحفصيين ، ٧ : ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦ / ٦ - ٣) ص ٨٧ - ١١٤ .

ابو فخر ، فندي : بعض مظاهر التنظيم الاداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشا ١٨٣١ - ١٨٤٠ ، ٧ : ٢٣ و ٢٤ (١٩٨٦ / ١٢ - ٩) ص ١٩٩ - ٢١٦ .

ابيض ، ملكسة : الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق (من الفتح حتى عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) ٣ : ٧ (١٩٨٢ / ١) ص ٩٨ - ١١٤ .

احمد ، محمود عبد الصلات التجارية بين مصر وسورية ، منذ عصور ما قبل الاسرات حتى نهاية الدولة القديمة (٤٠٠٠ - ٢٢٨٠ ق.م) ، ٦ : ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥ / ٧) ص ١٩٣ - ١٩٩ .

آرسى ، الفونسو : ماركو ، الاموريون في نصوص ابلا (ترجمة قاسم طوير) ٧ : ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦ / ٦ و ٣) .

امين ، حسين : المسجد واثره في تطوير التعليم ، ٢ : ٥ (١٩٨١ / ٧) ص ٥ - ١٣ .

بدر ، احمد : كتاب تاريخ العرب ، لماذا ؟ ، ١ : ١ (١٩٨٠ / ٣) ص ٩ - ٢٦ .

بدر ، احمد : التنظيم العسكري عند العرب المسلمين - فترة النشأة والتكوين ٢ : ٤ (١٩٨١ / ٤) ص ١١٠ - ١٦٦ .

اسم الباحث ، عنوان البحث ، عدد سنوات الاصدار : رقم العدد ، (تاريخ صدوره) ، ارقام الصفحات .

بدر ، أحمد : هجرة الثقافة من المشرق الى المغرب في القرن الثاني للهجرة : ٨٠٣ (١٩٨٢/٤) ص ٧٧-٩٤ .

بدر ، أحمد : المجتمع الأندلسي والمجتمع الإسباني في عصر ملوك الطوائف : ١٥٠٥ و ١٦ (١ و ٥ / ١٩٨٤) ص ٣٢-٦٦ .

بدر ، أحمد : الحياة الفكرية في الأندلس من خلال النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر بالله ، ١٩٠٦ و ٢٠ (٤ و ٧ / ١٩٨٥) ص ١٠٦-١٢٩ .

البدر ، سليمان سعدون : نظرة في فهم التاريخ ، ١٧٠٥ و ١٨ (١١ / ١٩٨٤) ص ٧-٤٣ .
بدر الدين عبد الرحمن : العرب في شرق إفريقيا - جزر القمر ، ١٠١٥ (٣ / ١٩٨٠) ص ١١٥-٢٨ .

بخيت ، محمد عدنان : الأمير حسين بن فخر الدين المعني الثاني - حياته وأثره ، ٩٠٣ و ١٠ (١٠ / ١٩٨٢) ص ٧٨-٩٣ .

بخيت ، محمد عدنان : معان وجوارها - استعراض تاريخي ، ١٢٠٤ (٥ / ١٩٨٣) ص ٧٣-٤٤ .

بخيت ، محمد عدنان : دور أسرة آل الحنش والمهام التي أوكلت إليها في دير دمشق الشام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ - ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ (دراسة وثائقية) ، ١٢٠٤ و ١٤ (١٠ / ١٩٨٣) ص ٨٨-١٣٧ .

بطاينة، محمد ضيف الله : القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الإسلامي ١٩٠٦ و ٢٠ (٤ و ٧ / ١٩٨٥) ص ١٣٠-١٤٨ .

بطاينة، محمد ضيف الله : النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين ، ٢١٠٧ و ٢٢ (٣ و ٦ / ١٩٨٦) ص ١١-٤٨ .

بكار ، يوسف : بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته ، ٥٠٢ (٧ / ١٩٨١) ص ١١٧-١٢٦ .

بلاوني ، مصطفى : عصية العمل القومي وأسبابها في الحركة القومية في سورية (١٩٣٣ - ١٩٣٩) ، ٢٣ و ٢٤ (٩ و ١٢ / ١٩٨٦) ص ١٩٠-١٩٨ .

بلخي ، علي يوسف : الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠ من خلال الوثائق العثمانية ، ١٩٠٦ و ٢٠ (٤ و ٧ / ١٩٨٥) ص ٢٠٠-٢١٨ .

بنعبد الله، عبد العزيز : التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة ٣:١
(١٢/١٩٨٠) ، ص ٦٤-٣٩ .

بني ، عدنان : التدمير في الدنيا الرحبة ٢: ١ (١٩٨٠/٦) ص ٢٥-٣٧ .

بني ، عدنان : حول الاهمية الاثرية لمكتشفات ابل (تل مردوخ) ٨:٣
(١٩٨٢/٤) ص ١٠١-٩٥ .

بيطار ، امينة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين ١٣٢-٣٥٩ هـ ١ : ٣
(١٢/١٩٨٠) ، ص ١٥٥-١٢٣ .

التازي ، عبد الهادي : فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية ٤: ١٣ و
١٤ (١٩٨٣/١٠) ، ص ٢٢-٥ .

التدمري ، عمر عبد السلام : الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي
حتى الحروب الصليبية ٢: ٥ (١٩٨١/٧) ، ص ٩٨-٧٧ .

تميمي ، عبد الخالق خلف : تطور علاقات الكويت ، بالاقطار العربية قبل الاستقلال
١٠ و ٩: ٣ (١٩٨٢/١٠) ، ص ١١٩-٩٥ .

الجنحاني ، الحبيب : نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي من القرن ١-٦ هـ/
٧-١٢ م ٢: ٥ (١٩٨١/٧) ، ص ٤٤-٣٠ .

حاج ابراهيم، مصطفى : بين التاريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخية في الوطن العربي
٢: ١ (١٢/١٩٨٠) ، ص ١١٧ - ١٣٣ .

حاجبات ، عبد الحميد : مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الاسلامية،
٣: ٧ (١٩٨٢/١) ، ص ٧٣-٣٤ .

الحسون ، مصطفى : الرصافة ايام الفساسة ٤: ١١ (١٩٨٣/١) ، ص ٩٥-٧٩ .

حسين ، فالح : استعمال العربية في الدواوين المالية قبل عبد الملك بن مروان
وبعده ٧: ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦/٦ و ٣) ، ص ١٣٤-١١٥ .

الحمارة ، صالح : مروان بن الحكم والخلافة ٢: ٦ (١٩٨١/١٠) ، ص ٥٨-٢٩ .

الحمارة ، صالح : دور جذام في الفتوح الاسلامية : ٦ و ١٩: ٢ (١٩٨٥/٧ و ٤)
ص ١٤٩ - ١٦٩ .

حلوش ، عبد القادر : السياسة التعليمية الفرنسية في منطقة القبائل (١٨٧١ - ١٩١٤) ٢٤٠٢٣:٧ (١٩٨٦/١٢ و ٩) ، ص ١٧٩-١٨٩ .

حيالي ، جعفر : قضية الموصل وصداها في الاوساط العراقية ، ٢٢ و ٢١:٧ (١٩٨٦/٦ و ٣) ، ص ٢٤٦-٢٣٧ .

حيارى ، مصطفى علي : حياة الناس في مدن الثغور - مدينة طرسوس ، ٤:٢ (٤ / ١٩٨١) ، ص ٨٥-٩٥ .

خريسات ، محمد عبد القادر : البلقاء من الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري (دراسة سياسية ادارية) ٢١:٧ و ٢٢ (٦ و ٣ / ١٩٨٦) ، ص ٨٦-٤٩ .

خريسات ، محمد عبد : خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية ، ١٣:٤ و ١٤ (١٩٨٣/١٠) ، ص ٥٠-٢٣ .

خليفات ، عوض محمد : العرب والتوبة في صدر الاسلام ، ٨:٣ (٤ / ١٩٨٢) ، ص ٧٦-٥٠ .

خماش ، نجدة : الردة وموقف ابي بكر منها ٥:٢ (٧ / ١٩٨١) ، ص ١٥١-١٦٣ .

خماش ، نجدة : تعريب النقد واثره على العلاقات العربية - البيزنطية والوضع الاقتصادي ١٦ و ١٥:٥ (١ / ١٩٨٤) ، ص ١٣٣-١٤٦ .

خماش ، نجدة : اوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام ١٧:٥ و ١٨ (١١ و ٨ / ١٩٨٤) ، ص ٨٧-٧٣ .

دادة ، محمد : لمحات من يهود الجزائر منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠ ٢٢ و ٢١:٧ (٦ و ٣ / ١٩٨٦) ، ص ٢٣٦-٢٢٠ .

درادكة ، صالح : الردافة على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية قبل الاسلام (في القرن السادس ومطلع السابع للميلاد) ١١:٤ (١ / ١٩٨٣) ، ص ٥٢-٢٢ .

درادكة ، صالح : لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) في العصر الاسلامي ١٥:٥ و ١٦ (٥ و ١ / ١٩٨٤) ، ص ٦٧-١١٠ .

درادكة ، صالح : ايلاف قريش ، ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام ١٧:٥ و ١٨ (٨ و ١١ / ١٩٨٤) ، ص ٧٢-٥١ .

درفام ، احمد : بعض ملامح الاتجاهات الرئيسية في الاستشراق ١٧٠٥ و ١٨ (١١ و ١٩٨٤) ص ٤٤ - ٥١ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام (من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر) ١٠١ (٣ / ١٩٨٦) ، ص ٦٦ - ٩٥ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر من التنظيم الحربي في بلاد الشام في العهد العثماني ٢ : ٤ (٤ / ١٩٨١) ، ص ٣٠ - ٦٢ .

رافق ، عبد الكريم : قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية ٢ : ٦ (١١ / ١٩٨١) ، ص ٢٨ - ٥ .

رافق ، عبد الكريم : جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ - ١٢٧٧ / ١٨٥٧ - ١٨٦١ ، (القسم الاول مظاهر عمرانية واجتماعية) ٣ : ٨ (٤ / ١٩٨٢) ص ٧ - ٤٩ .

رافق ، عبد الكريم : جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة القسم الثاني مظاهر اقتصادية ٣ : ١٠ و ٩ (١٠ / ١٩٨٢) ، ص ٣٩ - ٥ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني ١٥٠٥ و ١٦ (٥ / ١٩٨٤) ص ٢٨ - ٥ .

رافق ، عبد الكريم : الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي في القرن التاسع عشر ، ١٧٠٥ و ١٨ (١١ و ١٩٨٤) ، ص ١١٥ - ١٥٩ .

رافق ، عبد الكريم : من تاريخ سورية الحديث ، العلاقات السورية التركية من ١٩١٨ - ١٩٢٦ ١٩٠٦ و ٢٠ (٧ و ١٩٨٥) ، ص ٥٦ - ١٠٥ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام من الجمعيات العلمية الى الجمعيات السياسية ، ٣ : ٧ (١ / ١٩٨٢) ، ص ١٣٤ - ١٥٦ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨ - ١٩٠٩) ٣ : ١٠ و ٩ (١٠ / ١٩٨٢) ، ص ١٢٠ - ١٤٠ .

الريماوي ، سهيلة : تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين (١٩٠٠ - ١٩١٨) (١٤ و ١٣ / ١١ و ١٩٨٣) ، ص ١٣٨ - ١٨٤ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨-١٩١٨) حزب اللامركزية الادارية العثماني ، ١٥٠٥ و ١٦ و ١١ / ٥١١ (١٩٨٤) ص ١٧٣-٢٠٦ .

الريماوي ، سهيلة : عبد الرحمن الكواكبي دراسة في فكرة السياسي ، ٢٣:٧ و ٢٤ (١٩٨٦ / ١٢ و ٩) ، ص ٧-٤٦ .

زكار ، سهيل : التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن الشيباني في ارساء دعائمه ، ٢:١ (١٩٨٠ / ٦) ، ص ١٠٣ - ١١٦ .

زكار ، سهيل : الدولة الرستمية في تيهرت ، ٤ : ١٢ (١٩٨٣ / ٥) ، ص ٧٤ - ٩٠ .

زيتون ، عادل : اضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الايوبية وجمهورية البندقية ١٧١ - ١٢٥٠ ، ٢:١ (١٩٨٠ / ٦) .

زيادة ، نيقولا : المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة (عصر الفارابي) ٨:٣ (١٩٨٢ / ٤) ، ص ١٠٢-١٤٣ .

سطيف ، عبد النبي : من وثائق التاريخ الاجتماعي في القطر العراقي خلال الحرب العالمية الاولى ، ١٧:٥ و ١٨ (١٩٨٤ / ١١ و ٨) ، ص ١٨٤ - ١٩٤ .

سعيدان ، احمد سليم : مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الاموي ، ٣:١ (١٩٨٠ / ١٢) ، ص ١١٣-١٢٢ .

سعيدني ، عمر : الواجهة العسكرية للحضارة العربية الاسلامية - فتح افريقية جذوره السياسية وابعاده الاستراتيجية ، ٢ : ٥ (١٩٨١ / ٧) ، ص ٤٥-٥٥ .

سعيدني ، عمر : محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر - الابعاد الدولية والاستراتيجية ، ٧:٣ (١٩٨٢ / ١) ، ص ٧٤-٨٢ .

سعيدوني ، ناصر الدين : الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر في اواخر العهد العثماني واولائل الاحتلال الفرنسي ، ٥:٢ (١٩٨١ / ٧) ، ص ٥٦-٧٦ .

شكري ، محمد سعيد : جغرافية اليمن في القرن الاول للهجرة ، ٢٢ و ٢١:٧ (١٩٨٦ / ٦ و ٣) ، ص ٢٠٥-٢١٩ .

شليشر ، ليندا : فصل من تاريخ سورية الحديث - صور من حوران في القرن التاسع عشر (ترجمة) ١٠:٣ و ١٠ (١٩٨٢/١٠) ، ص ١٤١ - ١٦٧ .

صابر ، محي الدين : معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقية ، ٧:٣ (١٩٨٢/١) ، ص ٣٣-٧ .

الصواف ، فائق بكر : بعض مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في جزيرة صقلية ، ١٢:٤ (١٩٨٣/٥) ص ١٢١-١٤٤ .

ضاهر ، مسعود : المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب ، ٤:٢ (١٩٨١/٤) ، ص ١٦٧-١٨١ .

طالبي ، محمد ، منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر ، ٣:١ (١٩٨٠/١٢) ، ص ٥ - ٣٨ .

طرين ، احمد : اصول تباين مواقف الدول الاوربية حيال المسألة السورية- اللبنانية ١٨٦٠-١٨٦١ ، ١:١٦ (١٩٨٠/٣) ، ص ٥٣-٦٥ .

طرين ، احمد : مرافق الامن والتعليم والاشغال العامة في فلسطين كما يكشف عنها موظف كبير في الادارة الانتدابية ، ١١:٤ (١٩٨٣/١) ، ص ٩٦-١١٩ .

طوير ، قاسم : الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري في العصور الشرقية القديمة ، ١:٢ (١٩٧١/١٠) ، ص ١١٣-١٢٨ .

عابد ، مفيد وائف : حول مصادر تاريخ العرب القديم ، ٦:٢ (١٩٨١/١٠) ، ص ١٢٩-١٤٦ .

عاقل ، نبيه : انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول الكريم ، ملاحظات ومنطلقات للدراسة ، ١:١ (١٩٨٠/٣) ، ص ٢٧-٥٢ .

عاقل ، نبيه : بعض من ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي ، ٣:١ (١٩٨٠/١٢) ، ص ٧٦-٩٧ .

عاقل ، نبيه : بعض احداث الدولة العباسية والدور الاول من خلال منظور عنصري واقتصادي واجتماعي ، ٤:٢ (١٩٨١/٤) ، ص ٦٣-٨٤ .

عاقل ، نبيه : الاسباب الاقتصادية والاجتماعية لمقاومة قريش الدعوة الى الاسلام ٧:٣ (١٩٨٢/١) ، ص ٨٣-٩٧ .

- عاقل ، نبيه** : المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي ٩:٣٠
١٠ (١٩٨٢/١٠) ، ص ١٦٨-١٩٩ .
- عاقل ، نبيه** : مشكلة الحكم في الاسلام بعد وفاة الرسول ، دراسة
للمؤشرات الفاعلة في مرحلة الاصول ، ١٢:٤ (١٩٨٢/٥) ،
ص ٢٧-٧٠ .
- عاقل ، نبيه** : الدعوة العباسية ، دراسة في الهوية من خلال المصادر
الجديدة والآراء المتضاربة ١٣:٤ و ١٤ (١٩٨٣/١٠) ، ص
٧٣-٥١ .
- عاقل ، نبيه** : ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التخوم في الدور العباسي
الاول ، ١٧:٥ و ١٨ (١٩٨٤/١١ و ٨) ، ص ٨٨-١١٤ .
- عباس ، رؤوف** : سورية في مخططات السياسة البريطانية ١٩٤٣-١٩٤٤
٧:٣ (١٩٨٢/١) ، ص ١١٥-١٣٣ .
- عبد الرحيم ، عبد الرحمن** : وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني ،
عبد الرحيم : ٥:٢ (١٩٨١/٧) ، ص ١٦٤-١٨٤ .
- عزاوي ، عبد المرشد** : حدود الجزيرة الفراتية عند الاصطخري وابن حوقل ، بين
شمشاط ، وسميساط ، ١٥:٥ و ١٦ (١٩٨٤/٥) ، ص
١١١-١٣٢ .
- العسلي ، كامل جميل** : وثيقة مقدسية تاريخية جديدة : كتاب الوقف الذي انشاه
الملك الظاهر بيبرس بن عبدالله البندقداري الصالح المتوفى
سنة ٦٧٦ هـ على مقام النبي موسى عليه السلام ، ٢١:٧ و
٢٢ (١٩٨٦/٦ و ٣) ، ص ١٨١-١٨٦ .
- عياد ، محمد كامل** : اثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوربيين ،
٥:٢ (١٩٨١/٧) ، ص ١٤-٢٩ .
- الغربي ، الفالي** : الحياة السياسية في نيابة الجزائر ابان عصر الدايات ، ثورة
ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك في مطلع القرن التاسع
عشر ، ٢٣:٧ و ٢٤ (١٩٨٦/١٢ و ٩) ، ص ١٦٤-١٧٨ .
- غزال ، زهير** : حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية
العثمانية ، ١٥:٥ و ١٦ (١٩٨٤/٥) ، ص ٢٠٧-٢١٧ .

غوانمة ، يوسف دويش : اضواء جديدة ، على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس ،
٤:٢ (١٩٨١/٤) ، ص ٩٦-١٠٩ .

غوانمة ، يوسف دويش : الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب الشام
(الاردن وفلسطين) في العصر المملوكي ، ١٣:٤ و ١٤ (١٠) /
(١٩٨٣) . ص ٧٤-٨٧ .

غوانمة ، يوسف دويش : التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن (من جنوب
الشام) في العصر المملوكي ٢٣:٧ و ٢٤ (٩ و ١٢ / ١٩٨٦) ، ص
٨٦ - ١٠٢ .

فحام ، شاكِر : عود على بدء ، ٢:١ (١٩٨٠/٦) ، ص ٣-٣٦ .

فحام ، شاكِر : مجلتان تاريخيتان ٣:١٤ (١٩٨٠/١٢) ص ١٥٦-١٦٦ .

فرح ، نعيم : الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر الابيض المتوسط
في القرن الثامن الميلادي ، ١٢:٤ (١٩٨٣/٥) ، ص ٢٨-٤٣ .

فرح ، نعيم : اضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في
التجارة العالمية في العهد البيزنطي ، من خلال المصادر اليونانية
واللاتينية المعاصرة ١٥:٥ و ١٦ (٥ و ١٩٨٤) ، ص ١٤٧-
١٧٢ .

فرح ، نعيم : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في منطقة ما بين النهرين
السورية في القرنين الخامس والسادس (القسم الاول) ٧:
٢٣ و ٢٤ (٩ و ١٢ / ١٩٨٦) ، ص ١٠٣-١٣٧ .

فرزات ، محمد حرب : عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الارامي
القديم حتى اواخر القرن الثامن ق.م ١٩:٦ و ٢٠ (٧ و ٤ /
١٩٨٥) ، ص ١٧٠-١٩٢ .

فرزات ، محمد حرب : الادب في التاريخ الارامي القديم ٢١:٧ و ٢٢ (٣ و ٦ / ١٩٨٦) ،
ص ١٣٥-١٦١ .

قاسمية ، خيرية : الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفي اعقابها
١٩٣٩-١٩٥٢ ١٠:١ (٣ / ١٩٨٠) ، ص ٩٦-١١٤ .

قاسمية ، خيرية : مع بدايات السياسة الامريكية في المشرق العربي ٤:٢ ،
(٤ / ١٩٨١) ، ص ٥-٢٩ .

- قاسمية ، خيرية : روسيا القيصرية والمشرق العربي ، ١٩٠٣ و ١٠ (١١ / ١٩٨٢) ص ٤٠-٧٧ .
- قاسمية ، خيرية : المقاومة العربية للصهيونية اواخر العهد العثماني (١٩٠٨-١٩١٧) الاتجاهات الرئيسية ، ١١:٤ (١ / ١٩٨٣) ص ٥٣-٦٨ .
- قاسمية ، خيرية : الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة في الفترة بين الحربين العالميتين ، ١٢:٤ (٥ / ١٩٨٣) ، ص ٩١-١٢٠ .
- قاسمية ، خيرية : من خفايا السياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى ، المكتب العربي في القاهرة - قراءة في الوثائق البريطانية ، ١٧:٥ و ١٨ (٨ و ١١ / ١٩٨٤) ، ص ١٦٠-١٨٣ .
- قاسمية خيرية : المؤتمر الاسلامي في القدس ١٩٣١ - محاولة للبحث من نصير ، ١٩:٦ و ٢٠ (٤ و ٧ / ١٩٨٥) ، ص ١٧-٥٥ .
- قرقوط ، ذوقان : الطباعة ودورها في النهضة الاوربية وفي اليقظة العربية : ١٣ و ١٤ (١١ / ١٩٨٣) ، ص ١٨٥-١٩٦ .
- كجك ، يسرى : الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية ، ٢٢ و ٢١:٧ (٣ و ٦ / ١٩٨٦) ص ١٦٢-١٧٦ .
- ماضي ، احمد : ابن خلدون والمادية التاريخية ، ٣:١٤ (١٢ / ١٩٨٠) ، ص ٦٥-٧٥ .
- ماضي ، احمد : الثقافة والاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر ، ١١:٤ (١ / ١٩٨٣) ، ص ٧-٢١ .
- محافظة ، علي : النشاط التبشيري الالمانى في فلسطين ، ٢:١٤ (٦ / ١٩٨٠) ، ص ٥٣-١٠٢ .
- مخفل ، محمد : في اصول الكتابة العربية ، ٦:٢ (١٠ / ١٩٨١) ص ٥٩-١١٢ .
- مرعي ، عيد : التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم ، ٢٤ و ٢٣:٧ (٩ و ١٢ / ١٩٨٦) ، ص ١٢٣-١٣٨ .
- مرعي ، عيد : ملاحظات حول اللغة الابلائية وقواعدها (مراجعة) ، ٢٣:٧ ، ٢٤ (٩ و ١٢ / ١٩٨٦) ، ص ١٥٨-١٦٢ .
- ناجي ، سلطان : دور الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن خلال تبعتها للهند (١٨٣٩ - ١٩٢٧) ٥:٢ (٧ / ١٩٨١) ، ص ١٣٧-١٥٠ .

نجار ، مصطفى عبد البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي
القادر ١٥٤٦ - ١٨٦٩ ٣:١ (١٩٨٠/١٢) ، ص ٩٨-١٠٢ .

نجار ، مصطفى عبد الارشيف الوطني الهندي في نيودلهي وموجوداته من وثائق
القادر العراق والخليج العربي ، ٢٢ و ٢١:٧ (١٩٨٦/٦ و ٣) ، ص
١٨٧ - ١٩٢ .

نعيسة ، يوسف : اوضاع الفلاحين في دمشق وصناعتها ١١٨٦-١٢٥٦ هـ /
١٧٧٢/١٨٤٠ ، ٢٤ و ٢٣:٧ (١٩٨٦/١٢ و ٩) .

نفوري ، امين : اجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي ، ٥:٢
(١٩٨١/٧) ، ١١٦-٩٩ .

يونس ، محسن : علاقة كندة بدولة الفرس وعمالهم ملوك الحيرة ، ٢٢ و ٢١:٧
(١٩٨٦/٦ و ٣) ، ص ١٩٥-٢٠٤ .



Abonnement : 1987, et anciennes collections annuelles (81,82,83,84,85,1986)

10\$ A. (y compris les frais aeropostales)

Paiement : par mandat — poste adressé à la revue

Correspondance : DIRASAT TARIKHIYYAH

**Republique Arabe Syrienne
Université de Damas**

DIRAŠAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'intéresse à L'histoire des Arabes

Publiée par la Commission de Rédaction de l'Histoire des Arabes

Comité de lecture :

CHAKER FAHHAM **Directeur**

M. KHEIR FARES

NABIH AKEL

ABDUL KARIM RAFEQ

AHMAD BADR

MOHAMMAD MOUHAFEL

NAZEM KALLAS **Redacteur en chef**

8e année, No. 25 — 26, Mars — Juin, 1987

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

لجنة الإشراف

د. شاكرو الفحسام المدير المسؤول

د. محمد خير قارس

د. نبيه عاقل

د. عبد الكريم رافق

د. أحمد بدر

محمد محفّظ

نسيانظم كلاس رئيس التحرير

DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'intéresse à L'histoire des Arabes

Publiée par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

Comité de lecture :

CHAKER FAHHAM Directeur

M. KHEIR FARES

NABIH AKEL

ABDUL KARIM RAFEQ

AHMAD BADR

MOHAMMAD MOUHAFEL

NAZEM KALLAS Redacteur en chef

8e année, N° 27 - 28, Sept. - Dec. 1987

● بدل الاشتراك السنوي :

للافراد : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية

للمؤسسات : (١٠٠) ل.س مائة ليرة سورية
(تضاف اليها اجور البريد)

في البلاد الاجنبية : (١٠) عشرة دولارات اميركية
(بما فيها اجور البريد)

● يتم تسديد بدل الاشتراك بحوالة بريدية الى :

جامعة دمشق - لجنة كتاب تاريخ العرب - مجلة دراسات تاريخية
او :

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركزي تحت
رقم ٢٢/٣٣٢٣ .

● يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقة الاشتراك
بالبدل نفسه لكل سنة (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧)

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق - لجنة كتابة تاريخ العرب

المكاتب : جامعة دمشق - كلية طب الاسنان ط ٣ - هاتف ٢٢٢٤٦١

دراسات تاريخية

١٩٨٧ / ٣-٤

٢٧ - ٢٨

دراسات تاريخية

السنة الثامنة ، ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

- ٧ * الرؤية القومية لكتابة تاريخ الخليج العربي
د. مصطفى عبد القادر النجار
- ١١ * السمات الاساسية للحركة القومية العربية
في ظل تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة في سورية
(١٩٤٩ - ١٩٦٣)
د. نجاح محمد
- ٣٣ * مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية (١٩٢٠ - ١٩٣٥)
د. محمدرجائي ريان
- ٦٧ * القطائع في صدر الاسلام
عصر الرسول والخلفاء الراشدين
د. محمد عبد القادر خريسات
- ٩٩ * يخنون - ليم ملك ماري
وثيقة تأسيس معبد اله الشمس (شماش) في ماري
د. عيد مرعي
- ١١١ * المرأة في مملكة حلب (بمحاض)
في القرن الثامن عشر قبل الميلاد
د. فيصل عبد الله
- ١١٩ * ملوك ابلا العشرة
قاسم طوير (ترجمة)
- ١٢٣ * هل للعبرانيين وجود في ابلا
قاسم طوير (ترجمة)

تنويه

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

مع الكتب :

١٣٩ * هل جاءت التوراة من جزيرة العرب ..
د. محمود ابو طالب

١٤٥ * هل التوراة على حق . . .
قاسم طويسر (ترجمة)

مؤتمرات تاريخية :

١٥٣ * المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الاشوريات
د. فيصل عبد الله

دراسات:

١٦١ * الهجرة الجزائرية الى بلاد الشام
ناديا طرشون
في مطلع القرن العشرين (١٩٠٩-١٩١١)

١٩٠ * رجال الادارة والسياسة والجيش من المغاربة والاندلسيين في مصر
علي احمد
من القرن السابع حتى نهاية القرن التاسع للهجرة

— ان مجلة دراسات تاريخية تنشر البحوث التي تعالج موضوعات في تاريخ العرب مباشرة او بصورة غير مباشرة على ان يراعى فيها ما يلي :

أ — ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب — ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

ج — ان يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د — تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر ، وفقى المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

ومن الجدير بالذكر ان مجلة دراسات تاريخية هي جزء من مشروع كتابة تاريخ العرب ، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي : كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيدها بأسلوب البحث العلمي ، فتحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي وتبسيط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مسار خاص به ، وايضاح ما لفته الغموض وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن ان يشير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها .

الرؤية القومية لكتابة تاريخ الخليج العربي

د. مصطفى عبدالقادر النجار

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

هناك جملة من الحقائق والمسلمات التاريخية لابد من الاخذ بها قبل الكتابة في تاريخ اية بقعة من الوطن العربي ، هي ان تاريخ الامة العربية كل لا يتجزأ وان الكتابة في تاريخ الاقليم او القطر او المدينة لا يعني ان تلك البقاع عاشت بمعزل عن حركة التاريخ الدائبة للامة العربية ، وان اصطناع اي تاريخ لاي بلد عربي يكون عبثا ثقيلًا على الصناعة التاريخية وعلى صوت التاريخ .

من هذه الحقائق يستنتج ان التاريخ العربي مهما تعددت ميادينه ومسارحه وتشعبت جوانبه هو تاريخ واحد يرجع لاصل المنبع الواحد .

فتاريخ الخليج العربي هو جزء من تاريخ الوطن العربي . وان اي تغير يتعد عن هذه الحقيقة لا يمكن ان يجد له المناخ الصالح للديمومة والبقاء . لذا فان اية دعوة برزت في منطقة الخليج العربي تدعوا الى الاسرية او العشائرية او القطرية او الاقليمية في كتابة التاريخ اجهضت ولم يكتب لها النجاح . والواقع ان منطقة الخليج العربي قد ابتليت بتلك الدعوات من لدن نفر اغراه الكسب المادي على حساب الامانة التاريخية، فاصطنع لبعض الاقطار تاريخا قديما ووسيطا وحديثا ، وهم يضربون صفحا عن كل ما جرى في الوطن العربي في ميدان الفعل التاريخي ، ويهملون التفاصيل التاريخية والحضارية ويعزلون تاريخ القطر الواحد عن الروافد التي صبت فيه وتلك التي صب فيها . ويخلون بوحدة التاريخ الكبرى التي يؤلف اي تاريخ قطري جزءا منها .

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

ان اي فصل بين اجزاء الحياة العربية المتماصة عبر التاريخ او تقطيع الخيوط التي تربط ما بينها ، او اي سد مصطنع يقدم بين مجاريها ، واي انحراف من هذا النوع هو محنة كبرى يجب الوقوف بوجهها . واقسى ما يواجهه المؤرخ عندما يكتب في تاريخ الخليج العربي ان مصادر بحثه تتفاوت ما بين مصادر اجنبية كتبها مؤرخون اجانب لم ينصفوا المنطقة ولم يكتبوا بروح علمية مجردة ، وفهموا تاريخ الخليج العربي على انه تاريخ للعلاقات الخارجية الدولية ، واهملوا دور الشعب العربي في صنع التاريخ وكان المنطقة تعيش فراغا . وبين مصادر دينية متطرفة تفهم التاريخ فهما طائفا او مذهبيا او اميا ، ومصادر رسمية تفهم التاريخ على انه تاريخ الاسر والحكام والملوك .

ومصادر لا هذا ولا ذاك ، ولكنها متأثرة بمدارس الشرق والغرب فتقتات على فتات موائدها وتجذ التبرير لتفسير الاحداث المحلية في الخليج العربي وفق القوالب الجامدة التي اقتبستها وكان تاريخ الخليج العربي لا هوية له ، ومع هذا فمن الواجب الاعتراف بان هناك مصادر اصلية وعلمية ، وذات منهج قومي واضح تبشر بخير هي التي تعتمد من قبل المؤرخين العرب في الدراسات التاريخية المعاصرة ولنا ان نتساءل بعد ذلك عن نظرنا الى تاريخ الخليج العربي ، وصلة هذه النظرة بالمدرسة التاريخية المعاصرة ، ومن الواضح ان البقعة العربية الحديثة رافقها اهتمام واسع بالتاريخ العربي فبرز مؤرخون في الوطن العربي اخذوا دورهم في توثيق احداث الامة وكتابة تاريخها ، فكونوا وعيا تاريخيا يشمل منطقة الخليج العربي . فظهرت دراسات جادة تؤكد فكرة الامة ووحدة تاريخها ، وتدعوا الى تأكيد تاريخ الشعب في الخليج العربي لا تاريخ الحكام او الاسر او الطائفة او القبيلة ، لان دراسة التاريخ من تلك الزوايا تورث التجزئة .

كما ان الاهتمام بالتاريخ السياسي قد تم تجاوزه الى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والحضاري والفكري والعسكري والنفسي وبهذا فان الرؤية التاريخية لصيرورة الامة ومسارها عبر التاريخ قد اكتملت تفسيراتها ولم تبق اسيرة جانب واحد او نظرة ضيقة .

ومن هنا لابد ان نتفاعل بان تاريخ الخليج العربي بدا في المرحلة المعاصرة ياخذ موقعه بين الكتابات التاريخية القومية ، وخرج من الطرق التقليدية والتفسيرات والمدارس والقيود والانحرافات والتشويهات التي ابتلي بها ردحا من الزمن ، باعتبار ان ازمة الواقع العربي المعاصر خلق وابداع للدراسات التاريخية ، ذلك ان الامة في اوقات محنتها تعود الى التاريخ لتستمد منه القوة ولتفيد في سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة . وعليه ان المدرسة التاريخية العربية المعاصرة التي يتبناها اتحاد المؤرخين

العرب ويصر على نشر دعوته لاعادة كتابة تاريخ الامة من منطلق خصوصيتها واهدافها ورسالتها الخالدة تستدعي منا وقفة تاريخية شاملة لتجيب عن اسئلة اساسية عن واقع العرب في منطقة الخليج العربي المعاصر والقيم التي يؤمنون بها ويسعون لتحقيقها ومن اي جذر نبتت وتفرعت المعاصرة العربية في الخليج العربي ، وما هي عناصر قوتها وضعفها ، وما هي طبيعة التراث التي تؤمن به والنهضة التي تتوثب لبنائها . هذه المدرسة التي تبنّاها المؤرخون في الاتحاد تدلنا على ان الانسان العربي في الخليج العربي الذي يعيش الحاضر لا يمكنه ان يشيح بوجهه عن الماضي وان التنبه الى التاريخ القومي كان من اعظم اركان تلك المدرسة ، على ان تكون العودة الى التاريخ غودة اصيلة متبصرة يوضحها فهم صادق لعلاقة الماضي بالحاضر والمستقبل . وتذهب المدرسة القومية التاريخية في الاتحاد الى انه كلما ارتفعت مراتب الانسانية عند الانسان العربي في الخليج العربي ارتقت نظرة التاريخ وغزر فعله التاريخي ، وكلما كان وعيه للماضي اعمق اغتنى كيانه الانساني وزاد الحس التاريخي والفعل التاريخي لديه .

ان كتابة تاريخ الخليج العربي يجب ان ترتفع فوق مجرد رواية الاحداث وترديد الاخبار الى استجلاء معانيها وبيان اثارها في مشكلات الحياة المعاصرة ، والمساهمة في تنقية كيان المنطقة الذاتي وتاصيله واغنائها ، والعودة الى سير الابطال وسجل الانتصارات وروائع الادب والشعر ، ومآثر العلم والاخلاق والقيم والمبادئ لبناء حياة الخليج العربي الجديدة .

ولهذا بات واضحا بان الصناعة التاريخية تلك تكاد تكون نصبة ، فهي تنطوي على سلسلة من الجهود المخكمة المتابعة تبدأ في اكتشاف الاثر او الوثيقة الخليجية التي خلفها الماضي وتنتهي بالتأليف التاريخي لبلوغ الهدف السامي . ولا بد هنا من ان نذكر بان تلك الايجابيات قد تخفي بين طياتها سلبيات او مصاعب في كتابة تاريخ الخليج العربي ، يجب ان تنبه لها المدرسة القومية التاريخية المعاصرة اذا ما اردنا لتاريخنا في الخليج العربي المجد وعدم الشطط ، ومن تلك السلبيات تجزئة الحقيقة التاريخية التي تكون في كثير من الاحيان اصطناعية وحصر النظر في الجزئيات ، وعجز بعض المؤرخين عن رؤية الصورة شاملة ، فيأتي انتاجهم مخرلا مضللا . وهذا ما وقع فيه مؤرخون كتبوا عن تاريخ الخليج العربي وهم في الوقت نفسه يتبنون الدعوة لاعادة كتابة ما شوه منه .

فاختيار المصطلح التاريخي بات من اولى ضرورات البحث التاريخي فلا يمكن اقرار مصطلح الانسان الخليجي مثلا او الحضارة الخليجية او التراث الخليجي او الثقافة الخليجية وغيرها في وقت تدعو المدرسة التاريخية الجديدة لاصلاح ما افسده الدهر . ذلك ان منطقة الخليج العربي عاشت وحدة سياسية وحضارية وتراثية

وثقافية مع المنطقة العربية دون اية فواصل او حواجز او تباعد ، فلماذا تشاع تلك المصطلحات . ولو اقرت تلك المصطلحات مثلا لا يصبح بالامكان استعمال مصطلح انسان البحر الاحمر والبحر الابيض والبحر العربي ، وكل الخليجان والبحار العربية الاخرى.

كما ان كتابة تاريخ الخليج العربي المعاصر متأثرة جدا للأسف الشديد بالوثائق الاجنبية للاقوام التي غزت المنطقة وتركت بصماتها عليها ، فظهرت دعوات لاعتماد الوثيقة وكأنها آية قرآنية لها قدسيته في وقت نحن نعلم ان تلك الوثائق كتبت من قبل الرسميين الاجانب الذين حكموا المنطقة ونقلوا تصوراتهم الى حكوماتهم وفق الرؤية الخاصة بهم لخدمة مصالح بلدانهم ، فلا تمثل كتاباتهم والحالة هذه كل الحقيقة وانما تعبر عن الصورة ناقصة . لذا فان الدعوة للاخذ بالوثيقة الخليجية هي ان تخضع لتدقيق ودراسة ومقارنات واعية وشاملة وعميقة بغية توثيق حقائقها والاخذ بما يمثل الحقيقة التاريخية فقط .

هذا من جانب ، ومن جانب اخر فان اية دراسة تاريخية لمنطقة الخليج العربي لا تعتمد الوثيقة اساسا لها ، تبقى دراسة احادية الجانب تنظر للحدث التاريخي بعين واحدة . فالوثيقة سند المؤرخ في الكتابة التاريخية . ومن هنا يجب الاخذ بالموازنة في استعمال ادوات البحث التاريخي ..

واخيرا فان التفسيرات التاريخية التي قطعت شوطا كبيرا من اجل ان تحقق المدرسة العربية للتاريخ الحديث في الاتحاد اهدافها قد عالجت مثل تلك السلبات واعطت نتائج مثمرة يمكن اعتمادها كدليل عمل للمؤرخين العرب في منطقة الخليج العربي حيث نالت تلك المجالات نصيبا واضحا من اهتمامها وعالجت جذورها وسلطت الضوء على دوافعها والمؤثرات العامة التي اثرت فيها ووضحت خصائصها في كل مجالات كتابة التاريخ التي عانت منها .

والمدرسة التاريخية العربية المعاصرة ، اذ تدرس تاريخ الخليج العربي ، تدرسه لتعزز وجهة النظر العربية لاغراض النضال والصمود وقدرة الامة في التقدم الى الامام . ولتنشل ابناء الامة من التفسيرات البغيضة الحاقدة التي تحاول تشكيك ابناء الامة ببلدانهم ، وبماضيهم وقدراتهم وفكرهم الخلاق ..

السّماتُ الأساسيّةُ للحركة القوميّة العربيّة

في ظلّ تحالف القوى البرجوازية الوطنيّة والصفيّة في سورية
(١٩٤٩ - ١٩٦٣)

د. نجّاح محمد
جامعة دمشق

القومية العربية كحركة وتطور تاريخي:

القومية العربية كحدث اجتماعي وكرابطة تاريخية داخل التاريخ لأبد وان تخضع ، بالضرورة ، لقوانين التاريخ ولحركته التطورية مما يعني تغيرها وتبدلها المستمرين ، شكلا ومضمونا ، على مر المراحل التاريخية التي تمر بها .

في حديثنا عن البدايات التاريخية للقومية العربية علينا ان نميز بين بدايتها كواقع اجتماعي عربي ، وبدايتها كفكرة قومية ، وبدايتها كحركة سياسة . بدايتها كواقع اجتماعي عربي مرتبطة ببداية وجود الامة العربية والتي ترتبط ، بدورها ، ببداية وجود التجمع البشري العربي الاول منذ الاف السنين قبل الميلاد ، وبدايتها كفكرة كانت مع بداية هذا الواقع الذي التحمت معه بعلاقة جدلية تبادلية وتطورت بتطوره ، واسهمت في عكسه والتعبير عنه ، كما ساهمت في تغييره وتحويله ، وكل هذا عبر مسيرة التاريخ العربي الطويلة التي شهد فيها اشكالا كثيرة من اشكال الوحدة الاجتماعية والفكرية والحضارية عند العرب .

تطورت الفكرة القومية خلال هذه المسيرة منتقلة من مرحلة اللا شعور الى مرحلة الوعي العادي لرابطة الانتماء العروبية ، الى مرحلة الوعي المعرفي لهذه العروبة ، ثم الى مرحلة الوعي الايديولوجي الذي هو قمة الوعي واساسه المحرك الدافع للفعل والنضال . ورسالة الاسلام العروبية في القرن السابع الميلادي كانت مؤشر وصول العرب الى مرحلة الوعي الاخيرة هذه ، فكما كان الاسلام بمضمونه الحضاري استمرارا لحضارة العرب القدماء منذ الاف السنين فقد كان بمضمونه القومي العربي الاجتماعي التحريري الموحد مؤشرا الى وصول الواقع الاجتماعي المادي - الروحي العربي الى مرحلة الامة العربية ، اولا ، وتمبرا عن وصول الفكرة القومية الى مرحلة الوعي

دزاسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

الأيدولوجي ، ثانياً ، وبداية للقومية العربية كحركة سياسية هادفة لتوحيد العرب في ظل دولة عربية واحدة ، ثالثاً . وكما كانت توحيدية الاسلام الدينية استمراراً للتوحيدية الدينية العربية القديمة ، التي نادى بها كل الانبياء العرب قبل الرسول العربي محمد ، فقد كان الاسلام ، بالتالي ، استمراراً للشكل الديني للفكرة القومية والذي كانت تعبر عنه هذه التوحيدية الدينية العربية القديمة بمختلف مسمياتها: الحنيفية والموسوية والمسيحية وغيرها .

وتفكداً كان القرن السابع الميلادي بداية للقومية العربية كحركة سياسية ذات مضمون وحدوي عروبي محرر موحد وشكل ديني اسلامي . كانت الرابطة العروبية عند بداية هذه الحركة هي نفسها الرابطة الاسلامية فكانت صفة المسلمين ، استناداً للقرآن الكريم (١) ، تضم كل المؤمنين بالرسالات السماوية الاخرى، وفي الجزيرة العربية كانوا كلهم من العرب ، وبهذا فقد كان للعروبة نفس المحتوى البشري الذي كان للاسلام .

بقي هذا التطابق بين الرابطتين مع بقاء هذا المحتوى وبقاء انسجام الشكل الاسلامي للحركة القومية العربية مع مضمونها القومي العربي ، وانتهى بنهاية انسجامه او بداية تناقضه معه . حدث هذا التناقض نتيجة لازدياد وجود ونفوذ العناصر المسلمة غير العربية وخاصة الشعوبية ، وقيامها ، بقصد او عن غير قصد ، يضرب وجود ونفوذ العناصر العربية المسلمة وغير المسلمة ، مما ادى الى تعميق التناقضات شيئاً فشيئاً في الواقع العربي وعلى الساحة السياسية ما بين الرابطة الاسلامية ، التي تغير مدلولها وضاق لينحصر في اطار المسلمين ممن آمن بالرسول العربي محمد فقط ، وليضم كل المسلمين من مختلف القوميات من عرب وغيرهم ، وبين الرابطة العروبية التي ضمت كل العرب بكافة انتماءاتهم الدينية . وصلت هذه التناقضات الى نقطة اللقاء نتيجة لازدياد دور الشعوبية المستترة بستار الاسلام في تهديم الدولة العربية الاسلامية ثم نتيجة لقيام دولة اسلامية باحتلال الوطن العربي ، فكان الاحتلال الفارسي ثم الاحتلال العثماني التركي الذي لم يكتف بالاحتلال العسكري وانما مارس ابشع اساليب الاستعمار الاجنبي من تجزئة وتفرقة واستغلال ، وتعميق لكل مظاهر الفقر والتخلف .

كانت اواخر القرن التاسع عشر فترة وضوح التناقض بين الرابطة العثمانية التي تتقنع باللباس الاسلامي والرابطة العروبية نتيجة لقيام السلطات التركية بالتفريط بالارض العربية وبالتساهل مع اعدائها وعلى رأسهم الصهيونية (٢) ، وتبنيها سياسة التتريك ومحاولة ضرب الذات القومية العربية ، فكانت ، بالتالي ، نقطة الفصل بين الرابطتين لصالح الرابطة العروبية . ونقطة الفصل هذه كانت بدورها بداية الشكل

العروبي للحركة القومية العربية ، الشكل الذي جاء أكثر اتساجا مع مضمونها القومي الذي يضع الانتماء للعروبة فوق كل انتماء آخر ويعتبر العروبة بالنسبة للعرب . الام التي تنسب اليها كل الاديان ، فالعرب كما قال الامير فيصل في احدي خطبه في عام ١٩١٨ : « عرب قبل موسى وعيسى ومحمد » (٢) .

بداية القومية العربية اذا حركة سياسية وبيديولوجية عروبية ، شكلا ومضمونا ، كانت في اواخر القرن التاسع عشر وبهدف تحرير الوطن العربي من الحكم العثماني التركي واعادة توحيدده في ظل دولة عربية واحدة . اما بالنسبة للايديولوجية القومية العربية ، فما هي الا تعبير عن مضمون القومية العربية وشكلها في مرحلة تاريخية من تطورها . من هنا فانه لا يجوز حصر القومية ضمن اطار الايديولوجية من باب عدم جوازية حصر الكل في الجزء ، وبالتالي ، فلا يجوز اعتبار القومية العربية ، مثلها مثل اية قومية ، ايديولوجية طبقية معينة ومطلقة (٤) . كما هي الحال عند النظرية الستالينية ، فالايديولوجية القومية مختلفة باختلاف الواقع الاجتماعي وباختلاف المرحلة التاريخية التي يمر بها هذا الواقع .

ينتج من ذلك ان اختلاف الواقع القومي الاجتماعي العربي ما بين مرحلة واخرى هو عامل اساسي هام في اختلاف الايديولوجية القومية العربية ، اي في اختلاف المضامين والاشكال الفكرية والسياسية والاجتماعية والتنظيمية للحركة القومية العربية ما بين هذه المرحلة والاخرى . يقود هذا الى ان المعيار الاساسي لتحديد المراحل التاريخية الرئيسية لتطور الحركة القومية العربية في بلد ما هو طبيعة تطور البنية الاجتماعية المهيمنة على الواقع القومي والاجتماعي والسياسي في هذا البلد . انطلاقا من ذلك نستطيع القول بان الحركة القومية العربية في سورية وحتى في الوطن العربي عموما قد مرت في خمس مراحل رئيسية في تطورها في الفترة التاريخية الممتدة منذ بداياتها ، كحركة سياسية عروبية في اواخر القرن التاسع عشر ، وحتى يومنا هذا . والمراحل الخمس بالنسبة للاحداث التاريخية في سورية هي الآتية :

المرحلة الاولى : مرحلة هيمنة الاقطاع ، وامتدت منذ اواخر القرن التاسع عشر وحتى قيام الثورة العربية الكبرى في حزيران ١٩١٦ والتخلص من الاحتلال التركي .

المرحلة الثانية : مرحلة هيمنة البرجوازية الكبيرة ، وامتدت من الثورة العربية حتى الاحتلال الفرنسي لسورية عام ١٩٢٠ .

المرحلة الثالثة : مرحلة هيمنة البرجوازية الوطنية ، وامتدت من الاحتلال الفرنسي حتى الانقلاب العسكري الاول عام ١٩٤٩ .

المرحلة الرابعة : مرحلة هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة، امتدت من انقلاب الزعيم وحتى ثورة اذار ١٩٦٣ .

المرحلة الخامسة : مرحلة هيمنة تحالف الطبقات والفئات الكادحة (ب) من ثورة اذار ١٩٦٣ وحتى يومنا هذا ..



قبل الخوض في صميم موضوع البحث ((السمات الأساسية للحركة القومية العربية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة (١٩٤٩ - ١٩٦٣))، اي في مرحلتها التاريخية التطورية الرابعة ، نجد من الضروري اعطاء لمحة موجزة عن صورة الواقع الاجتماعي في سورية في المرحلة التاريخية السابقة ، اي في ظل الاستعمار الفرنسي ، لتوصل بعد ذلك الى فهم افضل للحركة القومية العربية في ظل هيمنة التحالف المذكور .

ان الاستفادة من سورية كمنطقة سياسية استراتيجية هامة في المشرق العربي وفي شرقي المتوسط كنافذة على اسيا لم تكن كافية لارضاء فرنسا التي ارادت تحويل سورية ايضا الى مصدر كبير لزيادة اغناء دولتها وشركاتها الرأسمالية . هذا مايفسر السياسة الاقتصادية التي انتهجتها سلطات الاحتلال الفرنسي في سورية والتي استطاعت من خلالها التأثير الكبير على العمليات الاقتصادية الجارية فيها(٥) والتصرف بها جميعا بما يتناسب ومصلحة فرنسا وشركاتها فقط ، كرفع التعرفة الجمركية متى ارادت وتنظيم الاتفاقيات بحيث تعرقل عملية تصدير الصناعة المحلية ، فتوقفت كثير من الصناعات الوطنية والحرفية والمنزلية والمانيفاتورية(٦) . وعرقلت السياسة الاقتصادية الفرنسية نمو رؤوس الاموال الوطنية ، وبالتالي قيام صناعة محلية تنهض على اساس وجود العامل والمصانع في سورية(٧) ، مما قاد الى ضعف البرجوازية الوطنية وعدم تطورها ، وقاد هذه البرجوازية الى الهرب من توظيف أموالها في الصناعات ودفع بعضها الى المراهبة او الهجرة او الى شراء الارضي . ووضع البرجوازية هذا قادها الى النقمة اكثر فاكثر ضد المستعمر لفرنسي . اما العمال فقد زاد تواجدهم نسبيا بالنسبة للسابق .

اما في الريف كانت خطة فرنسا تقضي بتحويله الى واحد من اكبر مصادر تزويدها بالمواد الزراعية ، فتحالفت مع الاقطاع وشجعتة وعملت على ادخاله الى ميدان التبادل التجاري لتزيد من سيطرتها عليه فيكون وسيطها لتحقيق خططها هذه ، خاصة وانها لم تكن ترغب في استثمار رؤوس الاموال الفرنسية في الزراعة نتيجة لتخوفها الدائم

من التحركات الوطنية المستمرة ، وبالتالي ، لخوفها من ان تطرد من البلاد(٨) ما بين يوم وآخر . ما تقدم يفسر تلك الاجراءات التي قامت بها سلطات الاحتلال كتوزيع الاراضي المشاع وارااضي الدولة على الاقطاعيين والسماح لهم وللمرابين بشراء اراضي الاوقاف وغيرها لتزيد من مساحة الاراضي الزراعية في ايديهم ، كما يفسر غض النظر عن عملية تجريد الفلاحين من اراضيهم من قبل رجال الاقطاع الخ. كل ذلك قاد الى زيادة مساحة الاراضي الزراعية الكبيرة التي تملكها بعض الافراد(٩) في حين نقصت مساحة الاراضي الزراعية التي كان الفلاحون يمتلكونها(١٠) ، مما اضطر كثيرا منهم الى العمل كاجراء زراعيين . ان سياسة فرنسا هذه في تعزيز العلاقات الاقطاعية وسياستها الاستعمارية الاستغلالية عموما قد أدت الى ازدياد حالة الفلاح السوري بؤسا واستغلالا وتخلقا .

وبشكل عام ، تشكلت البنية الاجتماعية لسورية في نهاية فترة الاحتلال الفرنسي من الفئات الاجتماعية الرئيسية الآتية :

١ - طبقة الاقطاع التي تحالفت مع سلطات الاحتلال وتحول بعضها وبدعم هذه السلطات الى برجوازية زراعية تابعة(١١) .

٢ - طبقة البرجوازية الكبيرة ، وابرزها : ا - الكومبرادور والبرجوازية الزراعية ، ودعمتهما الامبريالية الفرنسية فوضعتا نفسيهما بخدمتها(١٢) ، ب - البرجوازية الصناعية : وقد نمت قليلا بالنسبة للسابق الا انها بقيت ضعيفة للاسباب التي ذكرناها ، وكانت والبرجوازية التجارية التي نزعت منها مراكزها(١٣) معبأة بمشاعر النقمة ضد المستعمر الفرنسي المحتل للوطن وبمطامح التطلع الى استلام السلطة بعد اجلائه عنه ، مما يفسر وجودهما في صفوف الحركة الوطنية والقومية . اما خروج برجوازية الكومبرادور من قيادة الحركة القومية العربية في هذه المرحلة ، فقد كان بسبب عمالتها وموقفها السلبى من النضال الوطني والقومي ضد الاستعمار الفرنسي .

٣ - الجماهير الكادحة ، وتشمل الفئات الاجتماعية التي لا تملك سوى جهدها المادي والعضلي ، وجهدها الفكري ، كالعمال وقسم من المثقفين وصفار الفلاحين والموظفين وغيرهم ، الى جانب الفئات الاجتماعية المالكة لرأس مال صغير ، اي البرجوازية الصغيرة ، كالحرفيين واصحاب المهن الحرة وغيرهم .

فالبنية الاجتماعية للحركة الوطنية والقومية كانت في غالبيتها من صفوف هذه الفئات الاخيرة ، اي فئات الجماهير الكادحة وخاصة المثقفين وصفار الفلاحين . ان

الشعور الوطني في ظروف الاحتلال الاجنبي ، شعور الارتباط بالارض ، وبالذات ، وجودا وثقافة وتاريخا ، اي شعور الارتباط بالذات قوميا ، كان وما زال عند الجماهير السورية فوق كل شعور اخر ، كما كان الارتباط بالارض وما زال فوق كل ارتباط.

احتل الاستعمار الفرنسي الارض السورية وتقاسمها مع حلفائه المستعمرين الاتراك والاكليز والصهاينة وجزاها مصطفىا حدودا جديدة لم تكن موجودة . ولكي يمنع أية وحدة وطنية وقومية ، من شأنها ان تهدد وجوده وسياسته في سورية ، لجأ الى بث التفرقة ، الدينية والمذهبية والاقليمية وغيرها ، ومحاولة تعميقها بكل انواعها في صفوف المجتمع السوري . ولاتمام ما بداه الاستعمار التركي من ضرب الذات القومية في الصميم ، عمد الى محاولة طمس التراث العربي القومي وطمس مضامينه التقدمية وخاصة ما تعلق منها بنقاط الوحدة التي كانت تجمع ما بين العرب ، ومحاولة تقويض كل دعائم الثقافة القومية (١٤) وتشويه التاريخ العربي الحضاري بما يبرز نقاط الاختلاف بين العرب ويخدم ، بالتالي ، سياسة التجزئة والتفرقة والتي تحقق بالطبع ، اهداف المصالح الاستعمارية عموما في الوطن العربي .

كان النضال الوطني والقومي في سورية رافضا لوجود الاستعمار الفرنسي بكل وجوهه ، السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان ، قبل كل شيء ، متمسكا بالارض والاستقلال والذات القومية ولم يتوقف حتى استرجعت الارض وكان الاستقلال . وبالرغم من وجود قيادات فلاحية بطولية كبيرة لهذا النضال فقد استطاعت البرجوازية الوطنية الهيمنة على شؤون وقادته منذ الثورة السورية الكبرى ، كما استطاعت الهيمنة على السلطة وامور الحكم في هذه المرحلة بسبب استنفاد الامكانات المادية للقيادة الفلاحية ، ونظرا لامكاناتها المادية ولقوة نفوذها وحشد قواها السياسية وتنظيمها في كتل سياسي واحد اخذ اسم « الكتلة الوطنية » استلم شؤون النضال الوطني وبعض امور الحكم في سورية منذ عام ١٩٢٨ .

تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة :

ان نجاح الحركة الوطنية والقومية في ظل هيمنة البرجوازية الوطنية في الحصول على استقلال البلاد واجلاء جيوش الاستعمار الفرنسي منها في عام ١٩٤٦ وفي المساهمة في خلق الجامعة العربية كان انجازا قوميا هاما ، لكن فشل هذه القيادة ، التي استلمت امور الحكم في سورية كليا في الفترة التي اعقبت الاستقلال ، والذي ظهر في معالجتها لعدة قضايا وطنية وقومية اساسية ، قد غطى على نجاحها هذا وجعله منقوصا ، واهم هذه القضايا كانت قضية وحدة سورية بحدودها الطبيعية التي كانت لها قبل الاحتلال الفرنسي ، وقضية لواء اسكندرونة ، وقضية فلسطين ، ثم الهزيمة امام

اسرائيل في الحرب الاولى في ايار ١٩٤٨ . ولم تكن ظاهرة استلام الجيش لامور السلطة المدنية سوى نتيجة طبيعية لفشل القيادة البرجوازية الوطنية هذا ، ولفشلها حتى في تسير امور الحكم . ما تقدم ، بالإضافة الى وضوح عجز هذه البرجوازية عن القيام بمهام الثورة الصناعية والقومية والديموقراطية نتيجة لظروف نشأتها ولضعفها ولوضوح عجزها عن الاستقلال عن الرأسمالية العالمية ، ادى الى ضعف تأثيرها ونفوذها في سورية شيئاً فشيئاً سواء داخل الحركة القومية العربية او خارجها .

زاد في ضعف البرجوازية الوطنية هذا عدم الاستقرار الذي تعرضت اليه البلاد نتيجة للانقلابات العسكرية من جهة ، ونتيجة ممارستها لعبة المحاور العربية من جهة اخرى ، مما ادى الى انقسامها وتشتت قواها ، فقسم منها وغالبية من برجوازية حلب تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور العراقي - الاردني الهاشمي ، وقسم اخر وغالبية من برجوازية دمشق تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور السعودي - المصري . وقد وصل الصراع في اوساط الحزبين اللذين كانا يمثلان البرجوازية السورية عموماً آنذاك ، وهما « الحزب الوطني » و « حزب الشعب » (١٥) ، وفي اوساط الحركة القومية العربية بشكل عام ، حداً كبيراً بسبب لعبة المحاور العربية هذه ، التي سببت انقسام الحركة الى ثلاثة اتجاهات رئيسية : الاول وعلى رأسه حزب « الشعب » (١٦) تبني الدعوة الى انضمام سورية الى المحور العراقي - الاردني الهاشمي ، والثاني وعلى رأسه « الحزب الوطني » (١٧) تبني الدعوة الى انضمام سورية الى المحور السعودي - المصري ، والثالث ، وعلى رأسه « حزب البعث العربي » ، دعا الى الوحدة العربية بشموليتها بغض النظر عن جميع المحاور ، وضرورة معالجة أية مسألة مطروحة على الساحة السياسية الداخلية والعربية والدولية من خلال منعكاتها على القضية الوطنية والقومية بشكل عام . وبناء عليه هاجم هذا الاتجاه لعبة المحاور واعتبرها لعبة استعمارية لعرقلة الوحدة العربية الحقيقية والاساءة اليها (١٨) .

ان خضوع البرجوازية الوطنية السورية للعبة المحاور العربية زاد في ضعف تأثيرها ونفوذها في الحركة القومية العربية وفي سورية بشكل عام . ومقابل هذا الضعف توضح ازدياد تأثير ونفوذ وجود الفصائل اليسارية المؤلفة من الفئات الكادحة في اوساط العمال وصغار الفلاحين والبرجوازية الصغيرة ، وقد مثلها حزبا « البعث العربي » و « الاشتراكي » اللذان ما لبثا ان اندمجا ليشكلا حزب « البعث العربي الاشتراكي » في اواخر عام ١٩٥٢ ، وكان نفوذ الفصائل اليسارية هذه واضحاً في الجيش ايضاً ومن خلال الضباط البعثيين بشكل خاص .

اما تأثير البرجوازية الصغيرة عموماً فقد كان واضحاً في المجتمع السوري ككل،

وذلك بحكم تواجدها الواسع فيه نتيجة لضعف الاقتصاد الرأسمالي ونتيجة لهيمنة الاقتصاد الصناعي الصغير والملكية الصغيرة في سورية .

أدركت البرجوازية السورية الوطنية هذا الواقع العام ومدى تأثيره على الأحداث، وأدركت أن ضعفها وفشلها المذكور في المرحلة السابقة لا يخولانها القيام وحدها ، بعد الآن ، بقيادة الحركة ، ولا بالوصول إلى الاستقرار الضروري لصيانة رأس مالها وتحركه ، ولا بتسيير أمور الحكم في البلاد ولإلحاقها على حكم الشيشكلي الدكتاتوري الذي توضحت معالم وجهه المتناقض مع مصالحها فتمرد على طلباتها بعد فترة، وأدركت أيضا أن تحالفها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور غير قادر على القيام بهذه المهام لأن تأثير هاتين الفئتين كان ضعيفا ومحدودا جدا ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وذلك لضعف تواجدهما ولوضوح عمالتهما لسلطات الاحتلال الفرنسي ولتراجع تأثير فكرهما اليميني مقابل تصاعد تأثير الفكر والاتجاه اليساري عند الجماهير السورية بشكل عام وعند جماهير الحركة القومية العربية بشكل خاص . أدرك البرجوازية الوطنية هذا دفعها إلى التوجه نحو البرجوازية الصغيرة للتحالف معها ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وفي نيتها استخدام هذا التحالف لخدمة أهدافها ومصالحها بالدرجة الأولى ، هذا التحالف لم يعن تخلي البرجوازية الوطنية عن تعاملها وتعاونها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور إذ استمرت بالتمسك به بغاية تنسيق جهودها معهما ومع الفصائل اليمينية في البرجوازية الصغيرة من أجل كبش تصاعد الاتجاه اليساري في سورية بشكل عام وفي حركتها القومية بشكل خاص . ولا شك أن هذا الكبش كان من الأهداف الرئيسية التي كانت وراء تحالف قسم من عناصر البرجوازية الوطنية مع قيادة « حزب البعث » آنذاك ، حيث كان في نيتها أن تجعل من هذا التحالف لجاما للاندفاع القومي الاشتراكي لجماهير هذا الحزب . ولم يكن « التجمع القومي » الذي سيطر على أمور الحكم منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٥٨ إلا تعبيراً عن هذا التحالف ..

السمات الأساسية للحركة القومية العربية (١٩٤٩ - ١٩٦٣) .

١ - تصاعد الاتجاه اليساري حتى قبيل قيام الوحدة السورية - المصرية .

١ - الضغط الاستعماري ورد الفعل الوطني والقومي عند الجماهير السورية:

إن الشعور بضرورة وحدة النضال ضد الحكم الدكتاتوري قد ساهم في توحيد القوى الاجتماعية للحركة القومية العربية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والسياسية ، وهذا ما يفسر تواجدها جميعا في تنظيم « التجمع الوطني » الذي تشكل في أواخر حكم الشيشكلي والذي ضم ممثلين عن حزب « البعث » و « الحزب الوطني » وحزب

« الشعب » وبعض المستقلين . مثل « البعث » الاتجاه اليساري في حين كان حزب « الشعب » يمثل الاتجاه التوفيقى و « الحزب الوطنى » يمثل الاتجاه اليميني ، لا شك ان وحدة نضال التنظيمات السياسية للقومية العربية في سورية ضد حكم الشيشكلي كانت نسب نجاحها في اسقاطه في شباط ١٩٥٤ ، لكن الدور الاكبر بهذا النجاح كان لحزب « البعث » .

عكس هذا التجمع ، من جملة ما عكس ، تحالف القوى الوطنية والقومية المنظمة وتحالف القوى البرجوازية، وان نهايته بانتيار وسقوط الدكتاتورية لم تكن نهاية هذا التحالف ، فبقى مستمرا ، وساهم استمراره في تأزم الصراع داخل الحركة القومية وفي الانشقاقات التي تعرضت لها بعض تنظيماتها نتيجة رفض قسم من قواعدها وقلة من قياداتها استمرارها فيه . من المؤكد من اهم الاسباب لاستمرار هذا التحالف الذي هيمن على الحكم باسم جديد هو « التجمع القومى » كان ادراك غالبية قياديين وجماهير اطرافه لمدى الاخطار التي كانت تهدد سورية في تلك الفترة بسبب تصاعد الضغط الاستعماري الغربي عليها لجرها الى مشاريعه والانضمام الى احلافه ، وادراكها ، بالتالى ، لضرورة الوحدة الوطنية للتصدي لهذه الاخطار . ولم تكن هذه الوحدة ، سواء داخل الحركة ام خارجها ، النتيجة الهامة الوحيدة لتصاعد الضغط الاستعماري على سورية ، فلقد كان هناك نتائج هامة اخرى صبغت الحركة القومية العربية بصيغتها في هذه المرحلة ، وسنكتفي بتعداد أبرزها :

أ - تصاعد موجة العداء لـ « الغرب » : أصبح موقف الرفض او الموافقة على ارتباط سورية بـ « الغرب » ، تحت اية صيغة كانت ، المعيار الاساسى لليسار واليمين في هذه المرحلة سواء داخل الحركة او خارجها ، وادى بروز حزب « الشعب » على انه من مؤيدي التحالف مع « الغرب » ، من جهة (١٩) ، وبروز موقف « الحزب الوطنى » ، بعد انشقاقاته الداخلية ، ضد هذا التحالف ، من جهة اخرى (٢٠) ، الى تبادل تمثيل الاتجاهين اليميني والتوفيقى في الحركة القومية بين هذين الحزبين في الفترة الاخيرة من هذه المرحلة فقد أصبح حزب « الشعب » هو الذي يمثل اليمين و « الحزب الوطنى » يمثل التوفيقية ، بعد ان كان العكس في بداية المرحلة . اما « البعث » الرافض لاي تحالف مع « الغرب » فقد بقي الممثل الاساسى لليسار القومى العربى .

ب - تاجج الشعور القومى عند الجماهير السورية : توافقت الضغط الاستعماري على سورية مع بروز نظام عبد الناصر كنظام عربى معاد للاستعمار نتيجة لتصديده للاستعمار الانكليزي وتأميمه لقناة السويس وصموده امام العدوان الثلاثى الانكليزي - الفرنسى - الاسرائيلى على مصر عام ١٩٥٦ . وقفت سورية الى جانب مصر في هذه

الحرب ، ثم وقف عبد الناصر الى جانب سورية اثناء معركتها ضد « حلف بغداد » ومشروع ايزنهاور واثناء التهديدات التركية لها ، والتي كانت فصلا من فصول الضغط الاستعماري عليها . كل ذلك كان له اكبر الاثر في تأجج الشعور القومي عند الجماهير السورية ، من جهة ، وفي توجيهها نحو مصر وزعامة عبد الناصر للامة العربية من جهة اخرى . ولقد كان لهذا التوجه اكبر الاثر في قيام الوحدة السورية - المصرية في عام ١٩٥٨ ، حيث « وصلت موجته الى درجة لم يكن ليجرؤ احد على معارضتها والوقوف في وجهها » (٢١) . مما دفع اليمين والقوى الانفصالية الى ركوبها والتستر بها انتظارا للحظة المناسبة لضربها . من هنا جاء اشتراك البرجوازية الوطنية السورية في صنع وحدة ١٩٥٨ (٢٢) . وقامت قواعد حزب « البعث » وقيادته ، وقيادة « حركة القوميين العرب » بدور فعال في توجيه هذا الشعور نحو الوحدة مع مصر ونحو زعامة عبد الناصر .

ج - وضوح انقسام الوطن العربي الى معسكرين : المعسكر التقدمي الرافض لاي تحالف مع الغرب وتحت اية صيغة كانت وعلى راسه سورية ومصر ، والمعسكر المرتبط بالغرب والداعي للتحالف معه . ان مساهمة الرجعية العربية مع الاستعمار الغربي في الضغط على سورية لجرها للانضمام الى « حلف بغداد » ثم الموافقة على « مشروع ايزنهاور » بحجة كاذبة هي خطر وقوعها بيد الشيوعيين (٢٣) ، كان له اكبر الاثر ايضا في توجه سورية نحو مصر وزعامة عبد الناصر . تساهلت الرجعية العربية على ما يبدو ازاء هذا التوجه انطلاقا من ايمانها بانه « أهون الشرين » ، اي انه افضل من وقوعها في ايدي تلك القوة القومية العربية المندفعة باتجاه تقدمي اشتراكي يساري والتي كانت وحدها ، اي هذه القوة ، تشكل الخطر الحقيقي على مستقبل هذه الدول الرجعية ، وتساهلت انطلاقا من قناعتها ايضا بان الاتجاه الناصري التوفيقي من شأنه ان يكبح اندفاع الاتجاه القومي اليساري وان يستقطب بعض جماهيره الواسعة فيضعفه ، وهذا ما حدث فعلا بعد قيام دولة الوحدة في سورية والحكم الناصري لها .

٢ - تصاعد الاتجاه اليساري :

في الفترة التي امتدت حتى قبيل قيام الوحدة كان الضغط الاستعماري بكل وجوهه ونتائجه المذكورة قد ادى الى تصاعد الاتجاه اليساري اكثر فاكثر في سورية نتيجة لمواقفه الوطنية الشجاعة الصامدة امام هذا الضغط وضد الغرب بكل مخططاته ومشاريعه واحلافه . وقد مثل حزب « البعث » الاتجاه اليساري القومي نتيجة لمواقفه النضالية الواضحة هذه ونتيجة لمواقفه التقدمية الاخرى من مجمل

التضاي الوطنية والقومية ، كما برز الحزب الشيوعي أيضا في هذه الفترة وزادت جماهيره .

ان ادراك اليسار عموما لضرورة تنسيق نضاله المشترك من اجل تعزيز صمود سورية امام الضغط الاستعماري عليها يفسر تحسن علاقات « البعث » مع « الحزب الشيوعي السوري » بشكل ملحوظ في هذه الفترة . كان من اهم مظاهر تصاعدا لاتجاه اليساري في سورية ومن ابرز نقاط التقائه تدعيم توجه سورية نحو المعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي .. ومما ساهم في هذا التوجه والى درجة كبيرة مواقف دول هذا المعسكر الى جانب سورية في معركتها ضد « حلف بغداد » و « مشروع ايزنهاور » ومن ثم دعمها لمصر في حرب السويس ولنظام عبد الناصر كحاكم عربي معاد للاستعمار كما بينا .

تصاعد الاتجاه اليساري في سورية كان على حساب الاتجاهين التوفيقى واليميني فيها وتجلى ذلك بالنسبة للحركة القومية العربية بتزايد جماهير حزب « البعث » ، وخاصة في اوساط صغار الفلاحين والمثقفين ، وتحسن وضعه التنظيمي مقابل تقلص جماهير حزبي « الشعب » و « الوطني » وانهيار وضعهما التنظيمي . ان موقف هذه الاحزاب من ارتباط سورية « بالغرب » كان سببا هاما لتطور اوضاعها بهذا المنحى ولكن لم يكن السبب الوحيد ، فقد كانت هناك اسباب اخرى لعبت دورا واضحا في هذا التطور واهمها طبيعة بنيتها الاجتماعية والتنظيمية ، ففي حين كانت البنية الاجتماعية لحزب « البعث » منسجمة نسبيا ، ومؤلفة في غالبيتها من عمال وفلاحين صغار ومثقفين ، كانت البنية الاجتماعية لحزبي « الشعب » و « الوطني » مؤلفة بغالبيتها من البرجوازية الكبيرة (٢٤) والمتوسطة والصغيرة وبعض الاقطاع . وكان لعلاقات التنافس والصراع التي كانت تعيشها برجوازية سورية ، وخاصة برجوازية حلب ودمشق ، منعكساتها على تماسك بنية هذين الحزبين الاجتماعية .

اما بالنسبة للبنية التنظيمية ، فقد كان حزب « البعث » من نمط احزاب « الجماهير » (٢٥) التي تعتمد على المركزية ونظام الشعبة والتربية الحزبية والنظرية السياسية ، وكان حزبا الشعب والوطني من نمط احزاب « الكادر » (٢٦) ، التي تعتمد نظام اللامركزية ونظام اللجان التي لا تنشط الا في فترة الانتخابات وتفتقر الى التربية الحزبية والاهتمام بالنظرية السياسية .. ولا شك ان ازدياد اقبال جماهير صغار التلاحين والعمال على الحركة في هذه الفترة وعلى الانتساب لحزب « البعث » بالذات ، كان سببا هاما من اسباب تصاعد الاتجاه اليساري فيها ايضا .

ان ما تقدم ، سواء ما تعلق بهذا الاقبال ام بطبيعة البنية الاجتماعية والتنظيمية للاحزاب المذكورة ، ام بطبيعة تطور الاحداث في سورية وخاصة تطور ردود فعلها ضد

القرب الاستعماري وضغوطه واحلافه ومشاريعه ، قد ادى الى فشل محاولة القيادات البرجوازية اليمينية والتوفيقية لحزبي « الشعب » و « الوطني » في كبح جماح الاندفاع اليساري عند جماهير حزب « البعث » والتي كانت احد الاهداف الرئيسية لتحالفهما مع قيادته (٢٧) . ومن الملاحظ ان الحرص على هذا التحالف من قبل قيادة البعث كان السبب الاول لقبولها ببعض التنازلات في مجال النضال الاشتراكي ، اما السبب الثاني فهو حرصها على ارضاء عبد الناصر وقيام الوحدة . مع هذا بقي الاتجاه الجماهيري القومي العربي اليساري البعثي في تصاعد مستمر طوال فترة الاحلاف والمؤامرات الغريبة التي سبقت قيام الوحدة السورية - المصرية .

ان طبيعة الواقع السياسي والاجتماعي لسورية ولحركاتها القومية في هذه الفترة قد ساهمت والى درجة كبيرة في اغناء الفكر القومي العربي اليساري في سورية وجعلته اكثر وضوحا ونضجا منه في المرحلة السابقة . ظهر ذلك واضحا في فكر ومواقف « البعث » بشكل خاص ، فقد توضحت عنده قليلا معالم ارتباط النضال التحرري والنضال الوحدوي والنضال الاشتراكي . وقد تبنى البعث في بداية هذه الفترة مقولة الصراع الطبقي والنضال الاشتراكي على انه نضال الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة (٢٨) . لكنه ما لبث ان اهل التحدث في ذلك في الفترة التي سبقت الوحدة مع مصر (٢٩) وذلك بسبب مواقف قيادته التي ذكرناها . لا شك ان مواقف قيادة البعث هذه كانت تعبيرا عن بداية هيمنة الاتجاه التوفيقى عليها مما يفسر كثيرا من المظاهر الهامة في تاريخ هذا الحزب وبرزها بداية ظهور عجز قيادته عن مواكبة اندفاع جماهيره القومي اليساري ، وبالتالي ، عن تمثيل وتمثيل امالها ومصالحها ، ولم يكن قيامها بحل الحزب في سورية الا تعبيرا ناطقا عن هذا العجز ، فالحرص على الوحدة وقيامها ، والذي هو حجة هذه القيادة في الحل ومسايرة توفيقية عبد الناصر آنذاك ، لا يكون الا بالحرص على انجازها بصيغة صحيحة تضمن وجود مضامينها القومية التقدمية الثورية وشروط استمرارها .

II - هيمنة الاتجاه التوفيقى على الحركة القومية العربية في الفترة الممتدة منذ قبيل قيام الوحدة وحتى قيام ثورة اذار ١٩٦٣ :

بالنسبة للاتجاه التوفيقى في هذه المرحلة ككل كان يمثل في بدايتها حزب الشعب نظرا لتبنيه لقضية تأميم المؤسسات الاجنبية في سورية بعد الاستقلال (٣٠) . اما وقوف « الحزب الوطني » ضد التأميم (٣١) وتحالفه مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور في بداية هذه المرحلة فقد ابرزته كممثل ، من جدارة ، للاتجاه اليميني في الحركة . وقد ساهمت التبدلات في موقف حزبي « الشعب » و « الوطني » في الفترة التي سبقت

قيام الوحدة مع مصر ، وخاصة ما تعلق منها بموضوع ارتباط سورية مع الغرب ، في تبادل التمثيل بينهما للاتجاهين التوفيقي واليميني كما قلنا سابقا (٢٢) .

ويمكن اعتبار تنظيم حركة التحرير العربي مثالا آخر للاتجاه التوفيقي في الحركة القومية العربية في سورية في هذه المرحلة (٢٣) ، والذي كان من نمط تنظيمات الاشخاص التي تنتهي بانتهاء رئيسها ، حيث انتهى نشاطه الفعلي بعد سقوط الشيشكلي ، اي الشخصية التي كانت وراء تشكيله وتوجيهه .

اما بالنسبة لحركة « القوميين العرب » فقد كان نشاطها في سورية في بداياته ولم يكن لها ، بعد ، ذلك التواجد السياسي والجماهيري المعتبر . ونجد من الضرورة الاشارة هنا الى ان تخلي هذه « الحركة » عن تبني اسلوب العنف السياسي الى اسلوب النضال الجماهيري من اجل الوصول الى تحقيق اهدافها (٢٤) ، قد عكس احدي الملامح الهامة في تطورها في هذه الفترة ، من جهة ، وفي تطور الاتجاه الشوفي الذي كانت تمثله داخل الحركة القومية العربية في نهاية المرحلة التاريخية السابقة عندما كانت تحت اسم « كتائب الفداء العربي » من جهة اخرى (٢٥) . وان الفكر القومي الاشتراكي الاصلاحى عند « حركة القوميين العرب » (٢٦) كان قريبا جدا من الفكر الناصري (٢٧) حتى يكاد يكون تكرارا له .

هذا التقارب الفكري كان انعكاسا لتقارب سياسي بين « حركة القوميين العرب » وبين عبد الناصر بدأ ببداية وجودها ، وتمثل بصلات قادتها الوثيقة معه مما دفعه الى الثقة بتبعيةها الكاملة له ، ودفعه ، بالتالي ، الى دعمها اكثر فاكثر للاستفادة من تواجدها في سورية ومن تواجد فروع تنظيمها القومي في بعض الاقطار الاخرى ، كالاردن والعراق ولبنان ، لا شك ان تنظيم حركة القوميين العرب في سورية قد ساهم في توجيه المشاعر القومية المتأججة نحو الوحدة مع مصر ولصالح زعامة عبد الناصر للامة العربية في الفترة التي سبقت قيام الوحدة (٢٨) . وكان من الطبيعي بعد تحقيق الوحدة وعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة واستلام عبد الناصر لرئاستها ان يستمر في دعم حركة القوميين العرب سواء داخل الاقليم الشمالي ، اي سورية ، ام خارجه ، وخاصة بعد تبنيتها للناصرية وبعد عزمه على طرح تنظيمها القومي كبديل لتنظيم « البعث » ، مما يفسر تساهل نظام عبد الناصر ازاء نشاطها السري بعد قيامها بحل نفسها علنا ، واستمراره في تقريب قيادتها اليه ، وابعاد العناصر البعثية عن مؤسسات الحكم وملاحقتها (٢٩) .

وانطلاقا من ايمان عبد الناصر آنذاك بمقولة الوحدة الوطنية بمفهومها البرجوازي القائم على اساس تعايش الطبقات ، قام بتشكيل الاتحاد القومي على ان يكون « اطارا

من الوحدة الوطنية يجمع الجميع «(٤٠)» في تنظيم سياسي هدفه العمل على تحقيق أهداف الثورة وحمايتها «(٤١)». خرج هذا التنظيم جامعا لجميع التصادمات ولجميع التناقضات على حد قول عبد الناصر نفسه «(٤٢)»، فضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية، ولكنه كان في غالبته من العناصر القومية التوفيقية من صفوف حركة القوميين العرب وبقية الناصريين. أما قيادته فقد سيطرت عليها العناصر الرجعية اليمينية المستفلة الانتهازية «(٤٣)». وباختصار فقد كان الاتحاد القومي تنظيما متناقضا أكثر منه تنظيما شعبيا عقائديا ثوريا «(٤٤)». وكان هذا التنظيم بالنسبة للحكم الناصري كما كان تنظيم حركة التحرير العربي، بالنسبة لحكم الشيكلي، أداة طوع أمره يحركها كما يريد ومتى شاء وهذا النوع من التنظيم غير قادر على استقطاب الجماهير والدفاع عن الحكم بشكل فعال لأن هذا الدفاع يتطلب تنظيما سياسيا جماهيريا صحيحا، فكان كلا التنظيمين المذكورين مفتقدا الكثير من مواصفاته الأساسية.

أدرك عبد الناصر هذا الحال بالنسبة للاتحاد القومي وأدرك أن الأساس الذي بني عليه لم يكن بالأساس السليم، فهو «شيء ضد العقل وضد الطبيعة» «(٤٥)». لكن أدرك عبد الناصر أن بعد سقوط دولة الوحدة. لقد تأخر، ولكنه أتى.

أن غياب التنظيم السياسي الجماهيري الصحيح كان من أهم الأسباب في نجاح حركة الانفصال والقضاء على الوحدة السورية - المصرية. لقد أراد عبد الناصر أن يكون الكل في واحد «(٤٦)»، والحلقات التي تشكلت حوله وكل منها يدعي أنه يمثل تيارا وطنيا شجعته على ذلك وهي التي أحاطت به وعزلته عن الجماهير وحالت دون وجود تنظيمها السياسي الحقيقي «(٤٧)». وكما أدرك عبد الناصر متأخرا أهمية هذا التنظيم أدرك، متأخرا أيضا، الموقع الصحيح للبرجوازية ولتحالف الاقطاع ورأس المال الذي يستطيع، كما يقول في إحدى خطبه: «أن يشكل نفسه وفقا للحاضر... ووفقا للموقف» «(٤٨)».

أن عدم إدراك عبد الناصر، في بداية هذه المرحلة وحتى تموز ١٩٦١، لموقع البرجوازية الكبيرة هذا قاده إلى التحالف معها، سواء في سورية أو في مصر، وتصور أنه قادر على جرها للمساهمة في عملية التنمية وفي عملية التصنيع بالذات، فكانت هذه البرجوازية هي الطرف الوحيد المستفيد من هذا التحالف مستخدمة إياه لتوظيف الدولة في خدمة مصالحها بالذات وتنمية رأس مالها الخاص وذلك من خلال عملية تخريب مخططة للاقتصاد الوطني.. أدرك عبد الناصر نتيجة لذلك خطأ تصوره «فالبرجوازية تؤيد الثورة الجيدة بالكلام وتتصرف معها عمليا ضد الخط العام للحكومة المرتبط بالتصنيع» «(٤٩)». لقد وضع موقف البرجوازية هذا عبد الناصر أمام

الاختيار بين مواصلة الثورة او الاستسلام لراس المال الوطني واختار مواصلة الثورة فكانت قراراته الاشتراكية في تموز ١٩٦١ بتأميم ممتلكات هذه البرجوازية وضرب مواقعها الاقتصادية تعبيرا عن هذا الاختيار..

ولكن عبد الناصر ضرب مواقع البرجوازية الاقتصادية غافلا عن مواقعها السياسية القوية ، وتواجدها ونفوذها الواسع وخاصة في صفوف الجيش ، بالنسبة لسورية، وذلك بعد قيام حكمه بضرب القوى اليسارية فيه ، البعثية وغيرها ، بحيث تحول الى قوة ضاربة لصالح هذه البرجوازية ولصالح تحالفها مع الاقطاع الذي وطدت تعاونها وصعدت نشاطها معه من اجل ضرب دولة الوحدة وانهاؤها .

من اهم الاسباب التي كانت وراء فشل هذه الوحدة ايضا سياسة الحكم الناصري التوفيقية سواء على المستوى العربي او على المستوى الخارجي بحيث لم يتخذ صديقا يدافع مقابل عدو يخطط ويتآمر . ولا شك بدور هذا العدو ، اي تحالف الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية ، في دعم حركة الانفصال والتخطيط لها .

ومن الاسباب الاخرى لفشل وحدة ١٩٥٨ ايضا ممارسة الحكم الناصري للاسلوب البوليسي والبيروقراطي ، خاصة في سورية (٥٠) . الى جانب السبب الاساسي وهو ضرب الاتجاه اليساري القومي كما بينا ، الذي كان من شأنه الدفاع الفعلي عنها ، خاصة وقد كان له الدور الاكبر في صنعها . وهكذا انتهت وحدة ١٩٥٨ بعد ان تركت آثارها الهامة على الحركة القومية العربية في سورية والتي كان من ابرزها تصاعد الاتجاه التوفيقى فيها مقابل تراجع الاتجاهين اليساري واليميني.

الممثل الاساسي للاتجاه القومي التوفيقى المتصاعد كان الناصرية . وعلينا ان نذكر هنا باننا تناولها في مرحلة تحالفها مع البرجوازية الكبيرة ، اي قبل قرارات تموز ١٩٦١ الاشتراكية التي كانت نقطة انعطاف كبيرة في تاريخها نحو الاتجاه اليساري وادت الى تغير البنية الاجتماعية والفكرية لها نتيجة لاجراج البرجوازية الكبيرة من صفوفها . اما قبل هذه القرارات فقد كانت الناصرية تضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية والفكرية ولو انه كان يغلب عليها طابع البرجوازية الصغيرة ، سواء داخل تنظيمها ، حركة القوميين العرب والاتحاد القومي ، ام خارجهما . وطبيعة بنيتها الاجتماعية هذه تفسر تعايش اليمين واليسار فيها وتارجحها بينهما وتفسر غلبة الفكر والموقف التوفيقى عليها . تجلّى ذلك في تبنيتها ، بشكل رئيسي ، لمقولة الوحدة الوطنية بمفهوم التعايش الطبقي وتبنيتها لوحدة الصف العربي والجامعة العربية وفي نظرتها الى الوحدة العربية وقضية فلسطين ، حيث كانت عاجزة عن رؤية قضيتي

النضال الوجدوي والنضال من أجل تحرير فلسطين في سياقها التاريخي الصحيح ويمضامينها الاجتماعية التقدمية . فقد عالجت حركة القوميين العرب قضية فلسطين ، مثلا ، كقضية مستقلة ومنفصلة عن مجمل قضايا التحرر العربي على كل المستويات الخارجية والداخلية (٥١) . ومقابل بني الناصرية للجامعة العربية ولمقولة وحدة الصف العربي ، تبني « البعث » مقولة وحدة النضال العربي ودعا الى لقاء الحركات الوطنية الثورية في مختلف الاقطار العربية والى تشكيل مجلس نضال عربي كبديل عن الجامعة العربية (٥٢) .

الاتجاه التوفيقى ، اذا ، كان هو الاتجاه الغالب في الناصرية وفي تنظيمها : « حركة القوميين العرب » و « الاتحاد القومي » في هذه الفترة التي سبقت قرارات تموز ١٩٦١ . وباعتبار ان هذين التنظيمين كانا التنظيمين القوميين الوحيدين اللذين كانا يمارسان نشاطهما في سورية في فترة الحكم الناصري لها ، نظرا لحل التنظيمات الاخرى ، فقد استطاعا استقطاب كثير من الجماهير الوجدوية اليهما وخاصة من صفوف البرجوازية الصغيرة ممن استهواها الفكر الناصري التوفيقى . هذا مما ساهم ، الى جانب السياسة الاعلامية المركزة ، في غلبة الاتجاه التوفيقى الناصري على الحركة القومية العربية في سورية في ظل دولة الوحدة ولكن هذا الاتجاه بدا بالتراجع نحو الاتجاه القومي اليساري في الفترة التي تلت قرارات تموز ١٩٦١ كما قلنا سابقا .

نهاية التحالف ونهاية المرحلة :

كان للحركة القومية العربية وسورية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبفضل الاتجاه الجماهيري القومي اليساري بالدرجة الاولى ، كثير من الانجازات القومية الهامة في هذه المرحلة ، وخاصة من حيث التصدي بنجاح لـ « الغرب » ومشاريعه واحلافه وضغوطه ومن حيث المساهمة من خلال تنظيم « التجمع القومي » ، الذي كان شكلا من اشكال هيمنة هذا التحالف على الحكم في سورية ، في انجاز مشروع الدفاع العربي المشترك والتعاون الاقتصادي ومشروع الوحدة الاقتصادية العربية . اما اهم فعل قومي فقد كان انجاز وحدة سورية مع مصر في عام ١٩٥٨ ، بغض النظر عن الصيغة الخاطئة التي تمت بها .

في فترة دولة الوحدة هذه وفي ظل الحكم الناصري لها ، وبزوال الخطرين الاساسيين اللذين كانا وراء التحالف المذكور ، خطر وقوع سورية في دائرة نفوذ الغرب واحلافه « بالنسبة » للقوى اليسارية ، وخطر سيطرة الاتجاه الاشتراكي القومي

اليساري فيها بالنسبة للقوى اليمينية ، بدأت التناقضات الداخلية في التحالف بالظهور على السطح ، وتجلت بمحاولة كل طرف من اطرافه اثارة عبد الناصر وادارته ضد الطرف الاخر بهدف كسب ثقته واقتناعه بان يكون هو وحده اداته في حكم سورية . ولا شك ان الطرف الذي نال ثقة ودعم عبد الناصر في البداية كان ، كما رأينا سابقا ، طرف البرجوازية السورية التي استمرت في ركوب الموجة القومية بعد حل تنظيميها السياسيين ، الحزب الوطني وحزب الشعب ، في بداية الحكم الناصري لسورية ، متقنعة بلباس الناصرية نفسها . لقد رأت هذه البرجوازية في المواقف التوفيقية للناصرية وخاصة ما تعلق منها بمقولة السلم الطبقي والوحدة الوطنية ضمانة تستطيع ان تعتمد عليها في جرها لخدمة مصالحها ونفوذها وتعزيز مواقعها السياسية . هذا يفسر تسلسلها في بداية فترة الحكم الناصري الى صفوف الناصرية و صفوف تنظيميها ، ولا شك بمطامح البرجوازية السورية في استخدام هذا التسلسل كوسيلة لتسلل اكثر اهمية ، الى الحكم والسلطة ، فلقد كانت تدرك مدى دعم الحكم الناصري لاهل التنظيم ، وبنيت على هذا الدعم والتصور امالا كبيرة سرعان ما خابت .

هذه الخيبة اتت بعد اصدار الحكم الناصري لقرارات التاميم الاشتراكية في تموز ١٩٦١ ، وبعد ما لحقها من تايد واسع من قبل التنظيمين الناصريين المذكورين . ان هذه القرارات التي وجهت ضربة كبيرة الى البرجوازية السورية الوطنية من خلال ضرب مواقعها الاقتصادية (٥٣) قد وضعت حدا لاي امل لها في امكانية تحول الناصرية في سورية لخدمة مصالحها فكان قرارها بالخروج منها ومن تنظيميها ومعاداتها والعمل على انهاء وجود حكمها في سورية . ما تقدم يفسر توجه البرجوازية الوطنية السورية الى تحالفها مع الاقطاع الذي كان ناقما على الحكم الناصري منذ قيامه باصدار قانون اصلاح الزراعي في السنة الاولى من حكمه ، وذلك لتصعد نشاطها وتامر هامعه للتخلص من هذا الحكم (٥٤) وكان ان نجحت في ذلك في ايلول ١٩٦١ .

خروج البرجوازية السورية الوطنية من الناصرية الحاكمة قد عنى ، من جملة ما عنى ، خروجها من التحالف المهيمن عليها ، تحالف قوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبالتالي ، بداية النهاية بالنسبة لهذا التحالف ، اما تامرها مع الاقطاع وقوى الرجعية العربية والمحلية عموما ضد حكم الوحدة ولصالح الانفصال فقد وضعها نهائيا في صف هذه القوى الانفصالية المعادية للحركة القومية العربية وللثورة العربية الوجدانية الاشتراكية الحضارية . وكانت ثورة اذار ١٩٦٣ الحدث التاريخي الهام الذي وضع ، في آن واحد ، نهاية مرحلة هيمنة التحالف المذكور على الواقع الاجتماعي والسياسي في سورية وبداية مرحلة جديدة هي المرحلة التي نعيشها ، مرحلة هيمنة تحالف « الطبقات والفئات الكادحة » حسب تعبير « البعث » وتحالف « قوى الشعب العاملة » حسب تعبير الناصرية .

الحواشي :

(١) انظر الآية ٦ من سورة العنكبوت « وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهناء والهناء واحد ونحن له مسلمون » وانظر الآية ١٣٦ من سورة البقرة « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي من موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » .

(٢) في الفترة الممتدة ما بين اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تمكن الاستعمار الغربي من السيطرة على غالبية مناطق الوطن العربي المنصوية تحت راية الرابطة العثمانية الاسلامية في الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربي، حيث استطاعت اكلترا فرض سيطرتها ، باشكل مختلف، على شواطئ الجزيرة العربية من عدن الى حضرموت والشواطئ الجنوبية الشرقية وعمان والبحرين والكويت ، واحتلت مصر في عام ١٨٨٢ . اما فرنسا فقد احتلت الجزائر في عام ١٨٣٠ وتونس في عام ١٨٨١ ومراكش في عام ١٩١١ ، واحتلت ايطاليا ليبيا (طرابلس الغرب) في عام ١٩١٢ . ولم يكن الوجود العثماني التركي في الوطن العربي الا عاملا مساعدا على نجاح السيطرة الاستعمارية الغربية هذه .

اما بالنسبة للصهيونية فقد تحالفت معها سلطات الاحتلال التركي ممثلة بالسلطان عبدالحميد الذي حكم ما بين ١٨٧٦ و ١٩٠٩ ، وذلك على عكس ما اعلنه اعلام هذه السلطات . ان الصهيونية بدأت باتشاء مستعمرات في فلسطين في عهده في عام ١٨٨٢ واستمرت بذلك منذ ذلك الحين . هذا وان جميع مستعمراتها الرئيسية قد اقامتها في فترة حكمه بالتحديد ، والسلطان عبد الحميد هو الذي قدم النيشان المجيدي للسلطنة الى زعيم الصهيونية هرتزل في عام ١٩٠١ . ونذكر ، على سبيل المثال وليس الحصر ، بان منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين التي انشأها المليونير اليهودي روتشيلد في عام ١٨٨٢ قد انشأت لوحدها ما بين هذا العام وسام ١٩٠٠ (٤٢) مستعمرة في فلسطين ، وفي عام ١٩٠١ عقد ، ولاول مرة في فلسطين ، اجتماع المؤتمر الصهيوني العالمي ، وفي نفس العام انشئ في فلسطين الصندوق القومي اليهودي، ثم وفي عام ١٩٠٢ انشئ بنك انجلو فلسطين الذي سيطر على اقتصاديات العرب . وفي عام ١٩٠٧ انشئت مستعمرة تل ابيب . الخ . (انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتري عليها ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٩٨٠ - ٩٩٢) .

وهكذا فان المرحلة الاساسية من الوجود الصهيوني في فلسطين قد تمت في عهد السلطان عبدالحميد وبمباركة السلطات التركية كما تذكر كثير من المصادر وكما يؤكد الواقع التاريخي الفعلي بكل بساطة ووضوح .

(٣) من خطاب فيصل في حلب في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، انظر : ساطع الحصري ، يوم ميلون ، الطبعة الثالثة ، دار الاتحاد ، بيروت ، بلا تاريخ ، ص ٢١٤ .

(٤) علي محمود العمر ، حركة التحرر العربية الى أين ؟ الطبعة الاولى ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٨٩ .

(٥) مكرر - انظر الى الامام ، ص ٥ .

- (٥) راجع : ف.ب. فيكتوروف ، اقتصاد سورية الحديثة ، أكاديمية العلوم ، موسكو ، ترجمة هشام الدجاني ، دار البعث ، دمشق ، ١٩٧٠، ص ١٦ .
- (٦) انظر ثوقان قرقوط ، تطور الحركة الوطنية في سورية ، ١٩٢٠ - ١٩٢٩ ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٤٢-٤٤ .
- (٧) لم تتكون في سورية في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٢٨ - ١٩٤٥ سوى سبع شركات صناعية مساهمة برؤوس أموال مقدارها ١٩٣ مليون ليرة واهمها : معمل الكونسروة والاسمنت في دمشق ومعمل القزل والنسيج في حلب . ولقد رفضت السلطات الفرنسية في عام ١٩٢٩ ، مثلاً ، فكرة اقامة مصرف صناعي سوري برأسمال قدره ٥٠٠ الف ليرة فقط ليقدم المساعدة الممكنة للمؤسسات الصناعية . انظر فيكتوروف ، المصدر السابق ، ص ١٧ .
- (٨) نفس المصدر ، ص ١٨-٢٢ .
- (٩) نفس المصدر ، ص ٢٠ ، وانظر صلاح وزان ، من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي ، دمشق ، ١٩٦٧ ، ص ٤٠ .
- (١٠) محمد الزعبي ، مواقف حزب البعث العربي الاشتراكي من مسألة المزارع الطبقي ، دمشق ، ١٩٧٣ ، ص ٢٨ .
- (١١) انظر :
- Samir Amin, La Nation Arabe, ed. de Minuit, Paris 1976, p.39.
- Ibid, p. 63. (١٣)
- Ibid, p.54 . (١٢)
- (١٤) جورج انطونيوس ، بقلعة العرب ، لندن ، ترجمة م. اسد و م. عيسى ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٤٩٦-٤٩٩ .
- (١٥) انقسم كل من هذين الحزبين الى جناحين : احدهما ينادي بالوحدة مع العراق والثاني ضدها ويميل الى التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع بعض زعماء الحزبين ومنهم عبد الوهاب حومد في ١٩٧٧/٢/٥ ورشاد برمدا في ١٩٧٦/٦/٣ وعلي بوقلو في ١٩٧٦/٤/٢٦) .
- (١٦) كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح الوحدة مع العراق (مقابلة مع برمدا في ١٩٧٦/٦/٣) .
- (١٧) كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع نصوح بابيل في ١٩٧٧/٢/٣) .
- (١٨) راجع : نفال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٥٨-٥٩ و ص ١٧١-١٧٢ .
- (١٩) راجع : باتريك سيل ، الصراع على سورية ، لندن ، ١٩٦٥ ، ترجمة سمير عبود ومحمود فلاح ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٨ وما يتبع .
- (٢٠) المصدر نفسه .

- (٢١) مقابلة مع عبد الحليم قدور (من مؤسسي الحزب العربي الاشتراكي) ، في ١٤/٢/١٩٧٧ . ومقابلة مع جلال فاروق الشريف (من البعثيين القدامى) في ٢٨/١/١٩٧٦ .
- (٢٢) حول اسباب مساهمة البرجوازية السورية في صنع الوحدة، انظر : محمد عبد المولى ، الانهيار الكبير : الطبعة الثانية ، دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٤٦٠-٤٦٧ وانظر عبد الله الامام ، الناصرية دراسة بالوثائق في الفكر الناصري ، منشورات الوطن العربي ، بدون مكان او تاريخ ، ص ٢٢١ .
- (٢٣) انظر : سيل ، المصنوع السابق ، ص ٢٧٢-٤٠٠ .
- (٢٤) كبيرة اذا ما قورنت ببقية الفئات البرجوازية الاخرى الموجودة في المجتمع السوري ليس الا .
- (٢٥) انظر :
Maurice Duverger . Les Partis politiques, 5 em . ed., A. Colin, Paris
1969, p. 84-101 .
- (٢٦) المصدر نفسه .
- (٢٧) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ٢٨/١/١٩٧٦ .
- (٢٨) انظر جريدة البعث ، عدد ٥٦١ ، ايار ١٩٥٤ ، في : نضال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ٢٥٠-٢٥٣ وانظر ص ٢٧٠-٢٧٢ .
- (٢٩) فادن بين بيانات الحزب ومشوراته في هذه الفترة وبينها في الفترة السابقة القريبة وذلك في الجزء الثاني والثالث من نضال البعث ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣-١٩٦٤ .
- (٣٠) ان حكومة ناظم القدسي ، المؤلفة بغالبيتها الساحقة من حزب الشعب ، هي التي اصدرت في ٢١ كانون الثاني ١٩٥١ قرارات تاسيس شركات الكهرباء في سورية ، واصدرت في ١٧ اذار من نفس العام قرار تاسيس ادارة حصر التبغ والتبغ .
- (٣١) لقد اعتبرها : مفامرة خطيرة ستؤدي الى هروب رؤوس الاموال الاجنبية وعدم دخولها لسورية بعد اليوم (انظر القيس ، الامداد : ٤٢٥٢ تاريخ ١٩٥١/١/٤ وعدد ٤٢٦٢ تاريخ ١٩٥١/١/١٩ وعدد ٤٢٧٢ تاريخ ١٩٥١/٢/١ وعدد ٤٢٩١ تاريخ ١٩٥١/٢/٢٧ .
- (٣٢) للاطلاع على مبادئ هذين الحزبين الرئيسية راجع كتاب بعنوان : الاحزاب السورية ، دار الرواد ، دمشق ، ١٩٥٤ ص ١٥٧-١٧٠ وراجع : الحزب الوطني ، الميثاق ، حلب ، بدون تاريخ .
- (٣٣) للاطلاع على مبادئ هذا التنظيم السياسية انظر دستوره في كتاب : الاحزاب السورية ، المخطبات السابقة ، ص ٢١٤-٢٢١ .
- (٣٤) مقابلة مع جيهاد ضاحي (من قياديي « كتاب الغداة العربي ») ومع سامي ضاحي (من ابرز قياديي « حركة القوميين العرب ») في ٢٤/٤/١٩٧٦ .

- (٢٥) مقابلة مع جهاد ضاحي في ١٩٧٦/٤/٢٤ .
- (٢٦) للاطلاع على فكر الحركة في ذلك الحين انظر : حكم دروزة وحامد الجبوري ، مع القومية العربية ، الطبعة الرابعة ، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٦٠ .
- (٢٧) كتب الكثير في الفكر الناصري ، ومن الممكن اخذ فكرة واضحة عنه تماما من المصادر الآتية : عبد الله الامام ، المصدر السابق مارلين نصر ، التطور القومي العربي في فكر جمال عبد الناصر (١٩٥٢ - ١٩٧٠) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ . و :
- Paul Balta et Claudine Rulleau , La Vision nassérienne , Sindbad ; Paris 1982.
- (٢٨) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ١٩٧٦/١/٢٨ .
- (٢٩) المصدر نفسه ، وحول ابعاد ناصر للبعثيين انظر نشرة قيادة « البعث » القومية السرية في اذار ١٩٦٠ في نضال البعث ، الجزء الرابع ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٢١-١٧٩ وانظر ، عوني فرسخ ، الوحدة في التجربة ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٤-٢٩٩ .
- (٣٠) عبد الله امام ، المصدر السابق ص ٢٠٢ .
- (٣١) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٣٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٣٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
- (٣٤) محسن ابراهيم ، في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي ، من منشورات « حركة القوميين العرب » ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٨-١٢٩ و ص ٢١٤-٢١٧ .
- (٣٥) من خطاب عبد الناصر في عيد السد العالي في يناير ١٩٦٣ « شيء ضد العقل وضد الطبيعة ، واحنا كنا طيبين جدا ، عايزين نلم الاقطاعي اللي خدنا منه الف فدان مع الفلاح اللي وزعنا عليه خمسة افدنة » . انظر : عبد الله الامام ، المصدر السابق ص ٣٠٨-٣٠٩ .
- (٣٦) سعد التائه ، مصر بين عهدين ، دار النضال بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٩٧ .
- (٣٧) المصدر نفسه .
- (٣٨) من احدي خطب عبد الناصر ، امام ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .
- (٣٩) ايغور بيليايف وافيني بريماكوف ، مصر في عهد عبد الناصر ، تعريب عبد الرحمن الخميسي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ١٢٠ .
- (٤٠) انظر : احمد عبد الكريم ، اقواء على تجربة الوحدة ، مكتبة اطلس ، دمشق ، ١٩٦٢ ، وانظر

فرسخ ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، ٢١٠ ، وص ٢٨١-٢٨٨ ، وانظر : مجموعة مؤلفين ، سورية
محطمة الاستعمار والصهيونية ، دارالاستقلال ، دمشق ، ١٩٦٢ .

(٥١) انظر دروزة وجبري ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ ومايتبع .

(٥٢) انظر ، على سبيل المثال ، بيان البعث بعد مؤتمره القومي الثالث ، بتاريخ ١٠/١٠/١٩٥٩ في جريدة
الصحافة عدد ٢٨٢ ، في : نضال البعث ، الجزء الرابع ، نفس المعطيات السابقة . ص ٩٢-١١٢-
وانظر المصدر نفسه ، ص ١٥٩ (وهو قسم من بيان القيادة القومية للبعث في آذار ١٩٦٠) .

(٥٣) انظر محمد عبد المولى ، المصدر السابق ، ص ٤٥-٧٧ .

(٥٤) المصدر نفسه ص ٦٢-٧٠ .



مَصَالِحُ فَرَنْسَا اِلِقْتَصَادِيَّةٌ فِي سُوْرِيَّة

(١٥٣٥ و ١٢٩٠)

د. محمد ربحاني ريان

جامعة اليرموك

مقدمة : في عام ١٨٦٠ حدث تدخل عسكري فرنسي في سورية (١) ، وهذا التدخل احاطت به ظروف دولية وحسابات استراتيجية ، وكان للدوافع الاقتصادية دور مهم فيه (٢) .

وحدث بعد ذلك تدخل اخر في عام ١٩١٩ ، يسمى تاريخيا بالتدخل الثاني، وهو التدخل الذي اعقبه مباشرة القضاء على الدولة العربية الناشئة في دمشق في شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠ واحتلال سورية ، وفرض الانتداب الفرنسي عليها واقراره من قبل عصبة الامم في ١٩٢٢ (٣) . وكان لهذا التدخل ايضا ظروفه الدولية وحساباته الاستراتيجية والدبلوماسية العلنية والمستترة . ولكن هل كان لفرنسا مصالح اقتصادية ادت الى هذا التدخل العسكري الفرنسي ؟

في هذه الورقة ستكون الاجابة على هذا السؤال هي العنصر الرئيسي ، ولا يمكن ان نصل الى هذه الاجابة ، الا اذا تعرضنا الى الجذور التاريخية لتلك المصالح الاقتصادية ، وهذا يحتم علينا الخوض في الامور التالية :

- ١ - المصالح الاقتصادية الفرنسية من خلال الامتيازات في الدولة العثمانية .
- ٢ - التنافس الاقتصادي الفرنسي - الانجليزي ، والثنافس الفرنسي - الالماني في الامبراطورية العثمانية ، واثر ذلك على التجارة الفرنسية .

٢٧ و ٢٨ - ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

٣ - الاستغلال الاقتصادي الفرنسي في الدولة العثمانية والاستثمارات والديون .

٤ - طبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية في مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي هذه المقدمة يجدر بنا ان نشير ان تركيز فرنسا من الناحية الاقتصادية في البداية كان على العلاقات التجارية بالذات ، وهي علاقات تعود الى العصور الوسطى وتوسعت في العصور الحديثة (١) .

والحقيقة فان العلاقات الاقتصادية التجارية الفرنسية مع الشرق هي جزء من علاقات التبادل بين العالمين الغربي والاسلامي ، وتعود الى حقبة بعيدة في التاريخ كانت المرحلة الصليبية احدى حلقاتها . واستمرت هذه العلاقات وتأكدت لدرجة انه في القرن الثالث عشر التقى العالمان في اشكال النشاط الاقتصادي والانتاج ذاتها .

لكن حقيقة هذا الواقع لم تدم طويلا ، فمنذ القرن الخامس عشر ادى اكتشاف البرتغاليين طريق الهند الى انتزاع المبادرة من يد اصحاب القوافل والملاحين العرب الذين كانوا يقومون بالدور الاول في تجارة الترانزيت ، لذلك لم تستمر اشكال النشاط الاقتصادي والانتاج ذاتها خلال كل مراحل التبادل بين العالمين ، فمنذ الفتح العثماني الذي ترادف زمنا مع الصعود الاوروبي والتراجع في الدور الاقتصادي العربي ، انكفاء النشاط الاقتصادي في البلاد الاسلامية على نفسه ليصبح نشاطا داخليا لعالم وضعه تطور التجارة العالمية على الهامش ، وهذه الهامشية في علاقات التبادل العالمية كانت المدخل لتغلغل رأسمالي اوروبي ، ادى الى قلب ميزان التبادل لصالح الغرب (٢) .

كذلك يجدر بنا ان نشير ايضا ، انه في مطلع القرن السادس عشر ، اصبحت سورية عدة ولايات في كيان سياسي كبير هو الامبراطورية العثمانية ، ولم تشكل وحدة ادارية ضمن ولاية عثمانية واحدة (٣) ، وتأثرت بالاتجاهات الاقتصادية التي بدأت تواجهها الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية ذات الانظمة الرأسمالية بشكل عام ومع فرنسا بشكل خاص ، اذ اخذت هذه الدول وعلى رأسها فرنسا تتجه بانظارتها نحو الدولة العثمانية لربطها بعجلة الرأسمالية الاوروبية ، وللحصول على المواد الأولية لتسيير ماكينة صناعة الغرب ومن ثم لتسويق بضائعها . فهيمن التجار الاوروبيون داخل الامبراطورية العثمانية هيمنة كاملة على عمليات التبادل ، وكان لفرنسا دور بارز في هذا المضمار ، وكانت سورية نقطة بارزة فيه .

مصالح فرنسا الاقتصادية من خلال الامتيازات :

بدأت التوجهات الاقتصادية الأوروبية وخاصة التجارية نحو الدولة العثمانية عن طريق ما سمي بالامتيازات (Capitulation) (٧)، التي بدأ عن طريقها التدخل الاقتصادي المنظم ، ويرجعها البعض الى القرن الثاني عشر الميلادي (٨) ، وقد منحت امتيازات تجارية لتجار المدن الإيطالية في القرن الخامس عشر ، وخاصة البندقية (٩)، ولكنها لم تكن باتفاقية ، لان اول اتفاقية عقدت بين الطرفين كانت في كانون الاول (ديسمبر) ١٥٢١ ، صيغت فيها الامتيازات التجارية السابقة التي اعطيت للتجار البنادقة (١٠) ، خاصة فيما يتعلق باعفائهم من الرسوم الجمركية وغيرها من العوائد ، بالإضافة الى حرية التجارة (١١) . ولكن ، ومع مرور الايام ، اخذت المكانة الاولى في التجارة مع الامبراطورية العثمانية تنتقل الى فرنسا التي منحت الامتيازات في اتفاقية الصداقة والتجارة التي عقدت في شباط (فبراير) ١٥٣٥ (١٢) ، وعلى اساس التحالف بين فرنسا اول القرنسي (١٤٩٤ - ١٥٤٧) وسليمان الاول القانوني العثماني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) ضد امبراطورية الهابسبرج ممثلة بامبراطورها شارل الخامس (١٣).

لقد حصل الفرنسيون على الامتيازات ، وخاصة الاقتصادية ، في ظل ظروف هيات لعقد هذا الاتفاق الشهير . ذلك ان عهد سليمان الاول تميز بعلامات هامة في علاقات الدولة العثمانية الدولية ، فقد بدأ الصراع العثماني مع دولتين كبيرتين ، امبراطورية الهابسبرج في الجانب الاوروبي ، والدولة الصفوية الاسيوية في المجال الاسيوي . ومن ناحية اخرى تميز هذا العهد بالتحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا ، وكان ذلك نتيجة طبيعية للعداء التقليدي بين فرنسا وامبراطورية الهابسبرج ، وكانت الدولة العثمانية تشتبك في صراع مع اسبانيا للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط وشمال افريقيا (١٤) .

ضمنت هذه الامتيازات في ستة عشر بنداً ، نصت في جملتها على « انه يجوز لرعايا الطرفين المتعاقدين او تابعيهم السفر بحرا بمراكب مسلحة او غير مسلحة والتجول في بلاد الطرف الاخر والمجيء اليها والاقامة بها او الرجوع الى الثغور والمدن او غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكامل الحرية بدون ان يحصل لهم ادنى تعد عليهم او على متاجرهم ، ويجوز لرعايا وتابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع مع دفع الفوائد والضرائب المعتادة قديماً » وجاء فيها ايضاً « انه لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين فيما يختص بالمسائل الدينية امام القاضي العثماني ، بل تكون محاكمتهم امام الباب العالي ويكون مصرحاً لهم باتباع شعائر دينهم ، ولا يجوز استخدام التجار الفرنسيين او سفنهم جبراً عنهم في خدمة جلالة السلطان الاعظم او غيره في البر والبحر ما لم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم » (١٥) .

وترجع أهمية هذه الاتفاقية الى انها اعتبرت المنظمة لحياة الرعايا الفرنسيين التجار واقامتهم في اقاليم الدولة العثمانية ، وتمتعت فرنسا في ظلها ، من الناحيتين القانونية والعملية ، بمركز مرموق ومتفوق في ولايات الدولة وكانت الاساس في التعاون الواسع مع فرنسا ، والذي استمر لثلاثة قرون (١٦) . وبعد عقد هذه الاتفاقية تدفق التجار الفرنسيون الى بلاد الشرق الادنى عن طريق غرفة التجارة بمرسيليا التي كانت تتركز فيها تجارة الشرق (١٧) .

بقيت هذه المعاهدة حجر الزاوية في سياسة فرنسا الاقتصادية نحو الامبراطورية العثمانية ، وبقيت بنودها المتضمنة للامتيازات الاقتصادية الطريق الذي سلكته لجني الفوائد الاقتصادية . وقامت فرنسا بعد ذلك بتعزيز وتأكيد امتيازاتها بعدة اتفاقيات لاحقة جديدة ، الا ان جذورها كانت مستمدة من الاتفاقية الاولى ، التي نص بندها الاول ان مفعولها يستمر في حياة المتعاقدين عليها (١٨) ، وهذا تقليد سارت عليه معظم تلك الاتفاقيات .

ففي اول شباط (فبراير) ١٥٥٣ ابرمت بين السلطان سليمان الاول القانوني وهنري دي فالوا الفرنسي ، معاهدة من تسعة بنود تتعلق في معظمها بالحرب البحرية (٢٠) ، وفي عام ١٥٦٩ واثر وفاة سليمان القانوني ، ومن اجل استمرار فعالية الصداقة الفرنسية العثمانية التي وضعت في عهده ، كان من الضروري لصعود سليم الثاني الى العرش عقد هذه الاتفاقية (٢١) ، وقد اعطت الحرية الكاملة لابحار السفن الفرنسية في المياه العثمانية والموانئ التابعة لها ، وحتى تحصل المراكب الاوروبية الاخرى على الامتيازات التي اعطيت للسفن الفرنسية كان عليها رفع العلم الفرنسي ، هذا مراكب جنوه والبندقية التي تمتعت بمثل هذا الامتياز (٢٢) .

ولما راي هنري الرابع محاولات دول اوروبية اخرى للحصول على مثل الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا ، اضطر الى عقد معاهدة صداقة مع السلطان وعمل على تجديد الامتيازات على يد « دي بريف » في العشرين من ايار (مايو) عام ١٦٠٤ . اضافت مكسبا اخر وهو السماح للتجار الفرنسيين بالعيش بامن وطمأنينة وحرية النقل دون عائق (٢٣) . واستطاع الكاردينال ريشيلو (Richelieu) (٢٤) الذي سار على سياسة فرنسوا الاول وهنري الرابع في التقرب الى السلطان العثماني بسبب نجاحه في ايقاف الحرب بين الامبراطورية العثمانية وجمهورية البندقية ، وبينها وبين بلاد الغرب ، ان يحصل على امتيازات للتجار الفرنسيين اوسع مما حصل عليه رعايا الدول الاوروبية الاخرى (٢٥) .

لكن هذه الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا في الامبراطورية العثمانية كانت تتأرجح بين التجديد والتجميد حسب السياسة التي كانت تنهجها الحكومة الفرنسية تجاه الدولة العثمانية بشكل خاص وتأرجح العلاقات الفرنسية العثمانية بشكل عام ، وظهر ذلك واضحا بعد انقضاء السنوات الاولى من القرن السابع عشر .

فبعد التجديدات في الامتيازات التي حصل عليها الفرنسيون في عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ - ١٦٠٣) واحمد الاول (١٦٠٣ - ١٦١٧) فشلت محاولات كونت دي كيسي Comte de Cisy لتجديد الامتيازات السابقة وذلك في عام ١٦١٩ ، ومنذ ذلك الوقت بدأ التأثير الفرنسي في الباب العالي وفي اسواق الشرق في الضعف . وفي عهد اسرة كوبر يلي (٢٧) انقطعت العلاقات السياسية مع فرنسا لفترة من الزمن ، وهبط مستوى التجارة الفرنسية الى عشر ما كانت عليه في عام ١٦٢٠ (٢٨) .

كذلك ساءت العلاقات بين الدولتين بسبب مساعدة لويس الرابع عشر للنمساويين في سان غوتار (St. Gutar) في الثلاثين من تموز (يوليو) ١٦٦٣ ، وللبندقية في كريت ١٦٦٨ رغم معارضة وزرائه لا سيما كولبير (Colbert) وزير المالية الذي كان يرغب في تعزيز التجارة الفرنسية في الشرق ، فاصبح الرعايا الفرنسيون في الامبراطورية العثمانية مهددين بايقاف مصالحهم ، بعد ان توقفت الحركة التجارية بين البلدين وفرضت الدولة العثمانية القيود على التجار الفرنسيين (٢٩) .

الا ان لويس الخامس عشر تمكن من تجديد هذه الامتيازات في الثاني والعشرين من ايار (مايو) ١٧٤٠ على يدالمركيز فيلنوف (Villeneuve) ، الذي كان سقيرا لفرنسا في استانبول وعرف بحنكته السياسية ، وصاحب الكلمة النافذة واليد العليا لدى السلطان (٣٠) ، واضفى عليها صفة الابدية ، فبعد ان كانت غير سارية المفعول الا في عهد السلطان الذي يمنحها اصبحت سارية المفعول في عهد خلفائه (٣١) واصبحت امتيازات ١٧٤٠ مرة اخرى قانونا للفرنسيين يعيشون بمقتضاه في الدولة العثمانية (٣٢) .

كان من نتائج تجديد الامتيازات عام ١٧٤٠ تفوق فرنسا في مجال التجارة مع الاقطار العثمانية ، وازدياد اهتمامها بتطوير هذه التجارة وزيادتها ، من ذلك ارسال الحكومة الفرنسية البارون « دي توت » ما بين (١٧٧٧ و ١٧٧٨) في رحلة سرية لدراسة الاحوال في الامبراطورية العثمانية واقتراح افضل الوسائل للنهوض بالتجارة الفرنسية في الشرق (٣٣) .

ومما لا شك فيه ان هذا التفوق الاقتصادي الفرنسي ، الذي كانت التجارة احدي مظاهره الواضحة ، يعود في جزء كبير منه الى المركز السياسي الفرنسي المؤثر

في الدولة العثمانية ، ولكن اعقب هذا التفوق انحدار مؤقت نجم عن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، والضربة الحاسمة التي تلقتها حملة نابليون على مصر وبلاد الشام ، اذ اعتبرت الدولة العثمانية ان هذه الحملة موجهة ضدها فجمدت امتيازات فرنسا الاقتصادية فيها (٢٤) .

وعندما اصبح نابليون بونابرت قنصلا اولا اقنع سفير الدولة العثمانية في فرنسا المدعو اسعد افندي ، بوجوب تجديد العلاقات الودية مع فرنسا ، فكاتب السفير العثماني دولته بذلك ، وبعد الحصول منها على الاذن امضى مع بونابرت مشروع معاهدة بتاريخ ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٠١ اساسها اخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الشرق . وحول الامتيازات نص البند الرابع من المعاهدة على « ان المعاهدات الكائنة فيما بين فرنسا والباب العالي حتى قبل الحرب الحاضرة تجددت بتمامها ، وبناء على ذلك حق لجمهورية فرنسا ان تتمتع في كافة انحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التي كانت تتمتع بها قبلا او سيتمتع بها غيرها من الدول الاكثر تفضيلا في مستقبل الايام » (٢٥) .

كان من نتائج عقد هذه المعاهدة عودة الهيمنة الاقتصادية الفرنسية في الشرق وعودة الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الامبراطورية العثمانية الى سابق عهدها (٢٦) . وتم تدعيم هذه المعاهدة باتفاقية جديدة منحت فرنسا الحق في « ان تشتري من اي مكان في الدولة العثمانية السلع كافة بلا استثناء من منتجات الاراضي او الصناعات في المناطق الخاضعة للدولة اما بغرض التجارة او الاستغلال ، وتعهد الباب العالي بالغاء اي احتكار على المنتجات الزراعية او منتجات اخرى في اراضيه ، وبان تلتفى التعريفات المفروضة من جانب السلطات المحلية على شراء هذه السلع او على نقلها من مكان شرائها الى مكان اخر » (٢٧) .

ان هذه الامتيازات الاقتصادية صارت ومنذ مطلع القرن التاسع عشر في نظر فرنسا حقوقا مكتسبة لها ، واصبح بمقدورها تفسير تلك الامتيازات لصالحها دون ان تسمح للسلطان العثماني باعادة النظر فيها ، وكان السلاطين يعون جيدا هذه الحقيقة . وكانت معاهدة باريس ١٨٥٦ (٢٨) فرصة مواتية للتخلص من هذه الوصاية ، غير ان المحاولة العثمانية باءت بالفشل . ولجأت فرنسا الى استغلال هذه الاتفاقيات ، مستفلة ضعف الدولة العثمانية ومتاعبها الداخلية وحروبها الخارجية ، فجاءت معاهدة باريس في ٢٨ اذار (مارس) ١٨٥٦ لتؤكد ان الباب العالي قد قبل بالمشاركة في فوائد القانون العام والتنسيق الاوروبي وحرمان الدولة العثمانية من حقها في اعادة النظر في الامتيازات او الغائها (٢٩) ، وجاءت المادة (٣٢) من هذه المعاهدة لتجدد جميع الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا ، وغيرها من الدول من قبل (٤٠) .

ولكن محاولات الباب العالي للتخلص من هذه الامتيازات لم تقف عند مؤتمر باريس ١٨٥٦ ، فقد جرت محاولات اخرى تزامنت في معظمها مع مرحلة التنظيمات الخيرية (٤١) ، كان اهمها عام ١٨٦٣ في عهد الصدر الاعظم عالي باشا ، الذي اصدر نظاما ، لم يمس الامتيازات الاقتصادية الفرنسية وانما حدد ما يبيع للمواطن العثماني التمتع بالحماية الفرنسية ، وذلك اذا كان مكلفا بمهمة رسمية من السلطات الفرنسية فقط ، والغاء منح الحماية الفرنسية بصورة شرفية (٤٢) . اي انها بقيت بعيدة عن جوهر تلك الامتيازات الاقتصادية التي تمتعت بها فرنسا في املاك الدولة العثمانية ، والدليل على ذلك ان المادة الثانية من معاهدة برلين المبرمة في ١٣ تموز (يوليو) ١٨٧٨ ، اكدت الحقوق الواردة في الامتيازات السابقة (٤٣) . اما الغاء الامتيازات الفرنسية في الدولة العثمانية ، فقد تم بصورة رسمية من قبل الحكومة التركية في ٥ ايلول (سبتمبر) عام ١٩١٤ (٤٤) .

التنافس الاقتصادي واثر ذلك على التجارة الفرنسية .

التنافس الانكليزي - الفرنسي : ان الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا في الامبراطورية العثمانية ، اصبحت ، في نظرها ، حقا مكتسبا لها دون غيرها ، فكان همها بالدرجة الاولى ان يظل لها السبق في هذا المجال او ان تحول دون غيرها من دول اوربا والحصول على ما حصلت عليه ، الا انها لم تستطع منع دول اوربية اخرى ان تحذو حذوها ، بل وتنافسها ، وتمثل ذلك بشكل خاص مع انكلترا اولا ومع المانية ثانيا .

دخلت انكلترا مع فرنسا في تنافس اقتصادي منذ عهد مبكر ، خاصة في المجال التجاري ثم عن طريق الحصول على الامتيازات . فقد حاولت الحكومة الانكليزية الحصول على فوائد للتجار الانكليز بعدما اعطي من امتيازات عثمانية للبنادقة ثم للفرنسيين ، وذلك لتوسيع المصالح التجارية الانكليزية في ممالك السلطان العثماني ، لكن هذا النوع من المحاولات كان يجابه عادة بمعارضة شديدة خاصة من قبل ممثلي فرنسا في استانبول (٤٥) . هذا في الوقت الذي كانت فيه المراكب الانكليزية قد بدأت تأخذ طريقها نحو الموانئ العثمانية في النصف الاول من القرن السادس عشر ولكن بدون ان يكون لها وكالات تجارية دائمة .

بدأت المحاولات الانكليزية عن طريق الافراد ، اي التجار انفسهم ، وليس عن طريق الحكومة الانكليزية . واول محاولة كانت تلك التي قام بها انتوني جنكنسون (Anthony Jenkinson) في عام ١٥٥٣ م ، الذي قابل السلطان العثماني سليمان

القانوني في حلب ، وكان يجهز حملة لمحاربة الفرس ، ممثلاً عن نفسه وعن تجار آخرين انكليز ، وتقدم اليه بطلب « حرية التجارة في الامبراطورية العثمانية على نفس الاسس المعطاة للبنادقة والفرنسيين » . والذي حصل عليه جنكنسون هو « السماح له ولشركائه بان يحضروا بضائعهم الى الموانئ العثمانية على المراكب الانكليزية ، ولكن بمجرد ان تصبح سفنهم داخل المنطقة الخاضعة للقضاء العثماني كان عليهم الابحار والمرور تحت العلم الفرنسي » . وعلى ان هذه الميزة التي حصلوا عليها من السلطان لم ينتفعوا بها ولم تبدأ التجارة المنظمة الانكليزية في داخل الامبراطورية العثمانية الا بعد ذلك بثلاثة عقود (٤٦) ، حيث قام اثنان من التجار الانجليز ، اسبورن (Osborn) وستابسر (Staper) وارسلوا وكيلهم وليم هاربورن (William Harborn) محملاً برسالة من الملكة اليزابث الى السلطان مراد الثالث ، وبمطالب محددة تتعلق بالتجارة مع اسطنبول ، وفي رسالته الجوابية للملكة اليزابث وافق مراد الثالث على منح الامان للتجار الانكليز كتعبير منه عن الصداقة والوفاء الدين سيحافظ عليهما .

هذا التقارب بين الدولتين العثمانية والانكليزية ادى الى تدشين علاقات ودية ، والى نتائج سياسية واقتصادية ، في الوقت الذي كانت فيه السلطات العثمانية قد وقعت تحت اغراء فرصة شراء المنسوجات الانكليزية بثمان ارخص ، والحصول على المواد الأولية ، مثل القصدير والفولاذ ، التي كانت بحاجة اليها لصناعة الاسلحة . ورسالة من اليزابث مؤرخة في ٢٥ اكتوبر ١٥٧٩ . طلبت فيها من السلطان توسيع الامتيازات التجارية بحيث تشمل جميع رعاياها وتكون على اسس الامتيازات الفرنسية ، وتمت الموافقة على هذا الطلب في ايار (مايو) ١٥٨٠ (٤٧) . ونتيجة لهذه المفاوضات في اسطنبول والمراسلات بين مراد الثالث واليزابث ما بين ١٥٧٧ و ١٥٨٠ صيغت الامتيازات الممنوحة للانكليز على شكل اتفاقية من اثنين وعشرين بندا ، جاء في احدها « يسمح للتجار الانكليز بالقدوم الى الامبراطورية العثمانية مع بضائعهم عن طريق البر او البحر وتحت حماية علمهم الخاص ويشتروا ويبيعوا في ممتلكات الدولة العثمانية بدون اي عائق ، كما يسمح لهم بالعيش في ظل القوانين التابعة لدولتهم » (٤٨) .

واعقب هذه الخطوة الهامة خطوة اخرى ، هي انشاء شركة الشرق الانكليزية (The English Levant Company) في ١١ سبتمبر عام ١٥٨١ (٤٩) ، لتبدأ التجارة الانكليزية مع الامبراطورية العثمانية وفق قواعد ثابتة وفي ظل امتيازات معينة ، وليصبح معظم المتشاورين والدبلوماسيين الانكليز في الممالك العثمانية مستخدمين في الشركة (٥٠) . وقد بقيت هذه الشركة تقوم بالعمل في املاك الدولة العثمانية وتشرف على التجارة الانكليزية ، تماماً كما كانت تقوم غرفة تجارة مرسيليا الفرنسية بالاشراف على التجارة الفرنسية ، الى ان حلها البرلمان البريطاني في حزيران ١٨٢٥ (٥١) .

ولتدعيم هاتين الخطوتين ، قامت الملكة اليزابث بافتتاح سفارة في الاستانة ،
وجددت الامتيازات السابقة في عام ١٥٨٣ ، وحينئذ ارسى هاربورن سفير انكلترا في
العاصمة العثمانية ومندوب شركة الشرق الانكليزية القواعد الراسخة لنفوذ بلاده
الاقتصادي في الشرق الادنى (٥٢) .

واجهت فرنسا النجاح الذي حققته انكلترا ما بين ١٥٧٧ و ١٥٨١ في مجال
الامتيازات والتجارة مع الامبراطورية العثمانية ، بمقاومة عنيفة ، وحاولت ان تضع
العراقيل في وجه المحاولات الانكليزية في اسطنبول ، وبذلك يمكن القول ان عهد
التنافس الاقتصادي بين انكلترا وفرنسا يكون قد بدأ واخذت ملامحه تظهر واضحة .

لكن شركة الشرق الانكليزية لم تستطع ان تقف في وجه المنافسة الفرنسية،
ولذلك كانت تجارة الحوض الشرقي للبحر المتوسط في صالح فرنسا بصفة خاصة
حتى اواخر القرن الثامن عشر ، ففرنسا كانت الدولة الاوروبية الاولى لدى البلاط
العثماني ، وكانت صادراتها من الصوف ارحص من مبيعاتها الانكليزية واكثر ملائمة
لمناخ المنطقة ، هذا بالإضافة الى افراط شركة الشرق الانكليزية في البحث عن
الربح (٥٣) . ويؤيد هذا الرأي جورج كيرك الذي يضع اللوم كله على شركة الشرق
الانكليزية في «الهبوط المحسوس في التجارة الانكليزية وما ترتب عليه من فائدة لفرنسا،
وهي السياسة القائمة على الاكتفاء بالمبيعات القليلة مع ارتفاع نسبة الارباح فيها»
ويقول أيضا : « حقا لقد كانت الاصواف الانكليزية تتمتع بشهرة عظيمة ولكن الاصواف
الفرنسية كانت اخف منها واكثر ملائمة لجو هذه الاصقاع ، فضلا عن انها ثقل منها
في الثمن بنحو ١٠ ٪ ، وعندما قامت المصانع الانكليزية بصنع اصواف اخف من
سابقتها واقل ثمتا تبين ان نوعها قد تدنى لدرجة ان التجار اعرضوا عنها ، وقد
قيل في هذه المناسبة : « ان الاتراك في استانبول لم يجدوا الاقمشة التي تلائم رغباتهم
وبالسر الذي يرضونه ولا البن الذي يستسيقونه الا عند التجار الفرنسيين » (٥٤) .

ويمكن ان نضيف الى ما سبق ان مكانة الفرنسيين التجارية كانت قد تطورت في
الامبراطورية العثمانية ، مع انهم لم يستطيعوا منع الانكليز من فتح قنصلية لهم في
حلب لتشرف على رعاية مصالحهم ، ولترعى تجارة شركة الشرق الانكليزية الا ان
وصول الانكليز الى اسواق الشرق الادنى منذ عام ١٥٨١ انقص من مجموع التجارة
الفرنسية ومن عدد السفن الفرنسية ، وظهر ذلك واضحا بعد ٢٥ سنة من هذا
التاريخ (٥٥) .

لكن على المدى البعيد لم تؤثر التجارة الانكليزية بشكل عام على التجارة الفرنسية،
التي بلغت قبيل اندلاع الثورة الفرنسية ثلاثة امثال هذه الاخيرة ، واضطرت شركة

الشرق الانكليزية بين عامي ١٧٧٨ و ١٧٩١ الى اغلاق محطاتها الاربع في سورية تاركة نسبة كبيرة من تجارة هذا الاقليم في يد الفرنسيين (٥٦) .

اما على صعيد الامتيازات فقد قامت الحكومة العثمانية تدريجيا بتوسيع الحقوق الممنوحة للتجار الانكليز المقيمين في املاك الدولة على اساس عدم الخضوع للقوانين العثمانية ، وتحديد هذه الحقوق ، وعمل اضافات جديدة على الاتفاقيات السابقة باتفاقيات جديدة عقدت في الاعوام ١٦٠٦ و ١٦٢٤ و ١٦٤١ و ١٦٦٢ و اخيرا ١٦٦٥ ، وفي هذه الاخيرة وضعت جميع الامتيازات السابقة والتي بقيت سارية المفعول حتى زوال الامبراطورية العثمانية (٥٧) . ثم تم عقد اتفاقية ١٦٧٥ اثر مفاوضات قام بها السفير الانكليزي في استانبول جون فنش (John Finch) نيابة عن حكومته مع الحكومة العثمانية (٥٨) .

وفي خضم التنافس الفرنسي - الانكليزي الاقتصادي في الامبراطورية العثمانية، فان هذا التنافس كان يتأثر الى حد بعيد بعلاقات الدولة العثمانية السياسية بهاتين الدولتين وهذا يظهر واضحا من موقف الدولة العثمانية من حملة نابليون بونابرت على مصر والشام ما بين ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، فقد اعتبرت الحملة اساسا موجهة ضدها، فجمدت امتيازات فرنسا الاقتصادية فيها ، ولان بريطانيا قامت بالدور الرئيسي في التصدي للحملة وافشالها عسكريا وسياسيا ، لان من اهدافها الرئيسية قطع شريان الطريق التجاري المرصل للهند والحيوي لمصالح بريطانيا الاقتصادية ، وظهرت وكأنها حامية للامبراطورية العثمانية ، فزادت التجارة الانكليزية . وبعد انتهاء الحملة انتهزت انكلترا ذلك الوضع السياسي ، فعقدت مع العثمانيين اتفاقات جديدة وسعت العلاقات الاقتصادية بين الدولتين ، خاصة في المجال التجاري . ففي عام ١٨١٨ ، عقدت اتفاقية انكليزية - عثمانية للتجارة ، استكملت بفرمان صدر عام ١٨٢٠ ، حددت الرسوم على المستوردات الانكليزية الى ولايات الدولة العثمانية ب ٣٪ (٥٩) . ثم عقد اتفاق اخر تجاري بين الدولتين بتاريخ ١٦ اب (اغسطس) عام ١٨٣٨ ، ونص بنده الاول « على ان جميع الحقوق والامتيازات والاعفاءات التي اعطيت للأشخاص والسفن البريطانية في الامتيازات والمعاهدات السابقة ، تؤكد الان وتستمر الى الابد » (٦٠) . وعلى هذا النمط جاء الاتفاق الفرنسي مع الباب العالي في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٣٨ .

وعندما حاربت كل من بريطانيا وفرنسا ضد روسيا في حرب القرم ، استطاعت الدولة العثمانية ان تقيم توازنا اقتصاديا في موضوع الامتيازات ، فاعطت الدولتين حقوقا متساوية في معاهدة باريس في ٣٠ اذار (مارس) ١٨٥٦ ، خاصة ما يتعلق بالتجارة وجلب البضائع الى الامبراطورية (٦١) . ثم تأكدت حقوق الدولتين بالنسبة

للامتيازات السابقة وبشكل متساو في معاهدة برلين في ١٣ تموز (يوليو) ١٨٧٨ وذلك في المادة الثانية منها (١٢) . وبالتالي فقد تميز الربع الاخير من القرن التاسع عشر بجمود التنافس الاقتصادي الانكليزي - الفرنسي في الامبراطورية العثمانية .

التنافس الالماني - الفرنسي : جاء النشاط الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية متأخرا . ومنذ النصف الاول من القرن الخامس عشر ، بدأ التجار الالمانيون من اوغسبورغ (Augsburg) ونورنبورغ (Nurenborg) بالتجارة مع الشرق الادنى تحت حماية علم البندقية ، واستمرت المصالح الالمانية في الشرق الادنى حتى عام ١٨٧٠ بمثل فيها الجانب الاقتصادي جانبا ضعيفا وهو جانب تجاري (١٣) .

ثم حدث في عام ١٨٧٠ وعام ١٨٧٨ حادثان اكسبا مركز المانيا سموا كبيرا في اعين الاتراك ، واقترن ذلك بتضاؤل هيبة فرنسا في الدولة العثمانية . ففي ١٨٧٠ جرت الحرب الفرنسية - الالمانية (١٤) ، فتأثرت مشروعات فرنسا من جراء ويلات تلك الحرب ، واصبح همها اثر ذلك المحافظة على مصالحها الاقتصادية في الامبراطورية العثمانية ، امام مزاحمة الدول الاوروبية الاخرى . وفي عام ١٨٧٨ عقد مؤتمر برلين الذي تخلت فيه الدول الاوروبية عن سياسة المحافظة على تمامية الدولة العثمانية فوجدت فرنسا ان الخطر بدأ يحيق بمصالحها الاقتصادية في سورية . واتخذت المانيا الخطوة الاولى على طريق الزحف نحو الشرق (Drang nach Osten) في محاولتها للتوسط بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية (١٥) . وخرجت المانيا من المؤتمر دولة كبرى تريد ان تنفذ الى الشرق وتدخل رؤوس اموالها ومنتجاتها الصناعية (١٦) .

ولذلك وبعد الانتهاء من اعمال مؤتمر برلين بدأت تركيا تعتمد بصورة كبيرة على تأييد المانيا بعد ان تخلت انكلترا وفرنسا عن سياسة التكامل السياسي للدولة العثمانية . وكانت المانية في تطورها كدولة صناعية واستعمارية قد تطلعت الى مجالات استعمار خارج اوروبا ، وكان الشرق الادنى احدى هذه المجالات ، وبالتالي فقد بدأ نشاطها الاقتصادي في الدولة العثمانية . ورحبت المانيا بسياسة التقارب مع هذه الدولة لتتخذ ميدانا للتوسع الاقتصادي ، فطبيعة المانيا في ذلك الوقت كانت تحتم هذه السياسة ، فقد كان عدد السكان يتزايد فيها ، كما ازدادت حاجتها الشديدة الى المواد الغذائية والمواد الأولية (١٧) . في الوقت نفسه كانت الدولة العثمانية غنية بمواردها الأولية ومن الممكن ان تكون سوقا رابحا للبضائع الالمانية وهي ذات موقع جغرافي ممتاز وقريبة نسبيا خاصة املاك الدولة العثمانية في اسيا العربية ، التي يمكن ان تكون ميدانا واسعا للتوسع الاقتصادي والسياسي الالماني (١٨) .

كان الامبراطور فيلهلم الثاني (Wilhelm II) يعمل جاهدا في هذا الاتجاه ، فبعد سنة واحدة من وصوله الى العرش ، اي في عام ١٨٨٩ ، قام بزيارة للاستانة على الرغم من معارضة بسمارك (٦١) . وبعد سقوط بسمارك وظهور الاتجاه الامبراطوري الجديد بشكل واضح تقوى هذا الاتجاه .

وكانت مؤسسة المانية قد حصلت في ١٨٨٨ على موافقة الحكومة العثمانية على بناء خط حديدي الى انقرة ، وتأسست بذلك شركة خط حديد الاناضول من قبل نقابة المانية (٧٠) للقيام بهذا العمل .

وفي عام ١٨٩٨ قام الامبراطور الالماني بزيارته الثانية للسلطان للوصول الى وفاق اقتصادي الماني - عثماني ، وكان من نتائج هذه الزيارة اعطاء دفعة قوية للمشاريع الاقتصادية الالمانية . فحصل الامبراطور على وعد من تركيا بالتصريح ببناء خط حديد بغداد بين قونية وبغداد ، وكان الهدف منه تمكين الرأسمالية الالمانية من استغلال المصادر المعدنية والزراعية في الامبراطورية ، وكذلك الاستفادة من هذا الخط لمد فرع منه الى حلب عبر سورية ثم الى شبه الجزيرة العربية ، وقد بقي هذا المشروع معطلا حتى تم تنفيذه في عام ١٩٠٣ وذلك لمعارضة كل من بريطانيا وروسيا له (٧١) ، ففي ١٨٩٩ منحت الشركات الالمانية امتياز بنائه باتفاقية ابرمت في برلين بين البنك الالماني (Deutsch Bank) والبنك العثماني وشركة سكة حديد ازمير - قسبة (Cie de Smyrne - Cassaba) (٧٢) .

اما على صعيد التجارة فحتى عام ١٨٨٠ كانت تجارة المانيا مع الدولة العثمانية تعادل عشرة ملايين مارك ونصف المليون ، وفي عام ١٨٩٣ ارتفع رقم الصادرات الالمانية الى ما يبلغ خمسين مليون مارك وارتفعت صادرات الدولة العثمانية الى المانيا من نحو ٢٥ مليون مارك الى ١٦٥ مليون (٧٣) . وهذه الزيادة كانت ناجمة عن معاهدة تجارية المانية عثمانية عام ١٨٩٠ وانشاء شركة الخطوط الالمانية الشرقية (Deutsch Levant linie) لتسيير السفن التجارية بين بحر الشمال والشرق الادنى (٧٤) . والواقع انه منذ عام ١٨٨٩ امتد التوسع الالماني الاقتصادي الى الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية فزادت تجارة المانيا زيادة ملحوظة مع بلاد الشام (٧٥) .

ومنذ عام ١٨٩٩ ولدعم التغلغل الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية ومجاراة المشاريع الاستثمارية الفرنسية الواسعة فيها ، بدأ تأسيس البنوك الالمانية ، ففي تلك السنة أسس بعض المولدين الالمان البنك الالماني - الفلسطيني (Die Deutsche

(Palestina Bank) الذي كانت له فروع في عدة مدن منها دمشق وطرابلس وفي عام ١٩٠٤ ، انشا البنك القومي لمانيا مصرفا ماليا في الدولة العثمانية تحت اسم « بنك المشرق » ، وفي عام ١٩٠٥ أنشأ بنك درسدنر (Dresdner) بنكا سمي بنك الشرق الأدنى ، وكان لهذا البنك بالذات دور هام في التطوير الصناعي في الدولة العثمانية ، وفي ١٩٠٦ انشئ بنك الشرق الالماني (Deutsch Orient Bank) (٧٦) .

ولم تغفل المانيا عن حاجة الدولة العثمانية الى القروض ، وقد ادركت ذلك بوضوح بعد عقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، ولتدخل في منافسة مكشوفة مع الدول الاوروبية الاخرى في هذا المجال وخاصة فرنسا ، كان اول القروض الرسمية الالمانية للدولة العثمانية عام ١٨٨٨ ، ثم قرض ثان في عام ١٨٩٤ وتعاقب بعد ذلك عقد هذه القروض مع بنوك المانية من جهة ومع الحكومة العثمانية من جهة اخرى من اجل تغطية حجز الدولة . وتراوحت نسبة الفائدة ما بين ٤ و ٥ بالمائة . وقد بلغت القروض الالمانية للدولة العثمانية ما بين ١٨٨١ و ١٩٠٨ حوالي ١٢ مليون ليرة عثمانية ذهباً ، وبلغت هذه القروض بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٤ حوالي ٤٦ مليون ليرة عثمانية ذهباً (٧٧) .

ومما لا شك فيه ان هذا التغفل الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية وبالاشكال والاساليب التي ذكرناها ، قد اثر على دور فرنسا الاقتصادي التقليدي في تلك الدولة ، وكمثال على ذلك ان عدد التجار الالمان بدأ يكبر ، ان لم يتفوق في بعض الاوقات على عدد التجار الفرنسيين بالرغم من زيادة التجارة الفرنسية مع الدولة العثمانية ، وبدأت هذه الصورة واضحة في مطلع القرن العشرين (٧٨) .

الاستقلال الاقتصادي الفرنسي في الامبراطورية العثمانية والاستثمارات والديون :

استطاعت فرنسا من خلال اتفاقيات الامتيازات ، ان تبدأ بتطبيق سياسة اقتصادية قائمة على الاستغلال المنظم منذ عام ١٨٥٤ ، وقامت بتمويل عشرات المشاريع برؤوس اموال فرنسية عن طريق طرح الاستثمارات ، وهذه الاستثمارات اتخذت شكلين :

اولهما : الاستثمار المباشر في مشروعات المواصلات والنقل لخدمة الاستيراد والتصدير .

ثانيهما : الاستثمار غير المباشر للحصول على الاحتكارات والامتيازات لانشاء هذه المشروعات (٧٩) .

ففي سنة ١٨٦٣ أنشئ البنك الامبراطوري العثماني (Banque Imperiale Ottoman) وكان لفرنسا حصة الاسد فيه ، وهو البنك الذي منح امتياز اصدار اوراق النقد وكانت له فسروع متعددة في الولايات العربية ، مثله مثل بنك كريدي ليونيه (Credit lyonnais) كما ساهمت رؤوس الاموال الفرنسية في البنك العقاري العثماني (Credit foncier Ottoman) وفي بنك لبنان (Banque de Liban) (٨٠) .

اما اول استثمار فرنسي مباشر في سورية فكان في ميدان سكك الحديد ثم ابرامه في عام ١٨٨٩ لمدة ٧١ سنة وأوكل البناء للشركة الفرنسية (Société des travaux publics). كذلك قامت شركات فرنسية بشق طريق بيروت - دمشق ، وادى نجاح المشروع الى تشجيع الشركات الفرنسية على مد سكة حديد بيروت - دمشق - حوران فتشكلت الشركة الاقتصادية لسكة حديد - بيروت - دمشق - حوران

La Société des chemins de fer économiques de Beyrouth - Damas - Hauran) في سنة ١٨٩١ ، وتولت منذ عام ١٨٩٣ تنفيذ مد سكة حديد دمشق - حمص - حماه - حلب - بيرجك (٨١) . وتولت الشركة الامبراطورية العثمانية وهي شركة ذات رأسمال فرنسي توسيع ميناء بيروت (٨٢) . وتعددت مشاريع الاستثمار الفرنسية في الامبراطورية العثمانية بشكل عام وفي سورية بشكل خاص ، ودلت احصائيات البنك الامبراطوري العثماني في عام ١٨٩٦ ان حصة فرنسا من الاموال المستثمرة في الدولة العثمانية هي ٦٧ بالمائة ، بينما بلغت نسبة الاموال الالمانية ١٧ بالمائة (٨٣) ، وفي عام ١٩١٤ بلغ مجموع رؤوس الاموال الفرنسية المستثمرة في الدولة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى ذلك العام ٥٨٨٠ مليون فرنك (٨٤) .

اما النوع الاخر من الاستغلال الاقتصادي الفرنسي في الدولة العثمانية فهو الديون ، ذلك ان الدولة العثمانية اضطرت الى الاستدانة من البنوك والمصارف الاوروبية منذ مطلع النصف الثاني للقرن التاسع عشر لمواجهة الازمات المالية المتوالية والحروب العديدة التي خاضتها ، وكان لفرنسا النصيب الاكبر من هذه الديون ، وابرمت الحكومة العثمانية اول قرض اجنبي بعد بداية حرب القرم في اب ١٨٥٤ مع شركة بالمر (Palmer and co.) في لندن وشركة جولد شميث (Goldschmidt) في باريس نيابة عن بنكي انكلترا (Bank of England) وفرنسا (Banque de France) وكان مقدار هذا القرض ثلاثة ملايين جنيه استرليني، اي ما يعادل ٢٥ مليون ليرة عثمانية ذهباً بفائدة ٦ بالمائة ، وبعد ذلك بعام واحد ، ابرمت الحكومة العثمانية قرضاً ثانياً في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٥٥ مع مؤسسة روتشيلد في لندن ومقداره (٥٦٥) مليون ليرة عثمانية ذهباً بفائدة ٤ ٪ . وهكذا تورطت الدولة العثمانية بالديون ، فلم

تتمكن من تسديدها ، وبلغ مجموع الديون التي تراكمت على الدولة العثمانية منذ أول قرض أبرمته وحتى اندلاع الحرب العثمانية - الروسية عام ١٨٧٧ < ١٨٧٥ . ٩٠٢٠٩٠١٢٥ ليرة عثمانية ذهباً (٨٥) .

ولما انتهت تلك الحرب وانعقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ اخذت الدول الدائنة وخاصة فرنسا تواجها ضغطا من الشركات صاحبة الاسهم من اجل دفع اموالها . وابرم اتفاق في ١٠ - ٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٧٩ بين الحكومة العثمانية والبنك الامبراطوري العثماني وعدد من البنوك في استانبول لتسوية الامر ، ولكن هذه الاتفاقية لم ترض الشركان المالية ، فتمرض الباب العالي لضغوط شديدة ادت الى صدور فرمان محرم الموافق (٨ - ٢٠) كانون الاول عام ١٨٨١ والذي نص على قيام ادارة الدين العمومي العثماني (Administration de la Dette Publique Ottoman) (٨٦) لتتولى تسديد ديون الدول الاجنبية ، وتشكل مجلس تنفيذي لهذه الادارة عام ١٨٨٣ ، وبذلك اصبحت ادارة الدين العام تشرف على الشؤون المالية للدولة العثمانية ، وكانت حصة فرنسا من الدين العام العثماني اكبر النسب ، اذ بلغت حوالي ٤٠٪ في الوقت الذي بلغت فيه حصة انكلترا ٢٩٪ والمانيا ١٧٪ ، والباقي توزعته الدول الاوروبية الاخرى . وفي عام ١٨٩٨ اصبحت النسبة كما يلي : بريطانيا ١٠٪ ، المانيا ١٢٪ فرنسا ٤٤٪ (٨٧) وبهذا تكون نسبة فرنسا قد ازدادت وكذلك المانيا التي كانت تنافسها وانخفضت نسبة بريطانيا .

طبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية في مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى

مما لا شك فيه ان مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية ، بدأت تتأثر بمتغيرات سياسية كثيرة منذ مطلع القرن العشرين ، اهمها الحرب العالمية الاولى وما سبقها او رافقها من محادثات تقسيم مناطق النفوذ في الولايات العربية الاسيوية التي كانت تابعة للدولة العثمانية ، وفي الحقيقة فان هذه المحادثات كانت تجري على اساس اقتسام اسيا العثمانية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية بين الدول الاوروبية .

ولما كانت فرنسا قد استطاعت عبر فترة طويلة من الزمن ان تحقق قدرا كبيرا من المصالح الاقتصادية لم تحققه دولة اوروبية اخرى ، فانها بدأت تخشى على هذه المصالح وخاصة في سورية ، وكانت تثير دائما وبإصرار ان سورية هي حصتها التي يجب ان تعطى لها سياسيا لصيانة مصالحها الاقتصادية فيها .

هذه الرغبة لدى فرنسا برزت بشكل واضح في مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذي اتفقت فيه الدول على تغيير سياسة المطالبة بـ (تمامية الدولة العثمانية) فالتحت في هذا

المؤتمر على أن تكون حصتها هي سورية لما لها فيها من مصالح وامتيازات . ثم عندما تعرضت الامبراطورية العثمانية لازمات سياسية وانفصال بعض المقاطعات الاوروبية عن جسمها رأت فرنسا الخطر يحيط بمصالحها في سورية ، فلم تتأخر في اعلان رأيها بكل صراحة واظهرت عزمها على المحافظة على حقوقها القديمة في هذه المنطقة (٨٨) . وهذا ما اكده رئيس وزراء فرنسا المسيو بوانكاريه (Poincaré) في العشرين من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ في بيان له امام مجلس الشيوخ عن القضية السورية وعن مصالح فرنسا هناك فقال « اننا مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا بكل قوة ، وعازمون على المحافظة على تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق » (٨٩) . وذكر امام مجلس الشيوخ وفي مناسبة اخرى « ان حكومته اتخذت الخطوات التي تضمن مصالحها في سورية » (٩٠) .

وقبل اندلاع الحرب العالمية الاولى مباشرة جرت مفاوضات فرنسية وعثمانية نجم عنها ابرام اتفاقيات مختلفة ، وذلك في ١١ ايلول (سبتمبر) ١٩١٣ بين المفاوض العثماني جاويد بك ووزير الخارجية الفرنسية دومروغ ، تضمنت عدة امور ، منها ما يتعلق بالامتيازات والرسوم الجمركية ، ومد خطوط حديدية بين مختلف المدن السورية ، ونصت على أن يتولى ادارة الشركة الحديدية وفروعها مدير عام فرنسي لمدة عشر سنوات تمنح له صلاحيات واسعة ، كما نصت على أن يكون الخبراء والمهندسون الاجانب فرنسيين . واستطاعت فرنسا أن تضيف في هذه الاتفاقيات نصا يحدد منطقة النفوذ الالماني بعيدا عن مركز مصالحها (٩١) .

وفي اعتقادي ان هذه الاتفاقيات كانت في اساسها لتأكيد المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية ، ولإبعاد المانيا بشكل خاص عن هذه المصالح وكذلك بريطانيا ، إذ ان هاتين الأخيرتين اجرتا مفاوضات مع الدولة العثمانية في الوقت نفسه تمخضت عن عقد اتفاقيات ايضا (٩٢) كانت في مجملها بعيدة عن الحاق المساس بالمصالح الفرنسية خاصة في سورية .

لقد اعتبرت الحكومة الفرنسية ان عقد هذه الاتفاقيات في هذا الوقت جمل مصالحها الاقتصادية في سورية في امان ، ولكن تلاحق الاحداث السياسية التي كان ابرزها نشوب الحرب العالمية الاولى و ابرام الدولة العثمانية معاهدة صداقة مع المانيا ، دفع بهذه المصالح الى حالة الخطر ، اذ قامت الدولة العثمانية وافت جميع الامتيازات الاجنبية ، لا سيما الفرنسية والانكليزية لكونها دول الحلف المعادي ، وذلك في اول ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ ، وبحجة انها تتعارض مع القواعد القضائية للقرن العشرين ومبادئ السيادة القومية وانها تقف حجر عثرة امام تقدمها وتطورها (٩٣) . لكن قرار

الدولة العثمانية لم يمنع فرنسا من متابعة محاولاتها للحفاظ على مصالحها خلال الحرب ، وبالتالي اخذ موافقة الدول الاخرى التي تقف معها للاعتراف بهذه المصالح ، لذلك وفي اثناء المحادثات التي كانت تجري بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في عام ١٩١٥ والتي تمخض عنها اتفاقية سايبكس يكو عام ١٩١٦ ، كشف السفير الفرنسي في بطرسبرغ في ١٤ اذار (مارس) ١٩١٥ لوزير خارجية روسيا عن اطماع حكومته في سورية ، وحاول ان يضمن موافقة روسيا على ضم بلاد الشام (بما فيها فلسطين) لمنطقة نفوذ فرنسا (١٤) .

ترافق اهتمام فرنسا بإمكانات سورية الاقتصادية مع صعود خطين مترابطين، خط نمو المصالح الفرنسية في سورية نموا مضطربا يهيء للعزيم من المشاريع ، وخط تآزم العلاقات ما بين الامبرياليات الاوروبية لاختلاف مواقفها من مصر الدولة العثمانية وطبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية اصبحت تمثل باشكل التلاقي بين معطيات اقتصادية محلية اهمها المواد الاولية الزراعية وبين مجموعة المصالح الفرنسية التي تمثلت في تملك واستثمار عدد من المشاريع التي تلبى حركة التصدير والاستيراد وانتقال السلعة وتسويقها بين محطات الاسواق التاريخية في المشرق (١٥) . هذه المصالح كان لابد لها ان تتأثر مباشرة بمصر الدولة العثمانية الذي بدا في احداث الحرب العالمية الاولى ، والتي كانت سورية احد ميادينها الرئيسية ، واخذت فرنسا تدرك المتغيرات التي يمكن ان تحصل على الخريطة السياسية للدولة العثمانية واثرها على مصالحها الاقتصادية ، وانتاب هذا الادراك شعور بالخوف والقلق عند المسؤولين في الحكومة وفي المؤسسات الاقتصادية في فرنسا ذات العلاقة المباشرة مع هذه المصالح.

وعبر هذا القلق عن نفسه بوسائل وخطط في جهود حثيثة ، وافكار ومشاريع من قبل الدبلوماسيين والخبراء والعلماء واساتذة الجامعات وغرف التجارة ورجال الاعمال واتاحت الظروف السياسية التي رافقت الحرب العالمية الاولى وما أعقبها من تسويات الفرصة المناسبة للتعبير عن هذه الافكار والمشاريع ولاخذ المبادرات وترتيب الاستعدادات ، كل ذلك من اجل تلك المصالح الاقتصادية التي تركزت في طبيعة معينة في اطار لعبت فيه مدينة ليون دورا رئيسيا خاصة في مجال الاستفادة من زراعة التوت ، وكذلك مرسيليا التي كانت عبارة عن مركز فرنسي مهم في حركة التصدير والاستيراد بين السوق الفرنسي وسوق المناطق السورية .

والجدير بالذكر ان زراعة التوت المرتبطة بتجارة وصناعة مدينة ليون الحريرية ، قد نشطت في السنوات الاولى من القرن العشرين . وتشكل الرساميل الليونية الحافز الحقيقي لنشاط زراعة الحرير السورية (١٦) . ونستطيع من خلال دراسة تجارة هذه

المادة الخام وهي الحرير ان نتوصل الى المدى الذي وصل اليه الاهتمام الفرنسي في امكانات سورية الاقتصادية .

فاهم مادة كانت تستوردها فرنسا من سورية هي الحرير التي تقوم عليها الصناعة خاصة في مدينة ليون (١٧) ، وكان تجار ليون يسيطرون سيطرة كاملة على هذه التجارة ، ففي بداية القرن العشرين كان اكثر من ٩٠٪ من حرير سورية يذهب الى فرنسا ، وفي عام ١٩١٠ دفعت ليون نحو ٨ ملايين وهو مبلغ يعادل اكثر يقليل من ثلث ما يشتريه تجار الحرير من سورية (١٨) . وقد ادت سيطرة فرنسا على انتاج الحرير السوري الى دفع رجال الاعمال الى البحث عن الوسائل التي تؤدي الى توسيع هذه السيطرة واستغلال مناطق جديدة اخرى في سورية .

لكن انتاج الحرير السوري هبط في فترة ما قبل الحرب ، من ٥٠٠ ألف كيلو غرام حرير سنويا قيمتها ٢٥ مليون فرنك فرنسي ، بين ١٩٠٢ و ١٩١١ الى ٤٠٠ ألف كيلو غرام (١٩) عام ١٩١٢ . وهذا التدهور في الانتاج جعل رجال الاعمال الفرنسيين في كل من مرسيليا وليون يعملون على دراسة الوضع لتدارك التدهور الذي حصل ، ولذلك ارسلت فرقة تجارة ليون ومرسيليا عام ١٩١٢ بعثة الى سورية قام احد اعضائها وهو (M.Croizat) بوضع تقرير حول زراعة الحرير فيها ، جاء فيه ان انتاج الحرير تدنى اثناء الحرب العالمية الاولى الى اربعة اضعاف ، ويعمل الاسباب التي ادت الى هذا التدهور في :

اولا : نقص البلور التي كانت تستورد كلها تقريبا من فرنسا ، فالحرب بقطعها للعلاقات التجارية حرمت البلاد من هذه المادة الاولى .

ثانيا : النقص في الايدي العاملة .

ثالثا : قطع اشجار التوت .

ثم يشير التقرير الى ان الانتاج السوري من الحرير استؤنف بفضل تدخل الحكومة الفرنسية ، ولكن حتى تعود امور الانتاج الى وضعها الطبيعي لابد من تدخل الراسمال الفرنسي والتقنية الفرنسية . وضمانات ذلك تكمن في ضبط الامن وتحقيق الاستقرار وتأمين احترام الملكية ، وهي الشروط التي يؤكد عليها التقرير لتخطي المشاكل التي تعترض عملية استئناف الانتاج بعد الحرب .

وفي رأي صاحب التقرير فان الحل المنشود ، والذي اكده في السابق رجال الاعمال الفرنسيون ، هو ادارة جديدة لسورية تؤمن حقوق الناس واحترام الاشخاص وملكية

الاخرين ، كل ذلك لا يتحقق الا بحل المألة السورية بشكل يتلاءم مع امالي فرنسا (١٠٠) .

اما (Huvelin) رئيس البعثة فقد وضع هو الاخر تقريراً موسعاً في المألة الزراعية وتطوير الاقتصاد الزراعي السوري ، وقدم هذا التقرير امام مؤتمر رجال الاعمال الفرنسي الذي انعقد في مرسيليا لدراسة اوضاع سورية .

جاء في تقرير هوفولان ان الانتاج الزراعي في سورية يمكن ان يجعل من سورية اغنى البلدان الزراعية واخصب اراضي المعمورة ، وقد ينشأ اعتقاده هذا على اساس معينة وهي « ان هناك اراضي خصبة في سورية وينبغي على مشاريع الاقتصاد الفرنسي ان تركز عليها وان تدخل في مناطق الانتداب الفرنسي . والمناطق السورية التي ستوضع تحت الانتداب الفرنسي تبلغ مساحتها ١٧٠.٠٠٠.٠٠٠ هكتار يزرع منها نحو ٧٧.٥٠٠ هكتار ، اي ما يعادل ٤٥٪ ، اما الاراضي الصالحة للزراعة فكانت تبلغ نحو ٢٦٠.٠٠٠.٠٠٠ هكتار اي ما يساوي ٢٧٪ .

ويذكر التقرير ايضا ان ما كان مزروعا من الاراضي في سورية قبل الحرب تقدر انتاجيته بـ ٧٢.٠٠ مليون فرنك ، في حين انه لو استغلت الارض الصالحة للزراعة فيمكن ان تفل انتاجية تقدر بمليار ونصف الى مليارين ، وهذا ما يمكن ان يدخل في قيمة الانتاج السنوي للاقتصاد الزراعي وفي حدود الانتداب ، ويعتبر هوفولان ان المشكلة ناجمة عن عدم استغلال جميع الاراضي الصالحة للزراعة ، وحتى الارض المزروعة لا تقدم كل ثروتها ، وفي اعتقاده ان هذا ناجم عن نوعين من العوامل :

- ١ - اسباب ظرفية ناجمة عن الحرب تزول مع زوالها .
- ٢ - اسباب فرضية وتعود الى ما قبل ١٩١٤ ، بل احيانا الى عدة قرون ، وهذه الاسباب تعود في رايه الى النظام السياسي الذي فرضته السيطرة التركية والنظام الاجتماعي الذي استدعته التقاليد الموروثة ، وهذا ما ساهم في شل الانطلاقة التقنية والاقتصادية للزراعة السورية .

اما الحل الذي اقترحه هوفولان فيقوم على اساس تنظيم زراعي راسمالي على غرار ما حدث في أوروبا ، وبالتحديد في فرنسا في سياق التطور الراسمالي ، ثم اصلاح النظام السياسي والمالي (١٠١) .

اما التقرير الثالث فقد قدمه (Achard) (١٠٢) ، وجاء فيه ان المشروع الراسمالي الذي يقترح تطبيقه في سورية يتطلب قرارات تنخرط في مشروع سياسي هو انشاء

دولة حديثة برجوازية على النمط الأوروبي ، وهذا بدوره يتطلب وجود قوى قادرة على التصدي للقوى الاجتماعية المعيقة للمشروع الزراعي الذي يقترحه خبراء الرأسمالية الفرنسية ، والادارة التي يقترحها لتنفيذ هذا المشروع هي الانتداب الفرنسي ، وهي الادارة ذات المشروع السياسي الخاص بها والذي يتطلب اولاً ضبط الاوضاع في سورية وقمع او استيعاب القوى المعارضة والرافضة لدخول الاجنبي (١٠٣) .

نلاحظ مما سبق ان الفترة الممتدة ما بين عام ١٩١٢ وعام ١٩١٩ ، كانت غنية بالتقارير والدراسات التي دلت على اهتمام فرنسا الاقتصادي بسورية ، ومن ضمن ما تناولته ايضاً هذه التقارير موضوع التبادل التجاري ، ويبقى تقرير هوفولان خير ما وضع في ذلك من حيث « انه استطاع رصد السياسة الاقتصادية الفرنسية في سورية ورؤية مجموعة المصالح الأوروبية في نطاق حركة التبادل بين المناطق السورية والأوروبية » (١٠٤) ، فيذكر في تقريره ان قيمة مستوردات سورية من الخارج عام ١٩١٠ - ١٩١١ بلغت نحو ١٦٩ مليون و ٣٠٠ الف فرنك فرنسي ، بينما بلغت قيمة صادراتها نحو ٨٥ مليون و ٣٦٨ الف ، اي ان القيمة الاجمالية بلغت نحو ٢٥٤ مليوناً و ٦٨٦ الف واذا يقدر هوفولان هذه المبادلات بقيمة الربع ، فان ٣٢٠ مليون فرنك هي قيمة المبادلات التجارية السورية في سنة عادية قبل الحرب (١٠٥) .

وبناء على احصاءات قام بها القناصل الانكليز في المدن السورية وضع هوفولان جدولين بين فيهما كيف تتوزع قيمة المبادلات بين الدول الأوروبية (١٠٦) .

الوارنات ، المجموع الاجمالي ١٠٧٨٨٩٠

الدولة	القيمة	النسبة المئوية
بريطانيا	٤٠٢٥٢٠٠٠ فرنك	٣٧٪
تركيا	١٨٠٨٨٠٠٠ فرنك	١٦٪
فرنسا	١٠٥٨٩٠٠٠ فرنك	٩٪
النمسا	١٠٢٠٩٠٠٠ فرنك	٩٪
ايطاليا	٨٩٣٣٠٠٠ فرنك	٨٪
المانيا	٧٣٨٨٠٠٠ فرنك	٦٪
روسيا	٥٤٠٩٠٠٠ فرنك	٥٪
بلجيكا	٤٠٦٩٠٠٠ فرنك	٣٪
مصر	٢٩٥٢٠٠٠ فرنك	٢٪

الصادرات ٦٧٩٠٤٠٠٠

الدولة	القيمة	النسبة المئوية
فرنسا	٢٢٠٨٣٠٠٠	٣٢.٥٢٪
تركيا	١٥٦٥٦٠٠٠	٢٣.٠٥٪
مصر	١٥٤٢٦٠٠	٢٢.٧١٪
بريطانيا	٦٧٠٧٠٠٠	٩.٨٧٪
الولايات المتحدة	٤٠٦٨٠٠٠	٥.٩٩٪
ايطاليا	١٤٢٤٠٠٠	٢.٠٩٪
روسيا	١٢٠١٠٠٠	١.٧٦٪
المانيا	٧٢٦٠٠٠	١.٠٦٪
النمسا	٦١٣٠٠٠	٠.٩٠٪

ومن هذين الجدولين يتبين ان فرنسا كانت تحتل المقام الاول في الاستيراد من سورية ، وهذا ما تؤكدته مذكرة غرفة تجارة مرسليليا المرفوعة الى وزير الخارجية الفرنسية عام ١٩١٥ والتي جاء فيها ان فرنسا هي افضل مستورد من سورية ، فقد بلغت صادرات سورية الى فرنسا ما قيمته ١٥ مليون فرنك فرنسي ، فيما بلغت قيمة الصادرات الى بريطانيا ٦ ملايين ، والمانيا ٣٠٠٠٠٠٠ ر٣٠٠٠٠ ، والنمسا ٩٧٥٠٠٠٠ ر٩٧٥٠٠٠ ، واهم هذه الصادرات الحرير ، ولبه الصوف والقطن والجلود والبرتقال .

هذه المعلومات تدل على ان فرنسا كانت تستفيد بشكل اساسي من الموارد الزراعية الاولى تلبية لحاجات صناعاتها ، بينما لا تستفيد بنفس القدر من الامكانيات الشرائية السورية ، وتنافسها في ذلك بريطانيا . وقد تنبه الفرنسيون الى ان امكانيات سورية الشرائية كانت اخذة في التدهور وان سورية اخذت تتلقى اكثر مما تعطي ، وفي عام ١٩١٤ ، بلغت قيمة صادراتها نصف قيمة وارداتها ، وفي سنة ١٩١٩ اتسع الفرق بين الصادرات والواردات ، فاذا كان الفرق قبل ذلك بنسبة ١ الى ٢ ، اصبح الآن ، وفي رأي هوفولان ، وهذا ما ذكره في تقريره ، ان عدم التوازن بين الصادر والوارد مؤقت ، وان التدني عام ١٩١٩ يعود بالدرجة الاولى الى انقطاع العلاقات الاقتصادية بين الداخل الذي تحتله السلطات الشريفة - الاتكليزية والساحل الذي تديره فرنسا (١٠٧) .

في الوقت ذاته ، كانت غرفة تجارة مرسيليا تتطلع الى تعويض ما فاتها في حركة التبادل مع سورية من جهة مبيعاتها واحتكار السوق السوري كوسيلة لمحاربة تدفق السلع الاوروبية المنافسة لها .

بعد عرضنا للتقارير السابقة والتي جاءت كوثائق هامة ، ليس فيما تحويه من معلومات واحصائيات فحسب ، وانما للاهداف التي وضعت من اجلها ، وظروف وضعها ، وتقديمها للمسؤولين الفرنسيين والمؤسسات الاقتصادية والرأي العام ، يمكن ان نجمل مضمونها فيما يلي :

أ - ان الوضع الاقتصادي في سورية منذ عام ١٩١٢ وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، كان يسير من سيء الى اسوأ .

ب - ان التدهور الذي اصاب الاحوال الاقتصادية في سورية ، والعلاقات الاقتصادية الفرنسية معها والتي اصبحت في غير مصلحة فرنسا ، تعود الى عوامل عديدة ، بعضها آتي يتعلق بالحرب العالمية الاولى واحداثها وبعضها مزمن يتعلق بوجود الدولة العثمانية وارتباط سورية بها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

ج - بعد ان توصلت التقارير الى ذلك طرحت حلولاً متعددة للمشاكل التي قدمتها ، وذلك من وجهة النظر الفرنسية ، تمثلت باقامة نظام سياسي جديد وتغيير اجتماعي واقتصادي . ولا يتم ذلك الا عن طريق فرنسا .

وهذه التقارير بما جاء فيها من حلول واقتراحات جاءت في وقت كان فيه القلق والاضطراب قد اجتاحت العالم وخاصة بعد ان هبت رياح الحرب العالمية الاولى وما سبقها واحاط بها من تنافس دولي ، وهذا القلق كان لفرنسا نصيب وافر منه ، فهي صاحبة المصالح الاقتصادية المتعددة في سورية ، وقد بدا واضحا على المؤسسات الاقتصادية التي كانت تضغط وبصورة مستمرة على الدوائر السياسية في باريس لتقف بحزم الى جانب الاحتفاظ بهذه المصالح . وهذا ما تؤكد رسالة غرفة تجارة ليون بشأن اتفاقية سايكس بيكو والمؤرخة في ٢٥ تشرين الاول ١٩١٨ والموجهة الى وزير الخارجية الفرنسية (١٠٨) ، فهي تظهر المزج الواضح بين الهدف الاقتصادي والغاية السياسية ، ولذلك ، ومن خلال هذا القلق ، وضعت تلك التقارير المسألة الاقتصادية كمسألة رئيسية يجب حلها بطريقة تخدم مصالح فرنسا الاقتصادية .

لقد توصلت هذه التقارير الى النتيجة التي هدفت اليها وهي ان تقوم الدوائر السياسية بوضع يدها على سورية ، لتقيم فيها النظام السياسي الذي يضع الحلول للوصول الى الاهداف الاقتصادية ، ويربطها بعجلة الرأسمالية الفرنسية . ولذلك

حدث التدخل العسكري الفرنسي الثاني في سورية عام ١٩١٩ ، وتلاه القضاء على الدولة العربية القائمة بدمشق عام ١٩٢٠ .

وكان قد رافق هذا التدخل العسكري طرح نظام الانتداب الذي لم يكن سوى شكل جديد من انواع الاستعمار تفتقت عنه عقلية المستعمرين ، عندما اشارت هذه التقارير وبصراحة الى ان نظام الانتداب هو خير طريق لوصول فرنسا الى غرضها في استغلال سورية اقتصاديا ، وهذا سيؤدي الى تحسين اوضاع سورية الاقتصادية ، وتعود الفائدة على فرنسا ذاتها .

من ناحية عامة ، فان ما صورته التقارير الفرنسية السابقة بالوضع السيء الذي كان في سورية من الناحية الاقتصادية لم يكن حقيقة ، فالاقتصاد السوري كان مزدهرا ، وهذا لا يعني انه لم يكن يتعرض للازمات خصوصا في الازمات العالمية ، ولكن الاحوال الاقتصادية بوجه عام كانت مزدهرة ، والاقتصاد السوري يتمتع بوضع خاص في الامبراطورية ، واوضاع سورية الاقتصادية تعتبر افضل من غيرها من الولايات العثمانية . فالتجارة فيها كانت رابحة ، يخدمها في ذلك وضعها الجغرافي الممتاز ، وتجارة الترانزيت كان لها سهم وافر . وفي الزراعة ، كانت تعتبر موردا رئيسيا للمصادر الزراعية في الامبراطورية العثمانية ، وصناعاتها التقليدية كانت مزدهرة ، والصناعة الحديثة اخذت تجد لها مكانا .

معنى ذلك ان التصور الذي اعطاه الفرنسيون عن سوء الاحوال الاقتصادية قبل الاحتلال الفرنسي لم يكن حقيقة ، وهنا ننتقل الى الاحوال الاقتصادية بعد هذا الاحتلال .

عندما سيطر الفرنسيون على سورية ، ارادوا ان يجعلوا منها قاعدة هامة من قواعدهم الاقتصادية (١٠٩) وذكر غورو (Gouraud) (١١٠) ، في تموز ١٩٢٠ وبعد دخوله دمشق « لقد انفتح مستقبل غني للتجارة الفرنسية في الشرق (١١١) » لذلك اصبحت المهمة العاجلة للراسمالية الفرنسية هي فتح سورية سوقا لسلع فرنسية المصنعة .

خاتمة :

لقد تركزت مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية في بادئ الامر من خلال الامتيازات العديدة التي حصلت عليها فرنسا في الدولة العثمانية ، على اساس ان سورية كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية .

ان التطور التاريخي لهذه المصالح الاقتصادية تآثر بالعلاقات التي كانت تربط الدولتين العثمانية والفرنسية وبالاهداف التي كانت تسعى اليها فرنسا من وراء تلك

العلاقات ، كما ان هذه العلاقات كانت تتأثر تأثيرا مباشرا ايضا بالعلاقات التي كانت تربط الدولة العثمانية بالدول الاوروبية الاخرى وهذا بالتالي كان يترك بصماته على المصالح الاقتصادية الفرنسية .

لقد كانت الامتيازات Capitulation هي الباب الذي نفذت منه فرنسا الى المشرق واقامت مصالحها الاقتصادية فيه خاصة في سورية ، من حيث ان هذه الامتيازات كانت في معظمها اقتصادية ، والدارس لبنود هذه المعاهدات التي صيغت فيها هذه الامتيازات ، يجد ان المظاهر الاقتصادية هي الغالبة ، واصبحت هذه المصالح الاقتصادية حسب المنظور الفرنسي المبني على الاستغلال حقوقا مكتسبة لفرنسا لا تقبل فيها المساومة او المنافسة ، خاصة عندما اغتنمت فرنسا فرصة ضعف الدولة العثمانية وحاجتها الى الاموال ، فانفتح الضغط الاوروبي عامة والفرنسي خاصة على مصرعيه لجعل من الدولة العثمانية ارضا خصبة وملأمة للاستغلال الاوروبي.

وفي مطلع القرن العشرين كانت سورية تشكل الحلقة الرئيسية في بناء المصالح الاقتصادية الفرنسية ، واصبحت الاموال الفرنسية ذات اهمية بالغة في الاقتصاد السوري ، واصبحت معظم المشاريع الاقتصادية يتم تحويلها برؤوس اموال فرنسية.

وكانت قد دخلت تأثيرات اقلقت المسؤولين الفرنسيين وجعلتهم في حالة من الخوف على هذه المصالح ، وهذه التأثيرات بدأت بدخول عنصر المنافسة الانكليزية اولا ثم الالمانية ثانيا . ثم اصبحت انظار فرنسا مركزة على سورية وتخشى ضياع مصالحها الاقتصادية فيها ، وقامت المؤسسات الاقتصادية الفرنسية بتوجيه من المسؤولين السياسيين بدراسة الاوضاع الاقتصادية في سورية ذات العلاقة المباشرة مع المصالح الفرنسية ووضعت التقارير التي بينت ، من وجهة النظر الفرنسية ، مدى التدهور الذي احاط بالوضع الاقتصادي السوري وتأثر فرنسا اقتصاديا بتلك الاوضاع ، واخذت تشير هذه التقارير بصورة واضحة الى وجوب وضع فرنسا يدها على سورية وخلق نظام سياسي يتمشى مع المصالح الاقتصادية الفرنسية ، خاصة بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى .

لقد قامت المؤسسات الاقتصادية الفرنسية بدور رئيسي في توجيه السياسة الفرنسية نحو الاستيلاء على سورية ، وهذا ناجم عن الترابط بين المؤسستين السياسية والاقتصادية في نظام رأسمالي تقوم عليه الدولة الفرنسية ، ثم تبني العسكريون الفرنسيون مبدا التدخل العسكري الفرنسي في سورية لوضع توجيهات السياسيين والاقتصاديين موضع التنفيذ ، ولذلك كان التدخل العسكري الفرنسي الثاني عام ١٩١٩ في سورية ، الذي اعقبه تدهور اقتصادي انعكست آثاره على السوريين انفسهم وارتبطت سورية بمجلة الرأسمالية الفرنسية .

الحواشي :

(١) ان تعبير سورية في هذه الورقة سيطلق اصطلاحا على سورية الطبيعية او بلاد الشام ، والحقيقة توجد اختلافات في استخدام تعبير سورية ، وخير من تعرض لهذه الاختلافات وبين حدود سورية الطبيعية او بلاد الشام الجغرافية - التاريخية هو محمد كرد علي في خطط الشام ج١، بيروت، ١٩٦٩ ، ص ٩-١٠ .

وايضا :

A. Hourani , Syria and Lebanon, A political Essay (London: Oxford University Press, 1954), PP.4-5.

(٢) للاطلاع على هذا التدخل والقروف والدوافع التي احاطت به ، راجع : احمد طربين ، ازمة الحكم في لبنان ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ١١٩ وما بعدها .

وايضا :

Emerit M. « la crise Syrienne et l'expansion econmique française en 1860», Revue historique 22711, 1952, 67 année, pp. 211-232 .

(٣) للاطلاع على نص صك الانتداب على سورية ولبنان ، راجع : حسن الحكيم ، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي (بيروت : دار صادر، ١٩٧٢) ص ٢٢٩-٢٣٤ .

(٤) كان التجار الايطاليون من البنادقة والفلورنسيين اسبق الاجانب الى التجارة مع بلاد الشرق الأدنى والاقامة فيها ، وكان التجار الآخرون من انكليز وفرنسيين وغيرهم يمارسون تجارتهم عن طريق هؤلاء التجار الايطاليين . راجع : احمد هزوت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العرب الحديث (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٠) ص ٢٨ .

(٥) وجيه كوثرائي ، الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٢٠ (بيروت ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٢) ، ص ٤١-٤٢ . وللتوسع في هذا الموضوع راجع : محمد انيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الاوسط الحديث (القاهرة : مكتبة دار العالم العربي، بدون تاريخ) ص ١١٧-١١٨ .

(٦) عبد العزيز محمد عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية (القاهرة : دار المعارف ١٩٦٩) ، ص ٨٠ وما بعدها

(٧) « Capitulations » وهي مأخوذة من Treaty Capitula او Chapter at
انظر : George Lenczowski, The Middle East in world Affairs (Ithaca, New York: Cornell University press, 1958), p.5.

اما محمد انيس فهو يستخدم تعبير المعاهدات المنظمة لحياة الأوروبيين بدل الامتيازات ، حول ذلك ورايه في اصول الامتيازات راجع : محمد انيس المرجع السابق ، ١١٨-١١٩ . اما تعريف « الامتيازات » فان ساطع الحصري يعرفها «بانها تلك التي نشأت عن الفرامين التي اصدرها

والمعاهدات التي أبرمها سلاطين آل عثمان في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات وانها كانت تأخذ شكل نظم تعهدية « .

راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ، ص ١٤٢ .

(٨) The Encyclopaedia of Islam, New Edition « Imtiyazat » Vol 111, pp. 1178 - 1195. Leiden :E.J. Brill, and London: Luzac Co. 1979, p. 1178.

(٩) المصدر ذاته ، ص ١١٨٢ . وايضا :

William Yale, The Near East, A modern History (Ann Arbor : The University of Michigan press, 1958),p.23.

ويذكر ستانفورد شو انه في عام ١٤٥٤ اعطيت للبندقية حقوق تجارية خاصة من قبل الدولة العثمانية. راجع :

Stanford Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. 1. Empire of the Gazis (Cambridge: Cambridge University press, 1956), p. 62.

(١٠) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي ، (بيروت : دار النفائس، ١٩٨٢) ، ص ٢٠٢ ويذكر محمد فريد ان اول معاهدة تجارية امضيت بين الدولة العثمانية والاوروبيين تلك المعاهدة التي عقدها مراد الاول مع جمهورية راجوزة (Raguse) عام ١٢٦٥ وهي الان بلدة يوغوسلافية وتسمى دوبروفنيك Dobrovnik وتقع على شاطئ البحر الادرياتيكي . راجع : المرجع ذاته ، ص ١٢١ .

(١١) George kirk, A short History of the Middle East.(Methuens London: University paper Backs, 1964, p. 55.

(١٢) امكن التوصل الى هذه الاتفاقية بعد مفاوضات اجراها السفير الفرنسي في استانبول جان دي لافوريه (Jean de laforet) وابراهيم باشا الصدر الاعظم . للاطلاع على هذه المفاوضات راجع : The Encyclopaedia of Islam, p. 1183.

(١٣) شارل الخامس هو ملك اسبانيا والهابسبرج هي الاسرة التي ينتمي اليها وهي من الاسر العريقة في اوروبا وتسبب اسرة الهابسبرج الى قلعة هابس (Habs - bourg) اي قلعة العقر وهي قلعة في سويسرا الالمانية .

راجع : عبد العزيز محمد السناري ، اورباني - مطلع العصور الحديثة جا (الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧) ، ص ٢٢٧ .

(١٤) محمد اتيس المرجع السابق ، ص ٩٨-٩٩ .

(١٥) نص هذه الاتفاقية وهو نص مترجم من مجموعة البارون دي نستا الموجودة في الكتبخانة الخديوية في : محمد فريد ، ص ٢٢٤-٢٢٩ . وايضائي J.C. Hurewitz, The Middle East and

- North Africa in world politics, A documentary Record, Vol.1. (New Haven and London: Yale University press, 1975), pp. 1-5.
- Lenczowski, op. cit. p. 5. (١٦)
- احمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق، ص ٢٨ (١٧)
- للاطلاع على الدور الذي لعبته غرفة تجارة مرسيليا في التجارة مع الشرق راجع : رسالة غرفة تجارة مرسيليا الى وزير الخارجية الفرنسية المؤرخة في ٢٦ تموز ١٩١٥ في : وجيه كوثراتي ، بلاد الشام ، السكان والاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين - قراءة في الوثائق (بيروت ، معهد الإنماء العربي ، ١٩٨٤) ، ملحق رقم ٢٢ ، ص ٢٩١-٢٩٠ . (١٨)
- للاطلاع على البند الاول من اتفاقية ١٥٢٥ والذي جاء فيه ذلك في : محمد فريد ، ص ٢٢٤ . (١٩)
- للاطلاع على نص هذه المعاهدة راجع : محمد فريد ، ص ٢٤٢-٢٤٥ . (٢٠)
- The Encyclopaedia of Islam, p. 1184. (٢١)
- Stanford Shaw, op. cit, p. 177. (٢٢)
- عادل اسماعيل واميل خوري ، السياسة الدولية في الشرق العربي (١٩٥٨ - ١٩٨٦) ج ١ (بيروت : دار الكتب ١٩٦٤) ، ص ١٨ (٢٣)
- اشتهر هذا الكاردينال الفرنسي في تاريخ العالم الاوروبي بالسياسة والتدبير وكانت كل مساعيها موجهة نحو امرين اولهما : الدلال اشراف فرنسا لتقوية سلطة الحكومة وثانيهما : اضعاف مملكة النمسا حتى لا يخشى منها على فرنسا . (٢٤)
- راجع : محمد فريد ، ص ٢٩٢ هامش رقم (٣) .
- حكمت ياسين ، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية (تونس الدار التونسية للنشر ، ١٩٨١) ص ١٥١-١٥٠ . (٢٥)
- Lenczowski, p. 266 وايضا : (٢٦)
- للاطلاع على هذه التجديدات في الامتيازات ونوعيتها راجع : (٢٧)
- The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.
- اسرة كوبريلي (١٦٥٦ - ١٦٨٢) مؤسسها هو محمد كوبريلي الابائي الاصل الذي دخل في خدمة الدولة عن طريق الدفترية ثم التحق بالخدمة العسكرية ثم بقوة حراسة قرية كوبري في الاناضول (ومنها اتخذ اسمه) ثم تولى منصب المصادرة العظمى حيث تصدى للمشاكل الداخلية والتهديدات الخارجية ، وفي عام ١٦٦١ تولى منصب المصادرة ابنة فاضل احمد باشا الذي تولى عام ١٦٧٦ ، وخلفه اخرون من نفس الاسرة . (٢٨)
- للاطلاع على هذه الاسرة ونشاطها في الدولة العثمانية راجع : احمد عبد الرحيم مصطفى ، اصول التاريخ العثماني ، (بيروت : دار الشروق ١٩٨٢) ص ١٥٢-١٥٨ . (٢٩)
- The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.
- حكمت ياسين ، ص ١٥ . (٣٠)

- (٣٠) راجع : حسين مؤنس الشرق الاسلامي في العصر الحديث (القاهرة ، مطبعة حجازي ، ١٩٢٨) ص ١٧ .
- (٣١) The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.
- (٣٢) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .
- (٣٣) احمد فزت عبد الكريم ، ص ٤٩-٥٠ .
- (٣٤) للاطلاع بشكل واسع على الاسباب التي ادت الى انحدار التأثير السياسي الفرنسي راجع : Hourani, p. 148
- (٣٥) للاطلاع على نص مشروع هذه المعاهدة وما سبقها من اتصالات بين الدولتين راجع : محمد فريد ص ٢٧٩-٢٨٠ .
- (٣٦) Stanford shaw, p. 270.
- (٣٧) Lenczowski, p. 266. وايضا:
- William Roe Polk and R.L. Chambers, eds., Beginings of modernization in the Middle East: The Nineteenth Century (Chicago : University of Chicago press, 1968), p. 208 .
- (٣٨) جاد ابرام هذه المعاهدة اثر عقد مؤتمر في باريس سنة ١٨٥٦ لاعادة الصلح والسلام بين المتحاربين في شبه جزيرة القرم والتي بدأت كحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٤ عندما هجم الاسطول العثماني الذي كان راسيا في ميناء سينوب ودمره وهبت بريطانيا لمساعدة الدولة العثمانية ، واقنعت دول اخرى للاشتراك معها ومن ضمنها فرنسا لارسال حملة الى القرم لضرب روسيا في بلادها . راجع : ساطع الحصري ، ص ١٥١ .
- (٣٩) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩-١٩٤٥ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥) ، ص ١٦ . وللتوسع في هذا الموضوع راجع : The Encyclopaedia of Islam , p. 1187.
- (٤٠) للاطلاع على نص هذه المادة راجع محمد فريد، ص ٥٢١ ويمكن الاطلاع على نص المعاهدة كاملة في: Hurewitz, pp. 319-322.
- (٤١) للاطلاع على هذه التقييمات راجع : محمد انيس ص ١٥٤-١٥٥ .
- (٤٢) يمكن مراجعة هذه المحاولة التي قام بها عالي باشا في :
- Jacques Thobie, Interets et imperialisme français dans l' Empire Ottoman, 1895 - 1914, (Paris: publications de la Sorbonne , 1977), pp. 25 - 27.
- (٤٣) وايضا : The Encyclopaedia of Islam, p. 1188.
- (٤٤) William yale, op. cit., p. 215.

- (٤٥) Stanford Shaw, p. 181.
- (٤٦) Hurewitz, pp. 5-6.
- (٤٧) The Encyclopaedia of Islam, p. 1184. للاطلاع على ذلك وبالتفصيل راجع :
- (٤٨) Shaw, p. 181.
- وللاطلاع على النص الانجليزي لهذه الاتفاقية راجع :
- Hurewitz , pp. 8-10 .
- (٤٩) تالفت هذه الشركة من نفس المجموعة من التجار الانجليز الذين ارسلوا هاربورن الى اسطنبول وضمت آخرين ، وفي ١١ سبتمبر ١٥٨١ اصدرت الحكومة الانجليزية ميثاقا للشركة تقوم بموجبه بمزاولة التجارة الانجليزية مع الامبراطورية العثمانية . انظر : Shaw, p. 181.
- وللاطلاع على نصوص ذلك الميثاق بالانجليزية راجع :
- Hurewitz, pp. 10-15.
- (٥٠) Ibid., p. 10.
- (٥١) للاطلاع على النص الانجليزي لقرار البرلمان البريطاني ، راجع : Hurewitz, pp. 223-226 .
- (٥٢) A.C. wood, A History of the Levant Company, (London : oxford University press, 1935) , pp. 6-14.
- (٥٣) محمد اتيس ، ص ١٢٠ .
- (٥٤) Kirk, p. 69.
- (٥٥) احمد عزت عبد الكريم ، ص ٢٨ .
- (٥٦) Kirk, p. 65.
- (٥٧) Hurewitz, p. 34.
- (٥٨) للاطلاع على هذه المفاوضات راجع : G.F. Abbot, Under the Turk in Constantinople, A record of Sir John Finch's Embassy, 1674 - 1681 (London, Macmillan, 1920), pp. 9-11.
- وللاطلاع على نصوص هذه الاتفاقية راجع : Hurewitz, pp. 34-41.
- (٥٩) وجيه كوثراني ، الاتجاهات الاجتماعية - السياسية في جبل لبنان والشرق العربي، ص ٤٦ .
- (٦٠) للاطلاع على نص هذه الاتفاقية راجع : Hurewitz, pp. 265-266.
- (٦١) راجع نص المعاهدة في : Hurewitz, pp. 319-322.
- (٦٢) للاطلاع على ذلك راجع : على مخالفة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩-١٩٤٥ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٥) ص ١٦ . اما نص المادة (٨) من معاهدة برلين فيمكن الاطلاع عليها في : محمد فريد ، ص ٦٨٣ .

- (٦٣) Kirk, p. 89.
- وايضاً :
The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.
- (٦٤) في هذا العام تقدمت الجيوش الألمانية سرعاً في الأراضي الفرنسية واخذت تهزم الجيش الفرنسي في مواقع متتالية ، واضطرت باريس في النهاية الى التسليم في ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٧١
انظر : محمد قاسم واحمد نجيب هاشم ، التاريخ الحديث (القاهرة : دار المعارف ، بدون تاريخ) ، ص ١٧٢-١٧٤ .
- (٦٥) للاطلاع على معاهدة برلين راجع :
Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, Vol.1 A documentary Record, (Princeton : Van Nostrand, 1956), pp. 189-190.
- (٦٦) علي محافظة ، العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ١٩٤١ - ١٩٤٥ (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١) ، ص ١٢-١٣ .
- (٦٧) محمد انيس ، ص ١٠٢ و ص ١٤٢ .
- (٦٨) المرجع ذاته ، ص ١٤٢ .
- وايضاً :
Lenczowski, p. 23.
- (٦٩) للاطلاع على وجهة نظر بسمارك حول تلك المعارضة راجع : محمد انيس ، ص ١٠٤ .
- (٧٠) المرجع ذاته ، ص ١٠٥ .
- وايضاً : زين نور الدين زين ، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سورية ولبنان (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧١) ص ٥٠ .
- (٧١) Kirk, pp. 89-90.
- وايضاً : محمد انيس ، ص ١٠٥-١٠٦ .
- Raymond Poidevin, les relations économiques et Financieres entre la France et l'Allemagne de 1898 - 1914, (Paris : Armand Colin, 1969) p. 254 .
- (٧٢) محمد انيس ، ص ١٤٢-١٤٤ .
- (٧٣) Kirk, p. 90.
- وايضاً :
Poidevin, p. 65.
- (٧٤) محمد انيس ، ص ١٤٢-١٤٤ .
- (٧٥) للاطلاع على نشاط هذه البنوك والشركات التي انستها راجع :
Poidevin, p. 568.
- (٧٦) Ibid., pp. 488-589.

- (٧٨) للتوسع في هذا الموضوع والمقارنة بين التجارة الألمانية والفرنسية راجع :
E.m. Earle: Turkey, The great powers and the Bagdad Railway, A study
in the imperialism, London, New York, 1923, p. 106.
- (٧٩) جلال احمد امين ، الشرق العربي والقرب (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٧٩)،
ص ٢٥ .
- (٨٠) حول هذه البنوك ونشاطها راجع :
Thobie, pp. 450-524.
- وايضا :
P. Iyautey, le Drame oriental de la Role de la France, paul Brodard,
1924, p. 151.
- (٨١) Thobie, pp. 170-172.
- وللاطلاع على العوامل التي كانت تشجع الشركات الاجنبية الى التسابق في مد الخطوط الحديدية
راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠)
ص ١٤٦-١٤٧ .
- (٨٢) علي محافظة ، مؤلف فرنسا والمانيا وايطاليا ضمن الوحدة العربية ، ص ٢١ .
- (٨٣) Poidevin, op. cit., p. 65.
- (٨٤) Thobie, p. 524.
- (٨٥) علي محافظة ، مؤلف فرنسا والمانيا وايطاليا ضمن الوحدة العربية ص ١٧-١٨ .
- (٨٦) Thobie, pp. 95-100.
- (٨٧) Ibid., p. 158-160.
- وايضا : علي محافظة ، العلاقات الألمانية الفلسطينية ، ص ١٨ .
- (٨٨) حكمت ياسين ، ص ١٩ .
- (٨٩) Poincaré, Raymond, Au service de la France Les Petits fils de plont
et Nouvrit. Paris , 1945, p. 405.
- وايضا : ساطع الحصري ، يوم ميلتون ، مذكرات (بيروت : دار الاتحاد ، بدون تاريخ) ص ٥٠ .
- (٩٠) Leonard Stein, Syria (London: Ernest Ben , 1926), p. 19.
- (٩١) حكمت ياسين ، ص ٢٨ .
- وللاطلاع على نص الاتفاقيات التي عقدت بين الدولة العثمانية وفرنسا راجع : ساطع الحصري،
البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ص ٢١٩-٢٢٠ .
- (٩٢) . للاطلاع على تلك المفاوضات والاتفاقيات راجع : المرجع ذاته، ص ٢٠٤-٢١٥ و ٢٢٢، ويمكن الاطلاع
... على تعليق ساطع الحصري حول تلك الاتفاقيات في المرجع ذاته، ص ٢٢٢-٢٢٧ .

(٩٣) فاضل حسين ، مؤتمر لوزان واثره في البلاد العربية (القاهرة : دار النهضة ، ١٩٥٨) ، ص ٢٤-٢٥ .

(٩٤) على محافظة ، مرقف فرنسا والماتيا وايطاليا من الوحدة العربية ، ص ١١ نقلًا عن :
Emile Laloy, ed ., les documents secrets des archives du Ministère
des Affaires Etrangères de Russie Publiés par les Bolcheviks(Paris:
Brossard, 1919), pp. 107 - 110 .

(٩٥) وجيه كوتراني ، بلاد انشام : السكك والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة
في الوثائق (بيروت : معهد الانماء العربي، ١٩٨٤) ، ص ١٠٢ .

(٩٦) P. Chevallier, « lyon et la syrie en 1919, les bases d' un intervention »
Revue Historique, oct.-dec . 1960, p.286 .

(٩٧) للاطلاع على المزيد حول هذا الموضوع راجع : حكمت ياسين ، ص ٢٥ .
Chevallier, op. cit., p. 295.

(٩٨) وجيه كوتراني ، المرجع السابق ، ص ١١٢ نقلًا عن :
Chambre de commerce de Marseille:Note sur la valeur économique
de la Syrie, Marseille, 1915, p. 22.

ويمكن الاختراع على تجارة الحرير السورية مع فرنسا في :
Henry Richard , la Syrie et la Guerre,Dessaint et Cie. 1916., p. 19.
(١٠٠) هذا التقرير في : وجيه كوتراني ، المرجع السابق ، ص ١١٢-١١٤ نقلًا عن التقرير الذي
وضعه بالفرنسية

(M. croizat) Rapport sur la Sericiculture en Syrie etabli par Ml.
Croizat, a la suite de la mission envoyée en Syrie par ics Chambres
de Commerce de lyon et de Marseille(1919) .

(١٠١) للاطلاع على هذا التقرير راجع : وجيه كوتراني ، المرجع السابق ، ص ١١٥ - ٢١ ، نقلًا
عن تقرير Huvelin بالفرنسية Paul Huvelin, que
vaut la Syrie, Documents économiques Politiques publiés par « L'Asie
française » des. 1921 pp. 15-18.

(١٠٢) هو احد المهندسين الزراعيين اشترك في بحثه حول لوزان عام ١٩١٩ للدراسة اوضاع سورية الاقتصادية.
(١٠٣) للاطلاع على هذا التقرير راجع : وجيه كوتراني ، ص ١٢١-١٢٢ ، نقلًا عن تقرير (Achard)
بالفرنسية .

Achard, Notes Sur la Cilicie et Notes sur la Syrie par Ed - c.
« Supplement a' L'Asie Française » juillet - Aout , 1922, p. 102.

- (١.٤) وجيه كوثرائي ، بلاد الشام ، السكان ، الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق ، ص ١٢٩ .
- (١.٥) المرجع ذاته ، ص ٣٩ .
- (١.٦) تقرير هوفولان ، ص ٩٤ .
- للاطلاع على نص هذه للذكرة راجع : وجيه كوثرائي ، ملحق رقم ٢٢ ، ص ٣٩-٤٠٩ .
- (١.٧) تقرير هوفولان ، ص ٤١ .
- (١.٨) للاطلاع على نص هذه للذكرة راجع : وجيه كوثرائي ، ملحق رقم ٢٤ ، ص ١١١-١١٢ .
- (١.٩) جريدة فتي العرب ، العدد ٢٤٢٧ ، السنة الثانية عشرة ، ١٣ آذار (مارس) سنة ١٩٢٠ .
- (١١.٠) غورو هو الجنرال الفرنسي الذي دخل دمشق في تموز ١٩٢٠ بعد معركة ميسلون وهو اول مفوض سامي فرنسي في سورية ولبنان .
- (١١.١) وجيه كوثرائي ، بلاد الشام . السكان والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، ص ١٤٦ .

تنويه :

حدث خطأ في السطر الثاني من عنوان البحث ، والصحيح (١٥٣٥ - ١٩٢٠) .

دراسات تاريخية
٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧

القطائع في صدر الإسلام (عصر الرسول والخلفاء الراشدين)

د. محمد عبد القادر خريجات

الجامعة الأردنية

مقدمة : عرف نظام القطائع منذ أقدم العصور ، ومارسته شعوب عديدة كالبابليين واليمنيين والفرس والبيزنطيين . ففي بلاد ما بين النهرين مواد قانونية عديدة تتعلق بالأراضي والملكية وشروط الاستغلال والإيجار والقطائع . وتذكر لامبتون أن حكام بلاد ما بين النهرين اعتمدوا في تموينهم للجند ودفع مرتباتهم على منح القطائع لمن يقدمون الخدمات العسكرية (١) .

وقد أشارت المادتان (٢٧ ، ٢٨) من شريعة حمورابي الى هذا الشكل من القطائع (٢) . وأشارت المادة ٢٧ الى ما نصه : اذا أسر جندي او سمالك في أثناء الخدمة المسلحة للملك . وبعد ذلك اعطي حقله وبستانه لرجل آخر ، وأولى ما عليه من الالتزامات الاقطاعية . فاذا عاد (الأسير) ووصل بلدته ، فعليهم ان يعيدوا له حقله وبستانه ، وعليه ان يمارس حقوقه الاقطاعية . اما المادة (٢٨) فقد نصت على ما يلي : اذا أسر جندي او سمالك أثناء الخدمة المسلحة للملك ، وكان ابنه قادرا على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان ، وعليه ان يمارس حقوق والده الاقطاعية . وحظرت المادة (٣٨) من شريعة حمورابي ان يقطع الجندي او السمالك زوجته او ابنته من الحقل والبستان والبيت الذي اقطع له او يعطيه مقابل ما عليه من التزامات .

وفي اليمن شكلت الارض العنصر الاول في نظام الاقتصاد اليمني ، فكانت من الوجهة النظرية ملكا للالهة ، لكنها من الوجهة العملية ملكا للملك يتصرف بها كما يشاء . وكان الملوك اذا غلبوا اعداءهم جعلوا ارضهم ملكا لهم ، لأنهم استولوا عليها

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ - ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

بالقوة ، فهي لهم ومن حقهم مصادرتها ، ويسلم الملك جزءا منها الى الالهة اي المعبود ، وجزءا الى شعب سبأ . وكان الملك يقطع هذه الاراضي الى البارزين في المجتمع مثل رؤساء القبائل : « شعبها » ، والقادة الكبار (كبر) ، مقابل دفع خراج يتفق عليه ، ويقوم هؤلاء باستغلالها (٢) . وقد شكل هؤلاء (اوليغاركية) اقطاعية تحكم مع الملك (٤) .

وبرزت القطائع عند الفرس في القرنين الثالث والرابع الميلاديين وتتميز ذلك بنمو المدن وتكاثرها ، وهي ظاهرة تلازم مقتضيات الاقطاع الشرقي (٥) . وتشير المصادر ان القطائع الفارسية كانت كغيرها من قطائع الشعوب الاخرى تهدف الى تقديم الخدمة العسكرية دون ان تكون حق ملكية خاصة . واصبح اصحاب هذه القطائع يشكلون مع الزمن طبقة بيدها الوظائف الهامة ، كما أصبحت هذه الوظائف وراثية في الدولة الساسانية وسميت بوظائف « شرف » تبين مكانة شاغليها ... وكانت قوة هؤلاء تستند على دخل اقطاعاتهم ، ثم على ما بينهم وبين رعاياهم في الاقطاع من صلة قوية وخاصة في العهد السابق على قباز وكسرى الاول (٦) . ويعني مصطلح الدهاقين الذي بقي في العصور الاسلامية انهم « الرؤساء وملاك الاراضي والقرى » . وكان هؤلاء (الدهاقين) كعجلات لا غنى عنها في آلات الدولة ، ولهم قيمتهم التي لا تقدر على اساس ، من حيث انهم اساس متين للادارة وبناء الدولة (٧) . وقد اقطع سابور مناطق الطف والقطقطانة والرهيمة وعين جمل الواقعة خلف الخندق الذي حفره بينه وبين العرب الى مرازبه يعتملونها من غير أن يلزمهم الخراج . وغلب العرب على طائفة من تلك العيون بعد ذي قار (٨) . كما كانت هناك قطائع لكسرى في القادسية وبارق ولعلس (٩) .

ولم تقتصر قطائع الفرس على مرازبتهم فحسب ، بل امتد ذلك الى القبائل العربية التي كانت مجاورة لهم . لقد اقطع الفرس الى ذوي الاكال من وائل شيبان ، واقطع قيس بن مسعود الشيباني الأبله وثمانين قرية من قراها (١٠) ، واقطع الفرس امرا القيس بن عمر بن عدي بن نصر وشرفوه توجوه (١١) . كما قاموا باقطاع عدي بن زيد العبادي ، وكان هؤلاء اهل بيت يكونون مع الاكاسرة لهم معهم اكل وناحية ويقطعونهم القطائع ويجزلون صلاتهم (١٢) .

وتعدت قطائع الفرس اشراف القبائل الى الاشخاص العاديين ، فقد اقطع كسرى امرأة يقال لها ابان فسميت القرية باسمها (١٣) ، واقطع المخرم بن يزيد بن شرح منزلا كان ينزله ايام نزول العرب السواد في بلاء الاسلام فسمي الموضع به (١٤) .

وفي الامبراطورية البيزنطية كانت الارض المصدر الرئيسي لخزانة الدولة ، والاقطاع لا يعطى الا لفرض الحماية والمؤونة . وقد كون الاقطاعيون طبقة من النبلاء الذين يتمتعون بالامتيازات الواسعة ، تمكنوا في القرن الرابع الميلادي من الحصول على حق الحماية Autopragia ، وذلك يعني عدم دخول الجباة اراضيهم . ويضاف الى ذلك ان التجارة والحياة المدنية قد ازدهرت الى جانب الاقطاع . وكان النبلاء والسادة الاقطاعيون يعيشون في المدن ، وأراضيهم موزعة في جهات مختلفة (١٥) . ويذكر ابن عساكر ان قطائع بطارقة الروم في بلاد الشام يديرها الانباط ، اما البطارقة فيقيمون في المدن (١٦) . ومن قطائعهم في بلاد الشام بالس وقاصرين وما جاورهما من القرى (١٧) واتلركسيان ، وقبيس بالبلقاء ، وفي حمص (١٨) .

وفي الاسلام اكتسب مفهوم القطائع مدلولات مختلفة عبر فترات التاريخ الاسلامي ، وبدأت وجهات النظر تتباين حول مفهوم ملكية الارض منذ زمن عمر بن الخطاب ، وهذا الاختلاف شكل مفاهيم فقهية اخذت تتبلور في الفترة العباسية (١٩) . وقد ادى ذلك الى اختلاف مفاهيم الاقطاع وتباينها حتى في العصر الواحد أحيانا . وتغير المفاهيم واختلافها امر طبيعي فلكل مجتمع مفاهيمه الفنية التي بتغير استعمالها بين فترة واخرى .

والقطائع لغة جمع قطيعة والقطيعة ما اقتطعته منه . واقتطعتني اياها اذن لي في اقتطاعها . واستقطعه اياها : سألته ان يقطعه اياها . واقتطعته قطيعة : اي طائفة من ارض . واقتطعه نهرا : اباحه له (٢٠) . وورد في المصادر لقطة اقطاع وقطائع . وفي المعنى الاصطلاحي عرف قدامة بن جعفر (ت بين ٣٢٨ - ٣٣٧ هـ) الاقطاع فقال « ان يدفع الائمة الى من يرون ان يدفعوا اليه شيئا مما ذكرناه (الارضين) ، فيملك المدفوع ذلك اليه رقبته بحق الاقطاع ، ويجب عليه فيه العشر (٢١) .

ومرّنه الخوارزمي (ت ٢٨٧ هـ / ٩٩٧ م) بقوله : « الاقطاع ان يقطع السلطان رجلا أرضا فتصير له رقبته ، وتسمى تلك الارضون قطائع ، واحدها قطيعة » (٢٢) .

اما ياقوت الحموي فنظر الى الاقطاع من زاويتين وقال : للقطيعة معنيان (٢٣) :

الاول : ان يعمد الامام الجائر الامر والطاعة الى قطعة من الارض ، يفرزها عما يجاورها ويهبها من يرى ، ليعمرها ويتنفع بها . إما ان يجعلها منازل ويسكنها من يشاء ، وإما ان يجعلها مزدرةا ينتفع بما يحصل من غلتها ولا خراج عليه فيه . او ربما جعل على مزدرةا خراج .

والثاني : ان يقطع السلطان من يشاء من قواده وغيره القرى والنواحي ، ويقطع عليهم عنها شيئاً معلوماً يؤديه في كل عام قل أو كثر ، توفر محصولها أو نزر ، لا مدخل للسلطان معه في أكثر من ذلك .

أما الخزاعي (ت ٧٨٩ هـ) فقد قال عن الاقطاع : « بأنه تسويغ الامام من مال الله لمن يراه أهلاً لذلك ، فاصله كأنه اقطع من جملة المال » (٢٤) .

وهذه التعريفات وان اختلفت في اللفظ ، الا أنها تتفق في المعنى الذي يتمثل بمنح ولي الامر قطعة من الارض لشخص معين إما لغايات السكن أو الزراعة أو الجندية (٢٥) .

وأورد الفقهاء الى جانب مصطلح الاقطاع والقطائع مصطلحات أخرى تختلف بعض الشيء عن القطائع وهي :

الايغار : وهو أن تحمي الضيعة من أن يدخلها أحد من العمال وأسبابهم بما يأمر الامام به من وضع شيء يؤدي في السنة أمامي بيت المال أو في غيره من الامصار (٢٦) . والايغار هنا شكل من أشكال القطائع التي أشار اليه ياقوت .

الطعمة : وهي أن يدفع للرجل الضيعة يستغلها مدة حياته حتى إذا مات ارتجعت بعده . والفرق بين الاقطاع والطعمة ان الاقطاع يكون لعقبه من بعده ، والطعمة ترتجع منه (٢٧) . وهناك مصطلح ثالث وهو اقطاع الارفاق ويقصد به التملك المؤقت كالمقاعدة بالاسواق التي هي طرق المسلمين ، فمن قعد في موضع منها كان له بقدر ما يصلح له ما كان مقيماً فيه ، فإذا فارقه لم يكن له موضع غيره كابنية العرب وقساطيهم ، فإذا انتجعوا لم يملكوا بها حيث نزلوا (٢٨) ، وكذلك الاختصاص بالمساجد والربط لا ملك فيها مع التمكن من التصرف (٢٩) .

ولا يطلق لفظ الاقطاع أو القطائع الا على ما يقطعه الامام لمن يراه من رعيته ، فإذا صدر عن شخص عادي سمي عطية . فقد أورد البلاذري ما نصه : « كانت عين الرومية وماؤها للوليد بن عقبة بن ابي معيط فأعطاه ابا يزيد الطائي ، ثم صارت لابي العباس أمير المؤمنين فأقطعها ميمون بن حمزة » (٣٠) . كما لا يطلق لفظ القطائع على الارض التي يمنحها الخليفة لغير المسلم . فقد كتب عمر إلى نصارى نجران عندما أجلاهم عن اليمن : « فمن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الارض ، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم ، مدقة لوجه الله عقبة لهم مكان أرضهم ولا سبيل عليهم فيه لاحد ولا مفرم » (٣١) وكتب عثمان بشأنهم إلى الوليد بن عقبة

ما نصه : واني وفيت لهم بكل أرضهم التي تصدق عليهم عمر عقبي مكان أرضهم باليمن (٢٢) .

القطائع في عهد الرسول (ص) :

عرف العرب قبل الاسلام الملكية الفردية في المناطق الزراعية ، والملكية الجماعية في المناطق الرعوية . فقد جاء في الاغانى أن اوس بن قلامة قال لايوب بن محروف ، جد عدي بن زيد لما لحق به : فانظر احب مكان في الحيرة اليك فأعلمني به لا قطعك به او ابتاعه لك (٢٣) . وكان اللخميون يقطعون مساعديهم في الحيرة ، فقد أقطع النعمان بن المنذر السوادية لسواد بن زيد بن عدي (٢٤) . كما عرف العرب نظام القبالة ، فلذكر البلاذري أن مرداس بن ابي عامر وكليب بن عهمة الظفري من بني سليم قد اختطأ القرية وهي خطة بني سليم ، فلم يكن عندهما نفقة فجعلوا لمن ينفق عليها ثلثها (٢٥) .

وعندما جاء الاسلام وهاجر الرسول «ص» الى المدينة كانت الملكية الفردية واضحة لان المدينة منطقة زراعية ماهرة . ولم يحاول الرسول «ص» ان يقلب المؤسسات الاقتصادية والمالية التي كانت قائمة فيها او ان يمس املاك أهلها (٢٦) . وبادر الانصار فجعلوا للرسول «ص» كل أرض لا يبلغها الماء يصنع فيها ما يشاء (٢٧) كما وهبوا له كل فضل في خطط المدينة (٢٨) . ثم تبلور بعد ذلك ملكية الدولة للأراضي ، وقد انطلق هذا المفهوم من موات الأرض التي لا مالك لها ، ومن هنا قال الرسول «ص» هادي الأرض لله ولرسوله ثم هي لكم (٢٩) ، والعادي كل أرض لها ساكن في قديم الدهر ، فانقرضوا حتى لم يبق بها أحد فحكمها الى الامام . وتحدد المفهوم الثاني للأرض عندما اقصى بنو النضير ، واعتبرت فيثا ، وهو تعبير غير محدد في أصله ومعناه ولكنه يستلزم حتما ان تكون هذه الغنيمة بيد الرسول «ص» بتصرف بها كما يشاء (٣٠) . وقد خص المهاجرين دون غيرهم ما عدا سهل بن حنيف وسماك الانصارين لفقرهما .

وتمثلت دوافع الاقطاع في عهد الرسول «ص» بالامور التالية :

تألف القبائل على الاسلام : تشير المصادر الى ان الرسول «ص» قد أكثر من هذه القطائع خاصة في السنة التاسعة للهجرة التي سميت بعام الوفود . ومن تتبع المصادر يلاحظ أن هذه القطائع قد جاءت بمبادرة من رؤساء القبائل . وهذه القطائع كما يذكر ابو عبيد (٤١) كانت من موات أرضهم بعد ان أسلموا ، أو من الأراضي التي كانت مشاعا بين القبائل حيث كانت القبائل تتحاضى بعض الأرض تحاميا (٤٢) ، أو

كانت ملكيات مشتركة بين قبيلة او اكثر كالدهناء التي كانت لبني بكر وتميم (٤٣) .
علما بأن القبائل كانت تضع علامات لها تسمى المنار (٤٤) .

ومن الذين اقطعهم الرسول «ص» لغايات التآلف على الاسلام فرات بن حيان
المجلي ، اقطعه أرضا باليمامة (٤٥) ، والعباس بن مرداس السلمي عندما شخص
اياه «ص» واستقطعه الدثنية فأقطعه اياها على ان ليس له منها الا فضل ابن
انسبيل (٤٦) ، والدثنية ماء لبني سليم (٤٧) ، واقطع «ص» راشد بن عبد ربه السلمي
رهاطا وهي في ينبع ، وسعجي (٤٨) ، واقطع «ص» ربيع بن معاوية ومطرف بن عبد
الله ، وأنس بن قيس وهم وفد عقيل بن كعب عقيق بن عقيل ، وهي أرض فيها
عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتابا ، ولم يعطهم حقا لمسلم (٤٩) ، واقطع الرقاد بن عمر
الفلج ضيعة وكتب له كتابا (٥٠) ، وزيد الخيل الطائي فيد ومطين في أرضه (٥١)
ومجاعة بن مرارة بن سلمى الفورة وغرابة والحبل وهي مواضع ومياه في اليمامة (٥٢) .
واستقطع عمرو بن سلمة حمى بين الثقراء والسعدية فأقطعه اياها (٥٣) ، واقطع
حمزة بن النعمان العلوي رمية سوط من وادي القرى ، وكان حمزة سيد بني عذرة ،
وهو أول أهل الحجاز قدم على الرسول «ص» بصدقة بني عذرة (٥٤) . واقطع وأهل
ابن حجر الحضرمي وكان من ملوك اليمن أرضا بحضرموت (٥٥) ، والعداء بن خالد بن
هوذة مياها كان لبني عمرو بن عامر (٥٦) ، ومعاوية بن جروهم ما أسلم عليه وقومه من
بلادهم ومياهم وغدوة الغم من وراء البلاد التي أسلموا عليها (٥٧) ، واقطع الرسول
«ص» كذلك بلال بن الحارث المزني قطائع متعددة (٥٨) . واقطع «ص» عوسجة بن
حرملة الجهني من ذي المروة وهي قرية بوادي القرى ، وما بين بلكنة الى الطيبة الى
الجعلاب الى جبل القلعة وهذه المناطق قريبة من ذي المروة (٥٩) . واقطع كشد بن مالك
الجهني ينبع ، فلما أخذها قال اني كبير ، ولكن اقطعها لابن اخي فأقطعها له (٦٠) ،
واقطع لبني شيخ من جهينة ما خطوا من صفنية وما حرثوا (٦١) ، والى حصن بن نضلة
الاسدي ترمذ وهي موضع في بلاد بني أسد (٦٢) ، والى قتادة بن الاعور بن ساعدة
التميمي الشبكة وهي موضع بالدهناء (٦٣) ، كما اقطع عينة بن حصن والاقرع بن
حابس ، والرجال بن عنقوة ، ومحكم بن الطفيل (٦٤) .

واقطاع الرسول (ص) لهذه القبائل هو من باب اقرار الحقوق لها او لتأليفها
على الاسلام كما ذكرت ، فقد سأل صخر بن العيلة الرسول (ص) ماء لبني سليم
هربوا عن الاسلام وتركوا الماء ، فقال يا نبي الله انزلني انا وقومي . قال : نعم .
فأنزله . ولما أسلم المسلمون أتوا صخرا فسألوه أن يدفع اليهم الماء ، فأبى . فأتوا
النبي (ص) فقال يا صخر : ان القوم اذا أسلموا حرزوا أموالهم ودماءهم ، فادفع الى
القوم ماءهم . قال نعم يا نبي الله (٦٥) .

لاحياء الارض الموات : احياء الموات وسيلة لاستصلاح الاراضي واستغلالها ، ومن هنا رأى الرسول (ص) منح هذه الاراضي الى اناس معينين كي يقوموا باستغلالها . ومن الذين اقطع لهم من الاراضي الموات ابيض بن حمال المازني ، اقطعه المصح الذي بمارب وهو يعتقد أن ذلك أرض موات يريد احياءها (٦٦) ، وسليط الانصاري اقطع أرضا لحييها فأحيائها ، لكنه عاد واستاذن الرسول (ص) بالتخلي عنها ، لأنها تشغله عنه ، كما لم يعد له بها حاجة فاستقطعها الزبير فاقطعه اياها (٦٧) . واقطع كذلك الزبير بن العوام وابا بكر وعمر وسهيل بن حنيف وعبد الرحمن بن عوف عامرا ومواتا من أموال بني النضير ، وفي بعض الروايات غامرا وهي الخراب التي يبلغها الماء (٦٨) . واقطع عليا أرضا بينبع ، وعمار بن ياسر بذي العشرة (٦٩) ، واقطع ابا بكر حجر ، وعمر بن الخطاب بئر جرم وصهيب بن سنان الضراطة ، وعبد الرحمن بن عوف سواله وكيدمه ، وابا سلمة بن عبد الاسد البويرة (٧٠) .

والواقع ان الرسول (ص) قد خص المهاجرين بأراضي بني النضير لحاجة المهاجرين أولا ، وحتى يخفف عن الانصار ، ويعيد للانصار ما أعطوا للمهاجرين عند قدومهم المدينة فقال (ص) مخاطبا الانصار : ليست لآخوانكم المهاجرين أموال ، فإن شئتم قسمت هذه وأموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وإن شئتم امسكتم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة (٧١) . فلما طابت نفس الانصار عن هذه الأموال أمر المهاجرين برد ما كان للانصار لاستغنائهم عنهم . ولأنهم لم يكونوا ملكوهم ذلك وإنما دفعوا اليهم تلك النخيل لينتفعوا بثمرها (٧٢) . فكان هذا الاتجاه نحو الارض الموات وسيلة لاستصلاحها .

الخطط : لما هاجر الرسول (ص) الى المدينة انزل المهاجرين في دور الانصار يسكنون فيها معهم ، حيث يذكر أن سهم عثمان بن مظعون وقع على أم العلاء الانصارية (٧٣) . وبعد أن تخلى الانصار عن فضل خططهم ، وأراضيهم التي لا يبلغها الماء الى الرسول (ص) ، قام عليه الصلاة والسلام باقطاع المهاجرين دورا وخططا في المدينة . ومن الذين اقطعوا دورا من الصحابة : أبو بكر (٧٤) ، وعثمان بن عفان (٧٥) ، وعمار بن ياسر (٧٦) ، والمغيرة بن شعبة ، اقطع خطة في البقيع (٧٧) . ولما خط الرسول (ص) المدينة جعل للزبير بن العوام بقيعا واسعا (٧٨) ، ولبنى زهرة خطة في ناحية من مؤخرة المسجد فكان لعبد الرحمن بن عوف الحش ، والحش نخل صفر لا يسقى (٧٩) . وجعل الرسول (ص) لسلمة بن عبد الاسد موضع داره (٨٠) كما اقطع خطة لعمر بن الخطاب (٨١) ، وخطة لعثمان بن مظعون وأخوته (٨٢) .

اقطاع النفل : وهناك شكل آخر من أشكال الاقطاع ، قام الرسول (ص) بمنحه لبعض الصحابة ، اعتبر من اقطاع النفل ، أي ان الاقطاع كان بمثابة الوعد بعد فتح

انبلاذ . ومن الذين اقطعوا تميم بن أوس الداري . والواقع أن المصادر اختلفت في أسماء المواضع التي تم اقطاعها ، كما أن هناك اختلافا في صيغة الاقطاع . ويذكر أبو عبيد أن عمر بن الخطاب قد أمضى لتميم اقطاعه لكنه اشترط عليه عدم البيع (٨٣) ، كما اقطع لابي ثعلبة الخشني أيضا أرضا بالشام (٨٤) . وقال عبد الرحمن بن عوف : 'نطع لي رسول الله أرضا بالشام يقال لها السليل ، ولم يكتب له بها كتابا' (٨٥) .

وقد جاءت صيغ القطائع في كتب الرسول (ص) للمقطع اليهم على أشكال :

اني اقطعك (٨٦) ، وهذا ما أعطى (٨٧) ، وان لهم (٨٨) ، وما وهب (٨٩) ، وهب ني (٩٠) ، وان له (٩١) . أما مساحات هذه القطائع فلم تكن معروفة تماما ، ولكن بعض المصادر اشارت الى القلوة وهي قدر رمية السهم (٩٢) ، وفدوة الفتم (٩٣) .

سما تقدم يمكن القول أن قطائع الرسول (ص) كانت لغايات محددة ، فهي إما بيوتا للسكن أو لزراعتها ، وأغلب هذه القطائع من الأرض البور أو « عادي الأرض » التي لم يكن لها مالك ، أو لم تكن لها أهمية ، وهي بداية لظهور فكرة الملكية الفردية .

القطائع في عهد أبي بكر :

لم تأخذ القطائع بعدا كبيرا زمن أبي بكر ، نظرا لقصر مدته في الحكم وانشغال المسلمين بحروب الردة . وبعد الانتهاء من حروب الردة أخذ مفهوم ملكية الدولة يتبلور بصورة أوضح . فقد أورد الطبري أن أبا بكر أقام على الأبرق عندما ارتدت ذبيان إياما وقال : حرام على ذبيان أن يملكوا هذه البلاد إذا أغناها الله وأجلاها . فلما غلب أهل الردة جاءت بنو ثعلبة وهي كانت منازلهم لينزلوها فمنعوا منها ، فأتوا أبا بكر المدينة فقالوا : علام نمنع من نزول بلادنا . فقال : كذبتم ليست لكم ببلاد ولكنها موهبي وتقدي (٩٤) . ولم يعتبهم . وحمى الأبرق لخيول المسلمين ، وأرعى سائر بلاد الريدة الناس على بني ثعلبة ثم حماها كلها لصدقات المسلمين (٩٥) . واسكن المجازة ، وهي قرية من أرض اليمامة ، أخلاطا من الناس من موالي قريش وغيرهم بعد مقتل مسيلمة لأنها لم تدخل في صلح خالد بن الوليد عندما صالح أهل اليمامة (٩٦) وبهذا المفهوم أصبحت الأرض التي فتحها المسلمون ملكا للدولة ، يتولى صاحب الشأن النظر فيها حسب ما يراه منفعة للمسلمين .

واقطع أبو بكر بعض رؤساء القبائل تألفا لهم على الإسلام ، ومن هؤلاء مجاعة الحنفي حيث اقطع الخضرمة في اليمامة (٩٧) ، واقطع عينة بن حصن قطيعة ، وكتب

له كتابا الا ان عمر رفض ختم الكتاب ورده (٩٨) . واقطع ابو بكر لغايات احياء الارض واستصلاحها الزبير بن العوام ، فاقطعه الجرف والقناة ، والقناة واد ياتي من الطائف ويصل الى قبور الشهداء بأحد (٩٩) . واقطع عبد الرحمن بن زيد الخطاب بعد مقتل والده في اليمامة ، ولم يشتر البلاثري الى مكان الاقطاع (١٠٠) . وتشير بعض المصادر الى ان ابا بكر اقطع طلحة بن عبيد الله أرضا ، فأتى طلحة عمر بالكتاب ، فقال : اختم على هذا . فرفض عمر وقال : اكل المسلمون اعطي مثل ما اعطاك فجاء طلحة الى ابي بكر وقال : والله ما ادري انت الخليفة ام عمر ؟ فقال بل انا ، ولكنه ابنى (١٠١) .

القطائع في عهد عمر بن الخطاب :

لم تختلف وجهة نظر عمر بن الخطاب عن وجهة نظر ابي بكر حيث قال : « لنا رقاب الارض » (١٠٢) وهذا يعني ان الارض اصبحت ملكا للدولة ايضا ويشير الطبري ان ذلك فيقول : فسواد العراق اخذ عتوة ، فدعى اهله الى الرجوع ، فمن اجاب فعليه الجزية وله الذمة ، ومن ابي صار ماله فينا ، فلا يحل بيع شيء من ذلك الفيء فيما بين الجبل الى العذيب من ارض السواد ولا في الجبل (١٠٣) . وارض مصر كسواد العراق (١٠٤) ، وكذلك ارض الشام الا المدن خاصة (١٠٥) . وقد اقر عمر اهل البلاد في الشام على اراضيهم مقابل دفع الجزية ويكونوا عمارا للارض (١٠٦) . ووجهة نظر عمر بهذا الخصوص ان العرب لم يكن لهم طاقة بعمارة الارض فطلب منهم ان يتركوها لاهلها مقابل دفع الجزية (١٠٧) . ومن مفهوم هذه الملكية للاراضي رجع عمر عن وعده لجريز بن عبد الله وقومه عن نقله لهم بربع السواد وقال : اتي قاسم مسؤول ، ولولا ذلك لسلمت لكم ما قسمت لكم ولكن ارى ان يرد على المسلمين (١٠٨) .

وقد ابدى عمر بن الخطاب تشددا في بيع هذه الاراضي او اقطاعها ، ففي مجال البيع قال لعتبة بن فرقد عندما اشترى أرضا من ارض الخراج ، ممن اشتريتها ؟ قال : من اهلها قال : فهؤلاء اهلها (للمسلمين) ابعتموه شيئا .؟ قالوا : لا . قال : فاذهب واطلب مالك حيث وضعت (١٠٩) .

وعن سيف ان جرير بن عبد الله البجلي اشترى من ارض السواد صافية على شاطئ الفرات ، فأتى عمر فأخبره ، فرد ذلك الشراء وكرهه ونهى عن شراء شيء لم يقتسمه اهله (١١٠) ، وكأنه اراد ان تبقى هذه الارض ملكا للمسلمين اجمع لا تباع ولا تورث (١١١) ، في حين رخص البيع في الاراضي التي بقيت بيد اهلها عند فتحها كأرض الحيرة وباتقيا واليس وصلوبا وغيرها (١١٢) . وقد استثنى الخليفة ايضا من الارض

الخراجية تلك الاراضي التي اطلق عليها اسم الصوافي حيث ترك امرها الى الخليفة ليحيز منها ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك مواضعة ولا يحابي به (١١٣). واعتبرت الصوافي في العراق كل ارض كانت لكسرى ومرزبته ، وكل ارض جلا عنها اهلها ، ولم يبق بها ساكن ولا عامر ، ومفايض الماء ، وكل دير يريد ، والاجام ، وارض من قتل في المعركة (١١٤) . وعندما مسح عثمان بن حنيف ارض السواد امره ان لا يمسح تلا ولا اجمة ولا سبخة ولا مستنقع ماء ولا ما لا تبلنه المياه (١١٥) . وبهذا المعنى فان الصوافي تمثل خمس الدولة من ارض الفتيء يحق للخليفة التصرف به ووضعه كما يرى لمصلحة الدولة .

وفي الشام ومصر فان الاشارات عن طبيعة ارضها قليلة ، وقد طبق عليها ما طبق على ارض السواد . ويذكر البلاذري (١١٦) ان كل عشري بالشام فهو ما جلا عنه اهله فاقطعه المسلمون فاحيوه ، وكان مواتا لا حق فيه لاحد فاحيوه . كما يذكر ابن عساكر بعض الصوافي التي كانت لبطارقة الروم في الشام (١١٧) . اما مصر فالاشارات الى القطاع فيها تكاد تكون معدومة ، ولم يرد فيها الا قطيعة واحدة كما سنرى .

اما من ناحية القطاع فقد اتخذت الاشكال التالية :

— خدمة النفع العام : فقد اقطع عمر اقواما يقدمون خدمات عامة للدولة ، ومن بين هؤلاء نافع بن الحارث الثقفي الذي اقطع عشرة اجربة في البصرة ، لانه كان اول من افتلا خيلا ليغزو عليها المسلمون . واشترط عمر ان لا تضر هذه القطيعة بمسلم ولا معاهد ولا تقطع شربا ولا طريقا وليس لاحد فيها حق (١١٨) . ويذكر ابن دريد انه اقطعه ثلاثماية جريب ، ولم يقطع بصريا غيره (١١٩) ، ولكن يبدو ان الرواية الاولى اقرب الى الواقع .

وفي الشام طلب اناس ان يقطعهم ارضا من صوافي اندركسيان بدمشق لتكون مربطا لخيولهم فاقطعهم ذلك . لكن عمر عدل عن قطيعته عندما استغلوا القطيعة لغیر الغايات التي اقطعوا من اجلها ، فأمر عمر برد الارض وأغرمهم لما زرعوا فيها (١٢٠) .

— احياء الارض واستصلاحها : فقد اقطع ارضا مواتا من عقيق المدينة لعدد من الصحابة امثال خوات بن جبير والزبير بن العوام (١٢١) ، واقطع عليا ارضا بينبع (١٢٢) . ويذكر ابن دريد ان عمر اقطع عثمان بن ابي العاص الشط الذي عرف باسمه بالبصرة (١٢٣) . ويوضح ابن زنجوية شكل هذا الاقطاع ويقول : جاء عثمان بن ابي العاص الى عمر وقال له : يا امير المؤمنين ان عندنا اجمة ليست في يد احد فاقطعنيها فأعمرها ، فتكون فيها منفعة لعيالي ومنفعة للمسلمين ، فكتب له بذلك (١٢٤) .

— لمن كان له غناء في الإسلام : وهذه لم يتوسع بها عمر ، ولم ترد الا اشارة واخذة لهذا الشكل من القطائع . فقد كتب عمر الى عثمان بن حنيف ان يقطع جريرا بن عبد الله البجلي قدر ما يقوته لا وكس ولا شطط . فكتب عثمان الى عمر : ان جريرا قدم علي بكتاب منك تقطعه ما يقوته ، فكرهت ان امضي ذلك حتى اراجعك فيه . فكتب اليه عمر : ان قد صدق جريير ، فأنفذ ذلك ، وقد احسنت في مؤامرتي (١٢٥) . واقطع عمر ايضا ابا موسى الاشعري ، وظلحة بن عبيد الله ، والزبير بن عمرو و ابا مغزر ، ويرى الطبري ان هذه القطائع على وجه النفل من خمس مما افاء الله (١٢٦) .

— تالفا لبعض رؤساء القبائل : فقد اقطع عمر قوما من اشراف دمشق كابن بحدل وابن مدلج العذري دورا في دمشق خرج منها أهلها من الروم (١٢٧) ، واقطع مجاعة الحنفي أرضا بالريا بحجر (١٢٨) .

— لدواعي الحاجة والاعاشة ، فقد خير عمر ازواج الرسول (ص) بين ان يعطينهن الارض او يضمن لهن السوق كل عام (٨٠ وسقا تمرا و ٢٠ وسقا شعيرا) فاختلفن ، فممن من اختار السوق ، ومنهن من اختار ان يضع لهن الارض . فكانت عائشة وحفصة ممن اختار السوق (١٢٩) . واقطع فاخته بنت عتبة بن سهيل وزوجها عبد الرحمن بن الحارث خطة بالمدينة فأوسع لهما . فقيل اكثرت لهما يا أمير المؤمنين قال : عسى الله ان ينشر منهما ولدا كثيرا ورجالا ونساء (١٣٠) ، واقطع سندر او ابن سندر مولى رسول الله (ص) أرضا بمصر . ويذكر ابن سعد (١٣١) : لما ولي عمر قال لسندر : اختر ان شئت ان اجري عليك ما اجري ابو بكر ، وان شئت اكتب اليك الى الامصار . قال : اكتب الى مصر فانها أرض ريف . فكتب عمر الى عمرو بن العاص : اما بعد فان سندر قد توجه اليك فاحفظ فيه وصية رسول الله (ص) فقطع له عمرو نارض مصر أرضا واسعة ودارا ومعاشا ، فعاش فيها ما عاش ، فلما مات قبضت في مال الله .

وكثر القطائع في عهد عمر لغايات السكن ، فقد اقطع الناس دورا في الكوفة والبصرة ، والمدائن ، والموصل والحديثة ومدن الشام والفسطاط (١٣٢) .

واجاز عمر القطائع لغايات الدفاع وترتيب المسالج في الثغور ، فقد كتب الى ابي عبيدة : ان رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة ، واجعلهم مرابطة ولا تحبس عنهم العطاء . ولما ولي معاوية كتب اليه بمثل ذلك (١٣٣) . ولما طالب أهل البصرة باقتسام أرضها ، قسم عليهم ما كان لكسرى قصار فيثا على ان يؤدوا الخمس الى الوالي ، فاجابهم عمر الى ذلك ، فكانت قطائع أهل البصرة نصفين : نصفها مقسوم ، ونصفها متروك للعسكر والاجتماع (١٣٤) .

ومما تقدم فإن عمر قد اتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في شأن القطائع تمثلت بعدم منحها إلا إذا رأى أسباباً موجبة لذلك ، كما أن من أقطعهم كانت قطائعهم من الصوافي وهي أرض الفيء أو من موات الأرض ، وأن هذه القطائع كانت على وجه النفل من خمس ما آفأ الله كما ذكرت .

القطائع في عهد عثمان :

للهولة الأولى يخيل للناظر أن القطائع في عهد عثمان قد اتخذت اتجاهها سلبياً في حركة الاقطاع . ويرى بعضهم أن ذلك ناتج عن نظرة عثمان للتصرف في أموال الدولة ، وحصيلة للظروف التي استجدت في خلافته (١٢٥) . صحيح أن أحياء الأراضي واستثمارها أدى إلى زيادة إقبال الناس على شراء الأرض والمضاربة فيها ، وهذا أدى إلى ارتفاع أسعارها ، إلا أن هذا الإقبال لم يخرج عن القواعد التي سنّها الرسول (ص) ومن جاء بعده .

وتلمح أثر هذه الصورة القائمة عن القطائع في عهد عثمان فيما يذكره يحيى بن آدم من قوله : لم يقطع الرسول (ص) الأرضين ولا أبو بكر ولا عمر ، وأن أول من أقطعها عثمان وباعها عثمان (١٢٦) . وتابعه ابن عساکر وقال : لم يقطع أبو بكر ولا عمر ولا علي ، وأول من أقطع القطائع عثمان ، وبيعت الأرض في خلافة عثمان (١٢٧) . وهذه الأقوال لا تتفق مع قول أبي يوسف حيث قال : أقطع الرسول (ص) أقواماً ، وأن الخلفاء من بعده أقطعوا ، ورأى رسول الله (ص) الصلاح فيما فعل من ذلك إذ كان فيه تألف على الإسلام وعمارة للأرض ، وكذلك الخلفاء إنما أقطعوا من رأوا أن له غناء في الإسلام أو تكاية للعدو ، ورأوا أن الأفضل ما فعلوا (١٢٨) .

وللقاء الضوء على طبيعة القطائع في عهد عثمان لابد من الحديث على أرض السواد ، لأن هذه القطائع تتركز في مناطق السواد بينما تكاد تكون الإشارات قليلة من الاقطاع في مصر أو بلاد الشام . وربما لا نبتعد عن الحقيقة كثيراً إذا قلنا أن معظم الآراء الفقهية التي تحددت فيما بعد كانت تتركز على أرض السواد .

لقد حدد أبو عبيد أرض السواد من لدن تخوم الموصل ماراً مع الماء إلى ساحل البحر ببلاد عبادان شرقي دجلة هذا طوله ، وأما عرضه فحدّه منقطع الجبل من أرض حلوان إلى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب (١٢٩) . وضمن هذه الحدود وجدت الصوافي التي أصفها عمر بن الخطاب كما رأينا . واعتبر السواد فينا موقوفاً على المسلمين ، وأهله عمالاً فيه للمسلمين بكماء معلوم يؤدونه ، ويكون باقي

ما تخرج الأرض لهم ، وهذا لا يجوز إلا في الأرض البيضاء ، ولا يكون في النخل والشجر (١٤٠) . وقد قدرت المساحة بـ ٣٦ ألف ألف جريب (١٤١) . وعلى ضوء التحديد السابق فإن البصرة من أرض السواد (١٤٢) . وذكر أبو حنيفة أنها من الأرض التي أحيها المسلمون ، وما أقطعه الخلفاء من القطائع التي لا حق فيها لمسلم ولا معاهد ، يكون ما يجتنب منهم مجرى على الخراج (١٤٣) . وإلى مثل ذلك أشار أبو يوسف وقال : أرض البصرة وخراسان عندي بمنزلة السواد ، وما افتتح في ذلك عنوة فهو أرض خراج وما صولح عليه فعلى ما صولح عليه ، لا يزداد عليهم ، وما أسلم عليه أهله فهو عشري (١٤٤) .

فإذا أدركنا حدود أرض السواد ، ومعرفة مناطق زراعة النخل والشجر . ومناطق الصوافي وهي أرض جلا عنها أهلها ، فلم يبق بها ساكن ولا عامر (١٤٥) فحكمها في الاقطاع كحكم عادي الأرض ، والمناطق التي لم يمسحها عثمان بن حنيف من أرض أنسود ، أمكن على ضوء ذلك بيان طبيعة القطائع التي أقطعها عثمان ، وهذه القطائع تمثلت بما يلي :

أحياء الأرض الموات : تحتل مناطق البصرة المركز الأول في المصادر من حيث القطائع التي تمت بها ، فالبصرة كانت من أرض الموات كما رأينا ، وبالتالي فلا حق لمسلم فيها ولا معاهد .

لقد أقطع عمر بن الخطاب كما رأينا عثمان بن أبي العاص أجمة في أرض البصرة ، وفي عهد عثمان أقطع سباحا كما يذكر ابن زنجوية (١٤٦) ، فاستخرجها وأحيها ، والسباح موات كلها ، وكذلك الأرض التي يغلب عليها الفياض ، والأجام ، ثم استخرجها مستخرج ، كانت كالموات يحييها . وذكر أبو عبيد (١٤٧) أن أرض (المستنقعات) إذا عولجت بنزع الماء منها حتى ينضب عنها فهي كالأرض يحييها ، فتكون لمن فعل ذلك . وذكر قدامة بن جعفر هذا الاقطاع وقال (١٤٨) : « أقطع عثمان ، عثمان بن أبي العاص شط عثمان بالبصرة ، فإن البصرة كلها كانت يومئذ سباحا ، فأقطعه إياها فاستخرجها وأحيها . والسباح موات أن كانت لا تنبت إلا بعلاج ، وكذلك الأرض يغلب عليها الفياض والأجام ، وكذلك الأرض التي يركبها الماء ، ويقسم فيها حتى يحول بين الناس وازدراعها والانتفاع بها كالبطائح » .

وتشير بعض المصادر أن هذا الاقطاع قد اشتراه عثمان بن عفان بدار له في المدينة وزادها في المسجد في رواية . وفي أخرى أنه اشتراها بمال له بالطائف (١٤٩) . ويبدو أن المساحة التي أحيها عثمان بن أبي العاص كانت كبيرة حتى أنه منح لآخيه حفص الحفصان ، ولآخيه أمية الاميتان ، ولآخيه المفيرة المفيرتان ، وحكما لآخيه

الحكم بن ابي العاص ، ونهر الارحاء لابي عمرو بن ابي العاص الثقفي (١٥٠) . ويقدر ابن قتيبة مساحة هذا الاقطاع باثنى عشر ألف جريب (١٥١) . ويخطيء ياقوت (١٥٢) عندما يذكر ان نهر مطرف في البصرة قطيعة من عثمان للحكم بن ابي العاص عم عثمان ، وانواقع ان الحكم هذا هو الحكم الثقفي حيث لا تشير المصادر الى اقطاع عثمان للحكم بن العاص الاموي .

والاقطاع الاخر في البصرة كان لعبد الله بن عامر . وتشير المصادر الى ان ابن عامر كان مهتما باستصلاح الاراضي . وذكر الزيري انه كان لا يعالج ارضا الا ظهر في الماء (١٥٣) . ومن الاراضي التي قام باستصلاحها نياج الذي سمي باسمه ، وهو موضع يقع بالقرب من البصرة على طريق مكة ، والجحفة وهي بستان نخيل يقع بالحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين (١٥٤) ، والقريتين . وانبط عيونا تعرف بعيون ابن عامر ، بينها وبين النياج ليلة على طريق مكة ، وحفر الحفيرة ثم حفر السمينة ، واتخذ بقرب قباء قصرا ، واتخذ بمرفات حياضا ونخلا ، واحتفر بالبصرة نهرين احدهما في المشرق ، والاخر الذي يعرف بام عبد الله وهي امه . وحفر نهر الابلّة ، وكان يقول : لو تركت لخرجت المرأة في حداثتها على دابتها ، ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة (١٥٥) .

ومن القطائع التي احيها ابن عامر في البصرة ايضا الارض التي حفر فيها نهر الاساورة ، ونهر نافذ نسبة لمولاه نافذ ، ونهر حبيب نسبة الى حبيب بن شهاب من ولد سامة بن لؤي كان له تدر بالبصرة فمنحه اياها ابن عامر (١٥٦) . وقد بين ابن خياط طبيعة القطائع وقال : افتتح ابن عامر فيض البصرة من الطازات ، فشقه وسط البصرة ، وحفر نهر الاساورة حتى بلغ الشباك ، واحتفرت امه دجاجة بنت الصلت نهرها الذي يقال له نهر ام عبد الله وسط البصرة في سوقها (١٥٧) .

وتلمح موقف اهل العراق من احياء ابن عامر ما أورده البلاذري انه عندما حفر نهر ام عبد الله جاءه حارثة بن بدر الغداني فقال له : لم ار اعظم بركة من هذا النهر يسقى منه الضعفاء من ابواب دورهم ، ويأتيهم منافعهم فيه الى منازلهم ، وهو مفيض لبياهم . ولما تولى زياد العراق قال له : ما رايت شرا منه ، ينز من دورهم ، ويفيضون له في منازلهم ، ويفرق فيه صبيانهم (١٥٨) .

ويبدو ان عثمان نفسه قد كان له احياء في البصرة حيث يذكر البلاذري ان خليج بنات نائلة نسبة الى نائلة الفرافصة الكلبية ، وكان عثمان اتخذ هذا الخليج ، وساقه الى ارض استخرجها ، واعتملها (١٥٩) . ومما تقدم يمكن القول ان الارض التي اقطعت

في البصرة هي من الارض الموات ، ومن حق الخليفة ان يقطعها لمن يرى لان في ذلك عمارة للبلاد واردة على المسلمين من تعطي له (١١٠) .

واقطع عثمان القطائع العسكرية خاصة في مناطق الثغور لما لها من اهمية في حماية ارض المسلمين . ومنذ اللحظة التي تولى بها الخلافة كتب الى معاوية يأمره بتحسين السواحل وشحنها واقطاع من ينزلها اياها القطائع (١١١) . ولم يقف عند هذا الحد بل امر معاوية ايضا ان يعد في جميع سواحل بلاد الشام اذا غزا او اغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب الارضين ، ويمطيهم ما جلا عنه اهله من منازل . وقد ادى ذلك الى اقبال الناس والانتقال الى السواحل من كل ناحية (١١٢) ، وبهذه الطريقة حصن معاوية انطربوس ومرقبة وبانياس واللاذقية وجبله وبيت سلمية (١١٣) .

اما في سواحل مصر فلم يرد اقطاع كالشام بل امر عثمان عبد الله بن سعد بن ابي السرح ان يلزم في الاسكندرية رابطة لا تفارقها ، وان يذر عليهم الارزاق (١١٤) . وفي الجزيرة طلب عثمان من معاوية ان ينزل العرب مواضع نائية عن المدن ، ويأذن في اعتمار الارضين التي لا حق لاحد فيها ، فانزل بني تميم الراية ، وانزل المازحين والمدير اخلاطا من قيس واسد وغيرهم ، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك ، وفعل مثل ذلك في جميع ديار مضر (١١٥) .

وفي ارمينية كتب عثمان الى معاوية ان يشخص الى حبيب بن مرة من اهل الشام والجزيرة قوما يرغبون في الجهاد والفتنة . فبعث اليه معاوية الف رجل اسكنهم في قالقلا واقطعهم بها القطائع وجعلهم رابطة بها (١١٦) . وفي اذربيجان سمح عثمان لمن نزع اليها من الكوفة والبصرة والشام ان يملكوا ما يغلبون عليه ، كما سمح لهم بشراء الارض من المعجم . وقد ادت هذه الاجراءات الى التجاء القرى المجاورة اليهم للخفارة وصار اهلها مزارعين لهم (١١٧) .

وفي قبرص اسكن معاوية سنة ٣٣ هـ اثني عشر الفا كلهم اهل ديوان ، تقل بعضهم من بعلبك ، فبنوا فيها المساجد ، ومدينة ، واقاموا يعطون الاعطية (١١٨) .

ويلاحظ ان الغاية من هذه القطائع هي تقوية الثغور ، ومن المؤكد ان هذه الاقطاعات كانت البدايات الاولى لنظام الربط الاسلامي (١١٩) .

واقطع عثمان لغايات السكن ، ومن الذين اقطعهم العباس بن ربيعة الذي اقطعه دارا في البصرة (١٢٠) ، واقطع حمران بن ابان مولا دارا بالبصرة بعد ان غربه من المدينة (١٢١) واقطع آل الحكم دورا بناها (١٢٢) واسكن بني حرب من عائلة قريش في

بني شيبان قرية بالشام (١٧٣) ، واقطع لغايات الحاجة حبي أم مالك الدار مولى
عمر بن الخطاب (١٧٤) .

ومما تقدم نرى ان غايات هذه القطاعات كالفيايات التي كانت في عهد عمر بن الخطاب،
والتوسع الذي جاء في عهد عثمان كان ناتجا من عمليات بيع الاراضي التي سمح بها
عثمان بن عفان في سنة (٣٠٠) هجرية . ويشير الطبري الى ان عثمان جمع اهل
المدينة وقال : يا اهل المدينة ان الناس يتمخضون بالفتنة ، واني والله لا تخلصن لكم
الذي لكم حتى اتقله اليكم ان رايتم ذلك . فهل ترونه ياتي من شهد مع اهل العراق
الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده . فقام اولئك وقالوا : كيف تنقل لنا ما افاء الله علينا
يا امير المؤمنين ! فقال : نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتح الله عليهم
به امرا لم يكن في حسابهم (١٧٥) .

ويعطي ابن زنجوية نقلا عن الشعبي تفصيلا أكثر حيث يقول : لما ولي عثمان
كان الرجل يقدم عليه ، له الشرف في قومه من اهل اليمن والطائف او عمان او
البحرين او حضرموت او اليمامة فيقول : يا امير المؤمنين اني رغبت في الهجرة، وخلفت
ارضا نفيسة ، وذلك ان هؤلاء اهل قرى وعقد ومساكن . فيقول عثمان فانا معوضك
فيها ، وتجعل ارضك صافية للمسلمين (١٧٦) . وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل
قبيلة وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس واقرار الحقوق (١٧٧) .

ومن الذين عوضهم عثمان الاشعث بن قيس اخذ ما له بحضرموت واقطعه
طي بن اياذ (١٧٨) ، وعوض طلحة بن عبيد الله النشاستج ببئر اريس ، واخذ ماله
بحضرموت (١٧٩) ، وفي رواية اخرى ان طلحة اشترى بحصته من خيبر نصيب من شهد
القادسية والمدائن من اهل المدينة ممن اقام ولم يهاجر الى العراق (١٨٠) ، وقام طلحة
بتعميرها حتى عظم دخلها فقال سعيد بن العاص عندما قيل له ان طلحة جواد : ان
من له مثل نشاستج لتحقيق ان يكون جوادا ، والله لو ان لي مثله لاعاشك الله به
فيما رغيدا (١٨١) .

وعوض الزبير بن العوام ما والى دير عبد الرحمن ، وخباب بن الارت اشتينا
(استينيا) ، ووائل بن حجر الحضرمي ما والى زراراة ، وعدي بن حاتم الطائي الروحاء،
وابا مريد الحنفي ارضه بالاهاواز بنهر تيري ، ونافع بن الحارث بن كلدة الثقفي
قطيعته التي بشرط عثمان بالبصرة ، وخالد بن عرقطة العذري حليف بني زهرة ارضه
بحمام عمر ، وابا موسى الاشعري قطيعة بحمام عمرة ، واقطع اناسا من اهل البصرة
واناسا من اهل الكوفة واناسا من اهل المدينة قطائع كثيرة (١٨٢) .

واشترى مروان بن الحكم بـمال كان له أعطاه عثمان نهر مروان ، وهو يومئذ اجمة ، واشترى منه رجال من القبائل بالعراق اموالا كانت لهم في جزيرة العرب من اهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت (١٨٣) .

وتختلف المصادر بشأن الصحابيـين الخمسة الذين اقطعهم عثمان ، ففي حين ذكر أبو عبيد (١٨٤) ، والطبري (١٨٥) والحنـبلي (١٨٦) أسماء الزبير وخباب بن الارت وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار ، يذكر ابن زنجوية (١٨٧) سعد بن مالك وابن مسعود وخبابا والزبير وأسامة بن زيد . أما البلاذري (١٨٨) فيذكر قائمة ثلاثة مكونة من عبيد الله بن مسعود واقطع أرضا بالنهرين (النهر يـل) ، وعمار بن ياسر استينبا (سـينا) ، وخباب بن الارت صعبا (صـعـبـى) ، وسعد بن مالك قرية هرمز ، وطلحة بن عبيد الله النشاستج ، وأسامة بن زيد أرضا بـاعـبا ، وكان ابن مسعود وسعد بن مالك يعطيان أرضهما بالثلث والرابع .

وهذه الاماكن جميعا من صوافي السواد ، واستدل أبو عبيد على ذلك من ان هرمز كان احد الاكاسرة ، وان عثمان اقطع من تلك الارضين التي لم يبق له رب (١٨٩) . ويذكر الطبري ان ما اعطي كان من باب الفـيء (اي الصوافي) ، وبموافقة من اصحابه وبمبادلة من عقارهم (١٩٠) . ومن حق الخليفة ان يمنح من خمس الدولة ، وبهذا يكون قد اقطع مما ليس له مالك ، ولم يكن حقا لمسلم او معاهد . واتهام عثمان بأنه قد اقطع من أرض السواد واضر بالخراج كان نتيجة اختلاط الامر في شأن أرض السواد الخارجية والصوافي التي كانت فيا للمسلمين ، يؤيد ذلك ما ذكره أبو عبيد (١٩١) بقوله : واما اقطاع عثمان من اقطع من الصحابة ، وقبولهم اياه ، فان قوما قد تأولوا ان هذا من السواد . وقد سألت قبيصة : هل كان فيه ذكر السواد؟ فقال : لا . فان يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر اصفها من أرض السواد .

وكان ابن زنجوية أكثر وضوحا في هذا الشأن حيث قال (١٩٢) : « اقطع عثمان من اقطع من الصحابة وقبولهم اياه فان اقواما قد تأولوا ان هذا من السواد ، فان لم يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر اصفها من أرض السواد » . وان اعطى من الصوافي رأي ان عمارتها ارد على المسلمين ، وأوفر لخراجها من تعطيلها ، فاعطى من رأى اعطاءه ان يعمرها كما يعمرها غيرهم ، يؤدون عنها ما يجب للمسلمين عليهم (١٩٣) .

ويذكر الحنبلي ان قطائع عثمان كانت من موات السواد (١٩٤) ، ومن قبله أشار ابو هلال العسكري الى بعض هذه القطائع فقال (١٩٥) : واقطع عثمان طلحة اجمعة الجوف ، وهو موضع النشاستج . ويبدو ان سعيد بن العاص قد تردد باقطاعه لانها تصل بين البر والبحر ، فيملك أرضا ونهرا كان له . فكتب عثمان الى سعيد : ويحك انفلدك فاني اتخوف عليك ففعل (١٩٦) . ومما يؤكد كذلك ان اقطاع عثمان لم يكن من السواد ما أورده ابو عبيد حيث قال (١٩٧) : سألت قبيصة هل كان فيه ذكر السواد ؟ فقال لا . فان لم يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر اصفاها من أرض السواد . وربما كانت كثرة الاحياء التي قام بها بعض الصحابة قد اثارث حفيظة أولئك الذين لا سابقة لهم ولا قدمة (١٩٨) فاتهموا عثمان بادرار القطائع والارزاق والاعطيات على اقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي (ص) ثم لا يفسزون ولا يلبسون (١٩٩) .

وفي هذا المجال يبقى النص الذي أورده سيف عن هذه القطائع بقوله : فان يكن عثمان اخطأ فالدين قبلوا منه الخطأ خطأ ، وهم الذين أخذنا عنهم ديننا (٢٠٠) مفسرا بعدم خطأ عثمان . ويستدل على ذلك ما أورده ابن سعد من حديث دار بين علي بن ابي طالب وعمران بن ابي طلحة بن عبيد الله حيث قال علي لعمران : أما انا لم تقبض أرضكم هذه السنين ، ونحن نريد ان نأخذها ، انما أخذناها مخافة ان ينتهبها الناس ، وامر بدفع أرضه اليه وغلاتها خلال مدة الاحتجاز (٢٠١) .

ودليل آخر على هدم اكنار عثمان من اقطاع الصوافي او اقطاع الارص الخراجية ما أورده اليعقوبي : وبقيت (الصوافي) على حالها في العراق ، فقد ولي معاوية عبد الله بن دراج مولا خراج العراق ، وكتب اليه ان احمل من مالها ما استعين به . فكتب اليه ابن دراج يعلمه ان الدهاقين اعلموه انه كان لكسرى وآل كسرى صوافي يجتبون مالها لانفسهم ولا يجري عليها مجرى الخراج ، فكتب اليه ان احص تلك الصوافي ، واستصفها واضرب عليها المسنات . فقام ابن دراج واستخرج الصوافي فبلغت جبايته خمسين ألف درهم من أرض الكوفة وسوادها . وكتب الى عبد الرحمن بن ابي بكر بمثل ذلك في أرض البصرة والشام والجزيرة واليمن (٢٠٢) .

اما قطائع عثمان بالشام فلم ترد الا اشارة واحدة عند ابن عساكر حيث يقول كتب معاوية في امرته على الشام ان الذي اجراه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل امرائهم ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . ووصف في كتابه صفايا اندركسيان بدمشق وقبيس بالبلقاء وغيرها وسأله ان يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى اهل اللغة ولا الخراج فكتب له عثمان بذلك (٢٠٣) .

وبعد هذا العرض للقطائع التي تمت في عهد عثمان نلاحظ انه لم يخرج عن دوافع الاقطاع التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، وكل ما حدث انه قد سمح بعملية تبادل الاراضي ، والتبادل تم في ارض الصوافي التي يخص الدولة خمسها ، وليس من ارض الخراج ولم يدرك البعض شرعية هذا الاجراء فاعتبروه ماخذاً على عثمان ومضرا بضريبة الخراج .

القطائع في عهد علي بن ابي طالب :

لم يبرز موقف علي بن ابي طالب من القطائع بصورة جلية نظرا لانشغاله بالحروب . ويذكر ابن ابي الحديد ان عليا وعد في اليوم التالي لانتخابه ان كل قطعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاء من الله فهو مردود في بيت المال (٢٠٤) . ويبدو ان عليا قد عدل عن هذه الفكرة ، واعاد ارض طلحة في السواد الى ابنه عمران مع غلاتها خلال مدة الاحتجاز كما رأينا .

وترد اشارات في زمن علي الى نزاعات كانت تدور في مناطق السواد ، حيث يذكر ابن آدم ان خلافا نشب بين اهل السواد ، فارسل اليهم علي مائة فارس فيهم ثعلبة بن يزيد الحماني . فلما رجع ثعلبة قال في مسجد بني حمان : لله علي ان لا ارجع الى السواد مما راى فيه من الشر (٢٠٥) ويذكر ابو عبيد ان عليا قد هم بتقسيم السواد على المسلمين (٢٠٦) ، ولكن عليا لم ينفذ ذلك خشية ان يضرب الناس بعضهم بعضا (٢٠٧) .

اما من ناحية اقطاعه القطائع فلم يرد عنه الا قطعة اقطعها لكردوس بن هاني . فسميت الكردوسية ، واخرى لسويد بن غفلة الجعفي ، استقطعه ، فكتب اليه هذا ما اقطع علي السويد ارضا لدا ذويه ما بين كذا الى كذا وما شاء الله (٢٠٨) .

شروط القطائع :

استمد الفقهاء من الممارسات العملية في عهد الرسول (ص) والخلفاء من بعده شروطا للقطائع ، وصاغوها بمعايير فقهية . وقد تمثلت بما يلي :

● لا يجوز للامام ان يقطع ما كان تابعا لبعض القرى كالمراعي ، والمحتطب حيث اعتبرت من حق اهل القرية . والحد الفاصل ان يسمع صوت الرجل من ادنى الارض المملوكة له ، فما لم يسمع صوته فيه ليست بتابعة لقريتهم (٢٠٩) . واستند الفقهاء بذلك

على ما أورده ابن سعد من أن حريث بن حسان الشيباني سأل رسول الله (ص) أن يكتب له كتاباً بالدهناء خاصة دون تميم ، وكانت الدهناء مرعى لبني بكر بن وائل وتميم فوافق الرسول (ص) ، وهم بالكتابة اليه ، إلا أن امرأة تدعى قيلة بنت مخزومة كانت في وفد تميم قالت لرسول الله (ص) : إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألك ، إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم ونساء بني تميم وابناؤها وراء ذلك (٢١٠) . واعتبر أبو يوسف المقابر من المرافق أيضاً (٢١١) .

● أن الاقطاع لا يكون إلا فيما ليس له مالك ، ومن عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ولا عمارة توجب ملكاً لأحد سواء كان من المسلمين أو المعاهدين (٢١٢) . ومن ذلك أن عمر كتب إلى سعد أن يقطع سعيد بن زيد أرضاً ، فأقطعه أرضاً لبني الرفيل ، فأتى ابن الرفيل عمر فقال : يا أمير المؤمنين على ما صالحتمونا ؟ قال على أن تؤدوا الجزية ولكم أرضكم وأموالكم وأولادكم . قال يا أمير المؤمنين أقطعت أرضي لسعيد بن زيد . فكتب إلى سعد أن يرد عليه أرضه ، ودعاه إلى الإسلام فأسلم ، ففرض له عمر سبعمائة وجعل عطاءه في خشم (٢١٣) .

● أن يكون المقطع إليه مسلماً ، فلا يجوز أحياء الكافر الذي في دار الإسلام لأنه نوع تمليك ينافيه كفر الحربي ، فنافاه كفر الدمى كالارث من المسلم ، ولكن يجوز الاحتطاب والاحتشاش (٢١٤) .

● لا يجوز اقطاع المال الظاهر العين الحاضر النفع كالشجر والنخيل ، ويجوز في الأرض البيضاء . وعلى اقطاع الزبير نخلاً بان ذلك من خمس الرسول (ص) الذي هو سهمه ، لأن النخل ظاهر العين . وفي رواية أخرى أن هذه الأرض كانت من الأرض الموات التي أقطعتها الرسول (ص) إلى سليط الانصاري ، فاستقطعها الزبير فأقطعه أياها (٢١٥) .

● لا يجوز اقطاع ما كان جوهرها المستودع فيها بارزاً كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، لأن الناس فيه سواء ، يأخذه من ورد اليه . أما المعادن الباطنة فيجوز الاقطاع فيها . واستدل الفقهاء على ذلك عندما استرجع الرسول (ص) ملح مأرب الذي أقطعه إلى أبيض بن حمال المازني لاشتراك الناس في الملح (٢١٦) .

● لا يجوز اقطاع أرض الخراج لأن رقابها وقف ، وخراجها أجرة ، فتملك الوقف لا يصح باقطاع ولا بيع ولا هبة ، وضرب يكون رقابها ملكاً وخراجها جزية فلا يصح اقطاع ملوك تعين مالكوها (٢١٧) .

● يرى فريق من الفقهاء أن الأرض بمنزلة المال ، فللامام أن يجيز في بيت المال من كان له غناء في الاسلام ، ومن يقوى به على العدو ، ويعمل في ذلك بالذي يرى أنه خير للمسلمين وأصلح لامرهم ، وكذلك الأرضون يقطع الامام منها من أحب الاصناف التي سميت (الصوافي) ، ولا أرى أن يترك أرضا لا ملك لاحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك امر للبلاد وأكثر للخراج (٢١٨) . ويرى الماوردي (٢١٩) أن امر الأرض العامر متروك للسلطان فيه بالخيار على وجه النظر في الاصلح بين أن يستغله لبيت المال كما فعل عمر ، وبين أن يتخير له من ذوي المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته بخراج يوضع عليه مقدر بوفور الاستقلال ونقصه كما فعل عثمان . ويرى الشافعي أن ليس للامام ايقاف الأرض ، وعليه قسمتها الا اذا اتفق المسلمون على ايقافها ورضوا أن لا تقسم (٢٢٠) .

● لما كان الاحياء شكلا من اشكال القطائع ، فالاحياء لا يكون الا بالماء ، كاشتقاق او استخراج عين او احتفار بئر ، او بناء ، او بجعل مسناة للأرض ، او بتجفيف السباخ (المستنقعات) (٢٢١) .

● أن يقوم المقطع اليه بعمارة الأرض ، فاذا امتنع عن عمارتها كان حكمها الى الامام . ويذكر أبو عبيد أن عمر جعل مهلة الاحياء ثلاث سنين (٢٢٢) . وذكر ابن زنجوية قولا لعمر جاء فيه : من كانت له أرض فعطلها ثلاث سنين لا يعمرها ، فعمرها غيره فهو احق بها (٢٢٣) . ويبدو أن عمر قد نفذ ذلك ولم يستثن الا القطائع التي اقطعها الرسول (ص) وقال لاصحابها : لو كانت مني او من أبي بكر لم أرددها ، ولكنها قطعة من رسول الله (ص) (٢٢٤) . وطبق عمر على من يقوم باحياء الاراضي المقطعة بتقويم الأرض عامرة وغامرة ، ويقول لاهل الاصل ان شئتم فردوا عليهم ما بين ذلك ، وخذوا أرضكم ، وان شئتم ردوا عليهم فمن اديم الأرض هي لهم (٢٢٥) . ومن هذا الشرط ايضا أن يكون المقطع اليه قادرا على عمارة الأرض ، واذا لم يكن بمقدوره اخذ منه قسم واقطع للآخرين كما فعل عمر مع بلال بن الحارث المازني في اقطاع العقيق (٢٢٦) .

● تستوفى على القطائع ضرائب كما تستوفى على الاراضي الاخرى . وقد اختلف الفقهاء في هذه الضريبة ، فيرى أبو حنيفة أن البصرة التي احيها المسلمون ، واقطع منها الخلفاء التي لا حق فيها لمسلم ولا معاهد يكون مجرى ما يجبي منهم مجرى مال الخراج (٢٢٧) ، وراي آخر يرى أن القطائع اذا كانت على الخراج ادى عنها الذي اقطعها الخراج ، وان كانت من أرض العشر ادى الذي اقطعها العشر الا اذا غير الامام قطائع الخراج (٢٢٨) . وفي رأي آخر لابي يوسف يرى أن القطائع كالصدقة يؤخذ منها

العشر ، وذلك الى الامام ان رأى ان يصير عليها عشرة فعل ، وان رأى ان يصير عليها عشرين فعل ، وان رآها يصيرها خراجا اذا كانت تشرب من انهار الخراج . . وانما يؤخذ منها العشر لا يلزم صاحب الاقطاع من المؤونة في حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الارضين (٢٢٦) . ويرى الخوارزمي ان القطاع كالارض التي اسلم عليها اهلها ، والتي احيها المسلمون تدفع العشر (٢٣٠) .

(١) Lambton, Landlord and peasant in Persia, London (1953) p. 10.

وانظر : نصر الله ، محمد علي ، تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام ، دار الحدادة للطباعة والنشر ، بيروت (١٩٨٢) ، ص ٦-٧ . سيشار اليه عند وروده ، نصر الله ، ملكية الاراضي .

(٢) فوزي رشيد ، الشرائع القديمة ، دار شيد للنشر ، بغداد (١٩٧٩) ص ١٢٣-١٢٧ .

(٣) جواد علي ، « مصطلحات الزراعة والري في كتابات المستد » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ٦ شوال ١٤٠٥ هـ / حزيران ١٩٨٥ ، م ٢٦ ، ج ٢ ، ص ٩٠ . وانظر : جواد علي ، « اصول الحكم عند العرب الجنوبيين » مجلة المجمع العلمي العراقي ، (نيسان ١٩٨٠) م ٢١ ص ٧٠ .

(٤) عبد العزيز الدوري ، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٩ هـ / ١٩٧٠ ، م ٢٠ ص ٧ وانظر ايضا :

I, Ryckmans, L' Institution monarchique en Arabie Meridionale p. 124, 178 - 182.

(٥) الدوري ، نشأة الاقطاع ، ص ٥ وانظر :

N, Pioulevskaia, Les Villes de l'Etat Iranien , Paris (1963) p. 135-6 .

(٦) كريستن ، ارثر ، ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشان ، ومراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة العربية ، بيروت د.ت ص ٩٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٩٩ .

(٨) البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ) ، فتوح البلدان ، واجمه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) ، ص ٢٩٦ . الطبري ، محمد بن جرير (ت ٢١٠ هـ) تاريخ الرسول والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، (١٩٦٧) ، ج ٢ / ص ٥٠٣ . ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ، دار صادر بيروت ، د.ت . مادة طف .

(٩) ابو البقاء الحلي ، هبة الله (من القرن السادس الهجري) ، المناقب الزيدية في اخبار الملوك الاسدية ، تحقيق صالح دواكتموم محمد خريسات ، مكتبة الرسالة عمان (١٩٨٤) ج ٢ ص ٤٠٥ ، ٤١٠ .

(١٠) البغدادي ، ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) المعبر ، اعتنت بتصحيحه ايلزه ليختن ستير ، الكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت د.ت . ص ٢٥٢ . ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن (ت ٢٢١ هـ) ، الاشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة بيروت ، ط ٢ (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩) ص ٢٥٢ . ابوالبقاء ، المناقب الزيدية ج ٢ ص ٤٠٢ .

- (١١) أبو البقاء ، المناقب الزيدية ، ج ١ ص ١٠٤ .
- (١٢) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ١٩٢ . الأصلهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٢٥٦ هـ) الاغانى ، اعداد لجنة نشر كتاب الاغانى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر . ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ج ٢ ص ١٠٢ .
- (١٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة نجران .
- (١٤) المصدر السابق ، مادة المخرم .
- (١٥) الدوري ، نشأة الاقطاع ص ٦ . وانظر :
- A, Ch. Johnson and C. west Byzantine, Economic Studies , pp.20, 28-29, 48; I. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab conquest, pp. 119-126.
- (١٦) ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) مختصر تاريخ دمشق ج ١ تحقيق روحية النحاس ، دار الفكر دمشق (١٩٨٤) ج ١ ص ٢٢٩ .
- (١٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٥ .
- (١٨) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٤٠ .
- (١٩) الحنبلي ، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب ، الاستخراج لاحكام الخراج ، دار الكتب العلمية / بيروت (١٩٨٥) ص ١٢٥ .
- (٢٠) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، دار صادر بيروت ، د. ت. مادة قطع .
- (٢١) قدامة بن جعفر (ت ما بين ٢٢٨ - ٢٢٧ هـ) ، الخراج وصناعة الكتابة شرح وتعليق محمد حسن الزبيدي ، دار الرشيد للنشر (١٩٨٦) ص ٢١٨ .
- (٢٢) الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٢٨٧ هـ) مفاتيح العلوم ، الطبعة الثرية ، القاهرة (١٢٤٢ هـ) ، ص ٤٠ .
- (٢٣) ياقوت معجم البلدان ج ١ ص ٤٢-٤٣ .
- (٢٤) الخرازمي ، علي بن محمد بن مسعود (ت ٧٨٩ هـ) ، تخریج الدلالات السمعية ، تحقيق احسان عباس ، دار الغرب الاسلامي بيروت (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ص ١٨١-١٨٢ .
- (٢٥) انظر : Lokkegaard , Frede, Islamic Taxation in the classic period, Banner and Korch, Copenhagen (1950) p. 14.
- (٢٦) قدامة ، الخراج ص ٢١٨ . الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٤٠ . الدوري ، نشأة الاقطاع ص ٢٢ .
- (٢٧) المصدر السابق .
- (٢٨) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

- (٢٩) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ) ، الاشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية ، تحقيق محمد حامد ، البابي الحلبي مصر ١٣٥٦ هـ ص ٣٦٩ .
- (٣٠) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٨٤ - ١٨٥ .
- (٣١) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢ هـ) ، الخراج ، تحقيق احسان عباس ، دارالشروق بيروت والقاهرة (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥) ص ١٩٢ - ١٩٤ .
- وانظر : ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) ، الاموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، مكتبة الكليات الازهرية / القاهرة (١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩) ص ٢٢٤ . ابن زنجوية ، حميد (ت ٢٥١ هـ) ، الاموال ، تحقيق شاذلي فياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الرياض (١٩٨٦ / ١٤٠٦) ج ٢ ص ٤٥ .
- (٣٢) ابو يوسف الخراج ، ص ١٩٤ .
- (٣٣) الاصفهاني ، الاغانى (الهيئة المصرية) ج ٢ ص ١٠٢ .
- (٣٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة السوادية .
- (٣٥) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٥ .
- (٣٦) العلي ، صالح ، « ملكيات الاراضي في الحجاز في القرن الاول الهجري » ، مجلة العرب ج ١١ (١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩) ص ٩٦٤ . وانظر ابن عبد البر ، الاستيعاب ج ١ ص ٩٢ .
- (٣٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩٧ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٩ .
- (٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠ .
- (٣٩) انظر : ابن ادم ، يحيى (ت ٢٠٣ هـ) ، الخراج ، صححه وشرحه الشيخ احمد محمد شاكر الطبعة السلفية (١٣٨٤ هـ) ص ٨٢ . ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٦ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٢٧٦ . قدامة ، الخراج ص ٢١٥ .
- (٤٠) العلي ، ملكيات الاراضي ص ٩٦٤ - ٩٦٥ .
- (٤١) الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، منشورات دار اليمامة ، الرياض (١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤) ص ٣٧٦ .
- (٤٢) ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ) ، الطبقات الكبرى ، عني بتصحيحه وطبعه اوجين منوخ ، منشورات مؤسسة النصر ، طهران - ليدن (١٣٢٢ هـ) ج ١ ق ٢ ص ٥٨ .
- (٤٣) ادم ، الخراج ، ص ٩٢ .
- (٤٤) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ٢٩٥ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦١٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٠٢ .
- (٤٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ق ١ ص ٥٤ .
- (٤٦) حمد الجاسر ، القطائع النبوية ٢ ، مجلة العرب ، ج ٢ ص ٨ (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢) ص ١٨٤ .
- (٤٧) ابن سعد ، الطبقات ، ج ١ ق ٢ ص ٤٩ . ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٣٢٤ .
- (٤٨) المصدر السابق ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

- (٥٠) المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٤٦ ويشير ابن سعد الى ان الرسول (ص) الطبع نور بن عروة ولم يذكر مكان الاقطاع .
- (٥١) المصدر السابق ج ١ ق ٢ ص ٥٩ . وانظر:
- ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ت (ما بين ٢١٢-٢١٨ هـ) ، السيرة النبوية بتحقيق مصطفى الشعار وزملائه ، مطبعة البابي الحلبي مصر ط ٢ (١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥) ج ٢ ص ٤٩٧ . الطبري ، تاريخ ج ٣ ص ١٤٥ . الحلبي ، علي بن برهان الدين (ت ١٠٤٤ هـ) ، انسان العيون في سيرة الامين والمامون (السيرة الحلبيية) مكتبة مصطفى البابي الحلبي مصر (١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤) ج ٢ ص ٢٥٧ .
- (٥٢) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٥٦ . ابن زنجوية ج ٢ ص ٢٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٠٢ .
- (٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الشقراء .
- (٥٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٨ .
- (٥٥) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ١٩٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٨٤ .
- (٥٦) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ق ٢ ص ٣٥ .
- (٥٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٢٣٥ .
- (٥٨) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٦ . ابو عبيد الاموال ص ٢٩٨ . ابن زنجوية ج ٢ ص ٧٤٠ . ٧٤١ .
- (٥٩) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ذي الروثة ، بلكة او بلاك . ابن منظور مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٢٤٥ .
- (٦٠) العلي ، ملكيات الاراضي ص ٩٧٢ . وانظر البكري ، معجم ما استعجم ص ٥٧ .
- (٦١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٢٤٥ .
- (٦٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٦ ، ياقوت ، معجم البلدان مادة ترمذ .
- (٦٣) ابن زنجوية الاموال ، ج ٢ ص ٦٢٢ .
- (٦٤) انظر : ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٩٧ . ابن سعد ، الطبقات ج ٧ ق ١ ص ٤٢ . ابن زنجوية الاموال ج ٢ ص ٦٢٨ - ٦٢٩ . ولزيد من التفاصيل عن قطائع الرسول (ص) انظر : حمد الجاسر ، الطائع النبوية ، مجلة العرب ج ١ ص ١ (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣) ص ٩ - ١٠ ، وج ٢ ص ١ (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣) ص ٩٠ - ٩١ ، وج ٣ ص ١ (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣) ص ١٧٧ - ١٩١ ، وج ٦ (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣) ص ٢٥٢ - ٣٦٧ . وانظر ايضا : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي ، والخلافة الراشدة . عون الشريف قاسم ، نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله (ص) ، دار الكتاب اللبناني ط ٢ ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ . والاحمدي ، علي بن حسين علي ، مكاتيب الرسول (ص) ج ١ - ٢ دار عجب بيروت ، د.ت. صالح العلي ، ملكيات الاراضي في الحجاز .
- (٦٥) عون الشريف ، نشأة الدولة الاسلامية ص ٢٧٧ نقلا عن ابي داود ج ٢ ص ٤٩ . ابن الاثير ، اسد الغابة ج ٣ ص ١٤ .

- (٦٦) ابن ادم ، الخراج ص ١٠٧ : ابو عبيد الاموال ص ٢٩٠ ، ٢٩٨ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٨٤ . قدامة ، الخراج ص ٢١٦ .
- (٦٧) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦١٣ - ٦١٤ ، ٦٢٧ . قدامة ، الخراج ص ١٢٦ .
- (٦٨) الشيباني ، محمد بن الحسن (ت ١٨٩ هـ) ، كتاب السير الكبير ، املاء محمد بن احمد السرخسي ، تحقيق عبد العزيز احمد ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، مطبعة شركة الاعلانات الشرقية (١٩٧٢) ج ٢ ص ٦١١ .
- (٦٩) العلي ، ملكيات الاراضي ص ٩٧٢ . وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٩٣ .
- (٧٠) المصدر السابق ص ٩٦٥ .
- (٧١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٢-٢٤ .
- (٧٢) الحلبي ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٥٧ .
- (٧٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .
- (٧٤) ابن سعد ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ١٢٤ . الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٤١٩-٤٢٠ .
- (٧٥) البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ) ، انساب الاشراف ج ١ ق ٢ .
- تحقيق احسان عباس ، بيروت (١٩٧٩ هـ / ١٤٠٠) ج ١ ق ٤ ص ٤٨٢-٤٨٣ .
- (٧٦) البلاذري ، انساب الاشراف (ج ١) تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف مصر (١٩٥٩) ، ج ١ ص ١٦٣ .
- (٧٨) ابن سعد ، الطبقات ج ٢ ص ٧٢-٧٣ .
- (٧٩) ابن سعد ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٨٩ .
- (٨٠) المصدر السابق ج ٢ ق ١ ص ١٧١ .
- (٨١) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٧٦ . ابن سعد ، الطبقات ، ج ٢ ق ١ ص ١٩٥ .
- (٨٢) ابن سعد ، الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٢٨ .
- (٨٣) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٩-٢٩٠ . وعن اقطاع تميم بن اوس انظر : ابن دريد ، الاشتقاق ص ٣٧٧ ، ابن سعد ، الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٧٥ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٢٥ ، ٤١٥ .
- ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦١٧ .
- (٨٤) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦١٦ .
- (٨٥) ابن سعد ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٨٩ .
- (٨٦) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٣ .
- (٨٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٤٤-٢٤٥ .
- (٨٨) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٥ .
- (٨٩) الحلبي ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٧٣ .
- (٩٠) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٨ .

- (٩١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٢٢١-٢٢٢ ، ٢٤٦ .
- (٩٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٤ .
- (٩٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٢٥ .
- (٩٤) اي ما استنفذ من العدو .
- (٩٥) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٢٤٨ .
- (٩٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة المجازة .
- (٩٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٥ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٠٣ .
- (٩٨) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩١ .
- (٩٩) ابن ادم ، الخراج ص ٧٢ . ابن سعد ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٧٢ - ٧٣ . البلاذري فتوح البلدان ص ٢٦ . ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قناة .
- (١٠٠) البلاذري ، انساب الاشراف ج ١ ق ١ ص ١٢٢ .
- (١٠١) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩١ ، ٢٩٨ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٢ .
- (١٠٢) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٤٩ .
- (١٠٣) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٥٨٩ .
- (١٠٤) ابو عبيد ، الاموال ص ١١٢ . ابن زنجوية ، الاموال ج ١ ص ٢٥٣ .
- (١٠٥) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٢ .
- (١٠٦) الازدي ، محمد بن عبد الله (ت نحو ١٦٥ هـ) ، فتوح الشام ، تحقيق عبد النعم عبد الله عامر ، مؤسسة سجل العرب / مصر ١٩٦٩ ص ١٤٠ - ١٤١ .
- (١٠٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٠ .
- (١٠٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٤ . ابو عبيد ، الاموال ص ٨٨-٨٧ . البلاذري فتوح البلدان ص ٢٤٦-٢٤٥ .
- (١٠٩) ابن ادم ، الخراج ص ٥٤ . ابو عبيد ، الاموال ص ١٠٥-١٠١ .
- (١١٠) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٢٢٢ .
- (١١١) انظر ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٣٩ .
- (١١٢) ابن ادم ، الخراج ص ٥٥ . ابو عبيد ، الاموال ص ١١٦ ، ابن زنجوية ، الاموال ١٠ ص ٢٤٢ .
- (١١٣) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٠ .
- (١١٤) ابن ادم ، الخراج ٥٩-٦٠ ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩٩ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٢ .
- الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢١ .

- (١١٥) ابن زنجوية ، الاموال ج ١ ص ٢١٢ .
- (١١٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٧ .
- (١١٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٤٠ .
- (١١٨) ابن سعد ، الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ٤٧ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٤-٦٢٥ .
- (١١٩) ابن دريد ، الاشتقاق ص ٦٠٢ . والجريب ١٥٩٢ م .
- (١٢٠) ابو عبيد ، الاموال ص ١٠٠ ، ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٢ .
- (١٢١) ابو يوسف الخراج ص ١٧٥-١٧٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦ .
- (١٢٢) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٨ . ياقوت ، معجم البلدان ، مادة غنيح .
- (١٢٣) ابن دريد ، الاشتقاق ص ٢٠٢ .
- (١٢٤) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٦ .
- (١٢٥) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٥٨٩ .
- (١٢٦) المصدر السابق .
- (١٢٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٤٠ .
- (١٢٨) ابو عبيد ، الاموال ٢٩٥ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٠٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٠٢ .
- (١٢٩) ابن ادم ، الخراج ص ٢٧ .
- (١٣٠) الزيري ، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦ هـ) ، نسب قريش ، تحقيق ليحيى بروفنسال ، ط ٢ دار المعارف مصر (١٩٧٦) ، ص ٢٠٢ . وكانا يلقبان بالشريد والشريدة .
- (١٣١) ابن سعد ، الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ١٩٧ .
- (١٣٢) انظر من هذه القطائع على سبيل المثال : البلاذري ، فتوح البلدان ١٢٧ ، ٢٧٤ ، ٢٤٧ الطبري تاريخ ج ٢ ص ٢١-٢٢ ، ٤٥ .
- ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٢٢٨ .
- (١٣٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٢ .
- (١٣٤) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٧٥ .
- (١٣٥) انظر : نصر الله ، ملكية الارض ص ١٠٧ .
- (١٣٦) ابن ادم ، الخراج ص ٧٥ وانظر : البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٢ . ابو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله (ت ٣٥٩ هـ) ، الاوائل تحقيق محمد السيد الوكيل ، دار امل طنجة (١٩٦٦) ص ١٤٤-١٤٥ .
- (١٣٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٢٨ .
- (١٣٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٧ .

- (١٣٩) أبو عبيد ، الاموال ص ١٠٢ .
- (١٤٠) المصدر السابق ص ٨٤ ، ٩٩٤ .
- (١٤١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦٨-٢٧٠ .
- (١٤٢) لادن الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢٩ .
- (١٤٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٨٥ .
- (١٤٤) أبو يوسف ، الخراج ص ١٧٢ .
- (١٤٥) أبو عبيد ، الاموال ص ٢٨٢ ، وانظر نصر الله ، ملكية الاراضي ص ٢٥٥ .
- (١٤٦) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٣٣ .
- (١٤٧) أبو عبيد ، الاموال ص ٤٠١ .
- (١٤٨) قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٧ .
- (١٤٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، ٢٥٦ .
- (١٥٠) المصدر السابق .
- (١٥١) ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢١٢ هـ) ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف مصر ط ٢ (١٩٦٩) ص ٢٦٩-٢٦٤ ، ٥٦٤ .
- (١٥٢) ياقوت ، معجم البلدان مادة نهر مطرف .
- (١٥٣) الزيري ، نسب قرش ص ١٤٨ .
- (١٥٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة النباح ، البخفة .
- (١٥٥) ابن قتيبة ، المعارف ص ٣٢١ .
- (١٥٦) ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦ هـ) جمهرة نسب قرش واخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار العربية (٢٨١ هـ) ج ٤ ص ٤٤٥ . الزيري ، نسب قرش ص ٤٠ .
- (١٥٧) ابن خياط ، ابو عمر خليفة (ت حوالي ٢٤٠) ، تحقيق اكرم العمري ، مطبعة النجف (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧) ج ١ ص ١٤٣ .
- (١٥٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٥٤ . ومفيض الماء : مدخل ومجتمع الماء . انظر : الرجبي ، عبد العزيز بن محمد ، الرناج ، تحقيق احمد عبيد الكبيسي ، الدار الوطنية ، بغداد (١٩٧٢) ج ١ ص ٢٩٥ .
- (١٥٩) المصدر السابق ص ٢٨ .
- (١٦٠) قدامة ، الخراج ص ٢١٧ .
- (١٦١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٢٣ .
- (١٦٢) المصدر السابق ص ١٢٤ - ١٢٥ .
- (١٦٣) انظر : قدامة ، الخراج ص ٢٩٨ . الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢٠ .

- (١٦٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٢٤ .
- (١٦٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة المازحين .
- (١٦٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠٠-٢٠١ . قدامة ، الخراج ص ٢٢٥ .
- (١٦٧) المصدر السابق ص ٢٤ - ٢٥ .
- (١٦٨) المصدر السابق ص ١٥٨ .
- (١٦٩) نصر الله ، ملكية الاراضي ص ١١٦ .
- (١٧٠) ابن قتيبة المعارف ص ١٢٨ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٥٤ ، انساب الاشراف ج ١ ص ٥٢٨ .
- (١٧١) البلاذري ، انساب الاشراف ج ١ ص ٥٤٧ .
- (١٧٢) المصدر السابق ص ٥٨٠ .
- (١٧٣) المصدر السابق ج ١ ص ٤٤ .
- (١٧٤) ابن قتيبة ، المعارف ص ١٨٩ .
- (١٧٥) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٢٨٠ .
- (١٧٦) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٥-٦٣٦ .
- (١٧٧) ابن الاثير ، ابو بكر محمد بن عبد الله (ت ٦٥٣) الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت (١٢٩٩هـ/ ١٩٧٩) ج ٢ ص ١٠٩ .
- (١٧٨) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٥ - ٦٣٦ الطبري تاريخ ج ٤ ص ٢٨٠ .
- (١٧٩) المصدر السابق .
- (١٨٠) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٢٨٠ .
- (١٨١) ياقوت معجم البلدان ، مادة شاستج .
- (١٨٢) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٥-٦٣٦ .
- (١٨٣) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٢٨٠ .
- (١٨٤) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩٢ .
- (١٨٥) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٥٨٩ .
- (١٨٦) الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢٢ .
- (١٨٧) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٦ .
- (١٨٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٢ - ٢٧٣ . وانظر : ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٦-١٧٧ .
- (١٨٩) ابو عبيد الاموال ص ٤٠٠ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٣ .
- (١٩٠) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٢٤٨ .

- (١٩١) أبو عبيد ، الاموال ص ١٢١ .
- (١٩٢) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢١ .
- (١٩٣) قدامة ، الخراج ص ٢١٧ .
- (١٩٤) الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢١ .
- (١٩٥) أبو هلال العسكري ، الاوائل ص ١٤٥ . ولذا خطا المحقق بالتشاسيح وكتبها التاسيح وقال لعزها التماسيح .
- (١٩٦) المصدر السابق .
- (١٩٧) أبو عبيد ، الاموال ص ٣٩٩ .
- (١٩٨) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٢٨١ .
- (١٩٩) ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) (منسوب اليه) تحقيق له محمد الزين ، مؤسسة الحلبي ، القاهرة (١٩٦٧) ج ١ ص ٣٥ .
- (٢٠٠) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٥٨٩ .
- (٢٠١) ابن سعد ، الطبقات ج ٢ ق ١ ص ٩٦٠ .
- (٢٠٢) اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب بن جعفر (ت ٢٥٩هـ) تاريخ ، قدم له محمد صادق بختي العلوم المكتبة الحيدرية النجف (١٢٨٤ هـ / ١٩٦٤) ج ١ ص ٢٥ .
- (٢٠٣) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٤٠ .
- (٢٠٤) نصر الله ، ملكية الاراضي ص ١٢٧ . نقلها عن نهج البلاغة ج ١ ص ١٥٠ .
- (٢٠٥) ابن آدم ، الخراج ص ٤٥ .
- (٢٠٦) أبو عبيد ، الاموال ص ١١٤ .
- (٢٠٧) أبو يوسف ، الخراج ص ١٢٢ . ابن آدم ، الخراج ص ٤٥ .
- (٢٠٨) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ٥٨٩ .
- (٢٠٩) السمرقندي ، علاء الدين (ت ٥٢٩هـ) ، تحفة الفقهاء حققه محمد زكي عبد الله ، مطبعة جامعة دمشق (١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م) ج ٢ ص ٥٥٢-٥٥٣ .
- (٢١٠) ابن سعد ، الطبقات ج ١ ق ٢ ص ٥٨ .
- (٢١١) أبو يوسف ، الخراج ص ٢٢٤ .
- (٢١٢) انظر : أبو عبيد ، الاموال ص ٣٩٤ . ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٢٧ ، قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢٠٤ .
- (٢١٣) ابن آدم ، الخراج ص ٥٧ . الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢٢ .
- (٢١٤) العصني ، علي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني (من القرن التاسع الهجري) ، نظاير الاخبار في حل غاية الاختصار ، دار الايمان ، د.ت. ج ١ ص ٢١٦ .

- (٢١٥) انظر : ابو عبيد ، الاموال ص ٩٩ ، ٢٩٤، ٢٨٦ . قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٦ ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .
- (٢١٦) انظر : ان ادم ، الخراج ص ١٠٧ . ابو عبيد الاموال ص ٩٠ . ابن زنجوية ج ٢ ص ٦٢٠ . قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٦ . المارودي الاحكام السلطانية ، ص ١٩٧ . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .
- (٢١٧) المارودي ، الاحكام السلطانية ص ١٩٢ .
- (٢١٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٤ .
- (٢١٩) المارودي ، الاحكام السلطانية ص ١٩٢-١٩٣ .
- (٢٢٠) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٢٨ .
- (٢٢١) انظر : ابو عبيد ، الاموال ص ٤١٠ . السمرقندي ، تحفة الفقهاء ج ٢ ص ٥٥٢ .
- (٢٢٢) ابو عبيد ، الاموال ص ٤٠٧ .
- (٢٢٣) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٤٤ . وانظر المارودي ، الاحكام السلطانية ص ١٩١ . الموصلي ، عبد الله بن محمود بن مودود ، الاختبار لتعليل المختار ، دار المعرفة بيروت (١٢٩٥هـ / ١٩٧٥ م) ج ٢ ص ٦٧ .
- (٢٢٤) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٥ .
- (٢٢٥) ابن زنجوية ، الاموال ج ٢ ص ٦٤٣ - ٦٤٤ .
- (٢٢٦) انظر : ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٢ . الزمخشري ، الفائق ج ١ ص ٢٤٠ . عون، تشاة الدولة الاسلامية ص ٢٥٦ .
- (٢٢٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٨٥ .
- (٢٢٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٢ .
- (٢٢٩) الصدر السابق ص ١٧١ .
- (٢٣٠) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٣٩ .

يُخَدُون - لِمَ مَلِكُ مَارِي

(وليقة تأسس معبد اله الشمس (شماش) في ماري)

د. عيسى مرعي
جامعة دمشق

أسفرت الحفريات الأثرية التي بدأت منذ عام ١٩٣٣ ، بإشراف عالم الآثار الفرنسي أندريه بارو André parrot في موقع تل حريري الحالي (على الضفة اليمنى لنهر الفرات الأوسط وعلى بعد ٩ كم شمال غرب البوكمال) عن اكتشاف مدينة قديمة كانت تقوم في موقع هذا التل تدعى ماري Mari ، وكان من أهم المكتشفات في ذلك الموقع الارشيف الملكي الذي يضم نحو خمسة وعشرين ألفاً من الرقم الطينية كتبت بالخط المسماري وباللهجة البابلية القديمة ، أشرف على تبويبها وتصنيفها وترجمة عدد كبير منها الأستاذ جورج دوسان G.Dossin . ومن هذا الارشيف نعرف أن أسرة أمورية قد وصلت إلى الحكم في مدينة ماري في بداية الألف الثاني قبل الميلاد .

وكان الأموريون قد بدأوا بالدخول إلى بلاد ما بين النهرين في الألف الثالث قبل الميلاد . ويظهرون في الوثائق السومرية تحت اسم مارتو Martu وفي الوثائق الأكادية تحت اسم أموروم Amurru . وهذه التسمية ليست تسمية عرقية بل جغرافية وتعني الغرب ، وتدل على الجهة التي قدمت منها هذه الجماعات البشرية ، أي بادية الشام .

ويذكر شار كالي شاري الملك الأكادي (٢٢٢٢-٢١١٨ ق.م) بأنه أحرز نصراً على الأموريين في جبل باسار Basar (جبل بشرى حالياً) . كذلك يرد ذكر العديد من الأموريين في وثائق مملكة أور الثالثة . وفي بدايات الألف الثاني قبل الميلاد وصلت سلالات أمورية إلى الحكم في بابل ، وماري ، وآشور ، وحلب وقطنة (١) . الخ ،

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ - ايلول - كانون الأول ١٩٨٧ .

وأول ملك معروف لدينا من الاسرة الامورية التي حكمت في ماري هو يجيد - ليم yaggid-lim، وقد دخل في صراع مع حاكم آموري آخر كان يحكم في تيرقا Terqa (تل عشاره حاليا) الى الشمال من ماري ويدعي إل-كبكابو Ilakabkabu، وتمكن من ضرده من تلك المنطقة وضم مملكته اليه .

خلف يجيد - ليم على عرش ماري ابنه يخدون - ليم . ومعلوماتنا عن هذا الملك الذي حكم في أواخر القرن ١٩ ق.م أفضل منها عن والده . فتاريخ إحدى سنوات حكمه يذكر بأنه أحرز نصرا على مدينة إيمار (مسكنة حاليا) الواقعة على الفرات الأوسط الى الشمال من مملكته (٢)، وهذا يعني أن نفوذه امتد الى تلك الأماكن، كذلك كان له حلفاء أو تابعون في تلك المنطقة .

أحد هؤلاء التابعين وهو أبي - سامار Abi-Samar كتب اليه رسالتين يستنجد به فيهما ضد أعداءه الذين كانوا يهددون مملكته من كل جانب (ملوك آشور وكركميش وأورشوم وخاشوم ويمحاض) (٣) .

حكم يخدون - ليم نحو ثماني سنوات (٤)، سقط في نهايتها صريع مؤامرة حيكمت خيوطها في قصره .. من المحتمل أن يكون شمشي - أدد بن إل - كبكابو ، الذي طرد سابقا من منطقة تيرقا مع أسرته وتمكن من الاستيلاء على السلطة في آشور وبدأ ببناء دولة قوية ، وراء هذه المؤامرة . لذلك نراه يحتل ماري بعد مقتل يخدون - ليم .

من أهم مخلفات يخدون - ليم وثيقة كتبت على لوح طيني مربع الشكل تقريبا (٤١ x ٤٠ x ٧ سم) على عدة أعمدة . وقد عثر النقبون عام ١٩٥٣ في أساسات معبد الإله شماش اله الشمس في ماري على تسعة ألواح طينية في كل منها نص هذه الوثيقة بالخط المسماري واللهجة البابلية القديمة (أحدها محفوظ في المتحف الوطني بدمشق) . وكانت هذه الألواح التسعة قد وضعت في أساسات معبد الإله شماش لأجيال اللاحقة بأعمال هذا الملك .

تعرف الوثيقة حاليا بوثيقة التأسيس لأنها كتبت بمناسبة بناء معبد لاله الشمس شماش في ماري، وتذكر النقاط التالية :

- ١ - تعظيم الإله شماش الذي بني المعبد له .
- ٢ - أعمال يخدون - ليم العمرانية في مملكته .
- ٣ - قيام يخدون - ليم بحملة عسكرية الى شواطئ البحر المتوسط .
- ٤ - الاشتباك مع ثلاثة ملوك على الفرات الأوسط والانتصار عليهم .

- ٥ - تدمير مدينة خامات قاعدة اتصاف البدو الخائين ؛ وكانوا يشكلون مجموعة بدوية كبيرة في منطقة الفرات الاوسط .
- ٦ - القيام بالاعمال اللازمة على شاطئ الفرات .
- ٧ - بناء معبد للاله شماش وتسميته « معبد بهاء السماء والارض » .
- ٨ - الختام باللعنات على كل من يسيء للمعبد ، ويمحو نص الوثيقة أو يشوهه .

كان لحملة يخدون-ليم الى شواطئ المتوسط دوافعها السياسية والاقتصادية، فقد كان يعتقد ان بإمكانه السيطرة على سورية او على اجزاء منها وفرض الجزية الدائمة عليها . كذلك فان يخدون - ليم كان ينشد الشهرة من وراء زحفه الى شواطئ المتوسط مقلداً بذلك شاروكين (صارجون) الاكادي الذي كان اول من سار بجيشه من بلاد الرافدين الى شواطئ البحر الاعلى ، اي البحر المتوسط^(٥) . ونرى هذا التقليد لدى العاهل الاشوري شمشي - ادد الذي يدعي في احدى كتاباته بأنه قاد حملة مظفرة الى ارض لابان Laban (المعتقد أنها لبنان) على شاطئ البحر الكبير واقام هناك نصبا تذكاريًا .

بيد ان يخدون - ليم فشل في تحقيق اهدافه السياسية ، ولم يستطع السيطرة على سورية او اجزاء منها ، فما ان انسحبت جيوشه من هناك حتى تلاشى كل نفوذ لمملكة ماري في تلك المنطقة^(٦) .

اما الدوافع الاقتصادية لحملة يخدون - ليم الى شواطئ المتوسط فكانت الحصول على اخشاب الاشجار الابرية ، كالارز والسرو والصنوبر، اللازمة لبناء المعابد والقصور وغيرها . وكانت جبال الاماتوس والجبال الساحلية غنية جدا بتلك الاشجار التي كانت اخشابها تستخدم في بلاد الرافدين ووادي النيل ، خلال الفترات التاريخية المختلفة ، في بناء السفن والمعابد والقصور . ولعل من اهم هذه الاوابد المعمارية معبد الاله الشمس ، شماش .

وشماش هو اله الشمس عند الاكاديين والبابليين والاشوريين . وبما انه يرى كل شيء فانه ملك الحق والعدالة ، وكان رمزُه في بلاد بابل قرص الشمس مع نجمة رباعية تخرج منها اشعة ، وفي آشور قرص الشمس مع اجنحة، وكانت اهم مراكز عبادة شماش في بلاد الرافدين مدينتي لارسا وسيبار . وعلى مسلة قوانين حمورابي يصور شماش ملكا يجلس على العرش ويقدم لحمورابي بيده اليمنى القضيب والخاتم رمزا للحق والعدالة .

وفيما يلي النص الاكادي لوثيقة التأسيس مكتوبا بالحرف العربي مع ترجمة وشرح له^(٧) .

العمود الاول :

١ - انا (د) شماش (أ) شار شامي-ي	١ - الى شماش ملك السماء
٢ - او إر-صي-تي-يم	٢ - والارض
٣ - شلبي-بط إلى أو اوي-لوتيم	٣ - قاضي الالهة والبشرية ،
٤ - شامي-شي-رووم إسي-يق	٤ - الذي العدالة قدره ،
٥ - كي-فالتوم انا شي-ري-يك-تي-يم	٥ - الحقيقة كهديّة
٦ - شار-كل-شوموم	٦ - تهدي له .
٧ - ري-ي صال-سمات قابدي-يم	٧ - راعي (ذوي) الرؤوس السوداء
٨ - إليم شو-بي-يم	٨ - الاله الساطع ،
٩ - دايان شاك-ي-ين ناي-يش	٩ - قاضي الكائن الحي ،
١٠ - ماجي-ير تي-يص-لي-تي-يم	١٠ - المصني للصلاة ،
١١ - شي-مي إك-ري-بي	١١ - السامع للدعاء ،
١٢ - لي-قي أون-ني-ني-يم	١٢ - المستقبل للرجاء ،
١٣ - نلدي-ين بال-لاط طوب	١٣ - المعطي حياة وفرح لب
١٤ - شا أومي ار-كو-تي-يم	١٤ - على مدى الدهر
١٥ - انا بال-لي-خي-شو	١٥ - الى عباده ،
١٦ - شا ماري (كي) (٩) بي-لي-شو	١٦ - الذي هو سيد ماري .
١٧ - يلاخ-دون-لي-يم	١٧ - يخدون-ليم
١٨ - مار يك-جي-يل-لي-يم	١٨ - ابن يجيل-ليم
١٩ - شار ماري (كي) أو مات خانا	١٩ - ملك ماري وارض خانا (١٠) ،
٢٠ - بي-يت نار-ايم	٢٠ - الحافر للأتنية ،
٢١ - إسي-يش دور-ي	٢١ - الباني للأسوار ،
٢٢ - موري-تي نلدي-ي ناي	٢٢ - المقيم للاتصاب باسمه ،
٢٣ - شاك-ي-ين نو-وخ-شي-يم	٢٣ - الواضع الغنى
٢٤ - او خي-جال-ليم انا ني-شي-شو	٢٤ - والرفاه لرعيته ،
٢٥ - مو-شا-أبد-شي مي-يم-ما	٢٥ - الجالب كل شي
٢٦ - انا ما-تي-شو	٢٦ - الى بلده ،
٢٧ - شار-وم دان-نوم-إط-لوم	٢٧ - الملك القوي ، البطل العظيم .
٢٨ - إنو-ما (د) شماش تي-يص-لي-سو	٢٨ - عندما أصفى شماش
٢٩ - أم-جور-وشو	٢٩ - (الى) صلاته
٣٠ - أو-قي-بي-سو إش-مو-و	٣٠ - وسمع قوله

- ٣١- (د) شماش يـاـخـدوونـليـيم
 ٣٢- اودااسما
 ٣٣- انا اـرـديـشو اـلـليـيكـما
 ٣٤- شا اشرـتو اـووم صـاـت
 ٣٥- اـلام مـاري (كي) اـلوم اـبـنوـو
 ٣٦- شاروم مـاـمان وـاـشـيـب مـاري (كي)
 ٣٧- تـيـاـ اـمـتاـم لا اـكـشودو
 ٣٨- شادي ايرينيم او تاسكارينيم
 ٣١- ذهب شماش الى يخذون - ليم
 ٣٢- مسرعا
 ٣٣- في الوقوف الى جانبه .
 ٣٤- منذ الايام الغابرة
 ٣٥- عندما بنى الاله ماري (١١)
 ٣٦- ما من ملك مقيم في ماري
 ٣٧- وصل البحر (١٢)
 ٣٨- وفتح جبال الارز والبقس ،

العمود الثاني :

- ١ - شادي رابوتيم لا اـكـشودو
 ٢ - او اـصـيـشونو لا اـكـيـسو
 ٣ - يـاـخـدوونـليـيم
 ٤ - مار يـاـجـيـيلـيـيم
 ٥ - شاروم جااشرـوم ريـيم
 ٦ - انا اـلـليـاوتـيم
 ٧ - او جاـميـروـتـيم
 ٨ - انا كيـشاد تـيـاـمـتـيم
 ٩ - اـلـليـيكـما
 ١٠- انا اـاـابـبا (تلفظ ayabba)
 ١١- رابيـاـم اـقـتي
 ١٢- او صـابوـشو انا كيـريـيب
 ١٣- ميـي اـرموسوك
 ١٤- انا شادي ايرينيم او تاسكارينيم
 ١٥- شادي رابوتيم اـروومـما
 ١٦- تاسكارينام ايرينام شورمينام
 ١٧- او اـلامـمـكـاـم
 ١٨- اـصـي اـنـنوـتـيـين اـكـيـيس
 ١٩- خـاموـصـاـم اـخـموسـما
 ٢٠- شومـيـشو اشرـتاـكـلان
 ٢١- او ليـوسو اوويـدي
 ٢٢- مـاـتاـم شـاـي شـاـكـيـشاد
 ١ - الجبال العالية (١٢)
 ٢ - وقطع اخشابها .
 ٣ - يخذون - ليم
 ٤ - ابن يجيـلـيم
 ٥ - الملك القوي ، الثور البري (بين)
 ٦+٩- ذهب ببراعة
 ٧ - وقرة
 ٨ - الى شاطئ البحر ،
 ١٠- ل (اله) المحيط ضحي ضحاياه
 ١١- الملكية الكبيرة
 ١٢- وجنوده في وسط المحيط
 ١٣- استحموا .
 ١٤- في جبال الارز والبقس ،
 ١٥- الجبال العالية دخل هو ،
 ١٦- البقس والارز والسرو
 ١٧- والصنل (١٤)
 ١٨- هذه الاشجار هو قطعها .
 ١٩- هو اكتسح كل شيء
 ٢٠- وشهر اسمه
 ٢١- وجعل قوته معروفة .
 ٢٢- هذه الارض على شاطئ المحيط

<p>٢٣ - اخضعها ٢٤ - ووضعها تحت أوامره ، ٢٥ - وجعلها تسير خلفه ، ٢٦ - جزية دائمة</p>	<p>أبأبأ ٢٣ - أو - كان - نيش ٢٤ - أنا - ييم - أو - شي - شي - ييب - شي ٢٥ - وأر - كي - شو - أو - شار - لي - يك - شي ٢٦ - بي - يل - تام - كل - بان - تام</p>
المعمود الثالث :	
<p>١ - فرض عليها ٢ - وجزيتها جلبتها له . ٣ - في هذه السنة ٤ - لأوم ملك ساماتوم (١٥) ٥ - وأرض أوبرابوم (١٦) ٦ - باخلو - كو ليم ملك توتول (١٧) ٧ - وأرض أماتوم (١٨) ، ٨ - أبالوم ملك أباتوم (١٩) ٩ - وأرض رابوم (٢٠) ، ١٠ - هؤلاء الملوك (٢١) ١١ - هاجموا (هاجموا) يخدون - ليم ، ١٢ - لمساعدتهم ١٣ + ١٥ - جاءت فرق سومو - يبوخ (٢٢) ١٤ - (حاكم) بلاد يحاض . ١٦ - في مدينة ساماتوم ١٧ - تجمعت (هذه) الجماعات ١٨ - كلها ضده ١٩ - (ولكن) بسلاح (٤) القوي ٢٠ - أسر هؤلاء الملوك الثلاثة ٢١ - (ملوك هذه) الجماعات ، ٢٢ - قتل فرقهم وفرقهم المساعدة ٢٣ - والحق بهم الهزيمة ، ٢٤ - (و) عمل كومة من جثثهم ،</p>	<p>١ - إ - مي - سو - نو - تي - ما ٢ - أو - بي - لا - سو - نو - نا - شو - ني - يش - شو ٣ - أنا - شار - ات - تيم - ما - شار - تي ٤ - لا - أوم - شار - سامانيم (كي) ٥ - أو - مات - أبراسي - ييم ٦ - باخ - لو - كو - لي - ييم - شار - تو - تو - ول (كي) ٧ - أو - مات - أم - تل - ني - ييم ٨ - أنا - لوم - شار - أبات - تيم (كي) ٩ - أو - مات - راب - بي - ييم ١٠ - شار - و - أن - نو - تو - نو - ١١ - إ - كي - رو - شو - ما ١٢ - أنا - تي - لو - تي - شو - نو ١٣ - صاب - سو - مو - يبو - وخ ١٤ - شار - مات - يام - خاد (كي) ١٥ - إ - لي - كلام - ما ١٦ - أنا - لي - ييم - سامانيم (كي) ١٧ - أوم - مات - تور - مي - ييم ١٨ - إ - ش - تي - ني - ييش - إ - بو - خوروت - شوم - ما ١٩ - أنا - كالك - كي - ييم - دان - نيم ٢٠ - ٣ (شالات) شار - تي - أن - نو - تي - ين ٢١ - شار - تور - مي - ييم - إ - كي - مي ٢٢ - صاب - شو - نو - أو - صاب - تي - لا - تي - شو - نو - إدو - وك ٢٣ - داوي - دا - شو - نو - إم - خا - ص ٢٤ - جورو - نو - شال - مل - تي - شو - نو - إ - ش - كو - نو - نو -</p>

٢٥- دودا-ني-شونو-اق-قوور-ما	٢٥- وقوض اسوارهم
٢٦- انا-تي-لي-او-كا-ار-مي	٢٦- وحولها الى تلال
٢٧- ايش-كون-شونو-تي	٢٧- وارض جرداء .
٢٨- الام-خلمان- (كي)	٢٨- مدينة خامان (٢٢)
اوم-معات-خانا	(و) قبيلة خانا
٢٩- شا-ابوو-خانا-كالو-شونو	٢٩- وكل مابناه شيوخ خانا
٣٠- اق-قوور-شوما	٣٠- دمره هو
العمود الرابع	
١- انا-تي-لي-او-كار-مي	١- وحوله الى تلال وارض جرداء .
٢- او-شار-را-شو-كال-صور-ي	٢- واسر ملكها كاصوري-خلا (ملك
٣- ماسو-نو-اتن-بال	مدينة خامان) ،
٤- او-كي-شاد-پورا-تيم-اج-مو-	٣- واخذ معه (سكان) بلاده .
ورما	٤- واتم شواطىء الفرات (بناء وبحسينا)
٥- انا-بالا-طي-شو-بيت (د) شماش	٥- لاجل حياته بنى معبدا للاله شماش
بي-لي-شو	سيده ،
٦- بيتام-شا-إبي-يش-تام-شو-	٦- معبدا بناء واتمه
وكلو-لوما	
٧- اوم-مي-نو-تام-قوت-تو-	٧- واكمل تزيينه
٨- سي-معات-إلو-تي-شو-إبو-	٨- وعمل فيه ما يخص الهته .
وس-سوم-ما	
٩- انا-شوپا-سيت-رابو-تي-شو	٩- في مكانه الكبير
١٠- اون-شي-شي-يب-شو-شوم	١٠- جعله يجلس (اي شماش) (و) سمي
بيتيم-شلتو	هذا المعبد
١١- إي-جي-ير-زالا-ان-كي-إبي	١١- إيجير زالا انكي (٢٤)
١٢- بيتوم-كب-شي-لا-ات-شام-مي-ي	١٢- معبد بهاء السماء
١٣- او-ار-مي-تيم	١٣- والارض .
١٤- (د) شماش-واشي-يب-بي-تيم	١٤+٢٣- ليهب شماش ساكن هذا
شاتو	المعبد
١٥- انا-يالاخ-دون-لي-بم-باني	١٥- الى يخدون-ليم-باني معبده ،
بي-تي-شو	
١٦- شار-ري-بم-نار-ام-لي-بني-شو	١٦- الملك محبوب قلبه ،
١٧- كالا-ك-كام-دان-نام	١٧- سلاحا قويا
١٨- كال-شي-يد-اي-باني	١٨- ساحقا للاعداء ،
١٩- بلا-ام-ار-كام	١٩- حكما طويلا ،

٢٠ - سرور القلب ،	٢٠ - شا طوبوب لي بي-ليم
٢١ - وسنوات فيض وابتهاج	٢١ - او شانات خيجاليم ري-شا-
٢٢ - الى الابد .	٢٢ - انا او-مي دارو-تيم
٢٤ - من يخرّب	٢٣ - لي-يش-رو-وك-شوم
٢٥ - هذا البيت ،	٢٤ - شا بي-تلام شاتو
٢٦ - (ومن) بنية سيئة	٢٥ - او-شال-بالتو
٢٧ - وغير طيبة يقترب منه ،	٢٦ - انا لي-مو-وت-تيم
٢٨ - (ومن) لا يدعم اساساته	٢٧ - او لا دا-مي-يق-تيم -كو-پو-
٢٩ - ولا يثني المتهدم منه ،	شوم
٣٠ - (ومن) يطل تقدمات	٢٨ - اسورا-شو لا او-دان-لنو
	٢٩ - ملاق-توسو لا او-ش-زانزو
	٣٠ - او ني-ان-دا-بلام
	العمود الخامس
١ - الخبز ،	١ - ا-بارا-سو-شوم
٢ - (من) يمحو اسمي المكتوب	٢ - شو-مي شا-اطرام
٣ - او يجعله ينمحي	٣ - ا-با-شي-طو
٤ - ويكتب اسمه غير المكتوب	٤ - او او-شاب-شاطو
٥ - او يجعله يكتب	٥ - شوم-شو لا شا-اطرام
٦ - او بسبب اللعنة	٦ - ا-شا-طارو
٧ - يجعل (انسانا) اخر يقوم بذلك	٧ - او او-شاش-طارو
٨ - اكان ذلك الانسان ملكا ،	٨ - او او-شوم-إري-تيم
٩ - او حاكما ،	٩ - شا-ني-ام او-شا-خازو
١٠ - او عمدة ،	١٠ - او-ي-لوم شومو لو شار-روم
١١ - او أي انسان اخر	١١ - لو شا-كانا-كوم
١٢ - هذا الانسان ليجعل	١٢ - لو را-بي-ان-نوم
١٣ - انليل (٢٥) قاضي الالهة	١٣ - لو او-ي-لوم شوم - شا
١٤ - مملكته صغيرة	١٤ - او-ي-لام شاتو
١٥ - بين كل الملوك ،	١٥ - (د) ان-ليل شا-بي-يط -لي
١٦ - سين (٢١) الاخ الكبير	١٦ - شار-رو-سو لي-علطي
١٧ - بين اخوته الالهة	١٧ - انا كال شار-ري
١٨ - لعنة كبيرة	١٨ - (د) سين اخوم را-بو-وم
١٩ - ليلعنه	١٩ - انا لي اخ-خي-شو
٢٠ - فيرجال (٢٧) سيد السلاح	٢٠ - إري-تلام را-بي-تام
	٢١ - لي-رو-ور-شو
	٢٢ - (د) ني-يري-جال بي-يل
	كالك-كي-ليم

- | | |
|----------------------------------|--------------------------------|
| ٢١- ليحطم سلاحه | ٢١- كالك-كاشو لي-يش-بي-يرما |
| ٢٢- والا يستقبله مع الاموات ، | ٢٢- مو-تي اي-يم-خو-ور |
| ٢٣- ليعمل بيت القضاء (القدر) | ٢٣- بيتوم اشار شي-يم-تيم |
| ٢٤- قدره سيئا . | ٢٤- شي-يم-تل-شو لي-لي-مي-ين |
| ٢٥- لتجعل الالهة ايا(٢٨) الكنة ، | ٢٥- ايلات انا كالا-توم |
| ٢٦- السيدة العظيمة | ٢٦- بي-يل-توم را-بي-توم |
| ٢٧- اموره سيئة | ٢٧- لو مو-لي-مي-نلات اوا-تي-شو |
| ٢٨- امام شماش الى الابد . | ٢٨- انا ما-خار (د) شماش انا |
| | داري-اتيم |
| ٢٩- بوتيني وزير شماش الكبير | ٢٩- (د) بو-ني-ني شو-كال |
| | (د) شماش را-بو-وم |
| ٣٠- ليقص حياته | ٣٠- نا-بي-يش-تل-شو لي-بي-ي-يس |
| ٣١- (و) ليبيد ذريته . | ٣١- زي-را-شو لي-يل-قو-وطما |
| ٣٢- احفاده واسمه | ٣٢- بي-ري-يخ-شو او شو-شو |
| ٣٣- لن يمثلوا امام شماش | ٣٣- انا ما-خار (د) شماش |
| | اي-تا-لاك |

* * *

- (١) حول الاموريين انظر :
J.R. Kupper. Les nomades en Mésopotamie au temps des rois de Mari, Paris 1957, P.149ff.; G. Buccellati , The Amorites of The Ur III Period, Neapel 1966.
- (٢) G. Dossin, Studia Mariana, Leiden 1950 , p. 52 Nr. 4.
- (٣) Archives Royales de Mari I, Paris 1950, 1, 2.
- (٤) W.V. Soden, Das altbabylonische Briefarchiv von Mari, in: Die welt des Orients 1 (1,47-52); S. 191; G. Dossion, «Les Archives économiques de de Palais de Mari», in: Syria 20 (1939), p. 105.
- (٥) D.O. Edzard, Fischer weltgeschichte 2, Frankfurt a.M. und Hamburg 1965, S.178; H. Klengel, Geschichte Syriens in 2. Jahrtausend V.U. Z., Teil 3, Berlin 1970, S.138ff; ders Geschichte und Kultur Altsyriens, wien - München 1980, S.50.
- (٦) H. Zlengel. Geschichte Syriens III, S 138 ff .; ders : Geschichte und Kultur Altsyriens, S. 50.
- (٧) نشر الأستاذ جورج دوسان وثيقة التأسيس هذه لأول مرة عام ١٩٥٥ (بالفرنسية) انظر :
G. Dossin, « L' Inscription de Fondation de Iahdun - Lim . Roi de Mari» , in : Syria, 32 (1955), P.1-28.
- (٨) (د) شماش : الدال الموجودة قبل الاسم هي اختصار للكلمة dingir السومرية التي تعني اله .
ووجودها قبل الاسم يعني ان صاحب الاسم اله او الهة . الهلاكادية ilum انظر حول شماش :
H. Ringgren, Die Religionen des Alten Orientes, Gottingen 1979, S. 121 ff.; D.O. Edzard, in Wörterbuch der Mythologie, Band I, Gotter und Mythen in Vorderen Orient, Stuttgart 1965, S. 126.
- (٩) Ki : تأتي في اخر اسماء الاماكن والبلدان .
- (١٠) ارض خانا هي المنطقة التي استقر فيها اتصاف البدو الخانيون على الفرات الاوسط لسميت باسمهم . انظر :
- B. Groneberg, Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes Band 3, Wiesbaden 1980, S.88 ff .; Kupper, Les nomdes. P. 1 ff.; H. Klengel, Zwischen zelt und Palast, Leipzig - Wien 1972, S. 55 ff.
- (١١) تأسس المدن وبنائها كان في اعتقاد سكان بلاد ما بين النهرين عمل الهى . تلاحظ ذلك في اسطورة ايتانا .

- (١٢) المقصود البحر المتوسط .
- (١٣) المقصود بذلك جبال الاماتوس التي كانت غنية بالاشجار الابرية كالارز والصنوبر والسرو، ويذكرها شاروكين الاكادي تحت اسم ((غابة الارز))، وحفيده نارام - سين يذكرها ايضا . ويتحدث جوديا حاكم مدينة لاجاس السومري (٢١٤٣-٢١٢٤) في كتاباته بأنه جلب من هناك اخشاب الارز والبقس . كذلك يرد ذكر جبال الاماتوس في وثائق عديدة اخرى . انظر :
- A. Mari, Der Handel Zwischen Syrien und Babylonien in achtzehnten Jahrhundert, wüzburg 1985, S. 70.
- (١٤) الاماكوم elammakku(m) معنى هذه الكلمة لا يزال غير واضح البعض يعتقد انها تدل على خشب الصندل ، في حين يترجمها فون زودن (خشب بناء ثمين من سورية) . انظر :
- W. Von Soden, Akkadisches Handwörterbuch, S. 96.b.
- (١٥) سامانوم Samanum كانت تقع في وادي الفرات الى الشمال من ماري في منطقة تيرنا انظر : B. Groneberg, RGTC 3 (1980), S.201; Klengel, Zwischen, Zelt und Palast, S.55.
- (١٦) ارض اوبرابوم Ubrabum هي المنطقة التي سكن فيها البدو الاوبرايون ، وكانوا فرما من البينيامينيين وقد سكنوا في منطقة تيرنا حول مدينة سامانوم . انظر :
- Groneberg, RGTC 3 (1980) , S. 244; Klengel, Zwischen Zelt und Palast, S. 56; Kupper, Les nomades, P. 49 ff.
- توجد عدة اماكن في بلاد الرافدين بهذا الاسم . توتول Tuttul التي يرد ذكرها في نصوص ماري تقع قرب مصب نهر البليخ . انظر :
- Groneberg, RGTC 3. S, 242; E. Strommenger, Tall Bia bei Raqqa , in: Mitteilungen der Deutschen Orient- Gesellschaft 109 (1977), S,5 ff.
- (١٨) امنانوم Amnanum هي المنطقة التي سكنها البدو الامنانيون الذين كانوا احد فروع البينيامينيين وسميت باسمهم ، وتقع في منطقة توتول على نهر البليخ . انظر :
- Kupper, Les nomades, P. 49ff.; RGTC3, S. 14; Klengel, Zwischen Zelt und Palast, S.56.
- (١٩) ابانوم Abattum هناك عدة اراء في تحديد موقعها . انظر :
- RGTC 3, S. 1.
- (٢٠) وابوم Rabbum اسم قبيلة بدوية اطلق على المنطقة التي سكنها في ارض يمحاض قرب الفرات . انظر :
- Kupper, Les nomades, P.53; RGTC 3S. 192ff.
- (٢١) تعبير ملوك هنا يشير كما هو واضح الى شيوخ قبائل بدوية كانت تتجول بقطاعاتها قرب الفرات ، ولها في الوقت نفسه مستوطنات سكنية حول خفاف النهر . انظر :

Klengel, Zwischen Zelt und Palast, S.56.

(٢٢) Sumu-Epuh كان يحكم سلطنة يحاض وعاصمتها حلب . وكانت تشمل شمال سورية . وهو

أول حاكم لبخاني معروف لدينا من هذه الفترة ، وهذه الإشارة هي أقدم إشارة إليه حتى الآن

(٢٣) Haman مدينة بناها أشباء البدو الخانيون . انظر : RGTC 3, S. 87.

: E GI-IR ZA-LA AN KI

(٢٤) ايجير زالا انكي

هذه الجملة سرورية تعني : « مبدع السماء والأرض » . وقد تكررت بالأكادية في

الطريق ١٢١٢

(٢٥) Enlil هو الإله الرئيسي في الباتنيون السومري ، وهو سيد القضاء والقدر ، أبو الإلهة

ملك السماء والأرض ، وملك كل البلاد ، كان مقدسا أيضا لدى البابليين والاشوريين ، ومركز

عبادته الرئيسي كان مدينة نيبور . انظر :

D. O.Edzard, in wörterbuch der Mythologie, Band I, S. 5 ff; Ringgren, Die Religionen des Alten Orients .S.69 .

(٢٦) Sin : إله القمر عند الأكاديين والبابليين . وهو ابن أنليل . وكان سين يكتب عبادة

بالعدد الرمزي ٣٠ ، الذي يطابق أيام الشهر ، وأماكن عبادته الرئيسية أور وحران . انظر :

Edzard, in : Worterbuch der Mythologie, I, S.10;

Ringgren, Die Religionen des Alten Orients , S. 119ff.

(٢٧) Nergal : إله العالم السفلي وإله الطاعون . انظر :

Edzard , in: Worterbuch der Mythologie, I, S. 109 .; Ringgren, Die Religionen des Alten Orients, S. 80,126.

(٢٨) Aya : الربة قريبة شمش . من المقابها حبيبة شمش (naramtu) والكنة ،

والعروس ، (Kallatu) . انظر :

Edzard, in : Wörterbuch der Mythologie , I, S.39; Ringgren , Die Religion en des Alten Orients, S. 121.

المراة في مملكة حلب (يَمَحَاض) في القرن الثامن عشر م.

د. فيصل عباديه

جامعة دمشق

ان كتابة تاريخ المرأة السورية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، يعتمد بصورة اساسية على مصادر محفوظات مدينة ماري (قرب بلدة أبو كمال حاليا) ومحفوظات مدينة الآلاخ (قرب مدينة انطاكية حاليا) . ونمتلك اليوم ما يكفي من المعلومات حول نساء قصر زمري ليم في ماري لا سيما بعد صدور المجلد الرابع من السلسلة الفرنسية الجديدة (٢) التي تعنى بدراسة محفوظات ماري . ففي هذا المجلد نصوص تقدم لنا معلومات وافرة حول ما يسمى « حريم قصر ماري » وكذلك مراسيم الزواج ، والزواج الدبلوماسي ، وما يمكن استنتاجه من عادات وتقاليدها مازال الكثير منها مستمرا تبصر العصور حتى يومنا الحاضر .

وفيما يتعلق بمملكة حلب (يمحاض) بالذات ، لدينا اليوم نصوص حصلنا عليها بعد حفريات مدينتي ماري والآلاخ ، تعكس بصورة غير مباشرة وضع المرأة الحلبية ذات الاصل الملكي ، وبعض مظاهر العادات والتقاليد المتعلقة بالزواج .

ومن الجدير بالذكر ان ما نحصل عليه من معلومات تاريخية من تلك النصوص ، ليس الا جزءا من تاريخ المجتمع الاشوري - البابلي ، الذي تشكل بعد الهجرات البدوية الامورية في نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد ، فهؤلاء الذين اجتاحتهم ، انطلاقا من البادية العربية السورية ، سورية والعراق القديمين ، استولوا تدريجيا على السلطة فيهما ، واقاموا ممالكهم الشهيرة (٣) .

اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث والثلاثين لعلماء الاشوريات ، باريس ٧-١ تموز ١٩٨٦ ، وموضوعه « المرأة في الشرق الأدنى في العصور القديمة » .

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ - ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

ان الدراسات المستمدة من نصوص مملكة ماري تعكس بوضوح العلاقات المتينة بين هذه الاخيرة ومملكة يمحاض . وعاصمتها حلب(٤) ، كما كانت تسمى في ذلك العصر . وقد توطلت هذه العلاقة منذ عودة زمري ليم الى ماري واسترجاعه مملكة ابيه يخدون ليم التي اغتصبها الاشوريون(٥) . بدأت تلك للعلاقة بعد زواج « دبلوماسي » شهر في تاريخ مدينتي ماري وحلب ، ذلك الزواج الذي جمع بين الملك زمري ليم الشهير وشيبتو ، الاميرة الحلبية ابنة ياريم ليم ملك حلب / يمحاض ، فائع الصيت في تلك الايام . وتجدر الاشارة هنا ان معطيات جديدة اثبتت ان ذلك الزواج قد تم بعد تسلم زمري ليم السلطة في ماري، وليس قبل ، كما كان مفترضا من قبل الاستاذ جورج دوسان(٦) .

ان قصة هذا الزواج هي اليوم أكثر وضوحا بعد اكتشاف ملف من النصوص المسمارية سينشرها قريبا الاستاذ جان ماري دوران(٧) ، ويشرفني ان اكون اول من يقدم محتوى تلك النصوص انضماما في هذا البحث .

يتضمن الملف الجديد من النصوص المسمارية مجموعة رسائل مكتوبة على الواح فخارية من حجم صغير بلغة اكاكية ولهجة مارية غربية (نسبة الى ماري) ارسلت من قبل بعثة ملكية موفدة من مدينة ماري على الفرات الاوسط ، الى مدينة حلب حاضرة مملكة يمحاض الامورية في سورية الشمالية يرأسها كل من اصقودوم وراشيا(٨) ، ومهمتها الوصول الى قصر الملك الحلبي ياريم - ليم وطلب يد ابنته الاميرة شيبتو زوجة لزمري ليم ملك ماري . وكانت البعثة تزود زمري ليم برسائل عن اخبارها وهي في طريقها الى حلب .

يتضمن هذا الملف من الرسائل التي بين ايدينا النصوص التالية ، مرتبة حسب التسلسل الزمني لارسالها الى بلاط ماري من قبل بعثة ملك ماري وهي في طريقها الى حلب :

اولا : في الطريق الى حلب :

— رسالة البعثة عندما كانت على مشارف مدينة تيلازيوم(٩) ، التي يفترض ان تقع بين ماري وايمار (مسكنة حاليا) .

— رسالة ارسلت من مدينة ايمار(١٠) .

- رسالة تتضمن معلومات حول عملية الاستمجال بمراسيم الزواج (١١).
- رسالة تتعلق بزيارة بلاد يحاض (١٢).
- رسالة تتضمن اخبارا من البلاط الحلي (١٣).
- رسالة تتعلق بمسالة سكن العروس شيبو في ماري (١٤).

ثالثا و اخيرا : العودة الى ماري :

- رسالة من ايمار (١٥).
- رسالة بعد المرور بحصن دور يخدون ليم (١٦).

يبدو من خلال الرسائل السابقة ان اصقودم وراثيا كلفا ، في السنة التالية لعودة زمري ليم الى عرش ابيه ، بمهمة طلب يد اميرة حلبية . وتلك المهمة الدقيقة تحتاج الى تدخلات الحاشية ، وخاصة وزير البلاط المسمى شيمروم ، الذي يعلن للبعثة المارية بعد مقابلة الملك ياريم - ليم : امرأة مقابل امرأة ، لانه كان يرغب بالحصول على مغنية من ماري تسمى كرناتوم .

ونلاحظ من خلال وثائق المجلد الرابع لدراسات ماري (١٧) متعددة الجوانب ، ومن خلال وثائق المجلد السادس والعشرين التي ستشرقريبا ، ان طرائق الزواج السوري وعاداته تبدو اكثر وضوحا ، على الاقل ، مما كان في مدينة ماري.

ان « كلمة نديتوم » (١٨) الاكادية لم تعد تعني هدية او مقدمة ، وانما « الطرحة » (١٩) ، وهي العطايا التي تحملها العروس من بيت ابيها عندما تغادره الى بيت الزوجية . اما ما يقدمه الزوج من جهته فهو يسمى بالاكادية « ترخاتوم » (٢٠) والترجمة الفرنسية للكلمة هي « عطاء مقابل » (٢١) ، اي جهاز العروس من عريسها . ولا ندري هنا اذا كانت الكلمة الاكادية ذات علاقة بكلمة « طرحة » .

ان النصوص المنوه عنها هنا ، لا تنبئنا عن النديتوم اي هدايا شيبو من بيت ابيها ، ولكن نصا (٢٢) مكتشفا من قبل يسجل لنا هدايا العريس الى عروسه . ونستعرض الان المعطيات المستمدة من ملف الزواج هذا :

● تقدم لنا البعثة الموفدة من قبل ملك ماري المثل الاقدم في تاريخ العادات والتقاليد الانسانية على ما يسمى الزواج بالوكالة او التوكيل .

- تمت مراسيم الزواج في قصر الملك الحلبى ، أي في بيت العروس ، وهو ما يجري في مجتمعنا في الوقت الحاضر . وهذا شاهد على استمرارية تقاليد هذا المجتمع برغم التبدلات السياسية واللغوية .
- ان موفدي زمري ليم هم الذين وضعوا الفطاء على رأس العروس شيبته ، وبذلك نستطيع الاستنتاج مع جان ماري دوران (٢٣) ان الزوج أو وكلاءه هم الذين يضعون الفطاء على رأس العروس .
- تضع المرأة المتزوجة الفطاء على رأسها وهو ما يسمى بالأكادية كتموم (٢٤) ، ومن الواضح هنا أن المصدر « كتم » بالعربية يفيد في المقارنة اللغوية .
- يشير جان ماري دوران في ملفه الى ان النصوص تدل على ان العاهرات المقدسات وحريم « حارمتوم » (٢٥) المعابد في سورية ، في ذلك العصر ، كن يضعن الفطاء على رؤوسهن ، على عكس ما هو شائع .
- تدل نصوص أخرى غير منشورة ، كما يشير الاستاذ دوران ، ان عملية الطلاق في سورية كانت تتم بصورة رئيسية من قبل الزوج ، وعلامتها اقدمه على خلع معطف زوجته أو تمزيقه بحضور شهود . إلا أنه كان للزوجة أيضاً ، على ما يبدو ، الحق بالمبادرة بقطع علائق الزوجية .
- والربط بين هذه المعطيات الاجتماعية وعاداتنا وتقاليدنا اليوم لا يحتاج الى مزيد من التفاصيل .
- نستطيع الاستنتاج أيضاً أن تقاليد الزواج السورية كانت تقضي بأن تعيش الزوجة ، التي تنحدر من أصل ملكي ، تحت سقف واحد مع زوجها .
- واستناداً الى نص غير منشور (٢٦) ، كانت والدة ملك حلب ياريم ليم هي السيدة سومو - نابي (٢٧) ، ونفترض من جهة أخرى أنها زوجة أول ملك لحلب سومو - ايبوخ المعروف . وكما سنرى فيما بعد ، فإن امرأة حلبية من نسب ملكي تحمل الاسم نفسه ، مذكورة في نصوص مدينة الآلاخ التابعة لمملكة حلب .
- ان دور الملكة الام في المملكة الحلبية غير واضح ، ولكن الكثير من الاشارات تدعو للاعتقاد أنه ذو أهمية بالغة .
- ان الملكة الزوجة ، أي زوجة ياريم ليم المسماة جاشرا (٢٨) ، قد ارتحلت مع زوجها في أرجاء البلاد وفق ما يدل عليه نصان (٢٩) بهذا الخصوص ، كما كانت تدبر القصر في غياب زوجها (٣٠) .

● تظهر لنا رسالة (٢١) من زمري ليم الى حماته جاشيرا ان عادة اتخاذ اكثر من زوجة ، او عشيقة ، هي من العادات المعروفة في مجتمعنا منذ ذلك الوقت .

● تشير في النهاية الى مهمات كانت تناط بالمرأة في ذلك العصر ، وهي العناية بالمرضى والاطفال . فهناك نص (٢٢) يتحدث عن أكثر من امرأة رافقن طفلا الى مدينة حلب بأمل شفائه على يد اله المدينة أدد وكهنتها . ويرجح ان هذا الطفل هو ابن احد المسؤولين الكبار في ماري .

إذا ما تتبعنا بحثنا هذا حول اوضاع المرأة في سورية الشمالية، في نصوص مدينة الآلاخ ، فإننا نجد نصا مؤرخا في السنة التي « كان فيها أميتكوم ملكا على حلب ، عندما اتخذ ابنة حاكم مدينة ابلا زوجة لابنه » (٢٣) . وهناك نصان (٢٤) يتحدثان عن رحلة ملكية حلبية الى ابلا بمناسبة ذلك الزواج .

ولابد من الإشارة هنا الى ان زواج الملوك كان وسيلة لتدعيم الروابط السياسية ، وقد تم من قبل عدد من هذه الزيجات بين ملوك وحكام الممالك الامورية المعاصرة في ذلك الوقت (٢٥) .

لدينا ، من جهة اخرى ، الكثير من النصوص المكتشفة في مدينة الآلاخ تبرز دورا مهما للمرأة ، بخاصة ذات النسب الملكي ، فهي تستطيع ممارسة التجارة لحسابها الخاص ، وتستطيع ان تكون شاهدا ندا للرجل ، ولها ارثها كما للرجل .

فهناك نص اداري (٢٦) ، يشهد بحضور الملك وأوامره توزيع ميراث بين افراد العائلة . الملك هو تقمي - ايبوخ الملك الثالث لحلب (في نصوص الآلاخ) ، حيث يوزع ارثا خاصا بزوجته رجل مسمى أموريابي ، وقد تم توزيعه بين ابنها ابايل وابنتها بيتاني . وبالرغم من جهلنا للشخصيات التي تحمل هذه الاسماء الا انه من المحتمل ان يكونوا من أعضاء العائلة الملكية او من اقربائها ، فهم في النتيجة يحصلون على الارث وهو قرية اسمها سوخاراوا ، مع كل الاحترام والتبجيل الواضح في النص . ونص آخر (٢٧) يذكر أسماء أعضاء في العائلة الملكية بينهم امرأة تدعى تاكي اشخارا ، يعتقد انها زوجة الملك تقمي - ايبوخ وقد انجبت له عددا من الاولاد .

اما الوثيقة (٢٨) المؤرخة في اثناء حكم اركيتوم فتذكر اسم امرأة تسمى سومونبي (اسم النبي) وهي تقرض الفضة (وفق أوزان مدينة حلب) الى افراد من قرية ايراش . وتقوم هذه المرأة بأعمال مماثلة في نصوص اخرى ، وتذكر في النهاية كشاهد (٢٩) . ويعتقد وايزمان مترجم نصوص الآلاخ ، بأن هذه المرأة هي شقيقة حاكم الآلاخ أميتكوم (٤٠) .

المرأة في مملكة حلب

اخيرا : اذ اردنا ان نجمل معطيات هذا البحث بخلاصة قصيرة عن المرأة الحلبية السورية والعربية بعامة في ذلك العصر ، نجد :

● ان المرأة ، تشارك في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وتعمل في التجارة ، ولكن من وراء حجاب على ما يبدو .

● اننا لا نعلم الا القليل عن حياة النساء في معابد سورية ولكننا نعتقد انها كانت كحياة غيرهن من النساء في معابد بلاد الرافدين ، التي كانت تضم هيئة كهنوتية نسائية هامة خاصة في معبد الاله ادد / هدد ، الذي كان مبعجلا في كل ارجاء المنطقة الرافدية .

● اخيرا ، ما قدمته لنا تلك النصوص وغيرها مما لا يزال غير منشور ، وقيد الدرس والتمحيص ، يدل بصورة قاطعة على اهمية المملكة الحلبية ، ويحفزنا اكثر فاكثر على التعرف على قصرها في ذلك العصر . واهم من هذا هو الوصول الى المحفوظات الملكية التي يجب ان لا تقل اهمية من محفوظات ماري او ابلا .

(١) عنوان البحث بالفرنسية
La Famme dans le royaume d'Alep au 18e siècle av.J.C.

(٢) هذه السلسلة تحمل عنوان :
M.A.R.I. : Annales de Recherches Interdisciplinaires, Paris

(٣) من اجل النصوص المسمارية الاكادية والدراسات المتعلقة بهجرة الاموريين وبهجرات القبائل البدوية الاكادية التي سبقت هذه الهجرة ، وجميع المصادر المتعلقة بهذا الموضوع ، وبموضوع هجرات البدو القدماء انسال العرب ، انظر : فيصل عبد الله :
Les Relations internationales entre le royaume d'Alep / Yamhad et les villes de Syrie du Nord « -1800 à 1594 av . J.C. » p. 23 et suivant; P. 189 n° 90 - 114 .

اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة باريس

(٤) ان القدم ذكر لاسم بمحاض ياتي في كتابات يخزون -ليم التأسيسية المؤرخة في نهاية القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، ويأتي اسم مدينة حلب في التاريخ نفسه تقريبا ، ولذا فاننا نعتبر ان مدينة حلب هي القدم مدينة ماتزال مسكونة منذ ذلك التاريخ حتى عصرنا الحاضر، معافظة على اسمها الاكادي على مر العصور ، من اجل تفصيلات حول هذا الموضوع ، وحول كتابة الاسم بالمسمارية، انظر المرجع السابق ، ص٤٧ .

(٥) تؤرخ فترة حكم زمرى-ليم في ماري بين ١٧٨٠-١٧٥٩ ق.م .

- (٦) انظر :
Čharpin, D. et Durand, J.M., Origine de Zumri- Lim, colloque CNRS,
620, Strasbourg, 1983.
- (٧) سينشر هذا الملف في المجلد السادس والعشرين من محفولات ماري الملكية :
Durand, ARM 26
- (٨) يكتب الاسمان بالمقطعية الاكادية : Ri-Si-ia; As-qu du-um
انظر ايضا :
ARM XVI/I
- (٩) الرسالة تحمل الرقم (A. 711)
ويكتب اسم تيلازيبوم هكذا : Tillazibum
- (١٠) A. 2369; Imar
- (١١) A. 2627
- (١٢) A. 414
- (١٣) A. 3627
- (١٤) A. 2679
- (١٥) M. 5418
- (١٦) A. 973
- (١٧) M.A.R.I.4
- (١٨) midittum, Present : مقدمة ، هدية
وهي الترجمة المقترحة سابقا .
- (١٩) وبالعامية (دوطا) وبالفرنسية dot
- (٢٠) terhatim
- (٢١) contre-don
- (٢٢) النص يحمل الرقم M. 5677
- (٢٣) ان معطيات هذه التصوص مستوحاة من ملك الزواج الذي اعده الاستاذ جان ماري دوران ولكننا
لا نتطوي على محاولات لربطها بمجتمعنا المعاصر .
- (٢٤) Kuttumum
- (٢٥) بالاكادية Harimtum

المرأة في مملكة حلب		
	A. 2617	(٢٦) ويحمل الرقم
Sumu - na-bi		(٢٧)
Gasera		(٢٨)
ARMT 23, 535, 536		(٢٩)
ARMT 23, p. 472		(٣٠) انظر :
ARMX 139		(٣١) انظر :
RES 1939, p. 68		(٣٢)
(٣٣) نص مدينة الاغ AT+35 حيث يحمل تلك العبارة في نهايته . اسم الملك يكتب بالمقطعية السامرية : Ammitakum اما مدينة ابلا فكتب بمقطعين Eb - la وقد اكتشفت في ١٩٦٨ جنوب حلب .		
AT+269; 235		(٣٤)
(٣٥) نشر بصورة خاصة الى زواج جمع بين يسمع-ادد ابن شمش ادد الاول مؤسس المملكة الاشورية في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ، وبين ابنة ملك قطننة (قرب مدينة حمص حاليا) وهو زواج ضجت له البادية السورية ، كما يبدو وصفه في النصوص . انظر المصدر المذكور في الحاشية رقم (٣) ص ٥٧٤ .		
AT. 7		(٣٦) النص هو
Niqmi - Epuh	والاسماء هي : الملك	
Am-mu-ra-pi	رجل بدون مرتبة اجتماعية	
Ab-ba-An/EL	رجل بدون مرتبة اجتماعية	
Bi-it-ta-at-ti	امراة بدون مرتبة اجتماعية	
Suharawa قرية يفترض ان تكون بجوار الاغ قرب انطاكية .		
AT+409	Taki-Ishara	(٣٧)
AT+33	Irkabtum	(٣٨) Sumunnabi Airrase ملك حلب
AT+404		(٣٩)
AT+34	Amitakum	(٤٠)

Wisman, Donald, The Alalakh Tablets, London, 1953.

مُلوْكُ إبلا العَشْرَة

عربه عن الالمانية

قاسم طوير

المديرة العامة للآثار والمتاحف

الفونسو اركي

عضو الهيئة الدلية

لدراسة ارشيف إبلا

فكت رموز الرقيم المسماري الموصوف بـ (ت.م / ٧٥ / ج / ٢٦٢٨) ونشر في المجلد السابع من سلسلة مطبوعات الارشيف الملكي لنصوص إبلا (ARET) تحت رقم ١٥٠ . تقول الحاشية الواردة في السطرين الثالث والرابع في الوجه الخلفي من الرقيم ما يلي : اضاح من الضان لالهة المدن التي يقطن (جوهرها) في مدينة دريب . ورد ذكر مدينة دريب في الرقيم المسماري الموصوف بـ (ت.م / ٧٥ / ج / ١٢٣٧٧) على أساس انها مدينة من مدن دولة إبلا وبالتحديد مقر لعبادة الالهة نيدا كول . وباستثناء أسماء بعض سكان هذه المدينة الوارد ذكرهم في رقم أخرى فائنا لا نعرف شيئا عن امورها الاخرى .

ترجمة الرقيم : ٢ - الوجه الامامي

السطر الاول :

— (اودو) (خراف)

— (دينجر)

٣ — (اركب دامو)

(دينجر)

٥ — (اجریش حلم)

(دينجر)

٧ — (ادوب دامو) .

السطر الثاني

(دينجر)

(كوم دامو)

٣ — (دينجر)

(ايسار ملك)

٥ — (دينجر)

(إن - آر - دامو)

٧ — (دينجر)

(با - دامو)

٩ — (دينجر)

* نشر هذا البحث في مجلة الدراسات الاشورية - برلين ، المجلد ٨٦ ، الجزء الثاني ١٩٨٦

ص ٢١٢ - ٢١٧ .

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ - ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

السطر الثالث

(إبي دامو)

(دينجر)

٢ - (أخور ليم)

(دينجر)

٥ - (آبور ليم)

(إن-إن) (ملك الملوك)

٧ - أو دو (خروف) عدد ٢

نيدا كول (دينجر)

٢ - الوجه الخلفي للرقيم :

السطر الاول : و (حرف عطف)

الاله جولاتو

٣ - اودو (خروف) عدد ١

الاله آرارو

٥ - مدينة دريب

اودو (خروف) عدد ١

٧ - الاله جاي سيكرا

السطر الثالث (فجوة)

٣ - غير مقروء ... الاله الاله (رب الارباب)

أورو - (مدينة أورو (مدينة-مدينة)

٣ - (فراغ)

٤ - في (حرف جر)

مدينة دريب

٣ - (فراغ)

٥ - (فراغ)

السطر الرابع :

و (حرف عطف)

الاله بي-بي (بعة)

٢ - اودو (خروف) عدد ٢

رسب (اله رشف)

٥ - و (حرف عطف)

الاله آداما

٧ - اودو (خروف) عدد ٢

الاله آجو

السطر الثاني:

لو- دا- دا - إن

اشدا

٢ - غير مقروء عدد ١

(فجوة)

يحتوي الجزء الاول من النص على أسماء ثلاثة ارباب مع بعلاتهن ، الاول هو كبير آلهة ابلا المدعو نيدا كول وقرينته بعة ، والثاني هو اله رشف وقرينته آداما ، والثالث اله آجو وقرينته جولاتو . وبلي هذه القائمة اله مدينة دريب ، غير ان اسمه ناقص في النص ، وهو على الشكل التالي في المقاطع السومرية (جاي سيكرا) . ولحسن الحظ ان هذا الاسم موجود في المعجم اللغوي المكتشف في سجلات ابلا وهو يقابل كلمة (ايشخارا) بالابلائية .

يحصل كل اله من هؤلاء الآلهة على اضية مؤلفة من ذبيحة خروف . ويبدأ النص بذكر العدد الاجمالي للذبايح ، وعددها عشر ، وهي موزعة في بقية النص على

الملوك وعلى الالهة. وتجدر الاشارة ان اشارة الربوبية في المصطلح السومري (دينجر) ملازمة لاسماء الملوك ، يضاف الى ذلك اننا نعرف اسمي اثنين من الملوك الوارد ذكرهم في هذا النص وهما الملك (إركب دامو) والملك (إجريش حلم) من اوائل سلالة ملوك ابلا ، وقد ورد ذكرهما كثيرا في النصوص الادارية لسجلات هذه المدينة . بنا على ذلك نفهم من محتوى هذا الرقيم ان ملوك ابلا يصبحون في مصاف الالهة بعد وفاتهم بحيث ان الاضاحي تقدم لهم على قدم المساواة مع الالهة الرئيسة للمدينة ، مثل نيدا كول ورشف .

تبدأ سلسلة هؤلاء الملوك المقدسين بالاقدم عهدا وتنتهي بالاحدث عهدا ، ويأتي تسلسلهم على الشكل التالي : إركب دامو ، إجريش حلم ، آدوب دامو ، كوم دامو ، إيسار ملك ، إن - آر - دامو ، با - دامو ، إيبى - دامو ، أجور ليم ، ابورليم .

ان طريقة التسلسل التراجعي - اي البدء بالاقدم والانتهاء بالاحدث - متبعة في كافة النصوص الادارية والنصوص المتعلقة بمسك الدفاتر .

لابد اذا من ان تكون مدينة دريب مركزا رئيسا لعبادة الملوك القدماء في ابلا ، ولا بد انه كانت لهم عبادة في قلب العاصمة ابلا ايضا ، على الرغم من ان اسمائهم لا يرد ذكرها في قائمة الاضاحي الشهيرة التي تقدم للالهة . فالرقيم المسامري الموصوف ب (ت - م / ٧٥ / ج / ٥٧٠) المكتشف في الغرفة الموصوفة ب (ل - ٧١٢) يحتوي على حصة كل فرد من افراد حاشية القصر من الطعام والشراب وعلى تقدمات لمختلف الالهة . فمثلا نقرا في السطور الثاني والثالث والرابع للوجه الخلفي للرقيم نفسه بالسومرية مايلي :

(واحد جيش) شاماجان (واحد جيش) دينجر - ان - اه سيكي (واحد جيش) دينجر - إن إه - سيكي (واحد جيش) ، إنكي دينجر (واحد جيش) ، سي - إن ، أو - زال - أو - زال (واحد جيش) ، إكس ، زه (واحد جيش) دينجر ان - آر - دامو (واحد جيش) دينجر إيسار ملك (واحد جيش) ، ان - سي جو (٢٠ جيش) سيليك - نيندا - سيكيك .

نواجه في هذا الرقيم الى جانب آلهة مشهورة من مجمع ارباب ابلا والاله الحامي للملك الذي كان يقطن في دار الصوف ، اي بيت المال ، نواجه الايام الخوالي (او - زال - او - زال) ، التي تحصل على تقدمات ايضا ، وهذا يعني ان تلك الايام صارت جزءا من عبادة الاموات .

يضاف الى هؤلاء كل من الملك الاله إن - آر - دامو والملك الاله إيسار ملك ، (اي الملك الخامس والملك السادس في سلسلة الملوك الواردة ذكرهم في الرقيم الاول) .

من الملاحظ عدم اشتراك احد هؤلاء الملوك مع غيره بالاسم أو بالكنية ، وقد يعني هذا ان ابلا لم تعرف النظام الوراثي ، وبالتالي لم يكن ملوكها من اسرة واحدة ، غير ان هناك استثناء واحدا يتعلق بالملك ابي ذكير الذي ورث العرش من ابيه الملك ابيريوم .

يرد العنصر الربوبي (دامو) مركبا في اسماء ستة من ملوك ابلا العشرة . اما العنصر الربوبي (ليم) فانه مركب في اسمين فقط ، في حين ان كلا من العنصر الربوبي (حلم) و (ملك) مركب في اسم واحد وحما اجرش حلم - ايسار ملك .

ان كلمة (داموم) بالابلائية معروفة في الاوغاريتية ، وتعني (شعب، جماعة) اما في الاكادية (لغة العراق القديم) فتعني (الرقم ألف) ، وعندما تستخدم تلك الكلمة في تركيب اسماء الاعلام فانها تضيف الصفة الالهية الى الاسرة او الجماعة صاحبة الاسم .

نصادف العنصرين (دامو) و (حلم) في كثير من اسماء الاعلام في نصوص ابلا . ويرد العنصر (دامو) في عدد من اسماء اسرة الملكين (ايريوم) و (إبي ذكير) . ونستدل من وجود العنصرين السابقين مركبين في اسماء ثمانية ملوك من اصل الملوك العشرة ان البنية الاجتماعية في ابلا كانت قبلية (عشائرية) . لكن مع نمو التمدن تمكنت اسر أخرى من الوصول الى سدة الحكم وكسر طوق الاحتكار السياسي لعشيرة معينة .

ظل العنصر (ليم) متداولاً في تركيب اسماء الاعلام في ابلا خلال الفترة الامورية في الالف الثاني قبل الميلاد الا انه يختفي في اسماء الاعلام في اوغاريت خلال الفترة نفسها .

اما العنصر (دامو) فينمحي كلياً من اسماء الاعلام منذ نهاية ابلا في الالف الثالث قبل الميلاد . غير انه من الاكيد في هذا الصدد ان ملوك ابلا القدماء لم يكونوا من اهل الوبر ، أي لم يقطنوا في الخيام ، فالتنقيبات التي تمت خلال موسمي عام ١٩٨٤ - ١٩٨٥ اظهرت بواذر قصر تحت اساسات القصر الملكي (ج) الذي ظهرت فيه السجلات الملكية . يضاف الى ذلك ان النظام الاجتماعي في ابلا كان يستلزم وجود اساس حضري ثابت مستقر .

وهكذا تكون الوثيقة موضوع هذه الدراسة قد زودتنا باسماء عشرة من ملوك ابلا في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . وبما ان الملكية لم تكن وراثية وتنتقل من الاب الى الابن فلا بد من التحذير بان عشرة ملوك لا يعنون عشرة اجيال في التعاقب الزمني .

هل للعبرانيين وجود في إبلأ ؟...

عربه عن الالمانية
البروفيسور و. لوريتس
استاذ اللغات السامية في جامعة مونستر بالمانيا
قاسم طوير
المديرية العامة للآثار والمتاحف

اثارت البيانات والافتراضات الاولى المتعلقة بالربط بين نص إبلأ من جهة ، والتوراة وشخصيات واحداث التاريخ الاسرائيلي من جهة ثانية : اهتماما كبيرا . فقد اثارت الاعجاب من ناحية ، الا انها قوبلت بالرفض من ناحية اخرى . وفي حين اعتبرها البعض في امريكا ضوفا يمكن تسليطه على الظلام الذي ما يزال يكتنف تاريخ نشوء اسرائيل ، نجد ان غالبية العلماء التوراتيين في المانيا اعتبرت المقارنة بين نصوص إبلأ والنصوص التوراتية منذ بدايتها نوعا من الاستمرار العقيم للجدل الذي نشأ في مطلع هذا القرن حول العلاقة بين بابل والتوراة (١) ومن ثم بين اوغاريت والتوراة (٢) .

ورغم الزمن القصير الذي يفصلنا عن بدء المقارنة بين نصوص إبلأ ونصوص التوراة ، الا انه يجوز لنا من الان استعراض جزء من الخلاقات المتعلقة بقوم يحملون اسم « عبري / عبراني » وبشخصية « ابرام العبراني » - الاب الاول لليهود - استعراضا تاريخيا ، ومن ثم شرح اسباب الخلاف ، وبالتالي بيان النتائج في خطوط عامة على الاقل .

في اعقاب الافتراضات التي طرحها جوفاني بيتيناتو (٣) لاول مرة عام ١٩٧٦ حول احتمال وجود علاقة بين اسم ملك إبلأ « ابريوم » من جهة واسم الاب الاول لليهود

✽ اعد هذا البحث و. لوريتس للندوة الدولية حول ((لغة إبلأ واللغات السامية)) التي نظمتها « معهد اللسانيات واللغات السامية » في جامعة فلورنسا بإيطاليا واتفقت في فلورنسا بين ٢٤ و ٢٦ حزيران ١٩٨٢ ، ثم صدر في الكتاب الذي يضم ابحاث الندوة في عام ١٩٨٤ عن المعهد المذكور وذلك في العدد ١٤ - من سلسلة دفاتر الدراسات السامية . تحت عنوان « دراسات في لغة إبلأ » .

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ - ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

« عبر » الوارد في لائحة الانساب في سفر التكوين (١.٠ : ٢١ و ٢٥ ، ١١ : ١٤ و ١٧) والاسم التوراتي لقوم العبرانيين (عبري)، دخلت نصوص ابلا في حقل الجدل القائم منذ ١٢٠ سنة حول العلاقة بين كلمة (عبرو) الهيروغليفية المصرية وكلمة حابرو المسمارية وكلمة (عبرم) الاوغاريتية من جهة ، وكلمة (عبريم) التوراتية من جهة ثانية (٤)، غير ان سير البحث العلمي حول العلاقة بين الحابرو والعبرانيين قد ادخل منذ البداية شخصية ابرام او ابراهيم في حلقة الخلاف حول عبر والعبرانيين ، واخيرا صارت شخصية ابراهيم جزءا لا يتجزأ من اي مناقشة وذلك في اعقاب الابحاث التي قام بها و.ف. اولبرايت حول الحابرو والعبرانيين و ابراهيم . وهكذا عاد الدور الاساسي للاصحاح الرابع من سفر التكوين ، هذا للاصحاح الذي يدور حوله الجدل الكثير (٥) .

في الوقت الذي اصبح فيه الباحثون ينظرون الى الروابط الاثرية واللغوية بين ايريوم الابلائي وعبر وعبريم التوراتيين نظرة انتقادية ومتشككة (٦)، نجد عددا من علماء التوراة قد استأنفوا بحث تلك الروابط واستقلوا بها ، كما صاروا يشكلون حلقة خاصة بانفسهم لدراسة نصوص ابلا ضمن اطار الدراسات التوراتية وبعيدا عن اجواء علماء الآثار واللغات القديمة . وفي ظل هذه المساعي عقدت آمال متنوعة على نصوص ابلا ، فمثلا ثمة ادعاء بان الحابرو ليس لهم علاقة لسانية او سوسولوجية مع العبرانيين (عبريم) ، واذا ما ثبت بان كلمة عبري مستمدة من اسم ملك ابلا ايريوم فان هذه المشابهة النابعة من ابلا ستلغي كافة النظريات المتعلقة بالربط بين عبريم والحابرو (٧) .

وفي حين يتوقع هؤلاء نتيجة سلبية للربط بين عبريم وحابرو في ضوء نصوص ابلا، نجد ان الباحث ج. برايت في كتابه « تاريخ اسرائيل » يتخذ موقفا مغايرا، فهو يستنتج من الخبر القائل بوجود ذكر لاسم (عبر) في نصوص ابلا بان الامر لا يقتصر على ورود ذكر الاء التوراتيين الاوائل (عبر و ابراهيم) في وثائق اثرية ، بل ان الدليل صار قائما على ان شمالي العراق وسورية كان يسكنهما جماعات بشرية قريبة من اجداد بني اسرائيل وذلك قبل قرون من عصر البرونز الوسيط (٨) ، ثم يستطرد قائلا بالحرف الواحد : « ان هذا الامر ليعزز الثقة بقدم التراث المنقول ويضيف ارجحية على زعم التوراة بان اجداد بني اسرائيل قد هاجروا من تلك المنطقة » .

يربط ج. برايت بين اسم النسب (عبري) وكلمة حابرو ، ويستدرك بانه على الرغم من عدم وجود مشابهة بين الحابرو والعبرانيين ، الا انه يجوز لنا اعتبار العبرانيين جزءا من الحابرو (٩) .

يكفيينا فهما من تلك المقولات . بان هؤلاء الباحثين يرون في اسم ملك ابلا المدهو ايريوم دليلا على الوجود التاريخي لجد العبرانيين (عبر) الوارد في لائحة الانساب في

سفر التكوين (١٠/١١) (١٠) . والقريب في هذا التطور ان جوفاني بيتيناتو قد تخطى منذئذ عن نظريته حول العلاقة القائمة بين اسم ايريوم الابلائي وعبر والعبرانيين في التوراة .

سنقتصر فيما يلي على معالجة المسائل المتعلقة بجذ العبرانيين (عبر) وبالعبرانيين (عبريم) وبسفر التكوين ١٤ ، وسنقحص ماهية الاستنتاجات واثرها على المقارنة بين ابلا والتوراة ، لنعرف اذا كان بالامكان الخروج بحقائق تتعلق بما يسمى بتاريخ نشوء اسرائيل او بواكير تاريخ اسرائيل .

اذا اردنا فهم اهمية النقاش القائم حول الربط بين العبرانيين و ابراهيم من جهة وابلا من جهة ثانية فلا بد من استعراض اصول هذا الجدل الجديد حول العبرانيين . ولعله من المفيد ان نقوم بمثل هذا الاستعراض وذلك لان الباحث ف. شاباس (١١) كان في عام ١٨٦٢ اول من حاول مطابقة اسم (عبريم) في الروايات التوراتية حول الاسرائيليين في مصر مع (عبرو) الواردة في الكتابات الهيروغليفية المصرية ، وبالتالي يكون اول من استعان بدليل غير توراتي لاثبات قدم اسم الكنية التوراتي (عبري) . فبناء على الشبه اللفظي بين كلمة عبري وكلمة (عبرو) والشبه في الروايتين التوراتية والمصرية القديمة حول تسخير هؤلاء في الاشغال العامة (بناء الاهرام) استنتج الباحث شاباس بان عبريم التوراة و (عبرو) الكتابات الهيروغليفية اسمان لمسمى واحد (١٢) .

لقيت نظرية شاباس هذه الكثير من الاتباع وفي الوقت نفسه الكثير من الرافضين . فالباحث ج. ماسيرو رفض اعتبار ال (عبرو) شعبا من الشعوب ، واعتبر عملية الربط بين (عبريم) التوراتية و (عبرو) الهيروغليفية نظرية خيالية مجردة (١٣) .

في غمرة الظلام الذي اكتنف العلاقة بين (عبرو) و (عبريم) جاءت النصوص المسامرية المكتشفة في تل العمارنة ونوزي واوغاريت لتسلط اضواء جديدة ولتثير النقاش مجددا . ففي وقت واحد قام في عام ١٨٩٠ كل من الباحث كوندلر والباحث تسيمر (١٤) بربط (عبريم) مع الحابرو الوارد ذكرهم في رسائل تل العمارنة . وبينما اكد الاول على المطابقة بين عبريم وحابرو وجعلهم يدخلون فلسطين في ايام يشوع ، كان الثاني اكثر حذرا في تفسيره ، حيث قال انه على الرغم من ان الامر لم يتأكد لكن ثمة مؤشرات تؤيد مطابقة العبريم مع الحابرو . واذا صح هذا الافتراض فتكون رسائل العمارنة التي تأتي على ذكر الحابرو في غاية الاهمية بالقياس الى المسألة المطروحة مرارا حول زمن وصول العبرانيين الى فلسطين وشكله وطريقته (١٥) .

لم تؤثر وثائق تل العمارنة تأثيرا اساسيا على مسار النقاش ، لان الباحثين استمروا في اعتبار حابرو ، من خلال وثائق العمارنة ، شعبا او مجموعة من القبائل ،

وذلك انطلاقا من تصوراتهم المستمدة من النصوص التوراتية . قالباحث فبول F. Böhl في كتابه حول الكتعانيين والعبرانيين الصادر في عام ١٩١١ ينطلق من مقولة المطابقة بين الحابيرو والعبريم وعبر ويخلص الى النتيجة بان (العبرانيين) اسم اشمل بكثير من اسم «الاسرائيليين» (١٦) ، ثم يخرج بالمقولة السائدة حتى يومنا هذا وهي ان العبرانيين تسمية لمجموعة شعوب ومن بينهم الاسرائيليين .

ويرى الباحث نفسه ان العبرانيين من الناحية اللغوية جزء من الاموريين ، لكنهم من الناحية التاريخية جزء من الاراميين . اما الباحث آ. يركو A. Jerku فقد ثبت المتولة في محاضراته امام مؤتمر المستشرقين في عام ١٩٢٤ ، واجرى تعديلا على تلك المقولة بان جميع الاسرائيليين عبرانيون ، ولكن ليس جميع العبرانيين اسرائيليين . وقال ان الاسرائيليين ليسوا فرعا من العبرانيين بل ان كلا منهما مستقل عن الآخر ولعل كل منهما مختلف عن الآخر اصلا ، لكن الاتحاد بين فصائل من كل منهما قد انتج الشعب الاسرائيلي فيما بعد . وقد ظلت فصائل متفرعة من العبرانيين تعيش الى جانب الشعب الاسرائيلي طيلة قرون من الزمن (١٧) .

يركز الباحث يركو نفسه على (ابراهيم العبراني) الوارد ذكره في سفر التكوين ١٢ و ١٣ ويرى في ان الاصحاح من سفر التكوين تعود اصوله الى ايام ابراهيم ، ولعل الاصحاح نفسه مستمد من وثيقة مسمارية تعود الى ايام ابراهيم نفسه . واخيرا يرى الباحث اولبرايت (١٨) ان جماعة ابراهيم هم انفسهم الحابيرو الرحل ، وهؤلاء هم الذين جلبوا معهم الاصول المسمارية لتاريخ التوراتي من بلاد الرافدين الى فلسطين .

واذا كان علماء الاثار المصرية قد رفضوا منذ البداية اطروحة الربط بين (عبرو) الهير وخليفية و (عبريم) التوراتية ، فقد رفض علماء اخرون عملية الربط بين (عبريم) و (الحابيرو) ، ولم يحقق الجدل تقدما حقيقيا الا على يد الباحث ب. لاندزبرغر (١٩) . يرى لاندزبرغر في كلمة الحابيرو اسما لكنية ويعتبرهم طبقة اجتماعية مؤلفة من اللاجئين والمطاردين ، وهم على عكس ال (عبري) الذي يعتبرهم افرادا من شعب اسرائيل . ويعود الفضل الى لاندزبرغر في تحرير الحابيرو من اي ارتباط مع التوراة . وقد سار على نهج لاندزبرغر كل من دورم وبوتير وهورغر وفون سودن ومنذ ١٩٢٤ قام باحثون في مجالي الاثار الشرقية القديمة والعلوم التوراتية بتكوين صورة تاريخية بمحاولات متعددة للتوفيق بين تفسيرات التوراة من جهة والصورة الجديدة للحابيرو من جهة اخرى ، في ضوء النصوص المسمارية المكتشفة في نوزي وفي اوغاريت .. وهؤلاء ايضا ركزوا على طرح البراهين المتعلقة بابراهيم العبراني الذي يتسرد ذكره كثيرا في

الاصحاحين ١٤ و ١٣ من سفر التكوين . وعلى الرغم من الاجماع بان سفر التكوين يعود الى فترة ما بعد السبي البابلي ، الا ان هؤلاء يجعلونه أقدم من ذلك بكثير ، فابراهيم اصبح في نظرهم واحدا من الحابرو وجماعته من الحابرو هم النواة الاولى للشعب الاسرائيلي .

ومن ابرز ممثلي هذه النظرية نذكر ج ليفي G. Lewy و ف البرايت F. Albright (٢٠) .

قادت الافكار الجديدة التي طرحها لاندزبرغر الى نشوء مفاهيم جديدة حول الحابرو في اوساط الباحثين التوراتيين وبخاصة لدى الباحث Alt . يرى هذا الباحث انه لم يكن هناك حلف للقبائل الاسرائيلية اثناء تغفل الاسرائيليين داخل فلسطين كما انه يشك بوجود قبائل (اسرائيلية) في ذلك الوقت ، بل ان الامر مجرد وجود عشائر متفرقة او حلف عشائر من الرعاة الرحل الذين كانوا ينتقلون في اطراف الساحل والسهول اثناء الشتاء والربيع وفي الصيف كانوا يضطرون للتسلل الى داخل المناطق الزراعية طلبا للمرعى ، وكان على تلك العشائر ان تتفاهم مع اصحاب الاراضي المزروعة للاستفادة من بقايا المزروعات بعد الحصاد . وعلى هذا المنوال تعلمت تلك العشائر من خلال احتكاكها المتواصل مع مناطق المراعي كيف تستقر تدريجيا (٢١) مع مرور الوقت .

بعد هذا الاستعراض لن يكون مستغربا ان تعود الاشباح للظهور مجددا فور الحديث عن وجود مزعوم لكلمة عبر او عبري في وثائق ابلا . وكما جرى في المحاولات السابقة فقد حاول الباحثون الربط بين الوثائق الاثرية المكتشفة مجددا والمعطيات التوراتية ربطا مباشرا ، ومن ثم الخروج باستنتاجات تاريخية . لكن هؤلاء تجاهلوا ان هذه الطريقة قد اعتمدت على افتراض ان الكتابات التوراتية ذات طابع تاريخي ، وهذا هو الخطأ نفسه الذي قاد الى الاستنتاج بان الحابرو هم العبرانيون .

لابد لنا من النظر بعين الاعتبار الى ان جهات متعددة في القرن الماضي اتهمت مؤلفي التوراة بالتزوير والمغالطة . لكن هذا الاتهام لا يعني بالضرورة ان المؤلفين اليهود قد زوروا الاحداث التاريخية وقلبوها راسا على عقب ، بل زوروا المفهوم الاساسي لعلاقة الانسان بالتاريخ وبالطبيعة . وينصب الاتهام بالدرجة الاولى على رجال الدين اليهود الذين قاموا بتزوير تاريخ اسرائيل ورسخوه في الكتاب المقدس وفي نمط الحياة اليهودية ايضا . ويعتبر كل من ف. نيتشه و ج. ويلهاوزن وماكس فيبر من حملة لواء هذا الموقف من مؤلفي التوراة .

كان رد الفعل على هذا الموقف شديدا . فالأوساط اليهودية المحافظة اعتبرت مثل هذا الموقف نوعا من العداء للسامية ، أما الأوساط المسيحية المحافظة فقد اعتبرته تكرارا لكلام الله الحق . ويتفق الطرفان اليهودي والمسيحي على أن محتويات الكتاب المقدس تاريخية وموثوق بها .

نعود الآن إلى العلاقة المحتملة بين ملك ابلا أيريوم من جهة ، والاسم التوراتي عبر وعبريم من جهة ثانية . فمن المقارنة الأولية بين الاسمين نجد أن الاسم التوراتي يبدأ بحرف العين ، بينما لا نملك أدلة على أن أيريوم كان يبدأ بحرف العين (٢٢) . وبما أن الاسم التوراتي (عبري) مشتق من فعل (عبر) فإنه لا يمكن أن يكون الاسم (عبري) مشتق من اسم الملك (أيريوم) . كذلك إذا اعتبرنا اسم (عبر) مشتق من اسم (عبري) أو من (عبر نهري) فإنه لن تكون هناك حاجة للمقارنة بين (عبر) و (أيريوم) .

وإذا أردنا التنبه بالترائي أن اسم الملك أيريوم ظل مستمرا في اسم (عبر) في التوراة ، فيبدو لنا أن أيريوم الإبلاني قد تشوه وتبدلت شخصيته لصالح كتابة التاريخ اليهودي . فعبر في سفر التكوين هو جد إبراهيم وإلأب الأول للشعب اليهودي أما أيريوم الإبلاني فلا يحمل هذه الصفة بتاتا .

وإذا اعتبرنا سفر التكوين (١٤) من وضع مؤلفين يهود يعد النفي فإنه يمكننا أن نتوقع نهاية للجهود الرامية إلى خلق علاقة بين نصوص ابلا وسفر التكوين ، وبالتالي الوصول إلى تحديد تاريخ زمني لإبراهيم الخليل استنادا إلى تاريخ وثائق ابلا كما فعل الباحث دافيد نويل فريدمان (٢٣) .

أن الأصل المتأخر زمنيا لسفر التكوين ١٤ الذي تم تدوينه بعد السبي البابلي والطابع الأدبي لمضمونه يمنعان سلفا إجراء أية مقارنة بينه وبين نصوص ابلا . أن تاريخ المقارنة بين المصادر التوراتية والمصادر الأثرية كتلك التي جرت بين كلمة (عبرو) المصرية و (حابيرو) المسمارية و (عبريم) التوراتية يكشف أن تحديد الزمن الذي تمت فيه كتابة التوراة أمر حاسم من أجل المقارنة مع المصادر الأثرية . كذلك لن يكون بالإمكان إجراء مقارنة تاريخية فعلية قبل أن نصل إلى تحديد تاريخ زمني لكتابة التوراة . وأن أية محاولة للخروج بتحديد زمني للتوراة من خلال المقارنة مع المصادر الأخرى لن تقضي إلا إلى الدوران في حلقة مفرغة .

أن الاضطراب الناتج عن هدم الإجماع على التحديد الزمني المبكر للنصوص التوراتية يجعل جميع المقارنات الجارية بين وثائق ابلا والنصوص التوراتية من الأمور المستحيلة والتي يكتنفها الشك . ونظرا للفاصل الزمني البعيد بين وثائق ابلا

والنصوص التوراتية فقد أصبح عامل الزمن يحتل المقام الاول . لذلك يتوجب على علماء الآثار والاستشراق والتوراة ان يمتنعوا عن القيام باستنتاجات وقياسات انطلاقا من ماثورات توراتية متقدمة وغير مؤكدة .

وانا شخصيا اتبنا منذ الان أن نصوص ابلا في نهاية المطاف ستؤكد البيئة بان التوراة لم تكن من صنع مؤلفين سوريين قداماء او كنعانيين بل من صنع مؤلفين يهود . وفي هذا الصدد ثمة ملاحظة تستحق الذكر وهي ان القموض الكائن حول البدايات التاريخية لـ (اسرائيل) والزمن الذي بدا فيه تاريخ اسرائيل من جهة ، وحول مسيرة البحث العلمي حول هذه النقطة من جهة اخرى ، تجعلنا نتفهم لماذا يستمر علماء التوراة في تعليق الامل الكبيرة على النصوص الاثرية التي تكتشف في سورية .

(١) نشا الجدل حول بابل والتوراة في اعقاب محاضرة القامس ف. ديليتش F. Delitzch في ١٢/١/١٩٠٢ في لايبزغ والمنشورة في كتيب بعنوان بابل والتوراة .

(٢) فيما يتعلق بالجدل الناشء حول اوقاريت والتوراة انظر على سبيل المثال لا الحصر بحث جي. م. سي ، دومور J. C. de Moor ، و ب. فان در - لوخت P. Van der Lugt المنشوران Spectre of Pan-Ugaritism المنشور في مجلة Bibliotheca Orientalis العدد ٣١ لعام ١٩٧٤ صفحة ٤٠٣ .

(٣) نحاشيا لكل سوء فهم لابد لنا من نقل التصريحات نقلا حرفيا ، فقد كتب بيتناتو في مجلة الانباري التوراتي (العدد ٢٩ لعام ١٩٧٦ صفحة ٤٧) ما يلي : من اهم ملوك ابلا اشارة للانتباه هو بالتأكيد ابروم « لانه يذكرونا بالتوراة » . اذ يرد اسمه مكتوبا بشكل مقطعي كالتالي (اب - اورو - اوم) . وثمة امكانيتان للقراءة الاولى ((ابرو-اوم)) والقراءة مدمجة بين هذا الاسم واسم (مير) جد الساميين حسب سفر التكوين (١٠-٢١) والثانية « ايريوم » الذي يذكرونا قطعا باسم « عبري » وانا شخصيا اميل الى اخذ بالامكانية الثانية .

(٤) فيما يتعلق بالجدل حول المعينة الكتابية حابرو او خابيرو انظر ج. بوتيرو J. Bottéro في قاموس الاسوريات Real lexicon d' Assyriology المجلد الرابعة (١٩٧٢-١٩٧٥) ص ٢٢ .

(٥) انظر مثلا مقالة الفونسو آوكي بعنوان: هل مدن السهل الخمس واد ذكرها في نصوص ابلا ، المدن التي يرى جوفاني بيتناتو بانها موجودة بالقرب من البحر الميت المنشورة في مجلة الآثار التوراتية Biblical Archaeology Review العدد ٧/٦ لعام ١٩٨١ ص ٥٤-٥٥ ، ثم انظر ج. د. موهلي J. D. Muhly في المجلة نفسها صفحة ١٠ ، حيث يبدي اهتماما بالربط بين ابلا وسفر التكوين ١٤/١ ، فقد كتب يقول : من المثير جدا لاهتمام قراء هذه المجلة مسألة ورود اسماء مدن توراتية في نصوص ابلا ، وبخاصة المدن الخمس حيث يفترض بانها ترد في التسلسل نفسه كما في التوراة . ثم انظر دافيد بويل فريدمان في كتاب « دراسات في عصر داود وسليمان ودراسات اخرى » دار نشر ايشيدا ، طوكيو ١٩٨٢ ص ٢٢٨-٢٣٠ .

- (٦) انظر باولو ماتيه ، ابلا امبراطورية اكتشفت من جديد ، لندن ١٩٨٠ ص ٢٢٤ ، وانظر جوفاني بيتيناتو ، ابلا - امبراطورية منقوشة في الطين ، ميلانو ١٩٧٩ ، ص ٢١٥ .
- (٧) انظر آ.ف. رايني ، مجلة الاستكشافات الاسرائيلية العدد ٣٠ لعام ١٩٨٠ ص ٢٥١ وانظر دافيد فريدمان ، دراسات في عصري داود وسليمان ، دار نشر ايشيدا ، طوكيو ١٩٨٢ .
- (٨) انظر ج. برايت ، تاريخ اسرائيل ، لندن ١٩٨١ ص ٧٨ .
- (٩) انظر ج. برايت ، تاريخ اسرائيل ، لندن ١٩٨١ ص ٩٥ .
- (١٠) انظر ميشيل داود ، ابلا واوغاريت والمهد القديم ، مجلة الحفارة الكاثوليكية العدد ١٢٩ الجزء الثاني لعام ١٩٧٨ ص ٢٢٤-٢٢٥ .
- (١١) انظر ف. شاباس ، العبرانيون ، مجلة منوعات مصرية Mélanges égyptologiques السلسلة الاولى ١٨٦٢ ، ص ٤٢-٥٤ .
- (١٢) انظر ف. شاباس ، ابحاث حول تاريخ الاسرة التاسعة عشر ، باريس ١٨٧٢ ص ١٠١-١٠٦ .
- (١٣) انظر ج. ماسبيرو ، « هل العبرو هم العبرانيون » مجلة الميثولوجيا والاثار المصرية ، المجلد الثالث ، باريس ١٨٩٨ .
- (١٤) C.R. Conder «Monumental Notice of Hebrew Victories, » PEQ 22 (1890) P. 326-329 .
- (١٥) H. Zimmern, Palestina um das Jahr 1400 V. Chr, nach neun Quellen, ZDPV 13 (1890), P. 137-138. انظر
- (١٦) F. Böhl , Kanaanäer und Hebräer, Leipzig 1911, p. 73-89. انظر
- (١٧) A. Jirku, Die wanderung derHebräer im 3 und 2 Jahrtausend Leipzig 1924, P. 29 . انظر
- (١٨) W. F. Albright « Deutung der väter israel, ». Biblica 52, 1971, p. 407 - 432 . انظر
- (١٩) B. Landsperger, Zeitschrift für Assyriologie 32 (1924), P. 213 انظر
- (٢٠) W. F. Albright, From the Patriarchs to Moses, Biblical Archaeologist 36 (1973) p. 15-16. انظر
- (٢١) M. Weipert, Die Landnahme der Israelitischen Stämme in der neueren wissenschaftlichen Diskussion, Göttingen 1967, 14-51. انظر
- (٢٢) Lipnski, West Semitic Personal Names from Ebla, Accadica 14, 1979, 52 . انظر
- D. N. Freedman, The Real Story of the Ebla Tablets and the Cities of the Plain, Biblical Archaeologist 41 (1978)P. 153.

مع الكتب

هل جاءت التوراة من جزيرة العرب ؟

د. محمود أبو طالب

الجامعة الاردنية

صدر في ايلول من سنة ١٩٨٥ م من تأليف الدكتور كمال الصليبي الاستاذ في قسم التاريخ والآثار في الجامعة الامريكية في بيروت كتاب بعنوان : « التوراة جاءت من جزيرة العرب » (١) . وهو الان في طبعته الثانية في كل من اللغات العربية والانجليزية والالمانية . واطروحة هذا الكتاب هي ان تاريخ بني اسرائيل ، كما ترويهِ التوراة قد اتخذ مساره بالكامل في ارض عسير وجنوبي الحجاز في غربي شبه الجزيرة العربية وان الصعوبات التي واجهها ويواجهها دارسو التاريخ التوراتي وادت بالكثيرين منهم الى التشكك في صحة ذلك التاريخ سببها قبولهم بالفكرة التقليدية القائلة بان جذور تاريخ بني اسرائيل تعود الى العراق ومصر وان يؤرثه كانت في فلسطين . ووفقا لهذه الاطروحة فان ارض كنعان التي نجح بنو اسرائيل في اقامة كيان لهم فيها ليست فلسطين وانما المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر منطقة رجال المع وحتى منطقة جيزان في الجنوب . كما ان ارض الفلسطينيين (٢) هي ليست الساحل الفلسطيني وانما ساحل تهامة من جوار الليث في الشمال الى جوار جيزان في الجنوب . وان هيردن ليست نهر الاردن وانما هي لفظة تعني « جرف » او « قمة » او « مرتفع » وقد استعملت للإشارة الى مثل هذه المظاهر الطبوغرافية في عسير وجنوبي الحجاز . وفي عسير ايضا ، وليس في مصر وفي العراق ، نجد نهري مصر ايم و فرات ، والاول هو وادي ليه والآخر هو وادي اضم . اما مصر ايم نفسها فليست سوى قرية المصرة (او المصرامة) بين ابها وخميس مشيط . وليس هذا كل شيء فال مؤلف يرى ايضا ان كتابات المصريين والعراقيين ، وممالك الاجزاء الشمالية من بلاد الشام في الالفين الثانية والاولى قبل الميلاد مما له صلة بيئة تاريخ بني اسرائيل تشير هي الاخرى الى غربي شبه الجزيرة العربية .

ولقد وصف الدكتور الصليبي نفسه هذه الاطروحة بانها « استنتاج مذهل » (ص ٢٧) وهو يقر بانها تبدو « في منتهى الغرابة للوهلة الاولى ليس فقط بالنسبة لليهود

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ - ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

والمسيحيين الذين اعتادوا على ان ارض التوراة هي فلسطين بل ايضا بالنسبة الى المسلمين الذين اخذوا هذه الفكرة عن اليهود والمسيحيين « (ص ١٥١-١٥٢) بل انه يعتقد كما ورد على لسانه في مقابلة معه نشرتها مجلة لبنانية (٣) بان هذه الاطروحة تشكل دعوة الى اعادة النظر في اُسس الحضارة العربية . وكيفما كان الامر ، فان اقل ما تنطوي عليه هذه الاطروحة ، ان صحت ، هو خلق تاريخ قديم كامل لغربي شبه الجزيرة العربية ومحو كامل تاريخ فلسطين القديم واعادة النظر في التاريخ القديم لكل من الشام ومصر والعراق لمدة ألفي سنة - على الاقل - وشطب كل ما كتب في هذه المواضع لمدة ألفي سنة اخرى .

وفي الفصل الاول من هذا الكتاب وهو بعنوان « العالم اليهودي في العصور القديمة » (ص ٢٧-٥٦) يفسر لنا الدكتور الصليبي كيف قدر لـ « الوهم » بان فلسطين هي ارض التوراة ان يسيطر على البشرية كل هذه المئات من السنين . ويبدأ تفسيره بالتأكيد على ان كون مسار تاريخ بني اسرائيل في غربي شبه الجزيرة العربية « لا يعني ان اليهود لم يكن لهم اي وجود في فلسطين او في غيرها من البلدان خارج غرب الجزيرة العربية في ايام التوراة » (ص ٢٨) . وتعود بدايات الوجود « اليهودي » (٤) في فلسطين الى القرن العاشر قبل الميلاد - اي الى زمن داود وسليمان - وكان الحافز له حينئذ تجاريا . ثم لم يلبث انتقال « اليهود » الى فلسطين ان اتخذ شكل هجرات واسعة النطاق بسبب الحروب التي نشبت بين مملكتي اسرائيل ويهوذا منذ انفصلتا اثر وفاة سليمان وكمادة المهاجرين في كل زمان وفي كل مكان من هذا العالم ، كما يؤكد الصليبي عمد « اليهود » المهاجرون الى فلسطين الى اطلاق اسماء يعرفونها في غربي شبه الجزيرة العربية على مواقع في فلسطين . وهكذا فاننا نجد في فلسطين ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد اسماء اماكن توراتية مثل يهوذا ، يروشلیم (٥) ، بيت لحم ، حبرون ، شمرون ، جرزيم ، عيبال ، كرمل جليل وهيردن (ص ٣٥-٣٦) . كما ان الدكتور الصليبي يؤكد ايضا انه لم يكن اليهود اول من استوطن فلسطين قادما من غرب شبه الجزيرة العربية بل هناك الفلسطينيون اي الفلسطينيون (والتفسير له) الذين وصلوا ولا شك من غرب شبه الجزيرة العربية قبلهم فصارت تعرف باسمهم وهناك ايضا الكنعانيون الذين نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية في زمن مبكر عندما تفرقت قبائلهم في الارحاء (سفر التكوين ١٨: ١٠) ليعطوا اسمهم لارض كنعان (كنعان) على امتداد الساحل الشامي شمالي فلسطين (ص ٣٣) وقد اعطى كل من الفلسطينيين والكنعانيين اسماء يعرفونها في عسر لواقع في فلسطين وبلاد الشام ، ومن هنا نجد فيها اسماء فلسطينية مثل غزة واشكلون وبيت دجن منذ « ما قبل بني اسرائيل » واسماء كنعانية مثل صور ، صيدون ، جبيل ، ارواد ولبنان منذ « زمن مبكر » (ص ٣٤) .

ويستمر الدكتور الصليبي في تفسيره ليخبرنا يانه عندما تحطم كيان بني اسرائيل السياسي في ارض عسر باحتلال تبوخلد نصر البابلي ليروشلم سنة ٥٨٦ ق.م ، تركز

التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين وقبل ان يمر وقت طويل كانت اصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية قد دخلت في غياهب النسيان (ص ٤٣) وقد تحقق ذلك نتيجة لموت اللغة العبرية الذي بدأ منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد مع بداية شيوع اللغة الارامية كلغة للحياة اليومية اواخر زمن البابليين ، وبلغ ذروته عندما أصبحت الارامية لغة رسمية في زمن الامبراطورية الاخمينية . وبموت اللغة العبرية بدأت صلة يهود فلسطين بكتبهم المقدسة تنقطع وانقطعت ايضا الصلة بينهم وبين يهود غربي شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث هؤلاء - اي يهود غربي الجزيرة - ان تشتتوا بين الكيانات المحلية الجديدة واهمها دولة معين التي قامت في نفس المنطقة التي كانت قد قامت فيها مملكة بني اسرائيل من قبل . اما بالنسبة ليهود فلسطين فقد كان الحال مختلفا اذا اتاح لهم الصراع بين البطالة والسلوقيين الفرصة لتحقيق استقلالهم واقامة ما يعرف باسم مملكة الحشمونيين سنة ١٦٧ ق.م . ويؤكد المؤلف ان هؤلاء الحشمونيين قد اعتبروا انفسهم الورثة الشرعيين لاسرائيل القديمة وفي ايامهم « تم اعتبار فلسطين باتها الارض الاصلية لشعب اسرائيل البائد والتوراة العبرية » (ص ٤٨) . ومنذ ذلك الوقت سيطر هذا الوهم على العالم .

ولا ثبات ان الربط بين فلسطين والتوراة ليس اكثر من وهم ، يستند المؤلف على ركيزتين نجد الاولى في الفصل الثاني المعنون بـ « مسألة نهج » (ص ٥٧-٧٢) ونجد الاخرى في الفصل الخامس وعنوانه « ما لم يكتشف في فلسطين » (ص ١٠٥-١٢١)؛ والركيزة الاولى هي ان النص العبري التوراتي يمثل لغة ميتة يجب عند التعامل معه تعريته من جميع حركاته ، والركيزة الثانية هي ان النشاط الاثري في فلسطين والذي مضى على بدايته اكثر من مئة سنة لم يقدم لنا حتى الان اي دليل على صحة مثل هذا الربط .

وفي توضيحه للنقطة الاولى يؤكد المؤلف على ان النص العبري التوراتي مكتوب بنقطة « خرجت عن اطار الاستعمال العام منذ زمن يعود الى ما بعد القرن السادس او الخامس قبل الميلاد (ولذلك) فانه لا يمكن لاحد ان يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الاصل لدى الشعب او الشعوب التي تكلمتها (ص ٥٧) . وبدءا من القرن السادس الميلادي قامت جماعة من علماء اليهود اصطلاح على تسميتهم بالـ « ماسوريم » بادخال النقط والحركات على هذا النص ، وبحكم انهم كانوا يتعاملون مع لغة مضى على موتها احد عشر او اثنا عشر قرنا فان ما ادخلوه من الحركات لا يمكن اعتباره موثوقا او صحيحا . ومن المؤكد ايضا ، كما يدعي المؤلف ، انهم ارتكبوا الكثير من الاخطاء فيما يتعلق بالحروف الساكنة وبصورة خاصة حين اعتبروا ان كلمة واحدة هي في الاصل كلمتين او حين اعتبروا حرفا ما سابقا لكلمة ما ، بينما هو في حقيقة الامر لا حق للكلمة التي قبلها، وهكذا ..

ولا شك ان الدكتور الصليبي مصيب فيما يتعلق بزمن ادخال الحركات في النص

العبري التوراتي ، أما القول بأن اللغة العبرية قد ماتت منذ القرن الخامس قبل الميلاد ففيه الكثير من المبالغة بل عدم الصحة . صحيح أن استعمال اللغة العبرية في الحياة الدنيوية اليومية قد بدأ منذئذ بالانحسار وصحيح أيضا أن بعض الفاظ التوراة لا تزال إلى اليوم موضع خلاف في معناها ومعناها ، إلا أنه من المؤكد جدا من الناحية الأخرى أن ترتيب أجزاء من التوراة العبرية قد كان ولا يزال هو محور الصلوات في الكنس وفي البيوت الخاصة . ولقد بدأ الربانة منذ القرن الخامس قبل الميلاد بدراسة النصوص العبرية التي بين أيديهم من أجل تقرير ما هو « مقدس » منها وما هو « غير مقدس » (١) وهي عملية لم تنته إلا في أواخر القرن الأول الميلادي ، ولا يصح تكنيكيا انحديث عن « التوراة » (٢) كمجموعة كاملة من الأسفار المقدسة قبل ذلك . وبالعبيرية كتبت طائفة الإيسينيين اليهودية جل كتاباتها وكل أسفار التوراة المقبولة لديها وهي الكتابات المعروفة باسم « مخطوطات البحر الميت » (٣) ويعود أقدمها إلى القرن الثالث قبل الميلاد وأحدثها إلى أواسط القرن الثاني الميلادي . وإلى الفترة اليونانية تعود كثير من الكتابات العبرية التذكارية التي كشف عنها في الكنس وعلى المقابر إضافة إلى العديد من قطع العملة الحشمونية (٤) . ولقد وجد عدد من آباء الكنيسة الأوائل أنفسهم مضطرين إلى تعلم اللغة العبرية حتى يتمكنوا من قراءة ما اصطلح المسيحيون على تسميته « العهد القديم » بلغته الأصلية . وفيما يخص أسماء الأماكن وهي لحمة كتاب الدكتور الصليبي وسداه كما يقولون ، وصلنا ومن الفترة اليونانية نص توراتي دخلت عليها فيه الحركات وأعني بذلك الترجمة اليونانية المعروفة باسم « السبعونية » Septaugint لم تلبث أن تبعثها ترجمة لاتينية تعرف باسم « الدارجية » Vulgate وفي سنة ٢٤٥م أنجز الأب أوريجن Origen عملا ضخما يعرف باسم Hexpala يتألف من ستة أعمدة متوازية الأولى منها هو النص العبري بحروفه الساكنة والثاني هو ما يقابل تلك الحروف باليونانية Transcription أما الأعمدة من ٣ إلى ٦ فقد حوت نصوص أربع ترجمات يونانية معروفة في زمنه من بينها الترجمة السبعونية . ومن الغريب أن الصليبي قد نوه بالترجمات الآرامية زمن الإخمينيين واليونانية زمن الهيلينيين في معرض التدليل على أن اللغة العبرية كانت ميتة تماما (ص ٥٨-٥٩) ولكن ما لا يستطيع إنكاره أنها كانت مفهومة على الأقل من قبل أولئك الذين قاموا بتلك الترجمات . وهذا هو أقل ما يقال بشأن ال « ماسوريم » (١٠) الذين بدأوا بادخال الحركات في النص العبري في القرن السادس الميلادي ، إذ من المستحيل أن يكونوا قد قاموا بذلك « بصورة اعتباطية » كما يزعم المؤلف (ص ١٥) والا لكان يصح أن يقال بأنهم وضعوا قواعد جديدة وبالتالي نصا توراتيا جديدا .

أما الركيزة الثانية التي اعتمد عليها الصليبي لاثبات أن الربط بين فلسطين والتوراة وهم فهي الادعاء بأن النشاط الأثري المكثف فيها لم يكشف عما يبرر مثل هذا الربط ، وقد اقتصر الدكتور الصليبي في محاولة اثبات ذلك على مناقشة عاجلة لثلاثة

نقوش هي : نقش ختم من تل الخليفة بالقرب من العقبة ونقش نفق سلوان من القدس ونقش ميشع من ذيبان ومجموعتين من الكسر الفخارية التي تحمل كتابة كشف عن المجموعة الاولى في سبسطية وتعرف باسم كتابات السامرة وكشف عن الاخرى في تل الدوير ويشار اليها عادة باسم كتابات لاختش . ويخلص من هذه المناقشة الى ان هذه النقوش والكتابات لا تحتوي اسماء اشخاص او اماكن يمكن ان ترتبط بالتوراة . ثم يختتم هذا الفصل بسرد مجموعة من المطابقات اللغوية بين اسماء اماكن وردت في بعض كتابات الملك الاشوري سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) وهي مما اكتشف في العراق وفي بعض رسائل تل العمارنة (التي تعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد) وقد اكتشفت في مصر ، هذا من ناحية . وبين اسماء اماكن في غربي شبه الجزيرة العربية من ناحية اخرى . وبذلك يختلط في فصل عنوانه « مالم يكتشف في فلسطين » بعض ما اكتشف في كل من فلسطين والعراق ومصر . ولا مجال بالطبع لقبول مطابقاته اللغوية المتعلقة برسائل تل العمارنة ونصوص سرجون الاشوري اذا لم يثبت لنا بعد ان ارض التوراة هي عسيرة ، اما مناقشته للكتابات التي وجدت في فلسطين فيمكن اعتبارها مثلاً لما يجب ان لا تكون عليه المناقشة العلمية .

والتدليل على مدى تهافت هذه المناقشة فاننا سوف نقبل جدلاً كل النقاط التي يصر عليها ثم نسأل هل تثبت هذه النقاط حتى لو صحت ان فلسطين هي ليست ارض التوراة ؟ اما النقاط التي يصر عليها فهي :

أولاً : ان الحروف الاربعة المكتوبة على ختم الخليفة لى تم هي ليست اسم يوثام ملك يهوذا كما زعم النقب (نلسن جلوك) N. Glueck وانما الى يوثام ما وقد لا يكون من بني اسرائيل بل قد (يكون اسم الاله المصري اتوم) (١١) . كما ان تحديده لموقع عصيون جبر المذكور في التوراة في تل الخليفة الحالي ليس صحيحاً . والواقع هو ان كثيرين من المختصين قد سبقوا الدكتور الصليبي في رفض المطابقة بين يوثام وملك يهوذا الذي يحمل نفس الاسم ورفضوا أيضاً تحديد موقع عصيون في تل الخليفة .

ثانياً : ان اسم الملك حزقيا من ملوك يهوذا غير مذكور في نقش سلوان ولا يرد في هذا النقش ذكر اسم أي موقع بما في ذلك يروسلم ولم يدع احد خلاف ذلك .

ثالثاً : ان الكتابات التي عثر عليها في سبسطية ويطلق عليها اسم كتابات السامرة لا ذكر فيها لاسم الموقع (شمرون) . ولم يدع احد خلاف ذلك ابداً .

رابعاً : ان كتابات تل الدوير لا ذكر فيها لاسم المكان (لاختش) المذكور في التوراة وان ادعاء وليم البرايت W. F. Albright بان لاختش هي تل الدوير ادعاء باطل وباطل ايضا ادعاؤه بان الحروف . . س ل م هي ما بقي من اسم يروسلم .

خامسا : ان نقش ميشع يتحدث عن حروب هذا الملك الموابي مع عمري ملك اسرائيل وابنه وقد كتب على نصب اقيم في جحرا جنوبي الكرك بعد اضطرار ميشع للجلء عن مواب في الحجاز .

ويبقى ان ما لا يستطيع الدكتور الصليبي ان ينكره هو ان هذه الكتابات قد اكتشفت في ارض فلسطين والاردن وان اربعاً منها بالعبرية واحداً بالمؤابية وهما لهجتان كنعانيتان وان اسم ميشع واسم يوثام المذكوران في التوراة وليس صحيحاً ما زعمه المؤلف من ان جلوك ، وبناء على ختم يوثام فقط حدد موقع عصيون جبير التوراتية في تل الخليفة تم اخذ «يعلم للعالم دون ان يرف له جفن اكتشاف الموقع الصحيح والدقيق لمناجم نحاس الملك سليمان » (ص ١٠٦) . لقد تقب جلوك في تل الخليفة (١٢) عدة شهور وكشف عن طبقاته الاثرية وما تحويه من فخار وابنية ودرس سياق ذكر عصيون جبير في النصوص التوراتية قبل ان يقترح هذه المطابقة التي تبقى اقتراحاً ربما كان خاطئاً . وليس صحيحاً ايضاً ان البرايت (١٣) قد حدد موقع لاخيش في تل الدوير بناء على الكرة رقم ٤ التي وجدت فيها ، ومن الغبن الشديد ان يوصف اقتراحه بان الحروف س ل م هي ما بقي من اسم يروسلم بالصفاقة والاعتباطية وغياب اقل احترام للامانة العلمية (ص ١١١) اذ ان اقتراحاً كهذا ، بغض النظر عن صحته او عدم صحته امر مشروع في مجال الدراسات الاثرية والتاريخية . ثم لماذا كل هذا الغضب الم يؤكد لنا المؤلف في عدة مواضع من كتابه انه كان يوجد في زمن التوراة يروسلم فلسطينية .

ان الثقة المطلقة وغير المعقولة التي يقدم بها الدكتور الصليبي مثل هذه الحجج وتجاهله التام لعشرات بل مئات الدراسات والتقارير التي تتعلق بهذه الكتابات الخمس فقط يؤكد لنا انه لا يقدر مدى التعقيد الذي نجده في تاريخ فلسطين القديم . والا كيف خيل للدكتور الصليبي انه يستطيع ان يقنع احداً باستثناء بعض من قائلوه من كتاب الصحف الدارجة ، ان ميشع قد اقام في جحرا نصبا تذكاريًا لتخليد هزائمه ثم انتقل هذا النصب ليكشف عنه في ذيبان ، او انه حتى يصح الربط بين حزقيا ونقش سلوان ، يجب ان ينص هذا النقش الذي لم يصلنا كاملاً على ما يلي « ان هذا النقش قد كتب في زمن الملك حزقيا (ص ١٠٧) ونذكر بهذه المناسبة ان نقش سلوان لم يعثر عليه في قرية سلوان قرب القدس كما يزعم الصليبي وانما على جدار نفق يربط بين عين ستنا مريم (وتسمى ايضاً عين ام الدرج) وبركة سلوان وكلاهما على التلة الشرقية الى الجنوب من سور الحرم الجنوبي » (١٤) .

هذا من محاولة الدكتور الصليبي اثبات ان ارض التوراة هي ليست فلسطين فماذا عن محاولته اثبات ان هذه الارض هي عسير ويعرف الجميع بالطبع انه لم تجر في ارض عسير حتى الان اية نشاطات اثرية ولم يكتشف فيها ابداً اي اثر مكتوب لهاية

سلة قريية او بعيدة بلغة التوراة او تاريخها ، فعلى ماذا يعتمد الدكتور الصليبي
اذن ؟ ..

يعتمد الدكتور الصليبي على ما يدعيه من وجود مطابقات بين أسماء اماكن
في التوراة واسماء اماكن في عسر وغربي شبه الجزيرة العربية ، ويعترف الدكتور
الصليبي بأنه اكتشف هذه المطابقات اكتشافا وعن طريق الصدفة ، اذ تقرا في الفقرة
الاولى من الفصل الاول مايلي « لقد كان الامر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة . كنت
ابحث عن اسماء الامكنة ذات الاصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية عندما
فوجئت بوجود ارض التوراة كلها هناك . . . وكان اول ما تنبته اليه ان في هذه المنطقة
اسماء امكنة تشبه اسماء الامكنة المذكورة في التوراة وسرعان ما تبين لي ان جميع
اسماء الامكنة التوراتية العالقة في ذهني او جلها ما زال موجودا فيها » (ص ٢٨) . وبما
ان اسماء الاماكن في غربي شبه الجزيرة العربية واسماء الاماكن في التوراة لم تكن
في يوم من الايام سرا خفيا فان سر تفرد الدكتور الصليبي ، دون غيره بهذا الاكتشاف
يكمن في المنهج او على الاصح غياب المنهج الذي اتبعه للوصول الى هذه المطابقات
وهذا ما نجده فيما عنوانه « ملاحظات لغوية » (ص ٢١-٢٥) وهي التي نجدها مكررة في
« مسألة نهج » (ص ٦٠-٦٣) .

ومما يلفت النظر ان كتابا تستند اطروحته في شقها الاهم على مطابقات لغوية
قد اکتفى مؤلفه بما سماه « ملاحظات لغوية » جاءت مختصرة جدا ومحشورة بين
المقدمة والفصل الاول ولا ذكر لها في قائمة المحتويات وتبدأ هذه الملاحظات بافادتنا بان
الابجدية العبرية تشترك مع الابجدية العربية في اثنين وعشرين حرفا وان هنالك ستة
حروف عربية لا وجود لها في العبرية . يلي ذلك قائمة « بالتحويلات التي يقرها علماء
اللغات السامية بين اللغتين » تتألف من حروف عبرية وما يقابلها من الحروف العربية .
ولم يقدم الدكتور الصليبي اي دليل على ان علماء اللغات السامية يقرون جميع هذه
التحويلات او اي دليل على انها جميعا صحيحة . ولم يميز الدكتور الصليبي بين
تحويلات يقبل علماء اللغات السامية بامكانية حدوثها في الفاظ ذات معنى واحد او
متشابه او متضاد (١٥) وبين النقل في اسماء الاعلام (١٦) ، اذ ان الاصل في هذه الاخيرة
ان تنتقل بحروفها كما هي فيما عدا تلك الحروف التي لا وجود لها في احدى اللغتين .
ومع ذلك فان تحولا في احدى حروف اسم العلم كان يحدث ولكن دون ان يحكم ذلك قاعدة
جامعة مانعة . اذ ليس شرطا ان تتحول الهمزة مثلا الى واو او ياء بل قد تبقى همزة
او قد تتحول الى عين او قد تسقط .

وتأتي المفاجأة بعد قائمتي الحروف العبرية والعربية حين يقدم لنا الدكتور
الصليبي مجموعة جديدة تماما من قواعد التحول في الحروف بينهما استنبطها هو « من
المقابلة بين اسماء الاماكن التوراتية وتلك الموجودة الى اليوم في غرب شبه الجزيرة

العربية «(ص ١٢٣) . فهو يستنتج مثلا وعلى هذا الاساس ان حرف اللام في اسماء الاماكن التوراتية مهما كان موضعه في التركيب يتحول الى ال التعريف في نظيره العربي في عسير . وهكذا تصبح جلعد : الجعد وتصبح لمعلاه : المعلاه . وهو يقرر ايضا ان اسماء الاماكن التوراتية التي على وزن « يفعل » و « تفعل » تتحول الى العربية على وزن « فعل » و « فعلة » وهكذا تصبح يقطن : قطن ؛ تعنك : عنقه ؛ علما بان الدكتور الصليبي يؤكد في الملاحظة التي تلي ذلك مباشرة انه يجب تعرية الاسماء في كل من العبرية والعربية من الحركات وحروف الملة (ص ٢٤) فكيف استقام له مع ذلك الحديث عن الاوزان . ولنفرض جدلا ان اللغة العبرية لغة ميتة فلا نعرف كيف كانت تلفظ اسماء الاماكن فيها فلماذا يريدنا ان نعيث اللغة العربية ايضا . ويؤكد الدكتور الصليبي ان الشين العربية لا تنقلب انى ثاء عربية الا في منطقة جيزان حيث تصبح بشن التوراتية بشن كما ان الكاف العربية لا تنقلب ابدا الى خاء وذلك لانه لم يجد مثل هذا التحول على الاطلاق في التعريب الذي حصل لاسماء الاماكن التوراتية في شبه الجزيرة العربية (ص ٢٤) . ولا تنسخ هذه القواعد الجديدة عددا من التحولات التي وضعها في القائمتين بل انها تضعنا امام حالة لا مثيل لها من الدوران في حلقة مفرغة ، ان الدكتور الصليبي يريد ان ينقل ارض التوراة الى عسير لانه يدعي انه وجد مطابقات لغوية بين اسماء الاماكن في كل منهما وهو يريد ان يقنعنا بصحة هذه المطابقات بناء على قواعد جديدة تماما استنبطها هو دون غيره من افتراض وجود هذا التطابق اصلا .

ولنضرب على ذلك مثلا المطابقة بين يروشلم وآل شريم التي نجدها في الفصل التاسع « اورشليم ومدينة داود » (ص ١٧٥-١٩٣) ويتوصل المؤلف الى هذه المطابقة في الصفحة ١٨٣ . وحسب ادعائه فان كل من حصل لغويا عند النقل من الاسم التوراتي الى آل شريم هو «تغير موقعي الحرفين الراء واللام بين قسمي الاسم المركب » (ص ١٨٣) ولم يتنبه الدكتور الصليبي الى انه لا وجود في النص العبري ابدا لصيغة « يروشليم » ، لئلا بين اللام والميم وانما يكتب دوما ودون استثناء يروشلم اما ما حصل للاسم يروشلم حتى اصبح آل شريم فهو ماييلي :

اولا : تحولت الياء الى مدة .

ثانيا : نقل الحرف الثاني الراء ليصبح الرابع .

ثالثا : سقطت الواو نهائيا .

رابعا : انتقل الحرف الرابع الشين ليصبح ثالثا .

خامسا : انتقل الحرف الخامس اللام ليصبح الثاني .

سادسا : اضيفت ياء جديدة في آل شريم .

وقد اقتصرت محاكمات المؤلف اللغوية على الجملة التي اقتبسناها اعلاه اما النصفحات من ١٧٥-١٨٣ فقد احتلتها مناقشة ما يسميه « احداثيات » يروسلهم بالنسبة الى حبرون التي هي الخربان في منطقة المجاردة . ويذكر اسم حبرون للمرة الاولى في الصفحة ٣٥ في سياق التأكيد على ان بني اسرائيل عندما هاجروا من عسير الى فلسطين زمن التوراة استعملوا في فلسطين اسماء توراتية من بينها حبرون، ويذكر في المرة الثانية في الفقرة الاولى من هذا الفصل ليفرض علينا المؤلف مايلي :

« هناك خمسة امكنة تسمى حبرون ما تزال موجودة تحت اسم (خربان) (خربن بقلب الاحرف) على المنحدرات البحرية لعسير ومن بين هذه الامكنة الخمسة يحتمل ان عاصمة داود الاولى (اي حبرون) كانت قرية الخربان الحالية في منطقة المجاردة » (ص ١٧٥) فلماذا وعلى اي اساس اختار خربان في منطقة المجاردة دون غيرها من بين خمسة مواقع تحمل نفس الاسم لتكون عاصمة داود الاولى ويستمر المؤلف « وكما سنرى لابد ان اورشليم كانت تقع على مسافة ما صعودا باتجاه الشرق في جوار النماص الخ » ولكن ما نراه هو سبع صفحات من « التدقيق في النص العبري لصموئيل الثاني ١٠-٦٠٥ الذي يتحدث عن كيفية استيلاء داود على اورشليم » (ص ١٧٦) يحدد فيها المؤلف مواقع عدد من اسماء الاماكن الحقيقية او المتخيلة بالنسبة الى خربان في منطقة المجاردة ثم لا يلبث ان يعثر على موقع اورشليم « فورا على مسافة حوالي ٣٥ كم الى الشمال من بلدة النماص في سراق عسير شمالي ابها . انها القرية التي تسمى اليوم آل شريم » (ص ١٨٣) .

وفي الفصل المعنون « مسألة الاردن » (ص ١٣٣-١٥٤) توصل الدكتور الصليبي في الصفحة الثانية من هذا الفصل الى ان هـ ي ر د ن الاردن تعني « جرف » « نتوء » او « مرتفع » كما يلي : يقرر الدكتور الصليبي في الجملة الاولى من هذا الفصل ان هـ ي ر د ن لم تكن في التوراة نهرا لان عبارة نهر هيردن لا ترد في اي مكان فيها ورغم انه يقتبس من كتاب (لجون سيمونز) قوله ان « مشكلة اصل ومعنى كلمة يردن التي اختلفت الاراء حولها ما زالت بلا حل (ص ١٢٣ هامش رقم ١) الا انه يقرر انها من الجذر (يرد) بمعنى انحدر ويقابلها في العربية الجذر (ودي) الذي يعني سقط ومنها اشتق الاسم الذي نجده في عسير في صيغة ريذان وهي تعني نتوء او مرتفع (اما النون في كل من يردن وريذان فهي اداة تعريف ممتدة) وعلى ذلك فان هيردن تعني جرف نتوء او مرتفع . من ناحية اخرى وفي الهامش رقم ٣ صفحة ١٣٥ يعترف الدكتور الصليبي ، على مضض ان عبارة « مياه الاردن » ترد في التوراة (وهي تذكر عدة مرات) وهنا يقترح ان (يرد) العبرية مقابلة لـ (وود) العربية وليس (ودي) ويكون معنى هـ ي ر د ن هنا ليس جرفا او نتوءا او مرتفعا وانما جدول ماء او بركة (١٧) ..

وكتاب الدكتور الصليبي هو مجموعة هائلة من المطابقات اللغوية من هذا

المستوى وفيه من المفارقات ما لا يحيط به حصر ،ومنتها ان المؤلف يؤكد لنا ، وفي اكثر من مكان ، ان بعض اسماء الاماكن في عسير زمن التوراة قد اطلقت من قبل المهاجرين الى فلسطين على مواقع فيها ونحن نعرف على وجه التحقيق كيف انتقلت اسماء هذه المواقع في فلسطين الى لغتنا العربية فلماذا انتقلت في عسير على نحو يختلف تمام الاختلاف ، اننا نعرف انه في فلسطين عريت هذه الاسماء كما يلي: يروشلم : اورشليم ، يريحو : اريحا ، عزة : غزة ، اشكلون : عسقلان ، اشدود : اسدود ، يافو : يافا ، عكو : عكا ، وتعنك : تعنك .. الخ ، فلماذا عريت في عسير على النحو التالي : يروشلم آل شريم ، يريحو : الرخية او الوراخ وعزة : آل عزة في منطقة بلحمر او العزة في وادي اضم او عز في منطقة بلسمر واشكلون : شقله في جوار قنفذة او ثقالة في الجوار نفسه ولماذا عريت اشدود اما الى السدود في رجال المع او السداد في منطقة جيزان او الشديد في منطقة مكة المكرمة ، او السداد في منطقة الطائف وكيف اصبحت يافو : الوفية ، وعكو : العكة وتعنك : عنقة ؟ الخ .

ومن النقاط البارزة في هذا الكتاب التسليم بصحة روايات التوراة التاريخية تسليما مطلقا الى درجة لم يصل اليها اكثر التوراتيين المحافظين تطرفا ولذلك فان المؤلف يرهق نفسه في البحث في جغرافية روايات يحوم شك كبير حول صحة احداثها . والتوراة كتاب ديني ذو نظرة تاريخية خاصة وقد كتب ما فيه من روايات لتعزيز تلك النظرة ونجد في التوراة في بعض الاحيان ، روايتين مختلفتين او متناقضتين لحدث واحد . ونقد الروايات التوراتية من حيث نشأتها وفلسفتها ومن حيث المدرسة التي حررتها وصاغتها ومن حيث انتقالها حتى دخلت في «الكانون Canon» (١٨) الذي لم يغلق الا في القرن الاول الميلادي امر ضروري جدا لتقييم روايات التوراة تاريخيا ، وضروري جدا مقارنة ماله صلة بالاثار منها بنتائج الحفريات الاثرية ذات العلاقة ولو فعل الدكتور الصليبي ذلك لوجد انه لا مجال للشك ابدا في ان التوراة قد نشأت في فلسطين من ناحية ، ولا مجال ابدا ، من ناحية اخرى ، للقبول بان كل روايات التوراة التاريخية صحيحة وهذا مثل بسيط :

تذكر مدينة جبعون وسكانها الجبعونيون في التوراة خمسا واربعين مرة . ويفهم من هذه الاشارة ان في مدينة جبعون بركة ماء (ارميا ٤١: ١٢) وان سكانها كانوا يتعاملون بصناعة النبل او نقله على الاقل (يشوع ٩: ٤) ومنها ايضا ان جبعون ، في زمن يشوع كانت مدينة عظيمة محصنة (يشوع ١٠: ٦٩) وانه قد احتلها ، ومنذ سنة ١٨٣٨ ارتلأ ادوارد روبنسون E. Robinson ان جبعون هي الجيب التي تقع على مسافة ١٤ كم الى الشمال الغربي من القدس وبين السنوات ١٩٥٦ - ١٩٦٢ قام (جيمس بريتشارد) J. B. Pritchard من جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيا بالحفر في هذا الموقع فكتشف عن وجود بركة ماء (١٩) ومعصرة نبيذ (٢٠) وكشف ايضا عن عدد كبير من النقوش و « طبعات » اختام على مقابض جرار فخارية من بينها واحد وثلاثين

مقبضا نقشت عليها كلمة جبعن . وكان على (بريتشارد) أن يقنع المختصين بأن هذه الحروف اسم المكان الذي هو جبعون وكان عليه ثانيا أن يقنعهم أن تلك الجرار لم تات أنى الجيب حيث وجدت من جبعون وهذا ما فعله في نقاش مطول (٢١) وبذلك يصبح تحديد موقع جبعون في الجيب الحالية في حكم المؤكد . من ناحية أخرى لم تكشف الحفريات في الجيب عن أية اثار لمدينة محصنة يمكن ارجاعها الى الزمن الذي يفترض ان يشوع قد احتلها فيه وبذلك تكون رواية سفر يشوع ليست صحيحة وانما نسجت فيما بعد لاعتبارات ايدولوجية لا مجال للخوض فيها .

(١) كمال سليمان الصليبي ، التوراة جاءت من جزيرة العرب ، ترجمة عفيف الرزاز ومراجعة كمال الصليبي . مؤسسة الابحاث العربية ١٩٨٥ م بيروت ، ٢٦٤ صفحة ، ١١ خارطة . وفيهم من تصدر ناشر الطبعة العربية (ص ٨) ومن بعض المقابلات مع المؤلف (مثلا القبس اليومية الكويتية الصادرة بتاريخ ١٩٨٥/١٠/٢ ص ١١) ان مجلة دير شيفل Der Spiegel الالمانية قد تعافت معه في صيف سنة ١٩٨٢ م ، بعد ان اوشك على الانتهاء من تأليف كتابه على ان تتولى نشره باللغات الالمانية والانجليزية والعربية والفرنسية والهولندية والدانماركية . ويبدو ان هذه المجلة قد واجهت صعوبات في العثور على دور نشر تتولى القيام بهذه المهمة الا لم يقدر لهذا الكتاب ان يرى النور الا في ايلول من سنة ١٩٨٥ .

(٢) هذا تعريب موثق لاسم هذا الشعب القديم الذي كتب بالعبرية التوراتية Pelishtim وبالعربية Peleset وبالسمازية الاشورية Palashtu

(٣) مجلة الشراع الاسبوعية الصادر بتاريخ ١٩٨٤/٩/٢ .

(٤) يستعمل الدكتور الصليبي في هذا الكتاب مصطلحي « يهود » و « الديانة اليهودية » كمرادفين لمصطلحي « بني اسرائيل » و « ديانة يهود » . وينعقد الاجماع على ان المصطلحين الاولين لم يظهر الا بعد السبي البابلي وانه لذلك لا يصح استعمالها عند الحديث عن الفترة التي سبقت ذلك السبي . ولكن هذه تبقى مسألة ثانوية في ضوء التغيرات الصخمة الاخرى التي يقترحها المؤلف .

(٥) هكذا يكتب المؤلف اسم هذه المدينة المشهورة بالحروف الساكنة كما يعتقد انه ورد في النص العبري للتوراة وهذا خطأ . فقد كتب هذا الاسم في النص العبري دوما ودون اي استثناء ويروشلم وينبنا ال « ماسوريم » الذين ادخلوا الحركات في النص العبري ان هذا ما هو مكتوب Kethib واتها يجب ان تقرأ Qere يروشلام . حول هذه المشكلة انظر :

A.D. Tushingham, « Yerushalayim, » pp. 183 - 193 in Archaeology in the Levant. Essays for Kathleen Kenyon, R. Moorey and P. Parr ed. Aris and Philips Ltd Warminster, England, 1978.

(٦) ان صفة « مقدس » و « غير مقدس » ليست دقيقة في التعبير عن العملية التي نشر اليها . والمقصود هو ما يقابل المصطلح Canon في اللغات الأوروبية الحديثة وفي اليونانية واللاتينية الذي يوصف به نص ما - ليس بالضرورة دينيا - عندما ينعقد الاجماع على انه ((أغلق)) فلا يزداد عليه

أو يتقصر منه. ويختلف « كانون » العهد القديم الكاثوليكي والارثوذكسي عن نظيره البروتستانتي. والآخر مطابق لمجموعة الاسفار التي يصفها اليهود بأنها « تلوث اليدى » والتي يفترض في المؤمن ان يفصل يديه بعد كل مرة يمسه خشية ان يتقل ما بها من القداسة الى ما يمسه فيلوث تلك القداسة . من اجل فكرة عامة عن هذا الموضوع الحساس انظر :

G.W. Anderson, « Canonical and non-Canonical, » pp. 113-159 in The Cambridge History of the Bible Vol. I, P.R. Ackroyd and C.F. Evans ed., The University press, Cambridge, 1970.

(٧) نستعمل مصطلح « تورا » هنا كما استعمله الدكتور الصليبي ، وكما هو شائع في الاستعمال العربي العام رغم عدم دقته . والمقصود هو ما يسميه المسيحيون « العهد القديم » وما يطلق عليه اليهود اسم « تنك » وهو مصطلح يتألف من الحرف الاول من اسم كل جزء من الاجزاء الثلاثة التي يتألف منها كتاب اليهود المقدس تورا ، نيتيم وكتويم . واما بالنسبة للمفهوم الاسلامي فان التورا هي كتاب واحد مقدس انزل على سيدنا موسى عليه السلام حرف فيما بعد من قبل ربانية يهود .

(٨) من اجل فكرة عامة من هذا الموضوع انظر : وليم بروز ، مخطوطات البحر الميت ترجمة محمود العابدي ، دائرة الثقافة والفنون ، ١٩٦٧ ، عمان . وقد اضاف المترجم ، الذي عمل سنوات طويلة في دائرة الآثار الاردنية معلومات مهمة تتعلق بمصير هذه المخطوطات .

(٩) انظر مثلا :

R. Hestern et. al, Inscriptions Reveal : Documents From the time of the Bible the Mishna and the Talmud, The Israel Museum, Jerusalem, 1972 .

Synagogue في :

M. Avi, - Yonah ed. Encyclopedia of Archeological Excavations in the Holy Land, Vol. IV, The Israel Exploration Society and Massada Press, Jerusalem, 1978.

(١٠) من الجذر الارامي مسير ويعني « ينقل » « يسلم » . واقدم ما وصلنا من جهدهؤلاء ال «ماسوريين» لا يرقى الى ما قبل القرن العاشر لميلادي وهي نسخة من التورا ب « (ماسورة) » هارون بن موسى بن اشر موجودة الان في متحف ليننغراد في الاتحاد السوفياتي وهي التي اعتمدها رودلف كتل R. Kittel ورفاقه في Biblia Hebraica التي صدرت الطبعة الاولى منها سنة ١٩٢٩ ، والتي حلت فوراً محل النسخ العبرية الاخرى التي كانت متداولة وتعمل الجامعة العبرية الان على اصدار تحقيق جديد للتورا اساسه ما يعرف باسم نسخة حلب Aleppo Codex وتنسب الى هارون بن اشر ايضا وكانت محفوظة في كنيس حلب ولكنها سرقت سنة ١٩٦٥ الى الكيان الصهيوني. حول هذا الموضوع انظر :

M. Goshen - Gottstein. « The Aleppo Codex and the Rise of the Massoretic Bible Text », Biblical Archaeologist, Vol. 42, N° 3 (1979), pp. 145-165.

(١١) وبالطبع فان اقتراح الدكتور العليبي المتعلق بان هذا الاسم قد يكون للاله المصري اتوم مرفوض رفضا قاطعا لان أي ختم هو بالضرورة لتوثيق معاملات رسمية ادارية وتجارية مما لا شأن للالهة به ولم يحدث ابدا ان اكتشف ختم اله في أي مكان من الشرق القديم . اخصف الى ذلك ان المصريين القدماء لم يستعملوا اختاما وان سكان فلسطين القدماء لم يعبدوا الهة مصرية .

V. Glueck. « The First Campaign at Tell el - Kheleifeh (Ezion Geber), Bulletin of the American Schools of Oriental Research N° 71 (1936). pp. 3-17; « The Topography and History of Ezion Geber and Elat, « ibid N° 72 ,1938), pp. 2-13;« The Second Campaign at Tell el-Kheleifah (Ezion Geber: Elath) ibid N°. 75 (1939) , pp. 8-22; « The Third Season of Excavations at Tell el-Kheleifeh ibid N°. 79 (1940) , pp. 2-18; «Osttraca from Elath» ibid N°. 79 (1940), pp. 3-10; ibid N° 82 (1941) pp. 3-11.

(١٢) من اجل عرض للاقتراحات المتعلقة باسم تل النوير في العصور القديمة ، بما في ذلك اقتراح (البرايت) الذي طرحه سنة ١٩٢٩ . وتلخيص لابرز موجودات هذا الموقع بما في ذلك الكتابات وقائمة بالهم المصادر انظر :

O. Tufnell, « Lachish » , pp . 296-308 in Archaeology and the Old Testament, D. winton Thomas ed, The Clarendon Press, Oxford(1967).

(١٤) ويتحدث النقش عن عملية الحفر نفسها ، ويرد في خمسة مواضع من التوراة (القولة الثاني ٢٠:٢٠ اشعيا ١١:٢٢ اخبار الايام الثاني ٢٠:٢٢-٢٢-٢٠ وبين سيراخ ١٧:٢٨) ان حزقيا (٧١٥-٦٨٧ ق.م) قد حفر في يروشلم بركة وصلها بنفق الى عين جيحون . وان مناسبة ذلك هو الاستعداد للحصار الذي كان متوقعا ان يفرضه سنحاريب على هذه المدينة .

(١٥) انظر مثلا :

L. H. Gray, Introduction To Semitic Comparative Linguistics, Philo Press, Amsterdam, 1971.

ربحي كمال ، التصاد في ضوء اللغات السامية . دراسة مقارنة ، جامعة بيروت العربية . بيروت ١٩٧٢ .

(١٦) انظر مثلا فيما يتعلق بفلسطين :

A. F. Rainey, « The Toponymics of Eretz-Israel » , Bulletin of the American Schools of Oriental Research N°.231 (1978), pp. 1-17.

(١٧) يجمع الدارسون على انه من الصعب القول بان صيغة هيردن مشتقة من الجذر يرد لتظر :

J. Simons , The Geographical and Topographical Texts of the old Testament, Brill, Leiden, 1959.

وقد نوه سيروس جوردن بان عبارة « نهر الاردن » لا ترد في التوراة وان هذا الاسم باستثناء مرتين (الزامير ٧:٤٢ ، ايوب ٢٣:٤٠) يكون دوما مسبوقا بأداة التعريف ، هذا بالإضافة الى عبارتي

«هذا الاردن» و « اردن اريحا » وقد قلده ذلك الى اقتراح ان هذه اللفظة تعني « نهر » اعتمادا على ذكر iardanus في اوديسه هوميروس (٢٩١:٢-٢) ولكن راي هذا لم يحظ بالقبول انظر:

C. Gordon, Before the Bible . The Common Background of Greek and Hebrew Civilizations, Harper & Row, New York 1962, pp. 284-5.

ونذكر بهذه المناسبة (ان بردية انستاسي الاولى) وهي عبارة عن رسالة سحرية من احد الكتاب المصريين الى فرمه ومثاله وتعود الى اواخر زمن السلالة التاسعة عشرة المصرية ، واواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ترد فيها عبارة « جندول الاردن اين يقع » واسم الاردن هنا مسبوق بالإشارة البدالة الى نهر اوجندول . من اجل ترجمة انجليزية لهذه الرسالة الطويلة المتعة انظر :

J.A. Wilson, « An Egyptian Letter », pp. 475 - 479 in Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, J.B. Pritchard ed. 3rd edition with Supplement, Princeton University Press, Princeton, 1969.

ولي

W. Helck, Die Beziehungen Agyptens Zu Vorderasien im 3. Und.2. Jahrtausend V. Chr., Agyptologische Abhandlungen 5, 2nd revised ed. O. Harrassovitz, Wiesbaden, 1971, pp. 315 - 319.

نجد مناقشة لغوية جغرافية لهذه الرسالة .

(١٨) انظر الهامش رقم ٦ .

J.B. Pritchard, The Water System of Gibeon, The University Museum, The University of Pennsylvania, Philadelphia, 1961. (١٩)

Idem Winery, Defenses and Soundings at Gibeon. The University Museum , The University of Pennsylvania , Philadelphia, 1964. (٢٠)

Idem Hebrew Inscriptions and Stamps From Gibeon. The University Museum , The University of Pennsylvania , Philadelphia, 1959. (٢١)

هل التوراة على حق؟

المؤرخ اللبناني كمال الصليبي يبدل أماكن المدن المقدسة

ترجمة : قاسم طوير
المديرية العامة للآثار والمتاحف - دمشق

يؤكد استاذ الآثار الاسرائيلي في تل ابيب موشيه كوخاوي ، وهو واثق من نفسه ، بان « الوصف الجغرافي الوارد في التوراة لا ينطبق الا على فلسطين ، لذلك لا يمكن ان تكون ارض التوراة الا في فلسطين » .

غير ان وجهات النظر المخالفة للرأي السابق تعتبر جدية ايضا في اوساط العلماء ، فعالم الآثار التوراتية في جامعة ماينز بالمانيا الغربية يقول « ان بعض البقاع في بلدان الشرقين الاوسط والادنى تشبه في مظهرها الجغرافي اجواء فلسطين بحيث لا يكون ضروريا ان نوجه انظارنا الى عسير دون غيرها » . نعم ليس من الضروري، بل لعل وعسى ، فلماذا لا نحاول توجيه الانظار الى عسير ، لا سيما وقد تعلر حتى الان ايجاد الدليل المادي في فلسطين على الاحداث التوراتية التي جرب من ايام ابراهيم حتى السبي البابلي ، في حين يعتقد المؤرخ اللبناني كمال الصليبي انه اكتشف وجود عدد كبير من المدن والبلدان والمواقع في عسير تتفق اسمائها مع الاسماء التوراتية . واذا قلنا الشبكة البلدانية التوراتية من فلسطين الى عسير نجد ان التوافق لا يقتصر على اسماء البلدان والمواقع بل ويشمل الطبيعة وخصائص الارض والمعادن والمياه والنبات والحيوان كما ورد وصفها في التوراة .

تقع عسير في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية بين الطائف شمالا واليمن جنوبا ، وقد أصبحت الآن البلد « الذي يسيل فيه اللبن والعسل » بدلا من فلسطين .

عن مجلة « دير شيفل » الألمانية ، ٤٠ ، ١٩٨٥/٩/٣٠ .

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

— ١٤٥ —

وقد وصف الجغرافي اليوناني سترابون الذي عاش بين ٦٣ ق.م و ٢٦ ميلادية ،بلاد
عسير بان في داخلها يجري استخراج الحديد والرصاص والذهب .. والذهب موجود
بها على هيئة فلزات اصفرها بحجم الجوزة وليس على هيئة غبار .

يذكر سفر موسى ان الذهب يستخرج من مكان قريب من نهر بيسون تماما كما
في منطقة وادي بيشا بعسير حيث يرى كمال صليبي تشابها بين كلمة بيسون التوراتية
وكلمة بيشا في بلاد عسير .

ويذكر سفر موسى ايضا ان الله امطر النار والكبريت فوق مدينتي سودوم
وعمورة لقاء خطاياهما .

وهذا يعني وجود براكين بالقرب منهما . وثمة اجماع بين العلماء ان المدينتين
المذكورتين تقعان في مكان ما قرب البحر الميت، لكن الواقع هو انه لا وجود للبراكين في
منطقة البحر الميت ، بل هي موجودة، حسب تحقيق كمال صليبي ، في وادي ديمس
بمنطقة جيزان .

تهطل الامطار في عسير اكثر من اي مكان اخر في شبه الجزيرة العربية ، ويتراوح
معدلها بين ٣٠٠ و ٦٠٠ مم في العام، وهناك خصائص اخرى كثيرة تتفق مع طبيعة
عسير ، فالثلوج الكثيرة التي تحدث عنها النبي اشعيا والنبي ارميا تهطل بغزارة في
جبال السراة في بلاد عسير . وتنبت في هضاب عسير انواع الحبوب وتكثر اشجار
الرمان والزيتون والتين واللوز والكرمة ، وفي السهول المحاذية لساحل البحر الاحمر
يكثر العديد من انواع الخضار ، وقد وجد الجغرافي اليوناني سترابون ان عسل
عسير من افضل الانواع ، وتنتشر حول المناطق المزروعة المراعي التي تربي عليها
قطعان الغنم والماعز وتسرح فيها الحمير والدواب والجمال ..

ان الضب من الحيوانات التي حرمت التوراة اكلها ، ويعتقد كمال صليبي ان
الكلمة المستخدمة في سفر موسى لهذا الحيوان المحرم اكله تنطبق على ضب الصحراء
العربية ولا تنطبق على الضب الذي يعيش في جنوبي فلسطين .

يذكر الجغرافي اليوناني سترابون في سياق حديثه عن حملة القائد الروماني
انيوس جالوس الى جنوبي الجزيرة العربية ، ان الدجاج ليس معروفا لدى اهالي
عسير . وفي هذا الصدد تجدر الاشارة الى ان قائمة الحيوانات التي يمكن او لا يجوز في
تعاليم موسى تقديمها كضاح لا تتضمن الدجاج ، علما ان الدجاج معروف في فلسطين
منذ اقدم العصور .

« المقصود بـ « سفر موسى » الاسفار الخمسة الاولى من التوراة .

يعتقد كمال الصليبي انه اكتشف في القرآن الكريم ايضا وجود ادلة وقرائن على صحة نظريته بأن عسير وليس فلسطين البعيدة عنها قرابة ألفي كيلو متر الى الشمال هي ارض التوراة .

ان الرسول العربي محمد (ﷺ) الذي عاش بين ٥٧٠ - و ٦٣٢م اراد احياء دين ابراهيم الخليل . ولقد تعرف محمد (ﷺ) على الديانة اليهودية وفق المآثور لدى يهود الحجاز الذين كان لهم كتيب في مكة انذاك . ويتحدث القرآن الكريم عن يهود يثرب (المدينة المنورة) . ويعتقد كمال الصليبي ان محمدا (ﷺ) قد تبنى بقايا المآثورات اليهودية الحجازية من يهود يثرب وغيرهم ، ويرى ان القرآن الكريم في سياق الحديث عن الاوائل والانبياء يسرد اسماء مواقع وبلدان حجازية في اشكال مشيرة للاهتمام : فاذا كانت التوراة تكتفي بذكر اسم جبل فان القرآن الكريم يذكر الجبل واسم الوادي التابع له او اسم المدينة او البلدة المجاورة له . فمثلا نادى الملاك علي موسى من بين الادغال في جبل حوريب . لكن حتى الان لم يستطع احد تحديد مكان هذا الجبل وجرت العادة على الظن بانه في مكان ما بجنوب سيناء .

اما القرآن الكريم (السور ٢٠ و ١٢ و ٧٩) فيحدد المكان في وادي طوى المبارك، وطوى اليوم هو اسم احدى القرى في عسير .

يرى الصليبي ان جبل حوريب التوراتي موجود في جبل هادي الذي هو جزء من سلسلة جبلية ساحلية منعزلة في عسير . ففي وادي البقرة المحاذي لذلك الجبل بالذات يوجد اليوم موقع اسمه حريب . يضاف الى ذلك ان التوراة (سفر موسى) تتحدث عن اسماء سبعة مواقع تبعد مسيرة احد عشر يوما عن جبل حوريب وهي : عربية ، صوف ، فران ، طوقل ، حازروت ، ديساهب ، لابان . وقد حقق كمال الصليبي ان تلك المواقع تبعد /٢٥٠٠/ كم عن جبل هادي بعسير ، وبالفعل تحتاج تلك المسافة الى مسيرة احد عشر يوما .

استنادا الى السورة /٢٨/ والسورة /٢٤/ من القرآن الكريم توقف موسى بعد خروجه من مصر في موقع اسمه الظل وقد عثر كمال صليبي على هذا الموقع في منطقة المدينة المنورة بالقرب من ينبع التحك .

مهما كان شأن التفسير المطروح للمآثورات الاسلامية عن اليهود فان بعض التفاصيل في الحياة الاسلامية في الحجاز تبدو وكأنها تشير الى ماض يهودي قاهالي الحجاز اليوم ينعتون اهالي عسير بكلمة (يهودنا) . وثمة عدد من القبائل الحجازية غير اليهودية ما تزال تعتقد حتى الان ان اجدادهم في الازمنة البعيدة كانوا يهودا . كما انهم ما زالوا على قناعة تامة بان ارض الانبياء التوراتيين موجودة في الحجاز . وفي

الاحياء بالسعودية ما زال البدو هناك يزورون كهوفا ومغارات معينة على اساس انها منازل ابراهيم الخليل . كذلك تقول احدى المآثورات القبلية في غربي الجزيرة العربية ان اليهود كانوا يقطنون الجبال في الوقت الذي كان فيه العرب ينزلون في الصحراء ، وان اليهود هم اول من اهل الجمل ، وما زال اهالي ابها وخميس مشيط في جبال عسير يعتقدون حتى اليوم ان ابراهيم الخليل وموسى عليه السلام من مواليد عسير وانهم (اي اهالي ابها وخميس مشيط) كانوا بالاصل يهودا .

سبق للمستعرب والمؤرخ الهولندي راينهاردت دوزي ان جمع ادلة كثيرة على الماضي اليهودي للحجاز وعسير في كتابه الذي صدر قبل ١٢٠ عاما بعنوان «الاسرائيليون في مكة من ايام داود حتى القرن الخامس بعد الميلاد» . ونستخلص من كتابه هذا ان اليهود سكنوا الحجاز وعسير على الاقل منذ ايام داود . كما عثر على معلومات مفادها ان دولة عربية قامت بين مكة واليمن بين ١١٥ ق.م والقرن السادس الميلادي، وكانت تدين باليهودية ، وهي دولة حمير التي مقرها اليمن . والمعروف ان اخر ملكين من ملوك حمير كانا يدينان باليهودية .

وخلافا لرأي كمال الصليبي يعتقد المؤرخ الهولندي دوزي ان الوجود اليهودي القديم في غربي الجزيرة العربية جاء نتيجة لهجرة يهودية الى الحجاز وعسير .

ثمة ادلة مادية على انه لا يوجد اجماع لدى اليهود بان فلسطين هي الوطن الاول لليهود . فالنصوص المكتشفة في جزيرة الفيلة في نهر النيل بمصر العليا تدل بان يهود مصر العليا لم يسمعوا قط بمعبد سليمان العظيم كما اتهم عبدوا آلهة اخرى الى جانب يهوا .

ان الفلاشة الذين هاجروا من جنوبي الجزيرة الى الحبشة في الالف الاول قبل الميلاد على ما يظهر ، ويعتبرون انفسهم يهودا لم يعترف الحاخام الاكبر في القدس بيهوديتهم الا مؤخرا وذلك عندما هربوا من مجاعة افريقيا الى دولة اسرائيل .

وحتى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان يعيش في اليمن قرابة ٦٠ الف يهودي ، وهؤلاء لم ينسوا دينهم لكنهم نسوا تاريخ نشوئهم مثلما نسوا اللغة العبرية . وحتى الحاق عسير بالمملكة العربية السعودية في الثلاثينات من هذا القرن كان الالف من اليهود يعيشون في عسير . وعلى الرغم من ان السعوديين قد اجبروهم على اعتناق الاسلام الا ان هؤلاء احتفظوا بعدد من عاداتهم وتقاليدهم ، وبخاصة في اللباس والطعام والسلوك ، فهم ، خلافا للمسلمين ، يسمحون لبناتهم بركوب الخيل . ولقد اثار « الطابع غير العربي بتاتا » في سلوك اهل عسير اهتمام الرحالة البريطاني وهاوي الآثار السير هاري سان جون فيلبي الذي جاب في جميع ارجاء الجزيرة العربية خلال

الثلاثينات ، ففي احدى مذكراته يتحدث عن نوبة بلا حجاب ، وعن راع يتنغم بموسيقى جبلية مطربة . يضاف الى ذلك ان الغرباء في عسر اليوم يستغربون وجود اسماء يهودية دارجة بين اهالي عسر مثل مناحيم وحبقوق ، وبعضهم لا يدرك انه يحمل اسما يهوديا . من الممكن ان تكون الظواهر اللغوية القريبة وغيرها مجرد مصادفة ، ولكنها قد تكون قرائن تدعم نظرية كمال الصليبي ، فمثلا توجد في جنوب الجزيرة العربية لهجات تحتوي على مفردات متصلة اتصالا وثيقا باللغة العبرية وهذا الامر يشير الى وجود عبري سابق في المناطق التي تسود فيها تلك اللهجات ..

جمع عالم اللسانيات الانكليزي ف.ل . بيستون ، من النصف الغربي من الجزيرة العربية من شمالها الى جنوبها ، اعدادا هائلة ومشتتة من النقوش الكتابية التي تتوزع في مجموعتين رئيسيتين ، الاولى تستخدم (ال) التعريف العربية والثانية تستخدم (ها) التعريف العبرية ، واستنتج بتحفظ وحذر « ان هذه الظاهرة تكفي للاعتقاد بوجود مجتمعين لفويين كانا متصلين بعضهما مع بعض جغرافيا ثم تمازجا . وفي كل الاحوال لابد ان نوعا من الفسيفساء اللغوية ساد جنوبي الجزيرة العربية . وقد لاحظ العلماء منذ عشرات السنين وجود كمية من المفردات العبرية في جميع اللغات الحبشية .. ترى هل مصدر تلك المفردات هو فلسطين التي تبعد عن الحبشة قرابة الف كيلو متر او بالاحرى جنوب غربي الجزيرة العربية المجاورة للحبشة .

ومن الاثار اليهودية الاخرى في الحبشة التي تقع عسر قبالتها ، نرى نجاشي الحبشة وقيصرتها حتى هيلاسيلاسي ينعتون انفسهم بلقب « اسد يهوذا » وينسبون انفسهم الى سليمان ، وان شعار الخطوط الجوية الاثيوبية اليوم هو الاسد التوراتي . وقد فسر عالم الساميات الالماني فولف ليسلاو هذه الظاهرة في بحث نشره عام ١٩٦٢ في مجلة الاستشراق الالمانية ، فبين ان جماعات من سكان جنوب غربي الجزيرة العربية هاجروا الى الحبشة في الالف الاول قبل الميلاد ، وهذه هي الفترة التي تقوم عليها نظرية كمال الصليبي .

يفسر كمال الصليبي غياب الماضي التوراتي غيابا كاملا من ذاكرة يهود ما بعد السبي واهل عسر باسباب لغوية ، ففي نحو . ه . ق . م كانت العبرية لغة شبه ميتة اذ حلت مكانها الارامية حتى مطلع الميلاد ، ثم جاءت العربية لتسود كليا . وعندما توقفت العبرية عن ان تكون لغة حية واجه اليهود مشكلة في قراءة النص التوراتي ، ويتصور كمال الصليبي الامر كالتالي : كانت نصوص التوراة المتوارثة مليئة باسماء مواقع وبلدان لم تكن مألوفة لدى يهود اسرائيل لان تلك الاسماء كانت تخص مواقع وبلدان في غربي الجزيرة العربية ، وبعد . ه . ق . م تقلص عدد اليهود في غربي الجزيرة العربية تقلصا شديدا بحيث لم يبق منهم الا اقلية ضئيلة ، ويبدو انه لم يعد بين

صفوف هؤلاء علماء يتمكنون من مساعدة اخوانهم في الدين في فلسطين وبابل في فك
طلاسم المواقع والبلدان وتصحيح لفظها لهم . يعتقد كمال الصليبي ان عوامل سياسية
ايضا فعلت فعلها في محو ذكريات اليهود بعسير ، ففي جنوب غربي الجزيرة العربية
صعدت جماعات جديدة مثل المعينيين ، وفي ظل هؤلاء فقد اليهود تماسكهم وقد يمكن
ان يكون وصولهم الى البلد الجديد فلسطين ومن ثم صعودهم فيما بعد قد محا ذكرياتهم
القديمة عن عسير .

تحقق لاسرة الاشمونيين في القرن الثاني قبل الميلاد ، بعد ثورة ناجحة على الحكم
السلوقي ، الوصول الى فلسطين ، حتى الجزء الجنوبي من الجليل وفي هضاب شرقي
الأردن . وفي ضوء هذه المكاسب التي دفع اليهود ثمنها غاليا لها قد يبدو ان التفكير
بعسير صار مزعجا لهم ، فالارض الجديدة يجب ان تحل مكان القديمة وكل تشكيك في
ملكية الوطن الجديد لم يعد مرغوبا فيه .

اذا اراد الصليبي ان تتعزز اسس نظريته فلا بد لعلماء التوراة ان يستعدوا
للاجابة على سلسلة من الاسئلة . وعلى الرغم من ان المسائل الدينية في التوراة لن
تبدل لان المؤمن الديني سيان لديه اذا كانت الوصايا العشر قد نزلت على موسى في
هذا المكان او ذاك ، ففي نهاية المطاف ستبقى التوراة توراة وسيان مكان نزولها ، هكذا
يقول كمال الصليبي . غير انه من المؤكد ايضا ان هناك الكثير من الناس ممن يرون في
نظريته عدوانا على هويتهم الدينية والاجتماعية او السياسية .

فاليهود شعب عربي ... رئيس وزراء اسرائيل وملك المملكة العربية السعودية
اخوة ، ارض الميعاد ليست فلسطين بل جزء من المملكة العربية السعودية ، تاريخ
اسرائيل في فلسطين يتقلص حوالي الف عام ، كل هذه الامور لو صحت ستكون
كأبوسا على الاقل على اصحاب الخط المتصلب الذين لا يكتفون بتبرير جود الدولة
الاسرائيلية بل والاحتلال الاسرائيلي لقطاع غزة والضفة الغربية بالاستناد الى
التوراة . فاليهود المتعصبون لا يرون ان الله عقد حلفا مع شعب اسرائيل وحسب
بل ومع ارض اسرائيل (اسرائيل الكبرى) . يضاف الى ذلك ان الليبراليين من
الاسرائيليين شعروا بالارتباك نتيجة لنظرية كمال الصليبي فهم كانوا يبحثون في الخفاء
عن تأكيد تاريخي قديم بقدر الامكان على استمرارية تاريخ بني اسرائيل ، فاذا استطاع
علماء الآثار ان يثبوتوا على دليل اثري يؤكد وجود اسرائيل في فلسطين منذ ايام يشوع
فان اسرائيل اليوم ستعتبره دليلا اضافيا على شرعية وجودها .

لكن حتى العرب المتصلبين قد يجدون في نظرية كمال الصليبي نوعا من الاساءة
اليهم ، فالسورة (٢١) والسورة (٧١) في القرآن الكريم تعتبر ان فلسطين الارض التي
جعلناها مباركة للناس اجمعين . ومنذ فتح المسلمين لفلسطين في القرن السابع الميلادي

صاروا يطالبون بفلسطين الجغرافية ، وصارت القدس ثالث الحرمين بين مكة والمدينة وذلك بسبب احداثها التوراتية بالذات ، والتي جاء كمال الصليبي الان لينقل مسرحها من القدس الى العربية السعودية .

غير ان المسيحيين هم اقل الاطراف انزعاجا من نظرية كمال الصليبي . فالنظرية لا تمس المسيح والعهد الجديد ، لاسيما وان المفسرين في السنوات الخمسين الاخيرة قد اشبعوها دراسة . اما التوراة ككتاب فقد عززت مكانته نظرية كمال صليبي ولا بد ان العديد من اسماء المواقع والبلدان التي كانت مسرحا للاحداث التوراتية والتي لم يتمكن العلم من تحديد مكانها الجغرافي حتى الان ، اصبحت اماكنها معروفة بدقة اكثر بفضل هذه النظرية .

لكن ماذا في نظرية الصليبي من خروج عن المألوف ، هل الاكتشافات اللغوية (اسماء البلدان والمواقع التوراتية في خارطة عسير) واستنتاجات المراقب الحيادي مجرد مصادفات ولعب بالكلمات وخواطر جريئة . ان مثل هذه الامور لا تبدى الا بعد المناقشة الجدية للنظرية . وحتى اذا تبين بان نظرية الصليبي لا تستند الى اسس صحيحة كليا او جزئيا ، فانه سيبقى له الفضل في وضع اشارة استفهام جديدة امام عدد من التفسيرات الدراجة للاحداث التوراتية .

كان حكم علماء الآثار التوراتية ممن قرا الكتاب رافضا للنظرية ، وذلك مثل البروفيسور اوسفالد لوريتس الاستاذ في العهد القديم والعلوم الاوغاريتية في قسم اللاهوت الكاثوليكي بجامعة مونستر بالمانيا الاتحادية منذ ١٩٦٧ . فهو من المختصين في الدراسات الاوغاريتية ، واوغاريت موقع اثري في شمالي سورية وقد تم العثور فيه منذ ١٩٢٩ على نصوص مسمارية سومرية واكادية وحمورية واوغاريتية . وحكم البروفيسور لوريتس على نظرية الصليبي هو التالي :

ان عملية نقل احداث التوراة الى مسرح عسير تهمل الادلة غير التوراتية التي يؤكد جزء منها على ان فلسطين الحالية هي نفسها فلسطين يشوع وسليمان ، وبالتالي لا بد ان تكون ارض كنعان في منطقة فلسطين الحالية وذلك وفقا للوثائق الاوغاريتية والفنيقية والاشورية والبابلية والمصرية ، والا لن يكون لتلك الوثائق اي مغزى . كما ان منهج كمال صليبي في البحث عن الاسم البلداني العربي المناسب للاسم البلداني انتوراتي يستند كليا الى لعب قسري بالفتن العربية والعبرية ، ولا يظهر الا عملية لعب بالكلمات . وعلى اساس مثل هذا المنهج يمكن لاي انسان ان يبرهن على وجود فلسطين في اي بقعة يختارها من بقاع العالم العربي ، كذلك يكرر الصليبي على الطريقة العربية الفرضية القديمة المتعلقة بهجرة اسرائيل الى كنعان ، فهو ينقل الهجرة الى انجيزة العربية ويفعل ذلك وفق الطريقة المتميزة في التفكير العربي ، اذا يهمل نتائج

التحريات العلمية الحديثة اهمالا تاما . تلك التحريات التي اقرت بنشوء اسرائيل في ارض كنعان .

وممن يقفون موقف الرفض من نظرية صليبي في الجانب البروتستانتى نذكر البروفيسور فولكمار فريتس ، استاذ العهد القديم والآثار التوراتية والمنقب في عدد من التنقيبات الاثرية في اسرائيل ، وهو يقوم منذ ١٩٨٢ بالتنقيب الاثري في تل العريمي (كينيرت التوراتية) قرب بحيرة طبرية . وعلى الرغم من ان البروفيسور فريتس يعترف بان نتائج التحريات الاثرية في فلسطين ضحلة فيما يتصل بالفترة الواقعة بين ١٥٠٠ - ٥٠٠ ق.م ، لكن اذا جمعنا المآثورات والوثائق غير التوراتية مع ما تم اكتشافه حتى الان نجد ان الحصلة تؤيد فلسطين اكثر مما تؤيد لغبة الصليبي بالالفاظ بالقياس الى عسر . فقد تحقق مثلا وجود قرابة ثلث الاسماء البلدانية الوارد ذكرها ، وسدس اخر نجد الدليل على صحة موقعه في فلسطين في مصادر غير توراتية ، مثل النصوص المصرية من الالف الثاني قبل الميلاد . ويخلص البروفيسور فريتس الى النتيجة التالية :

اذا اراد اي زميل لنا ان يتصدى للتاريخ باجمعه وان يقلب الاراء المتعارف عليها راسا على عقب فلا بد له ان يتقدم بحجج ممتازة ، وعليه ان يبرهن بانه على حق . وما من شك ان المادة التي يطرحها الصليبي طريفة للغاية الا انها لا تحمل النظرية التي تقوم عليها . فهو يهمل الادلة التاريخية والجغرافية والاثرية .

لذلك لا غرابة اذا كان الاختصاصيون الاسرائيليون قد نظروا الى نظرية الصليبي نظرة شك منذ البداية وقبل ان يقرأوا كتابه . فالبروفيسور ابراهام مالامات ، استاذ التاريخ التوراتي في الجامعة العبرية بالقدس يعتبرها « فكرة متمادية » وخرقاء . اما موشيه كوخاوي ودافيد اوسيشكين ، وهما عالما اثار مرموقان في جامعة تل ابيب ، فيعتبرانها « طائشة » و « مضحكة » و « سياسية الغرض من الفها الى يائها » .

يقوم كوخاوي بالتنقيب الاثري في موقع آفق / اتياتريس منذ ١٩٧٢ ، واوسيشكين في موقع لاخيش منذ ١٩٧٢ . وهما لا يعترضان على احتمال الوجود اليهودي في عسر قديما لكن ذلك الوجود ، برأيهما ، جاء نتيجة لهجرة يهودية من فلسطين الى هناك ، وذلك في اعقاب الفتح الاشوري والبابلي لفلسطين بين القرن التاسع والقرن السادس قبل الميلاد .

ان الوحيد الذي ابدى موقفا ايجابيا من نظرية الصليبي عندما سئل ، هو عالم الآثار التوراتية البريطاني جون جيبسون ، فهو يعترف بان اجزاء من كتاب صليبي قد « سلبت البايه » . غير ان علماء اللسانيات تناولوا النظرية بالنقد ايضا

فالبروفيسور فيرنر ديم ، استاذ فقه اللغة العربية في جامعة كولونيا بالمانيا الاتحادية يرى بان صليبي يفتقر كليا الى المنهجية في معالجته للامور ، وطريقته في التوفيق اللفظي بين الاسماء العربية والاسماء العبرية ضرب من ضروب الهوى والفي ، كما ان الريبة تكتنف كل حلقة في سلسلة البراهين التي يسوقها .

اما البروفيسور يوشع بلاو ، استاذ الساميات في الجامعة العبرية بالقدس ، ومن المع الاختصاصيين في هذا المجال ، فانه لا يريد ان يدلي بحكمه على النظرية الا بعد ان تكون الاسماء قد صنفت تصنيفا دقيقا وفق توافق مقارناتها وتم تقييمها تقييما احصائيا ، عندئذ سنرى ما اذا كانت ستصمد من الناحية اللسانية .

غير ان استاذ الفقه العربي والتاريخ الاسلامي في جامعة هامبورغ البروفيسور البريشت نوت يقف موقفا اقل تحفظا من غيره من نظرية الصليبي ، اذ يقول : فعلا ثمة اسماء بلدانية كثيرة العدد في عسير تكشف عن وجود قرابة ظاهرة مع اسماء بلدانية في اماكن مختلفة من صفحات العهد القديم ، كما ان عملية الصليبي المعقدة للتوفيق بين المجموعتين العسيرية والتوراتية مقبول عادة من الناحية اللسانية ومن ناحية تاريخ اللغات ، لاسيما وانه قد تبين عدم صحة الحجة المضادة بانه من الممكن اكتشاف تشابه بين الاسماء البلدانية التوراتية من جهة وبين اسماء بلدانية في أي بلد عربي من جهة ثانية . لذلك فانه من المحتمل جدا الافتراض بوجود علاقة (مهما كان نوعها) بين الاسماء البلدانية التوراتية والعسيرية . وسيكون من واجب الباحثين في المستقبل تفسير اسباب ذلك التشابه في الاسماء . ويرشدنا البروفيسور نوت الى الطريقة التالية : من الممكن التفكير مثلا بوجود بقايا صور عسيرية تسلت الى التراث التوراتي عن طريق فئة او طبقة معينة من الاسرائيليين المتأخرين الذين كانوا يشكلون خليطا غير متجانس ، ومع هذا قد تظهر معادلات تاويلية اخرى لا تخطر على بال او على خاطر .

أكد البروفيسور أوتو ياسترو ، استاذ الساميات وفقه اللغة العربية في جامعة ارلانغن بالمانيا الاتحادية على ان اكتشافات الصليبي للاسماء البلدانية تستحق الدراسة والبحث ، فهو ايضا يرى ان التشابه اللفظي الموجود بين الاسماء البلدانية العسيرية والتوراتية العبرية واضح بشكل كاف ومنتظم بحيث يبدو التوافق بينهما محتملا جدا .

غير ان الاسماء البلدانية العسيرية ليست عبرية بل تحتفظ ، مع تعديل طفيف ، بشكل لفظي سامي اقدم عهدا من العبرية ، وهي من الناحية اللغوية اقدم عهدا من الاسماء التوراتية ، لذلك فانه يجوز لنا الاعتقاد بان العبرانيين قد جلبوا تلك الاسماء البلدانية كجزء من تراثهم اللغوي من عسير الى فلسطين ، ثم شهدت تلك الاسماء التطور الذي شهدته العبرية ..

غير ان المستبعد في الامر ان تكون الاسماء البلدانية الحالية في عسير لفظا عربيا للاسماء التوراتية ، اي ان تكون تلك الاسماء قد وصلت الى عسير من فلسطين ، لان

الصيغة اللغوية الاحداث عهدها لا يمكن ان تتحول الى صيغة اقدم عهدا . واذا قيفض لاسماء بلدانية النبات في غير مكانها الاصلي فانه لا يمكن ان يحدث ذلك الابانتقالها من عسير الى فلسطين ولعل ذلك تم بوساطة يهود عسير الذين اسسوا موطن لهم في فلسطين واطلقوا اسماء مواطنهم السابقة على مواطنهم الجديدة من باب الاحتفاظ بذكرىات الوطن الاصلي . وان مثل هذا الافتراض يتفق مع نظرية الصليبي والقائلة بان يهودا من عسير هاجروا في حوالي /١٠٠٠/ ق.م باتجاه الشمال واستقروا في فلسطين .

وثمة مشكلة لغوية اخرى في نظرية الصليبي لم تجد لها حلا حتى الان . فاذا كانت الاحداث التوراتية بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠ ق.م قد جرت في عسير السعودية فلا بد ان تكون اللغة العبرية دارجة هناك ، الى جانب ما يسمى باللغات الحجازية . وفي حين يعتقد الصليبي بذلك نجد البروفيسور ياسترو يفترض بان الاشكال البدائية للعبرية التوراتية كانت دارجة في عسير في كل الاحوال ، وبعد ذلك بعدة قرون جرى تدوين الاحداث التوراتية باللغة العبرية التوراتية المتأخرة ، غير ان ما يبدو اكيدا في تحليل البروفيسور ياسترو ان الصورة العلمية اللغوية لذلك الزمان وان كانت معالم حدودها غير واضحة جدا ، لا تتعارض مع نظرية الصليبي .

لعل علماء اللغات من اشد الذين يشقون الطريق لنظرية الصليبي فهم ، خلافا لعلماء اللاهوت ، يتحررون في غالبيتهم من مشاق التغلب على الاحكام المسبقة من الناحيتين الدينية والقومية .

وثمة عقبة اخرى تعترض طريق الاكثرية من علماء التوراة وهي عدم درايتهم دراية كافية باللغات القديمة فالغالبية منهم تعرف اللغة العبرية ويدعون انهم متمكنون منها ، كما يقول الاستاذ لوريتس .

يتوقع كمال صليبي بان يعاني زملاؤه من حدود امكاناتهم مثلما يعاني من حدود امكاناته ، ففي البدء سيحاول هؤلاء ، والكلام للصليبي ، تجاهل نظريتي بكل بساطة ، واذا لم يتحقق لهم ذلك فسيحاولون السخرية منها ، واذا لم يتحقق لهم ذلك ايضا فانهم سيناقشوها ، وهذا ما ارمي اليه .

لا نعرف بعد نتائج مثل تلك المناقشة طالما ان علماء اللغات وعلماء الآثار لم يقوموا بتحريرات واسعة في عسير . وحتى عالم الآثار التوراتي فريتس الذي يتخذ موقف المتشكك من النظرية ، يعترف بانه قد يوجد في عسير اثار لم تكتشف حتى الان والتي قد تكون ذات دلالة للتاريخ التوراتي . وقد نسخر الان من نظرية الصليبي ولكن قد نضطر جميعا الى الحجج الى عسير بعد عشرين سنة .

مؤتمرات تاريخية

المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الآشوريات

انعقد في باريس ، في الفترة بين ٧ و ١٠ تموز ١٩٨٦ ، المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الآشوريات حول « المرأة في الشرق الأوسط في العصور القديمة » شارك فيه أكثر من مائتي باحث وباحثة ، والقي فيه خمسة وثلاثون بحثا تناولت تاريخ المرأة في شرقنا العربي وما جاوره من بلدان، من خلال الوثائق المسمارية فحسب. وهذه البحوث التي كتبت بلغات باحثيها ، وهي الفرنسية والانكليزية والالمانية ، ستنتشر في باريس خلال عامين بإشراف مركز الأبحاث والدراسات الشرقية الفرنسية.

ومما تجدر الإشارة اليه غياب العرب التام عن مثل هذه المؤتمرات العلمية التي تبحث في تاريخنا القديم .. وقد ساهمت جامعة دمشق مشكورة في جزء من نفقات سفري للمشاركة في هذا المؤتمر يبحث عن المرأة في مملكة يمحاض (حلب) في القرن الثامن عشر .

ولعل عرضا سريعا للبحوث التي القيت في المؤتمر يحفزنا على بذل المزيد من اجل مشاركة المتخصصين العرب فيه ، وفي المؤتمرات الاخرى المماثلة ، بل الدعوة لعقدتها في بلادنا ، لان علم الآشوريات علم يبحث في تاريخنا القديم اولا واخرا ، فحري بنا ان تكون من اوائل المشاركين في ابحاثه لان من يكتب التاريخ هو الذي يمتلكه ، ونحن للأسف لم نكتب تاريخنا القديم الذي يمتد الى خمسة الاف عام ، وقد آن الاوان لدخول هذا الميدان الذي يسيطر على قسم كبير منه متخصصون توراتيون وصهاينة متعصبون ، اثبعوا هذا التاريخ دراسة وتمحيصا ومقارنة مع توراتهم بقصد امتلاكه ونسبته اليهم ، كورثة لكل التراث القديم .

فهل يتنبه العرب الى هذه المعركة الصامتة والخطيرة ..

١ - باولين البندا Pauline Albenda

صور للنساء والاطفال والعائلة في الفن الآشوري .

٢ - بينهاس ارتسي Pinhaz Artzi

الزواج السياسي واثره على العلاقات الدولية في عصر تل العمارنة.

٣ - جوليا م. اشرف - Greve Julia M. Asher

الكاهنة والعلم . وهو دراسة في اختتام السلالات الاكادية الاولى ، حيث تظهر مشاهد هامة ذات دلالة دينية . وتفسر هذه المشاهد على أنها احلام مثلت على تلك الاختتام ، يصور احدها امرأة ، يعتقد انها كاهنة او الهة ، مضطجعة على سرير وبجانبها ذكرين واثى .

{ - ن.ب. جان كوفسكا : E.K. Astakhishvili, N.B. Jankovska

الملكة والكاهنة ، دراسة مقارنة للمرتبة الاكادية « ملكة وكاهنة » في نصوص مدينة نوزي وفي المعطيات الدينية في العصور الباكورة . . في المناطق المجاورة لمنطقة الرافدين السفلى .

٥ - زفريدا بن برك Zafira Ben Barak

الملكة الزوجة والصراع على خلافة العرش . ويدور البحث حول محاولات الملكة الزوجة وام وريث العرش للاستئثار بالسلطة وحكم الملكة من قبلها مباشرة . الامثلة مستمدة من الممالك القديمة على الشاطئ السوري .

٦ - اليزابيث كارتير Elisabeth Carter

استعراض لآخر نتائج التنقيبات في موقع مدينة لاجاش جنوبي العراق .

٧ - دومينيك شاربن Dominique Charpin

شوبات انليل وبلاد ابوم . يتحدث الباحث عن اخر حفريات تل ليلان في شمال سورية ، ومحاولة ايجاد موقع شوبات انليل التي كانت عاصمة لشمشي ادد الاول مؤسس الدولة الاشورية الامورية . وهو يعتقد استنادا الى ان اسم شوبات انليل كان شيخنا في نصوص تل براك . ان تل ليلان التي تجري فيه الان حفريات اميركية هو المرشح لان يكون شوبات انليل القديمة وعاصمة دولة آشور الاولى .

٨ - دوغلاس فراين Douglas Frayne

وراد - سين وعرش نانا . وهو دراسة لنصين وجدوا في مدينة اور ، يصفان عرش الالهة نانا . واهمية ذلك تعود الى امكانية مقارنته مع وصف العروش الملكية التي وجدت في نصوص اخرى .

٩ - بيلو فرانزارولي Pelio Fronzaroli

بحث في تركيب اسماء العلم المؤنثة في نصوص ابلا . وهي دراسة لغوية مقارنة للاسماء المؤنثة التي نشرت حتى الان في نصوص ابلا .

١٠٠ - اندريو جورج Andrew George

ختم الحظ والقدر . دراسة عن طبعة لختم يعتقد بأنه مصنوع من قبل سنحريب بعد مقارنته بكتابة جديدة لهذا الآخر .

١ - يوحنا غرين فيلد Jonas C. Greenfield

اسماء نساء ، عرفن من خلال نصوص أدبية متأخرة . والبحث يحاول الفناء النضوء على أسماء النساء التي وجدت في نصوص العصر البابلي الحديث والنصوص الآرامية ، وهي الفترة المواقبة لكتابة التوراة والاسماء التي وردت فيها .

١٢ - م. هيلتز M. Heltzer

شكنتو الآشورية وسكنت التوراتية . محاولة لا تخلو من الحقيقة وهي تقرب لقب شكنتو الآشورية وسكنت العبرية وساكنة العربية . وهي وظيفة امرأة في بلاط الآشوريين يحاول الباحث هنا تشبيهها بوظيفة أبشاح الشونمية ، تلك الفتاة التي كانت تؤانس الملك داود عندما شاخ وطعن في السن وتضطجع في حجره ليدها ، (سفر الملوك الثالث - الفصل الأول ١-٥) . والمقارنة هنا مع المصدر الأكادي /شكن/ والذي يقابله بالعبرية والعربية (سكن) أما شكنتو Sakintu الآكادية ، فهي لقب محدد لوظيفة امرأة في البلاد الآشورية تتولى شؤون الحريم وذات نفوذ لا يستهان به . والمحاولة هنا بقصد تقرب التوراة من التاريخ الآشوري وبالتالي الظهور بمظهر الممتلك لهذا التاريخ .

١٣ - فرانسيس جوانس Francis Joannes

الزواج للمرة الثانية في العصر البابلي الحديث . موشدب - بل من نسل (ايا ايلوتا باني) ، وهو من أعيان مدينة بوريسيا ، كان هذا الرجل متزوجا من « خبيست » أرملة أخيه البكر واسمه ادين نبي ، وتزوج بعد موت زوجته من ابنة أخ أو اخت بالمصاهرة .

ان مواجهة مثل هذا الزواج العائلي في المحفوظات المسمارية العائلية تدل بوضوح على مخطط عائلي كي لا تبدد الأسرة ثروتها وممتلكاتها . والباحث يقدم نصوصا جديدة تدعم بحثه .

١٤ - ج.ب. جوزيفوف J.B. Jusifov

المرأة في الفن الأندريجاتي القديم . ظهر ، بعد سقوط السلالة الأخمينية في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، ما يسمى بالبايا القوقازية ، التي تميزت بحضارة متطورة ونظام تقدي واقتصادي هام . ظهر في تلك البلاد بعد التنقيبات الأثرية الكثير من التماثيل الصغيرة بهيئة امرأة يعتقد بأنها الهة الخصب . بالرغم من ظهور

المسيحية ثم الاسلام فان تلك العبادة لم تختف تماما .

١٥ - جاكوب كلاين Jacob Klein

ولادة ولي العهد في المعبد رواية الادب السومري - في عصره الجديد ((الانبياء السومري)) .

تروي النصوص السومرية الادبية الدينية ان شولجي الملك السومري ولد بمعجزة في المعبد والمشكلة المطروحة هي في تفسير النص ، فهل يعني النص السومري ولادته بتدخل الهي ، ام انساني . والبحث يقدم لنا وجهة نظر المؤلف .

١٦ - صموئيل نواه كرامر Samuel Noah kramer

المرأة في الشرق القديم من خلال الادب السومري . وهو بحث القصد منه تكوين فكرة عامة عن موقع الام ، والبنت والاخت والزوجة ، والعذراء البتول في الادب ، وبالتالي المجتمع .

١٧ - برتراند لافون Bertrand Lafont

بنات زمري - ليم ملك ماري او سياسته في الزواج . دراسة لاحدى عشرة بنت للملك زمري - ليم ملك ماري . والباحث هنا يستعرض وثائق جديدة غير منشورة توضح اكثر واكثر سياسة زمري ليم في تزويج بناته الى نوابه في المناطق والمقاطعات وفق سياسة مرسومة للسيطرة على البلاد .

١٨ - ماريا هيلينا لويس Maria Helena Lopes

دور المرأة في مصر القديمة . والبحث دراسة الاوضاع المرأة من خلال الانسطورة والملحمة والصلوات المصرية القديمة .

١٩ - بيوتر ميشالوفسكي Piotr Michalowski

الاميرات والسلطة والسياسة . وهو استعراض للزيجات السياسية في عصر اور الثالثة او عصر النهوض السومري . ويبرز الباحث اهم زيجتين لاميرتين اصبحتا ملكتين لمدينتي سيمانوم وخمازي .

٢٠ - ه . نويمان H. Neumann

ملاحظات حول موقع المرأة الاجتماعي والحقوق في العصر السومري الجديد . تعتمد هذه الدراسة بشكل خاص على قانون اورنامو في نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد .

٢١ - السندرا نيببي Alessandra Nibbi

السيدة خطيبا Hatiba سيدة آلاشيا Alashiya في حكاية المرأة المصرية .

البحث يدور حول قصة مصرية عن امرأة تدعى خطيبا قامت برحلة في المنطقة ..
والباحث يقترح تحديد هوية المناطق والمدن المذكورة في الرواية المصرية .

٢٢ - مارفن ه . بوب Marvin H. Pope

القدرة الخارقة (فوق الطبيعة) للدور البطولي الانثوي في اناشيد الملك سليمان
في التوراة . هذه الاناشيد المنسوبة الى الملك سليمان والتي لا علاقة لها به ولا بعصره
ربما كانت مستمدة من اناشيد اكثر قدما .

٢٣ - اديت بورادا Edith Porada

المذكر والمؤنث في الايقونات الايرانية القديمة.

٢٤ - جان بوفل Jaan Puhvel

خلف وولد باللغة العثية . وهو بحث لغوي مقارن حول معنى هاتين الكلمتين
وصلتهما بالفعلين ذاتهما في الاغريقية واللاتينية .

٢٥ - جوليان رد Julian Reade

سحريب والمرأة . هنالك وثائق منشورة وغير منشورة تدل على ان لهذا الملك
موقف تعاوني خاص تجاه المرأة .

٢٦ - غرد شتاينر Gerd Steiner

المرأة المغوية في الشرق القديم ، وهي من المظاهر التي اغنت الادب القديم .
وهناك المرأة المتزوجة والغانية والكاهنة ، ولكل منهن غوايتهن .

٢٧ - فلاديمير س . تومان Vladimir S. Tuman

ثلاث كنوز Kudurru مكاييل اكادية في متحف اللوفر، وعيد الانقلاب الصيفي .
دراسة حول تحديد عيد الانقلاب الصيفي من خلال تقدير أعمار تلك المكاييل .

٢٨ - كلاوس فيلك Klaus Wilcke

شقيقة الزوج . ان الادب السوري منذ العصور المبكرة يبرز مكانة شقيقة
الزوج . وتظهر لشقيقة انليل اهمية خاصة في الزواج .

٢٩ - اليزابت وليامس Elizabeth williams

بعض الملاحظات حول طبقات الاختام من عصر ماري ، ومحاولة لدراسة صورة
الالهة المؤنثة عليها كفن سوري قديم .

٣٠ - ارين ج. ووتر Irene J. wenter

المرأة في الحياة العامة . يظهر دور المرأة ككاهنة كبرى منذ السلالات الاولى ، وفي
العصر الاكادي تظهر لنا شقيقة صارغون ككاهنة . وبصورة عامة كانت مكانة المرأة
ضعيفة في الحياة العامة .

٣١ - يوهنغ يو Yuhong wu

كتابة مسمارية منسوخة عن الختم الاسطواني لقورش . دراسة مقارنة بين تلك
الكتابة التي وجدت عام ١٩٨٣ منقوشة على عظمة حصان . والكتابة الاصلية
الموجودة في المتحف البريطاني .

٣٢ - مينا زوغرافو Mina zografou

اشارات تدل على وجود مجتمع نساء (فقط) في الشرق القديم . محاولة لاثبات
وجود مؤسسات نسائية تعيش مستقلة عن المجتمع المختلط . وهذه الدراسة لا تمتلك
مستندا مباشرا ، وانما دلائل غير مباشرة وغير أكيدة من الملاحم الادبية والدينية .

٣٣ - مارك جيلر Mark geller

((ارادت ليلى)) امرأة مغوية . بعض النقاش حول تلك المرأة التي تحدثت عنها
النصوص السومرية .

٣٤ - دورينغ كاسبر E.C.L. During Caspers

الحصان المقرن في وادي الهندوس . تهدف الدراسة الى اثبات ان الاختام على
شكل حصان مقرن لها اصل من بلاد الرافدين .

٣٥ - فيصل عبد الله

المرأة في المملكة الحلبية/اليمحاضية في القرن ١٨ ق.م . يبرز البحث الدور
الهام الذي لعبته المرأة الحلبية في السلطة ، وكذلك عادات ومراسيم الزواج ، واهمية
الزواج السياسي مع امثلة على ذلك (نشرنا ترجمة البحث في هذا العدد) .

د. فيصل عبد الله

الهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (١٩٠٩ - ١٩١١)

ناديا طرشوت

مرشحة للماجستير

اختلفت الهجرة الجزائرية التي حدثت في مطلع القرن العشرين (١٩٠٠-١٩١١) الى بلاد الشام في بعض أوجهها ، عن الهجرات السابقة التي حدثت على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر واشتدت في نهايته .

صاحب الهجرة هذه المرة مظاهر جديدة ، تمثلت أولا في الاهتمام الذي أولته الصحافة الفرنسية ، سواء تلك الصادرة في باريس أو الصادرة في الجزائر ، وعلى رأسها صحيفة Le Temps الباريسية فقد كتبت هذه الصحف عن ظاهرة الهجرة الجزائرية التي دفعت بالاهالي المسلمين الى التخلي عن بلادهم والبحث عن ملجأ لهم في بلاد اسلامية أخرى .

وابدى الكثير من الكتاب والصحفيين الفرنسيين ذوي الاقلام الحرة اسفهم على الوضع الذي آلت اليه مستعمرة الجزائر ، فكثر المقالات في الصحف والمجلات لتفسير وتحليل الاسباب التي دفعت بالاهالي الى اختيار الهجرة ، واتجه هؤلاء الكتاب للكشف عن الحقائق و ابرازها للرأي العام ، لان التقارير الرسمية التي تصدرها الحكومة لا تكشف عن الاسباب الحقيقية ولا تجرؤ على ذكرها ، وبذلك برزت لأول مرة انتقادات الصحافة الفرنسية للسياسة والاسلوب المستبد الذي تنتهجه الحكومة العامة بالجزائر لادارة شؤون الاهالي المسلمين ، فبينوا من خلال كتاباتهم ان اسباب الهجرة داخلية اكثر منها خارجية ، وذلك على عكس ما كانت تدعيه الحكومة في تقاريرها من ان السبب خارجي وليس داخليا .

دراسات تاريخية ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧

والامر الجديد الثاني تمثل في ظهور صحافة محلية غير رسمية بدأت في الظهور مع مطلع القرن العشرين في انحاء مختلفة من الجزائر(١) . وهذه الصحافة ، وان كانت ناطقة باللغة الفرنسية ويديرها فرنسيون ، الا ان بعضها حمل لواء الدفاع عن حقوق الاهالي وتصدى لفضح اساليب بعض الموظفين الاداريين ونوابهم من الاهالي .

اما الاسباب الدافعة للهجرة فقد كانت استمرارا للاسباب السابقة ، وزادت عليها اسباب جديدة تمثلت في القوانين التي اصدرتها السلطات الاستعمارية في الجزائر في مطلع القرن العشرين ، ومنها قانون فصل الدين عن الدولة الذي اصدرته الحكومة الفرنسية بحق الدين الاسلامي في الجزائر سنة ١٩٠٧ ، وقانون التجنيد الاجباري الذي شرع في تطبيقه سنة ١٩١٠ . فقد اجبر هذان القانونان عند الشروع في تطبيقهما المئات من سكان المنطقة الغربية والوسطى وكذلك المنطقة الشرقية ، الى اعتبار الهجرة السبيل الوحيد الذي ينقذهم مما هم عليه ، مثلما انقذ الذين هاجروا في السابق . كما لعبت الدعاية لمشروع الجامعة الاسلامية والتي اشتدت في مطلع القرن العشرين ، دورا كبيرا في تأجيج الشعور بالاخوة والتضامن الاسلامي والالتفاف حول الخلافة العثمانية ردا على استفزازات الدول الاوربية الهادفة الى السيطرة على كل البلاد الاسلامية .

ولكن ، ونتيجة للاجراءات المتشددة التي اصبحت تمارسها السلطات الفرنسية على الحدود الجزائرية - التونسية والجزائرية - المغربية ، ومنع المسلمين الجزائريين من اداء فريضة الحج مدة اربع سنوات (١٨٩٨ - ١٩٠١) اي منع خروج جزائري مسلم من الجزائر ، توقفت ، او بعبارة اخرى قلت الهجرة الجزائرية الجماعية ، ولم تسجل السلطات الفرنسية في الجزائر ولا المراسلات القنصلية من دمشق وبيروت اي نزول لجماعات جزائرية في بلاد الشام حتى عام ١٩٠٩ .

قانون فصل الدين عن الدولة : La Loi de Separation

لم يبق الاهالي المسلمون في الجزائر مكتوفي الايدي تجاه القوانين والتنظيمات التي بدأت السلطات الفرنسية على اصدارها بدعوى تنظيم احوال الجزائريين الاجتماعية والقانونية(٢) ، بل ابدوا معارضتهم ورفضهم لكل قانون يمس معتقداتهم وشخصيتهم الاسلامية بعد ان افقدتهم القوانين السابقة اراضيهم واملاكهم .

ويمكن القول ان اكثر القوانين التي اثارت حفيظة الاهالي في مطلع القرن العشرين كان القانون الخاص بفصل الدين عن الدولة ، الذي قررت الحكومة الفرنسية العمل به ابتداء من سنة ١٩٠٧ . والمعروف ان الاسلام لا يعرف فصلا بين الدولة والدين ولكن فرنسا قررت تطبيق قانون الفصل الذي تتبعه في فرنسا على المسلمين في

الجزائر . واهم ما تعرض له قانون الفصل هذا هو توقف السلطات الفرنسية في الجزائر عن اشتراكها في رعاية المساجد وبنائها .

ومعلوم ان السلطات الفرنسية استولت على كل الاملاك العامة بعد الاحتلال مباشرة ومن بينها الاوقاف التي كان المسلمون يخصصونها لصيانة الجوامع ومساعدة الفقراء وابناء السبيل ، ومنها ما كان مخصصا للحرمين الشريفين ، فالحقتها باملاك الدولة (٢) ، على ان تتحمل هي مسؤولية الجوامع والمساجد مثل الانفاق على بعض الاصلاحات وتعيين مرتبات للائمة وغير ذلك . . . الا انه باستيلاء السلطات الاستعمارية على الاوقاف لم تعد هذه تعطي مردودها السابق وضعف شأنها لان الفرنسيين كانوا يؤجرونها مقابل فوائد بسيطة ، واصبحت الديانة الاسلامية تحتل مرتبة اقل من المرتبة التي تحتلها الديانة اليهودية والتي اصبحت تحت حماية الحكومة الفرنسية منذ عام ١٨٤٥ (٤) .

وبقي الحال كذلك الى سنة ١٩٠٥ حين قررت الحكومة الفرنسية النظر في امكانية تطبيق قانون الفصل في الجزائر ، فعرض المشروع على التصويت في البرلمان الا انه لقي معارضة شديدة من طرف بعض النواب ، وبفضل تدخل من النائب البان روزيت تم تحاشي تطبيق القانون الفرنسي كلية في الجزائر .

ولكن المؤيدين لتطبيق قانون الفصل استمروا في حملتهم وعلى رأسهم الحركة الماسونية الفرنسية ، فاميدت المسألة للمناقشة في مجلس النواب سنة ١٩٠٧ وتقرر هذه المرة تطبيق القانون مع التزام الحكومة العامة بالجزائر بتقديم تعويضات مؤقتة خلال اربع سنوات « لرجال الدين المسلمين » والسماح من جهة اخرى باقامة رابطات دينية Associations Cultuels تكون مهمتها رعاية المساجد وتوزيع المرتبات والاشراف على المؤسسات الدينية عامة وتنظيم الاحتفالات في المناسبات وتعيين الائمة وغير ذلك . . . ويكون مديرو هذه الجمعيات الدينية واداريوها من الفرنسيين ، ويمنع كل تجمع سياسي او خطبة تتعرض بسوء للسلطة الفرنسية (٥) .

وشينا فشيئا وبعد التطبيق الفعلي للقانون وجدت الحكومة العامة في الجزائر زمام الامر يفلت من يدها وادركت انها ارتكبت خطأ عندما نزعَت سلطتها عن المساجد والائمة في الجزائر . واعلم الحاكم العام « جونار » وزارة الداخلية الفرنسية بذلك ولاحظ . . . ان المصلحة العليا لفرنسا في الجزائر تقتضي الاحتفاظ بسيطرة مباشرة على ممارسات وانشطة المؤسسات الدينية وهذه السلطة يجب ان تتمثل في حقا في ممارسة التعيينات (٦) .

ومن سلبات قانون الفصل هذا ان المساجد اصبحت عرضة للخطر اكثر من

اي وقت مضى اذ رفضت المجالس البلدية في كثير من المناطق الاصغاء لمطالب النواب المسلمين الخاصة بتقديم بعض المعونات واداء بعض الخدمات للمرافق الدينية ، فقد رفضت الحكومة العامة بعد عام ١٩٠٧ تسجيل قروض مالكة لصالح المؤسسات الدينية مما اثار غضب وسخط النواب المسلمين في المجالس المالية وطالبوا باعادة الاوقاف للمسلمين ، ولكن حكومة « جونار » رفضت الطلب وانتقدته بشدة .

واكثر ما كان يثير الادارة في الجزائر ويزيد من حقدها على الاهالي المسلمين مسألة الحج لذلك راحت تخلق لهم الاعذار لتمنعهم من تأدية الفريضة ، ومنع الحج عام ١٨٩٨ لمدة اربعة سنوات تحت اعدار صحية مختلفة ومنها انتشار الاوبئة ، ثم سمحت به سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ ، ولكن المسلمين الجزائريين كانوا يشكون دوما من العراقيل التي تضعها الادارة الفرنسية امام منحهم جوازات السفر ومن سوء المعاملة التي يلقونها في السفن الفرنسية الحكومية والتي يحشرون فيها كقطعان الماشية ، اذ كان يفرض على الحجاج ركوب السفن من الجزائر رغم ارتفاع سعر التذكرة (٣١٥ فرنك ذهاب واياب) في حين ان التذكرة نفسها تباع في تونس بسعر (١٥٠ فرنكا) (٧) . وعندما طالب النواب المسلمون في المجالس المالية ترك حرية الاختيار للحجاج لركوب السفن التي يشاؤون ، قوبل طلبهم بالرفض التام ، واعلن عن الغاء الحج في عام ١٩٠٣ وعام ١٩٠٤ . ولكن امام استمرار الخروج الخفي للراغبين في الحج عبر الطرق البرية ، وامام ازدياد الانتقادات من طرف بعض المسؤولين اضطرت السلطات لالغاء المنع وسمحت بالحج خلال سنوات (١٩٠٥ ، ١٩٠٦ ، ١٩٠٧) ، ومنع الحج مجددا سنة ١٩٠٨ بسبب قيام الثورة في تركيا ، وسمح به سنة ١٩٠٩ ، وعادت الى منعه مرة اخرى خلال الاعوام (١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢) ، بدعوى الوضع الدولي المتوتر آنذاك (٨) . وسمح بالحج سنة ١٩١٣ ، وصدر قانون سنة ١٩١٤ الذي سمح للمسلمين في الجزائر بأداء فريضة الحج بدون التزود برخصة ادارية (٩) . وكانت هذه السياسة الفرنسية التعسفية تحمل العشرات من الحجاج الى الإقامة النهائية في الحجاز أو الهجرة الى بلاد الشام أو مصر .

قانون التجنيد الاجباري : Le Service militaire obligatoire

لم يكن مشروع التجنيد الاجباري للمسلمين في الجزائر - والذي تقدم به النائب مسيمي سنة ١٩٠٧ اول مشروع من نوعه وضع للاستفادة من الطاقات البشرية في الجزائر ، بل سبقته عدة خطط ومشاريع وضعها جنرالات فرنسيون خلال القرن التاسع عشر .

فالاصداء الاولى للتجنيد الاجباري ترجع الى سنة ١٨٥٥ حين رفضت وزارة الدفاع الفرنسية فكرة استبدال التجنيد الاجباري بالتجنيد التطوعي الذي كان مطبقا

على فرق الاهالي . وجاءت الحرب البروسية - الفرنسية لتظهر مدى قوة واندفاع فرق القناصة الجزائرية ، فبرزت الى الازهان مرة اخرى فكرة تشكيل جيش من المسلمين الجزائريين ، ولكنه لم يكن بإمكان فرنسا المهزومة والضعيفة انذاك تحقيق المشروع . وتوالى الخطط والمشاريع وآلت في غالبيتها الى الفشل (١٠) . وكان الفرنسيون وخاصة المستوطنون في الجزائر يخشون من تشكيل جيش من المسلمين اذ ان هذا الجيش اذا ما تعرف على فنون القتال واتقنها قد يتحول الى عنصر خطر ضدهم ، لذلك كانوا يفضلون دوما الإبقاء على نظام الارتزاق ..

ولكن جملة اسباب ومن بينها نقص في نسبة الولادة في فرنسا، والقانون العسكري الذي صدر سنة ١٩٠٥ ، ونص على تقليل مدة الخدمة العسكرية في فرنسا من مدة ثلاثة سنوات الى سنتين (وهو القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية للتخفيف من الاعباء العسكرية على ابنائها ، ولتظهر لجيرانها الاوربيين مدى حبها للسلام) دفعت بالحكومة الفرنسية الى اعادة التفكير في الاستفادة من طاقات الشباب المسلمين في الجزائر وهذه المرة ليست بالزيادة في عدد الفرق المرتزقة ، وانما بفرض التجنيد الاجباري للحصول على جيش نظامي جزائري (١١) ، فتقدم النائب « ميسي » مقرر الميزانية الحربية بمشروعه بعد ان تبين له ان تجنيد الشباب من الجزائر هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تخرج فرنسا من المأزق ، وخاصة وان الاوضاع في اوربا كانت تسير نحو التأزم ، فكتب رسالة بتاريخ ٧ ديسمبر عام ١٩٠٧ وجهها الى وزير الحربية يقترح عليه فيها :

— التخفيض من القوة الفرنسية في الجزائر .

— الزيادة بالمقابل في القوة العسكرية للاهالي .

— تنظيم الاحتياط منهم .

وشكلت لجنة للنظر في امكانية تطبيق المشروع جديا ، ودامت اعمالها من عام ١٩٠٧ الى عام ١٩٠٨ ، وعلى ضوء نتائجها اتخذ قرار فرض التجنيد الاجباري سنة ١٩١٢ (١٢) . وعلى ضوء قرارات اللجنة بادرت السلطات الفرنسية في كل انحاء الجزائر الى احصاء الشباب المؤهلين للخدمة العسكرية سنة ١٩٠٩ (١٣) ..

ويتوجب علينا في هذا الصدد ان نلقي نظرة على مضمون مشروع « ميسي » وردود الفعل التي نتجت سواء في الاوساط الحكومية الفرنسية او في اوساط المستوطنين والاهالي المسلمين في الجزائر ، اضافة الى ردود الفعل التي سجلتها الصحف والمجلات .

يقول ميسيمي في مشروعه «أن رغبة فرنسا في السلام التي أظهرتها فعلياً بالتخفيض من فعاليتها العسكرية ، لم تتبع من طرف جيرانها ، فإيطاليا لم تعر المسألة اهتماماً في حين أن ألمانيا تعمل جاهدة للزيادة من قواتها ونفقاتها العسكرية بنسب خطيرة . بما أنه لا يمكننا التراجع عن قرار عام ١٩٠٥ الخاص بالمدة المحددة للخدمة العسكرية ، فإن الحل الوحيد يكمن في تطبيق الخدمة العسكرية على الأهالي المسلمين في الجزائر» . ويستطرد ميسيمي قائلاً : أن القوة العسكرية الأفريقية والقائمة على وضعها الحالي منذ نصف قرن لا تعرف إلا التطوع لأجل طويلة ، ولنا في المستعمرة ١٦٠٠٠ قناص ومرترق يخدمون منذ ١٠ أو ١٥ سنة وتكاليفهم مرتفعة بصورة كبيرة (١٤) .

ويجري « ميسيمي » مقارنة بين ما تعطيه تونس وما تعطيه الجزائر من قوات عسكرية ، فالمطاء التونسي هو أكبر وأحسن بكثير من العطاء الجزائري (رغم التفاوت الكبير في عدد السكان بين البلدين) ، والقوة التونسية رغم حداثة تأسيسها (منذ عشرين عاماً) فإن التجنيد فيها يتم بالقرعة ، والخدمة تدوم ثلاث سنوات ، ويمكن لتونس أن تمدنا في حالة السلام بقوة تعدادها ٧٠٠٠ جندي بسعر تكلفة منخفض جداً ، بالقياس مع الجندي الجزائري ، كما يمكنها أن تمدنا في حالة الحرب بين ٢٥ و ٣٠٠٠٠ جندي (١٥) .

أما عن ردود الفعل التي أثارها هذا المشروع فقد تميزت بالاختلاف والتعدد ، فالرأي العام الجزائري أبدى معارضته الصريحة له ، وازدادت معارضته عندما شرعت السلطات الفرنسية في عمليات الإحصاء في مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة . في حين أن النخبة الجزائرية والتي أصبحت تمثلها في هذه الفترة جماعة الشبان الجزائريين « les Jeunes Algériens » وجدت فيه فرصة لحصول الأهالي على بعض حقوقهم أو تعويضات مقابل ضريبة . وكانت فعلاً فرصة توفرت للأهالي للتعبير عن رغباتهم ومطالبهم في لوائح تقدموا بها للحكومة العامة بالجزائر ، وحتى للحكومة في باريس ، إذ توجهت لجنة من النخبة برئاسة « بوضربة » إلى باريس تحمل جملة من مطالب الأهالي إلى الحكومة الفرنسية وملخصها أنه « يجب أن تقابل ضريبة الدعم على المسلمين في الجزائر بتعويضات حقيقية ، فالأهالي يطالبون بكامل حقوقهم السياسية أو بحقوقهم في الهجرة حيث يشقون (١٦) » . واستقبلت اللجنة من طرف الرئيس الفرنسي كليمانصو ، ووافقت الحكومة مبدئياً على مشروع التجنيد مع منح الأهالي بعض الحقوق السياسية مثل حق التمثيل النيابي والانتخاب .

وبلغ الأسى بأهالي (ندوومة) شمال تلمسان مبلغه إذ تبين لهم أن الفرنسيين يريدون أن يزجوا بهم في ميادين القتال لمحاربة اخوانهم المسلمين في المغرب الأقصى ، ومع رفضهم الكامل للمشروع قرر بعضهم الذهاب إلى (طنجة) لطلب الحماية من الألمان ، في حين قرر آخرون إرسال لجنة إلى الحكومة الفرنسية يرأسها ابن رحال

لتطلب « اما سحب مشروع التجنيد الاجباري ، او منح تعويضات مقابل تطبيقه ، او توفير الحرية للاهالي للهجرة الى البلاد الاسلامية » .

وسادت في هذه الفترة وبهذه المناسبة مقولة مفادها انه لأول مرة يتفق الاهالي المسلمون والمستوطنون على أمر وهو معارضة الطرفين لمشروع التجنيد الاجباري . وفي حين ان الاهالي وجدوا في هذا المشروع خطرا على عقيدتهم وكيانهم ، فان المستوطنين الفرنسيين راوا فيه خطرا على مصالحهم ومكاسبهم ووجودهم كمستوطنين في الجزائر ، وابدوا تخوفهم الشديد مما يمكن ان يعجره هذا الاجراء الجديد من مخاطر على امن المستعمر .

اما موقف البرلمان فقد تميز باختلاف الاراء وتضاربها ، فمن النواب من عارض مشروع القانون كلية (١٧) ومنهم من دافع عنه وابدى تحمسا لتطبيقه ، ومنهم من وقف موقفا وسطا مطالبا بمنح الاهالي حقوقا مقابل ذلك ومن بين هؤلاء النائب البان روزي Albin Rozet الذي طالب الحكومة بضرورة ادخال تغييرات على قانون الاهالي لصالح هؤلاء ، وذهب في انتقاداته الى درجة انه طالب الحكومة الفرنسية باعطاء اهتمام اكثر للمسلمين وللإسلام في الجزائر ومما قاله « . ان العالم الاسلامي يشهد نهضة حقيقية . . . باستثناء الجزائر التي بقيت خارج اطار هذه النهضة ، والمستوطنون والادارة يعملون على الابقاء على جهل الاهالي الجزائريين وتخليهم لاختصاصهم لسيطرتهم فيزداد بذلك الضغط على المسلم الجزائري ويتوقف او يمتنع عن اي تطور اجتماعي او ثقافي (١٨) » .

ومن الانتقادات التي وجهت لمسيمي حول مشرعه ، من طرف الكتاب والصحفيين ما جاء في مقال لـ « بيغيا » J. bevia « . . . ان مسيمي ارتكب خطأ عندما قارن بين وضعية الجزائر ووضعية تونس ، فنحن في الجزائر نتعامل مع تابعين لنا وليس مع مواطنين ، اي تابعين يعملون في خدمة مسيحيين ، اما التونسي فهو يخضع لنظام يعمل بمقتضى القانون الاسلامي » ، وعن اقتراح مسيمي التخفيض من عناصر القوات الفرنسية في افريقيا الشمالية ، فان « بيغيا » يرى في ذلك حرمان المستوطنين الفرنسيين والاوربيين من عناصر امنهم . ولاحظ انه لا يجب اهمال رأي المستوطن في مثل هذه الاجراءات ، وهم اول متعرض للخطر (١٩) .

وظهرت الى جانب مشروع مسيمي في هذه الفترة . اتجاهات اخرى نبهت الى امكانية استعمال قوة سوداء من السنغال في الجزائر لتعوض النقص في القوات الفرنسية النظامية التي سيتم نقلها الى اوربا ، ولكنها كانت خطة فاشلة .

كان النجاح حليف مشروع « مسيمي » للتجنيد الاجباري للاهالي المسلمين في الجزائر اذ ان جملة ضغوط وظروف دولية تدفع بالحكومة الفرنسية الى اصدار قرار بتاريخ

٣ فبراير (شباط) ١٩١٢ ، يقضي بتطبيق التجنيد الاجباري ، فبالاضافة الى العامل الرئيسي وهو الانخفاض الذي طرأ على القوة العسكرية الفرنسية ، وجد الفرنسيون ان فرق القناصة الجزائرية لم تعد تجند بسهولة وهذا راجع الى عدة اسباب منها الازدهار الاقتصادي الجزائري ، والشروع في استغلال مواردها المنجمية ، وتطور الخدمات العامة بها ، وكل ذلك يتطلب يدا عاملة ، وارتفعت الاجور بازدياد الطلب على اليد العاملة ، لذلك اصبح الكثير من الناس يفضلون هذه الاعمال المريحة على ان يلتحقوا بالخدمة العسكرية .

وهناك ضغط آخر يتمثل في الحملة الفرنسية على المغرب الاقصى ، ونظرا للضغوط والظروف الدولية الصعبة التي كانت تعيشها اوربا انذاك لم يكن من الممكن نقل قوات فرنسية كبيرة للقتال في المغرب الاقصى ، فكان لابد من اللجوء الى فرق من افريقيا الشمالية . فتم نقل حوالي الثلثين من القوات الجزائرية والتونسية الى المغرب الاقصى في حين كان الاحصاء متواصلا بهدف فرض التجنيد الاجباري (٢٠) .

وبمجرد الشروع في عمليات الاحصاء افتضح الامر لدى الاهالي ، واعلنوا عن رفضهم ، ولجأ الكثير من الناس الى اخفاء ابنائهم ، وتظاهر الناس في مدينة تلمسان في مظاهرة عارمة شارك فيها حوالي ٢٠٠٠ شخص ، وبسرعة قدم امام رئيس الدائرة ٣٢١ طلبا للحصول على جواز سفر للهجرة الى بلاد الشام ، وعادت الرغبة في الهجرة والدعاية لها في الظهور من جديد ، ودائما في مدينة تلمسان ، عمل المفتي « شلبي جلول » لتحريض الناس على الهجرة من خلال خطب الجمعة كرد فعل انتقامي على الاجراء الفرنسي الجديد الذي تحول الى الاستيلاء على الابناء بعد اخذ الارض والاملاك ، ونجح الشيخ في تسفير اثنين من ابنائه الى دمشق (٢١) .

وعبرت الطريقة الدرقاوية السائدة في تلمسان عن رفضها لعمليات الاحصاء بقصد تجنيد الشباب المسلمين ، ونشط مقدمان من الطريقة يدعيان « كزيور » و « الحاج محمد بن يلس » لدعوة الناس للهجرة الى بلاد الشام ، وتقدم المقدم الاول بطلب خمسين جواز سفر ، ولكن طلبه رفض ورغم ذلك خرج اولئك الدرقاويون على افواج في اتجاه دمشق ، ضم الفوج الاول ٧٥ شخصا وضم الفوج الثاني ٤٠٠ ، ثم تبعهم فوج من ٢٥ شخصا (٢٢)، وفي عام ١٩٠٨ تقدم الحاج « محمد بن يلس » بطلب عدد كبير من الجوازات ، ولما شعر بالخطر يتهدهه عمد الى الفرار في سبتمبر عام ١٩١١ ولجأ الى دمشق (٢٣) .

— الهجرة الى بلاد الشام ١٩٠٩ - ١٩١٠ —

بعدما تعرضنا بشيء من التفصيل لاهم القوانين التي اصدرتها الحكومة الفرنسية

في مطلع القرن العشرين لتطبيقها على الاهالي المسلمين في الجزائر (قانون فصل الدين عن الدولة وقانون التجنيد الاجباري) الذين كانا السبب المباشر وراء هجرة الكثير من العائلات خاصة من منطقة تلمسان والوسط ، نتعرض الان لاول موجة هجرة سجلت في هذه الفترة ، ثم تلقي نظرة موجزة عن الاسباب الاخرى الكامنة وراء هجرة الاهالي الجديدة بما في ذلك الاسباب الداخلية والخارجية .

بدأت موجات الهجرة الجديدة في الظهور في اواخر سنة ١٩٠٩ وبداية سنة ١٩١٠ في القطاع الشرقي من الجزائر وخاصة منطقتي قسنطينة وسطيف . ولم تسمح السلطات الاستعمارية بهذه الهجرة ، وانما حدثت خفية عبر حدود التونسية - والليبية ، رغم اننا لا نستطيع ان ننفي تماما علم السلطات المحلية في هاتين المنطقتين بهذه الهجرة ..

واول من أعلن عن هذه الهجرة من المسؤولين الفرنسيين السيد تريل « Treille » النائب السابق في مقاطعة قسنطينة ولم تتفطن السلطات المحلية للوضع الا من خلال حركة البيع النشطة والمستعجلة للأراضي وقطعان الماشية التي بدأت تشهدها اسواق المنطقة (٢٤) . واخبر السيد « Treille » ان منطقة الهضاب العليا القسنطينية من عين البيضاء الى الحضنة تشهد موجة هجرة كثيفة بين الاهالي المسلمين باتجاه تركيا ، وربط النائب الحادث مباشرة بالاجراءات التعسفية التي تنتهجها الادارة في معاملتها للاهالي (٢٥) . وانتقلت القضية مباشرة الى صفحات الجرائد المحلية والفرنسية وحتى التونسية ، في حين اتجهت الردود الحكومية الى التقليل من اهمية الحادث . ولكن الحكومة وتحت ضغوط مختلفة اضطرت الى التحقيق في المسألة فعينت الكاتب العام السيد Varnier على رأس لجنة توجهت الى الشرق الجزائري . استعرضت اللجنة في تقريرها الذي قدمته الى الحاكم العام عدة اسباب نذكر من بينها السبب التالي « فقد ظهرت مع مطلع عام ١٩٠٩ حملة جديدة تهدف الى تحريض الناس لبيع ممتلكاتهم والهجرة الى بلاد الشام ، وتزعم هذه الحملة مقدم من الطريقة الرحمانية يقيم بالقرب من عين تافروت وهو رجل دين ، وضع نفسه في خدمة مستوطن فرنسي لكي يتمكن هما الاثنان من شراء قطع من الاراضي ، وللوصول الى ذلك راح المقدم يشي في حملته على الجزائريين الذين هاجروا في السابق الى بلاد الشام ، ويعدد الفوائد المادية والمعنوية التي يجنيها المهاجر عند اقامته في سورية (٢٦) » ..

وكأي تقرير رسمي ذهب هذا التقرير كذلك في اتجاه ينفي أي مسؤولية مباشرة او غير مباشرة للسلطات الفرنسية في هذه الظاهرة ، وأكد السيد وارنيه مرة اخرى ان الاسباب هي خارجية اكثر منها داخلية ، موضحا ان اهم سبب يدفع بالاهالي المسلمين في الجزائر الى طلب اللجوء الى البلاد العثمانية انما هو الاهتمام الذي توليه الحكومة العثمانية للمهاجرين الجزائريين ، وفي ذلك ما يكفي من الاغراء ، اضافة الى

الحملات الصحفية التي تشنها صحف بيروت ودمشق ضد السياسة الفرنسية في الجزائر .

ولكن مثل هذه التغطية والتمويه لم يعد يخفى على بعض الفرنسيين الذين راحوا يرفضون كل ادعاءات الحكومة وتفسيراتها لهذه الظاهرة . وتشك هؤلاء للبحث والكشف عن الاسباب العميقة التي ادت الى تفشي هذا الوباء المعنوي الذي اضر بالاهالي وسيلحق الضرر بمصلحة المستعمرة كلها ، ولعبت الصحافة المحلية الناطقة باللغة الفرنسية والصحافة الفرنسية دورا كبيرا في هذا المجال .

ولا يسعنا هنا ان نتعرض لجميع اقوال الصحف في هذا الشأن وانما تكتفي ببعض النماذج . فبالنسبة للصحف التالية La democratie de Tebesse, L'Islam de bône Tunisien اتهمت صراحة قانون الانديجينا واخطاء الادارة الفرنسية والسياسة الاستعمارية بوقوفها بطريقة مباشرة او غير مباشرة وراء خروج الاهالي . اما صحيفة L'Essor d' Ain-beida فانها كشفت انه « في منطقة سطيف يضطر الكثير من الناس الى الهجرة بسبب نقص في الاراضي » ، ولا حثت ان موجة الهجرة الجديدة تزامنت مع اقامة مراكز استيطانية فرنسية جديدة ، وبينت ان هناك دعاية للهجرة يقوم بها بعض الناس والتي يتساهل معها بعض رجال الادارة ويذهبون الى حد تغطيتها والتحريض لها . وارجعت « la Dépêche Tunisienne » سبب الهجرة الى عمليات مصادرة الاراضي من الاهالي ومنحها للمستوطنين الجدد « . . . وعندما تعطى للاهالي اراض غير اراضيهم فانها لاتساوي في شيء تلك التي صودرت منهم ، واذا ما عوض لهم عن ذلك بالاموال فان هذه الاموال سرعان ما تنضب . . . » (٢٧) .

واهتمت صحيفة الاخبار L'Akhbar (٢٨) جديا بالمسألة وبرزت امورا كثيرة لم تجرؤ الصحافة الرسمية ولا الحكومة الكشف عنها وكتبت تقول « . . . لم تكن كل الاثار الخارجية ففي بعض المراكز نلاحظ قيام رابطات حقيقية بين بعض المستوطنين وبعض رجال الطرق أحدهما يدعو للهجرة والاخر يشتري اراضي واملاك المهاجرين . وقد هاجرت كل العائلات وساعدها في ذلك بعض الاوربيين الراغبين في الحصول على الاراضي ، وافر بعض الموظفين هذه الدسائس ومنحوا جوازات سفر بدون تأشيرات من السلطات الولائية . . . في حين استغل مستوطنون آخرون تجمعات الاهالي للقاء او اجراءات التجنيد وراحوا يبادروا الى الخروج . . . » ولاحظت الصحيفة من جهة اخرى « . . . اذا كان من واجبات الادارة استخدام رؤوس الاموال وافساح المجال امام مبادرات المستوطنين لتطوير المنطقة فلا يجب ان يحدث ذلك على حساب الاهالي . . . » ودعت الراي العام الفرنسي الى الاهتمام بالمسلمين ومساعدتهم على النهوض بانفسهم والتخفيف من الضرائب التي لا تفرق بين غني وفقير . . . » (٢٩) .

ولم تشذ عن هذه القاعدة الا صحيفتا le Tell, la Dépêche Algerienne فقد أرجعتا سبب الهجرة الى التعصب ، وذكرت هذه الاخير « .. ان سبب هجرة اهالي سدارة بنواحي قسنطينة هو الرغبة الملحة لاداء فريضة الحج فهم يهاجرون الى بلاد الشام ليسهل عليهم اداء هذه الفريضة والتخلص من العراقيل التي تفرضها السلطات الفرنسية في الجزائر ، كما يدفعهم الى الهجرة رغبتهم في الحصول على اراض مجانا من الحكومة التركية .. » (٣٠) .

اما صحيفة (الطان) الباريسية Le Temps فانها بعد ان عرضت بالتفصيل لآخبار الهجرة الجديدة التي شهدتها المنطقة الشرقية طالبت الحكومة بضرورة اعطاء اهتمام اكبر لمصالح الاهالي حتى لا يقعوا ضحية للدعاية القادمة من المشرق ، وحتى لا يقعوا كذلك فريسة لعمليات الابتزاز التي يقودها بعض الاوربيين . اذ ان نسبة كبيرة من الملاكين فقدوا اراضيهم نتيجة عمليات ربوية . وختمت المقالة بالقول « .. علينا ان نجعل الجزائري يشعر بالراحة والاطمئنان في الجزائر اكثر من تركيا ، ولا يتطلب هذا الامر احداث تغييرات مادية فقط بل يجب غزو قلوب الاهالي ، بمعنى توفير وضعية مرضية لهم في المجتمع الجزائري الحديث » (٣١) .

وعبرت الادارة الفرنسية عن موقفها من خلال هذا المقال الذي نشرته الصحف الفرنسية ومما قالته « .. انا هنا امام حالة ليس فيها ما يخالف الآلاف ، ففي كل المجتمعات تساهم الطبقات الفقيرة في حركة الهجرة بوحدات تفوق بكثير تلك التي نلاحظها في الجزائر ، ومع ذلك فالحكومة المستعمرة ابدت انشغالها بالوضع وعملت على استجلاء الاسباب التي ادت الى اشتداد الهجرة في هذه السنة وتبين ان هذه الاسباب تكمن كلها في الوضع الاقتصادي للاهالي (٣٢) . فاذا ما اخذنا دائرة « سطيف » كنموذج ، وهي التي شكلت الهجرة منها حوالي ثلاثة ارباع ، نجد انه قامت فيها مضاربة جنونية على الملكيات ، فبعض الاراضي غير المروية وصل ثمنها الى ١٠٠٠ فرنك فرنسي للهكتار ، اما الاراضي الجماعية ، والتي تكون فيها الملكية ثابتة ، فان سعر الهكتار الواحد فيها وصل الى ٣٥٠ فرنكا وبالتالي فالاهالي لا يستطيعون الثبات امام هذه الاغراءات ، اضافة الى مضايقات الدين والربا والتي كثيرا ما كانت تكون السبب في فقدان الاهالي لاراضيهم واملاكهم ، ومن هنا فعالية المهاجرين هم من الفلاحين الذين فقدوا املاكهم بطريقة او باخرى ، وعندما تقترن حالتهم البائسة هذه مع الاماني والوعود القادمة من المشرق ، فلا شك انهم يبادرون بسرعة الى الهجرة ، ويظل السبب الرئيسي هو الحالة الاقتصادية للفلاح الجزائري والذي راح ضحية غفلته وسداجته .. » (٣٣) .

يبدو جليا من خل هذا التفسير تهرب السلطات الاستعمارية واغفالها ذكر اخطاء نظام الانديجينا وتعسف الحكام ورجال الادارة في الاقاليم والمقاطعات ، ولكن

بعض الفرنسيين لاحظ انه اذا كانت السلطات لم تستطع اخراج الفلاح الجزائري من جهله فانها على الاقل تستطيع محاربة اولئك المرابين وتقويم سلوك الموظفين الجشعين (٢٤).

والحقيقة ان وضع الاهالي المسلمين في الجزائر استمر على ما هو عليه منذ القرن التاسع عشر بل ازداد سوءا . ولكن الامر الذي استجد في هذه المرحلة هو الاهتمامات التي اصبحت توليها الصحافة لمعاناة الاهالي ، وقد افادهم ذلك كثيرا فمعاناتهم اصبحت تجد لها محلا في الصحف والمجلات ، وفي مطالب ولوائح اللجان المالية والنواب المسلمين ، الامر الذي مكنتهم في هذه المرحلة من التعبير عن مفارضتهم لبعض القوانين في شكل تظاهرات وتجمعات شعبية او ارسال لجان للتفاوض مع الحكومة الفرنسية في باريس . .

وبعبارة اخرى فقد ساد نوع من حرية التعبير احسن المدافعون عن الاهالي من المسلمين ومن الفرنسيين استغلاله ، وسيكون لهذه المساعي نتائجها الحسنة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ومثلما سبق القول فان لكل موجة هجرة اسبابها الداخلية واسبابها الخارجية واذا ما تفحصنا في الاسباب الخارجية لهجرة عام ١٩١٠ وعام ١٩١١ نجد ذات صلة كبيرة ان لم نقل مباشرة بالتغيرات التي طرات في تركيا ، ويأتي في اولها مرحلة فرض الدستور على السلطان عبد الحميد ، ثم الثورة عليه . ووضع بعض الممثلين الفرنسيين هذا السبب على رأس الاسباب كلها ، وابدى هؤلاء الفرنسيون اسفا كبيرا تجاه حركة الاتحاد والترقي التي تلقت تكوينها السياسي في فرنسا ، وعندما رجعت الى بلادها اعجبت بمشروع الجامعة الاسلامية ، ورات امكان احياؤه من جديد بعد ان عرف توقفا مؤقتا (٢٥) .

اما تأثيرات التغيرات التي طرات في تركيا على المسلمين في الجزائر فقد برزت جليلة خاصة بين الشباب الجزائريين « les Jeunes Algeriens » ، اذ عمل التقارب التركي - الالماني على غرس التفاؤل والامل لدى هذه النخبة ، والنخبة في بلاد المغرب بصفة عامة (٢٦) ، خاصة وان المانيا هي عدوة فرنسا منذ القديم . واتضح لهؤلاء الشباب ان المانيا هي القوة الاوروبية الوحيدة التي تظهر اهتماما بالاسلام والمسلمين ، وترغب في اقامة تحالفات مع مختلف البلاد الاسلامية .

اتجهت انظار الجزائريين والتونسيين في هذه المرحلة الى تركيا التي تساندها المانيا خاصة وان بلاد المغرب بدأت تشهد تطورات جديدة حيث تجلت النوايا الاستعمارية الجديدة لكل من فرنسا في المغرب الاقصى وايطاليا في طرابلس (٢٧) . ومن الفرنسيين الذين شغلهم افكار الجامعة الاسلامية وتأثيراتها على الاهالي المسلمين في

الجزائر «بورداري» Bourdarie» ومما جاء على لسانه « .. انه بالنسبة للجزائر فان هؤلاء الاتراك استغلوا اخطاء نظام اداري قديم لاثارة موجة هجرة قد تعمل على زعزعة الوجود الفرنسي في الجزائر لاسيما ان الحكومة الفرنسية اقتربت او بالاصح حسمت مسألة التجنيد الاجباري وهو الامر الذي تخشاه برلين أكثر من غيره لما خلفته ذكرى معركة «wissembourg» من اثار في اذهان الالمانيين(٢٨) » .

واكد الكاتب « .. ان هذه الهجرة لم تحدث سنة ١٩١٠ بل ظهرت عشية الانقلاب العثماني واشتدت سنة ١٩٠٩ (٢٩) » .

فهذه الهجرة قد حصلت اذن ، حسب رأي الكاتب ، بايعاز من المانيا التي التي خشيت امر التجنيد الاجباري للمسلمين الجزائريين ، ولاشغال الخطة الفرنسية في هذا المجال ، وراحت تعرض بطرق غير مباشرة على خروج الاهالي من الجزائر لتقلص ، بقدر الامكان ، من عدد المجندين الذين سيدخلون صفوف الجيش الفرنسي . وادعاء كهذا قد يكون له جانب من الصحة خاصة وانه ليس هناك ما ينفيه ، ولاسيما اذا ما وضعناه في اطار سياسة التحالفات الدولية الجديدة التي بدأت في الظهور في هذه الفترة .

وتواصلت من جهة اخرى عمليات الدعاية للهجرة من بلاد الشام واستانبول ، سواء عن طريق الصحف ام بواسطة الرسائل المتبادلة بين المهاجرين وذويهم في الجزائر . وقد اتخذت هذه الدعاية طابعا شبه رسمي في هذه الفترة ، اذ شكلت مؤسسات وتجمعات منحها الحكومة العثمانية صلاحيات للاهتمام بامر المهاجرين وتوطينهم ، فظهر في دمشق « اللجنة الدمشقية للتجمع الاخوي الجزائري - التونسي » والتي واظبت على ارسال النداءات ودعوة الجزائريين والتونسيين للهجرة الى بلاد الشام تعبيرا عن سخطهم على النظام الفرنسي في الجزائر . ومما جاء في احدي هذه الرسائل - وكانت موجهة لشخص يدعى الحاج ابراهيم الصادراتي « .. نطلب منكم ان تعرفوا اخواتنا المغاربة الذين بطرفكم بما اعرفكم على فضائل بلاد الشام وبما فيه من خير .. اعلموا اننا في انتظاركم بدمشق على القدوم الينا عزمنا عزمنا من غير تأخير لان الحكومة العثمانية تحتفل بالقادمين اليها من المهاجرين المغاربة ، واول وصولهم الى بيروت تركيبهم الحكومة العلية الى الشام ، والسكن ايضا بلا شيء من غير دراهم وتعطي الدولة ايضا لكل نفس عشرين هكتار تراب وتعطي له ثورين وزريعة ، والولد الذي يولد عند المهاجرين يعطى له مثل كبير ولا يؤخذ منهم العشر الا بعد العشرين سنة ويصير يدفع مثل اهل البلد(٤٠) » .

وكان مركز هذه اللجنة في بيروت ولها فروع في استانبول ودمشق ، وكان ممثلها في دمشق مهاجر جزائري يدعى محمد بن شطة كان قد هاجر من مدينة الاغواط (بجنوب الجزائر) الى تونس ، وعندما سقطت هذه تحت الحماية الفرنسية اضطر

الى الخروج منها وتوجه الى دمشق هو وعائلته وتولى في دمشق رئاسة تحرير جريدة
ال « المهاجر » التي كانت تصدر في دمشق بين سنة ١٩١٢ و ١٩١٤ وهي الناطقة
بلسان المهاجرين في بلاد الشام .

اما عدد المهاجرين الذين خرجوا من المنطقة الشرقية وفي هذه الفترة فنستطيع
الحصول عليه من الارقام التي وردت في التقارير الرسمية ، ومن خلال الصحافة
المحلية والتونسية التي اهتمت بهذه الهجرة : وقد عملت الادارة الاستعمارية من خلال
تقرير وارنييه الخاص بالهجرة التي حصلت سنة ١٩١٠ في الشرق الجزائري ، وخاصة
من نواحي سطيف ، وبرج بو عريريج وصدراثة ، احصاء عدد المهاجرين ومعرفة
ارضاعهم الاجتماعية ، ولكن مهما كانت قيمة هذه التقارير فان ارقامها تظل تقريبية
خاصة وان السلطات المحلية كانت تحاول دوما التقليل من اهمية الحادث وخطورته
يضاف الى ذلك التقارير الصحفية ، ومنها الصحافة التونسية التي اهتمت بظاهرة
الهجرة الكثيفة التي انطلقت من الموانئ التونسية وبخاصة مينائي تونس وقابس ،
وكانت ارقام هؤلاء المهاجرين حسب ما اورده الصحف التونسية تصل مرة الى ٢٣
شخصا ، ومرة الى ٨٠ شخصا ويذكر « Spielman » من برج بو عريريج الارقام التالية :
هاجرت من صدراثة ١٥ عائلة اي حوالي ١٠٠ شخص ، ومن زمورة ٧ عائلات ، ومن
المجانة عائلة واحدة ، واربع عائلات من المعاديست (٤١) في حين ذكرت صحيفة
« La Dépêche Algérienne » انه ومنذ عام خرجت ٨٠ عائلة مهاجرة الى تركيا ومن
بينها ٣٢ عائلة من بلدية « عين تافروت » وحدها ، وهناك اعداد اخرى (هي الان)
موقوفة في ميناء تونس حيث رفضت السلطات المحلية ابصارهم . ويكون العدد الكلي
لهؤلاء الذين قرروا الهجرة واستعدوا لها يتراوح ما بين ٥١١ - ٦٠٠ شخص (٤٢) .

ولم تقتصر هجرة عام ١٩١٠ على الجزائريين في منطقة الشرق الجزائري فقط
بل استجاب لها كذلك المهاجرون الذين هاجروا في السابق الى تونس ، واستجاب لها
كذلك التونسيون انفسهم خاصة من اهالي « الكاف » (٤٣) ، وغالبية هؤلاء المهاجرين
كانوا حسب التقارير الرسمية والصحفية من متوسطي الحال من الذين اضطروا الى
بيع ممتلكاتهم الى الاوربيين تحت ظروف وضغوط مختلفة ، وقد كتبت صحيفة
الاخبار عن « الرغبة الملحة لدى بعض المستوطنين لطرد الاهالي حتى يتوفر المكان
لهم » (٤٤) .

هجرة تلمسان ١٩١١ :

تميزت هجرة اهالي مدينة تلمسان وضواحيها عن باقي الهجرات بكثافتها بحيث
لم تعط منطقة في الجزائر وفي خلال شهر واحد مقدار ما اعطته تلمسان وضواحيها من
مهاجرين ، فبين شهري تشرين الاول والثاني ١٩١١ خرج ما بين ١٠٠٠ و ١٢٠٠

شخص مما دعى الفرنسيين الى وصف هذه الهجرة « بالهلع الحقيقي وبالوباء الحقيقي الذي سيطر على البلاد كلها ، وكان يوميا يرمي بالعشرات بل بالمئات من العائلات على الحدود الوهرانية - المغربية ، وسجل في احد الايام خروج ١٢٠ شخصا دفعة واحدة (٤٥) .. وهناك من يقول ان العدد وصل الى ٢٠٠ عائلة اي ٣٠٠٠ شخص تقريبا . وكانت هذه العائلات قد ابحرت الى بلاد الشام من الموانئ الاسبانية في المغرب الاقصى ، وتجاهلت السلطات الفرنسية في المنطقة كلية هذه الحوادث ، ولم تتخذ اي اجراء لايقاف الهجرة او تكليف لجنة للتحقيق في الامر (٤٦) .

وظهرت البوادر الاولى لهذه الهجرة مع اواخر عام ١٩١٠ كرد فعل على اجراءات التجنيد الاجباري ، وعندما شرعت السلطات الاستعمارية في عمليات احصاء الشباب منذ سنة ١٩٠٩ ، فقد انتقل الى دمشق وبدون جواز سفر « قائد وادي شولي » في ضواحي تلمسان المدعو « سي الاخضر » ورافقه ٢٧ فردا من عائلته ، ولحق به المدعو « مومزيان بن المنور » وقد ركب هؤلاء قطار الحدود الى المغرب الاقصى ، وهناك اقاموا اياما في زاوية الشيخ الهبري ، ثم انتقلوا منها الى مليلة ومنها الى تطوان ثم الى طنجة التي ابحروا منها الى بلاد الشام (٤٧) . وشرع هذا القائد فور وصوله في مراسلة اقاربه ومعارفه يحثهم على الهجرة الى بلاد الشام للتخلص من تسلط الفرنسيين عليهم ، وكان يعدد لهم محاسن بلاد الشام وكرم اهلها ، ويذكر لهم اهتمام الحكومة بالمهاجرين ومن جملة ما ذكره « .. ان دمشق مدينة تجارية تستطيع ان تبدا فيها بفرنك مثل ٥٠ الف فرنك ويمكن فتح مقاه بدون رخص من الحكومة .. » (٤٨) .

وقد اثار رحيل هذا القائد تساؤل الفرنسيين واستغرابهم خاصة وانه كان يتمتع بوظيفة حكومية (قائد) ولم يتعرض لاي مساس في شخصه او امواله . ومع اعلان ٨ فبراير (شباط) ١٩١١ ، والخاص بالشروع في احصاء الشباب المؤهلين للخدمة العسكرية في تلمسان ، اشتدت الرغبة في الهجرة وعمت كل سكان المنطقة ، وقام المفتي « شلبي جلول » في خطب الجمعة يحذر الناس « .. من الخطر الذي يهدد المسلمين » ودعا الى الهجرة موضحا « الخطورة التي تنجم عن اقامة المسلمين بين المشركين (٤٩) » .

وعرفت القرى والمدن القريبة من تلمسان (الرمشي ، وسبدو - ندرومة - تورين) استعدادات كثيفة للهجرة حيث قام الاهالي ببيع ممتلكاتهم للاوربيين من اراض وعقارات واموال والفرار خفية عبر الحدود المغربية . وامام هذه الحالة من الاضطراب قررت صحيفة L'echo d'Oran ارسال احد محرريها وهو Euq Gross الى تلمسان للتحقيق في امر الهجرة واثار التقرير الذي نشرته في ست حلقات ضجة كبيرة واعتمدته اكثر الصحف التي كتبت عن هذه الظاهرة ومن بينها صحيفة الطان

الباريسية . ومما جاء في احد هذه التقارير « . . ان الهجرة اشتدت خلال النصف الثاني من شهر سبتمبر والايام الاولى من شهر اكتوبر ثم خفت ربما لفاعلية الحراسة التي وضعتها السلطات على الحدود مع المغرب . والملاحظ ان عائلات من اعيان المدينة هاجرت من تلمسان ، الامر الذي دفع ببقية الناس الى اتخاذ قرار الهجرة كذلك . » فالكل يريد الهجرة لان الجار هاجر » والوسيلة الوحيدة ذات الفاعلية التي اتخذتها السلطات المحلية كان قرارها بحبس كل من يكشف وهو يستعد للهجرة أو اتخذ قرار الهجرة (٥٠) .

واعلنت الجريدة ان لجانا خاصة بالهجرة شكلت في بلاد الشام لاستقبال المهاجرين (٥١) واكدت في مقال اخر ان التجنيد ليس السبب الوحيد للهجرة كما ادعى بعض الاوربيين بل الاسباب عديدة ومختلفة وهي كلها ناتجة عن الوضعية المزرية التي التي يعيش فيها المسلم الجزائري . وما قضية التجنيد الا القطرة التي طفع بها الكيل وراحت الصحف المحلية الاخرى كل من جهتها تكتب عن معاناة الاهالي . فصحيفة الحق الصادرة في وهران ذكرت في مقال لها عن الهجرة التلمسانية ان نائب المحافظ كان يشجع الناس على الهجرة ، كما اعلن (النادي العمومي) في احد الايام « ان الكل يستطيع السفر بشرط ان يكون قد ادى ما عليه من ضرائب » (٥٢) واوردت صحيفة الرشيد El Rachidi قولاً لشخصيات من الاهالي جاء فيه « . . . عندما نتكلم عن مطالب الاهالي يقولون ان ممثلي الاهالي في مختلف الجمعيات لا يذكرون ذلك ، ولكن هل للاهالي حقاً ممثلون ؟ . وهل ننسى الضغط الاداري مع كل حملة انتخابات ، وهل هناك من مثقفين يرشحون انفسهم ؟ ، طبعا لا ، لانهم متأكدون مسبقاً من فشلهم ، فهم غير مرغوب فيهم في المجالس ، اما في الجمعيات العمومية فالمرشحون هم عموماً من القادة (٥٣) » .

وفي احصاء للادارة المحلية بتلمسان عن عدد المهاجرين ورد في القائمة (٥٠٨) اسماء ، ولوحظ ان العدد لا يتجاوز رقم (٦٥٠) شخصا في منطقة تلمسان كلها . ولكن جريدة L'écho d'Oran قدرت العدد (١٢٠٠) شخص ، واعتمد هذا الرقم من طرف غالبية الصحف والمجلات التي كتبت عن هجرة تلمسان . ومما ذكرته صحيفة « الاسلام » انه « لوضع حد لهذا الهروب الجماعي قامت السلطات الفرنسية بخلق الحدود التونسية ، والليبية ، وسجلت مشادات يومية في قرية (بن فرداري) بين حراس الحدود وبعض المهاجرين عند اجتيازهم للحدود المغربية (٥٤) » .

والجدير بالذكر ان تونس لم تعد مركز استقطاب للمهاجرين منذ ان احتلها الفرنسيون ، بل خرج منها كل المهاجرين الجزائريين الذين قصدوا الإقامة فيها في فترات سابقة . وتوزع هؤلاء المهاجرون بين طرابلس والقاهرة والاسكندرية ودمشق

وحلب وبيروت ، وحتى بغداد واستانبول وسالونيك وأضنة ، دون ان ننسى المهاجرين الذين اقاموا في الحجاز في مكة والمدينة ، ولولا الحرب التركية - الإيطالية لاتخذت الهجرة في هذه الفترة شكلا خطيرا وواسعا . ومما اخبرت عنه صحيفة « الاخبار » El Akhbar ... ان ٣٠٠ مهاجر عطلوا في ميناء مليلة ولم يتمكنوا من الابحار لما نتج عن هذه الحرب من مخاطر على حرية الملاحة في اتجاه بلاد الشام (٥٥) .

تقرير باربودات

على اثر الازمة والضجة التي اثارتها الصحافة حول هذه الهجرة ، تقدم المجلس البلدي لتلمسان بطلب للحكومة العامة بالجزائر للمبادرة الى تعيين لجنة للتحقيق في امر هذه الهجرة على ان تكون شخصيات هذه اللجنة ممن تتوفر فيهم ثقة الاهالي . فبادر الحاكم العام « ليتو LuTaud » الى تعيين لجنة وضع على راسها السيد « باربودات » وهو مندوب مالي (٥٦) .

والجديد في اعمال هذه اللجنة انها اتجهت الى استطلاع كل الاراء بما فيها اراء السلطات المحلية والمستوطنين والاهالي ، وذلك تحت ضغط بعض الفرنسيين الذين طالبوا ان تكون اللجنة موضوعية في اعمالها حتى تتمكن من التوصل الى الحقيقة بأكملها .

والجدير بالذكر هنا ان الفرنسيين اعتبروا تلمسان مدينة مختلفة ومتميزة عن باقي المدن الجزائرية ، وجعلوا منها المدينة الوحيدة التي تحمل صفة الاصاله والقدم ، خاصة من حيث عادات الناس وتقاليدهم (٥٧) . فويليام مارسيه W.Marçais وهو مدير مدرسة في تلمسان انذاك يقول « .. عرفت في تلمسان مجتمعا يعمل ليعيش ، وهو المجتمع الاكثر اصالة في الجزائر كلها ، وهو شديد التدين والمحافظة » .

اما باربودات Barbedette فانه يصف اهالي المدينة بالمسالمة والوداعة والهدوء « مع احترامهم الدائم للسلطات المحلية اذ لم يعلنوا ابدا تضايقهم من المستوطنين الفرنسيين ، كما لم يشتركوا في اية ثورة ضد الفرنسيين .. ولكن بالمقابل نجد ان ارتباطهم بمعتقداتهم الدينية عميق جدا » .

وأول سبب تعرضت له اللجنة كان مسألة التجنيد الاجباري ، فقد اوضح الاهالي ان ابناءهم سيجبرون على مقاتلة مسلمين مثلهم في المغرب الأقصى ، وهذا ما يرفضه الدين ، بالإضافة الى انهم سيجدون انفسهم مبعدين عن ممارسة شعائرهم الدينية (٥٨) .

ولوحظ في مسألة فصل الدين عن الدولة ان الاهالي يرون ان نتائج قانون الفصل

ستكون وخيمة على المؤسسات الدينية ، فالتعويضات التي قررتها الحكومة ستنتهي بعد مدة وليس بيد الاهالي اوقاف ينفقون منها على مؤسساتهم ، باعتبار ان تلك الاوقاف أصبحت ضمن املاك الدولة اضافة الى العراقيل والصعوبات التي خلقتها الادارة امام تشكيل الجمعيات الدينية

وعبر الاهالي من جهة اخرى عن معارضتهم الشديدة للقانون الذي اتخذها الحاكم انعام السابق السيد « جونار » والقاضي بتقييد الملكيات الخاصة وفق القانون الفرنسي وبعبدا عن قانون الارث في الشريعة الاسلامية . وكان سخط الاهالي شديدا تجاه قانون الاهالي (الانديجينا) الذي تطبق مواده على أي كان ولائفه الاسباب وقد تصل العقوبات الى غرامات مالية قدرها ١٥ فرنكا او حبس لمدة ٦ ايام .

وكثرت الشكاوى من الضرائب الثقيلة والتي ترتفع يوما بعد يوم ، فضريبة العشر أصبحت تطبق في المدن حتى على الحدائق الخاصة اضافة الى ضرائب البلدية المتعددة . ويطالب الاهالي باعادة القضاة المسلمين للفصل بين المسلمين بدل قضاة الصلح المعينين من طرف السلطة فالقاضي يحكم بمقتضى نصوص الشريعة والاستماع الى الشهود في حين ان قاضي الصلح الفرنسي ينزعج لاتفه الامور ، وقد يتحول الى تطبيق قانون الانديجينا على اية مخالفة قد ترتكب في المحكمة .

وتمثيل الاهالي في المجالس والجمعيات هو بدون شك ضعيف في حين حصل اليهود وابناء الاجانب على حقوقهم في الاقتراع باكتسابهم الجنسية الفرنسية . وفي المجالس البلدية لا يمكن ان يمثل الاهالي اكثر من ٦ أشخاص مهما كان عدد سكان المدينة (٥٩) .

ثم انتقل التقرير الى الحديث عن الازمة الاقتصادية التي يتخبط فيها المسلمون في تلمسان ، ويذهب في تحيله الى القول ان الكثير من المدن فقدت حيويتها الاقتصادية والتجارية نتيجة تحول الاسواق عنها ، ومنافسة البضاعة الفرنسية لها مما عرض البضاعة المحلية الى الكساد والصناعة الحرفية الى التقهقر ، كما اثرت خطوط السكك الحديدية التي انشئت حديثا على اهمية بعض المدن ومنها تلمسان ، اذ أصبحت البضائع تنقل عبر السكك الحديدية مباشرة الى وهران والمدن الساحلية للتصدير او للاستهلاك في تلك المناطق . ويقول اهالي تلمسان عن هذه السكك (انها حملت عنهم البركة) ، اما معاناة تلك الارياف والمناطق الجبلية فقد لخصها التقرير فيما يلي « .. اولا اجراءات قانون الغابات والتي اوصلت الاهالي الى حالة من الفقر والبؤس ، فهؤلاء الناس طردوا في السابق من اراضيهم الخصبة ، التي صادرتها السلطات الفرنسية ومنحتها للمستعمرين بحجة احيائها واستغلالها الاستغلال الحسن ، وحوصروا في مناطق جبلية وغاية ، واصبحوا يعيشون من بيع منتج حيواناتهم او من

بيع اكوام الحطب في المدن ، وينجم عن الاحتطاب او رعي الماشية بدون رخصة عقوبات صارمة تصل الى الحبس عدة ايام حسب قانون الغابات (١٠) .

ويشارك اهالي الارياف مع اهالي المدن في معاناتهم من ثقل الضرائب ، فضريبة العشر في المناطق الريفية غالبا ما تتعدى العشر ، اما الزكاة فتفرض بحسب احتياجات الجابي لان مرتبه يجب ان يكون العشر من الضرائب التي يجبيها في منطقتيه ، وتستمر الاحوال على هذا الشكل ، واذا تقدم احد بشكوى فان شكواه تجر عليه عقوبات اخرى بتطبيق قانون الاهالي عليه . وخلصت اللجنة الى القول ان الهجرة انطلقت من مدينة تلمسان . ولاحظت اللجنة ان هذه الموجة قد شجع عليها قدوم بعض الشخصيات الشرقية الى تلمسان ، ومن هؤلاء الزعيم المصري المعروف « محمد فريد بك » الذي نزل ضيفا على القاضي « سي شعيب » ، وقد كتب فريد بك عن رحلته هذه السنة ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ، في مقالات في جريدة اللواء المصرية ، وانتقد بشدة السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر . ومن اسباب هذه الهجرة كذلك الرسائل التي كانت تصل الاهالي من المهاجرين الى بلاد الشام ومن خلال اطلاعهم على الصحف العثمانية والمصرية التي تدخل للجزائر خفية ونتيجة لمواقف مفتي تلمسان التي اثارت موجة من التعصب بين السكان ، ومما زاد في اضطراب الاهالي وهيجانهم قانون الفصل الذي راوا فيه تهديدا صريحا لحريتهم الدينية اضافة الى الاشاعات والايخبار التي نشط في نشرها بعض الاوربيين ممن لهم مصلحة في ذلك (١١) .

واوضحت اللجنة ان الاهالي يرفضون الجنسية الفرنسية لان الحياة الدينية للمسلم تمتزج امتزاجا كاملا بالحياة المدنية ، ولا يمكنهم بأي حال التخلي عن قانونهم الشخصي .

وعند مناقشة اللجنة للشكاوى التي طرحها الاهالي بين يديها على امل ان تأخذها بعين الاعتبار ، ابدت اللجنة تأييدها لكثير من المطالب وتكلمت عن حق الاهالي في التمتع بحياة كريمة ، وطالبت الادارة العامة بضرورة الاستعجال لادخال اصلاحات وتغييرات على بعض القوانين التي تنظم حياة الاهالي المسلمين . وطالبت باحداث تغيير لمضمون قانون الغابات (١٢) ليكون اكثر ملائمة لظروف الحياة الريفية ، اذ تبين استحالة تطبيق قانون الغابات الفرنسي على بيئة غير البيئة الفرنسية ، وطالبت من جهة اخرى بالتوقف الفعلي عن حجز الاراضي لاقامة المستوطنات ، وضرورة مراجعة قانون الضرائب ووضعه في اطار من المساواة والعدالة ، وضمان تمثيل احسن للاهالي في المجالس البلدية وفي اللجان المالية ، والزيادة في اطار محدود من عدد المستشارين المسلمين . كما ألححت على ضرورة ممارسة الشدة والحرامة في اختيار الموظفين ونوابهم او ممثليهم من الاهالي ومراقبتهم باستمرار ، وايدت من جهة اخرى مطالب الاهالي الخاصة « بقانون الاهالي » (الانديجينا) (١٣) ، ووضحت ان هذه الشكاوى لا تقتصر

على اهالي تلمسان بل تشمل الجزائر من الحدود المغربية الى الحدود التونسية ، ومن الشمال الى حدود الصحراء ، وقالت ان مطالب الاهالي في هذا الخصوص جديرة بالنظر والملاحظة .

وبالمقابل ابدت اللجنة معارضتها لرفض الاهالي لقانون التجنيد الاجباري ولكنها اوصت بعدم اللجوء اليه الا في الحالات التي تستدعي ذلك ، بسبب الصعوبة في تطبيقه نتيجة رفض الاهالي له .

وبعد ان قدمت اللجنة تقريرها الى الحاكم العام LuTaud ، تقدم هذا بتقرير عن الهجرة الى وزير الداخلية الفرنسية (٦٤) . وظهر من خلال تقريره دفاعا عن القوانين الفرنسية المطبقة على الاهالي في الجزائر ، مؤكدا ان غالبية المهاجرين هم من اتباع الطريقة الدرقاوية او من الشباب الذين وصلوا الى سن الخدمة العسكرية .

واوضح من جهة اخرى ان قانون فصل الدين عن الدولة ، هو من الاسباب المباشرة للهجرة » . لا يمكنني مناقشته باعتباره اصبح امرا واقعا ، ورجال الدين الاسلامي مازالوا يتقاضون من الحكومة تعويضات ، لم يحرم منها الا مفتي تلمسان لما اظهره من عدااء للحكومة الفرنسية عند شروعها في عمليات الاحصاء تمهيدا لتطبيق التجنيد الاجباري » .

.. اما الوضعية الاقتصادية للاهالي فلا يمكننا ايجاد حل لها - باعتبار انها تخضع لتطورات العصر - الا بدفع الاهالي للاستفادة من هذا التطور .. اما موقفه من الهجرة فقد عبر عنه بقوله « .. اريد ان اوضح ان هذه الهجرة حدث عادي وكثيرا ما يحدث في البلاد الاسلامية .. » .

وتبين لنا ارشيفات الحكومة وتقارير القناصل من مصر وسورية انه طيلة مدة سيطرتنا على هذه البلاد حدثت فيها حركات هجرة فاقت هجرة تلمسان بكثير مثلما حدث سنة ١٨٥٤ ، ١٨٦٠ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧٥ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٨ ، لهذه الهجرات اسباب ثقافية او عرضية ، واسباب عميقة ، فالاولى غالبا ما تكون نتيجة استياء عابر قد يكون خطرا احيانا وشكليا احيانا اخرى . فاذا ما اصاب الاهالي قحط ومجاعة انخدوا بسرعة قرار الهجرة بحثا عن لقمة العيش ، وحيانا تكون بوقوع المالكين غير المتبصرين تحت اغراءات بعض الاوربيين اما الاسباب العميقة والدائمة فتكمن في الروابط الدينية التي ما لبثت تجذب دوما المسلمين الى الاراضي المقدسة .

واضاف الحاكم العام ان الادارة الفرنسية اجتهدت لايجاد علاج لهذه الوضعية فليحات الى الفتوى ومما قاله « .. ان (بوجو) هو اول من لجأ الى الفتوى عندما

ارسل (ليون روش L.Roche) ليأتيه بفتوى من مكة ، تجيز للاهالي المسلمين البقاء في (الارض غير الاسلامية) Terre infidèle (١٥) كما حصل جول كامبون J. Cambon على فتوى من علماء مكة سنة ١٨٩٣ اجازوا فيها بقاء الاهالي في الجزائر ، وحديثا حصلنا من مفتي القاهرة الشيخ محمد عبده عند زيارته الجزائر سنة ١٩٠٣ على فتوى اوضح من خلالها للمسلمين الجزائريين ان ارض الجزائر ليست مستعمرة من طرف ملحدين لان المسيحيين هم اهل كتاب ، كما اعطى موافقته على وضع القبعة محل « الشاشية » .

ووصلت قضية الهجرة الى مجلس النواب حيث فسح المجال امام النواب لمناقشة ظاهرة الهجرة ، وكان ذلك فرصة لمناقشة السياسة الفرنسية بأكملها في الجزائر . واختلفت الآراء وتباينت بين معارضين لاي تغيير للسياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر وبين مؤيدين لسياسة اكثر مرونة وعدالة تجاه المسلمين ، ومن بين هؤلاء نجد النائب « البير فيري » الذي طالب بضرورة تطبيق سياسة اسلامية في الجزائر ترضي المسلمين الجزائريين وتبعدهم عن التأثيرات الآتية من المشرق ، واورد في عرضه فولا للورد كرومر قال ان هذا الاخير كتبه عن الجزائر وضمنه جملة من النصائح للفرنسيين يتبعونها في سياستهم : يقول اللورد كرومر : « . . باهتمامنا بالجانب المادي للشعب يمكننا ان نخلق طبقة من ذوي الفكر المحافظ ، هذه الطبقة وان لم تتمتع بميل كبير لاسيادها الاجانب الا انها على الاقل تمنع الشعب من ان يكون سهل الانجذاب الى ناحية السياسيين الوطنيين . . » ، ويعلق البير فيري بقوله « . . ان الخطر يتمثل في ان بعض المتعصبين والسياسيين يجدون الاذن الصاغية لنداءاتهم ضمن قاعدة شعبية شديدة السخط والاستياء والخطر كذلك هو ان فرنسا لم تعمل على خلق هذه الطبقة المحافظة التي يمكنها ان تكون معادية لاي تغيير جذري . . ورغم ان الخطر يقتصر في الوقت الحالي على الجانب السياسي فانه ليس بعيدا ان يصبح بعد ذلك اجتماعيا حتى ان (باربودات) يتكلم في تقرير عن بروليتاريا من الاهالي المسلمين « (١٦) .

من خلال هذا العرض البسيط ، يتضح ان هجرة تلمسان قد نالت قسطا كبيرا من الاهتمام خلافا للهجرات السابقة ، التي لم تكن اقل خطورة وكثافة من هجرة تلمسان سنة ١٩١١ ، وكانت هذه الهجرة الكثيفة المنبه الذي ايقظ الفرنسيين ودفعهم الى النظر في سلبيات وايجابيات السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر ، الا ان هذا المنبه جاء في غير اوانه ، اذ ان هجرة تلمسان كانت اخر موجة للهجرات الجماعية التي شهدتها الجزائر المستعمرة .

وفيما يتعلق بالاماكن التي توجه اليها هؤلاء المهاجرون ، تبين ان نسبة كبيرة منهم اختاروا الإقامة في القاهرة والاسكندرية ، ومنهم من نزل في هاتين المدينتين ،

ثم اخذ طريقه الى دمشق ، او الى مكة والمدينة ، مع العلم ان غالبية مهاجري تلسمان كانوا من اليسوريين ، ولم يلاقوا صعوبات كبيرة في هجرتهم او استيطانهم .

وفي برقية من وزير الخارجية الى الحاكم العام في الجزائر ، اخبره ان القنصل العام في الاسكندرية يعلمه عن « وجود جماعة من حوالي ٢٠٠ جزائري من اهالي تلسمان متوزعين بين فنادق البلدة » (١٤) . وفي تقرير آخر لنيابة القنصلية الفرنسية في « مرسين واضنة » ان الشركة الخديوية *Companie Kheldive* حملت الى مرسين ٥٠٠ جزائري بين رجال ونساء واطفال ، غالبيتهم من سكان تلسمان وضواحيها وقد استقر بعضهم منذ اشهر في سورية ، ثم قررت الحكومة العثمانية توطينهم في منطقة *Anawarza* في نواحي اضنة (١٥) . وسبق ذلك تقرير بعث به من دمشق القنصل « *M.Piat* » الى وزارة الخارجية اخبر فيه ان عدد الجزائريين المهاجرين الى بلاد الشام وصل الى ٢٨٥٠٠ ، وفي كل يوم تصل دمشق اعداد جديدة في جماعات بين ١٥ و ٣٠ شخصا ، واورد هذا القنصل احصاء للمهاجرين الجزائريين وتوزعهم على مناطق مختلفة من بلاد الشام ، ودمشق وحدها كان يوجد بها ٤٠٠٠ جزائري (١٦) .

ومما اورده احدى الصحف الفرنسية عن الهجرة « ان الجريدة الرسمية العثمانية نشرت (مؤخرا) فرمانا يقضي بمنح المسلمين المهاجرين والجزائريين القادمين حديثا الى سورية في جماعات من عشرة اشخاص ، قطعا من الارض مع حيوانات ووسائل الفلاحة وقروضا لمساعدتهم لبدء حياة كريمة » (١٧) .

وقد اعترف الفرنسيون ان الاخبار والمعلومات التي تتضمنها رسائل المهاجرين ، عن وضعية المهاجرين الحسنة ، ليست خاطئة بل هي صحيحة في غالبيتها . واعترف احد القناصل انه « .. بحسب السياسة الدائمة التي يتبعها الوالي (العثماني) في دمشق ، فان المهاجرين يلقون الحفاوة والاستقبال ، وتسلم لهم الادارة قرشين ونصف يوميا لكل فرد ، الى حين تمنح لهم قطع من الارض .. اما بعض الشخصيات ، والتي يمكن ان تكون ذات فائدة دعائية ، فانه يمنح لهم مقدار ما يشترون به قطيعا واللات زراعية كما يمنح لهم السكن » (١٨) .

وبهجرة ١٩١١ ، توقفت موجات الهجرة الجماعية الجزائرية الى المشرق والتي دامت قرابة الثمانين سنة ، ولم يكن هذا التوقف محض صدفة او نتيجة حتمية للاجراءات التي اتخذتها السلطات الفرنسية ، بل نلاحظ ان هذا التوقف قد تحكمت فيه عدة ظروف خارجية لا علاقة لها بالجزائر .

فالحرب التركية الايطالية من جهة ولدت مخاوف كثيرة ، وتعطلت بسببها عدة سفن كانت تقل مهاجرين جزائريين باتجاه بلاد الشام ، في الوقت الذي كان فيه العالم

الأوربي وحتى العربي يسير بخطى بطيئة نحو تازم عالمي، كانت نتيجته أول حرب عالمية عرفت البشرية وشغلت الساسة والشعوب، بما فيها الشعب الجزائري، هذا إضافة إلى أن السلطات العثمانية، ولظروفها الداخلية والخارجية الصعبة، لم يعد يهمها ويشغلها كثيرا قدوم المهاجرين إلى البلاد العثمانية، فقل الاهتمام بالمهاجرين الجزائريين ونقصت الدعاية للهجرة.

وستشهد فترة الحرب وما بعدها هجرة جزائرية من نوع آخر، إذ يخرج مئات من الجزائريين مهاجرين إلى فرنسا طلبا للرزق، وقد تحكمت في هذه الظاهرة الجديدة ظروف الحرب العالمية الأولى في فرنسا، حيث كان الطلب يتزايد على الأيدي العاملة من شمال إفريقيا.

المصادر والمراجع

- (1) وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر من هذه الصحف: Le Tell-L'islam- L'Akhbar Rachidi - el Hack- ومن بين هذه الصحف ثلاث منها وهي الإخبار والحق والإسلام كانت تصدر صفحات باللغة العربية، مع الصفحات الأصلية المكتوبة باللغة الفرنسية. إضافة إلى الصحف العربية التي كانت تصدر في المشرق العربي، والتي دافعت بكل حماس عن معاناة الجزائريين مثل صحيفة « اللواء المؤيد » المصريت وصحيفة « الميسد » الصادرة في بيروت، واهتمت الصحف التونسية كذلك بفضح ممارسات السلطات الفرنسية في الجزائر، مثل صحيفة « الحاضرة » و « le Tunisien »
- (2) عارض الأهالي بشدة قانون استبدال القضاة المسلمين، بقضاة صلح فرنسين، والذي صدر في سنة 1886، والزم قضاة الصلح Juges de paix بتطبيق الشريعة والقانون الفرنسي جنباً إلى جنب واعترض الأهالي كذلك على القانون الذي صدر سنة 1886 بدعوى تنظيم الأحوال المدنية للأهالي بإيجاد أسماء جديدة لهم.
- (3) حسبما أورده « إسماعيل أربان » Ismail Urbain فإن مدينة الجزائر كانت تضم سنة 1820 (12) جامعاً كبيراً، و (109) جامعاً صغيراً و (22) مصلًى و (12) صغيرة زاوية، وتناقصت هذه الأعداد سنة 1862 إلى (2) جوامع كبيرة و (8) صغيرة و (9) مصليات. وقسم موظفو الجوامع إلى فئتين: فئة عليا وتضم، المفتي ووجد تحت رئاسته الأئمة، والفئة الثانية تضم: المدرس - باش حزاب الحزاب، والمؤذن
- (4) Bomtems, C., Manuel des institutions Algériens de la domination turque à l'indépendance, t.I.G.U.J.A.S. Paris 1975, pp. 501.
Bomtems, op. cit. pp 502-503..
- (5) Ageron, ch. R., Les Algériens musulmans et la France (1871 - 1918), P.U.F. Paris 1968, t.II, p. 895.

وجاء على لسان احد الجزائريين المسلمين (نائب) في المجالس المالية ، قوله : . . . ان رغبة غالبية المسلمين ، انه ما دام القانون يحرم المسلمين من المساعدة المالية للحكومة ، فعلى هذه ان تعيد للجوامع والمؤسسات الدينية ، الاوقاف لتكون تحت خدمتها .

Ageron, op. cit. p. 896 (6)

وتمكنت الادارة الفرنسية من استعادة سلطتها سنة ١٩٠٩ على بعض الجوامع التي لم تكن مرتبطة بالجماعات الدينية

Bourdarie, P., « L'Ottomanisme et l'exode Algérien, » in R.Indigène, 1910, p. 563. (7)

Ageron, op. cit. p. 898. (8)

ولقيت سياسة الفرنسيين هذه تجاه المسلمين في الجزائر انتقادات شديدة من طرف الصحافة العربية في مصر وبيروت ، واعترض عليها القناصل الفرنسيون في المشرق ، وراحوا يتأسفون على ما تجره هذه الاجراءات من سمة سيئة لكافة فرنسا في المشرق .

Ageron Ch. R, op. cit p. 899.

Bevia, S., « Le Service Militaire obligatoire pour les indigènes en Algérie in R.Africaine , n.52, 1908,p. 116 . (10)

ومن بين الخطط خطة الجنرال martimprey التي وضعها سنة ١٨٦٤ والتي اقترح من خلالها ان يتم ارسال المجندين الى فرنسا ومزجهم مع الفرق الفرنسية فيكتسبون بذلك اللغة والعادات ، وفي ذلك فوائد كبيرة لفرنسا . وبرزت الفكرة كذلك لدى نابليون الثالث في اطار مشروعه الهادف الى جعل الجزائر مملكة عربية تابعة لفرنسا ، ويكون بإمكانها تزويد فرنسا بقوة عسكرية تستعين بها في اوربا .

Prunel, A., Le Recrutement indigèneAlgérien par voie de l'appel, (11)
Alger 1913, p. 22.

Ibid, p. 26. (12)

وكانت النتائج التي توصلت اليها اللجنة : يمكن تطبيق القانون الاجباري على الاهالي من الان دون خشية اي اضطرابات او ثورة من جانب الاهالي على ان :

أ - لا يؤخذ في الاول الا نسبة ضئيلة بين ٥٪ و ١٠٪ وبالقرعة ، ثم يزداد في العدد عاما بعد عام .

ب - ان يسمح بحق البديل

Bobiny, G., Le Service Militaire des indigènes, in R.Française de l'etranger et des Colonies 1908.

Messimy , A ., Ressource Militaire de L'Afrique du Nord , » R. de (13)
Paris, n.II, nov, - dec. 1910, p. 341.

(١٤) ان المجند الواحد يكلف الحكومة ٤٨ فرنكا سنويا في حين يكلفها المرتق او القناص ١٥٠٠ ألف اي ان تكلفة ١٠٠٠٠ قناص هي اكبر من تكلفة ٢٥٠٠٠ مجند
Ageron, op. cit., 1061

- (15) Prunel , op. cit. p. 27.
- (16) Ageron, op. cit. p. 1067 .
- (17) من ذلك ما جاء على لسان الكاتب Treille : اذا لم يشر الاهالي ضد قانون التجنيد ، فينبغي دفعهم لذلك اوردت ذلك صحيفة « الاخبار » الصادرة في الجزائر في عدد من اكتوبر ١٩١١ .
- (18) Depince, Ch., « Le Régime de l'indigénat Algerien, » in R.Politique et Parlementaire, n. 72,1912, p. 298.
- (19) وكانت مطالب المعارضين تنحصر في الإبقاء على نظام التجنيد التطوعي مع منح هؤلاء المتطوعين عندما تنتهي خدمتهم ، وظائف مدنية تساعدهم في ضمان بقية ايامهم ، اغراء للجزائريين للالتحاق بفرق السباهية وغيرها .
- (20) Prunel, op. cit. p. 31 et suiv.
- (21) Conseil général d'Oran, « rapport exode de Tlemcen 1911 » rapport de la commission barbebtte ..
- (22) Consellil général d'Oran, Ibid.
- (23) دائرة المعارف الاسلامية - المجلد السابع - كلمة درقاوي ، ص ٢٠٤ ، ومما جاء في هذا التعريف ايضا ان الحاج محمد بن يلى مقدم الهبرية (الدراوية) عندما عجز عن تحريض ابناء قبيلته على الجهر بالثورة ، اخذ يدعو اخواته الى الخروج الى ارض المسلمين - كما هاجرت مئات من اسر تلمسان وما جاورها الى طرابلس الغرب وبلاد الشام بين عام ١٩٠٩ وعام ١٩١١ .
- (24) Marchand, H., « L'Exode des Musulmans Algériens, » in Questions diplomatiques et coloniales ; n° 33, 1912, p. 96.
- (25) Bourdarie , P., « L'Ottomanisme et L'exode Algérien, in » R.I. 1910 P-556.
- (26) A.O.M. 9h. (104), Rapport Varnier, Alger 18 juin 1910 .
- (27) Bourdarie, op. cit. pp. 559 - 560 .
- (28) كانت صحيفة الاخبار قد اصدرتها الولاية الفرنسية العامة سنة ١٨٢٩ محررة باللغة الفرنسية وبداية سنة ١٩٠٢ وتحت اشراف فيكتور باروكان وتطبيقا لسنة التقرب العام الاسلامي في الجزائر راي « باروكان » ان يصيف لها صفحات باللغة العربية .
- وكن Barrucand يدعو الى منح الجزائريين حقوقهم مع المحافظة على الامتياز الفرنسي ، ومن هنا نجد في بعض الصفحات انتقادا مريرا وصريحا لسياسة المعمرين الحاقصة (باللغة الفرنسية) وتخلو الصفحات العربية من المقالات السياسية ، محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ - ١٩٢٩ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٠ .
- (29) Bibliothèque Nationale de Paris, Annexe de Varsaille, presse d'outre mer. El - Akhbar, 3 juil. 1910.
- ونلت هذه الصحيفة ان تكون لتركيبا يد في هذه الهجرة او ارسال الدعاة للتحريض عليها .
- (٣٠) Bibliothèque Nationale de Paris, OP. Cit., Le Tell (Juin 1910).
- (٣١) Le Temps, (27 Juil. 1910).

(٢٢) اثرت سنوات الجفاف كثيرا على نفسية الفلاحين الجزائريين وامكانياتهم المادية ولا استمر الجفاف الى سنة ١٩٠٧ اضطر الكثير من الفلاحين الى بيع اراضيهم لتسديد ما عليهم من ديون.
(33) Bourdarie, op. cit, p. 561-562.

(34) perriquet, G., Le Rechat des terres de colonisation par les Indigènes
Bull. de la réunion d'études algériennes, Paris 1910 p. 124

(35) Bourdarie, op. cit. p. 552

(٢٦) يقول علي مراد في مقال له : « ان زعيم الشباب التركي انور باشا والذي اصبح وزيرا للخيرية سنة ١٩١٤ حمل اعتمادا خاصا بالولايات العثمانية السابقة في افريقيا الشمالية ، وكان احد مستشاريه لشؤون افريقيا الشمالية ، وطني تونسي (اصله جزائري) هاجر الى الشرق العربي وهو « صالح الشريف »

Ali Merad, La Turcophilie dans le débat national en Algérie au début du siècle 1911-1918, in R. d'Histoire Maghrébine, 1983.

(٢٧) كان من اسباب رفض الجزائريين التجنيد الاجباري معرفتهم انهم سينقلون الى الغرب الاقصى لقتال اخوانهم المسلمين هناك لذلك كانت هجرة المئات من العائلات هي الرد الوحيد الذي يمكن ان يتقبلوه من ذلك وابدى المسلمون الجزائريون تعاطفا كبيرا مع المسلمين في طرابلس الغرب اثناء الحرب التركية - الإيطالية سنة ١٩١١ وتجلّى هذا التعاطف في حملة التبرعات لتقديم المساعدة للمجاهدين ، في حين وقف الاوربيون في الجزائر الى جانب ايطاليا فظهروا بذلك عداوتهم ليس لتركيا فقط وانما لمسلمي الجزائر كذلك .

(38) Bourdarie, op. cit. p. 555.

(39) Ibid , P. 557.

(40) A.A.E., Algériens en Turquie - Lettre du conseil général à M.Boppe le chargé d'affaires à Constantinople, Damas, 15 (des. 1910).

— وما جاء في الرسالة ايضا : « .. امامن جهة الرخاء الذي في الشام فلا تسال عليه مثل الفواكه لا لها ثمن ، ايضا اننا سومنا (قدرنا السعر) النعجة فوجدناها بثلاثة فرنك والمعزة بفرنك ونصف وكذلك اهل الشام يضيف (كذا) المهاجرين القادمين ثلاثة ايام حسب العادة الشريعة (كذا) . اننا قد وزنا « راس اللفت » وجدنا فيه ثلاثة كيلو والبطيخة ياكل فيها اربع بيوت .. واسرعوا بالقدوم وبيعوا العالي بالرخيس لان كل شيء تخلصه ، والهجرة قد حلت الى الشام الى بلاد الاسلام احسن لكم من بلاد الكفر الذي يرفع اليهود على الاسلام وينصر حق اليهود على الاسلام ولو كان باطلا الذي لكم الشيخ الحسين والعبد بن الزيتوني المقيم في الشام ذو القعدة ١٢٢٨ .

(41) Boudarie, op. cit. p. 556.

(42) Le Temps, 27 juil. 1910.

(43) Bardin, P., Les Algériens et les Tunisiens dans l'Empire Ottoman 1848 - 1914, C.N.R.S. Paris 1979 p; 166.

ومما قالته الجريدة انه « انه وردتنا رسائل عديدة من اوروبيين من منطقة قسنطينة وهران تقول انه لايجب منع الهجرة الى بلاد الشام لان ذلك يوفر المكان للمستوطنين وعلى الحكومة العامة - بالعكس - تشجيع هذه الهجرة بكل ماديها من قوة وامكانيات .

(45) « L'Exode des Indigènes de Tlemcen, » in Afrique Fr., jan. 1912 p.38

(46) Bourdarie, « nouvel exode Algérien, » in La Revue Indigène N° 6, 1911 .

(٤٧) وجاء ذلك في رسالة وجهها احد الجزائريين الى « بور داري » واستهلها بقوله : « لن نتوجه ان لم يكن اليكم انتم الذين اضطلتم بمهمة الدفاع عن الاهالي .

(48) Conseil général d'Oran, Exode de Tlemcen; Rapport Barbedette .

(49) Ibid

(50) Ibid

(51) Marchand , op. cit. p. 90.

فقد اعلنت ذلك Journal Jeune Turquie في عدد ١٩١١/١١/١٠ عندما نشرت برقية من استانبول «اللجنة المركزية للتجمع المهاجرين الجزائريين» جاء فيها «لقد اتينا جمعية خيرية للمهاجرين الجزائريين والتونسيين ، وهذه الجمعية لها هدف المساعدة المادية والمعنوية والتعليم وقد حصلنا على الموافقة من الحكومة العثمانية .

A.A.E., Algérien En Turquie, carton N° 281 (1907-1910)

(52) El hack , 14 aout 1911 (Le petit egyptien)

(٥٢) وما ذكرته هذه الصحيفة التي كانت قد نشرت تحقيقا عن الهجرة قبل جريدة L'Echo d'Oran انه يمكننا ان نعد في فاس وحدها (٨٠٠) بيت تلمساني وفي « تطوان » ٤٠ بيت جزائري . وجريدة الحق هذه كانت تصدر في وهران ١٩١٠/١٩١١ ، وكانت في بداية الامر باللغة الفرنسية وفي افريل ١٩١٢ اضافت الى صفحاتها الفرنسية صفحتين باللغة العربية وكان مكتوبا تحت عنوانها هذه الكلمات لنابليون الثالث « اني اريد ان اجعلكم تشاركون شيئا فشيئا في ادارة وطنكم »

(53) El rachidi, D., Organe endependant d'union Franco-Arabe, N° 26, oct. 1911.

(54) L'Islam (Article de Tlemcen) oct. 1911.

(٥٥) اوضح الحاكم العام « ليتو » في تقريره الذي رفعه الى وزير الداخلية الفرنسية انه لم يرغب في تكليف شخص واحد باجراء التحقيق مما سيعطيه صفة ادارية ، بل قرر تكليف لجنة مؤلفة من اداريين ورجل وبرتاسة رجل اجنبي عن الادارة وعن منطقة وهران . وهو السيد Barbedette وبقية اعضاء اللجنة هم على التوالي M.Mirant, M.Dupief

(٥٦) ذهبت الى ذلك اغلبيه الصحف التي تطرقت الى الهجرة الجماعية لاهالي تلمسان ، وكذلك التقارير الرسمية .

(٥٧) اوضحت بعض الصحف في مقالاتها عن اسباب الهجرة ان التجنيد الاجباري لم يكن هو الدافع وراء هجرة الاهالي ، بل ان هؤلاء قد يرغبون في التجنيد مقابل الحصول على حقوقهم السياسية

والمدنية ، ووضحوا من جهة أخرى ان اول معارض للتجنيد انما هم المستوطنون الذين يخشون كثيرا دخول الشباب المسلمين في صفوف الجيش وبالتالي قد يحصلون على حقوق تجعلهم في المرتبة نفسها ، او في مرتبة قريبة للمستوطنين .

(58) ويضيف التقرير ان وضعية المستشارين المسلمين في المجالس البلدية هي ادنى مما كانت عليه منذ ٣٠ سنة مضت اي قبل اصدار قانون عام ١٨٨٤ حول نظام البلديات . ففي هذه الفترة كان كل المستشارين من الفرنسيين والاجانب والمسلمين يشتركون في انتخاب رئيس البلدية ، اما اليوم فلم يعد مسموحا لاي مستشار مسلم (بحكم القانون) بالاشتراك في انتخاب رئيس البلدية ونوابه وبالتالي لا تؤخذ بعين الاعتبار مطالبهم واقتراحهم من طرف الغالبية الاوربية التي تعتبرهم اقلية لا اهمية لها .

(59) كان يلزم على الاهالي دفع ضريبة سنوية لترعى قطعانهم في الغابات وهذه الضريبة تتراوح بين ٢ف/راس الى ١٠ درؤوس ، وتصل الى ٢٠ف/١٠٠ راس و ٦٤ف/ ١٠٠٠ راس من الفهم .

(٦٠) من جملة الاشاعات ، القول ان حفلات الزواج ستكون مختلفة ، وسيلزم النساء بالخروج سافرات وبارتداء القبعات .

(٦١) ووضحت ان ادارة الغابات ورغبة منها في توسيع سلطتها تقوم بفرض القانون على اراض ليست من الغابات في شيء يستعملها الاهالي لرعي قطعانهم وهي بذلك تزيد من حالة البؤس والشقاء التي يعانيها هؤلاء السكان الفقراء وتدفع بهم الى ارتكاب الجريمة .

(٦٢) بعدما كان مقررا تطبيق هذه القوانين الاستثنائية الخاصة بالاهالي لمدة سبع سنوات فقط انطلاق من عام ١٨٨١ ، تم تمديد هذه المدة بعد تردد اعضاء مجلس النواب لمدة سبع سنوات أخرى اي الى سنة ١٨٨٩ - ثم مدد مرة ثالثة سنة ١٩٠٤ وعرض مرة أخرى على المجلس سنة ١٩١١ لتمديده مع ادخال تغييرات على مواده للتخفيف من وطائه على الاهالي .

(63) rapport du gouvernement général de L'Algérie, A.M. le ministre de L'Interieur (service de L'Algérie) Paris, émigration d' Indigènes de la région de Tlemcen en Syrie, Alger, le 28 fev. 1912.

(٦٤) كان ذلك ردا على الامر عبد القادر الذي كان يعد الاراضي التي تحت سلطته دار اسلام والاراضي التي تحت سلطة الفرنسيين دار حرب ، وكان يجد في دعوة المسلمين الذين يقيمون في دار الكفر الى الهجرة الى ارض الاسلام . ولا تدري ما مدى صحة الخطوة التي اقدم عليها المسيحي الذي اسلم « ليون روش » عندما جاء الى «بيجو» بفتوى تجيز بقاء الاهالي في الاراضي التي يحتلها الفرنسيون . ومن جهة أخرى فقد رفض مفتي العاصمة دعوة الامر عبد القادر ورد عليها في رسالة وجهها اليه (توفي هذا الشيخ سنة ١٨٢٧) ونشرت الرسالة كاملة في كتاب محمد بن عبد الكريم ، حكم الهجرة من خلال ثلاثة رسائل جزائرية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ ص ١٠٥ .

(65) Chambre des députés: 1^o Seance de 16 dec . 1913 . extrait du disconr de M.Abel Ferry .

(66) A.O.M., 9 h. (105), (naturalisation ottomane) Emigration, divers

(1910-1918) lettre de M. le ministre des A.F. A. M. le gouverneur général de L'Algérie, Paris, 5 des . 1911 .

(67) A.O.M. 9 h. (105) , Mercine (20 nov. 1911). M . Bone de lancy ,
conseil chargé de vice - consulat derance à Mercine et Adana .

(٦٨) وجاء الإحصاء على الشكل التالي :

٦٠٠	نولة
٢٠٠	خربة شباب
٥٠٠	اذدع (هوران)
٥٠٠	كفر ناسج
٥٠٠	جمل دون (حماة)
٢٠٠٠	كفر سبت (حيفا)
١٠٠٠	هوشة (حيفا)
٢٠٠	صفد وعموكة
٢٠٠٠	ديشوم (صفد)
٢٠٠	سمخ
١٠٠	طبرية
٥٠٠	حسينية (حيفا)
١٠٠٠	القدس وخصواحيها
١٠٠٠	المدينة
٢٠٠٠	المهاجرون الجدد

A.O.M. : rapport, Varnier, juin 1910.

(69)

حصلت الباحثة من كلية الاداب بجامعة دمشق على شهادة الماجستير في التاريخ برسالتهما
((الهجرة الجزائرية الى بلاد الشام بين ١٨٤٨ و ١٩١١)) المعدة باشراف الاستاذ الدكتور محمد خيرفارس.

رجال الإدارة والسياسة والجيش من الأندلسيين والمغاربية في مصر من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة

عائب أحمد
مرشح للدكتوراة

مقدمة :

لم تكن العلاقات بين مصر والمغرب والاندلس مستقرة على حال واحدة ، فقد كانت طبيعية خلال العصر الاموي ، لان المغرب والاندلس كانتا تتبعان في كثير من الاحيان لولاية مصر . تغيرت الاحوال مذ تسلم العباسيون شؤون حكم الدولة العربية الاسلامية ، فانفصلت الاندلس عن المشرق واصبحت مستقلة حتى عن المغرب العربي .

على الرغم من هذه الحال بقيت العلاقات قائمة بين البلدين في جميع الميادين ، انما ليس دوما على نطاق رسمي حكومي او معترف به من قبل رجال السلطة والحكم .

ففي الميدان السياسي ، يمكن القول ان القطيعة كانت شبه كاملة ، اذا ما استثنينا فترة قصيرة سيطر خلالها الفاطميون على المغرب العربي . وعلى الرغم من واقع القطيعة هذه والحالة العدائية التي كانت تخيم على الاجواء السياسية ، فان اتصالات سرية تمت بين بعض قوى البلدين كان وراءها طموح بعض حكام الاندلس للسيطرة على المشرق العربي ليصار الى ضمه الى المغرب والاندلس كما كان الامر قبل مجيء العباسيين الى السلطة . وكان يساعد على ذلك ان عددا كبيرا من المغاربة والاندلسيين كان من اصل مصري ، لان المصريين شاركوا في فتوح المغرب والاندلس كما هو معروف وهنا يجب ان يفرق بين المغرب والاندلس ، لان المغرب باقطاره الحالية كان مسرحا لتغيرات سياسية متتالية . وقامت على ارضه دول متعددة ، كانت تختلف

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧ .

بولائها للمركز في المشرق . ففيه قامت دولة الفاطميين وسيطرت عليه اكثر من نصف قرن من الزمن ، من اواخر القرن الثالث حتى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .. وكان الفاطميون يتطلعون باهتمام بالغ الى مصر ، حتى ترجعوا تطلعاتهم الى حقيقة واقعية سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م (١) ، فعدت العلاقة شبه طبيعية حتى كانت سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٦م عندما قام المعز بن باديس الصنهاجي بالغاء الولاء والطاعة للفاطميين ودعا لبني العباس . ومنذ ذلك الحين بدأت الهجرة العربية الجديدة من مصر الى المغرب لاعادة الامور الى حالتها السابقة (٢) . ولكن النتيجة لم تكن في صالح الفاطميين هذه المرة فعادت العلاقة الى التوتر بين البلدين وظلت هكذا حتى سقطت دولة الفاطميين سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧٢م (٣) .

حدث هذا على مستوى الحكام والسلطات السياسية في البلدين ، اما على مستوى الشعب فان حركة الاتصال لم تتوقف لحظة واحدة . وعلى الطرف الاخر من جناح العرب والاسلام (الاندلس) لم يخل الامر من بعض الاتصالات التي تمت بالسر مع بعض اقطار المشرق العربي ، مثل العراق وبلاد الشام وغيرها . ولعل خير مثال على ذلك ما قام به الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان يرسل الى مصر ، في كل سنة ، ما مقداره عشرة الاف دينار للمالكيين . وكان قصده من هذا تحقيق هدف سياسي يتجلى بالامل والتطلع للسيطرة على المشرق العربي . وحدث ان ظهر خلال هذه الفترة في بلاد الشام بعض الكتب التي تدعو للامويين ، والتي كان حكام الاندلس على صلة بها وربما كانوا المشجعين عليها ، ولا بد انها وصلت الى مصر بعد ان ظهرت وانتشرت في الشام (٤) .

اما على الصعيد الثقافي والفكري ، فان العلاقة بين القطرين العربيين ، مصر والاندلس ، كانت تمتاز بالحيوية والنشاط ، في الوقت الذي كانت فيه الاندلس والمغرب تعتمدان على المشرق مصدرا رئيسيا للثقافة وامور الفكر ، ومنه مصر ، الذي لم يكن التوجه اليها بالشكل الذي كان بالنسبة لبقية الاقطار العربية المشرقية الاخرى ، كالعراق وبلاد الشام على سبيل المثال ، وبخاصة خلال فترة حكم الفاطميين . فقد جاء اليها محمد بن عبدون العدوي سنة ٣٤٩/ ٩٦١ ، فدرس علوم الطب والصيدلة وعاد الى الاندلس سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١ (٥) ، والى الاسكندرية وصل في سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٢م عبد الرحمن بن عتيق الصقلي المعروف بابن الفحام ، وظل يدرس حتى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٥٨م (٦) . والامثلة في هذا المجال كثيرة جدا ، وهي كلها تبرهن على استمرار العلاقة على صعيد الفكر والثقافة بين البلدين العربيين .. وبالمقابل كان المصريون يقصدون المغرب والاندلس للمشاركة في التدريس ونشر ما يحملونه من علوم هناك ، مثال هؤلاء ، مثل احمد بن ابي عبد الرحمن الزهري ، الذي قدم على الناصر لدين الله بقرطبة سنة ٤٣٧هـ/ ١٠٤٢م فقبيل بالترحاب والسرور واخذ يدرس بقرطبة حتى وفاته (٧) ، وغيره كثيرون .

واتخذت العلاقة الفكرية بين البلدين شكلا آخر ، تجلى بنقل المؤلفات العربية الموجودة في المشرق وبخاصة من مصر الى الاندلس والمغرب (٨) ، وفي الحقيقة لم ييخل المصريون بشيء من علم او معرفة على الرواد المغاربة والاندلسيين فبرهنوا بذلك على ان العداء السياسي يبقى منفصلا دون ان يؤثر على اية ناحية من نواحي الفكر والثقافة ، خاصة وان روابط مشتركة ، هي روابط اللغة والاصل والانتماء تجمع بين العرب في اية بقعة من وطنهم الكبير . وهي التي جعلت هذه العلاقة تبدو طبيعية ، واستطاعت بذلك أن تعلق على الخلافات السياسية .

اما في الميدان الاقتصادي ، فان الامور ظلت هي الاخرى طبيعية جدا ، وبقي التعاون قائما في ميادين الاقتصاد المتعددة . ففي ميدان الزراعة اعتمد المغرب والاندلس على مصر ، ونقلوا عددا من طرق واساليب الزراعات المصرية المعروفة ، وهذا ما حدث زمن الاغلبة خلال القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي عندما انتقلت الى المغرب زراعة شجرة القطن وقصب السكر (٩) .

وفي حقل الصناعة ، كان الامر مختلفا ، ويأتي هذا الاختلاف من واقع المعلومات المتوافرة حول ذلك والذي لا يتعدى أكثر من اشارات بسيطة جدا ، لكنها تساعد على الاستنتاج ان التعاون بين مصر والمغرب والاندلس كان قائما خلال هذه الفترة في ميدان الصناعة ، مثال ذلك صناعة السكر ، فالعرب الفاتحون للمغرب والاندلس ، والمصريون قسم منهم ، هم الذين نقلوا هذه الصناعة الى الاندلس والمغرب (١٠) .

واما التجارة فقد ظلت طبيعية الى درجة كبيرة جدا ، ولم يتوقف تجار البلدين عن الحركة ونقل البضائع بينهما . وكانت البضائع تأتي الى الاندلس والمغرب عن طريق الاسكندرية التي تعتبر المنفذ الرئيسي لمصر على البحر المتوسط الى البلدان الاخرى (١١) . وكانت مصر هي الاخرى تستقبل البضائع من المغرب والاندلس (١٢) .

وهكذا فان العلاقات بين مصر والاندلس قدر لها ان تكون طيبة وطبيعية خلال فترة ما قبل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي موضوع هذا البحث . فقد استقبل المغاربة والاندلسيون في المشرق على هيئة حجاج وطلبة علم وتجار وزائرين خلال هذه الفترة ، لتختلف الصورة خلال الفترة التالية ، فتصبح مصر العربية من اهم اقطار المشرق العربي ، بالنسبة للمغاربة والاندلسيين ، الذين قصدوها واستقروا فيها واصبحوا من مواطنيها بدون معارضة ولا قيود . فما الذي حدث على الساحة الاندلسية حتى لجأت فئة من سكانها الى المشرق ، وبخاصة الى مصر ، وما العوامل التي شجعت على ذلك .

للإجابة على هذا التساؤل يمكن القول ان ما حدث ، وبخاصة في الاندلس ، كان امرا كبيرا وقظيما من حيث تأثيره وفعاليته ، وبالتالي من حيث النتيجة السلبية التي

انتهى اليها ، وهي ضياع ارض وتشتت شعب وموت حضارة . فالاضطرابات الداخلية التي تجسدت بالانقسامات الحادة وتبدل الدول ثم نجاح الاسبان في السيطرة على معظم نواحي الاندلس ، كل ذلك اجبر مجموعة كبيرة من الاندلسيين على الهجرة باتجاه مصر وبقية اقطار المشرق العربي الاخرى . والامثلة كثيرة في هذا الميدان ، فمنها ما كان من جراء تبدل الدول الذي بدا بمجيء المرابطين وانحسار دول الطوائف سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢ م ، وهجرة قسم كبير من سكان الاندلس نتيجة ذلك ، منهم والد ابي بكر بن العربي ، من رجال اشبيلية المعروفين والمعول عليهم ، عشية وصول المرابطين الى الحكم (١٢) ، ومثله كثيرون لا طائل من ذكرهم لكونهم جميعا يشتركون في امر واحد ، هو الهرب من المرابطين لانعدام التوافق على صعيد المبدأ العام . والامر نفسه حدث عندما زال حكم المرابطين بمجيء الموحيين . فهاجر الكثيرون من الاندلس والمغرب الى المشرق خوفا منهم . مثال هؤلاء الوهراني صاحب كتاب المنامات المعروف ، الذي هجر الاندلس والمغرب ونزل مصر ، وفيها عبر عن كرهه الواضح للموحيين في كتابه المذكور آنفا (١٤) . لكن الذي حدث بتأثير التقدم الاسباني باتجاه المعازل العربية في الاندلس كان اوسع واشمل واشد فعالية . فلم تأت سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١ م حتى سقطت معظم مدن الاندلس في ايدي الاسبان ، وترافق ذلك باجراءات قاسية وسلبية اجبرت معظم سكان المدن المحتلة على الهجرة منها الى غير رجعة (١٥) . وهذا يظهر بوضوح من خلال تتبع هجرة الاندلسيين باتجاه المغرب والمشرق العربيين . وبمقابل هذه العوامل السلبية المحزنة ، وجدت عوامل ايجابية في المشرق العربي حيث استقر قسم كبير من المغاربة والاندلسيين ، وكانت مصر في مقدمة الاقطار العربية المشرقية التي استقبلت عددا من هؤلاء القادمين الذين لم ينقطعوا عن التوافد اليها ، وفي مقدمة هذه الايجابيات ، التي تميزت بها مصر في تلك الفترة من الزمن ، الامكانيات الاقتصادية التي اعتبرت في المقدمة بدون منازع وخاصة بالنسبة للاندلسيين والمغاربة الذين لا يملكون شيئا ، فقد كان لمصر وجودها البارز من هذه الناحية ، فهي بلد زراعي وصناعي وتجاري ، يتوافر فيها كل ما يطلبه الناس من لوازم واحتياجات . وهذا ما اكده الرحالة المعروف ابن بطوطة الذي زار مصر خلال الربيع الاول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي فوصفها بأنها ام البلاد ، يعيش فيها الفقير الى جانب الغني والضعيف الى جانب القوي (١٦) . يضاف الى هذا ان الغرياء ، ومنهم المغاربة ، كانوا يخصون بمساعدات كبيرة جدا من قبل الحكومات والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم مصر ، فالغلال توزع عليهم بنسب معينة ، ويرصد لهم ما يكفي لتكفين موتاهم ودفنهم . واختصت السلطات المصرية المغاربة من بين كل الغرياء الذين عرفتهم مدن مصر وحواضرها ، اضافة الى ما ذكر ، بان اوقفت باسمهم بعض الاوقاف وجعلتها للصرف عليهم (١٧) .

الى جانب العوامل الاقتصادية وجدت عوامل اخرى كان لها تأثيرها الفعال على حركة المغاربة والاندلسيين باتجاه مصر ، فالمغاربة والاندلسيون كانت لهم اهتماماتهم

العلمية البارزة التي تجلت بانتشار المدارس ودور العلم . فلم يشارف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي نهايته حتى كان في الاسكندرية والقاهرة وحدهما ما يقرب من ثلاث وسبعين دارا للحديث، واضعاف هذا العدد من المدارس والخانقاهات، التي ما انقطع التسابق الى بنائها والصرف عليها منذ فترة حكم صلاح الدين الايوبي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، حتى الفترة التي يتوقف عندها هذا البحث (١٨) . وبالإضافة الى ذلك ، فان مناهج التعليم واساليبه التي كانت معروفة آنذاك توافقت مع المبادئ التي كان يعتنقها ويسمى لاجلها المغاربة والاندلسيون .

وكان للعوامل الدينية دورها الفعال في هذا الميدان فساعدت في نشاط حركة الاستقطاب باتجاه مصر التي كان لاسمها وقعه الخاص في اسماع المغاربة والاندلسيين من الناحية الدينية ، فلها ذكر طيب في القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة . يقول الله تعالى : « واهبطوا مصر فان لكم ما سألتم » (١٩) . وفيها اماكن يحترمها المسلمون ويجلونها ، ذكرها الكندي ونقلها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة ، فذكر الطور والنيل المبارك وقبري موسى وهارون ، والنخلة التي ولد عيسى بن مريم تحتها ومساجد ابراهيم ويعقوب وموسى ومارية سرية رسول الله الى غير ذلك (٢٠) . وكان لطبيعة مصر تأثيرها الواضح والمؤثر على حركة المغاربة والاندلسيين ففيها العديد من المدن والنواحي تشبه ما في الاندلس والمغرب ، كالاسكندرية وبعض مناطق الدلتا ، وتأتي أهمية هذا الامر من سرعة التأقلم مع البيئة الجديدة وسهولته الامر الذي اخذ بعين الاعتبار عند الفتح العربي للاندلس ، عندما نزل جند مصر في كورة تدمير بالاندلس لشبه طبيعتها بطبيعة مصر (٢١) . وشبهت منطقة فحس البيرة بمنطقة الفيوم في دلتا النيل (٢٢) .

واما العوامل الاخيرة التي ساعدت على استقطاب المغاربة والاندلسيين الى مصر، فهي العوامل السياسية وكانت بمعظمها لصالحهم ، فقد لاقوا في مصر كل العناية والترحيب من السلطات الحكومية والرسمية منذ فترة حكم نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وشيدت المدارس باسم المغاربة ، والزوايا والخانقاهات الصوفية والمساجد في كل انحاء المشرق العربي وبصورة خاصة في القاهرة والاسكندرية ، حيث كان الوجود الاندلسي والمغربي كثيفا ومتميزا .

بعد هذه المقدمة المقتضية تنتقل الى دراسة الاداريين والسياسيين والعسكريين، كل على حدة .

١ - الاداريون : تقصد بالاداريين مجموعة المغاربة والاندلسيين التي عملت في ميدان القضاء والحسبة والدواوين ، الى غير ذلك من التسميات الادارية التي

عرفت واشتهرت في المشرق العربي . ويبدو ان الاداريين المغاربة والاندلسيين كانوا كثيرين جدا ، لا توصل بعضهم الى تسلم مناصب رفيعة المستوى في المشرق وفي مصر بصورة خاصة ، ويمكن تقسيم هؤلاء الى قسمين رئيسيين : العاملون في ميدان الادارة العامة على مختلف درجاتها ، والعاملون في القضاء .

أ - العاملون في ميدان الادارة العامة : في مقدمة هؤلاء من حيث التسلسل الزمني سليمان بن ابراهيم ابو الربيع الفرناطي المتوفى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٢٧م وقد عمل في حقل الحسبة بمدينة القاهرة حتى وفاته . ومن المعروف ان منصب الحسبة كان احد المناصب الادارية الكبيرة (٢٣) .

ولم تخل ميادين الكتلة من وجود اندلسي او مغربي ، على الرغم من ان اعمال الكتابة كانت نادرا ما تسلم لغير اهل المشرق الذين تميزوا باتقانها والقيام بأعبائها على خير وجه ، وبصورة خاصة كتابة مدينة القاهرة عاصمة الدولة ومقر الحكومة والسلطان . ففي هذا الميدان عمل من المغاربة نزلاء مصر محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري من قلعة بني حماد في الاصل الذي اقام ببلدة بوسير من ارض مصر وتسلم منصب كتلة ديوان منطقة الشرقية حتى وفاته سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م ، فعكس المسيرة الاخلاقية التي لم يحد عنها معظم من تسلم مناصب ادارية في مصر العربية من المغاربة والاندلسيين ، وهي مسيرة الصدق والامانة والنزاهة والاندفاع في العمل ، وتآلم للحالة المأساوية التي كانت تسود تلك الفترة من الزمن ، والتي تميزت بمجانية الصدق واستغلال المناصب الادارية للصالح الشخصي فثارت في اعماقه مشاعر السخط والاسى على هذا الواقع الصعب فقال :

فلم ار فيهم رجلا امينا
مع التجريب من عمري منينا
بهم فكانما سرقوا العيون (٢٤)

فقدت طوائف المستخدمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيها
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا

وعرفت مدينة المحلة الكبرى اداريا مغربيا عمل في ديوان الانشاء موظفا عاديا وهو رضي الدين محمد بن حمزة المغربي المتوفى سنة ٦١٥هـ / ١٢١٩م (٢٥) . وبلغت ثقة الحكام المصريين بالمغاربة والاندلسيين حدا كبيرا جعلهم يستخدمونهم في مناصب امانة السجن في القاهرة الذي تسلمه في اواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، المغربي ابو الحسن علي بن عثمان الصنهاجي اللمتوني المتوفى سنة ٦٦٤هـ / ١٢٩٥م . وبرهن من خلال عمله الذي لم ينفصل عنه الا بالموت ، انه اهل للثقة التي اولاه اياها رجال الحكم في مصر آنذاك (٢٦) . كما توصل معاصره الامير بدر الدين المغربي المتوفى سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م الى منصب رفيع جدا بمدينة القاهرة هو منصب اللوادارية الذي لم يتسلمه مغربي غيره خلال الفترة موضوع هذا البحث ، لان مثل هذا المنصب

غالباً ما كان يسند الى المقربين من السلطان وحاشيته . وقد عينه فيه السلطان المنصور لاجين وكلفه بتجديد عمارة جامع ابن طولون (٢٧) . وفاق جميع الاداريين في مصر والمشرق العربي عبد الواحد بن اسماعيل الافريقي المتوفى سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤ م من حيث المرتبة والمنصب الذي شغله بمدينة القاهرة وهو منصب كتابة السر لدى السلطان، وهو من اكبر المناصب الادارية ومن يتسلمه يعتبر احد شخصيات الدولة المرموقة والتي يعول عليها في كثير من الامور التي تهتم الدولة والمجتمع ، لاهمية الامور التي يطلع عليها كاتب السر وحاسبتها . وقد تدرج الافريقي في السلم الوظيفي حتى توصل الى هذه المرتبة العالية ، اذ عمل في البداية شاهداً في ديوان أحد أمراء الطبلخانا ، ولما أصبح برقوق أمير طبلخانا استخدمه كشاهد ديوانه أيضاً . ثم انتقل بعد ذلك الى وظيفة موقع الدست . وعندما تسلم الظاهر برقوق السلطنة عينه كاتباً للسر فسار فيها سيرة حميدة ارضت الجميع . لكن مدة توليه هذا المنصب لم تدم طويلاً ، فمات متأثراً من مرض أصابه قبل ان يبلغ الأربعين (٢٨) . ويبدو ان السلطان الظاهر برقوق، كان لا يثق الا بالمغاربة ، ودليل ذلك انه لما تسلم للمرة الثانية ، قام بتعيين مغربي آخر لمنصب كتابة السر في الدولة وهو علي بن عيسى العامري المعروف بالكركي المتوفى سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٢ م ، وكان قد قدم له بعض الماعدات في منغاه بالكرك، فكافاه حين عودته الى السلطنة بهذا المنصب المرموق . وهو كالذي سبقه لم تطل مدته بسبب الوفاة (٢٩) .

وتسلم مغربي آخر كشف منطقة الوجه البحري جميعها، وهو أحمد بن شرف الدين عبد الهادي بن أحمد المغربي المعروف بابن الشيخ المتوفى سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥ م ، ولم يعرف عنه ما يسيء الى سمعته خلال عمله هذا (٣٠) .

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، تسلم الحسبة بمدينة الاسكندرية يوسف بن محمد الفلاحي المغربي المتوفى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧١ م وقد اختاره نائبها لهذه الوظيفة سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٦ م . وقد حمدت سيرته فيها (٣١) .

ب - العاملون في ميدان القضاء : كان منصب القضاء من اهم المناصب الادارية التي شغلها المغاربة والانديلسيون في مصر خلال الفترة المعنية بهذا البحث ، وبخاصة القضاء على المذهب المالكي مع وجود بعض القضاة على المذاهب الاخرى . ومن الجدير ذكره قبل استعراض بعض أسماء هؤلاء القضاة ، ان منصب القاضي المالكي في مصر، وخاصة في مدينتي الاسكندرية والقاهرة ، كان من أقدم المناصب القضائية ، لكون هاتين المدينتين ، وبصورة خاصة الاسكندرية ، تضمّان الكثيرين من الذين يتمذهبون بالمذهب المالكي ، زاد عليهم المغاربة الانديلسيون وكلهم على هذا المذهب . الا ان القضاة المالكيين من المغاربة والانديلسين لم يكونوا جميعاً في سوية واحدة ، سواء أكان ذلك

من حيث الاهلية والثقافة ، ام على صعيد الاخلاق والسوية الانسانية . على عكس جميع من عرفتهم مصر في حقل الادارة او غيرها ، والذين اتسموا بشكل يكاد يكون كاملا بالاخلاقية والجدية في العمل ، والصدق والامانة .. وبعد القضاء على المذهب المالكي ، في الاسكندرية بشكل خاص ، القضاء الوحيد حتى ٧٦٨هـ/١٣٦٧م حين استحدث منصب اخر ، وهو منصب قاضي الحنفية . يقول المقرئزي في حوادث سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م ((واستقر شهاب الدين ابراهيم بن عمر المعروف بربيبة الحنفي قاضيا بالاسكندرية زيادة على قاضيا جمال الدين ابن الريفي المالكي ، ولم يعهد قبل ذلك في الاسكندرية قاضيان » (٢٢) .

وتمثلت اول مشاركة للمغاربة في منصب قاضي المالكية بمصر بحسب معطيات المصادر المعاصرة بوجود محمد بن الحسن بن عبد السلام المعروف بابن المقدسية ابو بكر السفاقسي ، وهو ابن اخت الحافظ ابي الحسن المقدسي الذي لا يستبعد ان تكون ولادته ونشأته بمصر ، حيث درس بالاسكندرية وتولى نيابة القاضي المالكي فيها حتى وافته المنية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م (٢٣) . وافتتح قائمة القضاة المستقلين المالكيين بالاسكندرية ، قاضي القضاة محمد بن ابي القاسم بن عبد السلام الربيعي التونسي شمس الدين المتوفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٦م ، الذي اهلته ثقافته لهذا المنصب ، فقد درس على عدد من كبار علماء القاهرة ، الامر الذي ساعده لان يفتي ويدرس في عدة مدارس بالقاهرة قبل توليه منصب القضاء بصورة مستقلة ، فانساق وراء شهواته مستغلا ما هو عليه من علو المرتبة والمكانة المرموقة وقبل الرشاوى وسلك جميع الاساليب غير المستقيمة وغير اللائقة بمنصب قاضي القضاة ، وكان يصرح دائما بقوله : « انا اعرف كيف آخذ الدراهم في قضاء الحوائج » (٢٤) .

ولم يكن وجود العاملين في ميدان القضاء من المغاربة والاندلسيين مقتصرًا على المدن الكبرى التي كانت محط أنظار الغرباء بشكل خاص ، مثل القاهرة والاسكندرية ، بل انتشروا في مناطق كانت اقل سكانا وادنى مستوى ، ففي مدينة المحلة الكبرى توصل الى نيابة القضاء على المذهب المالكي ابو القاسم بن بتون التونسي ، الذي زاره ابن بطوطة سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م خلال مروره بالمحلة الكبرى ضمن رحلته المعروفة ، وكان مايزال على رأس عمله الذي مارسه بعفة واخلاص (٢٥) ..

وعلى الرغم من كثافة الوجود المغربي الاندلسي في مدينة القاهرة خلال هذه الفترة فان وصول المغاربة الى منصب القضاء في هذه المدينة بصورة مستقلة جاء متأخرا بعض الشيء ، اذ ولي منصب قاضي قضاة المالكية عيسى بن مسعود الزواوي خلال النصف الاول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، وتوفي سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٣م . وقد تلقى معظم ثقافته التي كانت في غالبيتها دينية مثل الفقه والحديث والعربية من المغرب في بجاية وتونس ، وبدأ عمله القضائي بمدينة دمشق نائباً لقاضيا

حتى استقل بهذا المنصب في القاهرة ، ولم يؤخذ عليه شيء فيما يتعلق بمجال عمله هذا (٢٦) .

أما معاصره أحمد بن محمد المعروف بابن المخلطة الصنهاجي المتوفى سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٨ م فقد ولي قضاء الاسكندرية بصورة مستقلة أيضا بعد اقامة وجيزة بدمشق عشية وصوله من المغرب ، وكان من القضاة الذين حمدت سيرتهم وأثنى عليهم (٢٧) . ولم تكن اهلية القضاة الذين تسلموا القضاء هي التي اوصلتهم الى حيث وصلوا في كثير من الاحيان ، انما وجدت عوامل على ارض الواقع المصري كان لها تأثيرها ، الامر الذي لا يمكن تجاهله او غض الطرف عنه عند بحث مسألة من هذا القبيل ، مثال ذلك ان السلطان في كثير من الاحيان كان يقدم بعض من وقف الى جانبه في امر من الامور او في مناسبة ما ، ويولي القضاء بغض النظر عن المؤهلات الثقافية التي لابد من توافرها فيمن يتولى هذه المهمة الصعبة . وهذا ما حدث بالفعل في زمن السلطان الظاهر برقوق وتحديدًا خلال فترة سلطنته الثانية سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠ م ، عندما قدم محمد الركاكي المغربي على جميع من في حاضرة حكمه وعينه قاضي قضاة المالكية بالقاهرة ، وهو الذي امتنع عن فتيا ضد السلطان الظاهر برقوق خلال فترة حدثت قبل تسلمه هذا المنصب بزمن قليل ، مع العلم ان ماضيه الاخلاقي ، لم يكن يؤهله للتربع على عرش منصب القاضي المالكي (٢٨) . فاصبح اداة طيعة في ايدي السلطان وحاشيته فحبا بهم ونفذ كل ما طلبوه منه في ميدان عمله ، الامر الذي جعل بعض من رثاه يفصح عن ذلك بوضوح تام ، ومنهم عيسى بن حجاج الذي قال فيه :

الف العلوم الفارسى الركاكي
حزنت عليه عصابة الاتراك (٢٩)

لنفي على قاضي القضاة محمد
قد كان رأسا في القضاء فلاجل ذا

ولعل اعظم من ولي القضاء على المذهب المالكي من المغاربة والاندرلسيين في مصر كلها من حيث المؤهلات العلمية والقضائية والسيرة الحميدة والسلوك المستقيم القاضي عبد الرحمن بن محمد بن محمد ولي الدين الحضرمي المعروف بابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م ، الا انه على الرغم من اهليته التي لا شك فيها عزل عن عمله واعيد مرات عديدة ، كان اخرها السنة التي فارق الحياة فيها . والسبب في ذلك يعود الى انه وجد في عصر كان فيه سلاطين الممالك ورجال الحكم من معاونيهم لا يقيمون وزنا للنزاهة وخاصة في منصب حساس مثل منصب القضاء ، لانها تطال بالضرورة مصالحهم ، وهي في نظرهم تتقدم على كل شيء . لذلك كان ابن خلدون الذي اتصفت احكامه بالصرامة والاستقلال يعزل لاتفه الاسباب واقلها شأنًا وموضوعية ، كرفض وساطة للسلطان او غيره من الامراء الذين جعلوا من منصب القضاء وسيلة لجمع المال والثروة ، على اعتبار انه كان يباع لمن يدفع اكثر من المال دون النظر الى اهلية المشتري العلمية والاخلاقية شأنه في ذلك شأن المناصب الادارية الاخرى . وقد صور المقرئزي

هذا الجو الفاسد بقوله : « فاذا اراد احد ولاية شيء من الامور تحدث مع حاشية الامر بركة حتى يتقرر له ما يريد ، ثم يستقر فيما يقرر فيه من الوظائف .. غير ان الولايات كلها من القضاء والحسبة وولاية الحرب في الاعمال والكشف وسائر الوظائف ، لا سبيل ان ينالها احد الا بمال يقوم به او يلتزم بادائه ويكتب به خطه ، فتطاول كل نزل وذل وسفلة الى ما سنح بخاطره من الاعمال الجليلة والرتب العلية ، فدها الناس من ذلك بداهية دهياء ، اوجبت خراب مصر والشام » (٤٠) ..

وذكر ابن خلدون عن نفسه ، وذكره غير واحد ، انه سلك عكس ما اراده بعض من ضعفت نفسه من اهل السلطة والحكم في عصره .. فقد سلك طريق الحق في كل احكامه ، الامر الذي لم يعجب الكثيرين من ذوي الشأن الذين اعتادوا على ان تكون جميع طلباتهم مقبولة وشفاعاتهم مستجابة ، وهذا ما رفضه ابن خلدون ، فكثرت الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين اهل الدولة . ويذكر ان ذلك توافق مع مصابه بفقد اهله وماله في السفينة التي غرقت وهي في طريقها الى مصر (٤١) .

وقد طال امد عدم وجود المقارية والانديلسيين في منصب القضاء المالكي بعد ابن خلدون اكثر من ربع قرن من الزمان في مدينة القاهرة ، حتى جاء واحد منهم وبصفة نائب للقاضي المالكي هو علم الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن محمد الاندلسي المتوفى سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٩م . وهو من الذين ولدوا بمصر وترعرعوا فوق اديمها وكان مثالا يحتذى في عمله ، ترفع عن سقطات القضاة ذوي النفوس الضعيفة والضمائر الميتة ، الذين اتخذوا من القضاء وسيلة لجمع الثروة (٤٢) ، واحدهم شغل منصب قاضي قضاة الاسكندرية وكان من الذين عرفوا بجهلهم المطبق بالمعارف الضرورية لمن يريد العمل في هذا الميدان كعلوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير ، وهو أحمد بن سعيد التلمساني المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م . ومع ذلك فقد سار في وظيفته مسيرة حق واستقامة (٤٣) . وعلى النقيض منه من جهة المؤهلات ، اشتهر بالقاهرة نائب للقاضي المالكي نور الدين الرهوني المغربي المتوفى سنة ٨٧٠هـ / ١٤٦٦م ، وعرف بشدة تهوره في احكامه واقدامه على ظلم الناس واتى على تنفيذ احكام لا يقدم عليها احد من القضاة الواعين (٤٤) .

وتسلم ، خارج مدينتي القاهرة والاسكندرية ، منصب قاضي قضاة المالكية المغربي محمد بن محمد المعروف بابن حريز المتوفى سنة ٨٧٣هـ / ١٤٦٩م بمدينة منقلوط .. وجمع هذا القاضي ما يحتاجه امثاله من معرفة ومؤهلات وامانة وحرص على الحق ونصرته في احكامه . وهذا ما اجمع عليه كل الذين عاصروه وفرحوا به لما خلف القاضي ولي الدين السنياطي بمدينة القاهرة (٤٥) . وولي محمد بن محمد الريفي المتوفى سنة ٨٨١هـ / ١٤٧٧م ، نائبا للقاضي المالكي بالاسكندرية فترة تقرب من عشرين عاما لم يعرف عنه خلالها ما يسيء اليه (٤٦) . واشتهر من آل حريز الذين

كانوا يسكنون مدينة منفلوط عمر بن محمد سراج الدين المغربي المنفلوطي المتوفى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م ، الذي حصل على ثقافته الواسعة من شيوخ مكة ومنفلوط ، وتميز بأخلاقه واحكامه الحيادية المنصفة لم تعرفه عنها حالته المادية البائسة وديون اخيه الذي تكفل بتأديتها عنه ، فكان مثال القاضي الذي لا يرى بدلا عن امتثال الحق في ميدان عمله (٤٧) . وخلفه في القضاء المالكي بالقاهرة القاضي ابراهيم بن محمد المغربي المتوفى سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م ، الذي كان كسابقه متنوع المعارف فباشر عمله القضائي سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م وانتهى منه سنة ٨٨٦هـ/١٤٨٢م . وادى عزله الى الاسف والحسرة لما اتصف به من دقة وصلابة في احكامه ، التي لم يسراع فيها غير مصلحة القضاء (٤٨) .

والشيء اللافت للانتباه هنا ، أن جميع القضاة الذين التزموا في مهماتهم القضائية جانب الحق والصدق والامانة تعرضوا للمضايقات وانتهوا نهايات محزنة مثل العزل، وجدوا ان من مصلحتهم تنفيذ مايريد السلطان ومعاونوه الذين لم يروا الا مصالحهم الشخصية ، فتهافتوا على جمع المال غير آبهين بمصالح الناس ولا بقدارة الوسائل التي توصل الى ذلك . وعكس ابن تغري بردي هذه الحال في كتابه النجوم الزاهرة كما فعل المقرئ من قبله ، عندما تفاقت الامور واصبحت اسوء مما كانت عليه زمن المقرئ ، علما ان ابن تغري بردي ينتمي بالاصل الى الماليك الذين حكموا مصر والشام (٤٩) .

وهكذا فقد كان للقضاة المالكيين دور مهم في الحياة الاجتماعية بمصر من خلال منصب القضاء ، وتأتي أهمية هذا الدور من شهرتهم بالاحكام الصعبة والقاسية من حيث نتيجتها ، فجميع المسائل الكبرى التي كانت تواجه القضاة من المذاهب الاخرى تحال الى القاضي المالكي ، مثل قضايا الكفر والالحاد والزندقة والخروج على الدين، وقضايا الخيانة . فيشبه بذلك ما يسمى في هذه الايام بقاضي (محكمة الامن القومي او محكمة امن الدولة العليا) والامثلة في هذا الميدان كثيرة جدا ، منها انه سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م ادعي عند القاضي المالكي على الطنبغا الحلبي والطنبغا دوا دار جنتمربا مور تقضي الكفر ، فحكم براقعة دمه واعدما (٥٠) . وحدث في سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٤م أن جماعة بالقاهرة اتهموا بالزندقة فأحيلوا الى القاضي المالكي الذي امر بضرب رقاب ستة منهم (٥١) . وكذلك كانت عاقبة من يرتد عن الاسلام (٥٢) .

وأما من كان يتآمر على الدولة بتعامله مع الاعداء ، فانه كان ينتظر قرار القاضي المالكي الذي لم يكن بأقل من الموت، مثال ذلك أن السلطان قام بتكليف القاضي المالكي شمس الدين محمد البساطي سنة ٨٢٢هـ/١٤٢٩م بالنظر بقضية الجاسوس العجمي علي التبريزي ، الذي اتصل بملك الحبشة وهون عليه أمر المسلمين ، فحاكمه القاضي المذكور وحكم عليه بالاعدام (٥٣) .

أما نواب القضاة ، فان عددهم لم يكن ثابتا ، كان يكون ذلك عرفا أو عادة ففي بعض الاحيان كان عددهم يصل الى نحو خمسة عشر نائبا عند القاضي الشافعي،

وعشرة عند القاضي الحنفي ، والى سبعة نواب عند القاضي المالكي ، ومثل هذا العدد عند القاضي الحنبلي وأحيانا أقل . ولعل خير اشارة الى ذلك وجدت عند ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة حيث ذكر انه في سنة ٨١٩هـ / ١٤١٦م أمر السلطان بعزل جميع نواب القضاة الاربعة ، وكان عددهم يومئذ مئة وستة وثمانين قاضيا بمدينة القاهرة وحدها . فقرر السلطان ان يكون لكل قاض ثلاثة نواب فقط . ويعلق ابن تغري بردي على ذلك بالقول : « وما كان احسن هذا لو دام او استمر . وقد تضاعف هذا البلاء في زماننا ، حتى خرج عن الحد ، وصار لكل قاض عدة كبيرة من النواب » . وعلى الرغم من الضغوط المستمرة التي مارسها رجال الحكم من الامراء على السلطان ، فقد قرر ان يكون للقاضي الشافعي عشرة نواب ، وللقاضي الحنفي خمسة وللقاضي المالكي اربعة (٥٤) . وفي سنة ٨٣٣هـ / ١٤٣٠م قرر السلطان ان يكون للقاضي الشافعي اربعة نواب وللحنفي ثلاثة ، واثنان لكل من القاضي المالكي والحنبلي ، ليرتفع عددهم بعد مضي ثلاث سنوات ، فيصبح للقاضي الشافعي خمسة عشر نائبا بمصر كلها ، وللحنفي عشرة ، وللقاضي المالكي سبعة ، وللحنبلي خمسة . وبعد فترة قصيرة عادوا الى ما كانوا عليه في البداية دون معرفة السلطان (٥٥) . وهذا يدل بصورة واضحة على الواقع المر ، الذي كان يعاني منه الحكم المملوكي من فوضى وعدم استقرار وتفشي كل ما هو سيء وردي .

وكان القضاة يمارسون اعمالهم في معظم الاوقات في مكان يعرف بدار العدل او ما شابه ذلك في قلعة الجبل بمدينة القاهرة ، وبأمكنة متنوعة في بقية المدن والحوضر ، وان كان معظمها في مقر الحاكم أو النائب (٥٦) ، وهو يشبه ما يسمى في أيامنا هذه (قصر العدل) .

٢ - السياسيون : وهم مجموعة من المغاربة والاندلسيين ، لم يتعد عدد أفرادها أصابع اليد ، تدخلوا في شئون الحكم والسياسة وكان لهم رأيهم الخاص في هذا المجال ، وبخاصة في فترة حكم الماليك . وكان لواحد منهم طموح لتولي السلطة ، الأمر الذي لم يوجد عند أحد من العرب المشاركة على الإطلاق . واعتبر تدخلهم في شئون السياسة ، التي كانت تنتهجها طبقة الحكم آنذاك من أشد الأمور مساسا بمركز السلطان . لأنه لم يسبق لأحد أو لجماعة ان تدخلت في شئون السلطنة من أهل البلاد الأصليين ، فالمشاكل من هذا القبيل تصدر عن الماليك أنفسهم .

الحادثة الاولى كانت خلال فترة حكم صلاح الدين الايوبي ، لكنها لم تكن بقصد الاضرار بالسلطة الايوبية بقدر ما كانت لاجل ترسيخها وتقويتها ، وهي ما قام به اليعسوب بن عيسى بن حزم الجياني المتوفى ٥٩٥هـ / ١١٩٦م الذي تجرأ وخطب باسم العباسيين في أواخر أيام الفاطميين في مصر . وكانت مبادرة منه دون توجيه من صلاح الدين الايوبي لم يتجرأ أحد غيره على القيام بها . ونجحت المبادرة فنال مكانة مرموقة عند صلاح الدين الذي ظل يكرمه حتى آخر أيام حياته (٥٧) .

وكانت الحادثة الثانية سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م ، وتتلخص بقيام أحد المغاربة بمجادلة جركنر بن يهادر أحد الامراء المماليك آنذاك بالقاهرة ، وكان المغربي يتهمه بأنه قتل الملك المنصور بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذي خلفه بالسلطنة مباشرة بعد موته ولفترة قصيرة لم تعد بضعة أشهر . وبلغت الجراة بهذا المغربي ان كتب بذلك الى الامير قطلوبغا الفخري . فقبض على المغربي ، ولا ريب في أن مصيره كان القتل ، فلا رحمة فيمن يطرح مثل هذه الامور وعلى الاخص في فترة من أصعب فترات التاريخ العربي الاسلامي وأحلكها وهي فترة حكم المماليك في المشرق العربي (٥٨) . ولا يذكر المقرئ اسم هذا المغربي على الرغم من دقته وشدة ملاحظته بالاضافة الى انه المصدر الوحيد ، الذي أتى على هذه الحادثة .

وبلغ الامر ببعض نزلاء القاهرة الدائمين من المغاربة الى ارجاع سوء الحالة الاقتصادية وتفاقم الامور وتدهورها الى سياسة السلطان نفسه ، فقد اتهم مغربي جريء السلطان بأنه السبب فيما وصلت اليه حالة الاقتصاد من سوء وتدهور ، وتحمس بصورة كبيرة لهذه القناعة التي تكونت عنده حتى اخذ يدعو الناس في القاهرة للتخلص من السلطان . وحدث ذلك سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤م التي عمت خلالها موجة من الفلاء والقحط لم يعهد لها مثيل من قبل على حد قول من كتبوا عنها . وبلغ الامر بهذا المغربي ، الذي لم يذكر المقرئ اسمه أيضا ، الى التوجه الى مكان قريب من القلعة مكان اقامة السلطان والامراء وتحريض الناس علانية على قتل السلطان والتخلص منه لان في ذلك مفتاح حل الازمات التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت . يقول المقرئ : « وفي ثالث عشر ذي الحجة ، قبض على رجل مغربي ، كان يقف في الليل تحت القلعة ويصيح ، اقتلوا سلطانكم ترخص اسعاركم ويجري نيلكم فضربه والي القاهرة وتركه لحاله » (٥٩) .

والحقيقة ان السبب الذي دفعه لان ينادي بقتل السلطان لا يمكن التكهّن به انما يمكن القول ان السبب في ذلك ، ربما يعود الى ان السلطان كان بمقدوره ان يحرك الازمة باتجاه الافضل اذا ترفع على جشعه وطمعه ، لان حكام مصر المماليك ، من امراء وسلاطين ، لم يكن همهم الا انفسهم ومن يدور في فلكهم من ابناء جنسهم ، فاحتكروا التجارتين الخارجية والداخلية وسيطروا سيطرة تكاد تكون شبه كاملة على جميع مصادر الثروة لصالحهم الشخصي .

وحادثة رابعة تدخل من خلالها المغاربة في امور السياسة كانت من اخطر الحوادث على مستقبل السلطان والحكم بصورة عامة ، وبطلها أحد المغاربة الذي قام بالتخطيط مع بعض امراء العرب للاطاحة بالسلطان المملوكي والتخلص من حكم المماليك نهائيا . لكن هذا التخطيط لم يكن له من العمق والارتكاز على ثوابت موضوعية ما يمكن صاحبه من الوصول الى ما يهدف اليه . وكان ان اخفقت اول وآخر محاولة من هذا القبيل

خلال العصر المملوكي . وهي ان دلت على شيء ، فعلى ان المغاربة والاندلسيين نزلاء المشرق العربي . كانوا على درجة من الوعي والنضوج بصورة تدعو للقول انهم تفوقوا على اضرابهم من المشاركة .. وصاحب هذه المحاولة الفريدة في عصر المماليك جمال الدين محمد العنابي المتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م ، وهو الذي اختصه السلطان الظاهر برقوق وقربه اليه وملخص محاولته الفاشلة قيامه بالاتصال مع الأمير العربي موسى ابن محمد بن عيسى وهو في السجن بأمر السلطان برقوق ، وعرضه عليه ان يخبر جميع انصاره بان يحضروا الى قريب من القاهرة وينتظروا حتى يخرج السلطان - الذي كان على وشك الخروج الى الشام - ومن ثم يهاجمون القاهرة يدعمهم في ذلك خمسمائة مملوك بقيادة العنابي من داخلها وسيطرون عليها . وبعد ان تتم عملية السيطرة على القاهرة ، يعلن العنابي خليفة وشهاب الدين بن قايمار اتابكا للجيش ، ويتم ايضا تعيين سلطان جديد ، ومن ثم تنفيذ ما يراه هؤلاء مناسبا من الاعمال .. لكن الامير السجين لم يوافق على ما يبدو على خطة العنابي لانه لم يعطه منصبا قياديا كبيرا ، فكان ان سلم مذكرة العنابي الى من اوصلها الى السلطان الذي امر باعتقال العنابي واجرى معه تحقيقا طويلا اعترف هذا من خلاله بخطة الرامية لقلب نظام الحكم والاطاحة بالسلطان فصدر الامر بقتل هذا المغربي (٦٠) وبذلك انتهت اول محاولة تجرأ مغربي ان يقوم بها . وتدل هذه المحاولة على مدى الوعي الذي تجسد في الاوساط الشعبية وعدم رضاها عن الحكام المماليك الذين عاشوا في غربة دائمة كانت تفصلهم عن الشعب والارض على حد سواء في كل تصرف وفي كل خطوة خطوها على ارض المشرق .

٣ - العسكريون : والجهة الاخيرة المهمة التي شارك فيها المغاربة والاندلسيون في مصر هي مؤسسة الجيش : فمن المعروف ان الاعداء التاريخيين الذين هددوا وجود العرب وكيانهم منذ اواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تجسّدوا بالدرجة الاولى فيمن عرفوا باسم الصليبيين ، وكان من الطبيعي ان يتطوع المغاربة والاندلسيون لمحاربتهم ، وهم الذين شاركوا وساهموا في طرد العرب من الاندلس . ومما يلفت الانتباه ان من تطوع وشارك في الجيش المصري من المغاربة والاندلسيين عمل في سلاح البحرية . وتفق هؤلاء في هذا المجال لكونهم ابناء بيئة بحرية ، وهم من ذوي الخبرة في شؤون البحر . والبحث في هذا الامر ، لا بد من ان يصطدم ببعض العراقيل ، فالمصادر تضمن بمعلوماتها وكل ما نجده إشارات في سياق اخبار اخرى . ولكن لهذه الاشارات اهميتها البالغة لانها تدل على الحجم الكبير لمشاركة المغاربة والاندلسيين في مؤسسة الجيش في مصر .

ولعل اول اشارة في هذا المضمار وردت عند ابن جبير في رحلته المشهورة ، اذ يروي انه في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م ، جاءت جماعة من نصارى الشام فاستولوا على بضاعة كان تجار اليمن يحملونها في ميناء عيذاب .. وفوق هذا فقد اشاعوا انهم بصدد اخراج ضريح الرسول العربي الكريم من الحجاز ، واقتربوا من المدينة، فجهزت مراكب

من مصر والاسكندرية برئاسة الحاجب المعروف بلؤلؤ ومعه نخبة من انجاد المغاربة البحرين لحقوا بالنصارى المذكورين وتمكنوا من ابادتهم جميعا (٦١) . وتجسد وجود المغاربة بشكل رئيسي بمدينة الاسكندرية القاعدة البحرية المهمة التي كانت تنطلق منها القطع البحرية المصرية الى المناطق الاخرى . ويفهم من بعض الاخبار ان المغاربة توصلوا الى ارفع المناصب القيادية في بحرية مصر العسكرية، فتوصل احدهم الى مرتبة رئيس في البحرية . ويذكر اليونيني صاحب كتاب ذيل مرآة الزمان ، ان من بين الاسرى الذين اسرهم الفرنج سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م بالقرب من قبرص الرئيس شهاب الدين ابو العباس المغربي . ولا يعطي اليونيني تفاصيل وافية عن تدرجه في البحرية المصرية، حتى وصل الى هذه المرتبة . لكن الذي يفهم من لقبه (الرئيس) انه كان من القادة المشهورين في عصره ، اذ لم يكن قد تسلم رئاسة بحرية مصر خلال فترة خدمته العسكرية . ودليل ذلك انه اثر عودته من احدى الغزوات طلبه الظاهر بيبرس ومن كان معه من الجنود ووبخهم ، فبادر للدفاع عن نفسه ومن كان معه (٦٢) واتفق ان احد الامراء المغاربة ولامور غامضة ترك بلاده ولجا الى القاهرة وفيها عمل في الجيش المصري البري ، وهو ابو ديبوس عثمان بن سعيد المغربي امير قابس ، الذي اقطع فيها بعض الاقطاعات . ويذكر ابن كثير انه كان يركب مع الجند في زي المغاربة متقلدا سيفاً . وكان نظاميا لا يتغيب عن الخدمة وظل هكذا حتى وفاته سنة ٧١٣هـ / ١٣٣١م (٦٣) .

وكان المغاربة في مقدمة المتطوعين والمندفعين اذا ما طلب منهم ذلك ، وفي معظم الاحيان يسبقون اهل البلاد الاصليين الى مسألة الدفاع . ذكر المقرئ في كتابه السلوك ان الامير يلبغا الاتابك اهتم بعمل الشواني البحرية لغزو الفرنج ، وبعد اتمام العمل : « نودي بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله الى بيت الامير يلبغا الاتابك للعرض واخذ النفقة للسفر في المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر وكتب اسمائهم وقررت لهم المعاليم واقامت لهم نقباء وقاموا بمساعدة صناع المراكب » وقد حدث ذلك سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م (٦٤) ويقول في مكان اخر ضمن حوادث سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م مايلي « كملت عمارة الشواني البحرية وعدتها مائة قطعة ما بين غربان وطرائد ، فاستخدم الامير يلبغا من الرجال ما يكفيها، وجمعهم ما بين مغاربة وتراكمين وصعايدة ورتب لهم رؤساء ونقباء وانفق فيهم المعاليم المقررة وشحن الاغربة بالعدد الحربية وجميع الات السلاح » (٦٥) .

وتكرر تسلم المغاربة لقيادة الاسطول الحربي في مصر في بعض الغزوات ، كما حدث سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٨م عندما تسلم قيادة الاسطول الحاج محمد التازي المغربي . يقول المقرئ : « وقدم الحاج محمد التازي المغربي رئيس البحر ، وقد تسلم من الشواني التي عمرها الامير غرابا اكمله بالعدد والالات وشحنه بالمقاتلة من رجال المغاربة، واخذ غرابا آخر من الاسكندرية مكمل بالعدد والرجال . ومضى في البحر وهجم على الفرنج فملك منها غرابا قتل منه جماعة واسر باقيهم . وقدم في التاسع والعشرين من

شعبان ، فتلقيه جماعة من الامراء بتجمل عظيم وخرج الناس الى لقائه وسروا به ، فلما تمثل بين يدي السلطان خلع عليه وأنعم عليه بجميع ما احضره من الفنائم» (٦٦) . ويبدو ان معظم البحارة الذين وجدوا بصورة دائمة في مواقع البحرية بمدينة الاسكندرية كانوا من المغاربة ، ودليل ذلك انه في سنة ٧٧٠هـ / ١٢٦٦م هوجمت الاسكندرية فتولى المغاربة الدفاع عنها بشكل رئيسي . يقول المقرئزي : « وفي يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، قدم الخبر بنزول اربع قطايع على الاسكندرية من الفرنج وانهم رموا المدينة بمنجنيق ، فخرج تلك الليلة ثلاثة وعشرون اميرا منهم ثلاثة من الالوف وعشرة من الطبلخانة وعشرة من امراء العشرات ، فقدم الخبر في عشية السبت ان المغاربة والتركمان نزلوا في المراكب وقاتلوا الفرنج وقتلوا منهم نحو المائة وغنموا منهم مراكبا » (٦٧) .

وقد دلت بعض الاحداث ، التي ذكرها المؤرخون عن مشاركة المغاربة في اعمال البحر انه لم يكن في سلاح البحرية المصرية اشجع من اهل المغرب والاندلس . وتكاد شهرتهم في هذا الميدان تعلو كل شهرة ، وانه كان لايدانيهم في صدق العمل وشدة الاندفاع اية مجموعة اخرى . ففي سنة ٧٦٧هـ / ١٢٦٦م فوجيء اهل مدينة الاسكندرية بالفرنج في عقر دارهم وهم على حالة من عدم الاستعداد والغفلة ، فبادر المغاربة بالنزول الى البحر بدون لباس ولا مراكب واستطاعوا ان يقبضوا على غراب المقدمة المعادي واقتادوه باتجاه الشاطئ بقصد حرقه ، الامر الذي لم يتم لان الرماة لم يكونوا على استعداد لهذا الامر . ويذكر المقرئزي ، ان هذه المجموعة من المغاربة اشتبكت بعد ذلك مع ركاب الغراب بالسيوف على الشاطئ» (٦٨) .

واستمرت مشاركة المغاربة والاندلسيين مع مرور الايام في الجيش المصري ، وقد اصبحوا من سكان المشرق مثلهم مثل السكان الاصليين لا يمتازون عنهم . ففي زمن السلطان الاشرف برسباي وخلال النصف الاول من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، شاركوا في غزو قبرص ، وكان منهم حسين بن احمد المغربي المعروف بالطولوني الذي غزا مع الغازين ثم عاد وتوفي سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٦م (٦٩) . على هذا لم يكن المغاربة والاندلسيون سلبين بل قدوة جيدة في العمل والمسار العام ، باستثناء بعض الحالات الشاذة ، وساعدهم ذلك على الوصول الى ارفع المناصب الادارية كالقضاء والحسبة وكتابة السر والدوايرية وغير ذلك ، وكانوا في الميدان العسكري من اخلص العناصر .

ويستخلص مما سبق عرضه ، ان الوطن العربي عاش دوما في وحدة شبه كاملة ، لم تعرف بلدانه الحدود الفاصلة ولم يعرف سكانه الا جنسية واحدة ، ولم يحتج العربي قط الى اشارة مرور واذن بالعمل والاقامة . ولا يمكن وصف التمزق الذي عرفه الوطن العربي في الماضي بالتمزق السياسي لما لهذه الكلمة في هذه الايام من معان ، بل ان الامر لم يتعد وجود حكام مختلفين هنا وهناك ، والفرق شاسع فيما بين تعدد الحكام وتباين مصالحهم ، والتمزق السياسي .

الحواشي :

- (١) ابن العماد الحنبلي (عبد الحي) ثلثات الذهب ، ج٢ ، الطبعة الثانية دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٩ ص ٥٤-٥٢ .
- (٢) ابن الخطيب (لسان الدين) أعمال الاعلام ج٢ ، تحقيق احمد العبادي ومحمد الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص ٧٣-٥٩ . ثلثات الذهب ، ج٢ ص ٢٦٤ .
- (٣) ابن دحلان ، خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ٢٠ .
- (٤) المسعودي (علي بن الحسين) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٤ ، تحقيق شاول بلا ، بيروت ١٩٧٣ . الجاحظ ، كتاب المشامة ، (تح) عبد الله محمد حارون ، طبعة مصر ١٩٥٥ ، ص ١٣٦
- (٥) العفدي (صلاح بن ابيك) الوافي بالوفيات ، ج٢ ، (تح) محمد بن عبد الله ومحمد بن محمود باعثناء س . ديدرينغ ، دمشق ١٩٥٩ ص ٢٠٧ .
- (٦) القفطي (علي بن يوسف) انباء الرواة على انباء النحاة ، ج٢ ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ ص ١٦٤-١٦٥ .
- (٧) المقرئ (احمد بن محمد) نفع الطيب من فطن الاندلس الرطيب ، ج٣ (تح) احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٨ ص ١٤٢ .
- (٨) انظر عددا من الامثلة ، ابن مخلوف (محمد) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، الطبعة الاولى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ١٢٤٦ هـ ص ٩٧ .
- (٩) شجرة النور الزكية ، ص ١٢١ .
- (١٠) يعقوب (جورج) اثر الشرق في الغرب خاصة في القرون الوسطى ، ترجمة فؤاد حنين علي ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٦ ص ٩٧ .
- (١١) الحميري (محمد بن عبد المنعم) السروض في خبر الاقطار ، (تح) الدكتور احسان عباس ، دار العلم للطباعة ، بيروت ١٩٧٥ ص ٥٨٣ . وانظر حول بعض التجار المصريين الذين اتجروا مع الاندلس : ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب العسلة ، ج٢ ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٣٩ .
- (١٢) نفع الطيب ، ج٢ ص ٢٤ .
- (١٣) البكري (عبد الله بن عبد العزيز) صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ص ١٨٨ .
- (١٤) الوهراني (محمد بن محمد) منامات الورهاني ومقاماته ورسائله ، (تح) ابراهيم شعلان ومحمد نفشي ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ ص ١١ .
- (١٥) البتنوني (محمد لبيب) رحلة الاندلس ، الطبعة الاولى ، مطبعة الكشكول ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ١٣٧ . محمد عبد الله منان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ق٢ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٤ ص ٦٣٧ .
- (١٦) ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله الطنجي) مهلب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار ومعجائب الاسفار ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ ص ٣٦٠ .

- (١٧) السيوطي (جلال الدين) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج ٢ (تح) محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب المرفقة ، القاهرة (بت) ص ٢٢٤ . اليونيني (موسى بن محمد) دليل مرآة الزمان ، ج ٢ ، الطبعة الاولى ، حيدوا باد - الدكن ١٩٦٠ ص ٢٥٢ . ابن حجر (احمد بن علي) انباء الغر باتباء العمر ، ج ١ (تح) حسن حبشي ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٤ .
- (١٨) التجويد الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ وما بعدها . الخطط المقرزية مجلد ١ ص ١٧٢ .
- (١٩) سورة البقرة (الاية ٦١) .
- (٢٠) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
- (٢١) ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) كتاب العبر والبتدا والخير ، ج ٢ ، بيروت (بت) ص ١١٩ .
- (٢٢) الروض المطار ، ص ٤٥-٤٦ . والحسبة هي من الوظائف التي ينظر صاحبها (الحاسب) في الرقابة على جميع النشاطات الاقتصادية وبعض الاعمال الاخرى كالاشراف على السقائين ومعلمي الصبية والسباحة والمكايل والموازين والاقوات ودار العدل (صبح الاعشى ٥/٥١) .
- (٢٣) فتح الطيب ج ٢ ص ٦٢٩
- (٢٤) الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ١٠٠ وما بعدها .
- (٢٥) الوافي بالوفيات ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .
- (٢٦) ابن فهد ، لعنذ الاحاظ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (بت) ص ٨٤ . والدواذارية وظيفة يشرف صاحبها على مصالح السلطان وينفذ ما يأمره به ولا يكتفه شيئا ولو كان على نفسه (التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٥٠) .
- التصور لاجين هو احد سلاطين الممالك الذي حكم سنتين وشهرين ويسمى ايضا علم الدين منجر الدواذاري (السلوك المرفقة دول الملوك ج ١ قسم ٢ ص ٨٢٧-٨٥٩) .
- (٢٧) المقرزي (احمد بن علي) السلوك المرفقة دول الملوك ، ج ١ قسم ٢ ، (تح) محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٨٢-٨٨٣ .
- كتابة السر وظيفة يقوم بها صاحبها بادارة ديوان الانشاء التي تصدر عنه جميع الرسائل والكتايب الداخلية والخارجية (المنتقى من صبح الاعشى لعبد القادر زكار ١/٦٢) .
- الطبلخاناه وظيفة ديوانية موضوعها التحدث في استخراج الاموال السلطانية ، ويكون صاحبها رفيقا للوزير ويكون امير طبلخاناه او امير عشرة ، وتقابل في يومنا المير او معاون الوزير (ولاية دمشق في عهد الممالك ص ٢٦) .
- موقع الدست هو الذي يجلس مع كاتب السر بدار العدل امام السلطان او النائب بمملكة من الممالك (المنتقى من صبح الاعشى لعبد القادر زكار ١/٦٢) .
- (٢٨) انباء الغر ، ص ٢٩٥ .
- (٢٩) ابن قاضي شهاب ، التاريخ ، مجلد ٣ من المخطوط ، (تح) عدنان دويش ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٧٧ ص ٤٤٦
- (٣٠) ابن حجر (احمد بن علي) الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة ، ج ١ (تح) محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٠٧-٢٠٨ .

- (٢١) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع ، ج١٠ ، مكتبة المنى ، القاهرة ١٣٥٤ هـ ص ٢٢١-٢٢٢ .
- (٢٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ ، قسم ١ ، فتح سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٨٠ ص ١٢٨ .
- (٢٣) الوافي بالوفيات ، ج ٢ ص ١٨٠ .
- (٢٤) الدرر الكامنة ، ج ٤ ص ٢٦٦ . ابن فرحون (علي بن محمد) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، ج ٢ ، (تح) محمد الأحمد أبو النور ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٢١٧ . الداودي (محمد بن علي) طبقات الفسرين ، (تح) علي محمد عمر ، الطبعة الأولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٢١ .
- (٢٥) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣١٠ .
- (٢٦) ابن القاضي (أحمد بن محمد) ذيل وفيات الأعيان المسمى ذرة الحجال في أسماء الرجال ، ج٢ ، (تح) محمد الأحمد أبو النور ، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١ ص ١٨٧ .
- (٢٧) المرجع السابق ج ١ ص ٤٧ .
- (٢٨) ابن قاضي شعبة ، مجلد ٢ ، ص ٤١٢ . ابن تغري بردي (يوسف الآتابكي) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصورة من طبعة دار الكتب بوزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق ، ص ٨٠ .
- (٢٩) أنباء القصر ، ج ١ ص ٤٢٠ .
- (٣٠) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ قسم ١ ، ص ٢٢٤ .
- (٤١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٢ وما بعدها . أنباء القصر ج ٢ ص ٢٢٦-٢٤٠ . الضوء اللامع ج ٤ ص ١٤٥ وما بعدها . شذرات الذهب . ج ٧ ص ٧٦-٧٧ .
- (٤٢) النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ص ٤٦٨ .
- (٤٣) السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ، القاهرة ، (بت) ص ٢٧-٤٠ .
- (٤٤) الضوء اللامع ، ج ٨ ص ٢٢٦-٢٢٧ .
- (٤٥) السخاوي ، الدليل على رفع الأمر ، (تح) جودت هلال ومحمد محمود صبح ، الدار المصرية للتأليف والنشر (بت) ص ٢٥٨ وما بعدها .
- (٤٦) الضوء اللامع ، ج ٩ ص ٢٦٩ .
- (٤٧) الدليل على رفع الأمر ، ص ١٩٨ وما بعدها . الضوء اللامع ج ٩ ص ٧٦ وما بعدها .
- (٤٨) الضوء اللامع ، ج ١ ص ١٦١ وما بعدها .
- (٤٩) انظر حول هذا الأمر : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ٢٩-٤٠ .
- (٥٠) أنباء القصر ، ج ١ ص ٤١٨ .
- (٥١) المرجع نفسه ، ج ١ ص ٢٧٤ .

- (٥٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ قسم ١ ، ص ٣٧٢-٣٧٣ .
- (٥٣) النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ص ٣٢٤ وما بعدها .
- (٥٤) المرجع نفسه ، ج ١٤ ص ٤ وما بعدها .
- (٥٥) المرجع نفسه ، ج ١٤ ص ٣٤٥-٣٦٢ .
- (٥٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ قسم ٢ ص ٨٨٨ .
- (٥٧) ابن الأبار (محمد بن عبد الله) المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدي ، القاهرة ١٣٦٧ ، ص ٢٤-٢٣٥٢ .
- (٥٨) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢٢ قسم ١ ص ٢٢٦ .
- (٥٩) المصدر نفسه ، ج ٢ قسم ٢ ص ٥١٤ .
- (٦٠) ابن قاضي شبة ، مجلد ١ ج ٢ ، ص ٥٠٩ وما بعدها . انباء القمر ، ج ١ ص ٤٧٠ .
- (٦١) ابن جبير (محمد بن احمد) رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٢٤-٣٥ .
- (٦٢) ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٨٦ .
- (٦٣) ابن كثير (اسماعيل بن عمر) البداية والنهاية ، ج ١٤ ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٣ ص ٥٥ .
- (٦٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ قسم ١ ص ١١٢ .
- (٦٥) المصدر نفسه ، ج ٢ قسم ١ ص ١٢٩ .
- (٦٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٩ .
- (٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٥-١٧٦ .
- (٦٨) المصدر نفسه ص ٤٢٠ .
- (٦٩) التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ١٢٨ .

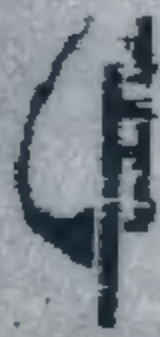
دراسات تاريخية

. مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

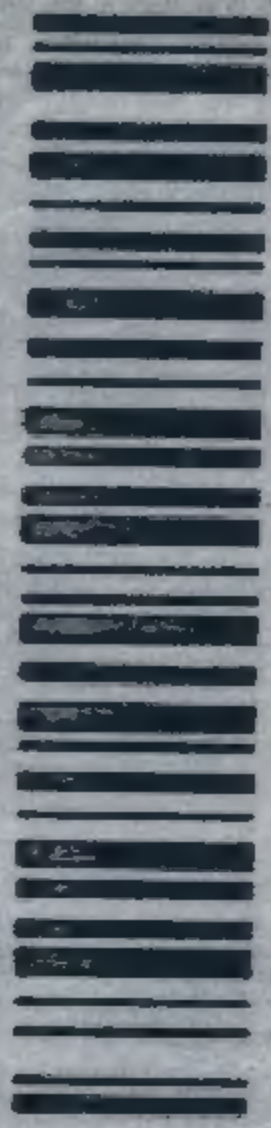
تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

رئيس جامعة دمشق ، رئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق ، د. أحمد بدر ،
د. خيرية قاسمية ، د. شاكر الفحام ، د. عادل زيتون ،
د. عادل عوا ، د. عبد الكريم رافق ، د. محمد حرب فوزات ،
د. محمد خير فارس . محمد محفل ، ناظم كلاس ، د. نبيه عاقل .

السنة الثامنة ، العددان ٢٧ و ٢٨ ، ايلول - كانون الاول ١٩٨٧



Bibliotheca Alexandrina



0536052